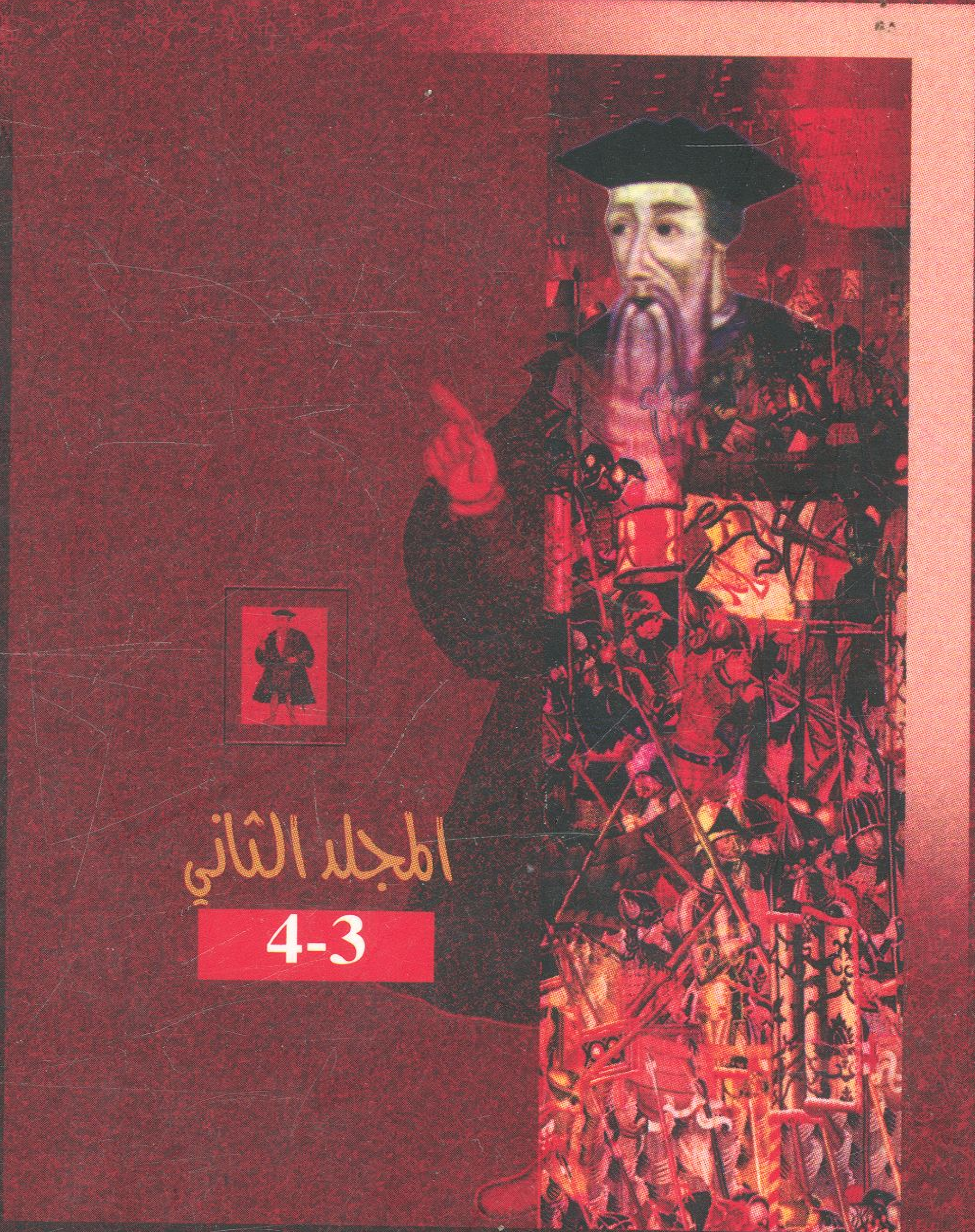


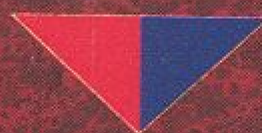
السجل الكامل لأعمال

أفونسو دلبوكيرك

ترجمة

د. عبد الرحمن عبدالله الشيخ





السجل الكامل

لأعمال أفونسو دلبوكيرك
ثاني نائب للملك البرتغالي في الهند

ألّفه وجمع وثائقه من أرشيف لشبونة
والمصادر الأرشيفية الملكية:
ابنه غير الشرعي

ترجمه عن البرتغالية:
والتردي جراي بيرش

ترجمه إلى العربية وقدّم له :
د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الجزء الثالث

السجل الكامل

لأعمال أفونسو دلبوكيرك

ثاني نائب للملك البرتغالي في الهند

مقدّمة الترجمة العربية

في هذا الجــزء الثالث – كما كان الحال في الجزأين الأوّل والثاني – استخدم المؤلِّفُ بعضَ المصطلحات استخْداماً خاصّاً لابُدّ من توضيح مساره التاريخي حتى يتذوّق القارىء العربي مضامينها . ونشير هنا إلى مصطلح "المرتدِّين rengades" الذي أكثر المؤلِّف من استخدامه . لقد سبق أن قرأنا في الجزْأين الأوّل والثاني عن جنود وذوي رُتب من أسطول أفونسو دلبوكيرك يهربون إلى هرمز مُعلنين إسلامهم ومشاركين أهل البلاد جهادهم ضد البرتغاليين ، ووجدناهم في السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية يحاربون مع أهلها ويتولّون أمر المدافع ، بل لقد صنعوا في هرمز للمسلمين مدافع على النَّسَق البرتغالي .

وها نحن أولاء نرى هذا الصِّنف نفسه على سواحل الهند ، إذ هرب عدد من البرتغاليين وشكّلوا حركة وانضمُّوا لجيوش العادل خان وراحوا يُحاربون معه وظلّوا ضمن جيوشه بعد نجاح أفونسو دلبوكيرك في الاستيلاء على (جوا) للمرّة الأولى ، وأسهموا في طرد البرتغاليين من (جوا) أوّل مرّة ، ولما عاودَ البرتغاليون الاستيلاءَ عليها ظلّوا مع إخوانهم المسلمين إلاّ أنّ ظروفاً قاسية اضطرت رسول خان قائد جيوش العادل خان لتسليم عدد منهم لأفونسو دلبوكيرك الذي أصرَّ على الاّ يسمح للمسلمين في حصن (بيناستاريم) بالخروج الآمن الا بعد تسليم هؤلاء "المرتدين renegades أو renegados" وكل ما استطاع رسول خان أنْ يفعله لإنقاذ حياة هؤلاء المسلمين البرتغاليين هو أن يشترط على أفونسو دلبوكيرك الاّ يقتلهم ، وهو تصرف العاجز اليائس على أية حال ، وأقد أوْفى أفونسو دلبوكيرك بعهده فلم يقتلهم ، لكن أي وفاء ؟! لقد أمر بنزع شعر الواحد منهم شعرةً شعرة ، ومن الجذور ، شعر الرأس وشعر اللِّحى

على سواء ! وأمر أن تُملأ جروحهم وآذانهم وعيونهم وأفواههم طيناً ، وأمر بكل منهم فقُطعت يده اليمنى ، وإبهام يده اليسرى ، وجرى التركيز على فرناو لوبيز Fema'o Lopez الذي وُصِف بأنه قائد حركة "المرتدين" وقُطب رحاها فكان نصيبه من العَذاب بالإضافة إلى ما أسلفنا أن تعرّض لإهانات أخرى جمّة .

وقد توقّف الأستاذ المترجم في تعليقاته عند شخصيّة فرناو لوبيز الذي رفض العوْدة إلى البرتغال رغم أنّ له فيها زوجةً وأولاداً ، وانتهز فرصة وقوف السفينة العائدة إلى البرتغال في جزيرة سانت هيلانه للتزوّد بالمياه ، فهرب إلى الجزيرة واستقرَّ فيها ، وبنى له فيها ممّا توفَّرَ له مكاناً متواضعاً للعبادة ، واختبأ عن أعين البرتغاليين ، فكان إذا حطّت سفنهم أوْغل بين الأشجار والحشائش الطّوال مبتعداً حتى لا يرى منهم أحداً . ويقول مؤلّف هذا الكتاب وكذلك الأستاذ بيرش في تعليقاته أن البرتغاليين لم يتركوه في حاله وحاولوا نقله للبرتغال لكنّه أبى ، ورغب ملك البرتغال في رؤياه لأنّه كما قيل له أصبح كالإنسان البدائي مهوّش الشّعر غير مهذّب اللّحية ، ورضخ الرجلُ ، وأراد الملك أن يُودعه ديراً للرهبان فأبى ، وأرسله للبابا في روما ، فتوسّل فرناو لوبْيز أن يعيدوه إلى الجزيرة حيثُ كان ، ورضخَ الملكُ لشفاعة البابا فأعادوه إليها . لا يُمكن أن نقول شيئاً سوى أنّ عِلمه عند ربّي في كتابٍ لا يضلُّ ربّي ولا ينسى .

والأستاذ بيرش مترجم الكتاب ، وكذلك المؤلف يذكران أنه أوّل من استوطن جزيرة سانت هيلانه ، وأنه استصلح بأصابعه الأربعة أرضاً ، وربّى قطعاناً ، واستنبت نباتاً وعاش وحيداً ، ومات وحيداً ..

المهم أنّني لم أسترح نفساً لإطلاق لفظ المرتدين على هؤلاء رغم أنها الترجمة الحرفية ، وكنت حائراً هل أقول المتحوّلون إلى الإسلام أم العائدون إليه ؟ فمن المعروف أنه بعد سقوط الأندلس ظلّ عدد كبير من المسلمين في إسبانيا والبرتغال ، وقد أُجبر بعضهم على التحوّل إلى المسيحية ، فتحوّل بعضهم ظاهراً ، والذين يؤرخون لهذه الظاهرة لا يمكن أن يكون تأريخهم صحيحاً الاّ بمتابعة نشاط هؤلاء خارج الأندلس نفسها . لقد عادوا لدينهم الحنيف عند أوّل

بارقـة أمل . إن هذا الكتـاب الذي بين أيدينا يُضـيف أبعـاداً جـديدة لتـاريخ الإسـلام والمسلمين على امـتداد العـالم الاسـلامي كله فـي هذا القـرن السـادس عشر .

***

ورد في مقـدمة الترجمـة العـربية للجـزء الأول أن هذه الحـروب البرتغـالية في جنوب الجزيرة العربية وفي الهند وملقى إنْ هـي إلا استمرار للحروب الصليبية الوسيطة ، وهذا الجزء الثالث الذي بين أيدينا يُعفينا من أيّ استنتاج ، فـهو يذكر هذه الحقيقةَ واضحةً صارخةً لا لَبْس فيها ، فعقب استيلاء البرتغاليين على ملقى سنة ١٥١١م أجرى البابا ليو العاشر موكباً جليلاً حضره بنفسه واحتفالاً دينيّاً لا مثيل له كان هو على رأسه وحضره ممثلون عن مختلف دول أوربا ، والشيء الغريب أنَّ فُرساناً من فارس اشتركوا في هذه المواكب فَرَحاً وابتهاجاً بسقوط ملقى في يد البرتغاليين ، والذي يهُمّنا في هذا الصدد الخطبة الرسمية التي أُلقيت في حضرة البابا وعدّد قائلها انتصارات البرتغاليين وركّز على ما سفكوا من دماء المسلمين خاصة وناشد البابا أنْ يعمل على وقف الحروب بين الدول الأوربية لتوجيهها للعدو المشترك ، وعلّق الأستاذ بيرش (المترجم من البرتغالية) على ذلك قائلاً إن هذه لم تكن هي الدعوة الأولى لحرب صليبية Cru-sade فقد سبقتها دعوة البابا بيوس الثاني سنة ١٤٥٩م التي كانت قد بدأت بالفعل تدخلُ حيِّزَ التنفيذ لَوْلا موتُ البابا فجأة ، وخوف الأوربيين من التوغلّ العثماني في شرق أوربا . وتردد في هذا الكتاب أكثر من مرّة عبارة المملكة المسيحية الشاملة Christiandom ، ولم يجد أفونسو دلبوكيرك لحث جنوده على اقتحام ملقى من دعوتهم لإخراج اسم محمد "صلى الله عليه وسلم" Mafa-mede من هذه البلاد ، وخطبهم في مناسبة أخرى داعياً لإخماد نار نحلة محمد Mafamido أو Mafamede .

***

وفي هذا الجزء نقرأ عن تحالف مُقْترح بين الحبشة وقوات البرتغال لهدم بيت مكة (المقصود الكعبة المشرّفة) ، وفشل المشروع ، ولا يَسَعُ المرء إلّا أن يتوقفَ كثيراً أمام الخزْي الذي حاق بهذا المبعوث الحبشي وكأنما قد رتبته له الأقدار .

لقد ضلّ هذا السفير الحبشي حامل رسالة طلب هدم الكعبة فوصل إلى دابول Dabul بدلاً من جوا ، ولم يُكرّمه المسلمون هناك رغم عدم علمهم بنيّته واحتجزوه وأخيراً تدخل البرتغاليون وأطلقوا سراحه ليصل إلى جوا فيستقبله أفونسو دلبوكيرك استقبالاً حافلاً لأنه جلب معه قطعة خشب قال إنها من الصليب الأصلي ، لكن معظم البرتغاليين تشكّكوا في أمره وأصرّوا على أنّه جاسوس أرسله سلطان مصر المملوكي ، وكان اسم هذا السفير ماتيوس Ma-teus (وهو اسم شائع بين مسيحيي الشرق واسمه العربي متّى وهناك انجيل يحمل هذا الاسم) وكان أبيض اللون وربما كان هذا هو سبب تشكك البرتغاليّين فيه ، وقد استجوبه أفونسو دلبوكيرك ، ثم أرسله إلى ملك البرتغال على متن إحدى السفن ، وكان مع هذا السفير متى (أو ماتيوس) زوجته وفي السفينة قيّدوه بالحديد في إحدى المناسبات وأهانوه . ويذكر المؤلف أنهم فعلوا معه أموراً "يعفّ اللسان عن ذِكرها" وقالوا إنه يتحدث كشخص مُقحم على المسيحية، بل وجزموا أنه مسلم ، ولم يكن ذلك صحيحاً ، على أية حال عندما وصل إلى البرتغال كرّمه ملكها وعاقب من أهانوه وأعاد معه سفيراً برتغالياً للحبشة ، ولم يصل متّى إلى بلاده لأنه مات في مضايق البحر الأحمر ، ربما كمداً لما أصابه من إهانة ، وكان ملك الحبشة قد أورد في خطابه الذي حمله هذا السفير النَّحِس أنه يريد توثيق العلاقات مع التاج البرتغالي بتزويج أبنائه من بناته ، ولم يستجب الملك البرتغالي لهذا الطلب .

هنا لابُد من وقفة. لماذا تشكك البرتغاليون في الهند في غالبهم في أنّه حبشي بل وجزموا أنه جاسوس لسلطان مصر ؟ ولماذا قالوا إنه غير مسيحي أو على الأقل مسيحيّته غير مسيحيّتهم (أنظر الفصل ٥٤) ، لفهم هذا لابُد من إيراد بعض السياقات التاريخية . لقد قال هذا السفير إنه أخو بطريارك الحبشة ،

وكنيسة الحبشة الأرثوذكسية تابعة لكنيسة مصر ، وهي -أي كنيسة مصر- التي ظلّت حتى منتصف القرن العشرين تقريباً هي التي تُعيّن المسؤول الديني الأكبر في الحبشة ، وفي مثل هذه المسائل لابُد من الرجوع إلى مراجع مسيحية ، فنحن نقرأ في دائرة المعارف الكتابية التي ألفها عدد من القُسس ما يأتي :

" الكنيسة في إثيوبيا : دخل النفوذ السامي إلى الحبشة في القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد ، كما سبق القول . ويدعي ملوك أكسيوم أنهم سلالة منليك بن سليمان . ولكن أول معلومات أكيدة عن مملكة أكسيوم ، ترجع إلى منتصف القرن الأول الميلادي ، حين كانت أكسيوم عاصمة غنية ، واحتفظت بقداستها القديمة حتى إن ملوك الحبشة منذ ذلك الوقت حتى القرن التاسع عشر كانوا يذهبون إليها ليتوجوا فيها . وليس هناك ما يدعو إلى الشك في أن فرومنتيوس (قرابة ٣٣٠م) كان أول من أدخل إليها المسيحية . فحسب الروايات القديمة ، حدث عندما كان ميروب الصوري راجعاً من الهند مع ابني أخته ، أن وقع في الأسر وقتل ، وأخذ الولدان إلى ملك الحبشة ، وقد هلك أحدهما ، أما فرومنتيوس فقد نجح في هداية الشعب إلى المسيحية ، فرسمه القديس أثناسيوس بطريرك الإسكندرية أول مطران لإثيوبيا باسم "أبي سلامة" (أي أبو السلام) . ومنذ ذلك الوقت حتى منتصف القرن العشرين – بدون انقطاع تقريباً – ظل "أبونا" يعيّن بواسطة بطريرك الإسكندرية . ومنذ القرن الثالث عشر كان يلزم أن يكون قبطياً . "

فالرجل قد يكون مصرياً قبطياً بالفعل أو من أصول مصرية فهو أبيض والبياض في المصريين غير قليل ، ولم تكن الكنيسة فيما يقول قس آخر على علاقة طيبة بالدولة في ذلك الوقت (أنظر تاريخ الكنيسة القبطية للقس المصري منسي يوحنا) يقول :

"يوحنا ١٣ – البطريرك الرابع والتسعون :

استحق نوال هذه الوظيفة السامية لأنه كان محسناً على الجميع بدون استثناء

وأصلـه مـــن بلدة صـدفا بمديريـــة أسيـوط واقيم بطريركـــاً في ١٥ أمشـير سنة ١٢٠٠ش ، ١٤٨٤م في عهد الملك الأشرف .

وكانت العلاقة بين الكنيسـة الحبشية وأمها الكنيسة القبطية في ذلك الحين فـاترة بسـبب تتـابع إغـارات ملـوك مصـر على بلاد الحـبش . فسـعى داود ملك الحبشة وعقد محالفة مع البرتغاليين لينتصر بهم على ملوك مصر المسلمين فنزح كثيرون من البرتغـاليين إلى بلاد الحبش ولما رأوا هذه المملكة بدون رئيس ديني حرّضوا ملكها على قبول مطران على الحبشة من البرتغاليين المقيمين في بلاده وفعلاً طلبوا منه أن يطلب من أسقف رومية أن يُكرّس له مطراناً وكان الاختيار قد وقع على رجل برتغالي ببلاد الحبش يدعى يوآس برموذز فسافر إلى رومية فرسمه اسقفها مطراناً على الحبشة وسمّاه بطريرك الإسكندرية . فعد القبط والروم هذا تعدياً من أسقف رومية وأنكروا عليه الحق في ذلك وأبوا معرفة الشخص الذي عيّنه بأية صفة . ومن تصرف أسقف رومية هذا يتضح كذب مؤرخي الكاثوليك الذين يدعون أن الكنيسة القبطية في ذلك الوقت كانت خاضعة لكنيستهم إذ لو كان ذلك صحيحاً لما كان هناك موجب لتسمية بطريرك غير بطريركها القبطي أو كان يجب على أسقف رومية عزله قبل تعيين سواه .

أما البابا يوحنا فاستمر على الكرسي البطريركي مجاهداً في سبيل رفع مقام كنيسته مدة أربعين سنة إلا أربعة أيام أتم فيها إصلاحات شتى ووضع مؤلفات كثيرة في الدين المسيحي ثم توفي في ١١ أمشير سنة ١٢٤٠ش ، ١٥٢٤م واستمر كرسي الرئاسة خالياً بعده سنة وثمانية أشهر .. "

لقد كانت هناك إذن تأثيرات برتغالية على الكنيسة الحبشية وقت إرسال هذا السفير النَّحِس حامل اقتراح هدم "بيت مكة" أي الكعبة شرّفها الله .

***

ورغم أن محور الجزء (الثالث) هو أحداث الهند وملقى إلاّ أنه يضم معلومات مفيدة عن هرمز والجنوب العربي ففيه إشارة لتبعية جزيرة سقطرى لـ (قَسَم) (بفتح القاف والسين غير المعجمة) ومن المفهوم أنها غير قشم (بالشين المعجمة الجزيرة المعروفة في الخليج) فقسم هو إحدى الكيانات السياسية في اليمن في هذه الفترة . كما أن فيه إشارات متكرّرة لخوجة عطار وحركة التجارة مع هرمز ، ويضيف الأستاذ بيرش بتعليقاته الثَّرة صفحات عن تاريخ العلاقات اليابانية الصينية في هذه الفترة والصراع على جزر شرق آسيا .

***

يفهم القارىء من الجزء الأول (مقدمة الترجمة الإنجليزية) أنّ مؤلّف هذا الكتاب الذي بين أيدينا اسمه أفونسو دلبوكيرك (الصغير) كذلك وهو ابن أفونسو دلبوكيرك (الكبير) أي أن الولد يكتب عن سجل أبيه وأعماله ، وهو أي المؤلف وإن كان ابناً غير شرعي natural Son إلاّ أن أمّه فيما يبدو قد أوصته بأبيه كثيراً ، فهو دائم الدفاع عنه ، دائم التماس الأعذار له ، وهو برتغالي بطبيعة الحال ، ومتعصب كما هو واضح من سرده للأحداث ، لذا لزم الإشارة إلى ذلك هنا مرّة أخرى والتنوية بطبيعة المؤلف ، ليضع القارىء ذلك في اعتباره عن قراءة الكتاب ، فهذا يُغنينا عن الإكثار من تعليقات مكرّرة مُعادة ، فالمؤلف عدو للإسلام ولاشك ، مناوىء للمسلمين ولاشك ، استعماري ولاشك .

***

عظام الكابال Cabal وأسرار الشرق :

ومثل هذه الكتب الشاملة لا تخلو من موضوعات أخرى يقتضيها الاستطراد ، كما يقتضيها الإلمام بأطراف الموضوع ومن ذلك أنّ المؤلف ذكر لنا أنّ

البرتغاليين وجدوا مع أحد المسلمين شديدي البأس -الذي قاومهم ببسالة- سواراً من عظام يمنع سيلان الدم من لابسه مهما جُرِح وطالما كانت هذه العظام متصلة بجسده . يقول الأستاذ بيرش في مقدمته ملخصاً هذا الأمر :
"لقد أعلم .... هؤلاء البرتغاليون أفونسو دلبوكيرك باشتراك هذا النوخذة المسلم في مؤامرة لتدمير ديوجو لوبيز ... وتراجعه إلى باسي 'Pace .. فبذل جهوداً كبيرة للإيقاع به ... وبعد مواجهة حادة هُزِم فيها العدو ظهر المشهد العجيب ، أنه مشهد الهارب النوخذة بيجا ، وقد جُرِح جروحاً قاسية وشبه ميت ، لكن لم يكن هناك أي دم ينزف من جسده المشوّه ، فنظر إليه أفونسو دلبوكيرك مندهشاً أن هذه الحالة التي لا يوجد سبب واضح لها ترجع إلى وجود أساور مصنوعة من عظام حيوان كابال Cabal .. وقد أرسل أفونسو هذا السوار العجيب إلى ملك البرتغال ، ولكنه فُقِد في أثناء الرحلة .." .

ومثل هذه الأمور لا يجب الاكتفاء باعتبارها من الخرافات وإنما هي أفكار مطروحة للمهتمين بالطبّ الشعبي وطب الأعشاب وما إلى ذلك ، لِيُخْضعوها للدراسة والبحث والتجريب .

ورغم أن هذا الجزء يغطي أحداثاً لا تزيد مدّتها عن ثلاث سنوات ، إلاّ أن تعليقات الأستاذ بيرش زادته عمقاً وأضافت إليه دروساً وعبراً قدّمها لبني وطنه الإنجليز فحدّثنا عن تاريخ سقطرى وأهميتها للاستعمار البريطاني ومن ضرورة استفادة البريطانيين من التجربة البرتغالية في استعمار الهند ، وشرح لنا بالتفصيل (المُملّ) كيفيّة صُنع الملاويين للكريس Cris أي الخنجر الملاوي وكيفية سقيه بالسّم وكيف أنّ ذلك مرتبط بطقوس معيّنة وأيّام بعينها بطريقة يختلط فيها العلمُ بأمور غيْبيّة ، وحقّق لنا المؤلف نصوصاً من مخطوطات برتغالية أوْردها الأستاذ المترجم بلغتها كما هي ، لأنه أفرغ محتواها في صلب الكتاب .

ملحق رقم (١) عن وصف ملقى من مخطوط بترو باريتو دي ريزندي Pedro Barretto de Resende الذي يحمل العنوان الآتي :
Livro Do Estado Da India Oriental وهو في مجموعة مخطوطات سلون

Sloane ويحمل رقم (١٩٧) ، وقد أورد في الهوامش الجانبية أرقام الأوراق .

أما الملحق الثاني فعن وصف جزيرة جوا من المخطوط الآنف ذكره تعرّض فيه للممرّات التي تربط الجزيرة بالبر الرئيسي بالتفصيل . وكان من المُفيد إيراد هذه النصوص كما هي فقد يستفيد منها الباحثون الذين يعرفون البرتغالية أو يستعينون بمن يعرفها لمزيد من التوثيق والدراسة الجادة لهذه المناطق الهندية والمالاوية المهمّة .

***

وكان بين يديّ عند ترجمة هذا الجزء مجموعة الأطالس التي نوّهت عنها في مقدمة ترجمتي للجزأين الأول والثاني ، لكن تعليقات الأستاذ بيرش أغنتني عن التعليق بدوري على هذه المواضع ، وإن كُنت قد استعنتُ بالفهارس التي أعدّها أنستاس ماري الكرملي لكتاب (بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولّى ملك اليمن من ملك أو إمام) للإلمام بشيء عن قسم (بالسين غير المعجمة) في اليمن ، كما استعنت في توضيح أمور عن الحبشة بمرجعين أصيلين كتبهما مسيحيون أرثوذكس ، وعن الخلاف بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية جعلتُ الرأي لكاتب من الملّة نفسها أيضاً .

والحمد لله رب العالمين ، وعليه قصد السبيل .

د.عبدالرحمن عبدالله الشيخ

مُقدِّمةُ الترجمةِ الانجليزيَّةِ

.... o grande Cavalleiro,
Que ao vento velas deu na occidua parte,
E la', onde infante o Sol da' luz primeiro,
Fixou das Quinas santas o Estendarte.
E com afronta do infernal guerreiro,
(Merce do Ceo) ganhou por forca, e arte
O aureo Reino, e trocou com pio exemplo
A profana mesquita em sacro templo.

*   *   *   *   *

O tempo chega, Affonso, em que asanta
Sia'o tera' por vo's a liberdade,
A Monarquia, que hoje o Ceo levanta,
Devoto consagrando a eternidade.
O, bem nascida generosa planta,
Que em flor fructo ha de dar a' Christandede,
E materia a mil cysnes, que, cantando
De vo's, se hira'o comvosco eternizando.

De Christo a injusta morte vingou Tito
Na de Jerusalem total ruina :
E a vo's, a quem Deos deu hum peito invitto,
Ser vingador de sua Fe' destina,
Extinguir do Agareno o falso rito
He de vosso valor a empreza dina :
Tomai pois o basta'o de empreza grande
Para o tempo que o Ceo marchar vos mande.
MALACA CONQUISTADA
pelo grande Affonso De Albuquerque.
Poema de Franccsco de Sa' de Menezes.

نقدم في هذا المجلد الترجمة الإنجليزيّة للجزء الثالث من (السّجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك الكبير) وهذا المجلد يواصل تناول ما يتعلق بهذا البطل البرتغالي استمراراً لما ورد في المجلدين السّابقين . لقد تناول الجزءان السابقان -بالفعل- ما يتعلق بغزو هرمز وجوا (كَوا) للمرّة الأولى ، وهنا في هذا الجزء الثالث يتعرّض الكتاب للغزو الثاني لجوا (كَوا) وامتداد الإمبراطورية البرتغالية إلى شبه جزيرة الملايو .

يبدأ هذا الجزء الذي بين أيدينا بعودة أفونسو دلبوكيرك إلى كانانور Canan-or ومنها أبحر بعشرين سفينة ليتوقف في أونور Onor ليتزوّد بالمياه والمؤن ، وعلم هنا (في أونور) من تيموجا Timoja ومن ملك جارسوبا Garcopa صديق البرتغاليين أنّ العادل خان قد أعدّ لمواجهة البرتغاليين قوّات هائلة (قرابة ثمانية آلاف مقاتل من الهنود ذوي الأصول التركية من آسيا الوسطى والروم وهم بقايا الحـملة المملوكـيـــة المصـريـــة التي هُزمت في ديو والمسلمين الهنود ، في

مواجهة ألف وسبعمائـــة برتغالي) فواصل ابحاره ماراً بأنجاديفا Anjadiva إلى نهر جوا (كَوا) .

وهنا عقد أفونسو دلبوكيرك مجلساً عسكرياً أسفر عن موافقة بالإجماع على ضرورة مهاجمة المدينة فوراً دون التّعْويل على تلقّي المساعدات التي وعد بها الزعماء المحليون ، وتم تقسيم القوات البرتغالية إلى ثلاث مجموعات دون معارضة كثيرة من القباطنة والقادة ؛ مجموعة بقيادة مانويل داكنها Manuel da Cunha ومـانويل دي لا كـيـردا Manuel de lacerda لمهـاجـمـة خطوط الاستحكامات بالقرب من الحِصن ، ومجموعة بقيادة ديوجو مندز دي فاسكو نسيلوس Diogo Mendaz de Vasconcelos لاجتياح أسْيجة الأوتاد الخشبية قُرب البحر ، ومجموعة ثالثة بقيادة نائب الملك (أفونسو دلبوكيرك نفسه) للاستيلاء على الاستحكامات الآنف ذكرها من الجانب .

وفي صباح اليوم التالي ٢٥ نوفمبر سنة ١٥١٠م تمّ تنفيذ الهجوم ، وكان المهاجمون في طليعة الجيش يحملون تمثال الحامي الوطني القديس يعقوب (جيمس) الأكبر ، وتم اقتحام الاستحكامات وتمّ إعمال السيف في كل مَن تصدّى للمهاجمين أما الذين فرّوا فقد غرق منهم خلق كثير في المخاضات والممرّات المائية ، فقد ذهب بهم الرعب كل مذهب : وفي خضم هذا النصر الرّائع الذي أحرزه البرتغاليون قُتل منهم سبعة ضباط ذكر منهم صاحب هذا الكتاب (السجل الكامل ...) على وجه التحديد د. جيرونيمو دي ليما D. Jeronymo de Lima ، وأندريه دي أفونسيكا Andre' de Afonseca وأنطونيو جراسز Antonio Graces وألفارو جوميز Alvaro Gomez بينما كان القتلى من العدو لا يقلون عن ألفين أي زهاء ربع القوّات الوطنية native .

ولم يهتم أفونسو دلبوكيرك أن يجعل له نصيباً من حصاد عمليات السلب والنهب التي أباحها عقب سقوط المدينة ، وتم الاستيلاء على كميات كبيرة من المدافع والذخائر والخيول ، وبما يتفق مع القوانين التي تبرر التعطّش لسفك الدماء ، والتي يظهر أنها حكمت هذه المناسبات ، لا في الهند وحدها بل في

بلدان أخرى يُقال إنها أكثر ما يكون تحضّراً في هذه الفترة -لم يكن هناك تسامح ، ولم يجرِ عفوٌ عن أحد من أتباع دين محمد* "صلى الله عليه وسلم" hatred sect of Mahomet فقتل البرتغاليون -بلا رحمة- رجالهم ونساءهم وأطفالهم وظل البرتغاليون والهندوس طوال أربعة أيام متواصلة يريقون دماء كل من وجدوهم من المسلمين عقاباً لهم على خيانتهم السابقة والتي جرت في أثناء فترة استيلاء البرتغاليين للمرّة الأولى على جوا ، ومن المؤكد أن عدد المسلمين - رجالاً ونساء وأطفالاً- الذين جرى قتلهم في هذه الأيام القليلة يزيد على ستة آلاف[1] . وفي هذه المناسبة قيل إن نائب الملك (أفونسو دلبوكيرك) قد ارتكب أعمالاً وحشية مرعبة ثأراً من أعدائه ، فقد أمر بحشد المسلمين الذين أسرهم الهندوس في أحد المساجد وأشعل فيه النيران بمن فيه ، وكان من بينهم واحد ممن كانوا قد هربوا إلى معسكر العادل خان عند استيلاء البرتغاليين على جوا (كَوا) للمرة الأولى ، وتحوّل للإسلام .

ولم يُضع أفونسو دلبوكيرك وقتاً فراح يحصّن المدينة ، ولعب كل البرتغاليين الذين معه دوراً في عمليات التحصين هذه من أعلى الرُّتب إلى أدناها ، وتم إنجاز كل المطلوب من أسوارٍ وأبراجٍ وخنادقَ في وقت قصير بشكل مُدْهش (كما هي موجودة الآن)* ويمكن للقارىء مراجعة خطّتها في جـ٢ ، ص٨٨ [2]** وفي أثناء الحفر ظهر صليب برونزي في بعض أساسات الجدران التي كانوا يهدمونها ، وكان هذا مدعاة لكثير من الدهشة ، وقد وصف كوريا[3] Correa اكتشافاً آخر شبيهاً بهذا في شهر نوفمبر سنة ١٩٢١م

---

* حفل هذا الجزء خاصة بإشارات متكررة لحقد مهول موجّه ضد الإسلام ونبيه محمد عليه أفضل الصلوات وأزكى السلام

(١) أنظر الفصل ٤ .

* زمن الأستاذ بيرش المترجم من البرتغالية .

(٢) أحد أكثر المؤلفات شمولاً عن جوا (كَوا) البرتغالية يحمل العنوان الآتي .

"An historical and Archaeological Sketch of the City of Goa, Perceded by a short statistical Account of the Territory of Goa, written by authorisation of the Government, by Jose' Nicolau da Fonseca, President of the 'Sociedade dos Amigos das Letras" Bombay, 1878. 8 Vo.

** جـ٢ ، فصل ١٦ .

(٣) Leudas da India, I,II,P.328

بالعبارات الآتية :

"Tambem o Gouernador n'estas naos mandou a ElRey huma caixinha de prata, e dentro metido hum corpo de crueificio, que foy achado per hum homem cauando pera fazer hum poco, e o achou tendo feito coua de tres bracas, que sa achou no inuerno, que foy d'esta maneyra: que cauando hum pobre homem pera fazer hum poco, tendo altura de tres bracas, achou hum corpo de crucificio de grandura menos de hum palmo, aberto por detra's, muyto gastado, e o rostro bom e barbas, e o braco direito polo cotouello so'mente, e o esquerdo inteiro e o corpo e pernas e pe's enteiros, e feito de hum metal que ouriues e lapidairos nanqua soubera'o conhecer, nem com o buril o podera'o descobrir, que nada entrava n'elle : o que fez grande espanto no Gouernador e todos os fidalgos, que caso podia ser em tal lugar terra de mouros de tantos annos, sem auer memoria que nunqua n'ella ouvesse christ'aos."

وأرسل أفونسو دلبوكيرك حاكم الهند للملك البرتغالي في هذه السفن عُلبة صغيرة من الفضّة عليها صورة مخلّصنا Our Savoir منقولة من الصليب الذي وجده رجل فقير كان يحفر -في الأساسات- بئراً . لقد عثر هذا الرجل على الصليب بينما كان يحفر على عمق ثلاث قامات (فازومات Fathoms) وكان هذا في موسم الشتاء في الظروف التالية . لقد كان هناك رجل فقير يحفر بئراً فوجد في أثناء حَفْرِه على عمق ثلاث قامات تمثالاً على شكل صليب لا يقل إرتفاعه عن (بَلْم) (طول الكف من الرسغ إلى أطراف الأصابع) مجوّفاً من الخلف وقديماً جداً لكن ملامحه ولحيته واضحتان ، وذراع الصليب اليمنى مكسورة عند المرفق أما من الناحية اليسرى فالذراع سليم وكذلك سائر الجسد والساقين والقدمين ، وتمثال الصليب هذا مصنوع من معدن لم يعرفه الصاغة ولا صاقلو المعادن لأن بَارِدي المعادن لم يستطيعوا أن يَبْرِدوا منه شيئاً . ولقد

أثار تمثال الصليب هذا دهشة كبيرة لدى الحاكم (أفونسو دلبوكيرك) وذوي الرتب ، فكيف كان وجوده في هذا الموضع ؟! فالمنطقة منذ أعوام طويلة تابعة للمسلمين ولم يعرف أنه قد قطنها مسيحيون أبداً . "

وقد قدم أفونسو دلبوكيرك هدايا مختلفة لدير بالميلا Palmela الذي يرأس التشكيل العسكري ذي الطابع الديني الذي يحمل اسم القديس ياجو (سانت ياجو Saintiago) ولكنيسة القديس نفسه في جاليسيا Gallicia إذ أهداها مصباحاً ومبلغاً من المال لتدبير الزيت له . وقد قدّم أفونسو هدية مماثلة (مصباحاً ومبلغاً من المال لتدبير زيته) في وقت لاحق بعد أن نجا من قذيفة مدفع كادت تقضي عليه .

ولقد أدت أخبار سقوط جوا (كَوا) في أيدي البرتغاليين إلى تغيير سريع في اتجاهات ملوك الهند وأمرائها نحو البرتغاليين . فقد أطلق ملك كمبي (كمبايا) سراح د. أنطونيو دي نورونها D. Antonio de Noronha ابن أخت أفونسو دلبوكيرك ، كما قدم موقعاً لبناء حصن برتغالي في ديو Diu ، كما أن استعدادات الأسطول التركي (المملوكي) التي كانت جارية للتصدي للبرتغاليين قد أوقفها سلطان القاهرة الكبير (السلطان المملوكي في القاهرة) . وظهر من الخطاب الذي أرسله أفونسو دلبوكيرك إلى العادل خان يُخبره فيها بوقوع جوا (كَوا) في قبضته ، وأنَّه عرض عليه احتكار تجارة الخيول المهمّة ، كما يُظهر هذا الخطاب بوضوح ارتفاع شأن البرتغاليين بعد هذا الحدث (الاستيلاء على جوا) . ولم يمض وقت طويل على هذا حتى أرسل العادل خان قوّة بقيادة ملِك يحيى* Meliqueaye لتحرير الجزيرة لكن البرتغاليين هزموها دون عناء كبير . وبسرعة كبيرة ودون أية عوائق تم إنشاء الحصن البرتغالي وإسكان الأسر الهندوسية في جوا (كَوا) (وكان أفونسو دلبوكيرك يُولي الهندوس عطفاً شديداً) وتدعيم حكومة الولاية (جوا) (فقد غدت -حقاً- ولاية) .

---

* اجتهاد من الأستاذ بيرش المترجم عن البرتغالية ، وربما كانت الكلمة مليكاي أيضاً . وملك بكسر الميم واللام ، وربما كانت الصيغتان صحيحتين (يحيى) الاسم ذو الطابع العربي الأسلامي ، ومليكاي الاسم ذو الطابع المملوكي . لاحظ أن العناصر التركية (ترك آسيا الوسطى) والمملوكية لعبت دوراً كبيراً في الصراع مع البرتغاليين .

ومكّن قدوم مرلاو Merlao (أو ملرهو "Milrrhau" كما ورد في أواخر هذا الجزء) وهو هندوسي من عنصر ملكي -مكّن أفونسو دلبوكيرك من أن يُكافىء الهندوس والنكوبار the native Hindoos & Nequibares ، وفي الوقت نفسه ليضمن لنفسه الحظوةَ بينهم إذ جعل أفونسو دلبوكيرك من مرلاو الآنف ذكره زعيماً للفلاّحين (ملتزماً) لقاء دَفْعه ثلاثين ألف جنية وهو مبلغ كبير بحساب تلك الأيام ، وإضافة حقيقية إضافية لعوائد البرتغال . لكن هذه الأمور لم تجعل نائب الملك (أفونسو دلبوكيرك) ينسى الأجزاء الأخرى من الهند التابعة له ، فقد أرسل بناء على تعليمات ملكية ديوجو فرناندز دي بيجا Diogo Fernandez de

---

(١) هذه الجزيرة كان البرتغاليون قد استولوا عليها في سنة ١٥٠٧م لكن ملكيتها آلت إلى سلطان قسم (* بالسين غير المعجمة - ومفهوم طبعاً أنها غير قشم "بالشين المعجمة" الجزيرة المعروفة في الخليج العربي/المترجم) وهي نطاق صغير على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية . وهذه الجزيرة (سقطرى) خارج خليج عدن وتقع على بُعد ١٥٠ ميلاً إلى الشمال الشرقي من رأس جوردفوي ويبلغ إمتدادها قرابة سبعين أو ثمانين ميلاً من الغرب إلى الشرق ، ومتوسط عرضها عشرون ميلاً أو خمسة عشر ميلاً .

ومساحتها ١٣٠٠ ميل مربع في غالبها هضبة مسطّحة يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر ما بين ٧٠٠ و ٨٠٠ قدم ، ويوجد شمال الهضبة المسطحة وجنوبها سهلان ، والسهل الشمالي ليس شديد الانخفاض كالسهل الجنوبي وليس مستوياً كاستوائه ويتقطع الوديان المستوية السطح في مواضع كثيرة . والمناطق الغربية من هذا السهل رغم أنها أقل جَدْباً من السهل الجنوبي إلاّ أنهاأكثر ملاءمة للرعي منه للزراعة . والمناطق الشرقية أجود تربة فلون تربتها حمراء وتغطيها -في مواسم معيّنة- أعشاب وافرة ، وهي ملائمة لزراعة الحبوب والفواكة والخضروات .

ويوجد الماء في معظم السهول الشمالية على عمق يتراوح بين ثماني قامات (قاروسات) وعشر قامات عن سطح الأرض . والمناخ شديد الحرارة شديد الرطوبة . وفي الغالب الأعم يستمر هبوط المطر يومياً في أثناء هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية وتتعرّض الجزيرة للرياح الموسمية الشمالية الغربية ، والرياح الموسمية الشمالية الشرقية مما يجعل رسو السفن غير آمن . وبالجزيرة زهاء ٥٠٠٠ نفس من عرقين محدّدين -أعني العرب الذين استقروا في الجزيرة ، والسكان الأصليين وهم بُداة يجولون بقطعانهم من جانب الجزيرة إلى جانبها الآخر ، وأهم منتجات الجزيرة هو الصبر من أجود الأنواع ، وأشجار دَم التنّين أو أشجار الأيْدَع (* يخرج من خدعه عصارة صمغية بحمرة الدم .. تستعمل في الطب - عن معجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية) والتمر الهندي والتوباكو والصمغ وفواكة مختلفة بالإضافة إلى بعض القطن والنيلة (تصنع منها الصبغة الزرقاء) ، وتشكل الخراف والعنز في المناطق الغربية الثروة الأساسية للسكان ، والثيران هنا صغير حجمها ويوجد في مختلف أنحاء الجزيرة سنّور الزَبّاد (Civet Cat) والحربلوات (جَمْع حَرْباء) وتوجد السّلاحف عند السّاحل الجنوبي وتكثر الأسماك في مواضع مختلفة على سواحلها وتعيش أُسر كثيرة على صيد هذه الأسماك . ولا يسكن في العاصمة تاماريدا (Tamarida) أكثر من مئة شخص وهي -العاصمة- غير بعيدة عن سواحل الجزيرة الشمالية .

ونظراً لأن الجزيرة تقع على مسار خط مواصلاتنا من البحر الأحمر إلى الهند ،

فقد ازدادت أهميتها بشق قناة السويس وهذا -بلا شك- مما دفع حكومة الهند في سنة ١٨٧٦م لعقد معاهدة يحصل بمقتضاها السلطان على إعانه مالية صغيرة مقابل ألاّ يسلّم سقطرى لأية قوى أجنبية وألاّ يسمح بإقامة مستقرات أجنبية فيها دون موافقة الحكومة البريطانية .

وقد قامت حكومة الهند (البريطانية) مؤخراً بإعادة احتلال الجزيرة وراح العلم البريطاني يخفق من جديد منذ مدة ليست بعيدة .

Be'Ja بأسطول من ثلاث سفن كي يُفكّ حصن سقطرى Socotra[١] .

لقد أدّى سقوط مدينة جوا (كَوا) المهمّة إلى تهاوي زاموريم* كالكتا Cu-morim of Calicut تحت قـدميْ أفـونسـو دلبـوكـيـرك في ذلك الوقت ، وأدت عروضه للسًلام إلى أن أرسل له أفونسو دلبوكيرك مبعوثه سيماو رانجل Sima'o Rangel لكن عند وصول المبعوث ، كان الزاموريم قد أزاح عن عينيه الغشاوة إلى حدٍ ما ، ولم يعد الرّعب يتملكه -إلى حدٍ ما- كما كان ، ونجحت مكائده في إطالة أمد المفاوضات التي لم تُكلّل بالنجاح إلاّ بعد فترة طويلة .

وقد أكتفى أفونسو دلبوكيرك بحصار كلكتا بأسطول صغير ربما كان غير كاف لأداء مهمّته ، وقد خَفَّ هذا الأسطول الصغير لنجدة حامية جوا المحاصرة هناك عندما ساءت الأحوال .

وثمّة عاهل هندي آخر اضطربت سياسته بشكل واضح من جرّاء النجاحات البرتغالية وهو ملك نارسينجا Narsinga الذي كان أفونسو دلبوكيرك قد أرسل له فراي لويس Fary Luiz في العام السّابق[١] فقد أسرع هذا الملك بعد شيء من المراوغة بعقد تحالف مع أفونسو دلبوكيرك لكن فراي لويس لم يعش حتى يعود فقد تم اغتياله بتحريض من العادل خان .

وبعد إرساء الحكومة المحلية للمدينة (جوا) والجزيرة بشكل مُرْض تم إهداء الكنيسة لروح القديسة كاترينا (سانت كاترين) الحامية (راعية البرتغاليين) التي أحرز البرتغاليون النصر في يوم ذكراها السعيد ، وتم تعيين المسؤولين في المناصب المختلفة وتم إمداد الحصن بالذخائر واتخذ إجراءات تشجع على عمران الجزيرة ، وأعاد إصدار العملة ، وكان قَصْد أفونسو دلبوكيرك هو أن ينطلق مُبحراً دون توان إلى البحر الأحمر لكن حدث أمران جعلاه يغيّر قصده ، وكان هذا التغيير ناتجاً عن الإنجازات العظيمة غير المتوقّعة التي أضافت تألّقاً جديداً لنائب الملك (أفونسو دلبوكيرك) بالإضافة إلى ما كان عليه بالفعل من تألّق وبريق .

* تطلق عليه بعض الكتب العربية اسم السّامري .

(١) أنظر جـ٢ ، فصل ١٧ .

وأحد هذين الأمرين هو ظروف استمرار أسْر روي دي أروجو Ruy de Arauj'o ورفاقه في ملقى Malaca بما لا يتفق مع مشورة نيناشاتو Ninachatu (أو نينابام "Ninapam" كما أسماه كوريا "Correa") المستشار الهندوسي لملك ملقى ، والأمر الآخر هو الرغبة الطبيعية التي أبداها ديوجو مندز دي فاسكونسيلوس Diogo Mendez de Vasconcelos الذي كان قد قدِم من البرتغال بأوامر خاصة للعمل على تخليص هؤلاء الأسرى ، وأن يتجه إلى ملقى دون تأخير ، رغم أن أفونسو دلبوكيرك استخدم سلطته فرغب في تأجيل هذه المهمة لوقت أكثر ملاءمة نظراً لأن المهمة كانت تحتاج لقوات أكثر من تلك التي في حَوْزة ديوجو مندز دي فاسكونسياوس .

ولم تنجح محاولة هذا الأخير الانفصالَ عن أسطول قائده الأعلى (أفونسو دلبوكيرك) مخالفاً بذلك الأوامر الصادرة إليه مخالفةً صريحة ، وقد أدّى هذا التصرف –بلا شك– إلى التأثير في تصرفات أفونسو دلبوكيرك بعد ذلك الذي غيّر خططه عندما وجد أن الرياح غير مواتية لرحلته إلى البحر الأحمر تلك الرحلة التي كان قد اعتزم القيام بها ، فبعد أن توقف لفترة قصيرة في كوشن (كوشيم) اتّخذ طريقه في خط مباشر بقدر ما استطاع إلى ملقى ووصل بأسطوله إلى بدير Padir على الساحل الشمالي لسومطرة Sumatra .

وفي هذا الميناء انتعشت آمال البرتغاليين بشكل ملحوظ نتيجة اللقاء غير المتوقّع مع جوآو فيجاس Joa'o Viegas وثمانية آخرين كانوا ضمن مجموعة صغيرة تحت رياسة روي دي أروجو Ruy de Arauj'o كانوا قد هربوا من السجن في ملقى . وقد أعْلَم هؤلاء الرجال أفونسو دلبوكيرك باشتراك النوخذة بيجا Nodabeguea Nodabegea المسلم في مؤامرة لتدمير ديوجو لوبيز دي سيكويرا Diogo Lopez de Dequeira وتراجعه إلى باسي 'Pace وهي ميناء مجاور وصل إليه الأسطول البرتغالي ، وبذلوا جهوداً فعّالة للإيقاع به في أيدي القائد (أفونسو دلبوكيرك) ، لكن عند تقدّم الأسطول نحو مياه ملقى بُوغتَ المسلمون به في سفينة جاوية (بانجاجوا) a pangajaoa وبعد مواجهة حادة هُزِم

فيها العدو ، ظهر المشهد العجيب ، إنه مشهد الهارب نوخذه بيجا .

وقد جُرح جُروحاً قاسية ، وكان ميّتاً تقريباً ، لكن لم يكن هناك أي دم ينزف من جسده المشوّه ، فنظر إليه أفونسو دلبوكيرك وقد اعترته دهشة شديدة . إن هذه الحالة غير المفهومة (التي لا يوجد سبب واضح لها) ترجع إلى وجود أساور مصنوعة من عظام حيوان يُقال له كابال Cabal ، وهي كلمة يبدو أنها ذات صلة على نحوٍ ما بالكلمة التي تعني حصان horse في كثير من اللغات الأوربية أيضاً . إن القوّة المميّزة الكامنة في هذه الأساور والتي تمنع نزيف الدم من أي جروح في جسد من يستخدمها تذكرنا بواقعة الغمْد السّحري لسيف الملك آرثر Excal-ibur - Arthur . إننا نقرأ في كتاب موت آرثر Morte d'Arthur "قالت الفتاة : حسناً ، اذهب هناك في الزورق وجدّف نحو السيف وخذه ، وخذ قرابه (غمده) أيضاً ... ومن ثم ، فالملك آرثر وميرلين Merlin ترجّلا ، و ربطا حصانيهما إلى شجرتين ، ومن ثم ذهبا في الزورق فلما وصلا إلى السّيف الذي تمسكه اليد رفعه الملك آرثر بالمقابض وأخذه معه ... ومن ثم وصل إلى البر وركب . ونظر الملك آرثر للسيف وأراده أن يمرّ بطريقة جيدة . فقالت ميرلين : "أيّهما تحب أكثر ، السيف أم الجراب ؟" فقال الملك آرثر : أُحب السيف أكثر ، فقالت ميرلين : "إنك أكثر حمقاً لأن الجراب يساوي عشرة سيوف لأنه طالما الجراب معك فلن تنزف دَمَاً ، بل ولن تعاني جروحاً لذا فلتجعل الجراب دائماً معك ولتحافظ عليه جيداً" .

وقد أرسل أفونسو دلبوكيرك هذا السوار العجيب كهدية إلى ملك البرتغال لكنه -أي السوار- فُقد في أثناء الرحلة (إلى البرتغال) . وكل هذا مما يعد براهين على شجاعة البرتغاليين وانتصاراتهم التي حققوها على شعوب الشرق غير المعروفة .

وبعد واقعة الاستيلاء على السفينة الشراعية (الينك Junk) التي كان فوق متنها ملك باسي Pace' الذي كان قد بذل قصارى جهده في طريقه إلى ملقى لتحذير ملكها الذي تربطه به صلة قرابة من الأرامادا (الأسطول البرتغالي) ،

وقد وصل الأسطول البرتغالي إلى ملقى وبدأت على الفور مفاوضات لاسترداد البرتغاليين الأسرى ومفاوضات بشأن التعويض المطلوب للإهانة التي لحقت بالأمة البرتغالية بأسْرِهم ، كان ملك ملقى في الواقع يتعمد إطالة أمد المفاوضات ، وكان يماطل أفونسو دلبوكيرك ، وكان يهدف -في النهاية- إلى رفض طلباته ، وكان يُجري استعداداته بشكل سرّي . وهنا يقطع مؤلف هذا الكتاب (السجل الكامل ...) استطراد روايته إلى حين ، ليخصص فصلاً يستطرد فيه عن تاريخ مدينة ملقى ومملكتها ، وتأسيسها وموقعها ، وفصلاً آخر لوصف عادات أهل المدينة وحكومتها . ونحن بدورنا نتوقف هنا لحظة لنستطرد بإلقاء نظرة على ملقى من هذه المرحلة بالاقتباس من كتاب أرخبيل الملايو Ma-lay Archipelago للمثقف مستر والاس Mr. Wallace وهو كتاب شائق . لقد كتب هذا المؤلف في سنة ١٨٦٩م ما نورده فيما يأتي :

" في الوقت الحاضر(١) فإن السفينة التي تزيد حمولتها عن مئة طن لا يمكنها دخول مينائها إلاّ بالكاد ، والتجارة مقتصرة على منتجات الغابة – وهي منتجات غير ذات قيمة ، وعلى الفاكهة التي زرع أشجارها البرتغاليون الأوائل ويشتريها الآن أهل سنغافورة Singapore ، ورغم وجود الحمّى إلاّ أنّ مناخها في الوقت الحالي ليس بالغ السوء .

ويتكوّن سكّان ملقى من عدة أجناس ، وربما كان الجنس الصيني هو الأكثر عدداً وهو جنس ما زال محتفظاً بعاداته وتقاليده ولغته ، والأهالي الملاويون يأتون في المقام الثاني من حيث العدد ، ولغتهم هي اللغة المشتركة بين أهل ملقى ، ويلي هؤلاء سلالة البرتغاليين وهم جنس مخلّط ومنحط وفاسد الخلق لكنهم ما زالوا يحتفظون بلغتهم البرتغالية رغم أنهم شوّها نحوها بشكل مُحزن ، ويوجد الآن الحكام الإنجليز وسلالة الهولنديين ، وهؤلاء يتحدثون الإنجليزية ، والبرتغالية المنطوقة ، وفي ملقى تعد ظاهرة فيلولوجية مفيدة ،

(١) Alfred R. Wallace, The Malay Archipelago. London, 8 Vo., 1869, pp. 41-42.

فالأفعال غالباً لم تَعُد تُصَرّف ، فثمة صيغة واحدة للفعل في كل الصيغ وكل الازمنة وكل الأعداد (الجمع كالمفرد كالمثنى) وكل الأشخاص (المؤنث كالمذكر .. الخ) ، فالعبارة Eu Vai تعني : " أنا أذهب " و " أنا ذهبت " و " أنا سأذهب " والصفات قد خلت مما يدل على التأنيث ومما يدل على الجمع أيضاً . لقد تقلّصت اللغة فغدت بسيطة بساطة مدهشة ودخلت فيها كلمات مالاوية ، حتى أنه ليتحيَّر عند سماعها المرءُ إذا كان لم يألف غير البرتغالية (اللوزيتانية) السَّوِيَّة pure Lusitanian .

ومن ناحية أزيائهم فهي مختلفة كاختلاف طرائقهم في الكلام ، فالإنجليزي يرتدي معطفاً مُحكماً وصُدْرِيّة Waistcoat وبنطلون وقبّعة بغيضة abominable ورباط عنق ، ويفضِّل البرتغالي الجاكت الخفيف ، أو -وهو الأكثر شيوعاً- الأكتفاء بالقميص والبنطلون فقط أما المالاويون فيفضّل الواحد منهم الجاكت ذا الطابع الوطني والسّارونج Sarong "نوع من التنانير (جمع تنّورة)" وسروال تحتي واسع ، أما الصيني فلا يُفارق أبداً زيّه الوطني الملائم تمام الملاءمة للمناخ الأستوائي سواء من ناحية ما يُتيحه من راحة للابسه أو من حيث مظهره . وهو يتألف من سروال واسع وقميص قصير ناعم أبيض (هو عوان بين القميص والجاكت) . وذلك هو اللباس الذي ينبغي أن يكون في مثل هذه العروض الحارة ."

وتُعدّ شهادة الكاتب الموهوب الذي كتب العمل الحديث عن مضايق ملقى جديرة بالاقتطاف منها هنا لما فيها من تناول مميّز للحالة في ملقى سنة ١٨٧٥م . يقول ج طومسون Mr. J. Thomson :

" لقد زرت ملقى(١) زيارة عابرة فلم أجدها مكاناً شائقاً ولا مُريحاً ، ولم أمكث

---

(١) J. Thomson, F.R.G.S., The straits of Malacca, Indo-China and China . London, 1875, 8 Vo, pp. 52-53.

ولمزيد من المعلومات عن ملقى والمناطق والجزر المجاورة يمكن القارىء أن يراجع كتاب :

J.H.Moor, The Indian Archipelage, Singapore, 1837,

وكتاب : Newbold, British Settemento of Malacca, 1839 ,

وأيضاً : Crawford, Dictionary of Indian Archapelago

فيها إلاّ قليلاً . وملقى مدينة قديمة تبدو إلى الرائي وكأنها هولندية ، وحالمة وجذّابة ويمكن للمرء أن ينعم فيها بالفاكهة الطيبة وصُحبة سلالة البرتغاليين والهولنديين الأوائل الذين استوطنوها ، وكرمهم " .

ويمكن لأي شاب دافيء القلب أن يسعد بزوجة جميلة جذابة من بنات هذا المناخ المشمس ، أما إذا كان متوعك المزاج غير راغب في الزواج فعليه ألاّ يُطيل مُقامه هنا إلا إذا كان قادراً على تحدّي سحر العيون السوداء الناعسة ، وخصلات الشعر السّحماء ، والقوام الأهيف المشوق . إنها بقعة يبدو فيها الفراغ وقد تربّع عند مدخل كل باب ، حيث الكسل والنّعاس كالبحر الهادىء وحيث السكون والهدوء والحركة القليلة كالنخيل الضّخَام يُومي جريدها إلى مساكن أنيقة قديمة أثّر مناخ المنطقة في منظرها . فهنا ، نجد الطبيعة تأتي كل موسم محملّة بالفاكهة اللذيذة ، حلْوٌ مذاقها ، زكيّةٌ رائحتها تتساقط في عُرض الطريق ، والطرق الجانبية تفرشهــا أصابع الموز الضّخام تُنادي الآكلين ، فهل من مجيب ؟! . ومن ناحية أخرى ، فهذا مكان يُمكن للمرء فيه أن يُبّطىء من معدّل الجدّ في حياته ، فيصبح حالماً مسروراً لا فائدة منه . إن ما أذكره الآن ليس إلاّ ملاحظات عابره ، ومع ذلك فملقى بكل المقاييس جديرة بالاهتمام لمضايقها التي تحمل اسمها – مضايق ملقى " .

وفي هذا الفصل نجد مؤلف كتاب "السجل الكامل ..." أيضاً وهو الكتاب الذي بين أيدينا ، يذكر لنا بعض المعلومات الباكرة والشائقة المتعلقة بسكان جزر ليكوا Lequea أو ليوشو Leo-Choo وهي الجزر التي يُطلق عليها هنا اسم جورز Gores – والذين يتعاملون تجارياً بقدرٍ كبير مع المستقرات المالاوية في شبه الجزيرة . وقد أصبحت هذه الجزر –مؤخراً– مشهورة في مضمار السياسات الآسيوية ، نظراً للخلافات الناشبة بين الصين واليابان بسبب فَرْض اليابان الحصار العسكري حولها .

وتقدم لنا دورية "المراسلات السياسية The Poitische Correspondenz" عرضاً رسمياً للنزاع بين الصين واليابان حول جزر لو–شو Loo-Choo"وردت

في السطور السابقة ليو–شو Leo-Choo" في خطاب صادر عن شنغهاي Shanghai يحمل تاريخ ١٨ يوليو سنة ١٨٧٩م . تقول الدورية :

"لقد استولت الحكومة اليابانية بالقوة المسلّحة على جزر لو–شو في أبريل الماضي ، ونقلت حاكمها الذي يطلق على نفسه لقب ملك والذي كان يدفع اتاوة سنوية لكل من الصين[1] واليابان – نقلته إلى يدو Yeddo . وفي يدو راح يتلقّى راتبه ، ويحمل رتبته باعتباره أميراً يابانياً ، وفي الوقت نفسه فقد حل محلّه حاكم ياباني ، ووُضِعَتْ المنطقة كلها (جزر لو–شو) تحت السيطرة اليابانية ، وتوقف دفع الإتاوة للصين ، وحل التقويم الياباني[2] محل طريقة حساب الزمن على وفق النظام الصيني ، وقد تمت كل هذه التغييرات بشكل مُتْقن مما يشير إلى أنه قد جرى الإعداد لها جيداً ، وتم تنفيذها بسرعة ولم تكن معروفة في هذه الجزر قبل ذلك . والجميع في حالة دهشة يترقّبون الخطوات التي ستتّخذها الصين في هذا الأمر .

" وتمتد إمبراطورية لو–شو الصغيرة بين خطيْ عرض ٢٠ و ٣٠ في اتجاه الشمال الشرقي ، من الطرف الشمالي لفرموزا للطرف الجنوبي لليابان . وتتكوّن من أكثر من ٣٠٠ جزيرة صغيرة تنقسم إلى ثلاث مجموعات كبيرة هي : تشونج – شان Tshung-Shan ، وشان–شان Shan-Shan وشان–بي Shan-Pei . وهذا التقسيم الجغرافي هو ترتيب سياسي أيضاً ، فهذه الأقسام الجغرافية هي نفسها أقسام إدارية (ولايات أو إمارات) تنقسم بدورها إلى خمسة وثلاثين قسماً ، تنقسم بدورها إلى ٣٧٨ دائرة Parishes . والعاصمة هي إيوانج Ewang في تشونج–شان Shung-Shan ، وكانت هي قبل استيلاء اليابانيين على الجزر ، مقر الملك Prince ، وليس لدينا معلومات مؤكّده عن عدد

(١) فيما يتعلّق بعلاقة إمبراطورية لو–شو Loo-Choo بالصين يمكننا أن نخلص من الكتابات التاريخية الصينية أنه حتى منذ التاريخ الباكر – خلال فترات حكم الأباطرة من أسرة هان Han ، كان أمراء جزر لو–شو يدفعون إتاوة للصين . وفي العام ١٩ من حكم الأمبراطور كانجي (كانغي Kanghi) "١٦٨١م" استقرت هذه الإتاوة على النحو التالي ما قيمته ١٢,٦٠٠ كاتي (Catties) كبريت ، و ٣٠٠٠ كاتي من المسشيل (muschels) (؟) و ٣٠,٠٠٠ كاتي نحاس

(One Cattie is 1. 1-3 ib English)

(٢) منذ سنة ١٣٧٢م أصبح التقويم المسيحي والتقويم الصيني يُستخدمان في جزر لو–شو ، وأصبحت السنوات تحسب على وفق الأباطرة الصينيين (المقصود على وفق لسني حكمهم) .

سكان هذه الجزر ، لكن أهالي هذه الجزر محبّون للسلام يزرعون أرضهم ويهتمون بقطعانهم . وهم في عاداتهم ولباسهم كالصّينيين . وهم يكتبون بالحروف الصّينية ، لكن لهجتهم العامة كلهجة اليابانيين . ولا نعلم شيئاً على الإطلاق عن تاريخ شعب هذه الجزر .

وكانت جزر لو–شو Loo-Choo سبباً لمعارك مستمرة بين الصين واليابان في زمن باكر ، فقد حاولت اليابان مراراً ضم هذه الإمبراطورية الصغيرة المكوّنة من مجموعة جزر . وفي العام التاسع عشر من حكم الأمبراطور وان–لي Wan-Li "١٥٩٢م" أرسل سكان جزر لو–شو مندوبين عنهم إلى الصين ليشكوا من المحاولات اليابانية لضم الجزر إلى اليابان بالقوة . هذه الجهود اليابانية – وكذلك جهود أخرى جرت في سنة ١٦٠٦م تمّ إحباطها ، فقد تمكن يانج–تسونج لي Yang-Tsungالقائد العام لمقاطعة شيكيانج Chekiang "أيضاً في عهد الأمبراطور يان–لي Yan-Li في سنة ١٦١٣م" من اعادة ملك جزر لوشو Loo-Choo إلى عرشه ، بعد أن كان اليابانيون قد أقْصوه عنه .

والذي ولا شك فيه أن الصينيين واليابانيين على سواء يمكنهما إثبات حقوق تاريخية على جزر لو–شو Loo-Choo ، وكلاهما في الحقيقة يدّعي تبعية هذه الجزر له ، والمسألة أيهما قادر على فرض سيادته عليها .

وعندما وصلت أنباء حصار اليابان لجزر لو–شو للصين اعْترى السخطُ والدهشة المؤيدون للحكومة لأن السفير الياباني في بكين كان قد قدّم أوراق اعتماده منذ أيام قلائل دون أن يذكر شيئاً عمّا حدث بعد ذلك . وعندما خاطبه كونج Kung ووزراء تسونجلي–يامن Tsungli-Yamen عن تصرفات حكومته بعد أن كان الحصار قد تم ، قال لهم إنه ليس لديه تعليمات بهذا الشأن . وقد ردّت الحكومة اليابانية على استفسار السفير الصيني في يدو Yeddo أنها مستعدّة في أي وقت لاثبات حقوقها على جزر لو–شو Loo-Shoo وأنه لا مجال للتفكير في تسليمها . واليابان لا تَرُد ما أخذته إلاّ بالقوة ، ولم يكن لدى الصِّين من القوة شيء فليس لديها –في ذلك الوقت– مال ولا جيش ولا أسطول .

" ومن خلال مصادر موثوق بها ، من المؤكد أن الملك كونج Kung قد تباحث مع جرانت الرئيس السابق ex President Grant الذي زار بكين مؤخّراً حول هذا الموضوع . وطلب الملك كونج منه أن يتدخَّل في هذا الموضوع ، لكن الجنرال جرانت Grant عرض أن يطرح هذا الموضوع في مناقشات خاصة وليس بصفة رسمية لأن الجنرال بوصفه كرئيس سابق كان بلاشك حريصاً على تجنّب أيٍّ تدخل يبدو وكأنه محاولة للتأثير على السياسة الحالية لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية .

" وفي بكين[1] -على وفق لآخـــر الأنبـــاء- زاد الغـــضب ، وراح وزراء تسونجلي-يامن Tsungli-Ya'men يتحدثون عن حرب بين الصين واليابان ، لكنهم في الوقت نفسه يُظهرون أنهم سيطلبون أولاً تدخل القوى الخارجية آملين أن تساعدهم في إعادة الجزر إلى وضعها السّابق . لكن إذا ما اندلعت الأعمال

(١) أقتطفُ هنا من مطبوع (the Standard) الذي نَشر الملاحظات الآتية عن هذا الأمر في ذلك الوقت :

" السحابةُ التي عكّرت أجواء العلاقات بين الصين واليابان منذ ستة أشهر بسبب استيلاء اليابان على جزر لو-شو (Loo-Choo) قد انقشعت الآن . ففي الحقيقة يمكن القول أنّه رغم الآمال التي سادت التجمّعات الأوربية في الشرق الأقصى إلاّ أنّ هذه السحابة المعكّرة زادت كثافتها في الشهور المنصرمة قبل أن تجذب قضية هذه الجزر الأنظار . وطوال قرون والصينيون يمارسون حقوقاً على ملك هذه الجزر ولم تتحداهم طوال هذه القرون اليابان ولا أية قوى أخرى ، لكن -فجأة- فوجيء الصينيون باستيلاء ميكادو (Mikado) اليابان على هذه الجزر ، وعزل حاكمها وعيّن حاكماً آخر ، وراح يدعَم استيلاءه على الجزر بالتأكيد على أنّ لو-شو (Loo-Choo) كانت دائماً تابعة لأمير ساتسيوم (Satsume) الذي كان تابعاً اقطاعياً لكينشين (Kinshin) ، وقد تمت الإطاحةُ به في سنة ١٨٧٧م . فأسرة مانشو (Manchu) الحاكمة لم يُعرف عنها أبداً تغاضيها عن حقوقها المكتسبة ولا عُرِف ذلك عن أيٍّ ممن سبقوها في الحكم على عرش بكين ، وقد اتخذت حكومة اليابان هذه الخطوة في اللحظة التي أظهرت فيها حكومة بكين عن عزمها على عدم التخلّي عن أيّ قدر ولو ضئيل من دعاويها ، بل وأكدّت على قدرتها على تحقيق هذه الدعاوي . حقيقة لقد مرّت شهور منذ وصلت أنباء استيلاء اليابان على هذه الجزر إلى الصين ، ولا زالت الأساطيل اليابانية راسية في ميناء ناباكانج (Napakaing) دون أن ترسل الصين اسطولاً أو جيشاً لتأكيد سلطتها الإمبراطورية . لكنه ليس من العادات الصينية اتخاذ قرارات سريعة حتى لو كانت كفاءة الأسطول الياباني لا تدعو للخشية . فالتصريحات الرسمية التي صدرت مؤخراً تعكس ما يدور في الفكر الصيني فيما يتعلق بهذه المسألة . فقد أرسل الصينيون مبعوثاً إلى الميكادو (the Mikado) يُخبره أنه إذا لم تنسحب القوات اليابانية من جزر لو-شو (Loo-Choo) لتعود الجزر إلى وضعها السابق "نصف المستقل" والذي يمثل تبعيّة مشتركة لكل من الصين واليابان في غضون ثلاثة أشهر ، فعليه -أي على الميكادو- أن يتحمّل النتائج . ويخشى اليابانيون تسليم الأمر للجنة مشتركة أو اخضاعه للتحكيم فهم يدركون جيداً أن الأوربيين -والانجليز بخاصة- يتعاطفون شيئاً ما مع دعاوي الصين على معظم دول شرق آسيا . إن السلطات في طوكيو تدرك أنه على وفق لما يرى معظم الأجانب ، فإن تظلم الصين بشأن جزر لو-شو مسألة حسّاسة لذا فهي لم تطلب تسليم الجزر ، ومع هذا فهي ترغب في تأكيد الاستقلال الذاتي (autononiy) لهذه الجزر ولا تطلب سوى استمرار الروابط الأسمية ، ودوام دفع هذه الجزر للإتاوة السنوية لها (اليابان) لتكون أي هذه الجزر جزءاً من إمبراطوريتهم السماوية (Celestial Empire) . وتوجد دوافع أعمق وراء ذلك فثمة أهمية عملية في الحقيقة لهذه الجزر - لو-شو " .

العدائية ، فمن الصعب التنبّوء بجدوى هذا التدخل الخارجي . ومهما كان الأمر فاتجاه الصين نحو إنجلترا في سلسلة مشاكلها بينها وبين اليابان فيما يتعلق بفرموزا Formosa منذ بضع سنين والذي لا زال حاضراً في ذاكرة الناس ، يبدو -أي هذا الأتجاه- غير مُجْد في الوقت الحاضر (أي فيما يتعلق بالأزمة بين الصين واليابان حول جزر لو-شو Loo-Choo .

ويُقال إن أهل هذه الجزر قد أرسلوا ليتفاوضوا مع بكين طالبين مساعدتهم بشكل مباشر ، وتلقّى القناصل اليابانيون في الموانىء الصينية أوامر بالبرق (التلغراف) للقبض على أعضاء وفد التفاوض هذا وإعادتهم لليابان . وتوجد الآن سفينة حربية يابانية في شنغهاي Shanghai بالإضافة إلى سفينتين حربيتين أُخْريين تطوفان في المياه الصينية . وإن كانت هذه الأخبار صِحَاحاً فقد ينجح وفد التفاوض الآنف ذكره في الرسوّ في موضع ما على السّاحل الصيني ليتخذ طريقه إلى بكين(١) ، وعلى أية حال فإن هذا الوفد لم يصل . وإذا نحّينا جانباً مسألة حق ملكية هذه الجزر فلا أحد يُنكر المهارة الكبيرة والنشاط الفائق الذي تجلّى في تحقيق اليابانيين لأغراضهم ، وامتلاكهم معلومات دقيقة

---

(١) * وفي بكين كان يُنظر لاحتلال اليابان لهذه الجزر باعتباره أمراً يشكل خطراً كبيراً على الصين . فمثل هذه الإهانة العارضة لوقار الإمبراطورية (الصينية) يمكن التغاضي عنها ، لكن إذا تعرضت الأمة الصينية للخطر فهنا يجب التصدّي لهذا الخطر حتى لا يتطور الأمر لتهديد حقيقي لهذه الأمة ويمكن أن نقول شيئاً كهذا -بهذا الصدد- إذا حسبنا الظروف المختلفة بوضع وجهة النظر اليابانية في مواجهة الدعاوي الصينية ، فجوهر الخلاف في هذه القضيّة هو لماذا يعتبر احتلال اليابان لجزر لو-شو (Loo-Choo) خطراً على سلام الصين . فقد كانت هناك منافسة طوال قرون بين الصين واليابان ، منافسة لا تختلف كثيراً عن المنافسة التي كانت بين فرنسا وإنجلترا لمدة طويلة . فدخول الأفكار الأوربية والفنون الأوربية والصناعات الأوربية إلى كل من الصين واليابان – لا يساعد على تهدئة حدّة المنافسة بينهما ، وإنما الأقرب إلى الصحة أنه يزيدها ضراوة ومرارة . فاليابانيون يبدون رغبة شديدة في الحصول على قوارب مزوّدة بالمدافع ، وفي تطوير أسلحتهم ، وهذا الأمر موضع شكوى من الصينيين المحافظين لأنهم يشعرون أن جيرانهم اليابانيين سيستخدمون قوتهم البحرية والبرية المتطوّرة هذه ضد الصين أو بعض ممتلكاتها . وعلى أية حال فإن المثال الذي حذته اليابان أثبت أنه مثال يُمكن أن يحتذيه الآخرون ، وهناك سبب حقيقي يجعلها تعتقد أن الصينيين (Celestials) لديهم الآن -وبخاصة بفضل نائب الملك لي-هنج-شانج (Li-Hung-Chang)- من خلال ما اشتروه من سفن حربية وبنادق ومدفعية متطورة ما يجعلهم يكادون يلحقون بمنافسيهم اليابانيين في سباق التسلّح فالدولتان (الصين واليابان) يمكن اعتبارهما من الناحية العسكرية على قدم المساواة مما يضع على كاهل حكومة بكين مسئوليات عديدة تفرض عليها ألاّ تُقَلّل من نشاطها في اللحظة الحرجة . وفي الوقت نفسه فمما لاشك فيه أن الموقف الآن يمثل -بالنسبة لليابانيين- عدة مزايا ، مما يمكن أسطولها من شن حرب فعّالة على سواحل الصين المكشوفة . ومما يدعّم موقفها في هذه الحرب هو أنّها احتلّت جزر لو-شو بالفعل ، ذلك أن ميناء نابا كيانج

عن أمور الصين . وستكون الصين غير قادرة على استرداد الجزر من اليابان كما كانت –قبل ذلك– غير قادرة على منعها من الاستيلاء عليها . بل وربما قامت اليابان –بعد هذه النجاحات الأولى– في وقت غير بعيد بإتخاذ خطوات لإحتلال فورموزا Formosa حيث مصادر جديدة للثروة متوفرة بكثرة لتعويض ما نفذ من ثروات في أرض اليابان نفسها . "

(Napakiang) المتاز بخليجه المحمي يُهيِّيء لأسطول الميكادو (Mikado) "أسطول اليابان" موقعاً في طرف البحرين ، البر الشرقي ، والبحر الأصفر ، يمكنه منه الوصول إلى سواحل فوهكين (Fohkein) وشيكيانج (Chekiang) في غضون يومين أيضاً. وهناك ميزة أبعد (لليابان) لم تُذكر ، وهي أنّ امتلاكها لجزر لو–شو يعني امتلاكها لمجموعة جزر مادجيكو سيماه (Madjico Semah) التي لا يعرف الأوربيون عنها سوى القليل . وتقع مجموعة الجزر هذه في مواجهة الساحل الشرقي لفورموزا ، وقد حققت بين البلاد المجاورة لها شهرة بإعتبارها جزراً شبه مقدّسة على نحو لا يختلف كثيراً عمّا حقّقته اسبرطة في الأساطير الإغريقية القديمة . وأكبر مجموعتين في هذه الجزر هما . الباشوران (Pachuran) والتيبنسان (Typinsan) ولا يبعد ساحل فرموزا سوى مئة وخمسين ميلاً عن مجموعة الباشوران (Pachuran) . لذا فإنه يبدو أن العمل الضار –بشكل واضح– الذي ألحقه اليابانيون بملك جزر لو–شو المخلوع نتج عن استيلائها على مجموعتي الجزر الآنف ذكرهما . وهما يمثلان مساحة شاسعة كمساحة إنجلترا وويلز معاً ، وتسيّدهم –أي اليابانيين– على مياه اعتُبرت مياهاً صينيّة . وتكفي نظرة على الخريطة لإظهار أن الميكادو (the Mikado) قد امتلك مرفئين مُدهشينْ في الطريق إلى فورموزا وسواحل الصين . فباستيلائه على ناباكيانج (Napakiang) يكون قد زاد من قيمة موانئه الغربية وليس من سبب للإفتراض بأن مجموعة جزر الباشوسان (Pachusan) لا تضم خلجاناً ومرافيء آمنة . من هذا لابُد أن يتضح أن جزر (شو–لو) لا تمثل قضية حسّاسة للصين فحسب وإنما هي مشكلة خطيرة ذات أبعاد عملية . وهذه الجزر وإن كانت أسماؤها غريبة بالنسبة لنا وغير مألوفة لسا معنا ، فإنها معروفة تماماً في التاريخ الصيني ، وحكام الصين على وعي أنهم كانوا يمارسون في الماضي تعوذاً محسوساً على هذه الجزر نتيجة الحرب بين الصين واليابان ، فمن المحتمل تماماً أن يخوضوا في المستقبل حرباً ضد اليابان لتحقيق الهدف نفسه .

فالسياسة العدائية التي كانت اليابان تتبعها دوماً ضد الصين وتآمرها في كوريا وحملاتها على فورموزا جعلت الصينيين دائمي الحذر . فإننا نجد الآن لي–هنج–شانج (Li-Hung-Chang) يتصرف كما يحلو له ويمد يديه شمالاً وجنوباً متوسعاً وساعياً لتقليص ممتلكات الصين . فخلال الشهور القليلة الماضية قامت اليابان بعملين سيثيران سخط منافستها الصين إثارة شديدة بالإضافة لما هي عليه من إثارة بالفعل . العمل الأول هو احتلالها (أي اليابان) لجزر لو–شو ، وجزر مادجيكومسيماه (Madjicomsemah) مما جعلها (أي اليابان) قريبة من فرموزا التي هي بمثابة أيرلندا الصينية (يشبه المشكلة الصينية الفورموزية ، بمشلكة أيرلندا بالنسبة لبريطانيا) ، والعمل الثاني هو توقيعها (أي اليابان) معاهدة مع ملك كوريا تعطي للرعايا اليابانيين مزايا داخل بلاده (كوريا) ، وبذا فإن الميكادو (Mikado) لم يقصر سياسته العدائية على البحر . فتحالفه مع حاكم شبه جزيرة كوريا يُعطيه موطيء قدم على البر الآسيوي يحقق له مزايا خاصة يعيد ذكرى حصار نانكين (Nankin) والانتصارات التي حققها اليابانيون على اليانجست (Yangste) في القرنين السادس عشر والسّابع عشر . هذه الاعتبارات وغيرها تجعل من غير المحتمل أن تُذعنَ الصين للسياسة اليابانية العدوانية . فالصينيون يروْن أنه من الحمق السياسي إظهار الضعف فيما يتعلق بجزرْ لو–شو ، فاليابانيون مُعتدون وليس عندهم مبررات كافية للاستيلاء على هذه المجموعة من الجزر ، وأنهم –أي اليابانيين– يتبعون منذ سنوات هذه السياسات التي ستؤدي –إذا استمرت الصين في تهاونها– إلى فقدانها كل الجزر القريبة من سواحلها . وإذا لم يستطع السّير توماس ويد (Sir Thomas Wade) أو بعض السلطات القيادية في المنطقة أن يدفع اليابان للانحساب ، فسيأخذ الصينيون زمام المبادرة في أيديهم وسيقومون في اللحظة المناسبة بطرد اليابانيين من الجزر التي استولوا عليها . " Ib.

وفشلت المفاوضات مع ملك ملقى ، فاستعد أفونسو دلبوكيرك –على نطاق واسع ، للجوء إلى القوة العسكرية ، وكخطوة أولى أغرى أسطولاً تجارياً من خمس سفن Junks صينية كان على متونها قوات عسكرية كان ملك ملقى على وشك استخدامها لشن حرب ضد ملك دولة دارو Daru) أو أرو[1] Aru على ساحل سومطرة في مواجهة ملقى تقريباً – التي كان في حالة حرب معها .

وفي يوم القديس يعقوب (جيمس) الأكبر تم اجتياح رصيف الميناء وقد وردت في نص الكتاب الذي بين أيدينا وقائع هذا الاجتياح ، وتم إحراق جزء كبير من المدينة . وهذه العمليات – رغم أنها لم تؤدٍّ إلى سقوط المدينة حالاً إلاّ أنها أزعجت العدو إزعاجاً كبيراً وشلّت موارده . ويسجل لنا مؤلف كتاب "غزو ملقى Malaca Conquistada" الهجوم اللاحق على المدينة وتدميرها وإحراقها في هذه المقاطع الشعرية :

“Em tanto das janellas, e terrados .
Que para aquella parte respondia’o,
Mil frecha, mil pelouros desmandados
Sobre a gente Christa’ mortes chovia’o :
Mas, chamando Albuquerque aos esforcados
Lima e Caldeira, aquelles que regia’o,
Lhes mandou que de fogo as ma’os armassem,
E que as vizinhas casas abrazassem.

“Janda tambem o Malavar valente
Qae com os seus adustos tiradores
Impida o assomarse a imiga gente

---

(١) الحرف (D) ، كما في الكلمة (Dupe) التي وردت بعد ذلك هو اختصار الحرف البرتغالي (de) بعد إدماجه في صلب الكلمة ويظهر الاسم الوارد في المتن هكذا (Daru) في كتابات فرناو فاز دورادو (Ferna’o Vaz Dourado) "the Por- tolano" ، ويظهر بهذا الاسم "Aru" في خريطة المترجم الهولندي الذي ترجم عمل جوآو دي باروس (Joa’o de Barros).

As partes, que lhe fica'o superiores.
Da empreza o forte barbaro contente
Os seus incita a bellicos furores :
Mil, e mil frechas logo os ares cala'o.
Trocos de breados cabos fogo exhala'o.

"Da'o ao mandato effeito : pega o fogo
Na disposta materia : com tremenda
Furia vibrantes pontas sobem logo
Aos ares, e de fumo nuvem horrenda :
Grita a misera gente; pore'm rogo
Na'o admite a voraz chamma, contenda
Com as nuvens horrisona trevando,
As esfe'ras main altas ameacando.

"Eolo neste ponto desatava
Da formosa Orithia o bravo amante,
Com que o incendio crule mais se esforcava,
Com horrivel estrondo crepitante.
Contra o fogo remedios mil buscava
A Paga' gente, mas nenhum batante,
Que c'o vento de casa em casa prende,
E, consumindo aqui, ja' la' se accende.

"Edificio, em grandeza, e valor raro,

Sobre secretas rodas es movia,
Finge a materia o marmore de Paro
Illustre c'o metal, que arabia cria.
Nelle, se lhe fora o fado avaro,
Da Infante as bodas celebrar queria
O Rei, e com alogre variedade
Carro triunfante dar viata a' cidade.

"A' nupcial casa, de delicias che'a,
Tambem se atreve o vingativo lume,
E na materia rica assi se ate'a,
Que em leve fumo, e cinza em fim a resume :
Della a mesquita, onde com torpe e fe'a
Adoraca'o, e barbaro costume,
Ao vil Mafoma honrava a gente cega,
A flamma ardente em consumir se emprega.

"A mesquita esquadra'o confuso acode,
E procura atalhar o fogo. Em tanto
Vendo o prudente Affonso que na'o podo
Cansada a gente com trabalho tante ;
Porque o intento ao possivel se accommode ;
Em quanto o incendio dura, e crece o pranto,
A artilharia embarcar manda ganhada,
E a que em terra ficou deixa encravada.
"O esquadra'o militar logo comeca

A ir, e vir, despojos embarcando,
Como no estio com fervente pressa
Multida'o de formigas saqueando
De trigo as eiras, montes atravessa
Por entre ervas, e esponhos, sustentando
Na boca o gra'o pezado, ate encerrallo,
E na estreita caverna enthesourallo.

"As barbaras catervas offendidas,
Quando tanto despojo embarcar vira'o ;
A dar e recebir novas feridas
Bramando vingativos acodira'o.
Torna de novo a morte a trencar vidas :
Aqui appellida'o Marte, alli suspira'o ;
Em fim effeitos crus de dura guerra
No mar ostenta'o, pore'm mais na terra.

"Rios correm do sangue derramado ;
Que, nas ondas entrando, em sanguinosa
Muda'o a cor ccru'lea :de ira armado
Se ve' o mesmo furor, vista espantos !
Mas ja' fim dava ao dia o Sol dourado
Do grande Oceano visitando a esposa :
Torna-es a's naus a baptizada gente ;
A Agarena o elemento apaga ardente. "

وقد قام أوتيموتاراجا Utemutaraja وهو رجل نو شأن يدير ضاحية أوب أو دوب Upeor Dupe بعرض خدماته على البرتغاليين وإن بدا عرضه مشبوهاً ، لكن ثبت بعد ذلك أنه ليس كذلك فقبِل أفونسو دلبوكيرك خدماته . وفي خاتمة المطاف أُدين هذا الأمير (أوتيموتاراجا) بالخيانة وتم إعدامه هو وابنه وزوج ابنته ، لإعادة الهدوء إلى المدينة وإظهار مدى قوّة السلطة البرتغالية عليها ، وربما كان هذا الإجراء بسبب دوافع سياسية أكثر من كونه بسبب ثبوت تهمة الخيانة على هؤلاء الآنف ذكرهم . وقد انتهز الصينيون الذين يأتون بسفنهم Junks للتجارة هذه الفرصة لتجديد طلبهم بالسماح لهم بمغادرة الميناء لمواصلة رحلتهم إلى سيام Siam وانتهز القائد البرتغالي هذه الفرصة سعيداً بأن أرسل دوارت فرناندز Duarte Fernandez كمبعوث من قبَلِه إلى سيام بصحبة هؤلاء الصينيين .

وبعد أن ألقى أفونسو دلبوكيرك خطاباً مُميّزاً شرحَ فيه السياسة الأمبراطورية البرتغالية التي يَنْتهجها الملك البرتغالي ، اندفع بكل قوّاته لمهاجمة الجِسْر واتخذ له موقعاً حصيناً فيه . ومنذ هذه اللحظة تقرَّر مصير ملقى فسرعان ما وقعت فريسة سهلة في أيدي القائد (أفونسو دلبوكيرك) إذ استولى على ثلاثة أميال بامتداد الشاطيء بعمق كبير داخل البر ، واستولى على أسلاب بكميات كبيرة جداً لا تُصدّق ، وثلاثة آلاف مدفع ، وأضاف لممتلكات البرتغال مساحة تربو على مساحة مملكة البرتغال نفسها (المملكة الأم) . لكن ملك ملقى –رغم أنه كان قد ولّى مدبراً وأمعن في إدباره– إلاّ أنه كان لا يزال يأمل في استعادة ما ضاع منه فأرسل خاله توآو ناسم موداليار Tua'o Nacem Mudaliar إلى ملك الصين –وكانت الصين وقتها في تحالف كامل مع ملك الملايو– ليطلب منه المساعدة (ضد البرتغاليين) . واتخذ توآو ناسيم Tua'o Nacem طريقه إلى كانتون Canton ومنها –كما هو متّبع– إلى بكين ، لكن ملك الصين –الذي كان قد سمع بالمعاملة الوَدودة التي أوْلاها أفونسو دلبوكيرك للصينيين في ملقى (وهي معاملة

ذات أغراض سياسية) كان راغب عن الدخول في هذا الأمر ، ولم يعش توآو ناسم لينقل أخبار فشل مهمته لابن أخته الملك فقد مات في رحلة العودة إلى يانج-شو-فو Yang-Cheu-Fu Yang-Chow-Fu) بالقرب من نانكنج[(١)] -Nank ing ، وكان موته بسبب ما أصابه من غم لفشل مهمته ، ولوفاة زوجته فجأة كذلك .

وثمّة تقرير مخطوط ورد به عرض تاريخي مُحكم للسفارات الأوربية الأساسية إلى الصين ، محفوظ الآن في مجموعة أوراق (وثائق) ولزلي Wellesley في قسم المخطوطات في المتحف البريطاني يعزو إلى أفونسو دلبوكيرك خطة وضع أسس علاقات صداقة مع إمبراطورية الصين . وربما خطرت له هذه الفكرة لأول مرّة من خلال مباحثاته مع التجار الصينيين الذين التقى بسفنهم في ملقى وقت حصاره لها . والفقرات التاليات تصف بإيجاز العلاقات الأولى بين البرتغال والصين :

" كوّن أفونسو دلبوكيرك مخطّطاً لفتح علاقات (اتصالات) مع الصين ، رغم أنه لم يعش حتى يرى نتائج محاولاته ، وقد حدثت محاولاته عدة عندما كان نائباً للملك البرتغالي في الهند ، وقد حققت البرتغال بسبب حكمته الإدارية عدة مزايا . فنتيجة معلومات أرسلها (أي أفونسو دلبوكيرك) إلى ملك البرتغال ، أبحر أسطول من لشبونة في سنة ١٥١٨م لينقل سفيراً برتغالياً إلى الصين . وفيما يلي رواية ابي رينال Abbe' Raynal عن هذه السفارة : " أحاطت به السفن الصينية التي قَدِمت للتعرّف عليه ، ولم يقم قائد الاسطول (البرتغالي) فرديناند أندريدا Ferdinand Andrada باتخاذ أية إجراءات دفاعيّة وإنما دعا الصِّينيين لإعتلاء متون سفنه موضّحاً هدف رحلته للماندارين Manderins "أعضاء مجلس الحكم" في كانتون Canton وأرسل سفيره إلى الشاطىء فتم نقله إلى بكين .

---

(١) يانج-شو-فو ، في كيانج-سو (Kiang-Su) ، ٣٢ً ، ٢٦َ ، ٣٢ شمالاً ، و١٣ً ، ٤َ ، ١١٧أ شرقاً ، كانت في سنة ١٢٧٧م تحت حكم المغول (Mongols) ومدينة لو (Lu) هي المدينة الرئيسية بها . ويقال إن ماركو بولو كان قد عيّن حاكماً لهذه المدينة مدة ثلاث سنوات ، وقد ذكرها باسم يانجو (Yanju) لكن أنظر :

Col. Yule's Marco Polo, II , 138 , etc.

" ومهما كان الوضعُ في الصين عندما رسا البرتغاليون على شواطئها ، فلم يكن لهم (البرتغاليين) من هدف سوى أن يصبحوا أثرياءاً بالتجارة معها ، وأن ينشروا دينهم (المسيحية) حتى لو وجدوا فيها أحسن أنوا ع الحكومات . لقد وجد السفير البرتغالي توماس بيريز Thomas Perez بلاط الصين ميّالاً للترحيب بأمته (البرتغاليين) التي حقّقت شهرة كبيرة في آسيا ، وكانت هذه الأمة البرتغالية قد حازت بالفعل على تقدير الصينيين وزاد من هذا التقدير تصرف فرديناند أندرادا Ferdinand Andrada الذي كان على رأس الأسطول الآنف ذكره . لقد زار هذا القبطان كل سواحل الصين وتاجر مع أهل البلاد ، وعندما كان على وشك الرّحيل أصدر بياناً في الموانيء الصينية التي مرَّ بها أنه إذا تعرّض أي صيني لضرر من أيّ برتغالي ووصله خبر ذلك ، فإنه سيدفع تعويضاً إلى المتضرر . لقد أصبحت موانيء الصين مفتوحة الآن للبرتغاليين . وكان توماس بيريز Thomas Perez "السفير البرتغالي" على وشك توقيع معاهدة مع الصين ، عندما ظهر سيمون أندرادا Simon Andrada – أخو فرديناند – أمام السواحل الصينية بأسطول آخر فعامل الصينيين بالطريقة نفسها التي كان البرتغاليون قد تعوّدوا أنْ يعاملوا بها كل شعوب آسيا .

فبنى حصناً دون إذن في جزيرة تامان Taman وانطلق من حصنه هذا يسلب وينهب ويجبي الأموال من كل السفن المُبحرة إلى موانيء الصين أو المُبحرة منها ، واختطف الفتيات الشّابات من الساحل الصيني وأسر الصينيين واسترقّهم وظهر بصورة القرصان غير الملتزم إلى أقصى درجة ، وأتى أموراً منكرة منحلّة وحذا بحارته وجنوده حذوهُ ، فأثار سخط الصينيين ، فأعدّوا أسطولاً ضخماً هاجموا به البرتغاليين الذين دافعوا عن أنفسهم ببسالة واستطاعوا الهرب مخترقين أسطول العدو (الصيني) ، فسجن أمبراطور الصين السفير البرتغالي توماس بيريز Thomas Perez الذي مات في محبسه وتم إبعاد البرتغاليين عن الصين وظلوا غير مسموح لهم بدخولها طول عدة سنوات ، لكن بعد ذلك هدأت الأمور وسمح الصينيون للبرتغاليين بالاتجار في ميناء

سانسيام Sansiam فجلبوا إلى هذا الميناء الذهب من أفريقيا ، والبهار من جزر Mollucca ، وجلبوا من سيلان العاج (أسنان الأفيال) وبعض الأحجار الكريمة . وكانوا يأخذون بدلاً من هذه البضائع الحرير من كل نوع والصمغ والخزف الصيني والأعشاب الطبية والشاي الذي أصبح سلعة ضرورية جداً لأمم شمال أوربا .

وأكتفى البرتغاليون بالأكواخ والمحطات التجارية التي لديهم في سانسيان Sancian وبحرية التجارة الممنوحة لهم من حكومة الصين حتى تُتيح الظروف لهم فرصة ترسيخ أقدامهم ليتصرّفوا بحريّة أكثر بحيث يكونون أقل اعتماداً على الماندارين Mandarins "المسؤولين الصينيين عن المناطق السّاحلية" .

وثمّة قرصان اسمه تشانج-سي-لاو Tchang-Si-Lao أحرز في مجال القرصنة نجاحات جعلته مرهوب الجانب ، استولى على جزيرة ماكاو Macao وانطلق من هناك يقطع الطريق على موانىء الصين ، بل ووصل إلى درجة فرض الحصار على ميناء كانتون Canton ، فلجأ المسؤولون الصينيون عن السواحل (الماندارين) إلى البرتغاليين الذين كانت لديهم سفن في ميناء سانسيان San-cian فأسرعوا لنجدة كانتون Canton وأجبروا القرصان على رفع الحصار عنها ، وأحْرزوا عليه نصراً كاملاً وتعقّبوه إلى ماكاو Macao ، فقتل نفسه منتحراً .

وعندما علم أمبراطور الصين بالخدمة التي أدّاها له البرتغاليون منحهم جزيرة ماكاو Macao اعترافاً بفضلهم فتلقّى البرتغاليون هبته بفرح ، وأسسوا فيها مدينة أصبحت مُزْدهرة وكانت ذات مزايا من حيث الموقع للتجارة مع اليابان ، وهو الأمر الذي سرعان ما دخلوا فيه .

ويضيف مؤلف كتاب فكرة عامة عن الصين L'Ide'e Ge'ne'rale de La Chine "المنشور في باريس في سنة ١٧٨٠م" لروايته التي تتفق مع ما ذكرناه آنفاً أن سلوك السفير البرتغالي أثبت للصينيين صواب كرههم للأجانب(١) وقفل

---

(١) ويضيف المؤلف في الحاشية :

" Ammian Marcellin qui e'crivoit dans le quatrie'me Sie'cle de notre e're, parle de Cet e'loignement des Chinois pour les e'trangers "

أبواب إمبراطوريتهم في وجوههم ، ويحدثنا عن مرسوم إمبراطوري يسمح للبرتغاليين بالاستقرار في ماكاو Macao فيقول :

" .. لكن القيود التي فرضها الصينيون لقاء هذه المكرمة التي قدّموها إلى البرتغاليين وطريقة تكوين المستوطنة وكذلك القيود التي فرضت على حرية البرتغاليين جعلت المكان (ما كاو) أشبه ما يكون بمدينة تحت الحصار وليس مدينة تجارية حُرَّة "[1] ونائب الإمبراطور الصيني في كانتون Canton عبَّر مؤخَّراً بعبارات وديّة عن شعورة إزاء الأمة البرتغالية وذكر ضرورة مزيد من التقارب بين الصين والبرتغال ، والتي كانت أول أمة برتغالية تمتلك مؤسسات تجارية في الصين .

لقد كان إنشاء حصن منيع (بالنسبة للمالاويين) في قلب عاصمتهم نتيجة طبيعية لأنتصار البرتغاليين . ومنظر هذا الحصن الذي تم نقله من هذا الجزء من كتاب كوريا Correa النفيس الموسوم باسم Lendas de India وكذلك مخططه ، الذي نقلناه من المخطوطة التي تقل نفاسة والتي تحمل عنوان Livro de Estado da India Oriental التي وضعها بدرو بريتو دي ريزندي Pedro Barreto de Resende تظهران بشكل كاف الوضع المهيب لهذا الحصن (حصلنا على الصورتين بإذن من أمناء المتحف البريطاني) . ويلي هذا الحصن في الأهمية إعادة التنظيمات التي قام عليها المنتصرون ، كإعادة تنظيم العملة –على سبيل المثال– على أسس أكثر علميّة ، وقمع الفتن والاضطرابات بيد من حديد ، وهو الأمر الذي انتقد فيه بعض المؤرخين أفونسو دلبوكيرك بقسوة لا ضرورة لها .

فقبل أنْ نُدين هذه السّمة الواضحةَ في شخصيّةِ هذا القائد البرتغاليّ (أفونسو دلبوكيرك) لا بُدّ أنْ نضعَ في اعتبارنا روح العصر التي تتّسم –على

---

(١) تقرير السفراء عن الصين قدّمه

Adds- MS., 13 , 875 , Fo.24

المتحف البريطاني ممثلو الماركيز وازلي Wellesley

نحوٍ ما- بالقَسْوَة والوحشية الفظيعة التي مارسها الآسيويّون ضد مَنْ وقعَ في أيديهم من الأوربيِّين ، وحُكم الضرورة الذي فرض أن مجموعةً صغيرةً نسبياً كان لابد من أن تقمع بغير رحمة حتى تتمكن من تحقيق النصر .

وعلى هذا، فإن إعدام أتيموناراجا Utemutaraja ، وتنفيذ حكم الإعدام في روي جوميز Ruy Gomez كانا إجراءين قُصِد بهما تأمينُ الجماعة البرتغالية لا مجرّد الرغبة في إظهار الكراهية ضدّ من وقع عليهما الحكم أو إشباع نَزْعة الانتقام .

وقد كان ارسال دوارت فرناندز Duarte Fernandez لبلاط سيام Siam مزوّداً بتعليمات (وهو الحدث الذي ساعد كثيراً على انتعاش وضع السياسات البرتغالية في شرق آسيا) ، وكذلك البعثة التالية التي كان على رأسها أنطونيو دي ميراندا دي أزيفيدو Antonio de Miranda de Azevedo التي تم ارسالها إلى ٤٠ أيضاً ، وتبادل الهدايا والمجاملات الودودة والمشاعر الطيبة مع ملك كامبار Campar وجاوه Java وارسال مجموعة لاكتشاف الملايو Moluccas التي كانت معروفة وقتئذ بجزر القرنفل أو جزر جَوْز الطيب Mace-apple كل أولئك جميعاً عملوا على رفع مقام أفونسو دلبوكيرك بشكل ملحوظ من مجرّد قرصان أو قاطع طريق أو مغامر (كما يحلو للبعض أن يصفه) إلى رائد علمي جاد توّاق إلى المعرفة حتى أنه يجب أن نطلق على أمته (البرتغالية) وأتباعه وعليه هو نفسه هذه العبارة اليونانية :

"aiev apioteveiv kai eeixiv euuevai a'AAiov."

وبعد أن أورد مؤلف هذا الكتاب (السجل الكامل ...) تفاصيل الترتيبات التي أعدّها أفونسو دلبوكيرك لحكومة هذه المناطق التي فتحها ، يقدِّم لنا المؤلف خطبة شائقة ألقاها الخطيب الروماني الشهير كاميلو بورتيو Camilli Portio أمام البابا ليو العاشر Leo X .

وهذه الخطبة رغم أنها تقدم تعليقات على بعض الأحداث الخارجة عن مجال هذا الكتاب (السجل الكامل ... Commentaries) إلاّ أنها ذات قيمة لأنها تظهر

الطريقة التي نظر بها البلاط البابوي وربما العالم المسيحي Christiandom كله – نظرة اعجاب للنجاحات السريعة المدهشة والتوسع الهائل الذي حققه الجيش البرتغالي في تعامله مع شعوب الشرق الكافرة (غير المسيحية) .

ويتناول بقية هذا الجزء أمور الهند وجوا (كَوا) والحوادث التي جرت خلال غيبة أفونسو دلبوكيرك (أي في أثناء قيامة بحملته على الملايو) . وبينما كان مرلاو Merlao أو ملرهاو Milrrhau حاكم جوا المعيَّن في ذلك الحين ، يدير أمور المدينة بسلام ، وصل بولاد خان Pulatec'ao على رأس قوة حشدها العادل خان Hidalca'o قادماً من المناطق الداخلية واستولى على موقع حصين في بيناستاريم Benastarim أو بينيستاريج[1] Benestarij ، لكن عن ترتيب قوّاته ظهر وقد تجاوز التعليمات التي تلقّاها من العادل خان الذي عين رسول خان "Rasul Khan Rocal Ca'o" ليحلّ محله (ليحلّ محل بولاد خان أو فولاد خان "Fulad Khan Pulate Ca'o" ، وبواسطة البرتغاليين تحت قيادة ديوجو مندز دي فاسكونسيلوس Diogo Mendez de Vasconcelos "الذي كان قد أطلق البرتغاليون سراحه ، ليُصبح هو قائداً على جوا (كَوا) خلفاً لرودريجو رابيلو Rodrigo Rabelo وعندما وقع هذا الضابط (رابيلو) في مناوشات مع الترك ، مفضلين إياه على فرنسسكو بانتوجا Francisco Pantoja مع أنه الأولى ليكون خلفاً لرابيلو) تمكن رسول خان من الاستيلاء على حصن بينيستاريم Be-nestarim وسرعان ما أزعج حامية جوا (كَوا) الصغيرة بتقديم طلب رسمي لتسليم المدينة .

وبينما هذه الأحداث تجري كان أفونسو دلبوكيرك يُبحر من ملقى في السفينة (فلور دي لامار) Flor de Lamar وعانى من ارتطام سفينته على ساحل سومطرة ، ووصل إلى كوشن (كوشيم) بصعوبة شديدة في يوم من أيام شهر

---

(١) الاختلاف في طريقة كتابة اسم هذا الحصن مسألة شائقة وتظهر النزعة الخاصة في اللغة البرتغالية لإنهاء الكلمة بحرف أنفي (nasal) أو صوت أنفي ، فكثيراً من أسماء الأشخاص والأماكن التي وردت في متن هذا الكتاب تنتهي بالمقطع (ان~) ومن المحتمل أنها جميعاً تنطق كصوت أنفي (مصدره الأنف) في آخر الكلمات . وعلى هذا فنحن نجد بانجم (Pangim) أو بانجيج (Pangij) ، وأوجم (Augim) أو (Augij) ، وفي اللغة البرتغالية المعتادة نجد : (mui ، Peru' ، assi) وكلمات أخرى ذات صوت أنْفي في نهايتها يُنطق دائماً ولكنه لا يُكتب .

يناير سنة ١٥١٢م ، وقد أحسّ نائب الملك (أفونسو دلبوكيرك) بهذه الكارثة إحساساً حاداً لأنه علم بعد ذلك أنه لو زار جزر المالديف Maldive على وفق نواياه الأصلية ، في خلال هذه الرحلة لوقع في يد محمد المصري المسلم Mafa-mede Macari وهو تاجر من القاهرة – وهو عدو كان أفونسو دلبوكيرك يخشاه على نحو خاص نظراً لقوته ، وكان محمد المصري هذا Mafamede Macari هو المؤيّد الرئيسي لسياسة حث الروم (مماليك مصر) على مساعدة الزاموريم لطرد البرتغاليين من ساحل المالابار . وعلى أية حال فقد خشي هذا المصري المسلم أن يقع في قبضة أفونسو دلبوكيرك ففر من كلكتا (عندما فُك الحصار عنها باستدعاء مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda لمساعدة جوا ضد قوات بولاد خان (أو فولاد خان "Pulatec'ao") إلى مضايق البحر الأحمر وهبت على سفينته عاصفة عاتية فجنحت في رأس جوردفوي ومن هناك اتخذ طريقه إلى كاندالوز Candaluz في جزر المالديف ، حاملاً معه سيماو رانجل Sima'o Rangel "الذي تمّ أسره في أثناء رحلته من كوشن إلى جوا" ، وفي جزر المالديف ظن هذا المصري المسلم أنه في أمان وأنه بعيداً عن مطال السفن البرتغالية الطوّافة في هذه الأنحاء ، فهي في عروض أكثر بعداً نحو الشمال .

لقد أدى وصول أسطول برتغالي على رأسه قبطان كبير إلى فرح بين أوساط البرتغاليين في المستعمرات البرتغالية بالهند وقد شغل أفونسو دلبوكيرك نفسه في الفترة من يناير إلى أغسطس سنة ١٥١٢م بالأمور الضرورية التي تراكمت –بلا شك– في فترة غيابه خلال العام الماضي ، لكن القَدَر لم يتوقف عن "نَسْج خيوط الحرب القرمزية" لأفونسو دلبوكيرك ، فقد كانت نجدة جوا (كَوا) هي ما يعتمل في قلبه بحرارة وقد رحّب وغمر قلبه الرضا لوصول الأسطولين السّنويين اللذين انطلقا من المملكة الأم (البرتغال) في عامي ١٥١١ و ١٥١٢ م على التوالي لدعْم المستعمرات البرتغالية في الهند . وأحد هذين الأسطولين كان بقيادة دوم جارسيا Dom Garcia (أو جراسيا Gracia) دي نورونها (ابن أخت أفونسو دلبوكيرك) ، أما الأسطول الآخر فبقيادة جورج دي ميلو بيريرا Jorge

de Mello Pereira وجراسيا دي سوزا Gracia de Sousa بالإضافة إلى ما لا يقل عن سبع عشرة سفينة حربية بمقاتليها ونخائرها .

أين هذا من الوضع الذي كان فيه من حيث تناقص عدد السفن العاملة لديه ، كما أنّه -أي أفونسو دلبوكيرك- كان قد تخلّص من عدد من المقاتلين لديه . لكن فرحته سرعان ما تلاشت سريعاً عند وصول هذين الأسطولين بسبب الأوامر التي أرسلها له الملك البرتغالي بضرورة مناقشة مسألة جوا (كَوا) أيستمر البرتغاليون في التمسك بها أم يتخلّون عنها ؟ .

لكن أفونسو دلبوكيرك أمسك -بتعقّل شديد- عن ذكر هذا الأمر حتى يُعيد تحرير المدينة بعمليات حربية يسترد بها حصن بيناستاريم Benastarim ذا الوضع الحاكم (المسيطر) لأنه شعر -ولاشك- أنه إذا أفشى هذا السرّ (أوامر الملك البرتغالي بمناقشة أمر جوا) إلى القباطنة والقادة والضباط قبل أن يطردوا الترك (أحد عناصر مسلمي الهند) إلى الداخل ، لتمّت عمليات مساعدة المدينة المحاصرة (جوا) والجزيرة (جوا) بدون حماس ، بل ربما أهمل القادة والقباطنة أوامره أو رفضوها .

لكن إذا تمَّ بعد تسليم الحصن (بيناستاريم) إلى البرتغاليين ، لارتفعت الروح المعنوية للبرتغاليين بقهرهم للعدو ، وستنتعش الروح الحربية بسبب الانتصار السهل ، ومن هنا فقد رأى القائد (أفونسو دلبوكيرك) أن هذه الفرصة هي المناسبة رغم أنه لا يستطيع أن يكتم طويلاً التعليمات الملكية ، لكن ساعتها -أي بعد النصر- قد يميل الرأي العام بين القباطنة والقادة إلى الاتجاة الذي يؤيده هو بحماس شديد (الاحتفاظ بجوا) .

لقد تم الاستيلاء على بيناستاريم -عملياً- دون متاعب كثيرة لأن رسول خان بدا -مع ذلك- غير متحمس للدفاع . وعلى أية حال فقد بدا وكأنه يحاول قصارى جهده ليحمي الهاربين البرتغاليين الذين تركوا المسيحية (النص : المرتدين "renegade") من قدرهم المحتوم الذي ربما كان يعلمه جيداً ، إنْ وقعوا في قبضة سيدهم الغضوب (أفونسو دلبوكيرك) ، لكن العذر

الذي أبداه من حيث إن تسليم هؤلاء يتنافى مع قوانين بلاده ومبادىء دينه "الإسلام"[١] لم يُجد شيئاً مع أفونسو دلبوكيرك الذي أبدى عنفاً شديداً تجاة هؤلاء البؤساء سيئي الطالع ، وكان عنفه معهم لا مثيل له في التاريخ "خاصة إذا كان كل ما ذكره كاستانهيدا Castanheda وكوريا Corea صحيحاً" .

ويُعد استقرار فرناو لوبيز Ferna'o Lopez –المحرّك الأساسي لهؤلاء الذي تركوا المسيحية renegades– في جزيرة سانت هيلانة St. Helena غير المأهولة بالسكان موضوعاً ذا أهمية كبيرة للعاملين في حقل الجغرافيا السياسية .

وعبارات كوريا Correa تبدو وكأنها تشير إلى أنه يُواسي هذا الرجل التَّعِس. يقول عنه : "دبَّر فرناو لوبيز[٢] Ferna'o Lopez أن يستقل سفينة في طريقها للبرتغال لأنه كان قد ترك زوجة وأطفالاً في لشبونة لكن السفينة توقفت في جزيرة سانت (القديسة) هيلانه St. Helena للتزوّد بالماء ، وهناك في هذه الجزيرة اختبأ فرناو لوبيز وعندما علم ركاب السفينة باختفائه بحثوا عنه فلم يجدوه فتركوا له صندوق بقسماط (بسكويت) وبعض قطعُ اللحم علّقوها له ، وسمكاً مجففاً وملحاً وناراً وبعض الثياب القديمة ، وقبل أن تُبحر السفينة تركوا له خطاباً مؤدّاه أن يُعطي لأي سفينة ترسو هنا اشارات ليعرف طاقمها إن كان ما زال على قيد الحياة أم مات وكي يزوّدوه بالمؤن التي يريدها . وأبحرت السفينة فلما رأي فرناو لوبيز ذلك ، خرج من مخبئه في الغابة وأخذ ما تركوه له وزوّد النار بمزيد من الوقود حتى لا تنطفيء وشرع يبحث عن الأحجار ليضرب حجراً بآخر فيشعل ناراً . لقد فعل هذا بأربعة أصابع في يده اليمنى وبكف يده اليسرى (مقطوعة الأصابع) وعاونه اللهُ برحمته فحفر تجويفاً على أحد المنحدرات فأنشأ بذلك كهفاً صغيراً ووسّعه من الداخل وعاش داخله منعزلاً واعتاد أن ينام وملأ مدخل الكهف بأغصان شائكة . ووجد أعشاباً مستساغ أكلها ، وراح يسلقها ويضيف إليها الملح في الوعاءين اللذين تركهما له طاقم

(١) أنظر مخطوط سلون Sloan. ١٨٢٠م وهو عمل كتب في وقت قريب (من القطع الكبير) ، يعود إلى القرن ١٧ أو ١٨ الميلادي ، باللغة البرتغالية ، لم يُنشر ، عنوانه :

" A seita dos Indios Orientais , e prencipalmente dos Malavares "

في ثمانية كتب (أبواب) يعالج منطقة المالابار من حيث تاريخها وميثولوجيتها ، وأديانها وعاداتها .

(٢) أنظر ص ٢٤٠-٢٤٢ في النص البرتغالي .

السفينة التي كان بها . وبينما كان يعيش على هذا النحو وصلت سفينة في العام التالي إلى الجزيرة فاختبأ حتى لا يراه أحد ممن على متنها .

وتوجه طاقم السفينة إلى الشاطىء وعندما رأوا الكهف وسرير القش الذي كان ينام عليه والحقائب وضلوع البرميل الذي كان طاقم سفينته قد ملأوه بالبقسماط (البسكويت) وتركوه له ، والوعاءين والفحم ، فاعترتهم الدهشة لأنهم ظنوا أنَّ بعض الزنوج يعيشون هنا ، واختبئوا عند قدوم السفينة ، لكنهم عندما رأوا الملابس أجمعوا على أنه برتغالي . ومن ثم فقد تزوّدوا بالماء ، ولم يتطفّلوا بالتدخل في أمر كهذا بل على العكس فقد تركوا له بقسماط (بسكويت) وجبناً وأطعمة أخرى ليأكلها وخطاباً يحثّونه فيه ألاّ يخفي نفسه وإنما يتحدث مع ركاب أية سفينة تصل إلى الجزيرة فلا أحد يُريد إيذاءه . وعندما شرعت السفينة في الإبحار ناشرة أشرعتها ، نط من فوق سطحها ديك ، قذف به الموج إلى الساحل فأمسك به فرناو لوبيز وأطعمة بعض الأرز مما تركوه له ، وأصبح هذا الديك صديقاً لفرناو لوبيز وراح يتبعه أينما ذهب ، وراح يبيت معه في الكهف الذي أعدّه ، وظل هذا الديك مع فرناو لوبيز سنوات كثيرة فكان يأتيه إذا نادى عليه ، وبمضي الوقت راح هذا الرجل يُظهر نفسه إلى الناس ويتحدث مع ركاب السفن التي تمر بالجزيرة ، وكانوا يقدمون له نباتات ليزرعها وبذوراً ليبذرها ، حتى أنه زرع مساحة كبيرة من الأرض ، رماناً ونخيلاً .. ، وراح يُربّي البط والدجاج والخنازير والماعز ، وتكاثرت هذه الطيور والحيوانات تكاثراً كبيراً وأصبحت تعيش في الغابة بشكل طبيعي .

لقد عاش هذا الرجل سنوات طوالاً وحيداً في الجزيرة ، يعيش على هذا النحو ، وعندما عرف ملك البرتغال قصته أراد أن يراه لأن راوي الخبر قال له إنه –أي فرناو لوبيز– أصبح كالرجل البرّي "البدائي" Wild man لذا فقد أرسل الملك يرجوه أن يحضر برضاه الكامل إلى البرتغال ، فوافق وذهب ، ونزل –بشكل سرّي– إلى منزل قبطان السفينة ، ومنه اتجه –ليلاً– ليتحدث مع الملك والملكة فعرض عليه أن يبقى في صوامع الرهبان ومساكنهم ، فلم يقبل وطلب

الإذن في الذهاب واتجه إلى روما واعترف أمام البابا الذي سُرّ لرؤياه وأعطاه خطابات إلى الملك البرتغال مؤدّاها أن يُرسله إلى الجزيرة التي كان بها مرة أخرى ، فنفّذ الملك طلب البابا . لقد عاش هذا الرجل في الجزيرة ما يزيد على عشر سنوات دون أن يراه أحد فقد اعتاد أن يبتعد عن عيون الناس .

" وقد عاش في هذه الجزيرة شاب هارب من جزيرة جاوا وظل مع فرناو لوبيز عدة سنوات . وكان هذا الشاب هو الذي دلّ عليه طاقم احدى السفن التي رست في الجزيرة . ذلك أنّ القبطان بيرو جوميز تيكسيرا Pero Gomez Teix-eira -الذي كان يعمل مراجعاً عاماً للحسابات في الهند- هدّد هذا الشاب الأسود (الجاوي) تهديداً شديداً إن لم يَدُل على مكان فرناو لوبيز . فلما عثروا عليه راح يصرخ بصوت عال ظَنّاً منه أنهم سيأخذونه لسفينتهم قَسْراً ، لكن بيرو جوميز Pero Gomez هدّأ رَوْعه وتحدّث معه طويلاً وأكّد له أنه لن يحمله معه ، وقدّم له كثيراً من الأشياء لم يُبْدِ اهتماماً بها ، وإنما راح يتوسّل إلى هذا القبطان أن يأخذ الشاب الجاوي معه . فأخذه القبطان معه مقابل تعهّد من فرناو لوبيز ألاّ يخفي نفسه عن أعين طاقم أية سفينة عابره ، وترك معه القبطان ورقة موقعة ومختومة يطلب فيها هذا القبطان من طاقم أي سفينة عابرة ألاّ تُستخدم القوة بأية حال لإجبار فرناو لوبيز على الذهاب إلى البرتغال دون رغبته، وأقسم له القبطان نيابة عن ملك البرتغال أن أحداً ما لن ينقله من الجزيرة ضدّ رغبته . فلما تأكد فرناو لوبيز من هذه الوعود لم يَعُد يُخفي نفسه وراح يتحدث مع كل قادم ويقدم له من منتجات الجزيرة كميات وافرة ، وقد مات في سنة ١٥٤٦م في الجزيرة بعد أن عاش فيها مدّة طويلة . "

ومن الطبيعي أن ينشغل أفونسو دلبوكيرك لبعض الوقت بعد عودته إلى جوا (كَوا) بجملة أمور : حصار كلكتا -الذي كان قد بدأه من جديد د. جراسيا دي نورونها D. Gracia de Noronha ، وبَعْثة ديوجو فرناندز Diogo Fernandez مع مبعوث العادل خان العائد لترتيب اتفاق سلام ، وارسال السفير الكمبي (سفير كمبي أو كامبايا) الذي كان بصحبته تريستاو ديجا Trista'o De'ga

لطلب إقامة حصن في ديو Diu ، وإرسال مبعوث من ملك عزيز (مالك عزيز) Miliquiaz صاحب ديو ، وإرسال جاسبار كانوكا Gaspar Chanoca إلى نارسينجا ، واستقبال مبعوث محمّل بالهدايا من ملك فنجابور Vengapor وهي مملكة داخلية لها حدود مع مملكة زابيم Zabaim ، ومقابلة لم تُثمر عن شيء مع رسول خان ، وغير ذلك من الأمور . لكن الحدث الذي جرى في قرابة هذه الفترة والذي اهتم به مؤلف هذا الكتاب (السجل الكامل ..) وأولاه أهمية كبيرة هو وصول مبعوث فوق العادة اسمه ماتيوس أو متّى Mateus or Mattew –أخو بطريارك الحبشة– من تلك المملكة الصغيرة الغامضة المعروفة باسم بريستر جون Prester John ، حاملاً معه هدية عبارة عن قطعة خشب من الصليب الحقيقي (الأصلي) من جماعة الفرنسسكان في جبل صهيون* (جبل القدس) في القدس Warden of the Francisan Friars –إلى ملك البرتغال ، كما حمل معه عرضاً بالتحالف عن طريق تزويج أبناء ملك الحبشة من الأميرات الملكيات البرتغاليات .

وقد أوْلى أفونسو دلبوكيرك هذا المبعوث وهديته المقدّسة اهتماماً كبيراً وقدّم هذه الهدية المقدّسة إلى الملك البرتغالي محاطة بالتبجيل والتمجيد ، لكن هذا المبعوث الحبشي (متّى) بدا في عيون الكثيرين من البرتغاليين ، دجّالاً وأفّاقاً ولا يستحق ما أولاه نائب الملك (أفونسو دلبوكيرك) من اهتمام وتكريم . وقد تعامل الملك البرتغالي مع هذا المبعوث باحترام شديد وأعاده في سنة ١٥٢٠م مع د. رودريجو دي ليما D. Rodrigo de Lima الذي عُيِّن سفيراً للبرتغال في الحبشة ، لكن متّى Mateus مات في الطريق في بيسام[1] Bisam في ٢٣ مايو سنة ١٥٢٠م ، وتابع د.

* أنظر مقدمة الترجمة العربية ، جـ١ ، جـ٢ ، جـ٣ .

(١) على وفق المرجع الذي أوردناه في الحاشية التالية ، أما الكتاب الذي بين أيدينا (السجل الكامل ..) ص ٢٥٤ من النص الإنجليزي ، فيبدو أنه مات في ماسوا أو مسوّه Macua or Massowah وهي مدينة مهمّة على الجانب الأفريقي للبحر الأحمر

" ... e as melhores , Povoaco'es que a parte Africa tem, Macua Sa'o, Arquico e Suanquem " Cum Lus, X , 97 .

ويبدو أن هذا المبعوث الحبشي متّى كان سريع الغضب وربما كان هذا هو السبب الذي جعل البرتغاليين الذين تعاملوا معه يكرهونه .

رودريجو D. Rodrigo رحلتـــه وتنــشر الآن جمعيــة هاكليت Hakluyt كتاباً عن رحلته[1] وضعه "الأب" فرنسسكو ألفاريز Francisco Alvarez وترجمه عن البرتغالية وحرّره دارس البرتغالية النابه لورد ستانلي Lord Stanley of Alder-ley . ودارسو التاريخ البرتغالي مدينون للترجمة العظيمة لرحلة فاسكو دا جاما من كــتــاب كــوريا Correa الذي يحــمل هذا العنوان Lendas da India وهم ينتظرون ظهور كتاب الأب فرنسسكو الآنف ذكره عن هذه السفارة البرتغالية إلى الحبشة في سنة ١٥٢٠م بفارغ صبْر .

بعد ترتيب أمر الحصن المقترح في كلكتا -إذا منح الزاموريم حقاً موقعاً لبنائه -وقد بدا أفونسو دلبوكيرك أخيراً يائساً من تحقيق ذلك- عقد أفونسو دلبوكيرك اجتماعاً بالشخصيات البرتغالية المهمة وقرأ عليهم تعليمات الملك البرتغالي ، وأسفرت المناقشات التي تلت ذلك على ضرورة التمسّك بجوا (كَوا) رغم كل المخاطر .

وانتهى هذا الجزء من الكتاب بإيراد الخطاب الذي وجهه أفونسو دلبوكيرك إلى الملك البـرتغـالي ، وهو خطاب مميّز يدل على أن هـذا القـائد[2] "أفونسو دلبوكيرك" لا يعرف الخوف وصورة فاسكو دا جاما الواردة في مواجهة صفحة العنوان في هذا الجزء ، وكذلك صورة لوبيز دي سيكويرا (في مواجهة صفحة "٢٥٤" من النص الإنجليزي) مأخوذة عن مخطوطة بدرو بريتو دي ريزندي Pe-dro Barreto de Resende في مكتـبــة سلون للمــخطوطات في المتـــحـف البريطاني ، وقـد تم استنساخهما بعمليــة أوتوتيب Autotype Process بإذن

---

(١) عنوان هذا الكتاب النادر ، وهو قطعة جميلة من إنتاج المطابع البرتغالية الباكر هو :
Ho Perste Joam das Indias. Verdadera informacam das terras do Preste Joam, segundo vio e es-pade Frencisco Aluarez Capella' del Rey nosso senhor. Agora nouame'te impresso'creveo ho senhor em casa de Luis Rodriguez Liureiro de sua alteza.'por mandado do dito
وفي آخر النص نجد أن الكتاب قد تمّ طبعه في سنة ١٥٤٠م .

(٢) العبارة "e na'o tome Cada anno Couta do que faco Como a Amoxarife" الواردة في خطاب أفونسو دلبوكيرك يبدو أنها تشير بوضوح إلى ضرورة أن يُخَصص لحاكم الهند البرتغالي مبالغ ضخمة بين الحين والحين لإنفاقها في تحقيق أهداف سياسية سرّية . (بند للإنفاق السرّي) . والتاريخ الذي كتبه وارين هاستنجز Warren Hastings واورد كليف Lord Clive في القــرنين الأخــيــرين يقــدم نماذج أو أمــثلة للمــصــائب التي نجــمت عن هذه الضــرورة

من أمناء المتحف البريطاني ، وجمعية هكلت Haklyt تشكرهم لهذه المأثره .

والمخطط الشائق لحصن ملقى والمستوطنة البرتغالية فيها حصلنا عليه من المخطوطة نفسها . أما خريطة شبه جزيرة الملايو فقد تم تصغيرها بعناية فائقة من خريطة في عمل بورتولانو "Portolano" المهم جداً ، قام بإنجازها الهيدروجرافي* البرتغالي دييجو هومم Diego Homeme سنة ١٥٥٨م . وهذه المخطوطة محفوظة بين مجموعة المخطوطات الإضافية في المتحف البريطاني برقم Add. MSS., 4515 A. ، وإني أشكر مستر إ . م . طومسون أمين المخطوطات بالمتحف البريطاني لسماحه بذلك . أما منظر ملقى فقد جرى نقلها بالتصوير الليثوجرافي من مطبوع Lendas da India الذي أشرنا إليه مراراً فيما سبق ، وهو عمل نو أهمية كبيرة جداً لمقارنته بالمرويات التاريخية الأخرى عن تاريخ البرتغاليين الباكر في الهند .

* الهيدروجرافيا : هي علم وصف المياه والمسطحات المائية .

ثبت زمني بالأحداث التاريخية
في الجزء الثالث

* * *

- أفونسو دلبوكيرك يهاجم جوا (كَوا) ....٢٥, نوفمبر ١٥١٠م
- [الإبحار إلى مضايق البحر الأحمر .... فبراير ١٥١١م]
- [دوم جراسيا دي نورونها يبحر من البرتغال في ست سفن ... ٢٥ مارس و ٨ أبريل ١٥١١م]
- أفونسو دلبوكيرك يهاجم ملقى في يوم ذكرى القديس يعقوب (جيمس) ... [٢٥ يوليو ١٥١١م]
- [يبني حصن ملقى .... أغسطس ١٥١١م]
- أنطونيو دبرو يبحر لكشف الملايو .... خلال نوفمبر ١٥١١م]
- [أفونسو دلبوكيرك تجنح به سفينته في الرحلة من ملقى إلى الهند ، ويصل بعد ذلك إلى كوشن (كوشيم) .... خلال يناير ١٥١٢م]
- [دوم جراسيا دي نورونها يصل إلى موزمبيق ... بداية فبراير ١٥١٢م]
- [جورج دي ميلو بيريرا تُبحر من البرتغال بأثنتي عشرة سفينة ... ٢٥ مارس ١٥١٢م]
- [جواَو شانوكا يُبحر إلى البرتغال .... ١٣ يوليو ١٥١٢م]
- [وصولُ أسطوليْ د. جارسيا د. نورونها ، وجورج دي ميلو إلى كوشين (كوشيم) ... ٢٠ أغسطس ١٥١٢م]
- [أفونسو دلبوكيرك يُبحر من كوشن قاصداً جوا ...... ١٠ سبتمبر ١٥١٢م]
- [البرتغاليون يبنون حصناً في كلكتا خلال ,١٥١٢]
- [دوم جراسيا دي نورونها يُحاصر كلكتا .... خلال يناير ١٥١٣م]
- [لكنه (دوم جراسيا) يعود ليوحّد قواته مع قوات أفونسو دلبوكيرك في جوا ... ١٠ فبراير ١٥١٣م]

- [خطبة كاميلو بورتيو أمام ليو العاشر .... في أكتوبر ١٥١٣م]

الفصل الأوّل

أفونسو دلبوكيرك يجهّز أسطوله ويُبحر قاصداً كانانور ، وما جرى بينه وبين كلّ من ملك جارسوبا ، وتيموجا فيما يتعلّق بالدخول في نهر جوا (كَوا)

عندما انتهت اللقاءات التي عقدها أفونسو دلبوكيرك الكبير في ٢٥٢ه (كوشيم) مع جونسالو دي سيكويرا Goncalo de Sequeira والقباطنة الآخرين (المشار إليهم في الفصل الأخير في الجزء الثاني) انطلق مُبحراً إلى كانانور حيث وجد الأسطولَ –وكل ما هو مطلوب للرحلة– جاهزاً ، فانطلق بلا توانٍ بأسطوله ذي الثلاث وعشرين سفينة على متونها ألفا مقاتل برتغالي ، كان من بينهم القباطنة والقادة : مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda وفرناو بيريز دندريد Ferana'o Perez Dandrade وأخوه سيماو دندريد Sima'o Dandrade وباستياو دي ميراندا Bastia'o de Miranda وأفونسو بيسوا Afonso Pessoa وروي دي بريتو باتاليم Ruy de Brito Patalim وديوجو فرناندز دي بيجا Dio-go Fernandez de Be'ja وجـورج ننوز دي ليـاو Jorge Nunez de Lia'o وفرنسسكو بيريرا بيستانا Francisco Pereira Pestana ود. جوآو دي ليما D. Joa'o de Lima وأخوه د. جيرونيمو دي ليما D. Joa'o de Lima ومانويل دا كنها Manuel da Cunha ودوارت دي ميلو Duarte de Melo وبيرو ديفونسيكا Pero Defonseca وجاسبار دي بيفا Gaspar de Paiva وسيماو مارتينز

Sima'o Martinez وفرنسسكو بانتوجا Francisco Pantoja وأنطونيو دي ماتوس Antonio de Matos وديوجو منديز دي فاسكونسيلوس Diogo Mendez de Vasoncelos –الذي كان ذاهباً إلى ملقي– ودينيس سيرنيش Dinis Cerniche ، وبالثيزار دا سيلفا Balthezar da Silva وبيرو كورزما Pero Coresma "الذي كان عليه أن يرافق ديوجو مندز دي فاسكونسيلوس" . وهكذا ظل الأسطول مُبحراً إزاء السّاحل ليتوقف قُبالة أونور ليتزوّد بالماء والمؤن الطازجة[1] . وحالما علِم كل من ملك جارسوبا ، وتيموجا بوصول أفونسو دلبوكيرك للميناء حتى ذهبا للتحدث إليه وبعد أن انتهت المجاملات التقليدية ، سألهما عن أخبار جوا (كَوا) وعمّا لديهما من أخبار عن العادل خان Hidal

---

(١) من المفيد أن نقارن هذه القائمة بقائمة جاسبار كوريا Gaspar Correa التي قدمت لنا أسماء القباطنة والقادة الآتية أسماؤهم والذين صحبوا أفونسو دلبوكيرك في حملته ضد جوا :

جوم دي ليما Joam de Lima ، وأخوه جيرو نيمو دي ليما جيرو نيمو ليما Jeronymo de Lima ، مانويل دي لاكريد Manuel de Lacrede ، فيرنام بيريز دندريد Fernam Peres d'Andrade ، وأخوه سيماو دندريد Sima'o d'Andrade ، ديوجو فرنانذ دي بيجا Diogo Fernandes de Be'ja ، مانويل دا كنها Manuel da Cunha دوارت دي ميلو Duarte de Mello ، فرنسسكو دي تافورا Francisco de Tavora ، فاسكو فرنانذ كوتنهو Vasco Fernandes Coutinho جارسيا دي سوزا* Garcia de Sausa ، جاسبار كاو Gaspar Ca'o ، لوبو فاز دي سامبايو Lepo Vaz de Sampayo ، إيرز دا سيلفا Ayres da Silva دينس فرنانذ دي ميلو Dinis Fernandes de Mello وجوم سرانو Joam Serrano ، ديوجو مندز دي فاسكونسيلوس Diogo Mendes de Vasconcellos وبيرو كورزما Pero Coresma ، بالتيسار دا سيلفا Baltesar da Silva ، ميسر فينيت سيرنيش Micer Vinete Cerniche "أورد مؤلف هذا الكتاب إسمه كالتالي : دينيس سيرنيش Dinis Cerniche ، أنطونيو رابوزو Antonio Raposo ، سيماو مارتينز* Sima'o Martins ، جاسبار دي بيفا Gaspar de Paiva ، فرنسسكو بانتوجا Francisco Pantoja ، باستيام دي ميراندا دزيفيدو* Bastiam de Miranda d'Azevedo ، أفونسو بسوا Afonso Pessoa جورج مارتينز دي لياو Jorge Martins de Lia'o "يسميه مؤلف هذا الكتاب : جورج ننوز دي لياو Jorge Nunes de Lia'o" . في ٢٨ سفينة بها ١٧٠٠ برتغالي . والأسماء التي وُضعت عليها العلامة (*) كان أصحابها من بين من أبدى رأياً في مجلس الحرب . وقد ذكر كوريا أيضاً الأشخاص الآتي ذكرهم بإعتبارهم رافقوا أفونسو دلبوكيرك في هجومه على جوا (كَوا) :

فرنام جوميز دي ليموز Fernam Gomes de Lemoz ونو فاز دي كاستيلو برانكو Numo Vaz de Castello Branco ، جورج دا سيلفيرا* Jorge da Silveira ، روي دي بريتو Ruy de Brito ، لويس كوتنهو Luis Coutinho "أخو فاسكو فرنانذ Vasco Fernandez" سيماو دندريد Sima'o d'Andrade "أخو فرنام بيريز Fernam Perez" ، جونزالو دلميدا Gonzalo d'Almeida ، سيماو مارتينز هنزيك Sima'o Martins Henriquez ، بايو رودريجز دي سوزا Payo Rodriguez de Sousa ، ديوجو بيريز دي ميرندا Diogo Pirez de Miranda ، دوارت دي ميلو Duarte de Melo ، ألفارو بيسانها Alvaro Pecanha ، لويس بريتو Luis Preto ، بيرو دافونسيكا Pero Dafonsequa ، أنطونيو دي ماتوس Antonio de Matos ، أنطونيو دينيز Antonio Diniz وآخرون .

Lord stanley's First Voyage of Magellan, pp. XXIII , XXIV

(Ca'o) ، فقالا له أنه يوجد في جوا (كَوا) ثلاثة قادة على رأس قرابة أربعة آلاف مقاتل ، كلهم ترك وروم وخراسانيين[٢] Turls, Rumes & Coracones بالإضافة إلى رماة سهام من أهل بالاجيت Peons of Balagate ، بالإضافة إلى هنود مسلمين native Moors عددهم قرابة أربعة آلاف مقاتل أيضاً . وقالا إنه إن كان -أي أفونسو دلبوكيرك- قد عَقَد العَزْم على مهاجمة المدينة فالوقت مناسب تماماً ، إنها اللحظة الحاسمة لأن العادل خان الآن يشن حرباً ضد وزراء مملكة الدكن الذين غلبوه على بلاده فاستولوا منه على مساحات كبيرة ، وهو الآن - أي العادل خان- قد توغّل بعيداً في المناطق الداخلية للبلاد فما عاد بمقدوره أن يعود ليُنجِد جوا (كَوا) ، وقالا إنهما مستعدين بكل رجالهما ليقدّما له العَوْن بشن حرب بريّة ضد قوات العادل خان أيضاً ، كما سبق أن قالا له ذلك بالفعل .

فشكرهما أفونسو دلبوكيرك بحرارة لوعودهما تلك . ومع أنّه قد بدا له أن مهاجمة جوا أمر مشكوك فيه نظراً للقوّات الكثيفة بها ، ولأنه أصبح الآن كثير الحذر مما قاله له هذان الشخصان (ملك جارسوبا ، وتيموجا) ، ورغم هذا فقد عقد العزم على حصار الجزيرة بكل قواته ومهاجمة العدو ، وبالتالي فقد أبحر بكل أسطوله ليقترب من أنجاديفا Angadiva وهناك ظل أحد عشر يوماً دون أن يصل إلى قرارات نهائية فيما يتعلق بما سيقوم به ، ذلك لأنه عندما وصل إلى أنجاديفا نصحهُ النّاصحون ألاّ يُعَوّل على وعود ملك جارسوبا ولا على وعود تيموجا ، لأنهما يخشون ألاّ يكون مردود الأمور بالنسبة لهما مردوداً حسناً وهما غير راغبيْن أن تسوء علاقتهما بالعادل خان أكثر مما هي سيئة بالفعل ، وأبحر أفونسو دلبوكيرك من أنجاديفا Angadiva -حاملاً معه كل هذه الشكوك المُربكة والمُحيّرة- حتى ألقى مراسيه أمام حاجز المياه عند جوا (كَوا) وأمر مانويل دا كنها Manuel da Cunha أن يكون على رأس ست سفن وأن يتوغل في جوا القديمة مُتخذاً طريقه إلى أجاسيج Agacij وفي أرض سيست Saste

---

(٢) من أهل خراسان Khorassan .

ليتعاون مع جيش تيموجا (من المفهوم أن جيش تيموجا في البر ، وأسطول مانويل دا كنها في النهر) الذي سيتقدّم في هذا الأتجاه .

وحالما وصل مانويل دا كُنها إلى ممر باناستاريم Banastarim وممر أجاسيج Agacije حتى أطلق طلقة مدفع وبقي هادئاً بأسطوله في النهر منتظراً وصول جيش تيموجا .

وكان أفونسو دلبوكيرك -بعد إنطلاق مانويل دا كُنها بسفنه الست- قد عقد اجتماعاً في سفينته مع قباطنة الأسطول وقال لهم أنهم يعرفون جيداً الوعود التي وعده بها كل من ملك جارسوبا وتيموجا ، وأنه هو نفسه -أي أفونسو دلبوكيرك- نتيجة لما سمعه في أنجاديفا Angadiva بسبب تأخرهما -يتشكك كثيراً في أنهما سيلتزمان بوعودهما أيضاً . ومن ثمّ فهو يرجوهم أنْ يُدلوا برأيهم فيما إذا كان عليه أن يُنفّذ هذا الأمر (مهاجمة جوا) دون الاعتماد كثيراً على جيش أهل البلاد (من المفهوم -جيش البلاد من غير المسلمين) ، أو أن يتجه بأسطوله أولاً إلى كمبي (كمبايا) حيث يؤكد شروط معاهدة السّلام . واستمع القباطنة والقادة إلى الحجج التي ساقها أفونسو دلبوكيرك وأجْمعوا جميعاً على ضرورة مهاجمة جوا (كَوا) لأنه إن تمّت استعادتها ، فسيقبل ملك كمبي (كمبايا) تنفيذ كل ما سيُملونه عليه ، بل ولن يتوانَ في إطلاق سراح الأسرى البرتغاليين الموجودين لديه ، فبدا قولهم هذا مشورةً طيبة في عيْني أفونسو دلبوكيرك ، فأرسل يستدعي بسرعة مانويل دا كُنها Manuel a Cunha لينضم بسفنه الست إلى الأسطول ، وما آن وصل دا كُنها حتى رفعوا جميعاً مراسيهم وأبحروا في النهر ووصلوا ممراً لا يبعد عن المدينة إلاّ بمقدار مدى قذيفة مدفع صغير فالكونت Galconet ، وكان التّرك (مسلموا البلاد من أصول تُرك آسيا الوسطى وليس المقصود العثمانيين) قد أغرقوا ثلاث سفن من سفن المالابار محمّلة بالحجارة ليعوقوا تقدم سفننا في النهر . لكن حيلتهم هذه التي ظنّوا أنها ما نِعَتهم قد انقلبت عليهم فأدّت إلى غير ما يقصدونه منها تماماً ، ذلك أنّ هذه الأحجار بدلاً من أن تَسُد مجرى النهر ، فإن شدّة المياه المندفعة

من أعلى أدت إلى فتح قناتين أعمق من المجرى الذي سدّته .

وعندما وصل أفونسو دلبوكيرك إلى هذا الموضع ، أمر أن تتّجه السفن الصّغار عبر هاتيْن القناتين الجديدتين ، وطلب من القباطنة أن يُجْهدوا أنفسهم غاية الجهد للوصول إلى الحصن بأقصى سرعة ممكنة ، فالوقت متأخر الآن فلا مجال للسفن الكبار للمرور . لكن ما إنْ انبثق الصبح حتى استقل أفونسو دلبوكيرك قارباً واتجه يتبعه بقية الأسطول كله إلى حيث السفن الصغار الآنف ذكرها ، وتمركز ، وأرسل كلاً من دوارت دي ليموز Duarte de Lemos وجاسبار دي بيفا Gaspar de Paiva وديوجو فرناندز دي بيجا Diogo Fernandez de Be'ja في سفن صغيرة skiffs مع رجال للاطلاع على الأحوال في الحصن ، فاتجه هؤلاء الثلاثة إلى موضع أمام هذا الحصن ، وراقبوه عن قُرب قريب ، وذكروا لأفونسو دلبوكيرك تقريراً عنه مُفاده أن الحصن قوي جداً ، ومحصّن بالخنادق والمتاريس وفتحات يندفع منها الماء فجأة[1] وبه مدافع كثيرة ، وحوله خندق عريض جداً . وعندما تلقي أفونسو دلبوكيرك هذه المعلومات التي أفضى بها هؤلاء القباطنة واضعاً في اعتباره عدد قوات العدو أيضاً فوجد أنه من المخاطرة مهاجمة المدينة ، ومع هذا فقد كان واثقاً من عوْن الله له فأرسل في المقدمة كلاً من باستياو دي ميراندا Bistia'o de Miranda ، وأفونسو بسوا Afonso Pessoa ، وروي دي بريتو باتاليم Ruy de Brito Patalim ليتخذوا طريقهم في سفن ذوات مجاديف من نوع القادس galleys للجانب الآخر من الحصن ، فأمطرتهم مدفعيته بوابل من الطلقات لكن ربّنا Our Lord حماهم فلم يلحق بواحد منهم أذى . ورغم أن كل هذه الأمور تشير إلى أن مهاجمة المدينة عمل ينطوي على مخاطرة كبيرة إلاّ أن أفونسو دلبوكيرك رغبةً منه في استيفاء كل جوانب المعلومات أمر ديوجو فرناندز دي بيجا أن يقبض ليلاً على بعض المترجمين من أهل البلاد ، وعن طريق هذا المسلم (المترجم المقبوض عليه) علم أن لدى الترك (أحد عناصر مسلمي البلاد) عدداً كبيراً من المدافع ما بين كبار وصغار وكثيراً من الجند مشاة وفرساناً ومؤناً كثيرة ، وأن

(١) Ao Lume da agua "بين الريح والماء" .

مسلمي البلاد وعبُوا العادل خان Hidalca'o أن يبذلوا جميعاً حياتهم دفاعاً عن المدينة ويمنعون البرتغاليين من دخولها ، وأن الترك (أحد عناصر مسلمي الهند) قاموا بالإضافــة لوعدهم هذا ، بإصدار الأوامر باحتجاز كل نساء أولي الحيثية وأولادهم في الحصن مخافة قيامهم بثورة ضدهم (ضد الترك-أحد عناصر مسلمي البلاد) .

الفصل الثاني

عن مجلس الحرب الذي عقده أفونسو دلبوكيرك الكبير مع القادة والقباطنة بخصوص مهاجمة جوا (كَوا) وبقية الحوادث التي جرت بعد ذلك .

ظلّ أفونسو دلبوكيرك طوال ثلاثة أيّام بعد تلقيه المعلومات المُشار إليها في الفصل السّابق والتي تُفيد استعداد المدينة (جوا) لمقاومة الغزو ، دون أن يصل إلى قرار فيما إذا كـان عليـه انتظار قدوم قوات ملك جارسوبـا وتيموجا أم لا ، فلم يكن يتـوقّع منـهمـا إلاّ المسـاعـدة بأن يأتوا ليُثـيـروا الهندوس ضـد المسلمين ، وأن يمنعـوا عنهم (أي عن المسلمين) المؤن ، ويمنعـونـهم من تلقي الإتاوات التي يحصّلونَها . وفي هذه الأثناء التي كان فيها أفونسو دلبوكيرك في حيرة من أمره لا يدري ما يفعل أقام الترك (أحد عناصر مسلمي البلاد) حاجزاً دفاعياً قوياً من أخشاب ملأوا ما بينها بالتراب بالأضافة لخنادق مَلأى بالمياه على طول الشاطىء ونصبوا مدافعَ ضخاماً كثيرة وعيّنوا عليها قائداً على رأس جنود ليحميها .

لكن عندما أدرك أفونسو دلبوكيرك أن الترك (أحد عناصر مسلمي البلاد) لِفَرطِ ثقتهم في تحصيناتهم راحوا يشيدون حاجزاً دفاعياً خارج الحصن ليتّقوا به الهجوم على سفنهم ولمنْع أية محاولة لإحراقها ، لأنهم كانوا على يقين من أنّ كل شيء فيما عدا ذلك على خير ما يُرام –لذا فقد اجتمع بالقباطنة والقادة وكل ذوي الرّتب وحاملي ألقاب الفروسية في الأسطول وطرح أمامهم رأيه فيما يفعله الترك (أحد عناصر مسلمي البلاد) ورغب أليهم أنْ يُبدوا رأيهم فيما إذا كان

عليهم (البرتغاليين) أن يهاجموا الخط الدفاعي أولاً أو أن يشرعوا في الحال في تنظيم صفوفهم لإجتياح الحصن . وعند مناقشة هذا الأمر اتفقوا -أخيراً- على مهاجمة الحصن قبل الاستحكامات فرغم أن الحصن هو الأقوى إلاّ أنه باستيلائهم عليه يكونون قد ثأروا لأنفسهم ، ولأنهم إن استولوا على الحصن لم يعُد أمامهم شيء آخر يخشونه .

لكن أفونسو دلبوكيرك -ومعه ديوجو مندز دي فاسكونسيلوس- لم يكونا في جانب هذا الرأي ، فقد كان من رأيهما أن يبدأوا بتدمير الاستحكامات المقامة خارج الحصن فإذا ما اجتاحوها دخلوا الحصن وقد ضربت الفوضى أطنابها في صفوف العدو ، وأنه لابد من الشروع في مهاجمة هذه الاستحكامات فوراً فالوقت الذي يُضيّعونه ولا يفعلون فيه شيئاً إنما يزيد موقفهم ضعفاً ويُضَيع فرص نجاحهم في هذا الأمر ، فوافقوا جميعاً على رأي أفونسو دلبوكيرك ، وإن اتفق رأيهم على ضرورة انتظار ملك جارسوبا مدة ثلاثة أيام أخرى أيضاً ، فقال لهم أفونسو دلبوكيرك أنه ما داموا قد عقدوا العزم على مهاجمة المدينة (جوا) فليس أمامهم وقت لانتظار أيٍّ عون سوى عون ربنا Our Lord Jesus Christ الذي لن يخذلهم لأنه يعلم أنهم يحاربون من أجل عقيدته المقدسة his Holy Faith* وأنه -أي أفونسو دلبوكيرك- مؤمن بها إيماناً حقاً ، كما قال لهم إن تأخر كل من ملك جارسوبا وتيموجا إنما هو بسبب الرشاوي التي قدمها لهما الترك (أحد عناصر مسلمي الهند) ، وقال لهم إن تيموجا ماكر وأنه يُرائي ولن يصل حتى بعد سقوط المدينة (في أيدي البرتغاليين) لأنه يعلم علم اليقين أن الاستيلاء عليها يتطلب بذل دماء كثيرة ، لكل هذا فعليهم (البرتغاليين) ألاّ يُضيعوا وقتاً في إنتظار عَوْن منه .

وبعد هذا صرفهم إلى سفنهم ليستعدّوا لصباح اليوم التالي لمهاجمة الاستحكامات فإذا ما استولوا عليها وَضَع النصر خطوط ما يجب فعله بعد ذلك . وعلى هذا قسَّم كل قوّاته إلى ثلاث مجموعات : المجموعة الأولى لمهاجمة

* غني عن القول أنهم يحاربون من أجل بهار الهند ، وثروات الشرق وصفحات الكتاب تشهد بذلك . (المترجم)

الاستحكامات قرب الحصن ، وتضم مانويل دا كنها Manuel da Cunha ومانويل دي لاكردا Manuel de Lacerda ، و د. جوآو دي ليما D. Joa'o de Lima وأخيه د. جيرو نيمو دي ليما وجاسبار بيفا Gaspar Paiva وجاسبار كاو Gaspar Coa' وفرناو فيو Ferna'o Feyo وبيرو دا فونسيكا Pero Dafonseca وآخرون كثيرون . والمجموعة الثانية لمهاجمة الاستحكامات من الجوانب القريبة من السفن وتضم هذه المجموعة ديوجو مندز دي فاسكو نسيلوس Diogo Mendez de Vasconcelos ، وبالتزار دا سيلفا Baltezar da Silva ، ودينيس سيرنيش Dinis Cerniche وبيرو كوريزما Pero Coresma الذي أخذ معه ابنه جورج كوريزما Jorge Coresma (الذي يعمل الآن مُشرفاً على الأفران الملكية) والذي كان وقتئذ مجرد طفل ومع هذا فقد سجّل لنفسه صفحة مشرقة في هذا اليوم (يوم غزو جوا) ، وروي دي بريتو باتاليم Ruy de Brito Patalim ، وجورج ننوز دي ليّاو Jorge Nunez de Lia'o وجنود آخرون كثيرون ، والمجموعة الثالثة وعلى رأسها أفونسو دلبوكيرك نفسه مع بقية القادة والقباطنة والقوات كان عليها أن تتجه لتستولي على الاستحكامات من الجانب من الطريق الذي يعرفه وهو الطريق الذي ينطلق من ماندوفيج Mandovig ويخرج منه طريق فرعي يتجه صُعُداً upward لأنه إن ذهب لهذا المكان لكان في موقع بين قوات المسلمين والمدينة وإذا استولى على الاستحكامات الجانبية لم يَعْدم وسيلة لإلحاق دمار هائل في صفوفهم .

ولأنه كان يوجد في هذا الطريق –الذي صمّم أفونسو دلبوكيرك على إرتياده– بعض الأسيجة من الأخشاب المتينة ، فقد أرسل دينيس فرناندز Dinis Fernandez على رأس ثلاثين بحاراً ليسبق ويُسقط هذه الأخشاب ، وحتى لا يكون هناك ما يعوقُ البرتغاليين عند تقدمهم ، وطلب منه ألاّ يسمح لأحد بإشعال النيران في سفن العدو إلاّ إذا فشلوا –بعد ذلك– في الاستيلاء على المدينة . لكن لأن القباطنة والقادة كانوا لا يزالون عند رأيهم فقد عادوا سِراعاً –في أثناء الليل– إلى أفونسو دلبوكيرك للتحدث معه بضرورة مهاجمة الحصن قبل مهاجمة

الاستحكامات فبسط أمامهم أفونسو دلبوكيرك حُججه التي قالها قبل ذلك وحججاً أخرى كثيرة ليبّين لهم سبب عدم موافقته على رأيهم . وجرى نقاش طويل بين الجانبين حول هذا الموضوع حتى أن أفونسو دلبوكيرك رغم اقتناعه برأيه أراد إرضاءهم فأبدى اقتناعه بحججهم . وعندما أدرك الترك (أحد عناصر مسلمي الهند) هذا التأخّر من جانب البرتغاليين -فقد ظل رجالنا سبعة أيام في موقعهم هذا دون أن يفعلوا شيئاً- بدأوا يصبحون أكثر جسارة ، وشيّدوا بعض الاستحكامات في مواضع أقرب إلى أسطولنا (البرتغالي) وزوّدوها بستة مدافع كبار وبدأوا في إطلاق النار علينا .

واستاء أفونسو دلبوكيرك لاستهانة الترك (أحد عناصر مسلمي البلاد) به ، فأصدر بوقار في الوقت المناسب أوامره إلى القادة والقباطنة أن يكونوا على أهبة الاستعداد في صباح اليوم التالي ويجتمعوا به على متن سفينته لأنه -أي أفونسو دلبوكيرك- قد عقد العزم -رغم كل ما سلف من مناقشات ، على مهاجمة الاستحكامات وخوض حرب ضد الترك (أحد عناصر مسلمي البلاد) لأنه لا يستطيع صبراً على غرورهم الزائف ، وأن على كل واحد منهم (القباطنة والقادة) أن يحارب في الموقع الذي سبق وتمّ تحديده له .

الفصل الثالث

كيف هاجم أفونسو دلبوكيرك الكبير جوا (كَوا) واستولى عليها بقوّة السّلاح ، ومن قُتِل من البرتغاليين ، وعن الدمار الهائل الذي لحق بالمسلمين

لقد رتَّب أفونسو دلبوكيرك الآن كل الأمور بقصد مهاجمة المدينة (جوا) كما قلتُ في الفصل السّابق قبل أن يُسْفِرَ صُبح اليوم التالي ، وهو يوم القديسة كاترين St. Catharine[(١)] ٢٥ نوفمبر سنة ١٥١٠م ففي هذا الوقت كان القباطنة والقادة قد استعدوا بالفعل ووصلوا بكل رجالهم واتجهوا لسفينة القيادة فوجدوا أفونسو دلبوكيرك قد ذهب بالفعل على متن سفينة تابعة له من نوع السكيف Skiff ويصحبته باراو (نوع من السفن "Para'o") على متنه مئة وخمسون جندياً وراح -بمن معه- ينتظر وصولهم وبعد أن أقسموا جميعاً قسم الإيمان بالمعتقد المسيحي ، رتَّبوا أنفسهم في ثلاث مجموعات للهجوم على وفق التعليمات التي سبق توزيعها عليهم بالفعل ، واتجهوا للمدينة فقد ظهرت تباشير الفجر فعلاً وعند وصولهم شرعوا مباشرة -دون مزيد من تداول الآراء والتشاور- في مهاجمة الخطوط الدفاعية (التي أقامها المسلمون خارج الحصن ، في المواضع التي سبق تحديدها لكل مجموعة من المجموعات الثلاث المهاجمة) .

ودافع الترك (مسلمو الهند من ذوي الأصول التركية من آسيا الوسطى) الذين كانوا متمركزين فيها عن هذه الاستحكامات وصمدوا لمدة طويلة ومنعوا دخول العدو (البرتغاليين) تماماً فاتجه أفونسو دلبوكيرك بمن معه من رجال عند

---

(١) 'Na Luz, que sempre Celebrada, e dina Sera' de Egyptia Sancta Catharina' أنظر جـ١ ، المقدمة حيث ترجمة فانشو Fanshaw الطريفة .

وصـوله للحـواجـز التي كـان دينيس فـرنـاندز Dinis Fernandez قـد سـبق له إسـقـاطهـا بالفـعل – إلى الطريق الجـانبي على طول حـافّـة الحيْـد ridge . ولأن الترك (مـسلمـي الهند من أصـول ترك آسـيـا الوسطى) لم يكونوا يخـشـون أي هجوم يأتيهم من هذا الجانب فإنهم حالما شعروا برجالنا يسببون لهم إزعاجاً من خلفهم ، بدأوا ينسحبون من عند الاستحكامات بعد أن قاوموا مقاومة طال وقتُها . فلما أدرك القباطنة والقادة (البرتغاليون) أن العدو (المسلمين) قد ارتبك عند وصول أفونسو دلبوكيرك والمجموعة التي معه –أنقضّوا عليهم ببسالة هائلة حاملين في طليعة قواتهم رمز المرشد الديني سانكتياجو Apostle Sanctiago "القديس جيمس الأكبر" وذلك للتبرك به ، فلم يمض إلاّ وقت يسير حتى دخلوا الاستحكامات فتفرق العدو شذر مذر فتابعه رجالنا في غير نظام حتى بوابات المدينة وقتلوا من الترك والروم (بقايا الحملة المملوكية المصرية التي هُزمت في ديو) عدداً كبيراً وشوهوا منهم عدداً غير قليل ، وكان معظم القتلى والجرحى من الطبقة ذات الشّأن ، وكان كثيرون منهم يلبسون ملابس حريرية غالية مطرّزة .

وواجه مانويل دا كنها Manuel da Cunha ومانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda ودوم جواو دي ليما Dom Joa'o de Lima وأخيه د. جيرونيمو دي ليما D. Jeronymo de Lima وآخرون معهم –وكانوا في الطليعة– مقاومة هائلة من الترك (مسلمي البلاد ذوي الأصول التركية من آسيا الوسطى) عند وصولهم للبوّابة ، ومع هذا فقد بثّ النّصر في قواتنا (البرتغالية) عزماً ، ذلك النصر الذي وهبهم إياه ربنا Our Lord فدخلوا المدينة عُنوة بقوّة السلاح ودخلت في إثْرهم قوّات دينيس فرناندز Dinis Fernandez الذي أقبل في هذا الوقت بعد أن كان قد أسقط السياجات الخشبية المتينة (كما ذكرنا آنفاً) فاتحدت القوتان وخاضت هذه القوة الموحّدة حرباً شرسة مع المسلمين Moors ، وكانت هذه الحرب في الحقيقة عَوَاناً بين الفريقين المتقاتلين حتى لقد ظن كل فريق منهما لفترة طويلة أنّ الغلبة له . وعلى أية حال فقد هبط الترك (من مسلمي البلاد)

الذين كانوا متمركزين في الحصن راكبين خيولهم لنجدة رجالهم فاجتثّوا رجالنا لكن في هذه اللحظة تماماً وصل كان من ديوجو مندز Diogo Mendez وجورج ننوز دي لياو Jorge Nunes de Lia'o بكل من معهما من ذوي الرّتب والرجال فوجدوا عدداً كبيراً من رجالنا قد جُرح وفي وضع حَرِج فصاحوا بهم يستحثونهم للانقضاض على الترك (مسلمي الهند من هذا العنصر) مرّة أخرى وتعقبهم .

فانقض رجالنا فرساناً ومشاة -بعد أن أتاهم هذا المدد الجديد- على المسلمين Moors ، انقضاض من يبغي الموت ، فهزموهم ودخلوا في غير نظام من بوابات الحصن معاً ، بعد أن خلّفوا وراءهم قتلاناً وجرحاناً ، وقام مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda -الذي جُرِح بسهم في جبهته- بمجرد دخلوه من البوابة بقتال فارس تركي (مسلم هندي من أصول ترك آسيا الوسطى) وقتله وامتطى جواده وقام بعمل بطولي فَذْ بمتابعة توغله في المدينة ، وقد فعل هذا ولا زال في وجهه قطعة من الرمح الذي كُسر والذي قذفه به المسلمون وكانت كل دروعه مخضّبة بالدم الذي ينسال من جروحه . وفي هذا الوقت كان أفونسو دلبوكيرك يتخذ طريقه مع مجموعته في إثْر رجالنا بخطوات سريعة لتقديم العوْن لهم عندما أدرك حاجتهم إليه لكن الترك (مسلمي الهند من هذا العنصر) عندما أدركوا أنّ رجالنا قد غَزَوْهم جمعوا جمعاً منهم قوامهُ خمسمائة رجل منهم مائتا فارس على رأسهم قائد واحتشدوا وعادوا لمواجهة قواتنا وراحوا يقاتلون بشراسة هائلة حتى أن جنودنا عانوا منهم معاناة شديدة ولمدة طويلة دون أن يكونوا قادرين على إجبارهم على الاستسلام .

وعندما علم أفونسو دلبوكيرك بالخطر المحْدِق برجالنا اتجه بسرعة شديدة إلى بقعة القتال بكل رجاله لدعمهم فلما وصل انقض بعض رجالنا على الترك (مسلمي الهند من هذا العنصر) وأحدثوا برماحهم أذى كثيراً وفوضى هائلة في جموعهم فهزموهم وقتلوا منهم كثيرين كان من بينهم قائدان من ثلاثة قادة من قوّاد العادل خان Hidal Ca'o . وحالما رأى مانويل دي لاكيردا Manuel de

Lacerda ، أفونسو دلبوكيرك حتى ترجَّلَ عن حصانه وأهداه إليه ، فلما رأى أفونسو دلبوكيرك أن كل دروعه مخضبّة بالدماء عانقه وقال له : " أيّها السيّد مانويل دي لاكيردا إنني أُعْلن لك أنني أحْسُدك ، بل إن الأسكندر الأكبر نفسه كان سيحسُدك لَوْ كان هنا ، فأنت تبدو أكثر شجاعة واستحقاقاً للقاء في المساء من أريلهانو Arelhano"[1] وعندما امتطى أفونسو دلبوكيرك الجواد ركب كل القادة الخيول التي خلّفها الترك (عنصر من عناصر مسلمي الهند) وتعقّبوا رجال العدو الذي ولّى مدبراً دون مزيد من المقاومة وخرجوا من بوّابة الحصن ، واختصر بعضهم طريق الهرب فقذفوا بأنفسهم من فوق أسواره . وحالما خلا الحصن منهم أصدر أفونسو دلبوكيرك أوامره بإغلاق البوّابات المؤدّية للمدينة وإحكام الرقابة عليها حتى لا يواصل رجالنا (البرتغاليون) ملاحقة المسلمين Moors ، وحتى لا يُشتّتوا أنفسهم في عمليات السلْب ، لأنه -أي أفونسو دلبوكيرك- خشي أن يتّحد الأعداء -وعددهم كبير جداً- ويُلحقوا بالبرتغاليين نكبة كالتي لحقت بهم في كلكتا[2] ، لذا فقد أصدر أوامره لكل القادة بإتخاذ مواقعهم عند أسوار الحصن لأنه قد اعتزم التحصّن داخله . لقد اعترى الرّعبُ التّركَ (مسلمي البلاد من هذا العنصر) حقاً حتى أن الذين دبّروا للهروب من شراسة جنودنا اتجهوا نحو بناستاريم Benastarim بهدف العبور من هناك إلى البرّ الرئيسي وقد خَلَفَهم الخوف فلم ينتظروا سفناً تنقلهم فراحوا يسبحون عابرين النهر فغرق منهم خَلْق كثير وضاعت منهم خيول كثيرة .

لقد دخل البرتغاليون المدنيةَ الآن فلما أدرك أفونسو دلبوكيرك أن الحصن مزوّد بكثير من المدافع وأن الكوّات (جمع كوّة) التي أُعِدت لإطلاق المدافع قد جرى سدّها بالطين من الخارج (لتبدو كما لو كان لا وجود لها) لتضليل رجالنا -شكر ربنا Our Lord شكراً جزيلاً لنجاة رجاله من خطر كان سيحيق بهم إن كانوا قد بدأوا بمهاجمة الحصن على وفق لما أبداه القباطنة والقادة من رأي .

---

(١) الامبراطور أورليان Aurelian الذي شهدت فترة حكمه سلسلة من المآثر الجليلة التي أعادت لجيش روما مجده القديم . ويقال أنه قتل في يوم واحد ثمانية وأربعين مقاتلاً في حربه ضد الصرْب Sarmatians .

(٢) أنظر جـ٢ ، مقدمة الأستاذ بيرش .

وقد جُرِح من رجالنا مئة وخمسون جندياً ، أما من القباطنة والقادة وذوي الرُّتب فمنهم مانويل دي دي لاكيردا Manuel de Lacerda الذي كان أول من اقتحم البوّابة وأول من جُرِح (هكذا وجدتُ ذلك مكتوباً) ، وجاسبار دي بيفا Gaspar de Paiva ومانويل دا كنها Manuel da Cunha ، و د. جواَو دي ليما D. Joa'o de Lima وجاسباركاو Gaspar Ca'o وسيماو دندريد Sima'o Dandrde ودينيس فرناندز Dinis Fernandez وكل من كان في الطليعة . وقُتِل سبعة منهم : د. جيرونيمو دي ليما D. Jeronymo de Lima الذي جُرِح جرحاً مميتاً عند مدخل بوّابة الحصن ، وبينما كان يرتطم بالأرض إرتطاماً قاسياً أتاه أخوه د. جواَو دي ليما D. Joa'o de Lima الذي كان مندفعاً مع آخرين ، فلما رآه على هذه الحال ورأسه مائل إلى السّور ، هتف به والدموع تجري من عينيه : " أخي ! ما هذا ؟ كيف أنت ؟ " فأجابه د. جيرونيمو D. Jeronymo : " إنني على وشك أن أُنهي هذه الرحلة (الحياة) وإنني مسرور ما دام هذا يُرضي ربنا Our Lord ، إنني أنهي حياتي هنا بأداء هذه الخدمة التي يريدها الرب ، وملك البرتغال " ورغب د. جواَو دي ليما D. Joa'o de Lima أن يبقى معه لكنه قال له : " أخي ، لا وقتَ تبقاه معي ، إذهب لتُنجِزَ ما هو موكول إليك ، أما أنا فسأبقى لألفظ أنفاسي فلم تتبَقّ فيَّ قوّة " وعلى هذا تركة د. جواَو دي ليما D. Joa'o de Lima وانطلق يطارد المسلمين Moors فلما تمّ الاستيلاء على الحصن وتمّ طردهم منه – عاد يبحث عن أخيه فوجده قد مات بالفعل . آهٍ لو أنني أعرف أي هذين الأخوين أكثر مَدْعاة لأن أحْسده –أهو د. جواَو دي ليما الذي انطلق يحارب بينما أخوه (قطعة منه) يعاني ما يعاني ، أم د. جيرونيمو دي ليما الذي لم يرغب مداواة جروحه رغم أنها قاتلة (فمن الطبيعي أن يرغب الإنسان في الحياة) وإنما فضّل أن يحوز أخوه شرف الحرب ولم يرغب في احتجازه معه بينما الآخرون من ذوي الرتب وحاملي ألقاب الفروسية يحاربون الترك (مسلمي الهند من هذا العنصر) داخل الحصن . إنني أترك البتّ في هذا الأمر لمن يقرأون عبَرَ التاريخ ، سأدعهم يحكمون أي الأخوين أشد تمسكاً بواجباته .

لقد قتلوا(مسلمو الهند) أيضاً أندريه دي أفونسيكا Andre' de Afonseca وأنطونيو جراسز Antonio Graces وألفادو جوميز Alvaro Gomes ابن المشرف almoxarife المسؤول في ألنكوير[1] Alenquer وآخرون غير معروفة أسماؤهم . لكن من راقي حتفه ومن ظلَّ على قيْد الحياة ، كل أولئك قد أدّى واجبه ليس في مهاجمة المدينة فحسب وإنما في كل مناسبة وجدوا أنفسهم فيها يواجهون العدو ، فكلهم يستحقون أن نخلّد ذكراهم العظيمة ، فبالاستيلاء على جوا (كَوا) أصبح امتلاك البرتغاليين للهند أمراً مقضياً .

ولا يجب أن ننسى ديوجو مندز دي فاسكونسيلوس Diogo Mendez de Vasconcelos وجماعته لأن الجهود المستميته والسريعة التي أنقذ بها جُندناً عندما كان عدد كبير منهم قد أصابته الجراح بالفعل – قد أسهمت إلى حد كبير في الاستيلاء على الحصن . وقد كان أفونسو دلبوكيرك على وعْي حقّاً بالطاقة الهائلة لديوجو مندز وتعقله وحذره حتّى أنه صرّح له مراراً عندما كان مختلفاً معه بشأن رحلة ملقى قائلاً :

" أيها السيد ديوجو مندز إنني أمقتُ الحياةَ التي تجعلني ألحق بك ضرراً بحكم منصبي " . إن جنودنا بعد استيلائهم مرة ثانية على جوا (كَوا) قد أدركوا أنهم ما أخلوها بعد استيلائهم عليها في المرة الأولى (السابقة) إلاّ بمشورة فاسدة ، أما الآن فقد استعادوا وضعهم ومكانتهم بعد أن أستولوا عليها عُنْوة (بقوّة السّلاح) وبعد أن قتلوا ألفي مسلم من البيض والترك والروم* والخرسانيين كانوا بالفعل يسببون رعباً في البلاد نظراً لثقتهم الشديدة في أنفسهم وأنهم قوم لا يقهرون ، كما قتل البرتغاليون كثيرين من أهل المدينة من غير هذه العناصر أيضاً .

---

(١) المشرف هو متلقي الرسوم والعوائد المفروضة على البضائع الواردة أو الصادرة ، وهي كلمة عربية الأصل – إنجلمان Engelmann .

* راجع مقدمة الترجمة العربية .

الفصل الرَّابع

افونسو دلبوكيرك يأذن لجنوده بنهب المدينة (كَوا) وعن الصليب الذي وُجد في بعض الأسوار القديمة التي كانوا يأخذون منها أحجاراً للحصن ، وعن المعجزة التي أنجزها ربنا Our Lord لنا يوم المعركة .

واعترى القباطنة الذين كانوا في كوشن (كوشيم) أسىً شديد عندما علموا باستيلاء أفونسو دلبوكيرك على جوا (كَوا) وملأهم الخجل والإحساس بالخِزْي وقد تذكروا ما قاله لهم قبل رحيله عنهم من أنهم سيندمون لعدم مرافقتهم إيّاه ، فأسرعوا مباشرة بشحن سفنهم استعداداً للإبحار إلى البرتغال .

وبعد أن أمر أفونسو دلبوكيرك القباطنةَ والقادةَ بإتخاذ مواقعهم لحراسة الحصن ، أذِن للجنود بنهب المدينة ، وأن يكون لكل منهم الحق في أن يحتفظ بكل ما ينهبه ، أما بالنسبة لنصيبه هو فقد أكتفى قانعاً بأنه أنجز وَعْده الذي وعده للعادل خان عندما كان في جوا (كَوا) أنه -أي أفونسو دلبوكيرك- سيسترد المدينة ثانية .

وقد تم الاستيلاء من المدينة على مئة مدفع من المدافع الضِّخام bombardas وعددٍ كبيرٍ من المدافع الأصغر حجماً ومائتي حصان وكثيرٍ من الذّخائر وعُدَد الحرب ، فأمر بتسليمها جميعاً للوكيل التجاري لملك البرتغال . وبعد أن سُلبت المدينة أمر أفونسو دلبوكيرك القباطنةَ والقادةَ بالتطواف في الجزيرة كلها وإعْمال السيف في كل المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً وألاّ يذروا منهم أحداً لأنه

قد عقد العزم على ألاّ يُبقي لهذا الجنس (المسلمين) بِذْرة في الجزيرة كلها وهو لا يفعل ذلك لضمان أَمْن الجزيرة فحسب حتى لا يبقي فيها غير الهندوس وإنما عقاباً لهم لخيانتهم له عندما كانت الجزيرة في حوزته أوّل مرّة أيضاً . وظل البرتغاليون يريقون دماء المسلمين الذين وجدوهم في الجزيرة دون أنقطاع طوال أربعة أيام ، ومن المؤكد أن عدد من قتلوهم من رجالهم ونسائهم وأطفالهم يزيد على ستة آلاف .

وقد لعب الهندوس دوراً مهماً بدورهم -فهم ، بسبب كراهيتهم التي يكنونها للترك (مسلمي الهند ذوي العرق التركي) الذين سلبوهم أرضهم التي يعيشون عليها ، حالما سمعوا بسقوط جوا (كَوا) في أيدي البرتغاليين حتى هبطوا وقطعوا طريق العودة أمام المسلمين من عند الممرّات حتى لا ينجوا من شراسة البرتغاليين المطاردين لهم . (وكان أولو الشأن من هؤلاء الهندوس قد صحبوا أتباعهم واحتموا في المناطق الجبلية) وقد أستولى الهندوس من هؤلاء المسلمين الفارين على كل ما كانوا يحملونه وبعدها قتلوهم فلم يُبقوا منهم -على قيد الحياةِ أحداً ، وكان من بين هؤلاء الترك الذين قتلوهم حامل صُرّة العادل خان الموكل إليه الإنفاق على القوات ودفع الأجور ، واستولى الهندوس على كل ما كان معه من أموال ، وأمر أفونسو دلبوكيرك بِحَشد أحد المساجد بالمسلمين الذين أسرهم الهندوس وإشعال النار في المسجد وكان من بينهم مسيحي ترك مسيحيته وفرّ لمعسكر العادل خان عندما استولى البرتغاليون على جوا (كَوا) للمرةِ الأولى .

وبعد أن تمّ نهب المدينة ركّز أفونسو دلبوكيرك اهتمامه -دون توانٍ- لتحصين المدينة وأمر بجمع كميات كبيرة من الأسمنت كما أمر بهدم كل قبور المسلمين وأضرحتهم لتوفير كمية وافرة من الأحجار المطلوبة ، وأمر كل القادة والقباطنة وذوي الرّتب بالتناوب في العمل لإنجازه بسرعة فقد كان يخشى أن يصل العادل خان ولا يكون مستعداً لمواجهته . ولأن أفونسو دلبوكيرك كان يأمل أن يجعل من جوا (كَوا) حاضرة (عاصمة) لحكّام الهند (البرتغاليين) فقد وضع خطة يظل

-بمقتضاها- قصر السيباهي Cabaio مقراً للحكم لأن طريقة تشييده كانت فاخرة عامرة بالجمال والرّقة . وبسبب هذا العمل الدؤوب تم استكمال الحصن البرتغالي الموجود الآن وجرت إحاطته بخنادق ونُصب له برجان ، وجعلوا له متراساً بارتفاع صدر الرجل للدفاع عن الميناء ولحماية السفن عند الرسو .

وفي هذه الأثناء كان بعض الرجال يعملون في هدم بعض الجدران القديمة الحصول على أحجارها لاستخدامها في أعمال الدفاع فاكتشفوا في أساس جدران[1] صليباً من نحاس ، فلما انتشر خبر هذا الصليب خلال المدينة أقبل على التو أفونسو دلبوكيرك ومعه كل رجاله ورجال الدين المسيحي الذين كانوا معه وحملوا الصليب بعاطفة جيّاشة والدموع تذرف من عيونهم مدراراً ونقلوه إلى الكنيسة . لقد اعترت الدهشة الجَمْع الجميع فذاكرة الإنسان لا تعي أن هذا المكان كان به مسيحيّون في أي وقت من الأوقات ، فساد الاعتقاد أن ربنا Our Lord قد أنزل هذا الصليب من السّماء كعلامة على أنّ مشيئته هي أن تكون جوا (كَوا) لملك البرتغال وليس للعادل خان ، وأنّ مساجد المسلمين لابد أن تصبح بيوتاً لعبادته[2] "المقصود تصبح كنائسَ) يُعبد فيها اسمه . لقد كانت المدينة قبل الغزو البرتغالي مزوّدة بحامية قوية جداً ومزوّدة بكثير من المدافع والأسلحة وبكل ما هو ضروري للدفاع ، ولم يكن رجالنا (البرتغاليون) كافية لفتحها إن وضعنا العددَ في اعتبارنا ، وهم إنما تمكنوا من دخولها بفضل شارة الصليب هذه التي أرسلها ربنا Our Lord ، إنه هو وحده الذي جعلهم قادرين على مهاجمة المدينة ، وكان هذا بفضل القديس سانكتياجو Apostle Sanctiago الذي ساعدهم أيضاً ، وكان المسلمون أنفسهم خير شاهدين على ذلك فبعد سقوط جوا (كَوا) راحو يسألون رجالنا عن حال هذا الرجل الذي

---

(١) الكلمة البرتغالية هي Alicerces) وتكتب أيضاً alicesse ، Alicece وهي من الكلمة العربية (الأساس) .

(٢) سِفْر أشعياء / إصحاح ٥٦ ، فقرة ٧ " ... آتى بهم إلى جبل قدسي وأفرحهم في بيت صلاتي ... لأن بيتي بيت الصلاة يُدعى لكل الشعوب " . إنجيل متي / إصحاح ٢١ / فقرة ١٣ " مكتوب بيتي بيت الصلاة يُدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص " انجيل مرقس ، إصحاح ١١ ، فقرة ١٧ " أليس مكتوباً بيتي بيت صلاة .. " انجيل لوقا ، إصحاح ١٩ ، فقرة ٤٦ " ولما دخل الهيكل ابتدأ يُخرج الذين يبيعون ويشترون قائلاً لهم : " مكتوب أن بيتي بيت صلاة وأنتم جعلتموه مغارة لصوص " .

كانت دروعه لامعه وكان يحمل صليباً ، وكان يتقدم مــع المسيحيين يضرب الترك (أحد عناصر مسلمي الهند) ويقتلهـم . فهو وحده الذي استولى منهم على مدينتهم .

ولم ينس أفونسو دلبوكيرك هذه المأثرة التي تلقاها من هذا القدّيس ليس فقط لما يُكنه من عاطفة إزاءه وإنما لأنه -أي أفونسو دلبوكيرك- كان عضواً فارساً في الجماعة الدينية لهذا القديس أيضاً ، لذا فقد أرسل إلى دير بالميلا[١] Pal-mela سارية بطول ستة بالمالات Palms "البلم مقياس يبلغ طوله من المعصم إلى أطراف الأصابع" وبسماكة عصا الرّمح[٢] كلها مغطاة بالذهب ومزخرفة[٣] ، ومقبضها مغطى باللؤلؤ والمرجان ، وسوطاً للتأديب محلّى بخرزات كبيرة من الذهب وقوقعة[٤] من ذهب بحجم كبير وكثيراً من الأحجار الكريمة فوق قبعة من السّاتان القرمزي وعند موته سلّم للقديس سانت ياجو Apostle Sanctiago الجاليزي[٥] of Galiza قاعدة فضية كبيرة جداً لوضع القناديل ومائة ألف راي[٦] reis نقداً لأنفاقها على الزيت المخصص للقناديل . وعندما وصلت أخبار استيلاء البرتغاليين على جوا (كَوا) إلى كمبي (كمبايا) وأصبح معروفاً أنّ أفونسو دلبوكيرك قد حصّن نفسه فيها بقصد الاحتفاظ بموقعه ، أدرك ملك كمبي أن عُصبته قد تفكّكت فأمر بإطلاق سراح الأسرى الذين سبق أن أسرهم عندما أسر د. أفونسو نورونها D. Afondo Noronha ابن أخت أفونسو

---

(١) مدينة برتغالية جنوب لشبونة َ٢٤ ، ْ٣٨ شمالاً ، َ٥٧ ، ْ٨ غرباً ، وقد أورد بلوتو Bluteau تاريخاً شائقاً لها ، وهذا المشار إليه على رأس نظام عسكري (تشكيل عسكري ذي طابع ديني يحمل اسم سانت ياجو Sanetigo الذي تراعيه جماعة القديس أو غسطين Brethern of the Rule of St. Augustine .

(٢) Arremeca'o

(٣) Lavrado de Tauxia; Tauxia or atuxia'

تطعيم معدن بآخر من الكلمة العربية التوْشية بمعنى التلوين بقصد إحداث تأثير جمالي ، أما بالبرتغالية فقد صار للكلمة معنى أكثر تحديداً كما أوردنا آنفاً .

(٤) فييرا Viera تحمل أسر برتغالية كثيرة هذه الكلمة كاسم لها ، ومن بين كثيرين يحملون هذا الاسم مؤلف معجمات إنجليزية برتغالية ، وهو نفسه مؤلف كتاب قواعد اللغة البرتغالية ، وهو مؤلف مشهور .

(٥) Gallicia .

(٦) قرابة ٢٠ جنية إسترليني و ١٦ بنس وهو مبلغ كبير بحساب تلك الأيام .

دلبوكيرك ، بل إن عرض أن يسلّم ديو Diu لتكون موقعاً يبني فيه البرتغاليون حصناً لهم كذلك ومنذ سقطت جوا (كَوا) دأب ملك كمبي (كمبايا) على إرسال سفرائه طلباً للسّلام ، كما أن الأمير حسين (مير حسين "Mirocen")[1] قائد أسطول السلطان الكبير (السلطان المملوكي المصري) الذي كان في كمبي (كمبايا) "مع بعض قواته التي نجت من الموت في أثناء المعركة التي ألحق فيها نائب الملك البرتغالي في الهند الهزيمة بهم"[2] في انتظار أن يأتيه مدد من القاهرة من أجل إعادة تأهيل قواته في جوا (كَوا) - حالما علم أن البرتغاليين قد استولوا على المدينة وأن ضرراً بالغاً لحق بالترك (مسلمي الهند من أصول تركية) حتى فقد الأمل في أن تكلّل مهمته بالنجاح فاستأذن من ملك كمبي (كمبايا) ليتجه إلى جدة Juda[3] وهناك قضى بضعة أيام ثم انطلق منها إلى السويس مستقلاً جلبوت Shallop[4] وهناك وجد أنهم في مصر يجهزون أسطولاً لإرساله إليه فلما وصل الأمير حسين (مير حسين "Mirocen") للقاهرة وأفضى بأخبار سقوط جوا (كَوا) في أيدي البرتغاليين صدرت الأوامر بوقف بناء الأسطول ، وأرسل ملك كمبي سفيره لأفونسو دلبوكيرك إنه إذا ما أتم حصنه يمكنه زيارة الملك (ملك كمبي) ليرتب معه أمور السّلام ، ولأن أفونسو دلبوكيرك كان راغباً في تحسّس نوايا العادل خان فقد كتب له الخطاب التالي الذي يحوي كثيراً من العبارات الطنّانة والأفكار المُبالغ فيها ، ذلك لأنه -أي أفونسو دلبوكيرك- طالما يحكم الهند فقد كان عليه دوماً أن يستفيد قبل كل شيء من صلاته بملوكها .

الخطاب الذي أرسله أفونسو دلبوكيرك للعادل خان بمجرد استيلاء البرتغاليين على جوا (كَوا) :

" السيد الأجل المفخّم والفارس الهمام ميلوهو Milihau أفونسو دلبوكيرك القائد العام للهند ومملكة هرمز وتوابعها ومملكة جوا (كَوا) وتوابعها نيابة عن

---

(١) انظر جـ١ ، ص ٢٢٢ ، جـ٢ ص ١١٢ .

(٢) في ديو Diu ، انظر جـ٢ ص ص ١١٢ ، ١١٣ - ١١٣ ، الحاشية ، Lusiada, X 34-36 .

(٣) Djedda ، انظر جـ١ ، ص ٢٣٤ .

(٤) Gelua أو Jelua ، انظر جـ١ ص ٢٢٦ ، حاشية .

دوم مانويل الملك القوي جداً صاحب السّمو ملك مملكة البرتغال وتوابعها في هذا الجانب من البحار وفي الجانب الآخر ، ففي أفريقيا هو سيد غينيا Guine' ، وهو سيّد الفَتْح والملاحة والتجارة في أثيوبيا وشبه الجزيرة العربية وفارس والهند – إنني أرسل لك تحيّاتي . ويجب أن تعلم حقّ العلم كيف أنّ أباك السيباهي Cabayo اعتادَ أن يستولي على سفن المالابار من موانيء سيدي الملك (البرتغالي) لذا كنتُ مضطراً لمواجهة جوا والاستيلاء عليها وإنني مشغول الآن ببناء حصن منيع فيها . إنني أتمنى مخلصاً وصادقاً لو أن أباكم على قيد الحياة لأنه كان يعرف أنني رجل عند كلمتي ، وبصرف النظر عمّا يتعلّق به ، فإنني سأكون دائماً صديقاً لك وسأساعدك ضد ملك الدكن وضد أعدائك ، وسأتّخذ الأسباب التي تجعل كل الخيول[1] التي تصل إلى هنا تُحمَّل إلى محطّاتك وأسواقك . سيسرّني أن يأتي تجار بلادك بالأقمشة البيضاء وكل أنواع البضائع إلى ذلك الميناء (جوا) ليبادلوها بكل بضائع البحر والبر والخيول ، وسأعطيهم حق المرور الآمن . وإن رغبت في صداقتي فدع مبعوثيك يأتون إليّ برسائلك وسأرسل لك بدوري مبعوثين من عندي حاملين ما أريد قوله ، إنك إن فعلتَ ما قلته لك في هذا الخطاب ستصبح سيّداً (حاكماً) عظيماً وستصبح بمساعدتي قادراً على الاستيلاء على بلاد كثيرة وستصبح بين المسلمين حاكماً ذا شأن كبير . فلتكن راغباً فيما أقوله لك فهذا لصالحك وستكون به قوياً شديد البأس ولأن أباك السباهي قد مات فسأكون أنا والدك وسأعاملك كابنٍ لي . فلترسل مبعوثيك حالاً حاملين ردّك ودع تجار بلادك يأتون إلى جوا (كَوا) ولهم مني حق المرور الآمن ، وبالنسبة للتجار الذين سيحضرون بضائع حاملين خطابات بحق المرور الآمن موقّعة بخط يدك سأكون مسئولاً عن سلامتهم . "

---

(١) كانت تجارة الخيول مصدراً هائلاً للتشغيل والعوائد المالية على ساحل الهند . أنظر جـ٢ ، صص ٧٦ ، ٧٧ ، ١٠٧ ، ١١١ وأنظر "Col. Yule , Marco Polo, Vol I pp. 84,88,324,333 ... etc & index 2nded" أيضاً .

الفصل الخامس

كـيف أرسل الـنيكوبار إلى أفـونسـو دلبوكيرك يطلبون منه حقّ المرور الآمن ليـأتوا للعـيش في جوا (كَـوا) ، وكيف هزمت قـواتنـا قـوات مــالك يحــيى (مليكاي) قائد قوات العادل خان .

عندما أدْرك النيكوبار – الذين كانوا يتمركزون في البرّ الرئيسي – أن أفونسو دلبوكيرك قد رسّخَ وضعه في جوا (كَوا) أرسلوا إليه يطلبون حقّ المرور الآمن ليأتوا بكل أُناسهم ليعيشوا في المدينة (جوا) . وهؤلاء النيكوبار Nequibares هم أولو الأمر وزعماء الناس . والآن ، ولكوْن أفونسو دلبوكيرك كان راغباً رغبة شديدة لجمع كل الهندوس الهنود في المدينة (جوا) فقد سعد سعادة كبيرة لعرض النيكوبار هذا لأنه كان يأمل أن يساعده في تأسيس الحصن ، لذا فقد أعطاهم حق المرور الآمن كما طلبوا ، فلما وصلوا إلى جوا قدم لهم مساكنَ وممتلكات على وفق وضع كل منهم عندما كان يعيش على البر الرئيسي . وكان أفونسو دلبوكيرك قد تلقى أخباراً – بعد أن أرسل حق المرور الآمن للنيكوبار Nequibares – مُـفـادها أن ملِك يحى (مليكاي Meliqueaye) ، قائد قوّات العادل خان قد وصل بجيش كبير إلى كوندال Condal وباندا Banda' قاصداً تدعيم مَنْخل إلى جزيرة جوا (كَوا) ، ورغم أن أفونسو دلبوكيرك كان مشغولاً تماماً في بناء الحصن لإحساسه بأهمية إنهاء العمل فيه بالسرعة الممكنة ، ومع هذا فلم يتحمّل أن يأتي قائد العادل خان ويحاصر جوا في وقت هو نفسه –أي أفونسو دلبوكيرك– موجود بها ، فلم يَضع وقتاً وأرسل ديوجو فرناندز دي بيجا

ليصارع River of Banda' ليبحر في نهر باندا Diogo Fernandez de Beja ملك يحيى (مليكاي) على السيطرة على الممر في أراضي أنتوج وسيست -An tuge and Saste ، وأرسل معـه كـلاً من إيرزبيريرا Aires Pereira وأنطونيو دابريا Antonio Dabrea وجاسبار كاو Gaspar Ca'o وأنطونيو دي ماتوس Antonio de Matos كذلك كل واحد منهم كقبطان لسفينته ، وكان على متون هذه السفن جميعاً مئتا رجل .

وحالما استعد ديوجو فرناندز Diogo Fernandez انطلق مُبحراً برجاله ووصل إلى باندا 'Banda واتخذ طريقه صُعُداً في النهر ورسا بسفنه ونزل برجاله فوراً ، وعندما أدرك مِلك يحيي (مليكاي) نزولهم شرع في مهاجمتهم معتمداً على كثرة عدد الترك (أحد عناصر مسلمي الهند) الذين معه ، فقذفهم رجال ديوجو فرناندز بالرماح بضراوة حتى أن رجال العدو ارتبكوا إرتباكاً شديداً من جرَّاء مقاومة رجالنا المشاه ، فتراجعوا بخيولهم بغير نظام حتى أنهم قذفوا بأنفسهم في المسيلات المختلفة للنهر ravines فغرقوا .

وعاد ديوجو منذز ورجاله إلى جوا بعد أن حقق هذا النصر وسرد على أفونسو دلبوكيرك ما حدث وقال له إن مِلك يحيي (مليكاي Meliqueaye) كان بصدد إتخاذ طريقه نحو إتجاه ديفاريج Divarij ليعبر إلى جوا من هذا الاتجاه . فأرسل أفونسو دلبوكيرك على الفور جاسبار دي بافيا Gaspar de Pavia لحراسة هذا الممر وأرسل معه كلاً من : أفونسو بسوا Afonso Pessoa ومارتيم جودز Martim Guedez ، وفاسكو فرناندز كوتنهو -Vasco Fernandez Coutin ho وآخرين كثيرين ، وكان مِلك يحيي (مليكاي) عندما وجد نفسه مدحوراً بسبب عدم كفاءة رجاله انسحب ببقايا قوّاته المبعثرة واتخذ طريقه ليحاول الدخول للجزيرة عن طريق ممر ديفاريج Divarij ، لكنه عندما وصل هناك – وقد كان يظن أنه لن يجد أحداً من البرتغاليين هناك ، فقد كان مغروراً بطبعه – عقد عزمه على فرض حصار على الاستحكامات التي أقامها جاسبار دي بيفا Gaspar de Paiva (في السطور السابقة جاسبار دي بافيا Pavia) وتقدّم

بقواته الرّاجلة والرّاكبة وشرع في الهجوم ، وكان هو في المقدمة .

لكن جاسبار دي بيفا Gaspar de Paiva الذي كان قد أُحيط علماً بإقتراب قوات ملِك يحيي (مليكاي) انتظر هجومه وقد اتخذ للأمر عدّته ، فلما هاجم ملِك يحيي (مليكاي) قتل رجالنا (البرتغاليون) بعضاً من الفرسان الترك (أحد عناصر مسلمي الهند) ببنادقهم ذوات الفتائل ، ولأن الترك اعتاد الواحد منهم أن يركب حصانه وقد علاه سرج وقد ثبت نفسه فيه بأربطة ، لذا فإن خيولهم وقد فقدت من يتحكم فيها راحت تجري بين صفوفهم فأحدثت فيهم فوضى واضطراباً ، وحالما أدرك جاسبار دي بيفا Caspar de Paiva هذه الفوضى التي شملتهم ، لم يُضع وقتاً وانقض على العدو وهزمه وتعقبه لمسافة غير قصيرة . ورغم أن فاسكو فرناندز كوتنهو Vasco Fernandez Coutinho لم يكن في ذلك الوقت غير صبي لا يتعدى الثامنة عشر من عمره فإنه اشتبك مع فارس تركي (أي أحد مسلمي الهند من الترك) وأمسك بعنان الحصان ، ورفع السّرج المزركش ، وطعن الحصان بسيفه فسقط الحصان ميّتاً ، وانقض (فرناندز) على التركي فأطاح برأسه . لقد أثبت هذا الفتى في ذلك اليوم أنه خير سلف لخير خلف وأنه مقاتل من أصلاب مقاتلين حقاً .

ولمّا انتهت الأمور انسحب جاسبار دي بيفا Gaspar de Paiva إلى الاستحكامات التي كان أقامها ، أما ملِك يحيى (مليكاي Meliqueaye) فقد وجد نفسه وقد تعرّض لضغط شديد من رجالنا من الجانبين فلم يجرؤ بعد ذلك على المغامرة بمهاجمتهم وإنما انسحب برجاله بعيداً لمسافة فرسخين في المناطق الداخلية في موضع يُقَال له ديوكاليج Diocalij وهناك أقام معسكره وأقام بعض الاستحكامات القوية من أخشاب للدفاع إن هو تعرّض للهجوم . وحالما أدرك أفونسو دلبوكيرك أن ملِك يحيى (مليكاي Meliqueaye) قد هُزم بالفعل وأنه من الممكن إذا ما هاجمه البرتغاليون فجأة أن يقع هذا القائد (ملِك يحيى أو مليكاي) بين يديه ، فقد انطلق (أي أفونسو دلبوكيرك) نفسه في إثره في المكان الذي عَسْكر فيه ، وكان (أي أفونسو دلبوكيرك) على رأس ألف

برتغالي ، ومائتين من هنود البلاد ، وعبروا إلى البر الرئيسي بالقوارب والقوادس ، وحالما رست هذه القوة قسّمها أفونسو دلبوكيرك إلى أربع مجموعات ، ومركزها عند ممرّات بعيْنها على بعد مسافة من ساحل البحر تطولها طلقات البنادق ذوات الفتائل ، وأعدّ هناك كميناً وأمر قادة الهندوس أن ينطلقوا بجندهم إلى معسكر العدو فإن تعقّبهم أي تركي (أحد عناصر مسلمي الهند) عليهم أن يتراجعوا في اتجاه الكمين الذي أعده (أي أعده أفونسو دلبوكيرك) .

وحالما أصبح هؤلاء القادة الهندوس بجندهم على مرأى من معسكر ملِك يحيى (مليكاي) وجدوه خارج الاستحكامات التي كان قد أعدّها وأنه ينسحب إلى تل وعرٍ بكل جيشه وبدا في هذا وكأنه على وعي كامل بالفخ الذي نصبه له أفونسو دلبوكيرك . وقد ظل هذا القائد (ملِك يحيى أو مليكاي) هادئاً تماماً ولم يتحرك لمهاجمة الهندوس فقد كان قائداً محنّكاً خَبَر أساليب الحرب . وعندما لاحظ القادة الهندوس أن ملِك يحيي (مليكاي) لم يهتم بالاشتباك معهم انسحبوا إلى حيث أفونسو دلبوكيرك (لأنه كان قد أمرهم بذلك إذا واجهوا مثل هذا الظرف) وسردوا عليه الأوضاع كما وجدوها ، فعلم أفونسو دلبوكيرك أن ملِك يحيى (مليكاي) أدرك خطته ، فانطلق إلى جزيرة ديفاديج Divarij وترك كلاً من رودريجو رابيلو Rodrijo Rabelo ومانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda مع جُندهما ، ومن ثم عاد للمدينة (جوا) .

وبعد انقضاء أيام قلائل أرسل ملِك يحيى (مليكاي) -الذي وجد أن القوات التي معه غير كافية لتمكينه من مقاومة رجالنا إن رغبوا في مهاجمته - مبعوثاً إلى أفونسو دلبوكيرك طالباً السلام بينهما ، فسأل أفونسو دلبوكيرك المبعوثَ فيما إذا كان ملِك يحيى (مليكاي) قد استأذن من العادل خان للدخول في مفاوضات معه طلبا للسلام أم لا ، فقال المبعوث أنه لا يحمل رسالة إلاّ من ملِك يحيى (مليكاي) الذي هو قائد تابع للعادل خان ، ولا يمكنه -بالتالي- أن يدخل في مفاوضات دون إذنه ، فأعاد أفونسو دلبوكيرك هذا المبعوث دون أن يعطيه

جواباً لأنه بدا له –من خلال هذه الإجراءات غير المنظمة– أن بقاء ملِك يحيى (مليكاي) في موقعه هذا لا يمكن أن يكون متمشياً مع رغبات العادل خان .

الفصل السادس

وصـــول مـــرلاو إلى جـــوا ، وطلب النيكوبار من أفونسـو دلبوكـيرك أن يجعله حاكماً عليهم وكيف أمر ديوجو فـرنـاندز دي بيـجـا أن يُدمِّـر حـصن سقطرى .

منذ عـدة أيـام مـضت ، كـان ينتظرُ في جـوا (كَـوا) مـبـعـوث مــن ملك أونور Onor ، لعقْـد تحـالف مع أفونسـو دلبوكيرك الكبـير لأن هذا الملك قد اغـتصب المملكة وطرد منها مرلاو Merlao مع أنه -أيْ مرلاو- هو صاحب الحق الشرعي باعتباره الأخ الأكبر ، ومن ثم فقد كان هذا الملك المُغتصِب (بكسر الصـاد) في خوف شديد من أن يؤازر أفونسـو دلبوكيرك ، مِرْلاو بسبب العون الذي قدّمه للبرتـغاليين عند غزوهـم جوا (كَوا) أوّل مرّة . وحالما علم مرلاو Merlao (الذي كان في ذلك الوقت في باتيكالا Baticala مع خـاله الملك لحشـد جنود من المشاة والفـرسـان لإستـعـادة مُلكه إن اسـتطاع) أنّ أخـاه كـان يتـفـاوض مع أفـونسـو دلبوكيرك ليستفيد من تحالفه معه ، أرسل مبعوثاً من طرفه بخطابات يُخبر فيها أفونسو دلبوكيرك بحقيقة الوضع ويقول له كيف أنّ أخاه قد انقلب ضدّه ونَزَعَ منه مُلكه قَسْراً ، وتوسّل في خطاباته تلك من أفـونسـو دلبـوكيـرك أن يُسـاعده بتحـالفه معه ذاكراً أنه سيكون خادماً لملك البرتغال في كل ما يُطلب منه ، فقبل أفونسو دلبوكيرك عَرْضه ليس فقط لشهرته (أي شـهرة مرلاو) كفارس شجاع ، وإنما لأنه كان قـائداً يُكن له الهندوس تقديراً شـديداً أيضـاً . وقد قبل أفونسو

عَرضْه بنيّة أن ينقل إليه حكومة جوا (كَوا) لأنهكان دائماً يأتي إليها ويشن الحرب ضد الترك (مسلمي الهند من هذا العنصر) وحدث ف مناسبتين أنْ كان الترك يحاصرونه لكنه استطاع بمن معه من الهندوس وحدهم أن يدافع عن المدينة كفارس شجاع ، وقد رأى أفونسو دلبوكيرك أنه من المُفيد للك البرتغال دوم مانويل كثيراً أن يُعيد تثبيت ميرلاو Merlao في ملكه وأن يُقدم له خدمات وأن يتعاطف معه فأرسل القواديس إلى باتيكالا Baticala ومعها بعض السفن الصّغار لنقله مع رجاله وخيوله . وأرسل قائدين برتغاليين على رأس ألفي جندي هندوسي ، ليذهبا براً ليستقبلوه في سنتاكورا Cinta,cor حاملين خطابات إلى التانادارات[1] Tandares وأهالي بلاد (أراضي) جوا مؤدّاها أن يستقبلوه ويطيعوه كما لو كانوا يقدرونه وكانوا راغبين أن يكون حاكمهم .

فلما علم أخوه الذي كان في أونور Onor أن مرلاو أصبح الآن في سنتاكورا Cinta'cora وسَيَسْتقل السفن سارعَ بإرسال بعض رجاله إلى كاريبال Caribal وأنكولا Ancola موضعين أمام سنتاكورا على الشاطىء الآخر للنهر الذي يفصل مملكة جوا عن مملكة أونور لمنع عبوره ، ووعد رجاله بمكافأة كبيرة إن هم قبضوا عليه (أي على مرلاو) لأنه كان يخشى أن يساعده أفونسو دلبو كيرك في محاولته طرده من المملكة . ورغم كل هذه الجهود التي بذلها أخوه إلاّ أن مرلاو تصرف بمهارة حتى أنه عبر دون أي صراع مع جُند أخيه ، ووصل إلى جوا (وأخذ معه القائد التابع للك نارسينجا واسمه إيكاراو Icarao الذي كان يرافقه منذ أيام خلت بسبب خلاف بينه وبين الملك) وفي جوا استقبله أفونسو دلبوكيرك بترحاب شديد وأمر بإسكانه ومن معه في مساكن المدينة الرئيسية ، وأصدر التعليمات للمحطة التجاريــة بتزويده بكل ما يريده ، وكل ما يريده رجاله .

لقد كان النيكوبار Nequibares مبتهجين إبتهاجاً شديداً لوصول مرلاو Mer-lao فلم تمض أيام كثيرة حتى ذهبوا إلى أفونسو دلبوكيرك وتوسلّوا إليه أن

---

(١) أنظر جـ٢ ، فصل ٢٥ ، حاشية ٢ .

يجعله حاكماً عليهم فكل الناس يرغبون في ذلك ، وسُر أفونسو دلبوكيرك كثيراً لطلبهم هذا فقد كان هذا هو السبب الرئيسي لمد يد العوْن له ، وقال للنيكوبار أنه من ناحيته سعيد بطلبهم هذا وأنه سيتحدث مع مرلاو Merlao ومن ثمّ يعطيهم جواباً . وفي صباح اليوم التالي هيّأ أفونسو دلبوكيرك الأسباب ليحضر مرلاو إليه ويجتمع به ، وأخبره أنه راغب في أن يسلّمه أراضي جوا مقابل إيجار سنوي Yearly rental ، وراغب في أن يسلمه الحكومة على أن يدفع لسيّده دوم مانويل أو لحكامه في الهند (٤٠,٠٠٠) بارداو[1] Pardaos على أربع دفعات -على وفق لما يجب أن يدفعه الناس ، بالاضافة للدفع كل ثلاثة أشهر بالنسبة للأراضي التي لا زالت تابعة للعادل خان ، لأن سيّده ملك البرتغال يطالب بكل هذا . وقد أسعد هذا العرض مرلاو Merlao سعادة كبيرة .

وبعد اعتماد هذا الاتفاق والتوقيع عليه جمع أفونسو دلبوكيرك النيكوبار Ne-quibares وكل أولي الشأن من الهندوس وأخذ -أمامهم- بيد مرلاو Merlao – وقال لهم ها هو ذا حاكمكم ، فقد كان أفونسو دلبوكيرك يعلم جيداً كم هم راغبين في ذلك ، وكم هو وِدود معهم ، فاستقبلوا ذلك بفرح غامر ونفخوا في أبواقهم -كما هي عادتهم- تعبيراً عن سرورهم وبهجتهم ، وفي غضون يومين أو ثلاثة انطلق مرلاو وعبر إلى البر الرئيسي ومعه خمسة آلاف جندي هندوسي وخمسون فارساً وبدأ فوراً في تنفيذ إلتزامه في التانادارات[2] Farm his Tana-darias .

والآن ، وقد رأى أفونسو دلبوكيرك أن حصن جوا (كَوا) قد أصبح في وضع يمكنه من مواجهة كل قوات العادل خان – أرسل ديوجو فرنادز دي بيجا Dio-go Fernandez de Be'ja على رأس ثلاث سفن لتدمير حصن سقطرى (على وفق لأوامر مكرّره من الملك دوم مانويل) وأصدر إليه تعليمات بكيفية تنفيذ هذه المهمة ، وأن يبقى هناك حتى ١٥ مايو لأنه -أي أفونسو دلبوكيرك- قد يتمكن

---

(١) عن قيمة البارداو ، أنظر جـ٢ ، فصل ٢٠ ، حاشية ٤ . ومبلغ ٤٠,٠٠٠ بارداو يساوي أكثر من ٢٠٠٠ جنية استرليني .

(٢) في هذا السياق يبدو أن الكلمة تعني تعيين التانادارات ، لكن Tanadaria كما أشار إليها Vieyra تعني Cabecade Comarca وهي المدينة أو المديرية في كوماركا Comarca .

من الوصول إليه هناك إن سمحت أمور الهند بذلك ، فإن لم يتمكن –أي أفونسو دلبوكيرك– من ذلك ، فعليه أن يتجه إلى هرمزَ حاملاً معه خطابات وصلاحيات منه (أي من أفونسو دلبوكيرك) لإستلام الإتاوة من خوجه عطار الذي أرسل يقول أنه راغب في دفعها ، وبعد ذلك عليه أن يتجه في شهر أغسطس إلى الهند وأن يُدْمج أسطوله في أسطول مانويل دي لاكيردا Manuel de Laccerda الذي سينتظره حاملاً رتبة رئيس قباطنة البحر ، بينما هو (أي أفونسو دلبوكيرك) سيبحر من الهند ، ليدُمج أسطوله مع أسطوليهما ليطوف بهذا السّاحل ، حتى إذا تعرّضت جوا (كَوا) لأية أخطار أمكنهم نجدتها . وحتى يتمكن ديوجو فرناندز Diogo Fernandez من التعامل بشكل طيب مع خوجه عطار ، فقد أذِن أفونسو دلبوكيرك لكل سفن هرمز الموجودة في جوا بتحميل البهار ومنحها حق المرور الآمن وجعل قباطنتها تفهم أن عليهم أن يعودوا مباشرة إلى جوا بكل الخيول التي يريدون احضارها معهم .

ولأن أفونسو دلبوكيرك كان لأسباب معينة قد حيل بينه وبين تنفيذ حملته التي كان ينويها ، فإن ديوجو فرناندز دي بيجا بعد أن دمَّر حصن سقطرى مكث حتى انقضت المدة المحددة واتخذ طريقه إلى هرمز ، واستلم الإتاوة ومن ثم اتجه إلى الهند فوجد قوات العادل خان تحاصرها كما سنذكر بعد ذلك .

الفصل السابع

عن السفراء الذين أرسلهم الزاموريم بعد سقوط جوا إلى أفونسو دلبوكيرك الكبير طالبين السّلام وكيف أرسل أفونسو دلبوكيرك، سيماو رانجل للتفاوض بهذا الشّأن.

أمّا وقد علم الزاموريم (أو السامري كما تسميه بعض الكتب العربية) أن أفونسو دلبوكيرك قد استوى على جوا (كَوا) وأنه مَرْكَزَ نفسه في المدينة قاصداً الاحتفاظ بها -فإنه- أي الزاموريم - ما عاد يُقوّل على الحلف الذي كان قد عقده مع العادل خان والذي كان يهدف لطرد البرتغاليين من الهند ، ونظراً لأنه علم أن ملك كمبي (كمبايا) أيضاً ما كان في بلاده من الأسرى البرتغاليين ، حتى أمر بإرسال مبعوثين من طرفه إلى أفونسو دلبوكيرك فانطلقوا في سفينة من نوع الباراو Parao فوصلوا في غضون أيام قلائل إلى جوا (كَوا) وأرسلا رسالة شفهية إلى أفونسو دلبوكيرك مُفادها أنهم يرجون سيادته أن يتلطف بسماع ما أرسلهما الزاموريم من أجل عرضه عليه .

ولكي يعطي أفونسو دلبوكيرك جوّاً من الأهمية الزائدة لمهمة هؤلاء السفراء أمر فرنسسكو بانتوجا Francisco Pantoja رئيس مسئولي الأمن في الحصن أن ينطلق لإحضارهم ، بينما هو نفسه (أي أفونسو دلبوكيرك) راح ينتظر في صالة الاستقبال يحفّه كل القباطنة والقادة وذوي الرتب فلما قدموا استقبلهم بكل مظاهر البهجة وأبدى سروره بصداقتهم .

وبعد أنْ أبدى له السفراء مشاعر الود المعتادة على وفق طريقتهم قالوا له إن

سيدهم الزاموريم قد أرسلهم ليقولوا له أنه سيكون سعيداً إن استطاع التحاور معه ليعبّر له عن سروره الذي يشعر به لإستيلاء البرتغاليين على جوا . وأنه بسبب رغبته في صداقة ملك البرتغال فإنه يعرض عليه كل مملكته إن كان ذلك يسرّه ، ويعرض موقعاً في مملكته لإنشاء حصن برتغالي ، وانّه بهذا إنما يظهر بشكل عملي رغبته الشديدة في صداقة البرتغاليين ، وقال السفراء إن الزاموريم يرجوه أن يرسل كذلك من طرفه شخصاً موثوقاً به جداً لترتيب هذا الأمر على أسس متينة .

فأجابهم أفونسو دلبوكيرك أنه باسم سيده ملك البرتغال يقبل هذه العروض وأنه -أي أفونسو دلبوكيرك- في هذه الحال سيخدم الزاموريم بكل أسطوله وجنوده الموجودين في الهند على وفق لما يشاء وأنه سيرسل بلا توان بصحبتهم خادم سيده الملك البرتغالي ليعالج هذا الأمر الذي اقترحوه . ولأن أفونسو دلبوكيرك كان منذ فترة راغباً في ترسيخ قدميه في كلكتا وإنشاء حصن هناك مع عقد سلام وصداقة ، فإنه بعد ثلاثة أيام أو أربعة من تداول الأمر مع القادة والقباطنة حول هذا الموضوع ، واجتماع رأيهم على أنه من صالح ملك البرتغال كثيراً إنشاء حصن في كلكتا ، استدعى السفراء وأظهر لهم عزمه باسم ملك البرتغال وأرسل معهم خادم الملك سيماو رانجل Simao Rangel في سفينة من نوع الفوستا Fusta ومعه تعليمات مكتوبة بطريقة التفاوض والتصرف .

وحالما وصل سيماو رانجل إلى كلكتا إتجه إلى مَتْن سفينة سيماو أفونسو (وهي من نوع الكارافيلا "Caravela") التي كانت في الميناء ، وانتظر هناك جواب الملك (الزاموريم) فهكذا أمره أفونسو دلبوكيرك أن يفعل . فلمّا وصل السفراء لحضرة الملك (الزاموريم) قصّوا عليه كيف أنه وضع أفونسو دلبوكيرك في جوا (كَوا) متين وكيف أنه متمركز ومتحصن جيداً بالمدينة وكيف أن البرتغاليين هزموا القائد التابع للعادل خان الذي كان قد قدم إلى الأراضي التابعة لجوا ، وقالوا له إن أفونسو دلبوكيرك قد أرسل خادم الملك البرتغالي ليُقرّ إتفاق سلام .

وعندما علم الزاموريم (السامري في بعض الكتب العربية) أن سيماو رانجل Sima'o Rangel على متن كارافيلا ولا يريد النزول إلى السّاحل أمر ولاة الأمر في المدينة أن يتصلوا به ، ففعلوا وأجروا معه حواراً طويلاً حول شروط السّلام دون أن يتّفق الطرفان على أية نتائج محدّدة ، فلم يكن ملك كلكتا راغباً إلاّ في منح موضع للحصن في شيول Chale ، بينما أمر أفونسو دلبوكيرك في تعليماته المكتوبة أنه لن يقبل إلاّ موقعاً في ميناء كلكتا مواجه لحاجز الماء ومكان الرسو الخاص بالملك(١) ، ولم يصل الطرفان إلى نتيجة لأن ملك كلكتا لم يكن راغباً في منح أي موقع للحصن في بلاده وإنما كان يريد أن يخادع بترك الأمر مفتوحاً (دون الوصول إلى نتيجة) حتى يرسل التجار المسلمون سفنهم التي حَمّلوها لتنطلق إلى البحر الأحمر وأن هذا الأمر لا يمكن أن يتم والسفن البرتغالية Cravelas ملّقية مراسيها في الميناء .

وعندما أدرك سيماو رانجل Sima'o Rangel هدف هذا التأخير وأنه نتيجة سوء نية ملك كلكتا وخداعه كفّ عن التحاور مع أولي الأمر في المدينة واعتلى متن سفينته his fusta واتخذ طريقه إلى جوا وسرد على أفونسو دلبوكيرك ما جرى والطريقة الملتوية التي أدار بها الزاموريم المفاوضات وأعلن رأيه الذي مؤداه أن ملك كلكتا (الزاموريم) لن يأذن طائعاً مختاراً بإقامة أي حصن برتغالي في أراضيه ، وأنه لن يقدم إلاّ موقعاً في شيول (شول) Chale .

ولما كان أفونسو دلبوكيرك في ذلك الوقت قد استعد بأسطوله ليتجول عند مضايق البحر الأحمر -وهي الحملة التي ألغاها بعد ذلك ، وحوّل مسارها إلى ملقى كما سنذكر بعد ذلك- فقد ترك هذا الأمر مفتوحاً (معلّقاً) حتى عودته من ملقى وطلب من مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda أن يبقى كرئيس لقباطنة الأسطول في ساحل الهند وأن يواصل تجواله إلى ميناء كلكتا لإلحاق الضرر به بكل طريقة ممكنه ومنع أية سفينة من الخروج منه .

لكن بينما كان أفونسو دلبوكيرك بعيداً في ملقى أقبل الترك (أحد

(١) أو Jetty أو سيرام Cerame . أنظر جـ١ ، فصل ٣٠ ، حاشية ١ .

عناصر مسلمي الهند) لحصار جوا فاضطر مانويل دي لاكيردا لترك ساحل كلكتا ليهب لمساعدة جوا . وانتهز المسلمون هذه الفرصة لإرسال سفنهم المحمّلة بالبهار إلى مضايق البحر الأحمر ، فلما تقدموا في إبحارهم حتى جزيرة سقطرى ووصلوا إلى ما بين رأس جوردفوي ومقدشيو[(١)] دهمتهم عاصفة عاتية فجنحت سفينتان من سفنهم ، ووصل المسلم المصري[(٢)] (محمد المصري) Mafamede Macari الذي كان يبحر معهم إلى جزر المالديف[(٣)] .

وعندما علم التجار المسلمون الذين يعيشون في كلكتا أن تجارتهم البحرية قد وضعت أمامها العراقيل (قُطع سبيلها) غادروا ببضائعهم فبعضهم ذهب إلى القاهرة وآخرون إلى كمبي (كمبايا) وآخرون إلى هرمز وأنحاء أخرى فلم يبق من الغرباء في كلكتا سوى عدد قليل ، وهم الذين اعتادوا أن يأتوا من آسفي[(٤)] Cufim ومن وهران[(٥)] Oura'o وتلمسان[(٦)] Tremecim وطرابلس[(٧)] Tripoli ببضائعهم ، إلى القاهرة ، ومنها -أي من القاهرة- يتخذون طريقهم في العادة إلى جدّة[(٨)] ، ومنها إلى كلكتا ، ومعهم نقودهم ، وهناك (أي في كلكتا) اعتادوا بناء سفن جديدة وتحميلها بالبهار ومن ثم يعودون إلى بلادهم .

وذات مرةً سأل أفونسو دلبوكيرك مسلماً من هؤلاء كان قد أستولى البرتغاليون على إحدى سفنهم القادمة من مضايق البحر الأحمر ، كيف يغامرون بالقدوم من بلادهم النائية للإتجار في كلكتا وهم يعلمون أنها تقع بين

---

(١) على ساحل الصومال في أفريقيا .

(٢) Mafamede "مافاميد" من الواضح أنها تحريف لاسم محمد .

(٣) في المحيط الهندي . ٥ْ شمالاً ، َ٣٠ ، ٣٧ْ شرقاً .

(٤) Cufim ويسميها البرتغاليون أيضاً أزافي Azafi وأهل البلاد يسمونها أسفي Asafi ، على ساحل المغرب الأقصى Barbary َ١٧ ، ٣٢ْ شمالاً ، َ٨ ، ٩ْ غرباً ، ويوجد سرد قيّم عن هذه المدينة الكبيرة في :
"Le grand Dictionnaire Geographique of M. Bruzen de la Martiniere , Paris , Folio, 1768 ."

(٥) Oura'o ، الآن Oran "وهران" على ساحل شمال أفريقيا .

(٦) Trameca وأيضاً Tremecem و Telemican ، Telmsen و Tlemecan أو Tlemcen ، وكان يطلق عليها قديماً Timisi ، إلى الجنوب الغربي من وهران بخمسين ميلاً ، َ٣٢ ٣٤ْ شمالاً ، درجة واحدة و ١٨ دقيقة غرباً

(٧) طرابلس على ساحل الشمال الأفريقي .

(٨) جدة ، أنظر جـ١ ، فصل ٦٠ ، حاشية ٦

حصنيْن برتغاليّيْن وأنهم مجبرون على المرور في أماكن قريبة من أسطولنا (البرتغالي) ، فأجاب المسلم أن الأرباح التي يجنونها هائلة مما يجعلهم يخاطرون لأن كل كروزادو Cruzado يدفعونه في كلكتا يجنون من ورائه اثني عشر أو ثلاثة عشر في جدة وفي كل موضع آخر يتوقفون فيه عند مدخل البحر الأحمر ، وقال هذا المسلم أنه بسبب ضخامة هذا المكسب والأرباح الهائلة الناتجة عن تجارة الفلفل أيضاً فإن المسلمين المقيمين في كلكتا يعملون على منع الزاموريم (السامري كما تورده بعض الكتب العربية) من إعطاء موقع إلى البرتغاليين لتشييد حصن في بلاده لأنه إن حدث هذا لم يستطع التجار المسلمون القيام بتجارتهم البحرية هذه إلى مضايق البحر الأحمر .

الفصل الثامن

كيف أرسل ملك نارسينجا سفراءه لزيارة أفونسو دلبوكيرك بمناسبة استيلائه على جوا ، والأخبار التي أتى بها (الأخ) لويس إليه وما جرى بعد ذلك .

بعد أنْ أرسل أفونسو دلبوكيرك "الأخ" لويس Luiz إلى نارسينجا –بعد الكارثة التي حدثت في كلكتا كما سبق أن ذكرتُ– لَمْ يتلقَّ أيَّة أخبار عن كيفيَّة سيْر الأمور معه فيما يتعلق بالتعليمات الصّادرة إليه ، لكن عندما تمَّ الاستيلاء على جوا (كَوا) للمرَّة الثانية ، فإنَّه ما أن وصلت أخبار هذا الاستيلاء إلى نارسينجا حتَّى سارع ملكها بإرسال سفرائه لأفونسو دلبوكيرك ، وعن طريق هؤلاء السفراء بعثَ "الأخ" لويس له (أي لأفونسو دلبوكيرك) عن الوضع في نارسينجا عند وصوله إليها ، وسرَد عليه في خطابات أخرى كيف أنَّ الجميع قد أحسنوا استقباله فيما عدا الملك ، وبهذه المناسبة أراد أن يُخبر أفونسو دلبوكيرك أن ملك نارسينجا كان قد استعد بخمسة آلاف جندي مشاه وألفيْ فارس لشنِّ حملة على أحد الأمراء التابعين له كان قد أعلن العصيان وحاصر مدينة بيرجوندا[1] Pergunda ، وأعلن –أي هذا الثائر– أنَّه أحق بالمُلك ، وأنَّ الملكَ بعد تمكّنه من هذا الثائر ، تقدَّم بكل قوَّاته إلى مواقعه على حافة البحر ، وأنَّه (أي فراي لويس) لا يستطيع أنْ يفهم مَغْزى ذلك ، لكن لأن جوا (كَوا) قريبة جداً فإنه ينصح أفونسو دلبوكيرك بأن يُجري اتصالات ذات طابع

(١) بيرجوندا ، وربما بوركوندي (Prukundi) في البنغال ´٢٥ ، ٣٠ ° شمالاً ، ´٤ ٧٩ ° شرقاً .

ودي بالملك (ملك نارسينجا) ، وألاّ يُعوِّل بأية حال على ملك جارسوبا Garcopa ولا على تيموجا Timoja لأنهما نَوا نيّات سيئة ، حتى أنهما كتبا إلى ملك نارسينجا ذاكرين له أنه إنْ رغب في استعادة جوا (كَوا) -لأنها كانت قديماً تابعة لأجداد هذا الملك- فمن الضروري أن يُرسل لهما مشاة وخيّالة وأفيالاً ، فهما بذلك يُسلِّمان المدينة (جوا) قبل أن يتمكن البرتغاليّون من تحصين أنفسهم بها . واستمر (أي فراي لويس) قائلاً أنه تلقّى معلومات موثوقاً بها مؤدّاها أنّ العادل خان قد أرسل قوة كبيرة لمهاجمة مدينة كالبرجيت[(١)] Calbergate – وزيرها خَصِي (طواشي) حبشي اسمه ملك دستور[(٢)] مملوك لملك الدكن[(٣)] ، ولأنّه لم يستطع مواجهة الحصار فقد استسلم بعد شهرين بشروط مُعيَّنه ، وقد ثار ضدَّ العادل خان أربعةٌ من وزراء المملكة المهمِّين (لأن العادل خان قد حمل معه ملك الدكن أسيراً بعد أن جرّده من كل سلطاته) وقد أعد هؤلاء الوزراء الثائرون قوات كثيرة على أمل أنْ يُدمّروا بها العادل خان فلما وصل هؤلاء الوزراء الثائرون بقوّاتهم عند مجرى مائي لم يستطيعوا اجتيازه ، توقّفوا وراحوا ينتظرون ، ولكن العادل خان -بسبب خوفه منهم- أرسل يستدعي الجنود الذين كان قد أناط بهم حراسة أراضي (بلاد) جوا .

واستمر فراي لويس قائلاً أنه قد وصلت أخبار إلى ملك نارسينجا أيضاً مُفادها أنّ أولي الشأن من هندوس مدينة بيلجاو[(٤)] Bilga'o (حالما سمعوا عن استيلاء البرتغاليين على جوا وتحصّنهم فيها) قد انخرطوا في ثورة ضد العادل خان وطردوا المسلمين من المدينة (بيلجاو) ووضعوا أنفسهم تحت إمرة ملك نارسينجا ، لأن هذه المدينة (بيلجاو) كانت -قبل استيلاء العادل خان عليها- تابعة له . ومدينة بيلجاو Bilga'o مدينة كبيرة جداً ، وبها حصن واسع جداً

---

(١) كولبورجا (Kulburga أو Golburga أو Cailberga) في ممتلكات نظام Nizam dominations التابعة للبنغال ٢٠َ ، ١٧ ْ شمالاً ، ٥٢َ ، ٧٦ ْ شرقاً .

(٢) Melique Distur . شرحنا المقطع الأول في حاشية سابقة ، وكلمة دستور تعني بالفارسية والعربية (وزير) لكنها هنا أقرب ما تكون إلى كونها اسم الشخص .

(٣) " Decam = Deccan " .

(٤) (Belga'o أو Belgaum أو Belganw) في ولاية بمباي ٥٠َ ، ١٥ ْ شمالاً ، ٣١َ ، ٧٤ ْ شرقاً .

وحصين ، وهي ممر وميناء رئيسي من مملكة الدكن إلى جواء (كَوا) . وتوجد سلسلة جبلية ممتدة امتداداً كبيراً تُشرف على أراضي جوا ، كما تُشرف سلسلة جبال الجارف Algarve "في البرتغال" على سهل وريك Ourique ، وعندما تتجاوز هذه السلسلة الجبليّة مملكة الدكن تستمر على طول الهضبة المسطحة ، كما كان حالها على طول السّهل . ولأن السبب الرئيسي الذي جعل السيباهي (والد العادل خان) يستولي على جوا هو أنَّه استولى على هذا الحصن بخداعه للهندوس ، لذا فقد كان أفونسو دلبوكيرك يكرّر دوْماً كلَّما وجد نفسه مستاءً من إلحاح العادل خان – أنّه إذا كان ملك البرتغال راغباً في أن تظل مملكة جوا له ، فعليه أن يبذل كل جهده للإستيلاء على هذا الحصن ، فباستحواذه عليه ، يؤمّن كل ممتكاته هناك . أما بالنسبة للمفاوضات التي أمرته التعليمات الصادرة إليه (أي الصادرة لفراي لويس الآنف ذكره) أن يُجريها ، فقد عرض محتواها مراراً أن يتلقّى إجابةً تحقّق غرضه ، وإنما كان يلقي دائماً عقبات في طريقه ، وأخيراً قال له ملك نارسينجا إن كان شديد الإستياء لأوامر الهجوم عليه وأنه يمكنه بناء حصن في باتيكالا Baticala لأنه –كما قال– شديد الرغبة في صداقته (أي صداقة أفونسو دلبوكيرك) في الوقت نفسه الذي يعلَم فيه أنّه عقد هذه الصداقة نفسها مع العادل خان ، وإن كان هذا لا يتفق مع عروضه (أي عروض أفونسو دلبوكيرك) بمساعدته على الاستيلاء على مملكة الدكن التي كانت تابعة له منذ القدم . وعندما انتهت هذه اللقاءات مع الملك ، أرسل –أي ملك نارسينجا– لوالي المدينة ولامه كثيراً لرغبته في هذا التحالف مع العادل خان . وقال لفراي لويس إن ملك جارسوبا Garcopa أيضاً قد كتب له خطاباً يُمكنه بمقتضاه أن يدمّره تدميراً لو أراد ، لكن لأنهما الآن أصدقاء جداً فلن يفعل ذلك ، وإن كان ذلك قد تم طلباً للمال الذي وعد بإعطائه له كل عام ، فإن العادل خان سيُبدي لهما them نوايا حسنة كتلك التي أبداها أبوه نحو ملك نارسينجا عندما أسره في معركة ثم أطلق سراحه مقابل وعد وعده إياه بأن يكون في خدمته إلى الأبد .

وعندما تسلّم أفونسو دلبوكيرك هذه المعلومات من فراي لويس Fray Luiz وعما جرى مع ملك نارسينجا وحاكم المدينة التابع له ، أصبح في حالة ترقّب قَلِق لأنه وجد أنّه قد انسحب من أمر كان يُعلنه مراراً -أعني به مساعدته ملك نارسينجا ضد العادل خان . لكن لأنه -أي أفونسو دلبوكيرك- كان يعرف الظروف التي أدّت إلى ذلك قد راح يُصانعه وكتب إلى فراس لويس Fray Luiz خطاباً حمّله للسفير نفسه الذي جلب معه خطاباته (أي خطابات فراي لويس) يذكر له فيه أن عليه أن يستأذن من ملك نارسينجا ، مرائياً ومصانعاً ومخادعاً وأن يعود فوراً . وراح أفونسو دلبوكيرك ينشغل باتصالاته مع العادل خان طالباً عقد صداقة معه . فقد قتله الترك (أحد عناصر مسلمي الهند) وقيل إن ذلك كان بأمر العادل خان ، وسلّم السفيران الرسالة التي بعثها أفونسو دلبوكيرك للملك وقالا له إنهما عندما كانا في جوا اكتشفا أنه (أي أفونسو دلبوكيرك) كان يراسل العادل خان . وانزعج ملك نارسينجا لهذا التحالف لأنه يعلم أن لدى العادل خان خيولاً هي سبب قوة جيشه ، لذا فإنه -أي ملك نارسينجا- سرعان ما أعاد سفيريَه إلى أفونسو دلبوكيرك بتصميم كامل على عقد معاهدة صداقة معه ولتنظيم اتفاقات تجارة الخيول بينهما .

الفصل التاسع

إرساء بعض الأمور في جوا وإنشاء دار للسّك وما تَبِعَ ذلك .

لقد كان أفونسو دلبوكيرك توّاقاً لأن تعود جوا لحالتها التجارية المزدهرة التي كانت عليها دائماً تحت حكم السيباهي ، لذا فحالما أصبح الحصن البرتغالي على وشك التمام ، أرسل عدّة قباطنة ليبحروا على طول الساحل ، حاملين أوامر بإجبار كل السفن التي يلْقونها على التوجّة إلى ميناء جوا . وقد فعل ذلك لسببين . أولهما لرغبته في الاستفادة من الميناء ، وإعادة عدد سكان المدينة لما كان عليه ، وحتى تأتي قوافل نارسينجا Narsinga ومملكة الدّكن ببضائعها إلى جوا بحثاً عن الخيول كما اعتادوا قبل ذلك (لأن خيول هذا الإقليم تحظى بتقدير ، وتُدر عائداً مالياً كبيراً ، لأنه بالإضافة إلى استخدامها في أغراض حربية ، فإن قادة هذه الأنحاء وأولي الأمر اعتادوا حمل زوجاتهم عليها) ، أما السبب الآخر رغبته في تدمير ميناء باتيكالا Baticala الذي حقق ثراء وشهرة بفضل تجارة الخيول ، وبفضل البضائع الوافرة التي ترد إليه من هرمز إذ كان من رأيه أنه إذا ما أصبحت تجارة الخيول رائجة راسخة الأقدام في جوا لأصبح فيها –بشكل دائم– ما بين أربعمائة إلى خمسمائة حصان لدى التجار ، ويمكنه –أي أفونسو دلبوكيرك– ساعتها أن يستخدم هذه الخيول عند الضرورة. ونتيجة السّعي الحثيث الذي بذله أفونسو دلبوكيرك لتحقيق هذا الهدف ، ولأنه كان قد أصدر الأوامر بتقديم المخازن في المدينة للتجّار المهمّين حتى يتسنى لهم ترتيب بضائعهم على نحو أفضل ، فسرعان ما بدأت السفن التجارية تأتي من أنحاءَ كثيرة إلى ميناء جوا وأتت بعض السفن من هرمز حاملة خيولاً . وأصدر أوامر بإنشاء بعض الأصطبلات الواسعة ، ونظّم اشتغال ثلاثمائة من أهل البلاد

لنقل الحشائش والقش وغير ذلك مما تحتاجه الخيول ، وحتى يضمن للسفن أن تجد ما تحمله بعد إفراغ حمولاتها فقد أمر مسئولي المحطة التجارية أن يُراعوا دوماً أن يكون لديهم في المحطة فلفلاً وقرنفلاً وزنجبيلاً وكل أنواع البضائع التي يحتاجها التجار ، وذلك حتى لا يبحثون عن حمولات يحمِّلون بها سفنهم من موانيء أخرى ، وأن يعمل مسئولو المحطة على تحرير مستندات تُسلّم مع الحمولات إن أراد قباطنة هذه السفن الإبحار تفيد أنهم متجهون إلى هرمز وليس إلى أي ميناء آخر ، فقد كان أفونسو دلبوكيرك راغباً في تدمير تجارة البحر الأحمر the Steaits .

ونظراً للحرية التي تمتع بها المسلمون في تحميل سفنهم بالبهار من جوا ، فقد أقبل كل تجارهم للإتجار ، وكان من بين هذه السفن التي تجلب الخيول إلى جوا ، سفينة تابعة لخوجة أمير(١) ، الذي كان أفونسو دلبوكيرك قد أعطاه سفينتين محمَّلتين بالبضائع بمناسبة استيلائه على جوا أوَّل مرَّة ، وقد أبحرت السفينتان بالفعلّ إلى هرمز . إن هذا الرجل (خوجه أمير) الآن يبادل الخيول بالبضائع ، وعندما وصل إلى الهند وعلم أنَّ مسلمي جوا قد ثاروا ضد أفونسو دلبوكيرك في أثناء فترة الاستيلاء الأول على جوا وأنهم طردوه منها ، إتخذ طريقه مُبحراً إلى دابل Dabul "دابول" واتجه ليُقدم للعادل خان ما معه من خيول كهدية . لكن عندما علم أفونسو دلبوكيرك بوصول هذا الرجل (خوجه أمير) أمر رجاله بالقبض عليه بسبب خيانته التي تورّط فيها وأن يأسروا معه واحداً من أبنائه فتم تنفيذ الأمر وتم تكبيل خوجه أمير وابنه في الحديد وتم الإستيلاء على ما معهما من بضائع ، وكان من بينها خمسة عشر حصاناً وتم إيداعها جميعاً في المحطّة التجارية .

وبعد أن رتب أفونسو دلبوكيرك كل هذه الأمور ، أسس إدارة رئيسية لسك العملة الفضية والذهبية والنحاسية تماماً كما كان عليه الحال عند استيلائه على

---

(١) أنظر جـ٢ ، فصل ٢٣ .

جوا (كَوا) أوّل مرّة[1] ، وأمر بإحضار كل النقود التي أصدرها الحكام المسلمين إلى دار السك لدمغها بشعار ملك البرتغال وظلّ محتفظاً لها بأسمائها الأولى كما ذكرنا آنفاً[2] وزوّدت دار السّك هذه المنطقة من باتيكالا Baticala إلى شتم[3] Chetim بستمائة ألف راي[4] reis وتم تعيين ألفارو جودنهو Alvar Go-dinho أميناً لدار السك وهو برتغالي تزوّج من نساء جوا كما تم ملء كل الوظائف الشاغرة في دار السك هذه ببرتغاليين متزوجين تشجيعاً للتزاوج بين البرتغاليين وأهل البلاد[5] . ذلك لأنه في ذلك الوقت كان في جوا قرابة ٤٥٠ رجلاً متزوجاً ، وكانوا جميعاً من خدم الملك البرتغالي ومن خدم المملكة البرتغالية وأولي المكانة في البرتغال ، وكان عدد الراغبين في الزواج كبيراً فلم يكن أفونسو دلبوكيرك يستطيع ملاحقة طلباتهم لكثرتها فلم يأذن إلاّ لمن تُؤهله شخصيته للزواج ، لكن لأنه كان راغباً في التصريح لأكبر عدد منهم بالزواج ، ولأنهم فعلاً كانوا ذوي شخصيات تؤهلهم لمسؤولية الزواج ، ورغبة منه لمكافأتهم لخدماتهم ، فقد أراد منحهم هذا الامتياز (الزواج) وتوسّع في ذلك خارج نطاق الصلاحيات التي أعطاها ملك البرتغال له ، ذلك لأن النسوة اللاتي زوّجهن من رجاله كُنّ بنات أولي الشأن في البلاد .

لكل هذه الأسباب توسّع في إعطاء حق الزواج لرجاله ، بالإضافة إلى أسباب أخرى منها أنه عندما يعلم الهندوس ما فعله ببناتهم ، وأخواتهم ، وبنات أخواتهم ، وبنات عماتهم وبنات خالاتهم ، فقد يفضلون الدخول في المسيحية ، ولهذا السبب لم يعمل على استرقاق النساء وإنما أمر بإبعادهن عن سادتهن الذين امتلكنهن ، وقد وزّع أفونسو دلبوكيرك على المتزوّجين ، الأراضي والمنازل والماشية وكل ما هو موجود ليبدأوا حياتهم ، فإذا ما طلبت امرأة من اللاتي زوّجهن منزلاً كان لأبيها أو لزوجها (السابق) أمر بإعطائه لها ، وفي هذه المنازل

(١) أنظر جـ٢ ، فصل ٢٤ .
(٢) أنظر جـ٢ ، الفصل نفسه .
(٣) نفسه ، الحواشي .
(٤) قرابة ١٢٥ جنية إسترليني .
(٥) أنظر جـ٢ ، فصل ٢١ .

وجدن جواهر كثيرة وقطعاً من الذهب كانت مخبّأة تحت الأرض ولم يستطع أصحابها -لعجلتهم- أن يأخذوها معهم عندما استولى البرتغاليون على المدينة . أما بالنسبة لأوقاف المساجد والباجودات Pagodas الهندوسية فقد جعلها جميعاً للكنيسة الرئيسية في المدينة (جوا) وتم وهْبها لروح القديسة كاترينا Sancta Catherina التي تم الاستيلاء على المدينة (جوا) في يوم ذكراها[1] . لكن واجهت أفونسو دلبوكيرك معارضات كثيرة بشأن سياسته في منح أنون كثيرة لراغبي الزواج من قبِل غير الموافقين على استمرار احتفاظه بجوا . وكان المعارضون الرئيسيون لسياسة أفونسو دلبوكيرك هذه هم :

رئيس المركز التجاري في كوشن (كوشيم) لورنزو مورينو Lourenco Moreno ، وأنطونيو ريل Antoino Real رئيس القضاة (أو مسؤولي العدالة) وجاسبار بيريرا Gaspar Pereira وديوجو بيريرا Diogo Pereira الذين لم يكتفوا بعقد اجتماعات فيما بينهم للتداول في هذا الأمر ، بل لقد وصل بهم الأمر إلى الكتابة للملك البرتغالي د. مانويل ذاكرين حججهم طالبين من الملك منع هذا الأمر . وكانت حجتهم الرئيسية أن هذا يؤدي إلى مزيد من النفقات ويؤدي لضياع ممتلكات الملك البرتغالي ، مما يحثه على الإسراع في منعه .

وقد عيّن أفونسو دلبوكيرك كقائد للحصن : رودريجو رابيلو Rodrigo Rabelo وكان رجلاً شجاعاً يتسم بالفروسية . كما عيّن فرنسسكو بانتوجا Francisco Pantoja رئيساً للعدالة ، وفرنسسكو كورفينل Francisco Corvinel كوكيل تجاري وهو بندقي الميلاد . وكان موثّقو المحطة التجارية هم : جواو تيكسيرا Joa'o Teixeira ابن جواو باسانها Joa'o Pacanha من ألينكير of Alenquer (وكان قد صحب أفونسو دلبوكيرك في غزوه الأول لجوا) وفيسنت دا كوستا Vicente da Costa (ابن الرئيس أفونسو الذي كان كبير أطباء الملك د. مانويل) وقد تزوّج في جوا . وسنّ أفونسو دلبوكيرك قوانين لسكان المدينة فيما يتعلق

---

(١) أنظر جـ١ ، مقدمة الطبعة الإنجليزية .

بتعيين القضاة وأصحاب المناصب الرئيسية[1] والمشرفين على الموازين والمكاييل والمقاييس[2] (المحتسبين) وذلك كل عام .

وبعد أن صدرت الأوامر بكل هذا (بالإضافة لأمور أخرى حذفتها تجنباً للإطناب) بدأ أفونسو دلبوكيرك يجهز أسطوله بقصد ألاّ يقضي الشتاء في جوا بسبب نقص المؤن بها ولقلة المال اللازم لدفع أجور رجاله ، فترك في جوا أربعمائة رجل لحماية حصنها وترك عدداً كبيراً من المدافع بين كبير حجمه وصغير أيضاً ، وباروداً وملحاً صخرياً (نترات البوتاسيوم والصوديوم) وكبريتاً ، وثمانين فارساً ممن كان لهم زوجات من جوا واستقروا بها ، وعيّن دوارت دي ميلو Duarte de Mello رئيساً لقباطنة البحر ، على رأس أربع سفن وثلاثة قوادس galleys وأمره أن يتجول إزاء السّاحل الهندي وأن يزوّد المدينة (جوا) بما يلزمها ، فإذا ما وصل مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda –وكان أفونسو دلبوكيرك قد تركه ليكون رئيساً لقباطنة الأسطول في كوشن (كوشيم) وخوّله كل سلطاته– فعليه (أي دوارت دي ميلو) أن يطيعه وينفّذ أوامره كما لو كان أفونسو دلبوكيرك نفسه . وبالنسبة للأجور ومصروفات الأسطول المتبقي في جوا ، فقد أمر أفونسو دلبوكيرك بتخصيص مبلغ الأثني عشر كروزادو Cruza-dos التي تعهد مرلاو Merlao بدفعها كإيجار للجزيرة لهذا الغرض .

(١) Vereadores .

(٢) Almotaceis وهناك صيغ أقدم مثل (almosabel و Almohtasib) ، وأصلها العربي واضح : المحتسب .

الفصل العاشر

كـيف تصـرّف بنداري* Bendare' *حـاكم ملقى عندما سمع باستيلاء البرتغـاليين على جوا ، وعن الأخبـار التي كتب روي أروجو* Ruy Araujo *(الذي كان أسيراً في ملقى) بشأنها إلى أفونسو دلبوكيرك .

لقد كانت جوا (كَوا) ذات شهرة كبيرة من مختلف ممالك الهند ، لذا فسرعان ما انتشرت أخبار استيلاء البرتغاليين عليها وطردهم الترك (أحد عناصر مسلمي الهند) منها ، بين تجّار كلكتا . وعندما وصلت هذه الأخبار إلى ملقى خشي البنداري the Bendara' –الذي يحكم المملكة نيابة عن ابن أخيه– أن يُصمم أفونسو دلبوكيرك على المجيء إلى ملقى انتقاماً منه لما بدر منه من خيانة ضد البرتغاليين وسلبه لهم[1] –فلم يضع وقتاً بما عرف عنه من خداع ومكر– فزوّد مدينته (ملقى) بكميات وافرة من المؤن ، وذهب إلى روي دي أروجو Ruy de Araujo وغيره من الأسرى الذين كان قد سجنهم وراح يُعاملهم معاملة سيئة ، وقال لهم –دون أن يُخبرهم بمجريات الأمور في الهند– إن الاضطرابات التي قامت ضد البرتغاليين لم تكن من تدبيره ، ولا بأمره ، وإنما دبّرها أهل كجرات Guzerates والجاويون Joas دون علم منه لخوفهم من أن يُعاملهم البرتغاليون معاملة سيئة عند خروجهم من ميناء ملقى ، بل إنه قال أن كان ينوي معاقبة هؤلاء الناس بشدّة لأنه شديد الرغبة في الارتباط مع البرتغاليين

(١) أنظر جـ٢ ، الفصل ١٧ .

برباط الصّداقة ، ويتمنّى أن يراهم يتداولون التجارة مع ملقى .

فلما إنتهى لقاء البنداري بهم أصدر أوامره بنقلهم لمنزل خارج المدينة لم يكن كئيبـاً كآبة المنزل الذي كانوا محتجزين فيه . وعندما سَمِع نيناشاتو -Ninacha tu .وهو هندوسي مقيم في ملقى أدى في أوقات كثيرة خدمات طيبة لرجالنا البرتغاليين الذين كانوا في الأسر- بأخبار الاستيلاء على جوا ، ذهب إلى البنداري 'Bendara وقال له إذا كان البرتغاليون قد استولوا على جوا كما تفيد الأخبار ، فإنه يخشى أن يرغب حاكم الهند (أفونسو دلبوكيرك) في القدوم إلى ملقى للثأر لما حدث لقبطان ملك البرتغال (روي دي أروجو) لذا فمن رأيه أن يأمر بإطلاق سراح روي دي أروجو Ruy de Araujo ومن معه ، وأن يعاملهم معاملة طيبة جداً فمن المحتمل أن يكون الوقت قد حان لاستخدام هؤلاء الرجال للوساطة (أي بين حاكم ملقى وأفونسو دلبوكيرك) . وأسعدت هذه النصيحة البنداري فأمر بإطلاق سراح البرتغاليين وقدّم لهم مسكناً يعيشون فيه وعشرة آلاف كالين Calains[(١)] قيمة الأقمشة الكامبية التي تم الاستيلاء عليها من أسطول ديوجو لوبيز دي سيكويرا[(٢)] Diogo Lopez de Sequeira وتاجروا بها (أي أهل ملقى) ودعّموا أنفسهم بأرباحها فتلك كانت عادة ملك ملقى مع عبيده ، وأوضح البنداري للبرتغاليين أن هذه الممتلكات التي قدّمها لهم إنّما هي لهم ، لكن عند وصول السفن البرتغالية ستستقر كل الأمور وسيتم التعويض عن كل خسائرهم . إن سياسة كسب الوقت[(٣)] التي استخدمها البنداري في هذه المناسبة في تعامله مع روي أروجو Ruy Araujo ومن معه ، ليست فقط نتيجة اقتراحات نيناشاتو Ninachatu –الهندوسي آنف الذكر– لكن لأنه كان يوجد بالفعل ينك Junk (نوع من السفن) مستعد للإبحار إلى الهند وكان يريد –أي البنداري– أن تحمل هذه السفينة (الينك) إلى البرتغاليين أخبار معاملته الطيبة لأسراهم . وهذا ما قاله بعض المسلمين لروي دي أروجو Ruy de Araujo

(١) Calains . الكلمة Calaim تعني نوعاً راقياً من النحاس الهندي .

(٢) أنظر جـ٢ ، فصل ١٧ .

(٣) Viztude .

وكانوا أصدقاء له . وقالوا أنه بمجرد أن ينطلق هذا الينك (السفينة) حتى يعود البنداري معهم سيرته الأولى كذلك ، وسيذهب حتى يعود البنداري معهم سيرته الأولى ، وسيذهب ما وعدهم به هباء ، وسيسجنهم مرّة أخرى ، فإذا لم يفعل ذلك فإنما يكون ذلك لخوفه مما سمعه عن تقدم أفونسو دلبوكيرك نحو ملقى .

فلما علم روي دي أروجو Ruy de Araujo بذلك صمّم على أن يُرسل رسالة لأفونسو دلبوكيرك بكل ما جرى في ملقى ورتّب خطة مع واحد من المسلمين اسمه عبدالله[1] Abedalla يحمل فيها هذا الأخير رسالة منه يذكر فيها أنه يريد من أفونسو دلبوكيرك أن يعرف أنّه يوجد على قيد الحياة هنا في ملقى تسعة عشر برتغالياً وأن البنداري حاول مرّات عديدة أن يحوّلهم إلى الإسلام قَسْراً وقسا عليهم كثيراً لهذا الهدف . لكن البنداري يعتريه رعب شديد خشية أن يأتي أفونسو دلبوكيرك إلى ملقى لأنه غير محبوب من أيٍّ من الملوك الذين تجاور ممالكهم مملكته وأنهم جميعاً مضطرون لمعارضته لأنه طاغية مستبد ينهب بشكل مستمر كل التجار الذين يتعاملون في هذا الميناء (ملقى) . وأنه إذا ما استقر رأي أفونسو دلبوكيرك على الذهاب إلى ملقى فيكفي أن يأتي بأضخم أسطول ممكن فإذا ما رأى أهل هذه الأنحاء هذا الأسطول رضخوا للملك البرتغالي في البر والبحر ، وإذا حدث واستولى البرتغاليون على أي ينك Junk (نوع من السفن) في طريقه إلى ملقى فلا يجب استخدام العنف مع ركّابه وإنما يكفي الاحتفاظ بهم كأسرى ، وعند وصوله (أي أفونسو دلبوكيرك) إلى الميناء ما عليه إلاّ أن يُرسل بعضاً من هؤلاء الأسرى إلى البنداري برسالة مفادها أنه (أي أفونسو دلبوكيرك) لا يُريد شن حرب ضد ملقى ولا يريد الاستيلاء على أيٍّ من ممتلكاتها وإنما أن يعقد معه ملك (ملقى) معاهدة سلام وصداقة وأن يسلمه المسيحيين (البرتغاليين الأسرى) وأن يضع نفسه تحت أوامر الملك البرتغالي ، وذلك لأن البنداري بمجرد أن يعلم بوصوله (أي أفونسو دلبوكيرك) حتى يُرسل قادته للمناطق الداخلية على بعد أربعة فراسخ (خوفاً وهلعاً) حتى يتم تسوية

(١) أو Abdelala' ، أنظر جـ١ ، فصل ٣١ .

الأمور مع البرتغاليين لأنه يخشى إن هم بقوا في مواقعهم لوافوا أفونسو دلبوكيرك بكثير من أخبار البلاد . أمـا بالنسبة للأحداث الماضية ، فإنه بعد هـذا اليوم النَّحس وبعد رحيل ديوجو لوبيز دي سيكويرا Diogo Lopez de Sequeiral من الميناء ، فلن يكتب عنها بتفصيل دقيق فكل البرتغاليين الأسرى في ملقى تعرضوا لمعاملة سيئة من البنداري ولا يزالون . حقيقة إنه -أي البنداري- قد أعطاهم منزلاً يقيمون فيه فأحسن بذلك صنعاً وقدم لهم عشرة آلاف كالين[1] Calaine ثمناً للبضائع التي استفاد من أرباحها وأعلن أنه سيعوّض البرتغاليين عن خسائرهم على أن يعوضه -أي أفونسو دلبوكيرك- عن خسائره الناتجة عن مهاجمة البرتغاليين ليانكاته (سفنه Junks) ، وأعلن -أي البنداري- أنه قد عاقب الكجراتيين Guzerates والجاويين Jaos الذين تورطوا في خيانة البرتغاليين أيضاً وكان عقابه لهم شديداً حتى أنهم لن يجسروا على فعل ذلك مرّةً أخرى لأنه -أي البنداري- كما قال توّاق لصداقة ملك البرتغال ويريد أن يكون تابعاً له .

واستمر روي دي أروجو Ruy de Araujo قائلاً إنه نظراً لكل هذا ، ولأمور أخرى لم يكتبها لعدم علمه بها ، فإن البنداري يقدم كل يوم آلاف الاعتذارات لكنه (أي روي دي أروجو) وكل من معه يرجون أفونسو دلبوكيرك أن يضع في اعتباره -حباً للرب- أن يخلّصهم من أسْرِهم هذا وأن يعطي للمسلم حامل هذه الرسالة عشرين كروزادو لجهوده لأنه كان قد أقرضها للأسرى البرتغاليين ليشتروا بها طعاماً ، وأن يعامله بلطف لأنه كان دوماً يساعدهم ويصحبهم وبالإضافة لهذا فقد قبِل القيام بهذه الرحلة إليه مع أنه يعرّض -بذلك- حياته لخطر كبير إنْ اكتشف البنداري أو أحد رجاله طبيعة مهمته وقال إنه من الضروري ألاّ يجعل (أي أفونسو دلبوكيرك) مسلمي كوشن (كوشيم) يعلمون ما فعله هذا المسلم أيضاً من معروف للبرتغاليين في ملقى حتى لا يكتبوا للبنداري بأمره فيلحقه أذى . وقد كان نيناشاتو Ninachatu (الهندوسي آنف الذكر) هو

(١) كما ورد في الصفحات السابقة في هذا الفصل .

الذي أتاح لهم (أي للبرتغاليين الأسرى) فرصة الكتابة إليه (أي إلى أفونسو دلبوكيرك) وهو الذي دبّر أمر إرسال هذا المسلم إليه حاملاً الخطاب . وإذا لم يتمكن أفونسو دلبوكيرك لأي سبب كان من الوصول إلى ملقى فليرسل خطاباً – بشكل سري بقدر الإمكان– قبل أن يعلم المسلمون باستحالة مجيئه إلى ملقى ، فهو والأسرى معه يثقون في أن ربنا Our Lord سيمنحهم الوسيلة التي تمكنهم من الانطلاق إلى مكان آمن ليتخذوا طريقهم –مرّة أخرى– إلى الهند .

الفصل الحادي عشر

كيف طلب قباطنة أسطول ديوجو مندز منه التوجّة إلى ملقى، وما جرى معهم، وكيف طلب من افونسو دلبوكيرك الإذن بالذهاب، وعن الأسباب التي جعلته لا يعطيه الإذن بذلك.

عندما رأى قباطنة أسطول ديوجو مندز Diogo Mendes أنّ العمل في حصن جوا قد انتهى تماماً وأن أمور المدينة تسير سيراً حثيثاً نحو الاستقرار، كانوا راغبين في الاستمرار في رحلتهم إلى ملقى، لذا توجهو إلى ديوجو مندز وقالوا له إن سفنهم سفن تجّار تعاقدوا مع الملك دوم مانويل لتذهب -أي هذه السفن- إلى ملقى لتحميل حمولاتها، وأنهم -أي القباطنة- حتى الآن كان لديهم بعض العذر لتأخرهم في الإبحار لأن الرياح الموسمية لم تكن قد هبّت بعد، أمّا الآن فقد آن أوانها، بالإضافة إلى استقرار أمور جوا وقد خدموا جميعاً الملك البرتغالي حقاً في هذه الأمور، وحان الآن وقت انطلاقهم إلى ملقى. فقال لهم ديوجو مندز إنه يرّحب تماماً بمشورتهم تلك لكن لابد من إعلام أفونسو دلبوكيرك بذلك لا على سبيل المجاملة فحسب وإنما لجعله يموّن السفن ببعض ما هو ضروري لإتمام الرحلة ولابد أن يتصرفوا معه بلباقة لأنه لا يمكنهم الإبحار من هذا الميناء دون إذنه[1]. لكن دينيس سيرنيش Dinis Cer-niche باعتباره أجنبياً (غير برتغالي) ورجلاً يُراعي مكاسبه أكثر من مراعاته

---

(١) أنظر جـ٢، فصل ٤٩.

لشرفه ، فقد أجاب قائلاً إن هذه المجاملات لا معنى لها ويمكن الاستغناء عنها لأن الملك البرتغالي في تعاقداته مع التجار إنما يكون بذلك قد أخرجهم من نطاق سلطان أفونسو دلبوكيرك وكل حكام الهند الآخرين . ومع هذا فلأن ديوجو مندز كان رجلاً محنكاً ورغم أنه أخطأ باستشارته القباطنة التابعين لأسطوله ،

والرُّيسا masters والمرشدين ، فقد أبعد عن عقله الحُجج التي ساقها دينيس سيرنيش Dinis Cerniche ، وذهب إلى أفونسو دلبوكيرك وقال له إنه بينما كانوا في كانانور فإنه -أي أفونسو دلبوكيرك- قال له أنه بمجرد استقرار الأمور في جوا ، وحلول ميعاد الرياح الموسمية سيأذن له بإكمال رحلته (أي رحلة ديوجو مندز) إلى ملقى وسيزوّده بكل الضروريات التي يطلبها لرحلته ، والآن فإن ربنا Our Lord قد وهبه هذه المدينة (جوا) وحقق له (لأفونسو دلبوكيرك) شرفاً كبيراً ، ولم يعد ثمة حاجة الآن لوجوده (أي وجود ديوجو مندز) لذا فهو يرجو أن يتكرّم بتركه لإكمال رحلته نظراً لأن تعاقدات الملك البرتغالي مع التجار لا تحتمل أي تأخير في هذه الرحلة إلى ملقى ، وقال أن القباطنة التابعين لأسطوله (أسطول ديوجو مندز) قد يقتلونه إن لم يواصل رحلته وأنهم يقدّمون له كل يوم طلبات رسمية بضرورة الإبحار إلى مقلى ، لكنه لا يريد أن يفعل دون موافقة أفونسو دلبوكيرك .

فأجابه أفونسو دلبوكيرك قائلاً أنه حقيقة قد وعده في كانانور Cananor أن يُرسله مباشرة حالما يستقر أمر جوا لكنه عندما وعده بهذا لم يكون واعياً بالظروف التي تجري فيها الأمور في ملقى ، وأنه منذ أيام قلائل تلقّى خطاباً من روي دي أروجو Ruy de Araujo يسرد عليه أحوال هذه البلاد ويقول له في هذا الخطاب أنه في حالة ما إذا أبحر إلى هذه الأنحاء فلابُد أن يكون ذلك بأسطول كبير قوي فساعتها ستصبح كل الأمور رَهْن إشارته ، وأنه -أي أفونسو دلبوكيرك- عندما تدبُّر الأمور في ملقى[1] -يرجوه (أي يرجو ديوجو

(1) Os negocios de Malaca estarm de ma desistao. The latter word is equevalent to digesta'o, and' 'the phrasc signifies " of a hard, indigestible, untractable character".
'See vol. ii. nn 81.73.74'

مندز- ألا يُخاطر بسفنه ورجاله ، فأية كارثة ستنزل بهم ، ستستوجب اللوم والتوبيخ فإنه من الواضح من خلال ما حدث لديو جو لوبيز دي سيكويرا[١] Di-ogo Lopez de Sequeira كان أفونسو دلبوكيرك -رغبةً منه في أن تسير أمور الهند بشكل طيب لصالح ملك البرتغال- يعمل دائماً على أن يجعل كل حاكم من حكام الهند هؤلاء يفهم أنه يريد أن يكون في حالة سلام وصداقة معه وأن يفهم أن سيُيَسَّر أمـر تجارة الخيول معه ، لأنه -أي أفونسو دلبوكيرك- بإمتلاكه جوا ، إنما أمتلك مفاتيح هذه التجارة ، وقد عمل أفونسو دلبوكيرك من خلال موقعه هذا على بذر بذور الشقاق والنزاع بين حكام الهند .

وبعد أن كتب أفونسو دلبوكيرك للعادل خان ، أرسل يستدعي سفيري ملك نارسينجا ليبلغهما رسالة شفهية للكهم ذكر فيها أنه منذ عام مضى أرسل له شروطاً معيّنة عن طريق فراي لويس Fray Luiz لكنه لم يتلق بشأنها رداً لذا فلم يستطع أن يتخذ قراراً بشأن الرسائل التي تمّ إرسالها ، فانطلق السفيران ولما وصلا إلى بيسناجا Bisnaga وجدا أن فراي لويس Fray Luiz قد مات إنه لا يمكن فتح قنوات للتجارة مع ملقى إلاّ في ظلال السّلاح[٢] وهذا لا يمكن أن يتم بأربع سفن عتيقات ، وسيفين علاهما الصّدأ . وهناك سببان لا يجعلانه قادراً على إمداده بجنوده وأسطوله (أي أسطول أفونسو دلبوكيرك) ؛ أولهما : أن أمور جوا -كما يمكنه أن يرى بنفسه- في مرحلة دقيقة جداً ، ثانيهما : أن هناك أخباراً مُفادها أن الروم (مماليك مصر) قادمون مما سيجعل الهند كلها في حالة هيجان . فإذا ما انتهت كل هذه المشاكل فإنه (أفونسو دلبوكيرك) يعده (أي يعد ديوجو مندز) أن يساعده كما وعده -قبل ذلك- بالفعل . وبعد مناقشات طويلة أصرّ خلالها أفونسو دلبوكيرك ألاّ يأذن له بالتوجه إلى ملقى ، انصرف ديوجو مندز مستاء فلما وصل لسفينته أتاه القباطنة التابعون له ليعرفوا ما جرى ، فيما عدا بالتيزار دا سيلفا Baltezar da Silva فقد كانوا قد تركوه في

---

(١) أنظر جـ٢ ، الفصل ٧ ، والفصل ١٧ .

(٢) A troco de lancadas. There is here a play on the word troco, which also signifies " exchange" in a commercial sense . "

كانانور لمرضه . وسرد عليهم ديوجو مندز ما قاله أفونسو دلبوكيرك ، فأصرّ الجميع على ضرورة الإبحار إلى ملقى دون بَذْل أيّة محاولة أخرى لإستئذان أفونسو دلبوكيرك .

الفصل الثاني عشر

ديوجو مندز يرفع أشرعة سفنه للإبحار وتجاوز حاجز الماء ، بناء على نصيحة قباطنته ، وأفونسو دلبوكيرك يُرسل من يتعقّبه ويُجْبره على العودة وما جرى بعد ذلك .

والآن ، فنظراً لأنّ القباطنةَ التابعين لديو مندز كانوا غير سعداء لرفض أفونسو دلبوكيرك طلبهم ، ولأنّهم كانوا متمسكين برأيهم في أنه لاحق له في إخضاعهم لأوامره ، ولاهم بمستطيعين الرضوخَ لهذه الأوامر إن هو أصدرها ، لأنهم انطلقوا من البرتغال بأوامر مستقلّة لا تجعل لحاكم الهند -أيّاً كان- إصدار الأوامر لهم ، لكلّ هذا فقد صمّموا على الإبحار واتّخاذ طريق مباشر إلى ملقى . ولأنهم كانوا متشكّكين شيئاً ما من إمكان إبحارهم عَبْر حاجز الماء ليلاً ، فقد حسم الموقف مانويل بيريز Manuel Pirez المرشد ، وقبطان سفينة بالتزار سيلفا Baltizar Silva إذ أعلن أنه يستطيع أن يرشد كل السفن عبر حاجز المـــاء حتى لو كان هــذا في منتصف الليل ، وأنه يمكنه أن يصل بهم إلى ملقى ثم يعود بهم إلى البرتغال دون المرور على ساحل الهند إطلاقاً في رحلة العوْدة .

وبعد أن أعلن مانويل بيريز ذلك ، ما إن حلّ الليل حتى رفع الجمع أشرعتهم -فيما عدا بيرو كورزما Pero Coresma فلم يشترك في هذه المؤامرة وظل متحفّظاً تماماً . والآن ، فإن مانويل بيرز Manuel Pirez -الذي استطاعت سفينته أن تبحر جيداً- ولم يجد صعوبة في اجتياز الحاجز المائي ، لكن السفن

الأخرى ظلت تغير اتجاهها حتى طلع الصبح ، وحالما علم أفونسو دلبوكيرك بالخبر حتى أرسل في إثْرهم على الفور دوارت دا سيلفا Duarte da Silva وجميس تيكسيرا James Teixeira في قادسيْن كما أرسل مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda على طول الساحل على رأس مجموعة من الفرسان ليتجهوا إلى حاجز الماء ويستقلّوا أية قوارب تكون هناك ، لإجبار الهاربين على العودة ، ووجه أفونسو تعليماته لهذين الفريقين من رجاله مؤدّاها أنه إذا لم يَنْصعْ الهاربون لذلك ، فلابُد من إغراقهم جميعاً .

وعندما التقى جيمس تيكسيرا James Teixeira بديوجو مندز Diogo Mendez طلب منه باسم أفونسو دلبوكيرك أن يرجع ، لكن ديوجو مندز الذي كان لا يزال مصمماً على الإبحار لم يرضَخْ لطلبه . فلما أدرك جيمس تيكسيرا أنه لن يُعير أمر أفونسو دلبوكيرك إهتماماً نادى مُخاطباً مارتيم أفونسو Martim Afonso مرشد السفينة الهاربة طالباً منه أن يأمر بإنزال الأشرعة ، فأجابه أنه لن يطيع إلاّ أوامر قائده ديوجو مندز . فلما أدرك جيمس تيكسيرا أنهم لن يُطيعوا الأوامر بالتي هي أحسن ، ولا بالتهديد الخشن ، قصد أن يطلق النار عليه (على ديوجو مندز) بحيث تكون القذيفة فوق الأشرعة ، فأمر بإطلاق طلقة أخرى ، وفي هذه الأثناء وصل دوارت دا سيلفا Duarte da Silva في قادس آخر وأطلق طلقة على هذه السفينة الآبقة فأصابتها في الكرّ (بفتح الكاف وتشديد الراء/حبل لرفع القلِْع وانزاله) فسقطت العارضة الرئيسية في الحال .

فلما أدرك ديوجو مندز أن شراعه الرئيسي أصبح لا يؤدي عمله أصدر أوامره لسفنه الأخرى أن تخفض أشرعتها ، وحالما رأى مانويل بيرز Manuel Pirez أن سفينة القيادة في هذا الأسطول (الصغير) قد خفضت أشرعتها أتى إزاءها وسأل ديوجو مندز عن التعليمات التالية فقال له إن كل ما يمكن أن يفعله هو أن يخفّف من سرعة الإبحار (يُبطيء) وأن يعودوا جميعاً ليتلقوا العقاب جزاء ما فعلوه وبينما الأمور تجري على هذا النحو أقبل بيرو دلبوم Pero Dalpoem – موثِّق الهند– في باراو (نوع من السفن) فلمّا رآه مانويل دي لاكيردا Manuel

de Lacerda إنضم إليه وقبضا على ديوجو مندز Diogo Mendez وكل القباطنة والمرشدين والريّسا وحملاهم إلى المدينة كسجناء .

وأمر أفونسو دلبوكيرك –الذي كان قد تلقى بالفعل معلومات عن تطور الأمر من مبعوث بعثه إليه مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda – بمثول ديوجو مندز بيْن يديه وقال له : كم أنا مندهش لعدم وفائك بوعْدك ، وعدم طاعتك لأوامر قائدك العام أمام سفراء ملوك الهند وأمرائها الموجودين في جوا بسبب مشورة أربعة من الطائشين[1] في أسطولك ، بينما قد اتضح بجلاء أنه ليس من مصلحة ملك البرتغال أن أسمح لك بالذهاب إلى ملقى . فأجاب ديوجو مندز قائلاً : إنني فعلت ذلك لا بقصد كسْر أوامرك ، وإنما لأن شرفي دعاني لأفعل ما فعلت لأنني تعوّدت القيام بالأعمال العظيمة فكنت أنوي الذهاب بقاربين لدعم جزيرة شوراو Chora'o[2] التي انقض عليها الترك (أحد عناصر مسلمي الهند) .

فقال له أفونسو دلبوكيرك : إن هذا ليس عذراً صحيحاً لأنه ليس هناك رجل شريف يحمل ألقاب الفروسية مثلك يمكن أن تعتريه مشاعر غير شريفة إذا ما صدرت إليه أوامر بالقتال لخدمة ملكه ، وإنني أذكرك أنني أرسلت حملة إلى جزيرة شوراو Chora'o على رأسها مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda رئيس قباطنة أسطول الملك ومعه قوارب أخرى ، ولم يرَ في ذلك إهانة له . واستمر أفونسو دلبوكيرك قائلاً : إن ما فعلته أمر خطير جداً ، وأنا لا أستطيع أن أؤدي عملي إن لم أعاقبك وهو ما أنوي عمله تماماً . وأمر بالقبض عليه والتحفظ عليه في الحصن[3] . أما بالنسبة للقباطنة والمرشدين والرُّيسا الآخرين فأمر بتكبيلهم بالحديد وحبسهم حبساً انفرادياً ، وأمر بيرو دلبوم Pero Dal-poem أن يُعد تقريراً رسمياً موجزاً قَدْر الإمكان وبالسرعة الممكنة عن هذا الأمر لأنه كان في جوا في ذلك الوقت سفراء الملك نارسينجا وغيره من ملوك

(١) Sandeos .

(٢) إحدى الجزر الكثيرة القريبة من جوا والواقعة في زمامها .

(٣) A torre de menagem

أنظر جـ١ ، فصل ١٥ .

الهند كانوا شاهدين على كسر أوامره ، وأنه -أي أفونسو دلبوكيرك- يريد ألاّ يغادروا جوا قبل أن يروا ما حلّ بالمخالفين من عقاب .

وعندما تم الاستجواب أمر أفونسو دلبوكيرك أن يجتمع به كل القادة والقباطنة وتلى الموثّق والمحقق على الجميع التهم الموجهة ، فأصدر أفونسو دلبوكيرك أمره بإعادة ديوجو مندز مجلّلاً بالعار إلى البرتغال ليمثل أمام ملك البرتغال ليبرر أمامه أفعاله المشينة كما أمر بإعادة بيرو كوريزما Pero Coresma للبرتغال أيضاً رغم أنه لم يكن مشتركاً في المؤامرة لأنه لم يُفْشِ سرّ هذه المؤامرة ، كما أمر بقطع عنق دينيس سيرنيش Dinis Ceruiche وأمر بسجن كل من مارتيم أفونسو Martim Afonso رئيس المرشدين ، ومانويل بيريز Manuel Pirez مرشد سفينة بالتيزار دا سيلفا Baltezar da Silva وقائدها ، وديوجو فرناندز Diogo Fernandez ريّس سفينة دينيس سيرنيش -في سفنهم (سجنهم في سفنهم) ، كما أمر بتنفيذ هذه الأحكام في اليوم نفسه ، لكن سفراء ملك نارسينجا توسّلوا إلى أفونسو دلبوكيرك أن يعفو عن دينيس سيرنيش (المحكوم عليه بالإعدام) فاستجاب لطلبهم وأعاده للبرتغال مجلّلاً بالعار ليجيب هناك عن التهم الموجهة إليه .

الفصل الثالث عشر

كيف أبحر افونسو دلبوكيرك الكبير قاصداً مضايق البحر الأحمر straits of Meca فلما وجد أنه لا يستطيع عبور مخاضات بدوا Padua الضحلة ، ابتعد عن ساحل جوا واتجه مباشرة إلى ملقى .

رغم أن الملك البرتغالي دوم مانويل كتب مراراً لأفونسو دلبوكيرك طالباً منه أن يذهب إلى البحر الأحمر لإقامة حصن في عدن Adem ، فإن أمور جوا شغلت كثيراً من وقته وفكره فلم تُتَح له فرصة -قبل الآن- لتنفيذ هذه المشروع . ورغم أن الخطاب الذي كتبه روي دي أروجو Ruy de Araujo والذي تناول فيه أمور جوا قد شغله كثيراً (كما ذكرنا آنفاً) إلاّ أنه -ثقةً منه في الله- وقر في عقله أن يتجه إلى مضايق البحر الأحمر ليحقّق رغبة الملك البرتغالي ، فلما جهّز أسطوله بالرجال والمؤن والأسلحة والمدافع وكل ماهو مطلوب لإنجاز هذا المشروع غادر جوا (والحالة فيها جيدة) ، لكن عندما وصل في إبحاره إلى مخاضات بادوا[1] Padua وجد أنه لن يستطيع تجاوزها لأن موسم تجاوزها قد انتهى منذ فترة فعاد مرة أخرى إلى ميناء جوا ورسا بأسطوله في مواجهة حاجز الماء ، واستدعى رودريجو رابيلو Rodrigo Rabelo قائد المدينة للاجتماع به وأخبره أنه نظراً لأن الطقس غير موات ولأن الرياح الموسمية في منطقة مضايق البحر

(١) " ١٣ درجة شمالاً " في كتاب :
(Ferana'o Dourado's Map of India, Vol, II, P.1)

الأحمر وهرمز قد ولّت فلم تعد الفرصة مواتية للإبحار في هذه الأنحاء ، لذا فقد عقد العزم على قضاء الشتاء في ملقى ليرى امكانية معاقبة الملاويين لخيانتهم لديوجو لوبيز دي سيكويرا Diogo Lopez de Sequeira ، وطلب منه أن يهتم إهتماماً كبيراً بأمور جوا فهي -دوماً- تشغل فكره وقلبه[1] خشية أن يهاجمها العادل خان مرة أخرى ، ومن هذا الميناء اتجه إلى كانانور وزوّد حصنها بالرجال بالإضافة لما كان فيها ، وانطلق مرة أخرى إلى كوشن (كوشيم) وحالما علم ملك (كوشن) بوجود أفونسو دلبوكيرك عند حاجز الماء حتى زاره فوراً على متن سفينته وقدم له قائمة طويلة بالأسباب التي تجعل من الضروري ألا يذهب إلى ملقى لأن أمور جوا -كما قال- لا زالت في موقف حَرِج مما يتطلب وجوده (أي أفونسو دلبوكيرك) شخصياً ، وبالاضافة إلى ذلك فإن زاموريم كلكتا Camorim of Calicut في حالة استياء شديد لدرجة أنه لن يندهش إن هو قام بأعمال ملؤها الخيانة والمكائد بمجرد سماعه بمغادرته (أي مغادرة أفونسو دلبوكيرك) للهند . ورغم أنّ هذا التقرير الذي قدّمه ملك كوشن (كوشيم) كان منطقياً فإنه لم يعبّر فيه عن مشاعره الخاصة ، وإنما كان بناء على مشورة تاجريْن مسلمين ممتلئين شراً وخططاً تافهة ، لمنع أفونسو دلبوكيرك من الذهاب إلى ملقى . وهذان التاجران المسلمان هما : شيرين مركار Chirina mercar ومحمد (مامال) مركار Manalemercar .

والآن ، فالسبب الرئيسي الذي جعلهما يقولان للملك ما قالوه هو خوفهما من أن يستولي أفونسو دلبوكيرك على سفنهما التي أرسلوها إلى ملقى ، بالإضافة إلى أنه إذا استولى أفونسو دلبوكيرك على ملقى لم يعد لهم مكان للإتجار في كل هذا الأرخبيل من رأس كوموريم Comorim شرقاً ، فقد كان هذان المسلمان هما أغنى تاجرين في كل ساحل المالابار .

ورغم أن أفونسو دلبوكيرك قد أدرك بوضوح أن هذين التاجرين قد خدعا الملك البائس لحثه على تغيير مساره ، ومع ذلك فقد تظاهر أمامه أنه لم يُدرك أبعاد

(١) porque a Levava atravesada na garganta

الخطة (المؤامرة) نظراً لأنه ملك صديق للبرتغاليين ، وقال له أن رأيه (أي رأي أفونسو دلبوكيرك) قد استقر الآن على القيام برحلته إلى ملقى ، لأن الموسم لا يسمح بإتجاهه لمضايق البحر الأحمر ، على وفق أوامر سيده ملك البرتغال ، لكنه -أي أفونسو دلبوكيرك- يثق تماماً في الله وسيسمع الملك (ملك كوشن) قريباً جداً أخباراً طيبة عن انتقامه من ملقى لخيانة أهلها للبرتغاليين ، وقال له إن جوا في حالة جيدة وفي وضع قوي فلا خوف عليها حتى لو هاجمها العادل خان بكل قواته .

وبعد انتهاء هذا الحوار مع الملك استأذنه في الانصراف واستدعى أفونسو دلبو كيرك مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda الذي كان هناك في ذلك الوقت وكان أسطوله (أي أسطول مانويل دي لا كيردا) صغيراً فأمره أفونسو دلبوكيرك بأربع سفن أخرى صغيرة وسفينتين كبيرتين كما زوّده برجال ومؤن وذخائر حرب ، وأصدر إليه تعليمات مؤدّاها أنه في شهر أغسطس عليه أن يضم أسطوله للأساطيل التي تطوف بالقرب من حاجز الماء عن جوا (كَوا) وجعل له السُّلطانَ على كل القباطنة الآخرين الذين يصلون إلى هذه المنطقة ، وأصدر أوامر لكل القباطنة الآخرين بالامتثال لأوامره كما لو كان هو أفونسو دلبوكيرك نفسه ، وأصدر له أوامر بضرورة التطواف على طول الساحل لتقديم يد العون لجوا إن دعت الحاجة لذلك ، ومن ثمّ صرفه أفونسو دلبوكيرك ليجهز أسطوله ، وأمر -أي أفونسو دلبوكيرك- قباطنته برفع المراسي والابحار (للإتجاة مباشرة إلى ملقى) .

الفصل الرابع عشر

كيف أبحر أفونسو دلبوكيرك من كوشن واتجه مباشرة إلى ملقى وما جرى بعد ذلك .

بعد أن استأذن أفونسو دلبوكيرك الكبير من ملك كوشن ، وبعد أن أرسل مانويل دي لاكيردا الذي كان عليه أن يبقى كرئيس لقباطنة ساحل الهند ليقوم بمهامه ، أبحر بكل أسطوله المكوّن من ثماني عشرة سفينة شراعية منها ثلاث سفن من نوع القواديس galleys . وكان قباطنة سفنه هم : د. جوآو دي ليما D. Joa'o de Lima ، فرناو تيليز دندريد Ferna'o Telez Dandrade ، جاسبار دي بيفا Gaspar de Paiva ، جيمس تيكسيرا James Teixeira ، باستيام دي ميراندا Bastiam de Miranda ، وايريس بيريرا Aires Pereira وجورج ننز دي لياو Jorge Nunes de Lia'o وديني فرناندز دي ميلو Dinis Fernandez de Melo (الباترياو الرئيسي "Chief Patra'o") وبيرو دلبوم Pero Dalpoem (موثق العدالة بالهند) وأنطونيو دبرو Antonio Dabre وننوفاز دي كاستيلو - برانكو Nuno Vaz de Castilo - Branco ، وسيما دندريد Soma'o Dandrade ودوارت دي سيلفا Duarte de Silva وسيماو مارتينز Sima'o Martinz وأفونسو بسوا Afonso Pessoa وسيماو أفونسو Sima'o Afonso وعندما تابعوا إبحارهم حتى وصلوا إلى ما بعد جزيرة سيلاو (سيلان) Ceila'o رأوا سفينة .

أمر أفونسو دلبوكيرك بمطاردة هذه السفينة فطاردوها واستولوا عليها ، وسعد أفونسو دلبوكيرك لأنه وجدها تابعة لأهل كجرات Guzerates لأنه شعر أن رحلته ستتم الآن بأمان لأن أهل كجرات يفهمون أمور الملاحة في هذه

الأنحاء أكثر من أي أمّة أخرى نظراً لكمٍّ التجارة الهائل الذي يتعاملون فيها في هذه المواضع . وبينما كان الأسطول في هذه العروض هبت عليه عاصفة ، غرق في أثنائها القادس الذي كان على رأسه سيماو مارتينز Sima'o Martinz ذلك أن السفينة كان قد تمّ تحميلها بالنحاس دون علمه فتسلل الماء إلى مقدمتها وأدت العاصفة إلى انقلابها فغرقت وإن كان قد تم إنقاذ كل الرجال الذين كانوا على متنها لأن دوارت دا سيلفا Duarte da Silva كان قريباً بسفينته مستعداً لكل الطوارىء فلما خرج كل الرجال من حطام هذه السفينة الغارقة ، اتجه أفونسو دلبوكيرك بكل أسطوله وألقى مراسيه في ميناء بدير[1] Pedir ومعه خمس سفن كجراتية كان قد استولى عليها في أثناء الرحلة .

وفي هذا الميناء وجد جوآو فيجاس Joa'o Viegas وثمانية من المسيحيين ممن كانوا في صحبة روي دي أروجو Ruy de Araujo وصلوا لهذا الميناء بعد أن تمكنوا من الهروب من ملقى ، وسرد جوآو فيجاس على أفونسو دلبوكيرك كيف أن ملك ملقى سعى لإجبارهم على التحوّل للإسلام وأمر بربط بعض منهم من أيديهم وأرجلهم وأمر بإجراء الختان لهم وأنهم عانوا كثيراً في سبيل تمسكهم بعقيدتهم المسيحية . وذات ليلة عندما كانوا مستعدين جميعاً للهرب تم اكتشاف أمرهم واستطاع أهل ملقى الإمساك بروي دي أروجو Ruy de Araujo وعدد ممن معه ممّن لم يستطيعوا الهرب . وقال إنه يوجد مع ملك باسي Pace' واحد من مسلمي ملقى نوي الحيثية اسمه النوخذة بيجيا كذلك Noadabegea[2] وهو المتآمر الرئيسي الذي حبك مؤامرة الخيانة ضد ديوجو لوبيز دي سيكويرا Dio-go Lopez de Sequieira ، وأن هذا الرجل كان قد هرب من ملقى لأنه اتفق مع

(١) ميناء على الساحل الشمالي لجزيرة سومطرة ٢٤َ ، ٥ ° شمالاً و – ، ٤ ° شرقاً إلى الشرق من أشين (Acheen) بقليل .

(٢) في طبعة ١٥٧٦م (Noadabegea) وفي طبعة ١٧٧٤م (Modabegea) لكن من خلال تردّد الاسم في ص ٦٢ يتضح أن المقطع الأخير –بلا شك– قد اعتراه خطأ طباعي .

عن معنى المقطع الأول من الاسم (نوخذه) حواشي الفصل ٦٠ .

البنداري 'Bendara على قتل الملك (ملك ملقى) والاستيلاء على المملكة ، وقد تمكن ملك ملقى من البنداري وقتله ، أما هذا المسلم الآنف ذكره (النوخذة) فقد تمكن من الفرار .

وعندما علم أفونسو دلبوكيرك بهذه الأخبار استأذن فوراً من ملك بدير Pedir واتجه إلى باسي[1] 'Pace التي كانت هي الميناء الرئيسي لسومطرة وبمجرد وصوله أرسل جوآو فيجاس Joa'o Viegas إلى الملك وقال له أنه نما إلى علم أفونسو دلبوكيرك أنه يوجد في باسي 'Pace مسلم هارب من ملقى متهم بقتل بعض البرتغاليين التابعين لسفن سيّده ملك البرتغال التي كان الملك البرتغالي قد أرسلها إلى ملقى ، وأنه –أي أفونسو دلبوكيرك– يرجوه أن يتلطّف ويسلم إلى القائد البرتغالي هذا المسلم .

فأجاب ملك باسي 'Pace إن هذا المسلم موجود في المدينة حقاً لكن لا علم له بأية أخبار متعلقة به حتى الآن ، وأنه –أي الملك– سيأمر بالبحث عنه ليَمثل بين يديه فإن مَثُل سلّمه لأفونسو دلبوكيرك . وبينما أرسل الملك هذا الرد إلى القائد البرتغالي ، حثّ هذا المسلم أن يتجه مباشرة إلى ملقى ليحيط ملكها علماً باقتراب الأسطول البرتغالي فربما يصفح عنه بسبب هذه الخدمة ، وَمَا أن رتّب ملك باسي 'Pace هذا الأمر حتى أرسل إلى أفونسو دلبوكيرك يقول له أنه أمر بالبحث عن هذا المسلم آنف الذكر لكن أحداً لم يجده وأنه يظن أن الرجل قد هرب فلا أحد يعلم عنه شيئاً في المدينة ، وقد أدرك أفونسو دلبوكيرك خداع الملك فلم يجر معه اتصالات أخرى بهذا الشأن ولم يقطع صداقته معه في الوقت نفسه ، وأبحر بأسطوله مغادراً .

---

(١) باسي 'Pace ميناء إلى الشرق من بدير Pedir بقليل على الساحل الشمالي لجزيرة سومطرة . كتبه بريتو دي ريزندي Barretto de Resede Passen وأيضاً Porto de Passen وفي خريطة بيرثيلوت Berthelot المؤرخة في سنة ١٦٣٥م ، في مخطوط سلون Sloan197, fo 39 نجدها في ذات الموقع أيضاً. أما ك. جونستون K. Johnston في (الأطلس الملكي 'Royal Atlas') فيكتب هذا الموقع كالتالي Passier و Pasier ويحدد الموقع ٢َ ، ٥ ° شمالاً ، و ١٠َ ، ٩٧ ° شرقاً بالنسبة الميناء الذي كتبه هكذا Passier) و ١٠َ ، ٥ ° شمالاً ٢٢َ ، ٩٧ ° الميناء الذي كتبه Pasier ولا شك أن هناك خطأ في ذلك . فطريقة الكتابة التي استخدمها بيرثيلوت Berthelot كسمة لطريقة النطق البرتغالية .

الفصل الخامس عشر

كيف أبحر أفونسو دلبوكيرك الكبير من ميناء باسي (Pace') ، كيف رأى في أثناء إبحاره سفينة شراعية كان بها المسلم الذي هرب منه ، وكيف تعقّبه بسفنه ، وما جرى بعد ذلك .

ما إن استأذن أفونسو دلبوكيرك في الرحيل من ملك باسي Pace' حتى أمر أسطوله بالإبحار ، وفي أثناء ابحارهم بريح مواتية وقع بصرهم على سفينة جاويّة[1] a pangajaoa ، والسفينة من هذا النوع طويلة ، وذات أشرعة وسريعة وتستخدم في هذه الأنحاء ولأن الريح كانت هامدة في ذلك الوقت وأن ايرز بيريرا Aires Perira قبطان السفينة من نوع التافوريا Taforea هو الأقرب إليها ، أشار إليه أفونسو دلبوكيرك كي يتعقبها ، فانطلق في قاربه مع بعض الجنود في إثْرِها ، فدافع المسلمون عن أنفسهم ببسالة حتى أنهم جرحوا ايرز بيريرا وعدداً كبيراً من رجالنا الذين لم يستطيعوا القفز إلى سفينة العدو .

ولم يكتف قائد سفينة المسلمين بهذا الدفاع فوثب على الرغم من جراحه الخطيرة إلى قارب ايرز بيريرا Aires Pereira ومعه بعض الرجال وراح

---

(١) المقطع الأخير من الكلمة a pangajaoa يعني بالبرتغالية مؤنث جاوي (جاوية) . والبانجا الجاوية نوع من القوارب يُبحر باستخدام المجاديف . ويسميه بلوتو Bluteau : Pangajoa ويصفه بأنه نوع من قوارب التجديف يستخدم في الهند ويبدو أنه مختلف عن نوع آخر اسمه Pangai فهذا الأخير قارب صغير مكوّن من عوارض خشبية مربوطة معاً بحبال ، ورغم أنه ضيّق وخفيف إلاّ أنه أي البانجايو pangaio يمكنه حمل حمولة كبيرة .

Navigium Pangaio, e levi et raro ligno constructum, non nisi funibus colligatum est, nulli omni-' no clavo fereo infixo" (Hist, Ind, Orient., p. 220) . Camoes calls it sutil,

"lightly skimming", in the line -

"'Os Pangayos sutis da bruta gente." - I, 92.

الطرفان يحارب كل منهما الآخر طعناً وضرباً ، فقتلهم رجالنا وعندئذ استولى رجالنا على سفينتهم (البانجا الجاوية "Pangajaoa") وقتلوا كل المسلمين فيها ممن حاولوا الدفاع وأسروا منهم ثمانية ووجدوا القبطان المسلم على وشك الموت دون أن يسيل الدم من جروحه العديدة .

وأمر ايرز بيريرا Aires Pereira بحّارته بإلقاء جثة هذا القبطان المسلم في البحر ، لكن البحارة لاحظوا أنه يرتدي ملابس غالية ففكروا في سلبه أولاً فوجدوا حول ذراعه اليسرى سواراً من عظام محاطاً بالذهب فلما أخرجوا هذا السّوار من ذراعه سال كل دمه ، فخرجت روحه . واندهش ايرز بيريرا Aires Pereira دهشة كبيرة لهذا حتى أنه أخذ السوار والأسرى المسلمين إلى أفونسو دلبوكيرك وسرد عليه ما كان ، فسأل أفونسو دلبوكيرك هؤلاء المسلمين عمّن يكون هذا القائد (النوخذة) وما فائدة هذا السّوار له ، فقالوا إنه من أهل ملقى ومن أولي الشأن منهم وأن اسمه نوخذه بيجيا[1] Naodabeguea وأنه كان في طريقه إلى ملك ملقى ليحذره من قدوم البرتغاليين وأن هذا السوار مكوّن من عظام حيوانات معيّنة يطلق عليها اسم كابال[2] Cabals وتتوالد في سلسلة جبال مملكة سيام Siam وذكروا أن الشخص الذي يحمل هذه العظام معه بحيث تلمس جسمه لا يمكن أن يفقد دمه أبداً مهما كثرت جروحه . وقد كان أفونسو دلبوكيرك غير سعيد بالمرّة لموت هذا المسلم (النوخذة الآنف ذكره) لأنه كان يأمل أن يحصل منه على أخبار عن مجريات الأمور في ملقى ، وقدّر هذا السّوار تقديراً كبيراً لما فيه من مزايا كثيرة وحفظه ليرسله إلى الملك دوم مانويل .

وعندما عاد ايرز بيريرا Aires Pereira لسفينته استمر الاسطول في سيرته الأولى في الإبحار على طول الساحل بالنسق نفسه وعندما أصبحوا عند خط

---

(١) في سياق سابق في هذا الفصل كتب الاسم هكذا (Maodabegea) .

(٢) (Cabais) أو (Cabals) . أورد جوأو دي برزو (Joa'o de Barros) في كتابة (Decade) (جـ٢ ، ورقة ١٣٩ – مجموعة ٢٨) رواية مشابهة لما ورد هنا ولم يسجل بلوتو (Bluteau) عن هذا المخلوق خرافي شيئاً .

العرض الذي عنده جزيرة بودر[١] Powder رأوا سفينتين كبيرتين جداً من نوع الينك الصيني Junk فطاردوهما . وكانت إحداهما من كورو ماندل[٢] Choro-mandel وقد أسرعت بالإبحار مبتعدةً أما الأخرى فمن جاوا[٣] Jaoa ولم تسارع بالفرار ، فأمر أفونسو دلبوكيرك ، بيرو دلبوم pero Dalpoem أنْ يقترب منها ويدعوها للتسليم فإن لم تمتثل هاجمها عن قرب ، فلما تمّ ذلك تعرّض رجالنا (البرتغاليون) لضغط شديد ، وجرح الجاويون عدداً من رجالنا بسهامهم وأصابوا ناقل الحركة في الصاري المزيني[٤] (صاري مؤخرة السفينة) بعطب وحطموا دَقَلَها المائل في مقدمتها[٥] .

وعندما أدرك بيرو دلبوم Pero Dalpoem أن حبال أشرعته قد تحطمت على هذا النحو ، ابتعد عن هذا الينك ، لكن أفونسو دلبوكيرك –وكان قريباً منه– حالما رآه قد ابتعد عن هذه السفينة الجاوية توقف وطلب منها التسليم . وكانت حمولة هذه السفينة الجاوية قرابة ستمائة طن ، كما كانت مزوّدة جيداً بالأسلحة وعلى متنها ثلاثمائة مقاتل ، ومخافة أن يُشعل فيها أصحابها النار حالما يجبرونها على إلقاء مراسيها –وتلك عادة الجاويين إنْ وجدوا أن العدو تغلب عليهم– فقد أمر أفونسو دلبوكيرك ريّس[٦] master سفينته أن يستقل القارب التابع للسفينة وأن يجعله جاهزاً بحبل من خلال

(١) بولفوريرا (Polvoreira) . ظهرت في نسخة بريتو دي ريزيندي (Barretto de Resende) من خلال خريطة بدرو بيرثيلوت (Berthelot) باسم بولفيريرا (Polverera) كجزيرة في مضايق ملقى ، مخطوط سلون (Sloan) ، ١٩٧ ورقة ٣٩٠ ، ولم يذكرها كيث جونستون (Keith Johnston) .

(٢) في ولاية مدراس ´٢٤ ، ١٣ ° شمالاً ، ´١٩ ، ٨٠ ° شرقاً .

(٣) (Jaoa) = (Java) .

(٤) "Traquete, Jal interprets this rightly as the Voile de misaine, or mizen sail; it was also called the traquete davante. Moraes wrongly defines it to be a vela do mastro mais alto do navio . It is the trinchetto of the Italians. Bluteau calls it the "Vela pequena, atada a' peca mais alta do mastro grande."

(٥) 'Goroupe's; also gouroupe'z and gurupe's.'

(٦) 'Mestre, probably mate, through Maitre, Fr.'

أهواس السفينة hawses[1] "ثقوب مقدمة السفينة التي تدخل فيها الحبال" آمراً إياه أن ينظم الأمر بحيث يمكنه أن يُحرر الحبل إذا رغب ، إنْ أشعل الجاويون النار في السفينة (سفينتهم) فلما استقر الأمر على ذلك ، توقف أفونسو دلبوكيرك إزاء الينك الجاوي وبدأ يطلق النار من مدافعه عليه ومع هذا لم يستسلم الجاويون رغم أنه كان قد قُتل منهم أربعون وجُرح منهم عدد كبير ، لكن رجال أفونسو علوا سفينة أعدائهم (الجاويين) الذين ما إنْ أدركوا أن السفينة البرتغالية فلور-دي-لا-مار Flor. de La Mar قد هزمتهم حتى أشعلوا النار في سفينتهم (الينك) وما كادت النار تمسك بالسفينة حتى أمر أفونسو دلبوكيرك مساعده بتخليص كُلاّب السفينة (خطّافها) البرتغالية لتتخلّص من ارتباطها بالينك الجاوي ، وابتعد بسفينته شاقاً طريقة بين السفن وحالما أدرك الجاويون ابتعاد السفينة البرتغالية ، حتى شرعوا في إطفاء النار المشتعلة في سفينتهم ، فلم يستطيعوا إلاّ بشق الأنفس لأن النار كانت قد انتشرت ، وقد أنهكهم هذا الجهد فاستسلموا مضطرّين .

لقد استسلم الينك (نوع من السفن) الجاوي الآن فاكتشف أفونسو دلبوكيرك أنّ ملك باسي Pace` كان على متنه ، فاستدعاه ، وسأله العفو لهذا الأمر السيء النَّحس الذي لم يكن ليحدث لو أنه -أي أفونسو دلبوكيرك- كان يعلم بوجود سموّه على متن هذه السفينة ، وتصرف معه كما يتصرف مع الأشخاص ذوي المكانة الرفيعة وعامله معاملة طيبة وأظهر له من مراسم التكريم الكثير واستضافة واهتم ببعض خدمه الذين أصابتهم الجراح ، وسرد عليه ملك باسي (Pace') ما مرّ به من ظروف نَحسات وكيف أنه كان في طريقه لملك جاوا الذي تربطه به صلة قرابة ليطلب منه مدداً من الجُند وأسطولاً ، يستعين بهم ضد أحد الولاة التابعين له الذي تمرّد عليه فثارت المملكة ضدّه ، لكن إذا أخذ أفونسو

---

(١) "Esconve's an indeclinable plural, sometimes written escove'ns and escouves. Jal quotes the passage in more than one place in his Glossaire Nautique, as escouves; but the misprint of escon-ves, if it is one, is found in the early edition , as well as the later one. of the Commentaries. The word appears to be derived from excubix, Lat.; e'cubier, Fr."

دلبوكيرك هذا المشروعَ على عاتقه وأعاده لملكه فإنه سيكون تابعاً لملك البرتغال وسيدفع له إتاوة .

وكان أفونسو دلبوكيرك مُدركاً أن تجارة باسي Pace' ذات أهمية كبيرة لملقى إن هـو استولى عليها (أي ملقى) نظراً للكميات الهائلة من الفلفل في هذه الجزر ، لذلك فقد قال لملك باسي Pace' أنه الآن مُنشغل في حملة تأديبية ضد ملك ملقى لأنه تصرف بغير عدالة مع أحد القادة التابعين لسيده ملك البرتغال ، وكان هذا القائد البرتغالي قد وصل إلى هذا الميناء (ملقى) بعد أن حصل على حق المرور الآمن من ملكها . فإذا ما انتهى -أي أفونسو دلبوكيرك- من حملته هذه ، فإنـه يعده -أي يعـد ملك باسي Pace' - أن يُعيـده إلـى منصبه كملك ، وذلك في أثناء رحلة العودة . فشكره ملك باسي Pace' شكراً وافراً لوعوده بمساعدته وأعلن أنه سيظل معه في السفينة وأمر الرجال الذين كانوا في الينك (السفينة الجاوية الآنف ذكرها) أن يتبعوه . وعندما أصبح الأسطول البرتغالي قريباً من ملقى استولى ننو فاز دي كاستيلو – برانكو Nuno Vaz de Castelo - Branco على ينك Junk كان لتوّه قد خرج مُبحراً من ميناء ملقى ، في طريقه إلى مملكة سيام Siam وكانت هذه السفينة (الينك) عامرة بكل شيء وذات حمولة دَسِمة ، وقد علم أفونسو دلبوكيرك من المسلمين الذين تم أسرهم من فوق متنها أن روي دي أروجو Ruy Daraujo وبرتغالي ممنّ كانوا معه ، لا يزالون أحياء كما علم منهم أنّ ملك ملقى أصبح عارفاً فعلاً بقدومهم .

كثيرة جداً تلك السفن التي مرّ عليها البرتغاليون في رحلتهم هذه ، ولولا أنه لم يكون هدف أفونسو دلبوكيرك الأول الأتجاة إلى ملقى ، لأمكن للبرتغاليين الاستيلاء على أكبر عدد من الأسلاب والغنائم في هذه الأنحاء بقدر كبير لم يألفوه من قبل ، ذلك لأنه في ذلك الوقت كانت الرياح الموسمية التي يُبحر المسلمون في أثناء هبوبها إلى ممالك الهند التي تقع إلى الشرق من رأس كوموريم Cape Comorim لكن إذا هبت الرياح الموسمية الأخرى أبحروا مباشرة إلى مضايق مكة straits of Meca (المقصود مضايق البحر الأحمر)

محملين بكل أنواع البهار التي ترد إلى ملقى . لكن لأن أفونسو دلبوكيرك كان يرغب في عقد معاهدات سلام وصداقة مع كل الملوك والأمراء الهندوس الواقعة ممالكهم إلى الجنوب وأن يتاجر في موانئهم (لأن الملك البرتغالي كان قد أمر بعدم تدمير تجارة ملقى) فقد عامل كل السفن التي مرّ بها معاملة طيبة وأبدى لمن فيها نواياه الحسنة وأظهر لقباطنتها كثيراً من الكياسية باسم ملك البرتغال ومنحهم حق المرور الآمن ومكنهم من الإبحار إذا ما أثبتوا أنهم لن يتخذوا طريقهم إلى مضايق البحر الأحمر Straits ، وقد سُرّ قادة هذه السفن من معاملته الطيبة لهم .

الفصل السادس عشر

وصول أفونسو دلبوكيرك إلى ميناء ملقى وإرسال الملك له -فوراً- لزيارته ، وما جرى غير ذلك .

بعد أن اصطحب أفونسو دلبوكيرك معه ملك باسي Pace' واصل ابحاره حتى وصل إلى مخاضات كاباسيا[1] Capacia ودخل المر الذي يصل عمقه إلى اثنى عشر فازوم (قامة) ووصل ميناء ملقى مساء ذات يوم بكل أسطوله والأعلام ترفرف فوقه ، والرجال ينفخون في الأبواق ، وأمر بتحية المدينة (ملقى) بإطلاق كل المدافع وألقى مراسيه أمام الميناء ، فسارع ملك ملقى بارسال رسالة إلى أفونسو دلبوكيرك يسأله فيها عن هدف هذا الأسطول الضخم أحرب أم سلام لأنه -أي ملك ملقى لا يُريد شيئاً سوى السلام مع ملك البرتغال ، ويخبره أنه (أي ملك ملقى) أعدم البنداري Bendara' بسبب تورّطه في الثورة ضد القائد البرتغالي (ديوجو لوبيز دي سيكويرا) الذي أتى إلى هذا الميناء (ملقى) ، والذي (أي البنداري) تسبب في قتل المسيحيين الذين في البلاد ، لكنه (أي ملك ملقى) لا ذنب له في كل هذا .

استمع أفونسو دلبوكيرك لهذا الغادر المخادع ، وتظاهر بالتجاوب معه على أمل أنْ يستعيد روي دي أروجو Ruy de Araujo والمسيحيين الآخرين لذا فقد أجابه قائلاً بأنه يعي تماماً أن ملك ملقى لا ملام عليه وأنه لم يتورط في الغدر بالبرتغاليين ولا أحد قادة سيده الملك البرتغالي ، وما دام ملك ملقى قد انتقم لقتل المسيحيين الذين أوْدى البنداري بحياتهم ، فإنه -أي أفونسو دلبوكيرك- يأمل أن يُعيد إليه الملك من بقي منهم على قيد الحياة . وأن يدفع ممتلكات

(١) في مضايق ملقى ، إلى الشمال من المدينة .

البنداري (الذي تم إعدامه) ثمن ما استولى عليه من بضائع .

فأعاد ملك ملقى على الفور مبعوثه المسلم ليقول لأفونسو دلبوكيرك أن لابد من الاتفاق على السَّلام أولاً وساعتها سيرسل له المسيحيين وسيدفع ترضية لقاء كل ما تمّ أخذه من البرتغاليين . فأبى أفونسو دلبوكيرك أن يعقد سلاماً حتى يعود المسيحيون ويتم استرداد كل ممتلكات الملك البرتغالي وبعد ذلك يكون هناك مجال للحديث عن السَّلام فتلك مشيئة الملك البرتغالي ، وهذا هو السبب الذي جعل الملك البرتغالي يُرسله إلى ملقى ، فهذا الأسطول (البرتغالي) لم يأتِ ليحمّل البضائع وإنما ليشنّ الحرب على ملك ملقى إذا لم يعقد سلاماً مع سيدّه ملك البرتغال .

ومع كل هذا استمر ملك ملقى رافضاً تسليم روي دي أروجو Ruy de Araujo والمسيحيين الذين معه ما لم يتم -أولاً- عقد اتفاق سلام ، ظناً منه أنه بهذا يضغط على أفونسو دلبوكيرك الذي أصرّ بدوره على أنه لا اتفاق سلام قبل تسليم المسيحيين واسترداد البضائع (التي أُخذت من البرتغاليين) ، واستمرت المراسلات بين الطرفين لا تخرج عن هذا حتى بدأ ملك ملقى يضع إحدى أفكاره الماكرة موضع التنفيذ ، فأمر بإرسال أسطول من الزوارق[1] Launches ليخرج من النهر فإذا ما تم حشده بالرجال والمدفعية جيداً عاد أدراجه وهم يظنون بهذه الخدع[2] والحماقات إنما يحقِّقون ميزه ضد أفونسو دلبوكيرك الذي كان في الحقيقة كافّاً سيفه على أمل استعادة روي دي أروجو لأنه -أي أفونسو دلبوكيرك- يتذكر كيف أن نائب الملك كان قد أرسله بصحبة ديوجو لوبيز دي سيكويرا مجلّلاً بالعار إلى ملقى بسبب موقفه من أفونسو دلبوكيرك[3] ولأن أفونسو دلبوكيرك كان قد علم من روي دي أروجو أن ملك ملقى كان قد أمر بإنشاء إستحكامات قوية على طول السّاحل ، فقد أرسل إلى ملك ملقى يقول له أنه ليس من الصداقة في شيء ألاّ يعيد إليه البرتغاليين الذين عنده ، بل يأمر

(١) Lancharas .

(٢) الكلمة المستخدمة Biocos ، وهي كلمة تستخدم في الأساس في عبارة andar a biocos ويقال للمرأة التي ترتدي عباءة تغطي الجانب الأكبر من وجهها تاركة عيناً واحدة لترى الناس دون أن يعرفوا من هي .

(٣) أنظر جـ٢ ، فصل ١٠ .

بإقامة استحكامات وكأنه بذلك يرغب في الحرب أكثر مما يرغب في السّلام ، بينما ملك باسي Pace' قد تصرف تصرفاً مختلفاً اختلافاً كبيراً فقد أرسل له (لأفونسو دلبوكيرك) بمجرد وصوله إلى مينائه تسعة برتغاليين كانوا قد هربوا من الأسر عنده (عند ملك ملقى) ، لهذا فلا مجال للوصول لاتفاق معه (مع ملك ملقى) ، ومع كل هذا ظل ملك ملقى مصراً على عدم تسليم المسيحيين الذين لديه قبل ابرام معاهدة سلام .

ولما رأى أفونسو دلبوكيرك تصميم الملك أراد أن يظهر له أن ما فعله باستعراضه لنشأته في النهر لن يُجْديه شيئاً فأمر بإرسال حملة من أربعة قوارب مزوّدة تزويداً حسناً بالمقاتلين والمدفعية وأن تُبحر إزاء الشاطىء وأن تُطلق بعض طلقات مدافعها على المدينة . ولما رأى المسلمون القوارب تفارق سفنها تجمعوا للقائها خلف مصب النهر في أسطول من عشرين سفينة جاوية panagajaoas مزوّدة بكثير من الرجال المسلّحين ، فما أن أدرك أفونسو دلبوكيرك وجودهم حتى أرسل عدداً آخر من القوارب مدداً إلى القوارب الأربعة الأخرى .

وقد ارتبك المسلمون لهذا التصرف ، فانسحبوا بأسطولهم في النهر . وأرسل ملك ملقى رسائله المعتادة العامرة بالكذب والخداع والكلمات البرّاقة إلى أفونسو دلبوكيرك الذي أصغى إليها بصبر شديد أملاً منه في ألا يضطر للحرب وراح يشرح (لمندوب) الملك أنه ما أتى إلى ميناء ملقى إلاّ للحفاظ عليه ولعقد معاهدة صداقة وليس لتدميره . لكن لأن في المدينة (ملقى) مسلمين من أجناس متعدّدة وكلهم راغبون في عرقلة الحل السلمي لهذه المسألة حتى لا يكون لرجالنا موطىء قدم على البر ، فإنهم -أي هؤلاء المسلمين قد بثّوا في روعة أن أفونسو دلبوكيرك أنه لن يجسر على مهاجمة المدينة وأن الرياح الموسمية إذا ما هبت من جديد غادر الميناء دون انتظار . وهذه الأفكار نفسها موجودة في عقول القادة التابعين له . ومعظم الذين يعملون على منع السلام من أهل كجرات Guzarates لأن كل تجارة كمبي (كمبايا) في ملقى ؛ لذا فقد عرضوا على الملك

مساعدته بستمائة مقاتل أبيض* Whites مسلّحين تسليحاً جيداً ، وأربعين مدفعاً .

وبالإضافة لكل هذه الخطط التي اشترك فيها ملك ملقى بمساعدة المسلمين سواء منهم من كان من أهل البلاد أم كان وافداً عليها ، فقد أرسل روي دي أروجو Ruy de Araujo لأفونسو دلبوكيرك يقول له إن بناء الاستحكامات أوشك على الانتهاء وأن الملك يُعد عدته استعداداً للدفاع وأن بقايا مماليك مصر Rumes والترك (أحد عناصر مسلمي البلاد) والكجراتيين (أهل كجرات) والخراسانيين Coracones هم أهم العناصر التي تنصح ملك ملقى بعدم توقيع اتفاق سلام كما ينصحونه بألا يكون للبرتغاليين أي مستقر على البر ، وتحقيقاً لأهدافهم تلك فقد قدموا للملك وولاته رشاوي كبيرة ، وأن رجال الدين[1] المسلمين Cacizes يحرّضونهم على القتال بالخطب الطوال ذاكرين أن البرتغاليين كفرة* renegades ولصوص يريدون أن يحكموا العالم كله ، وأن ملك ملقى سيندم إن سمح لهم بالقدوم للمدينة . واستمر روي دي أروجو قائلاً في رسالته إن شهبندر الكجراتيين (أهل كجرات) وهو عمدة mainstay كل تجار كمبي (كمبايا) ويحظى بثقة شديدة من الملك - ذهب إليه (إلى الملك) ورجاه شديد الرجاء ألا يدخل في صداقة مع البرتغاليين ولا يعقد معهم أي اتفاق سلام إذ لا يمكن لسفنهم وسفن المسلمين أن تُبحر في مسار واحد ولا يمكن أن تحمّل سفن المسلمين حمولات من الميناء نفسه الذي تُحمّل منه السفن البرتغالية وذلك ليس من قبيل المنافسة فحسب وإنما لأن البرتغاليين مسيحيون وليس ذلك فحسب وإنما هم راغبون في تدمير المسلمين ، بل ويعملون على افناء كل مسلم ، وقال الشهبندر أنه قدّم له هذه النصيحة لرغبته الشديدة في خدمته

* المقصود مماليك وتُرك (من أسيا الوسطى والقوقاز وشرق أوربا) .

* الترجمة الحرفية . مرتدوّن .

(١) النص : قسس أو علماء دين مهمتهم أن يقصوا على الناس بشكل مؤثر في تجمعات عامة ومن فوق أماكن مرتفعة ظروف موت الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

* من الواضح أن الأستاذ المترجم في تعليقه هذا يقصد طائفة خاصة من الوعّاظ . لكن الدعوة للجهاد ليست قصراً على هؤلاء .

وحـفظ مملكتــه وأن على الملك أن يُصــانع قــائد البـرتغــاليين وأن يُطيل أمـد المفـاوضـات مـعـه حتى يحل مـيعـاد الريح الموسمـيـة فـسـاعتـها لن يمكنه إلاّ المغادرة .

وكان ملك ملقى سعيداً بهذه المشورة التي قدمها له الشهبندر واتفق جميعهم على ضـرورة تطبيق هذه السـيـاســة ومــن ثم فـقــد أمر بتجـهيز أسطوله ليكون مستعداً لكل طارىء ، وأن ينتهي العمل في الاستحكامات بأقصى سرعة ممكنة .

الفصل السابع عشر

ملقـــى: المدينة والمملكة، الموقع والمَنْشأ.

مملكـــة ملقـــى[١] ذات حـــــدود مشتركـــة مـــع كلٍّ مـــن مملكتيْ قويـده

(١) تخيّل الشاعر كاموس Camo'es السِّيرانا Siren ذات النبوءات تتغنّى قائلة :

"Mais avante fareis, que se conheca
Malaca por emporio ennobrecido,
Onde toda a provincia do mar grande
Suas mercadorias ricas mande.

"Dizem que desta terra, co'as possantes
Ondas o mar entrando, dividio
A nobre ilha Samatra, que ja' d'antes
Juntas ambas a gente antigua vio ·
Chersoneso foi dita, e das prestantes
Veas d'ouro, que a terra produzio,
Aurea por epitheto lhe-ajuntaram,
Alguns que fosse Ophir imaginaram.

"Mas na ponta da terra Cingapura
Veras, onde o caminho as naos se estreita
Daqui, tomando a costa a Cynosura,
Se encurva, e para a Aurora se endireita :
Ves Pam, Patane, reinos, e a longura
De Sia'o queestes e outros mais sujeita;
Olha orio Mena'o, que se derrama
Do grande lago, que Chiamai se chama."
x, 123-125.

- ملقى ، أنظر إلى حيث ستوجَّه مقدّمات سُفنك
- انظر لسوقك التجاري ومخازنك

Queda[1] ومملكة بام Pam[2] وتمتد قرابة مئة فرسخ على السّاحل ، أما اتساعها للداخل حتى سلسلة الجبال التي تنتهي عندها مملكة سيام[3] Siao فقرابة عشرة فراسخ . وكانت كل هذه البلاد القديمة تابعةً لمملكة سيام Sia'o ، لكنها -أي ملقى- أصبحت مملكةً قائمة بذاتها ، قبل وصول أفونسو دلبوكيرك إليها زهاء تسعين عاماً أو أكثر قليلاً أو أقل قليلاً[4] . وقد أصبح ملوك ملقى في

- إنها مرفأ لكل سفن المحيط
- فالبضائع الكثيرة الغالية في كل مكان منتشرة
- فمن هذه العروض يُقال إن الموج طائش متهوِّر يواجه السفن في مسارها
- يقطع المرء من عُرْض بحر إلى عُرْض بحر آخر
- فسومطرة جزيرة عظيمة ، قوية منذ القدم
- كانت وقتها تُمثِّل رقبة الأرض بها كانت القيود (؟)
- فقد كانت شبه جزيرة قبل حدوث هذا الانفصال
- ومن المناجم الغنيَّة التي بقيت هناك
- لذا فقد أُضيف إليها الوصف بأنها ذهبية
- حتَّى إن البعض يظنون أنَّها أوفير Ophyr الواردة في الكتاب المقدَّس
- لكن عند هذا الرأس تظهر سنغافورة
- حيث زحام السفن شديد
- فهنا نجد الساحل يتلوىَّ نحو الشمال

to the Northern Beare

- ليواجه أورورا Aurora الرائعة دوماً
- انظر إلى بان Pan وباتين Patane المملكتيْن القديمتيْن
- وانظر إلى سيام Syan ذات الطول
- كل هذه -وأكثر منها- أطاعت البرتغاليِّين
- ونهر مينام Menam الثَّر ، لاحِظْه
- ولاحظ بحيرة شيامي Chiamay العظيمة أيضاً

فانشو

(Fanshaw)

(١) قويده Queda أو كايده Kaidah ٦َ ، ٧ ° شمالاً ، ٢٢َ ، ١٠٠ ° شرقاً على الجانب الغربي لشبه جزيرة الملايو .

"Queda que he so' Cabeca

Das que Pimenta alli tem produzido" Lus. x. 123

(٢) باهانج Pahanj ٢٥َ ، ٣ ° شمالاً ، ١٧َ ، ١٠٣ ° شرقاً على الساحل الشرقي لشبه جزيرة الملايو .

(٣) Siah هي سيام Siam .

(٤) أنظر الملاحظات المستقاه من ماركو بولو في آخر هذا الفصل .

وقت من الأوقات أقوياء جداً ، حتّى أنه كان يُطلق على الواحد منهم اسم كولتوي Coltois وهي كلمة تعني بلغتهم "إمبراطور" . والآن -فلأنّه من الضّروري- كي نفهم جيّداً هذا الكتاب الذي بين أيْدينا ، أنْ نُتابع شيئاً ما من أخبار نشأتها ، فإنني سأتعرّض هنا لبداية نشأتها .

في الوقت الذي أُسّست فيه ملقى كان يحكم في جزيرة جاوه ملك اسمه باتارا تاموريل Bataratamurel .

وفي مملكة باليمبار[1] Palimba'o "باليمبانج Palembang" التي كانت تقع في نطاق جزيرة جاوه كان الحاكم هو ملك هندوسي اسمه باريميسورا Parimi-cura . وكانت النزاعات كثيرة بين هذين الملكين ، لكنهما تفاهما في خاتمة المطاف على ضرورة أنْ يتزوّج باريميسورا Parimicura إحدى بنات باتاراتا موريل وكان اسمها باريميسوري Parimicuri ، واستمرّ يدفع إتاوة معيّنة لملك جاوة والد زوجته . لكن الملك باريميسورا Parimicura تراجع عن هذه الاتفاقية بعد أيام قليلة من ابْرامها وشقّ عصا الطاعة ولم يدفع إلى حمية الإتاوة وتشاور مع بعض أقاربه بهذا الشأن ونفّذ ما اعتزم عليه (عدم دفع الإتاوة) .

ولّما أدرك باتاراتا موريل أنّ زوج ابنته قد ثار ضدّه ورفض دفع الإتاوة توجّه له بقوات ضخمة واجتاحه واستولى على مملكته ، فلمّا رأى باريميسورا Parim-icura أنّه قد أُحيط به خشي أنْ يقع في يديْ والد زوجته ، ففرّ في ينك Junk (نوع من السفن الصينيّة) إلى سنغافورة[2] Singapura واصطحب معه زوجته وأطفاله وعبيده وبعض قواته القليلة التي تبقّت معه . وكانت سنغافورة وقتها مدينة ضخمة عامرة بالسكان قبل تأسيس ملقى -كما تشهد بذلك بقايا آثارها العظيمة التي لا تزال قائمة حتى اليوم . ووضع هذا الملك -الذي فقد مُلكه- نفسه في طاعة ملك سيام Sia'o .

وسنغافورة Singapura تُمثّل ممراً أو قناة تعبره كل السفن المُبحرة في هذه

---

(١) Palembang باليمبانج (؟) في سومطرة ٦٤ ، ٢ ° جنوباً ، ٥٠ ، ١٠٤ ° شرقاً . أنظر حاشية في آخر هذا الفصل .

(٢) Singapura = Singapore .

الأنحاء ، والكلمة تعني بلغة الملايو "التأخّر الغادر treacherous delay" أو التأخر غير المحسوب ، وهذا المسمّى ينطبق كثيراً على هذا المكان لأنّه يحدث في بعض الأحيان أنّه عندما تكون السفن في سنغافورة في انتظار الرياح الموسمية تهب عليها عاصفة هوجاء فتضل أو تضيع .

وعندما وصل الملك باريميسورا Parimicura لهذا الميناء (سنغافورة) استقبله قائد المدينة ، واسمه تاماجي Tamagi استقبالاً حسناً ولما وجده في هذه الوَرْطة أو المأزق استضافه في بيته وأكرمه ، لكن باريماسورا طمعاً منه في ثراء هذه البلاد ، ردَّ الاحسان بالإساءة فقتل القائد (تاماجي) بأن طعنه بخنجر بعد وصوله بأسبوع ، وأصبح هو سيّد الممر Channel وزعيماً على الناس في هذا المكان .

ولما أصبح معلوماً في مملكة باليمباو Palimba'o "باليمبانج" كيف أصبح باريميسورا ثرياً مُزْدهر الحال اتجّه ثلاثة آلاف من أهل هذه المملكة إليه فجمعهم حوله وظل في سنغافورة خمس سنوات يَسْلب كلَّ عابر ، فقد كان لديه أسطول من زوارق كثيرة . وعندما علم سيّد باتاني[1] Patane' -وهو أخو تاموجي[2] Tamuji - أنّ هذا الباريميسورا Parimicura قتل أخاه وسيطر على الممر Channel تجهّز بقوة كبيرة وانقضّ عليه وساعده على ذلك أهل البلاد الذين كانوا يُكنّون له ضغينة لجشعه .

وبعد أن حاقت الهزيمـةُ بباريميسورا فـرَّ هارباً وأبْحر صُعُداً في نهر موار Muar فالتقى بجماعة من الصيّادين الفقراء وبدأ مرة أخرى يستولي على أراضٍ مزروعة ليتمكن من الحصول على الخبز[3] وعاش هنا لبعض الوقت معتمداً على الخبز والسمك الذي كان يُقدمه إليه الصيّادون ، ولم يجد مَنْ صَحبَةٍ حياة أخرى غير حياة السطو على الزوارق التي يجدونها .

(١) Patani في شبه جزيرة الملايو ٥٥َ ، ٦ ْ شمالاً ، ٢َ ، ١٠١ ْ شرقاً .

(٢) كتب أيضاً Tamuja .

(٣) النص البرتغالي 'E Comecou a fazer terras de pa'o pera se manter' ربما كان هناك تلاعب في اللفظ terra في الفقرة terras de pa'o وتعني لقمة الخبز ، بدلاً من مد حدود بلاده (!؟)

وفي هذا الوقت كان يعيش في هذا الميناء أيضاً –حيث يوجد الآن أهل ملقى– عشرون أو ثلاثون صيّاداً يعيشون طوراً من صيد الأسماك ، وطوراً من السلب ، وقد سمعوا أنّ الملك باراميسورا مستقر في موار Muar وذاعت شهرته كرجل يتحلّى بأخلاق الفرسان وبروح عالية ، فاتجهوا إليه وأخبروه عن سهل يُقال له بنتاو[1] Binta'o على بُعد ثلاثة فراسخ عن النهر ، يتميّز بالخصوبة الشديدة ويمكن زراعته بالأرز بكميات كبيرة ، وكذلك بكل ما هو ضروري ، كما

---

(١) بنتانج Bintang "جزيرة تسمّى بنتام Bentam عامرة بالغابات والحيوانات البرية ، ومعظم أشجار غاباتها من النوع العطري" أنظر . Marco Polo, Ed. Yule, II, 261

وهذه الجزيرة تقع عند خط عرض ١٠َ ، ١ْ شمالاً ، ٨٠َ ، ١٠٤ْ شرقاً . وكتب كول . يول Col. Yule ما يأتي : " بنتام Bentam هي بلاشك بنتانج Bintang التي نراها على خرائطنا وقد يكون اسمها الأقرب للصحة هو بنتان Bentan وهي جزيرة مهمة في الطرف الشرقي لمضايق ملقى . وتبدو في القائمة التي نشرها دولورير Dulaurier من مخطوط جاوي من بين الممالك التي هزمها في القرن الخامس عشر ملوك ما جاباهيت Majapahit في جاوة وظلت بنتانج Bintang لفترة طويلة بعد الغزو البرتغالي لملقى هي المقر الرئيسي لسلاطين الملايو الذين طردهم البرتغاليون من بلادهم وما زالت من الناحية الإسمية تابعة لسلطان جوهور Joher الذي ينحدر من سلالة هؤلاء السلاطين ، إلاّ أنها في الحقيقة خاضعة لحكم الهولنديين الذين يقع ميناؤهم ريو Rhio على الساحل الغربي لجزيرة صغيرة وقد تحدث الشاعر البرتغالي كاموس عن بنتاو Binta'o باعتبارها العدو الدائم لملقى :

"Mas despois que as estrellas o chamarem,
Succederas, o' forte Mascarenhas,
E, se injustos o mando te tomarem,
Prometto-te que fama eterna tenhas !
Para teus inimigos confessarem

Teu valor alto; o fado quer que venhas
A mandar mais de palmas coroado,
Que de fortuna justa acompanhado :

"No reino de Binta'o que tantos danos
Tera' a Malaca muito tempo feitos,
N' hum so dia as injurias de mil annos
Vingaras co' o valor de illustres peitos :
Trabalhos e perigos inhumanos,
Abrolhos ferreos mil, passos estreitos,
Tranqueiras, baluartes, lancas, settas,
Tudo fico, que rompas e sobinettas."

x, 56,57 .

أن المياه اللازمة للشرب متوفّرة به ، وحثّوه على الانتقال إليه . وقالوا له إنه إذا ما استقر هناك خدموه وأصبحوا من أتباعه أيضاً .

وبعد أنْ تلقّى باريميسورا Parimicura هذه المعلومات من صيّادي السمك الآنف ذكرهم ذهب وألقى نظرة على المكان فأعجبه إعجاباً شديداً ، كما أعجبته المنطقة برمّتها فعاد إلى موير Muar ونزل كل أهل بيته وكل أتباعه إلى البر واتجه ليعيش معهم في بنتاو Binta'o وبدأ في زراعة الحبوب على نطاق واسع وأقام بساتين الفاكهة كما شيّد قصوراً ضِخَاماً وغدا سعيداً جداً بهذه الأراضي حتى أنّه جعل من صيّادي الأسماك الآنف ذكرهم نبلاء Nobles ومندراينات Mandarins تابعين لبيته الملكي بسبب ما أدّوه له من خدمات بتعريفه بموقع هذه الأراضي (البلاد) ، ولأنّ الميناء كان واسعاً عميق الغَوْر ، ومياه الشرب متوفرة به لم يمض أكثر من أربعة شهور على إقامة باريميسورا Parimicura في هـذا المكان حتى ورد للمكان منّة في الموقع الذي تقع فيه الآن ملقى[1] .

وعندما أحسَّ اللصوصُ الذين اعتادوا سرقة السفن مستخدمين لنشاتهم التي يطوفون بها في البحر ، والذين اعتادوا التردد على ملقى للتزوّد بالمياة بالمعاملة الطيّبة التي يُعاملهم بها الملك باريميسورا Parimicura بدأوا يتّخذون من هذا المكان (ملقى) مأويً لهم وراحوا يحملون إليه البضائعَ التي يسرقونها ، فبدأ المكان (ملقى) يتطوّر ويزدهر بشكل كبير حتّى لقد بلغ عدد ساكنيه ألفين في غضون عامين ، وبدأت التجارة تتخذ شكلاً مستقراً .

وقد أطلق باريميسورا على هذا المكان اسم ملقى Malaca لأنّه إذا هرب شخص من باليمباو Palimba'o أطلقوا عليه بلغة أهل جزيرة جاوا (جاوه) Jaoa كلمة مالايو Malayo ، ولأن هـذا الملك الآنف ذكره (باريميسورا) قد أتى هارباً من باليمباو التي كان حقاً ملكاً لها في وقت من الأوقات فقد أطلق على

---

(١) من هذا النص نفهم أن مدينة ملقى قد تمّ إنشاؤها على سهل بنتاو Binta'u . وإذا كان ما ورد في هذا الكتاب (السجل ... إلخ) صحيحاً فلا يكاد يكون صحيحاً أن تكون Binta'o هي جزيرة بنتانج Bintang وهناك احتمال كبير أن تكون عدة أماكن يطلق عليها هذا الاسم : بنتاو Binta'o نهنال بنتام Bentam على الساحل الغربي لجاوه أيضاً ، وهي مثال لموضع يحمل الاسم نفسه .

هذا المكان اسم ملقى Malaca . لكن هناك آخرين يقولون إن كلمة ملقى تعني مكان اللقاء من الفعل يلتقي meet لأن أُناساً من أماكن مختلفة يلتقون فيه . وليخْتر القارئ أيَّ الرأيين شاء .

ولما أدرك بتارا تاموريل Batara Tamurel التطور السّريع الذي أحرزته ملقى والازدهار الذي عليه زَوْج ابنته تصالح معه وأرسل له كثيراً من المؤن دون أن يتقاضى ثمنها ، ولأن الملك باريميسورا Parimicura كان رجلاً حسن الطباع ويُعامل من يَردون الميناء معاملة طيبة ، فقد بدأ سكان باسي Pace' . والبنغال(١) Bengala يُتاجرون مع أهل ملقى ، وقد مات باريميسورا بعد تعمير ملقى بسبع سنوات ، وترك ابناً هو الشيخ نادر قشا (؟!) Xaquendarxa الذي تزوّج -رغم أنه هندوسي- من ابنة ملك باسي Paco' المسلم التي لم تجد صعوبة في تحويلة للإسلام ، وكان تحوّله للإسلام سريعاً بعد أيّام قليلة من زواجه بها ، وربما كان هذا إرضاءً لزوجته ، أو بسبب دعوة والدها له للإسلام* . وبعد أن أصبح للملك نادر قشا (؟) Xaquendarxa عدد من الأبناء رغب في زيارة ملك الصين إذ قال أنه راغب في أنْ يرى ملكاً يتبعه الجاويون (أهل جاوه) والسياميون (أهل سيام) وخَلْق من كل أرض معروفة ، ومن ثم خرج من ملقى حاملاً معه هدية لملك الصين واستمرت رحلته ثلاثة أعوام وأصبح تابعاً لملك الصين وعندما عاد إلى ملقى كان يحمل نصف ختم half seal دلالة على تبعيته لملك الصين الذي أعطاه إذْناً بسك عملة صغيرة (بيوتر "Pewter") ، فأمر بسكها بمجرد وصوله إلى ملقى وأطلق عليها اسم سيش (؟) Caixes(٢)

---

(١) Bengal .

* من المفهوم طبعاً أن المسلم لا يزوّج ابنته لهندوسي (أو لغير مسلم) فما البال لو كان ملكاً ، ويتضح من اسم هذا الملك الإبن أن مقطعه الأول يعني الشيخ Xaque ، والمقطع الثاني يعني نادر مع شيء من التحريف وهذا بدوره يشكك في أن الأب (باريميسورا) كان هندوسياً ، ولعل إسمه باري ميسور أو اسم من هذا القبيل ، وهجرة العرب ، وعرب الجنوب بالذات إلى هذه المنطقة القديمة ، وصفحة نشرهم للإسلام في شرق آسيا ناصعة البياض . وربما كان ما ورد في النص خلط من المؤلف أو رغبة في تعميق الهندوسية فيها وتطبيع بالإسلام في هذه البلاد في الوقت نفسه .

(٢) cf. "Aos quaes se dava'o duas Caixas, que sam tres reis da nossa moeda" (Hist. de Fem. Mend. Pinto, 128, Col.4) Bluteau :

العملة الصينية لي Le ربما كانت هي المقصودة بالكلمة البرتغالية ريي Re المئة منها = كانداريم Candarim وربما كان الكليم Calaim تحريفاً برتغالياً للكانداريم Candarim .

وهي تشبه السيتيل Ceitils البرتغالي وتساوي المئة منها كليم Calim ، وكل كليم Calaim يساوي على وفق العُرف القانوني أحد عشر ري Reis وأربعة سيتيلات[١] Ceitils . ولم تستخدم الفضة ولا الذهب في سك النقود ، وإنما اقتصر استخدامها على التجار .

وعندما ودّع ملك الصين الشيخ نادر قشا 'Xawuendarxa أرسل معه قائداً ليصحبه في رحلة عودته إلى ملقى ، ونظراً للصداقة الحميمة التي نشأت بين الشيخ نادر وهذا القائد (الصيني) في أثناء الطريق ، تزوّج الشيخ نادر قشا (؟) من إحدى بناته[٢] ورزق منها بابن هو راجابوت Rajapute كان من

---

(١) حصلنا على قيمة الكليم Calaim "كعملة" والذي ورد في المتد والحاشية سابقاً (في الفصل العاشر) ، لكننا –من ناحية أخرى– نجد أن بلوتو Bluteau نقل لنا نصاً من كتاب ..Decades نفهم منه أن الكلمة تعني استانهو estanho التي يعرِّفها بأنها عملة معدنية صغيرة جميلة (بيوتر "Pewter") ومن هذا فإن النظام النقدي في ملقى كما نظمه الشيخ نادر قشا Xaquendarxa كالتالي

اسيش (؟) أو وحدة النقد المالاوي = ١ سيتيل برتغالي

١٠٠ سيش (؟) Caixe = ١ كليم Calaim = ١١ ري reis و ٤ سيتيل

١ ري Rei = ١١/٨ ٨ سيتيل أو سيش Caixe لكننا نفهم من وصف بلوتو Bluteau للسيتيل Ceitil وهو الوصف الذي ترجمته في السطور التالية أن العلاقة بين الري Rei والسيتيل Ceitil مختلفة عن هذا الذي استنتجناه آنفاً . يقول بلوتو Bluteau ·

" السيتيل Ceitil or Seitil وقد يقال له مع هذا سكيتيل Sixtil لأنه قديماً كان عملة تساوي ستة أجزاء من الأدارم Adarme "عشر الأونصة "Ounce . وآخرون يقولون أن السيتيل مشتق من شبته Ceita بمعنى أن هذه العملة في الأساس كانت مستخدمة في سبته (المدينة المغربية) وآخرون قالوا أنه أطلق على هذه العملة اسم سيتيل لأنها كانت في الأصل Setti لأن سبع قطع منها كانت تساوي ريالاً نحاسياً Copper Real ويقول فرنسسكو سورز توسكانوه -Francis co Soarez Toscano في كتابة Parallels ص ١٢٩ أن الملك جوآو الأول Joa'o I –في ذكرى غزوه لمدينة سبتة (المغربية) أمرَ بسك عملة نحاسية أطلق عليها وقتها اسم سبتتيل Septil وأصبح اسمها الآن سيتيل Ceitil وكان الست قطع منها تساوي ريالاً Real نحاسياً . ورغم أن هذه العملة سائدة فقط في الجومارين Guimaraens حيث كان يتم جلب الكتان وكان يتم بيعه بالسنتيلات وعلى أحد وجهي العملة أمرَ الملك الآنف ذكره بسك صورة الأسلحة البرتغالية ، وعلى الجانب الآخر رسم مدينة تُطل على شاطىء البحر" .. إلخ ولمزيد من المعلومات عن العملة الوطنية يمكن للقارىء الرجوع إلى "Recherches sur les Monnaies des Indige'ues de l'Archipel Indien et de la Pe'ninsule Malaie, par H. C. Millies;Ouvrage Posthume, publi'e par PInstitut Royale pour la Philologie et PEthnographie de Pinde Ne'erlandaise. La Haye. M. Nijhoff, 1871," 4to For Figures of these coins, see the work of Manoel Bernardes Lopes Fernandes, entitled "Memoria das moedas correntes em Portugal", etc.; among the "Memorias da Academia Real das Seiencias de Lisboa. 2a classe", p. 96, etc

(٢) النص : Com huma filha sua 'Casou-o Xaquendrxa "الشيخ نادر قشا زوّجه إحدى بناته لكن نفهم من النص ومن شجرة النسب أن مؤلف هذا الكتاب (السجل ..) قد ترجم ترجمة خاطئة من بعض النصوص وما ذكرته في المتن يؤيده ما ورد في طبعة ١٥٧٦م ... Casoa ho Xaque .

سلالته ملوك كامبار[1] Campar وبام Pam وقد مات الشيخ نادر (؟) بعد عودته لملقى بأيام قلائل فحكم بعده ابنه الأكبر المسمّى Modafaixa .

وعندما اعتلى هذا الابن Modafeixa العرش أكّد على ما كان أبوه قد عقده من معاهدات سلام مع ملك الصين وسيام وجاوه ، ورفع كثيراً من شأن ملقى وكان له دائماً أسطول في البحر وفتح بلاداً كثيرة واستولى على ممالك : كامبار Campar وبام Pam ودنـــدرجيري Dandargiri وحوّل ملوكهـــا للإسلام قسْراً وزوجهم من بنات أخيه راجابوت[2] Rajapute وأطلق على نفسه بعد ذلك اسم السلطان[3] Madofaixa* وبعد موته تولى الملك بعده أحد أبنائه هو السلطان مرسوسا Marusa الذي شيّـــد فوق جبل ملقى قصوراً كباراً عاش فيها ، ولأنه كان يخشى أن يقوم عمه راجابوت Rajapute الذي كان يعيش في بنتاو Ben-ta'o بالتمرد عليه وسلْب المُلك منه – فقد ذهب إليه وطعنه بالخنجر فقتله رغم أنَّ هذا العم كان كبير السن .

وعندما علم ملكا بام Pam ودندر جيري Dandargiri بقتله لعمّه تآمروا ضدّه لكنه هزمهم ، فقد كان فارساً قادراً ، وأجبرهم على دفع إتاوة مُضاعفة زوّجهما من أُختيْه ، وتزوّج هو نفسه ابنة ملك بام Pam . وتسبّبت هذه الزيجات في عقد أواصر الصداقة بينهم ، وقد أنجب السلطان من ابنة ملك بام Pam ابناً مات مسموماً ، وبعد ذلك تزوَّج من ابنة اللسّامين Lassamane التابع له[4] فأنجب منها ابنـــاً أسماه علاء الديـن Alaoaldin وعنــــد موت السلطان مارسوسا Marsusa تولّى علاء الدين المُلك وتزوج مـن إبنـــة ملك كامبار Campar . وكان

(١) "Ve's Corre a Costa que Champa' se Chama, Cuja mata go do pao Cheiroso Ornada" Lus., x, 129 .
"هنا ، إجعلها يجري إزاء السّاحل المسمّى شامبا ، حيث حرارة غابات كالامبوكو Calambuco" وأنظر أيضاً Yule's Marco Polo, II, 248 "عن البلاد الشاسعة المسماة شامبا Chamba" التي عرّفها المحرر النابة بأنها "كل النطاق الساحلي المُمتد من تونجكنج Tongking إلى كامبوجا Kamboja والذي يشمل ما يُعرف الآن بكوشن الصين Cochin China خارج توجكنج" Ib. p. 250.

* كُتب الإسم قبل ذلك Modafeixa .

(٢) أنظر شجرة النسب في أخر هذا الفصل .

(٣) لاحظ إختلاف كتابة الاسم .

(٤) عن معنى هذه الكلمة ، أنظر الفصل التالي .

هذا الملك ثرياً جداً إذ جمع كميّات كبيرة من الذهب من عوائد ميناء ملقى قُدّرت بمئة وأربعين قنطاراً[1] .

لقـد راح هذا الملك الآن يتـأمل ثروته الطائلة فـصـمّم على الحج إلى مكة (المكرمة) وجهّز كثيراً من السفن من نوع الينك many Junks واتجه قاصداً أن يصحب معه في رحلة الحج هذه ملك كامبار Campar وملك دندرجيري Dan-dargiri اللّذين كان قـد جعلهما في بلاطة لميْلهما إلى التمرّد ضدّه ولم يُمكّنهما من العودة إلى بلادهما . وما حقق علاء الدين السيادة على كل هذه البلاد إلاّ لأنه ملك قوي وثري جداً . وفي زمن هذا الملك (علاء الدين) أصبحت ملقى مدينة عظيمة حتّى أنّه ليقال أنّها كانت تضم أربعين ألف نفس كان من بينهم كل أجناس البشر . وقد تزوّج علاء الدين من ابنة البنداري 'Bendara التابع له كويلم[2] Quilim في أثناء حكم والده ، وكان علاء الدين يحب زوجته هذه حباً جمّا وأنجب منها ابناً سُمّيّ السلطان محمد Mohamet وأنجب من ابنة ملك كامبار Campar السلطان سليمان Celeima'o وقد آلت المملكة إلى هذا الأخير لأنه من سلالة ملكية خالصة (أي من طريق أبيه وأمه التي هي إبنة ملك أيضاً) .

وعندما أصبح علاء الدين جاهزاً للإنطلاق إلى مكة (لأداء مناسك الحج) مات مسموماً وقيل إن ملكي بام Pam ودندرجيري Dandrgiri هما اللّذان دبّرا هذا الأمر لأنه كان يُريد إصطحابهما (للحج) دون إرادتهما . وبعد موت السلطان علاء الدين نشبت في المملكة خلافات كثيرة لان إبنة ملك كامبار Campar وهي أميره أرادت أن يتولّى ابنها المُلك بإعتبار أن ذلك حق له ، لكن البنداري Ben-dara' الذي كان ذا نفوذ كبير بالإضافة لثرائه الشديد ، كان يؤازر حفيد أخيه الذي كان بنداري 'Bendara قبله وأذر ملكا بام Pam وكامبار Campar الأوّل .

(١) القنطار يساوي ٤ أروبات arrobs كل أروبا تساوي ٣٢ أراطل arratles . وفي كل أراطل واحد ٢ ماركو marcos وفي كل ماركو ٨ أونصة oncas . والقنطار يساوي ٥٨,٧٤٢٨ كيلوجرام ، ١٤٠ قنطار = ٨٨٢٤ كيلوجرام تقريباً وهذا أكثر من ثمانية أطنان على وفق لنظام الموازين البريطاني الذي يعتبر الرطل مؤلفاً من ١٦ أونصه . وبإعتبار الأونصة الواحدة تساوي ثلاثة جنيهات إسترلينية فهذا المبلغ يزيد على ٨٦٠,٠٠٠ جينة إسترليني .

(٢) يبدو أن هذا اسم شرقي ذو أصول صينيّة .

وأخيراً جعل البنداري المملكة لأقاربه وحالما أستولى السلطان محمد على المملكة تخلّى عن صلاته بكل من سيام (سياو Sia'o) وجاوه Java وأكد خضوعه لملك الصين .

وعندما وجد ملك سيام Sia'o أنّ ملك ملقى لن يُطيعه (خلع الطاعة) أعد أسطولاً من مئة سفينة للهجوم عليه ، فلما وصل خبر هذا الأسطول للملك ملقى أرسل اللأسمين Lassamane التابع له لإعتراض سبيل الأسطول ، فانتظر هذا الأخير الأسطولَ في جزيرة بلابيكاو[1] Pulapica'o وألحق به هزيمة مُنكرة . ومنذ هذا الوقت حتى استيلاء أفونسو دلبوكيرك على ملقى[2] بعد اثنين

(١) جزيرة بنجانج Panjang أو بولو بنجانج Pulo Panjang في خليج سيام ٩َ ، ٩ ع شمالاً ، ٢٥َ ، ١٠٢ ° شرقاً .

(٢) يقدم لنا كول . يول Col. Yule في الطبعة الثانية الكتاب ، the Book of ser Marco Polo جوهر الملاحظات التالية في جـ٢ ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ . ومن الضروري إيرادها هنا لأنها تعيّن على فهم هذا الفصل .

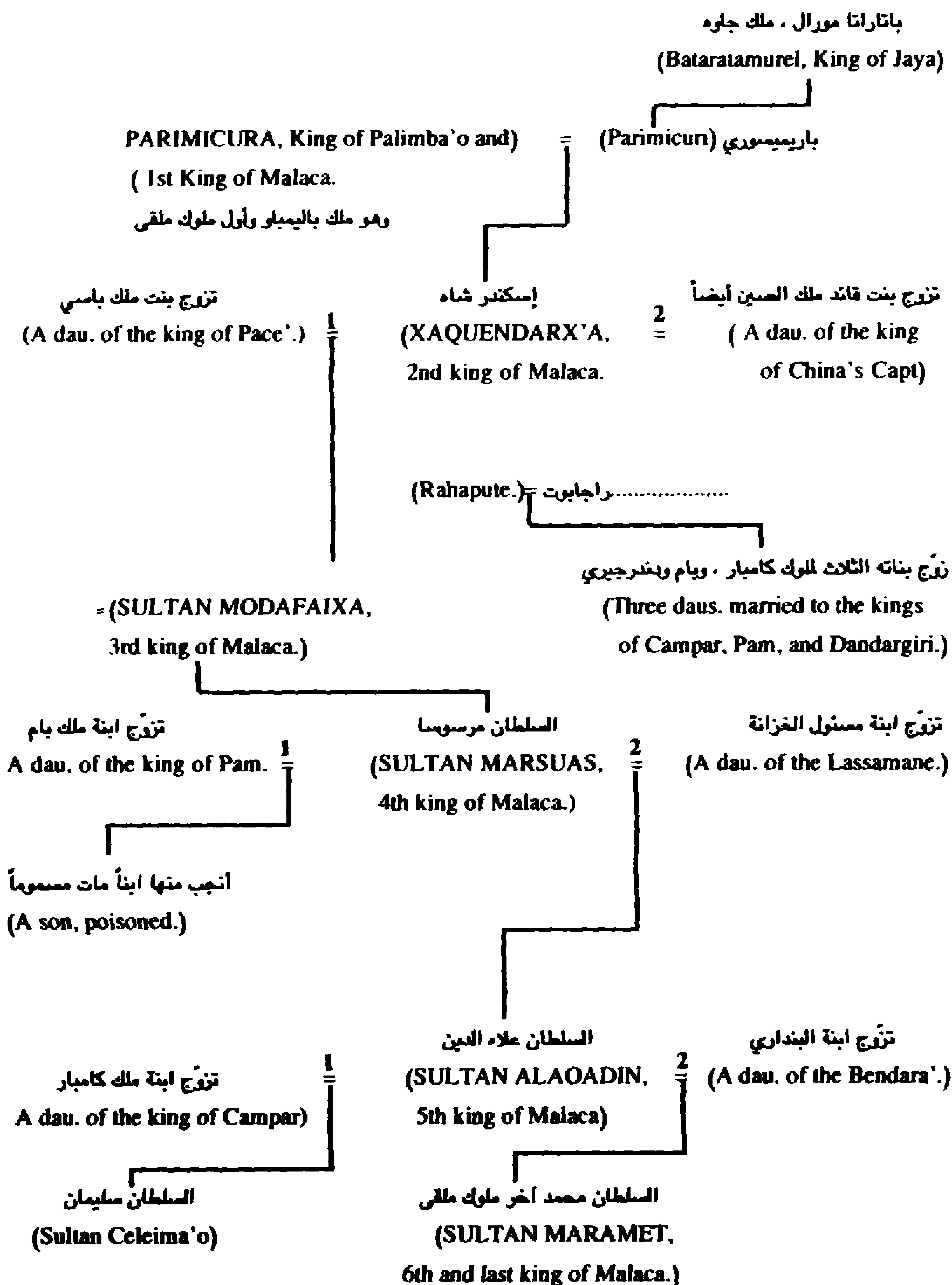
أسس سنغافورة مهاجرون من باليمبانج Palembang وهي نفسها – باليمبانج مستعمرة جاوية . وقد أصبحت سنغافورة مركزاً لمملكة مزدهرة ، وكانت على وفق المرويات التي سجلها دي باروس De Barros أهم مركز سكاني في هذه المناطق . والتسلسل الزمني للحوادث التاريخية في الملايو Malay كما نشرها فالنتين Valentyn (V, 352) يعزو تأسيس ملقى للملك إسكندر شاه في سنة ١٢٥٢م وانتقل الحكم منه إلى محمد شاه ثالث ملوك ملقى وأول ملوكها المسلمين من ١٢٧٦م إلى ١٣٢٢م ، ويقدم لنا هذا الثبت الزمني ثمانية ملوك ما بين التأسيس حتى استيلاء البرتغاليين عليها في سنة ١٥١١م خلال فترة زمنية تصل إلى ٢٥٩ سنة . ونظراً لأن إسكندر شاه المؤسس قد حكم ثلاثة أعوام في سنغافورة قبل تأسيس ملقى وأن محمد شاه الذي ضاع منه ملك ملقى قد حكم في جوهور Johore بعد سقوط عاصمته ، فإنه يكون لدينا ٢٦٤ سنة إذا قسمناها على ثمانية ملوك لأصبح لكل واحد منهم ٣٣ سنة ، وهذا يشير بالتأكيد إلى أن هذه الفترة في حاجة إلى شيء من التقليص . أي أنها فترة طويلة طولاً غير معقول .

ومرة أخري نجد أن كلا من باروس Barros ومؤلف كتاب السجل الذي بين أيدينا يتفقان بشأن مؤسس ملقى ويعزوانه إلى أحد الهاربين الجاويين الذين هربوا من جاوه وإسمه بارايميسورا Paramicura ، وقد جعل الأخير (مؤلف السجل الكامل . .) من الشيخ نادر قشا (؟) Xaquendar ابن باراميسورا أول من تحوّل للإسلام . والملوك الأربعة الآخرون (أنظر شجرة النسب فيما يلي) حكموا على التتابع وآخرهم هو السلطان محمد (محمد شاه) الذي طرده أفونسو دلبوكيرك في سنة ١٥١١م .

وبينما يذكر لنا المؤرخ دي كوت De Coute العدد نفسه من التحول (للإسلام) إلى إستيلاء (البرتغاليين) ، فإنه يجعل التحول (للإسلام) في حوالي ١٣٨٤م ، بينما هذا الكتاب (السجل الكامل) يجعل المدة الزمنية من تأسيس ملقى إلى إستيلاء البرتغاليين عليها لا تزيد على تسعين سنة ، مما يجعل تأسيس ملقى يعود لسنة ١٤٢١م تقريباً . وهناك مراجعة تقريبية أخرى للتسلسل الزمني تقدمه لنا السجلات الصينية في مجموعة أميوت Amiot Collection (مجلد ١٤) حيث نقرأ أن ملقى اعترفت بتبعيتها لأمبراطورية الصين في سنة ١٤٠٥م زمن الملك الصيني سيلي-جو-يول-سولا Sili-Ju-eul-sula (؟) وفي سنة ١٤١١م أتى باريميسورا Parimicura "Peilimisula" بنفسه إلى بلاط ملك الصين لتقديم الولاء وفي سنة ١٤١٤م أتت الملكة الام Queen mother في ملقى إلى بلاط ملك الصين لتقدم بنفسها إعتراف ابنها بالولاء لملك الصين . ونحن نجد في كتاب (السجل الكامل ..) الذي بين أيدينا نفس المعلومات عن زيارة ملك ملقى لبلاط الصين وإعترافه بالتبعية له ، لكن الكتاب الذي بين أيدينا لا يعزو هذه الزيارة إلى باريميسورا (مؤسس ملقى) بل إلى ابنه الشيخ نادر ، وقد يكون

الإختلاف في اللقب فقط بمعنى أن تكون الزيارة قام بها كل من الأب والابن ، ونجد أنفسنا نميل إلى أن ملقى أسسها ملك (أمير) وأن ابنه حكم وزار الصين في سنة ١٤١١م وأن التسلسل الزمني الصحيح يقع وسطاً بين تقدير دي كوتو De Couto وتقدير صاحب هذا الكتاب (السجل ..) أي في بداية القرن الخامس عشر .

شجرة نسب ملوك ملقى
على وفق ما ورد في هذا الكتاب (السجل ...)



وعشرين عاماً لم يحاول ملك سيام غزو ملقى مرة ثانية .

وكان السلطان محمد مُختالاً فخوراً ، وقد تشاجر مع أبيه بسبب رغبة الأب في الحج إلى مكة ، فقد إعتاد هذا السلطان محمد أن يقول إن ملقى هي مكّة الحقيقية* right Me'ca وكان يشك في أخيه السلطان سليمان فقلته طعناً بخنجر ، وبالطريقة نفسها قتل سبعة عشر رجلاً من عُمُد المملكة وكانوا جميعاً من أقاربه ، ولم يكن ثمّة سبب لقتله إيّاهم بل إنه قتل ابنه ووريثه لأنه طلب منه بعض النقود ليُنفقها . وكان المسلمون يردّدون القول بأن الله عاقبه -لجرائمه تلك- بأفونسو دلبوكيرك الذي استولى على مملكته . وكان هذا الملك يستولي على كل ممتلكات من يقتلهم فبلغ ما استولى عليه بهذه الطريقة خمسين قنطاراً ذهباً . كما أستولى على زوجاتهم وبناتهم واتخذ منهن محظيات ، وبلغ ما أستولى عليهن من النسوة بهذه الطريقة قرابة خمسين امرأة من ذوات المهور الغالية . لقد تولّى الملك في ملقى منذ أيام الملك المؤسس حتى السلطان محمد الذي أستولى أفونسو دلبوكيرك على المملكة في عهده ستة ملوك هم :

باريميسورا "لعلّه باري ميسور" Parimicura والشيخ نادر قشا (؟) Xaquen-darxa' والسلطان مودافيكسا Modafaixa والسلطان مارسوسا Marsu-sa والسلطان علاء الدين Alaodim والسلطان محمد Mahamet . وكانت ملقى مدينة عامرة مزدهرة -كما جرى على ذلك القول- عندما استولى عليها أفونسو دلبوكيرك لدرجة أنّ المدينة وضواحيها كانت تضم زهاء مئة ألف نفس ، وكانت تمتد على طول ساحل البحر فراسخ كثيرة .

* طبعاً لا يقول هذا الكلام -جاداً- مسلم حقيقي .

الفصل الثامن عشر

عن العادات ونظام الحكم في ملقى .

ميناء ملقى ميناء آمن جداً لا تعتريه عواصف مدمّرة ولا تضيع فيه سفينة . وهو بمثابة نقطة تبدأ منها رياح موسمية ، وتنتهي عند أخرى ، لذا فإن أهل ملقى يسمون أهل الهند سكان الغرب ، ويسمّون الجاويين والصينيين والجوريين[١] Gores وغيرهم من شعوب الجزر سكان الشرق ، فملقى تقع موقعاً وسطاً بين الطريقين فالملاحة في مضيق ملقى سريعة ومضمونة بطريقة لم تعهدها سنغافورة التي تضيع فيها سفن كثار بسبب مياه كاباسيا Capacia الضّحلة . والذين يأتون من الشرق إلى الغرب (بمفهوم الشرق والغرب الآنف ذكره) يجدون هنا بضائع الغرب فيحملونها معهم تاركين ما جلبوه من بضائع مقابل ما أخذوه ، وعلى النحو نفسه يفعل أولئك القادمون من الغرب . وبسبب هذه التجارة ازدهرت ملقى تدريجياً واتّسعت حتى أنها ضمت باسي Pace' فأصبحت مجرد قرية تابعة لها فمعظم مسلمي باسي Pace' ذهبوا للاقامة في ملقى .

وفي كل عام اعتادت أن تأتي إلى ملقى سفن كمبي (كامبايا) وشول (شيول) Chaul ودابو (دبل Dabul) وكلكتا وعدن Adem والمخاء Mec'a وشهر[٢] Xaer وجده وكورامندال Choramendal والبنغال وسفن الصينيين والجوريين Gores والجاويين وسفن بيجو Pegu وكل هذه الأنحاء . لكن سفن سيام (سياو Sia'o) لا تأتي إلى ملقى ببضائعها لأنها في حالة حرب دائمة مع الملاويين Malays . وإنني أعتقد حقاً – على وفق لما توفّر لديّ من معلومات عن أمور ملقى – أنّه إذا كان هناك عالَم آخر وطريق ملاحي آخر فيستركهما الجميع ويتجهون إلى ملقى

---

(١) نكرنا شيئاً عنهم في سياق هذا الفصل .

(٢) Xaer أو Sheh ميناء على سواحل شبه الجزيرة العربية بين عدن وظفار ٤٤َ ، ١٤ ° شمالاً ، ٤٠َ ، ٤٩ ° شرقاً .

ففيها يمكن أن يجدوا كل شيء وكل أنواع العقاقير والبهارات لأن ميناء ملقى أكثر ملاءمة بسبب الرياح الموسمية المختلفة التي تهُب من رأس كوموريم Co-morim إلــى الشرق ، وميناء ملقى بهذا أكثر ملاءمة من أي ميناء آخر في هذه الأنحـاء . ولا أصف -على نحـو خاص- المزايا الأخرى التي يتحلّى بها ميناء ملقى من حيث الرياح الموسمية التي تهب عليه والتي تمكن من استمرار الملاحة في هذه الأنحـاء بعيداً عن المياة الضحلة في كاباسيا Capacia ، وذلك حتى أتحاشى الاستطراد والإطناب .

والمالاويون أُناس معتزون بأنفسهم بحكم طبيعتهم ويفخرون بقدرتهم الحاذقة على القتل بالخنجر[1] وهم قوم حقودون ماكرون ، لا يُصدقون بشكل عام ، أما الجوريون Gores فهم دائماً متعودون على الصدق ويعتبرونه شرفاً وهم جنس

---

(١) يصف بلوتو Bluteau الخنجر Cris أو Creese وهو السلاح الوطني في الملايو بأنه نوع من الخناجر مسطح النصل وأحياناً يكون متموّج الجانبين ومُسمّماً . ويتم تسميمه إما بنقعه في عصير للأعشاب (السّامة) وهذا يستلزم حمل السم لاستخدامه عند الحاجة ، أو بسقيه السم بمعنى أن يكون السم جزءاً من تكوين النصل وهذا يكون عند صنعه . والخنجر المسقي منه أنواع غالية يصل الواحد منه إلى ألف قرش Patacos لأن الصناع يستغرقون وقتاً طويلاً في صنعه ويُمارسون عند صنعه كثيراً من الخرافات (الأمور الغيبيّة) ويراعون فترات زمنية معيّنة لمعالجته . فهم (الصناع) يطرقونه عدداً معيّناً من الطرقات في أيام بعينها في الشهر لتطريقه وأحياناً تستمر طقوس هذا العمل أكثر من عام مصحوبة بأمور غامضة (ممارسات غامضة) . وفي الموسم الحار يكون السم الذي يصل للبدن عن طريق الخنجر خبيثاً حتى أنه يصل إلى القلب بمجرد وخزة بسيطة ويؤدي إلى الوفاة . (فقرة لم نستطع ترجمتها كالتالي .

(The only remedy is for the wounded person immediately - Comer do seu proprio ester co.)

وقد تكرّم كلٌ من هـ. سير كمنج H. Syer Cuming (و) ف . س أ. سكوت F.S.A. Scot اللذين حققت دراساتهما الإثنوجرافية إنتشاراً واسعاً ،

المعلومات الآتية عن هذا السلاح : "الكريس Cris يمكن اعتباره السلاح التقليدي أو الوطني لدى المالاويين في جاوه وسومطرة . وهو خنجر ذو نصل ذو حدّين وهو ملتف أو متمعّج Scrpentine يصل طوله من أقل من إحدى عشرة بوصة إلى أربع عشرة بوصة ويتسع تدريجياً من طرفه (نقطة الوخز) إلى ناحية المقبض . وعند المقبض بالتحديد يتسع النصل إتساعاً مفاجئاً ، وفي هذه المنطقة القريبة من المقبض يكون دوماً مزركشاً ومحلّى بحلي ثمينة ، قلّ ذلك أم كثر ، ويكون ذلك باستخدام أداة ثاقبة . وهذه الأداة تتخذ في بعض الحالات شكل رأس الحيّة أمّا الجسم (جسم الحية أو الزاحفة "reptile") فيكون شيئاً كالضلَع يمتد تقريباً على طول النصل ، وجرت العادة أن يُغمس النصل في السم قبل استخدامه وهذا النصل من الصلب أو الفولاذ الدمشقي .

ومقبض هذا الكريس Kris أو Cris أي الخنجر المالاوي له إنحناء من ناحية واحدة وعادة ما يكون من خشب بني غال جميل يطلى بطلاء يجعله لامعاً جداً ، وإن كان أحياناً من العاج ، ويتم تقويته بشكل مستمر ، وعلى أية حال فإن الزخارف الموجودة عليه تتراوح بين قطوع قليلة خفيفة ورسوم مُتقنة .

أمّا الغمد أو الجراب sheath فله نمط خاص ففيه قسم (جناح) من ناحية ليستقبل الجزء الحاد من النصل أيضاً ، كما أنه يُستعمل كسناد لهذا السلاح عند وضعه في حزام الوسط waist-girdle ".

راق ويتحلّى بعادات طيبة . والمالاويون نوو ملابس أنيقة ولا يسمح المالاوي لأي أحد بوضع يده على رأسه ولا على كتفه . وبهجتهم الكبرى في الحديث عن الأمور الحربية هم وبوبون جداً وبَمِثون ، ولا يُسمح لأحد بإرتداء ملابس صفراء وإلاّ تعرّض لعقوبة الإعدام فهذا اللون قَصْر على ملك البلاد وعلى من يريد الملك تكريمهم بالسماح لهم بإرتداء ملابس صفراء . وعندما يريد القادة ونوو الرتب أن يتحدّثوا مع الملك فلابدّ أن يقفُوا بعيداً عنه بمسافة مقدارها خمس خطوات أوْ ست .

وأولو الشأن الذين يُحكم عليهم بالإعدام يتمتعون بميزة فيها تشريف لهم وهي أنْ يتم قتلهم طعناً بالخنجر وأن يكون قاتل الواحد منهم هو أكثرهم قرابة له . وإذا مات من لا وريث له تم تحويل ممتلكاته إلى الملك ، ولا يمكن لأيّ أحد أن يتزوج دون إذن الملك أو البنداري 'Bendara ، وإذا ضبط أحدهم زوجته تزني فمن حقِّه أنْ يقتل الزاني والزانية داخل البيت لكن ليس من حقه أنْ يفعل ذلك خارج البيت ، ولا أنْ يقتل طرفاً ويترك الطرفَ الآخر وإنما لابد أن يوجّه الإتهام أمام القاضي . وفي حالة دفع مبلغ كتعويض عن الجروح يأخذ الملك نصف المبلغ ويستلم المجروح (المصاب) نصفه الآخر . وفي ملقى طرائق مختلفة لإدارة النظام العقابي على وفق لطبيعة الجريمة ، فبعضهم يُطرحون فوق الأرض ، وبعضهم يضروبون بوحشية فوق صدورهم[1] وبعضهم يتم شنقهم ، وآخرون يُسلقون في الماء المغلي ، وبعضهم يتم شيّهم على النار ومن ثم يُقدَّمون طعاماً لبعض أكلة لحوم البشر الذين هم أُناس كالمتوحشين من بلاد يُقال لها دارو Daru جلبهم ملك ملقــى ليأكلوا من حُكم عليــه بالموت شيّاً . وكل من يتعرض لعقوبة الموت يأخذ الملك نصف ممتلكاته إن كان له ورثة فإن لم يكن له ورثة أخذ الملك كلَّ ممتلكاته .

وجرت العادة أن يكون في ملقى خمسة مناصب رفيعة : المنصب الأول هو منصب البدريكاراجا Pudriearaja ويعني نائب الملك وهو أعظم المناصب بعد

(١) النص البرتغالي : Acotoxelados nos peitos
يضرب بالمرفق ...

منصب الملك . والمنصب الثاني هو البنداري 'Bendara' وهو مسؤول الخزانة وهو يحكم المملكة ، وفي بعض الأحيان يكون البنداري (مسؤول الخزانة) هو نائب الملك Pudricaraja أيضاً ، لأن شغل هذين المنصبين بشخصين منفصلين قلَّما يؤديً إلى اتفاقهما . والمنصب الثالث هو اللُّسامين Lassamane وهو قائد الأسطول (أمير البحر 'Admiral') والمنصب الرابع هو التاموتجو Tamungo وهو مسؤول عن إدارة العدالة بين الأجانب . والمنصب الخامس هو منصب الشهبندر Xabandar ، ومن بين هذه المناصب هناك أربعة يشغلها واحد من كل أمّة nation : واحد من الصين والثاني من جاوه الثالث من كمبي (كمبايا) والرابع من البنغال (بنجالا 'Bengala') . وكل البلاد مُقسّمة بين هؤلاء الأربعة ، فلكل منهم قسم ، والتاموتجو Tamungo –وهو قاضي دار الجمارك– يرأس كلَّ هؤلاء .

ويمكن للمرء أن يقول وهو مطمئن تماماً أنّ ملقى بالنسبة للحركة التجارية هي الأوسع في العالم كله ، ويتم فيها تنفيذ القوانين بصرامة فلابد أن يكون حُكَّامها أشخاصاً نوي مواهب عالية في إدارة العدالة والحفاظ على الممتلكات العامة ، فهي تستحق ذلك . ولن أتحدث هنا عن البلاد (الأراضي) العديدة والجزر والممالك والولايات الموجودة في هذه الأنحاء رغم ما لديّ من معلومات مُعيَّنة عنها مبثوثة في الخطابات التي أرسلها أفونسو دلبوكيرك للملك البرتغالي والتي إعتدتُ الرجوعَ إليها ، فقد أورد أفونسو دلبوكيرك معلومات في خطاباته تلك عن كل هذه الأنحاء ، وسبب عدم تعرضي لهذه الجزر والممالك ... إلخ هو أنَّ هدفي في هذا الكتاب هو تناول أعمال أفونسو دلبوكيرك وغزواته ، لذا فإني أترك تناول الموضوعات الأخرى لآخرين أقدر منّي على الكتابة فيها . لكنني سأكتفي هنا بالحديث عن الجوريين Gores فهذا أمر ضروري لهذا العرض التاريخي الذي أتناوله .

وعلى وفق المعلومات التي حصل عليها أفونسو دلبوكيرك عن الجوريين Gores عندما استولى على ملقى ، فإن الرأي العام هو أنَّ بلادهم جزيرة وأنهم يُبحرون

إلى ملقى إذ تصل إليها كل عام سفينتان أو ثلاث من سفنهم ، (رغم أننا الآن أصبح لدينا معلومات أكثر دقة عنهم ففي هذه الفترة كانت الفكرة السائدة هي أن بلادهم داخل البر الهندي وليس في جزيرة) . والبضائع التي يجلبونها في سفنهم هي الحرير ، والملابس الحريرية والأقمشة المطرّزة ، والبورسلين (الخزف الصيني "Porcelain") وكميات كبيرة من القمح ، والنحاس وحجر الشّب والفروسيريا Frusseria (تبر الذهب والفضّة)[١] ويجلبون معهم قدراً كبيراً من الذهب مدموغ بخاتم ملكهم gold in little cakes وليس من من المؤكد ما إذا كانت هذه القطع الذهبية الآنف ذكرها تستخدم كنقود في بلادهم أم أنهم يدمغونها بهذه العلامة ليبينوا الميناء الذي أحضروها (أي القطع الذهبية) منه ذلك أنهم أُناس متحفّظون جداً في حديثهم ولا يقصُّون على أي أحد شيئاً من أمور بلادهم . وهم يجلبون هذا الذهب من جزيرة قريبة من جزيرتهم تسمّى بريوكو Perioco يتوفر فيها قدر كبير من الذهب .

ويطلق على بلاد الجوريين Gores اسم ليكوا[٢] Lequea وأهلها حسنو المنظر ، ولباس الواحد منهم رداء يشبه المعطف[٣] بدون غطاء للرأس ، ويحمل سيفاً على النسق التركي لكن نَصْله أضيق وخنجراً بطول بلْمين Palms (البلم يساوي طول راحة اليد من المعصم لأطراف الأصابع) ، وهم قوم نوو جسارة ، يخشاهم أهل ملقى . وعندما يصلون إلى أي ميناء لا يخرجون كل بضائعهم دفعة واحدة ، وإنما يخرجونها شيئاً فشيئاً وهو صادقون في حديثهم وإذا نقض أحد من أهل ملقى عهده معهم أمسكوا به على الفور وسجنوه . وهم يعملون على إنهاء أعمالهم والإبحار تاركين المكان بسرعة . وليس لهم مُستقرّات في البر فهم قوم لا يحبّون الاغتراب (لا يحبون ترك أوطانهم) ، وهم يغادرون بلادهم إلى ملقى في شهر يناير ، ويبدأون رحلة العودة في أغسطس وسبتمر وطريقهم المعتاد الذي يُبحرون فيه عبر القناة بين جزر سيليت Celate ورأس سنغافورة -Singa

---

(١) frusseri تبر (تراب) الذهب والفضة بشكله المحلّي وهو الذي يتم الحصول عليه من عند مصب النهر أو من المناجم .

(٢) المقصود ليو-شو Loo-Choo أو Lew-Chew جزر تابعة لإمبراطورية الصين ٢٠َ ، ٢٦ ° شمالاً ، ١٢٧° شرقاً .

(٣) Balandrios معطف واسع يستخدمه أعضاء الجماعات الأخوية الدينية في البرتغال .

pura عند رأس البر الرئيسي . وفي الوقت الذي أبحر فيه أفونسو دلبوكيرك إلى الهند بعد أن استولى على ملقى وصلت سفينتان من سفنهم لبوّابة سنغافورة وكانا في طريقهما إلى ملقى لكن اللّسامين Lassamane (اسم منصب كبير في ملقى) الذي كان في الوقت نفسه أدميرال أسطول ملقى ، نصحهم بألا يتقدموا إلى ملقى لأن البرتغاليين استولوا عليها فلما علِم المسؤولون البرتغاليون بوضعهم أرسلوا إليهم بحق المرور الآمن وبعلم الهدنة flag of Truce فأبحروا إلى الميناء (ملقى) على الفور .

وكان هذا اللّسامين Lassamane رجلاً في الثمانين من عمره ، وكان مُحارباً جيداً حسن السمعة واسع المعرفة ، وعندما علِم أن ملك ملقى لم يعد له وجود إتجه ليستقر في سنغافورة ، وبعد أن تملّك أفونسو دلبوكيرك ملقى ، أتى عن طريق نهر موار Muar وأرسل يطلب الأمان (من أفونسو دلبوكيرك) مُعلناً رغبته في العودة ليعيش في ملقى ، فأرسل له أفونسو دلبوكيرك هذا الأمان ، ومع هذا لم يأتِ وربما أرسل له بعض مسلمي ملقى – أملاً منهم في كسب ود أفونسو دلبوكيرك ليوكل لهم حكومة ملقى– إليه ذاكرين أموراً أدت إلى منعه من المجيء. لقد خشيَ هؤلاء المسلمون فيما يبدو من مجيئه لأنه كان رجلاً ذا مواهب قد يستغلها أفونسو دلبوكيرك ويعهد إليه بحكم ملقى .

الفصل التاسع عشر

عن الرسالة التي أرسلها أفونسو دلبوكيرك لملك ملقى، وعن الاجتماع الذي عقده مع القباطنة بخصوص الخطاب الذي أرسله إليه روي دي اروجو Ruy de Araujo.

لقد أدرك أفونسو دلبوكيرك اعتزاز ملك ملقى بنفسه، وقلّة خشيته من الأسطول البرتغالي، كما تذكر ما حدث مع ديوجو لوبيز دي سيكويرا Diogo Lopez de Sequeira، فأصبح جَزِعاً عندما استعرض في نفسه مجريات الأحداث وبخاصة بعدما تأمل في الأسلوب الذي يعامله به ملك ملقى، الممتلىء خداعاً وكذباً. لقد أرسل أفونسو دلبوكيرك مراراً لملك ملقى يطلب استعادة المسيحيين (البرتغاليين) الذين احتجزهم عنده قَسْراً لأنه لم يأسرهم في حرب ولم يقبض عليهم أخذاً بالثأر، وإنما بالخديعة وتحت غطاء الوعد بالأمان وحق المرور الآمن الذي منحه هو وولاة الأمر في مملكته لهم، فبينما كان هؤلاء المسيحيون (البرتغاليون) يسيرون غير مسلّحين أصدر ملك ملقى أوامره بإباحة دمهم لكل من يريد قتلهم. ورغم أن ملك ملقى أعلن أنه كان قد أمر بقتل البنداري 'the Bendara بسبب تعرّض هؤلاء البرتغاليين للقتل، إلاّ أنّ ذلك غير صحيح، فالسبب الحقيقي لقتله -كما علِم أفونسو دلبوكيرك- هو تورّطه في مؤامرة للقيام بثورة في المملكة. ومن هنا فلم يكن أفونسو دلبوكيرك ليقبل حجج الملك وذرائعه وبخاصة وأن ملك ملقى نفسه -بعد موت البنداري- أصدر أوامره بتعذيب المسيحيين (البرتغاليين) لإجبارهم على التحوّل للإسلام فتحول

بعضهم بالفعل لعدم تحملهم قسوة العذاب ومع كل هذه المعلومات التي جالت بعقل أفونسو دلبوكيرك ، فقد تظاهر بأنه لا يدري شيئاً عنها وراح يحاول عقد معاهدة سلام وصداقة مع ملك ملقى . لكن لأن ملك ملقى هذا كان عنيداً لا يُريد اتمام هذا الأمر فقد أراد أفونسو دلبوكيرك أن يُعلِّمه أن أحداً في الأسطول البرتغالي لا يريد أن يمكث هنا والأيام تمضي يوماً في إثْر يوم دون أن يأخذوا بثأرهم لمقتل البرتغاليين الآنف ذكرهم والذين كان من بينهم قبطان تابع للملك البرتغالي .

وبالإضافة لهذه الاتصالات التي كانت تتم بين ملك ملقى وأفونسو دلبوكيرك ، فقد كتب إلى روي دي أروجو Ruy de Araujo خطاباً ذكر له فيه أنه على وعي كامل بالتزاماته وأن قباطنة الأسطول وكلٌ من فيه يودُّون الموت في سبيل تحقيق مصلحة سيده الملك د. مانويل D. Manuel ، ومع هذا فهو يبذل قصارى جهده لتحاشي الحرب ، لكن ملك ملقى يُبدي عناداً فلا هو يريد تسليم المسيحيين (البرتغاليين الأسرى) ، ولا هو عقْد معاهدة السلام والصداقة المعروضة عليه باسم ملك البرتغال ، وهو -أي ملك ملقى- لا زال ممسكاً به (أي بروي دي أروجو) غير راغب في إطلاق سراحه أيضاً ، لكن إنْ تطورت الأمور على نحو أكثر خطورة فلابد أنْ يتحملوا المشاق ويستعينوا بالصبر (أي روي دي أروجو ومن معه) لأنه (أي أفونسو دلبوكيرك) قد عقد العزم من ناحيته على أن يعمل كل ماهو في صالح الملك البرتغالي ، وأنْ يُنهي هذا الأمر بتوجيه قواته ضد هؤلاء الأعداء ، فقد طال صبره ولديهم متسع من الوقت لتحصين أنفسهم .

وكان رد روي دي أروجو Ruy de Araujo هو ألاّ يحكم الله بهزيمة البرتغاليين وأسطولهم أو تعرضهما لأية متاعب لإنقاذ حياته (أي حياة روي دي أروجو) لأنه -من ناحيته- يود الموت في سبيل خدمة الرب والملك البرتغالي ، وفي سبيل تحرير بني وطنه وأنه (أي روي دي أروجو) يعتبر نفسه سعيد الحظ لأن ربنا Our Lord قد جعله في مثل هذا الموقف حيث يمكنه أن يموت في سبيل عقيدته المقدسة ، وبالنسبة له شخصياً ورفاقه لن يعجزوا عن بذل قصارى جهدهم

لخدمة ملك البرتغال فهم الآن لا يكترثون بأي شيء قد يحدث لهم وأنّه لابد لأفونسو دلبوكيرك أنْ يعلم أنَّ ملك ملقى يُجري الاستعدادات بأقصى ما يمكنه من سرعة وأن الكجراتيين the Guzarates في ملقى يعملون ليل نهار لإنهاء الاستحكامات والتحصينات فهم -بشكل أساسي- الذين يوجّهون الأمور كي لا يكون للبرتغاليين موطىءُ قدم في ملقى وقال روي أروجو Ruy Araujo أنه إذا تقرّر الهجوم على المدينة فلابد من أن يكون هذا بأقصى سرعة دون تضييع مزيد من الوقت في عقد اتفاق مع الملك أو مطالبات بتسليمه المسيحيين (البرتغاليين) لأنه لابد له (أي أفونسو دلبوكيرك) أنْ يعلم علم اليقين أن ملك ملقى لن يعيد إليه البرتغاليين إلاّ إذا تمّ إجباره على ذلك ، فهو الآن منتفخ الأوْداج عندما يستعرض جنوده الأجانب (المجلوبين) ذوي العدد الكبير حتى أنه لا يُفكر في شيء أقل من الاستيلاء على الأسطول البرتغالي .

وعندما تلقى أفونسو دلبوكيرك هذا الرد من روي أروجو Ruy Araujo اجتمع بكل القادة والقباطنة في الأسطول وسرد عليهم كل ما ورد في الخطاب مُبيِّناً اصرار ملك ملقى على عزمه وطلب منهم أن يُبيِّنوا له ما إذا كان عليه أنْ يشرع في مهاجمة المدينة (ملقى) فوراً أو أن يواصل مزيداً من المفاوضات دون طائل ، فأجاب القباطنة أنهم منذ عدة أيام كان من رأيهم ألاّ يصبر كل هذا الصبر على موقف ملك ملقى لأن ردّه منذ اليوم الأول لوصولهم لم يكن يُنبىء عن رغبة في التوصل لأي تفاهم أو صداقة ، وأن كل هذا التأخير لم يكن له من هدف سوى تمكنه من إقامة تحصيناته وإتمام استعداداته ، تماماً كما كان يذكر روي دي أروجو Ruy de Araujo في مراسلاته .

الفصل العشرون

عن طلب تسليم البرتغاليين الأسرى الذي أمر أفونسو دلبوكيرك بكتابته لملك ملقى، ووقّعه هو وكل القباطنة والقادة، وكيف أرسل إليه ملك ملقى روي دي أريجو ورفاقه .

ورغم الرأي الذي أبداه القادة والقباطنة في الأسطول البرتغالي وهو الرأي الذي ذكرناه في الفصل السابق والذي يقضي بضرورة مهاجمة ملقى على الفور إلاّ أنّ أفونسو دلبوكيرك وجد أنّه من الصّواب ليُبرّر موقفه أمام الله وأمام ملوك هذه الأنحاء (حتى لا ينظرون للبرتغاليين كطغاة) أنْ يأمر أولاً بكتابة طلب رسمي ونهائي يوقّعه هو وكل القباطنة والقادة في الأسطول ولتكن المعركة بعد ذلك ، على أن يتم تسليم هذا الطلب لملك ملقى عن طريق أحد المسلمين المُكلَّفين بنقل الرسائل المتبادلة بين أفونسو دلبوكيرك وملك ملقى .

وكان فحوى هذا الطلب أنّ سيّده ملك البرتغال كان قد أرسل إلى ميناء ملقى قبطاناً على رأس عدة سفن أتت حاملة من البضائع أكثر مما كانت حاملة من الرجال بسبب رغبة الملك البرتغالي في عقد سلام وصداقة معه (مع ملك ملقى) ، ورغم الأمان الذي منحه ملك ملقى والمسئول الأول (البنداري) لهذا القبطان البرتغالي إلاّ أنهم سرقوا كل ممتلكاته وممتلكات من معه ، وتعرّض البرتغاليون للقتل أو الأسر ، وأن ملك ملقى ومن معه بذلوا قُصارى جهدهم للاستيلاء على سفنه لكن الله أنجاه -بمعجزته- من أيديهم . لذا فلابد لملك ملقى أنْ يعلم علم اليقين أنّه إذا لم يُصدر الأوامر فوراً بإطلاق سراح المسيحيين (البرتغاليين)

ويدفع التعويضات عن البضائع التي استولى عليها من السفن فإنه (أي أفونسو دلبوكيرك) سيُدمّره تدميراً أكيداً (يُدمّر ملك ملقى) ويستولي على المدينة ويطرده منها ، وليحكم الله بين الطرفين وليكن الله شاهداً على من هو المُتسبب فيما سيُحيق بالمدينة من دمار ، فهو (ملك ملقى) باتباعه نصائح أهل كجرات Gu-zarates "وهم أعداء ألدّاء للبرتغاليين" لن يتخذ أيـة خطوات لعقد معاهدة سلام معه (مع أفونسو دلبوكيرك كممثل لملك البرتغال) وليس من مبرر لتعويله على *الرياح الموسمية (كما يقول له أهل كجرات) ولا التعويل على خوف البرتغاليين* من فوات وقت الرحلة ، ولا رغبتهم في المغادرة بحثاً عن البضائع ، لأن سفن الأسطول البرتغالي إنما جعلها ملك البرتغال لهدف أساسي هو أن تكون في خدمة حكومة *الهند* ومن ثمّ فلا يضير الأسطول أن يبقى في *هذا* الميناء عاماً أو عشرة أعوام . وليكن ملك ملقى متأكداً أنه إذا لم يطرح فكرة الحرب التي يرغب في شنّها على قباطنة ملك البرتغال ورجاله فإنه سرعان ما يفقد ملكه . وكإشارة عملية لما ذكره خلع أفونسو دلبوكيرك خاتمه من أحد أصابعه وأدخله في إصبع آخر ، وقد فعل ذلك في حضور المسلم *الذي* سيحمل *الرسالة* (إشارة إلى أنه سيخلع الملك كما يخلع خاتمة من إصبعه) .

وسرعان ما أعاد ملك ملقى هذا المبعوث ليقول لأفونسو دلبوكيرك أن قلبه طيب وصاف وأنه لم يتذكر أمر روي دي أروجو Ruy de Araujo ومن معه من المسيحيين ، وأن عدم إرسالهم لأفونسو دلبوكيرك إنما لأنه كان كان قد أمر بإعداد أثواب لهم ، وطلب من أفونسو دلبوكيرك أن يأمر سفنه بالإنسحاب من الناحية اليمنى في مواجهة الميناء حتى لا تنشب نزاعات بين المسيحيين والمسلمين الذين أرسوا سفنهم هناك (ذات *اليمين*) .

وقد أدرك أفونسو دلبوكيرك تماماً أن هذا الطلب ليس إلاّ خدعة من الملك ، ومع ذلك ، فحتى لا يُتيح له فرصة التعلّل بأي علّه مستقبلاً –أمر السفن الصّغار بالإنسحاب خارج الميناء ، وقال للمسلم حامل رسالة الملك أنه في انتظار قدوم روي دي أروجو Ruy de Araujo وزملائه وإذا لم يعيدوا له فوراً فلا مُبرّر لأية

محادثات أو مراسلات بعد ذلك . وانطلق المسلم حامل الرسائل ولم يعُد طوال ستة أيّام ، فلما أدرك أفونسو دلبوكيرك هذه المماطلة أرسل -دون مزيد من الانتظار- عشرة قوارب على مُتونها رجال مسلحون لإشعال النيران في المخازن القريبة من حافة السّاحل ولإحراق سفن أهل كجرات حتى لا يأملون في العودة إلى بلادهم سريعاً محمّلين بالبضائع ، عقاباً لهم لأنهم عملوا على زيادة شقة الخلاف بينه وبين ملك ملقى وليحرقوا كل السفن الراسية في الميناء أيضاً ماعدا السفن القادمة من الموانيء الواقعة إلى الشرق من رأس كوموريم Comorim إن كانت تابعة للهندوس .

وحالما وصلت هذه القوارب البرتغالية إلى المخازن حتى أُشعلت فيها النيران فوراً ، كما أُشعلت النيران في السفن . لقد أدرك ملك ملقى الآن تصميم أفونسو دلبوكيرك على تحقيق هدفه ، فأرسل له فوراً روي دي أروجو والمسيحيين (البرتغاليين) الذين معه ، وكان معهم مسلم من طرفه (من طرف الملك) ليتفاوض مع أفونسو دلبوكيرك بشأن السّلام طالباً منه أن يرسل إليه تفاصيل شكواه وكل ما يطلبه منه . ورغم أن أفونسو دلبوكيرك كان يعرف أنه لا جدوى من كل هذا فقد أرسل إليه طلبات معينة وطلب من هذا المسلم المبعوث أن يُعلن لملك ملقى أن تلك فقط هي شروطه (أي شروط أفونسو دلبوكيرك) لاحلال السّلام ولابقاء ملك ملقى في مُلكه .

ودرس ملك ملقى شروط (بنود) أفونسو دلبوكيرك ، وألغى منها ما كان أفونسو دلبوكيرك نفسه مُتشككاً في قبوله لها كقبوله منح البرتغاليين موقعاً لإقامة حصن لهم في المدينة ودفع مقابل مالي نقدي لكل ما تم الاستيلاء عليه من ديوجو لوبيز دي سيكويرا Diogo Lopez de Sequeira . وقد راح أفونسو دلبوكيرك من جانبه يُخادع الملك كما كان الملكُ خادعه ، فأجاب بأنه رغم كونه يعلّق أهمية أكبر على البنود الأخرى أكثر من تلك المواد (البنود) التي رفضها الملك فإنه يقبل هذا التنازل حتى لا يُقال أنه (أي أفونسو دلبوكيرك) رجل صعب المراس لا يمكن ارضاؤه .

ولم يُرسل الملك بعد ذلك إجابة أخرى لكن بعض الجواسيس المسلمين أتوا متنكرين كتجار وعرضوا للبيع مِسْكاً ودجاجاً وغير ذلك ، وفي أحيان أخرى كان يأتي المسلم المُكلَّف بنقل الرسائل بين ملك ملقى وأفونسو دلبوكيرك ليخوض في أمور لا جدوى منها ودون رغبة في الوصول إلى هدف واضح . لقد تظاهر بأنه أتى ليُخْبر أفونسو دلبوكيرك بقدوم كثير من السفن من نوع الينك Junks تقترب قادمة من أنحاء مختلفة مسلَّحة ومشحونة بالمقاتلين لدعْم ملك ملقى وعندما إنصرف هذا المسلم انطلقت بعض الباراوات (نوع من السفن "Paraos") المسلحة خارجة من النهر وأظهر من فيها الرغبة في خوض حرب ضد أسطولنا ، ومع كل هذا فقد تحمّل أفونسو دلبوكيرك لعدّة أيام حتى يثُوبوا إلى رشدهم ويتبعوا المشورة الجيِّدة . لكن عندما رأى أن استحكاماتهم ترفرف فوقها الأعلام وأنهم يرتبون أمورهم كلها لخوض معركة وأن ملكهم أصبح طاغية يريد أن يؤمِّن وضعه ضد كل المخاطر ، وأنه أنفق قدراً كبيراً من ثروته على قواته وللاحتفاظ بسلطانه بعد أن عميت بصيرته ولم يعد يرى الخطر الذي يُسرع بضياع ملكه -لكل هذا فقد وقر في نفس أفونسو دلبوكيرك أن قضاء الله قد صدر ضد هذا الملك وأن ربنا Our Lord أراد وضع نهاية لـه لخير الجميع ، وأن ربنا Our Lord أراد أن يُبعد المسلمين ويزيح اسم مافاميد* -Maf amade خارج البلاد ، وأن يتم التبشير بالأناجيل في هـذه الأنحاء وأن تتحول مساجدهم إلى كنائس بفضل الملك دوم مانويل ورعاياه ، لذا فقد أمر (أي أفونسو دلبوكيرك) بأن يتم هجوم بالقوارب المسلّحة وبارجتين barges مزوّدتين بالمدافع الثقيلة لاستكشاف قوة العدو ومعرفة أماكن تمركز مدافعهم وكيف سيدبّرن أمر الدفاع .

* الحمد لله الذي صرف عن محمد صلى الله عليه وسلم ، يقولون مافايد وهو محمد المحمود في الأرض والسماء ، ومافاميد أحد الصيغ المحرفة لاسم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

الفصل الواحد والعشرون

كيف أتى التجار الصينيون الموجودون في ملقى إلى أفونسو دلبوكيرك ، وما جرى بين الطرفين وعن الاجتماع الذي عقده مع القباطنة والقادة وذوي الرتب وحاملي ألقاب الفروسية لمهاجمة المدينة .

كان من بين السفن الموجودة في ميناء ملقى والتي لم يُلحق بها أفونسو دلبوكيرك أي أذى في الوقت الذي كان قد أمر بإحراق سفن أهل كجرات - خمس سفن صينية من نوع اليَنْك Junks كان ملك ملقى قد احتجزها منذ عدة أيام ليستفيد منها في حربه ضد ملك دارو Daru وظلت محتجزة حتى وصل أفونسو دلبوكيرك بأسطوله . وكان ملك ملقى واثقاً من أن هذه السفن الصينية لن تجسر على الهرب من الميناء خوفاً من البرتغاليين ولم يكن لديه متسع من الوقت للنظر في أمرها بسبب انشغاله في أمر نفسه ومملكته (بعد وصول الأسطول البرتغالي) .

ولما أدرك قباطنة هذه السفن الصينية أنهم أصبحوا أحراراً في تصرفهم عن ذي قبل فكروا في وسائل للهرب ، فتجمعوا في سفنهم . ورأى طاقم هذه السفن ممن كانوا على البر أن قباطنتهم آمنون ، فبذل كل واحد منهم قصارى جهده للحاق بهم في سفنهم ، فلما اكتمل شملهم -وكانوا مستائين من ملك ملقى لطُغيانه ولُصوصيته كما كانوا راغبين في النجاة بأنفسهم- قَدِموا إلى أفونسو دلبوكيرك بسفنهم ليساعدوه في حربه (ضد ملك ملقى) .

وشكرهم أفونسو دلبوكيرك كثيراً لعرضهم هذا لكنه لم يقبل منهم سوى المراكب الصغيرة (الواحد منها بثلاثة صوار "barques") الملحقة بسفنهم Junks ليستعين بها بالإضافة لقواربه في إنزال قواته للبر ، ولم يقبل منهم مساعدة أخرى حتى لا يتعرضوا لمعاملة سيئة من ملك ملقى إذا لم يشأ ربنا Our Lord أن يتم للبرتغاليين هذا الأمر (الاستيلاء على ملقى) وقد أجاب الصينيون –بعد أن رأوا أن أفونسو دلبوكيرك رفض اشتراكهم في الحرب معه– قائلين إنهم يرجونه أن يتكرم بالإذن لهم بالإبحار إلى بلادهم ، وأنهم سيذكرون دائماً للبرتغاليين هذه المكرمة بسماحهم لهم بالإبحار بعيداً عن الملاوين السيئين ، وقالوا إنه إن سقطت ملقى في يد أفونسو دلبوكيرك فإنهم يَعِدون أنْ يأتوا كل عام أكثر من مرة بمئة سفينة (من نوع الينك "Junks") محملة بكميات هائلة من البضائع ، وقالوا لأفونسو دلبوكيرك أيضاً –بود شديد– أن يكون حذراً ويستشير جيداً قبل مهاجمة المدينة (ملقى) لأنها تَحْفل بأكثر من عشرين ألف مقاتل من الجاويِّين والفرس والخراسانيين Coracones يستجيب الملك لطلباتهم ويُوليهم ثقة كبيرة ، وأنَّ لديه ما لا حصر له من الجنود من أهل البلاد ، وأنَّ لديه عشرين فيلاً من أفيال القتال محمّلة بالأسلحة ومحمية بالدروع ولديه مدافع كثار وأسلحة من كل نوع جلبها له أهل كجرات Guzarates من كمبي (كمبايا) ، والأمر كذلك بالنسبة لكل ما هو ضروري للحرب ، فملك ملقى لا يُعْوِزه من ذلك شيء ، وإذا لم يتم الاستيلاء على المدينة عن طريق فرض المجاعة عليها (بل إن السكان مستعدون لهذا الطارىء المحتمل) بمنع الامدادات التي تأتيها من جاوه Jaoa ، فإنهم –أي الصينيين– يشكّون كثيراً فـي أنْ يُحقق البرتغاليون نصراً ، وقالوا إنهم لـم يذكروا له ذلك إلاّ لأنهم سيأسفون كثيراً إنْ رأوه في وضع حَرِج .

فقال لهم أفونسو دلبوكيرك إنه يشكرهم كثيراً لنصيحتهم لكنه قد استعد بالفعل للهجوم على المدينة حتى لو كان لدى ملك ملقى قوات هائلة ، لأن قوّة الله أكبر لأن عقيدته المسيحية (أي عقيدة أفونسو دلبوكيرك) هي التي يحارب من

أجلها وقال أنه يرجوهم أن ينتظروا عدة أيام أخرى ليروا بأعينهم مصير ملقى وليحملوا أخبار ما حدث إلى ملك الصين وأنه سيرسل لهم قادساً (مركباً كبيراً ذا أشـرعة ومـجـاديف) ليكونوا قـريبين من مكان نزول قـواته إلى البـر ليـروا بأعينهم الروح العالية التي سيهاجم بها البرتغاليون المدينة ، فأطاع الصينيون ما أمرهم أفونسو دلبوكيرك به مع حرصه ألاّ يُشركهم في مشروعه هذا ، فاتجهوا لسفنهم وأرسلوا باركاتهم barques الصغار (البارك سفينة صغيرة ذات أشرعة ثلاثة) .

وحالما انصرف الصينيون ، عقد أفونسو دلبوكيرك اجتماعاً مع القادة والقباطنة وذوي الرُتب وذوي المكانة في الأسطول وسرد عليهم ما جرى بينه وبين الصينيين وكيف أنهم يتشككون في نتيجة الهجوم على ملقى لذا فقد عقد العزم على مهاجمة المدينة قبل أن يُبحروا إلى الصين ليتحقّقوا بأنفسهم ، وأن يقيم الحصن ذا الأبعاد المناسبة بقصد بقائه فهذا لصالح سيدهم ملك البرتغال ، فإذا لم يتم بناء هذا الحصن فسيكون أمراً قليل الفائدة أن يستولي البرتغاليون على ملقى التي هي الميناء الرئيسي في العالم أجمع إذ يأتيها المسلمون من مختلف الأنحاء بحثاً عن البهار ، وبخاصة من القاهرة ومكة (المكرمة) كما يأتيها من كل المناطق الواقعة إلى الشرق من المضيق (مضيق ملقى) بالإضافة إلى أن هؤلاء الملاويين قد ألحقوا أبلغ الضرر بتجارة الهند لدرجة أن السفن البرتغالية التي تأتي لهذه الأنحاء تتعرّض لمخاطر كبيرة ما لم يكن هناك أسطول كبير ذو عدد وعُدّه . وطلب أفونسو دلبوكيرك من كل المجتمعين أن ينظروا في هذه الأمور لأنه إذا لم ينصحوه ببناء حصن في ملقى فلن يخاطر بحياة خادم من خدم الأسطول في مقابل كل رؤوس المسلمين فيها .

وبعد مناقشات طويلة بين القادة والقباطنة قالوا إنهم لا يشكون في أنّ مصالح ملك البرتغال ستزداد رسوخاً بإنشاء هذا الحصن في ملقى لتأمين التجارة في هذه الأنحاء ، لكن هذا لا يمكن أن يتم إلاّ بعد أن يصبح كل شيء تاماً فساعتها يمكن إنشاء هذا الحصن في وقت وجيز ، وأنه ما دامت خطته هي أن

يُهاجم المدينة ويوجه ضربة عقابية لملكها لأفعاله السيِّئة ولكسر غروره ، فليفعل ذلك ، وإذا كانت الأمور بعد الاستيلاء على المدينة تقضي بضرورة إنشاء حصن فليكن له ما شاء فساعتها تصبح المواد الضرورية لإنشاء الحصن متوفرة بحيث لا يضيع الوقت لعودتهم في الوقت المناسب لتقديم العون إلى الهند .

وافق أفونسو دلبوكيرك على هذا الرأي وصرفهم إلى سفنهم ليستعدوا مُسابقين الزمن حتى يُعلمهم باليوم الذي اختاره للانقضاض على المدينة (ملقى) .

الفصل الثاني والعشرون

في صباح ذكرى القديس يعقوب (جيمس) هاجم افونسو دلبوكيرك الكبير مدينة ملقى وما جرى في أثناء ذلك .

كان أفونسو دلبوكيرك يعتقد اعتقاداً راسخاً في الرسول* Apostle القديس جيمس St. James ، لذلك فبعد إجماع الآراء على مهاجمة ملقى ، أخّر أفونسو دلبوكيرك اكمال استعداداته لعدّة أيام ليقوم بهذا العمل (غزو ملقى) في يوم ذكرى هذا القديس لأنه -أي أفونسو دلبوكيرك- كان يثق أنه ببركات هذا القديس** سيُحقق الله له النصر كما سبق أن حقق له النصر على جوا (كَوا) . فلما حان الوقت جمع القادة والقباطنة وأخبرهم باعتزامه مهاجمة المدينة في اليوم التالي يوم ذكرى القديس جيمس وأنه لابد قبل ذلك أن يناقشوا مكان نزولهم للساحل وكيفية ذلك حتى يعلم كل منهم الواجب المنوط به .

وبدأ القباطنة في الإدلاء بآرائهم فاختلفت الآراء حتى قال بعضهم إن الهجوم يجب أن يتم من جانب بعيْنه بينما قال آخرون بل من الجانب الآخر ، فرغب أفونسو دلبوكيرك -قبل الوصول لرأي نهائي- أن يُدلي روي دي أروجو Ruy de Araujo برأيــه نظراً لخبرتــه الكبيرة بالبلاد(١) .

قال روي دي أروجو أنه يرى أن يبدأوا أولاً بالهجوم على الجسر قبل مهاجمة

* مُلحق الأناجيل الأربعة المعروفة بسلسلة كتابات (رسائل) كتبها الدّعاة للمسيحية وجرى الإصطلاح أن يُطلق عليها المسيحيون العرب اسم (أعمال الرسل) والرسل هنا ومفردها رسول لا تعني أكثر من دعاه وداعية أو مبشرين ومبشر ، وقد فضلنا استخدام اللفظ الدارج .

** يشبه هذا لجوء البعض بالتبرك بالأولياء الصالحين في العالم الإسلامي

(١) قارن ذلك بما كتب عن روي دي أروجو في نهاية الفصل ٢٤ .

أي شيء آخر لأنهم إذا استولوا عليه وتمركزوا فيه بقوّة لأصبح رجالنا (البرتغاليون) بين المدينة ملقى ، وسكان أوب Upe ولانقسمت قوّات ملك ملقى إلى قسمين فما استطاعت قواتُ قسم أن تقدم العون لقواتِ القسم الآخر باستخدام الجسر الذي يمكن لمئة رجل فقط بحواجز (متاريس) قليلة أنْ يحتفظوا به والدفاع عنه ضد أي هجوم ضارٍ يقوم به المسلمون ، لكن إذا قام البرتغاليون بالهجوم على المدينة من أي جانب آخر -كما قال بعض السادة الموجودين في هذا الاجتماع- فإن أهل ملقى وبينهم عدد كبير من المقاتلين- سيُقاومون بشدّة ، وبذا سيكون نصر البرتغاليين أمراً مشكوكاً فيه جداً ، وسيتعرض الجميع للخطر .

وبمجرد أن سمع أفونسو دلبوكيرك رأي روي دي أروجو Ruy de Araujo وافق على الفور دون أن يسمح بمزيد من النصائح ، وأصدر أوامره فوراً بتقسيم قواته إلى كتيبتين لمهاجمة الجسر . فاتجه كل من د. جوآو دي ليما D. Joa'o de Lima وجاسبار دي بيفا Gaspar de Paiva وفرناو بيريز دندريد Ferna'o Perez Dandrade وسيباستياو دي ميراندا Sebastia'o de Miranda وفرناو جوميز دي ليموز Ferna'o Gomez de Lemos ، وفاسكو فرناندز كوتنهو Vasco Fernandez Coutinho وجيمس تيكسيرا James Teixeira وغيرهم من قباطنة الأسطول وذوي الرُتب والجنود في الأسطول لينزلوا إلى البر في الجانب الذي به المسجد ، بينما أفونسو دلبوكيرك نفسه ومعه كل من دوارت دا سيلفا Duarte da Silva وجورج ننز دي لياو Jorge Nunes de Lia'o وسيماو دندريد Sima'o Dandrade وإيرز بيريرا Aires Pereira وجوآو دي سوزا Joa'o de Sousa وأنطونيو دابرو Antonio Dabreu وبيرو دلبوم Pero Dalpoem ودينيس فرنانـدز دي ميلو Dinis Fernandez de Melo ، وسيماو مارتينز Sima'o Martinz وسيماو أفونسو Sima'o Afonso وننو فاز دي كاستيلو – برانكو Nuno Vaz de Castelo - branco مع كل ما تبقى من القوات المسلحة لينزلوا جميعاً إلى الساحل من ناحية المدينة ، وبعد إحداث مدخل خلال

الاستحكامات يندفعون فرادي وجماعات نحو منتصف الجسر حتى يستطيعوا تقدير قوة العدو ومعرفة الاتجاه الذي سيتجهون إليه ، لأنهم (أي البرتغاليين) لا يعرفون نتائج ذلك قبل التحقق منه على أرض الواقع ، ولم يستطع أفونسو دلبوكيرك أن يأمر بأكثر من ذلك ، كما أمر أنه حيث يكون عَلَمَه مرفوعاً عليهم أن يحتشدوا .

وبعد أن أصدر أفونسو دلبوكيرك هذه الأوامر صرف القباطنة والقادة ليستعدوا ، وفي اليوم التالي ، عندما يسمعون أصوات الأبواق يتجهون إلى سفينة القيادة لينطلقوا من عندها إلى أهدافهم .

وقبل طلوع الصبح بساعتين أمر أفونسو دلبوكيرك بالنفخ في الأبواق فهبّوا من نومهم واتجهوا بسرعة إلى سفينة القيادة وبعد أن مارس الجميع طقس الاعتراف* Confession انطلقوا إلى مصب النهر بمجرد طلوع الصبح وهاجموا الجسر ، كل كتيبة في الموضع المُحدّد سلفاً والمُتفق عليه .

وبدأ المسلمون يطلقون النار على القوات البرتغالية من مدافعهم المُتمركزة في الاستحكامات ، ومن بنادقهم كبيرة الحجم ذوات الفتائل[1] ، فجرحوا بعضاً من رجالنا (البرتغاليين) ، وما أن انتهت الزخّات الأولى من طلقات مدافعهم حتى أمرَ أفونسو دلبوكيرك بالنفخ في الأبواق ، ورفع الأصوات بصيحة الحرب (المتفق عليها) وهي : "سانت ياجو Sanctiago" أي "مدد يا قديس جيمس" وانقضوا انقضاض رجل واحد على استحكامات الجسر ، كل كتيبة من الناحية المُخصصة لها ، فاندفع عدد لا حصر له من المسلمين في هذا الجانب وذلك ، بعضهم كان يحمل سِهاماً وآخرون رِماحاً وتروساً تُشبه تروس بسكاي Bi-scay ، وراحوا ينفخون في أبواقهم[2] وحاربوا ببسالة لمدة طويلة مُدافعين عن

* طقس مسيحي يلغي ما ارتكبه المعترف من ذنوب ، ولابد أن يكون الاعتراف أمام رجل دين مفوّض بتلقي الاعتراف ، وقد جرى استخدام هذا الطقس في وقت من الأوقات للضغط على المُعترفين ، كما أن رجل الدين في بعض الأحيان كان يستغل هذا الطقس لصالحه الشخصي وبخاصة إذا كانت المُعترفة امرأه فلا يمنحها الغفران إلاّ بشروط تخصّه .

(١) الكلمة البرتغالية Espingardo'es ربما كانت نوعاً من البنادق ذوات الفتائل ، وهي كلمة تُستخدم بكثرة في هذا الكتاب .

(٢) "Anajis" .

الإستحكامات لكن رجالنا (البرتغاليين) الذين نزلوا للبر ناحية المسجد -بفضل قوة أسلحتهم- استطاعوا شق طريقهم بين صفوف العدو[1] وفي هذه اللحظة نفسها أقبل ملك ملقى وابنه وقد ركب كل منهما فيلاً وحول كل منهما مجموعة من الرجال المسلحين ، وأفيال تحميها دروع خشبية وتحمل كثيراً من آلات الحرب وأجبروا المسلمين على العودة للاستحكامات التي كانوا قد تركوها .

لكن د. جواو دي ليما ، وفرناو بيريز دندريد وكل الآخرين في هذه الكتيبة ازدادت رغبتهم في القتال عند رؤيتهم ملك ملقى ولم يَعْتَرِهم خوف من أفياله ، وهاجموا المسلمين بضراوة وسرعان ما استولوا على المسجد . وهاجم أفونسو دلبوكيرك -الذي كان باقياً في الجانب الأقرب للمدينة مع كل القادة والقباطنة والرجال الآخرين- الجسرَ من ناحيته ، ورغم أن كتيبته لاقت مقاومة هائلة لوجود قسم كبير من القوات التي كانت مصاحبة للملك التي اتجهت لهذا الموضع والتي كانت مسلحة تسليحاً جيداً بالسهام وكان منهم من يحمل أبواقاً[2]* blowing tubes وسهاماً مسمّمه فجرحوا من رجالنا عدداً كبيراً -إلاّ أن كتيبة أفونسو دلبوكيرك كانت حريصة على منافسة قادة الكتيبة الأخرى التي سيطرت في ذلك الوقت على المسجد ورأس الجسر ، فاندفع رجال كتيبة أفونسو دلبوكيرك يُحاربون المسلمين ببسالة فائقة حتى اجتازوا الاستحكامات بقوّة السلاح وقتلوا منهم عدداً كبيراً وأجبروا الباقين على الفرار . وقد مات بعض البرتغاليين بالسهام المسمومة ، وجرح منهم عدد كبير .

---

(١) "... e defende'ram as estancıas; mas os nossos, que eram daquella banda da mesquita, por for-ca darmas os entra'ram,"

وربما كان هناك خطأ طباعي في الجزء الأخير من هذا الاقتباس لأن (os) قبل entraram تُشير إلى estancias ، ولابد من صحتها (as) وليس (os) لتتفق مع هذه الكلمة .

(٢) العبارة البرتغالية Zarvatans Com setas erradas ، والكلمة المقصودة تُكتب هكذا أيضاً Sarabatana ويعرفها فييرا Vıera بأنها نوع من الأبواق الناطقة .

* المترجم . المقصود قمع لتكبير الصوت أو ميكرفون غير كهربائي .

الفصل الثالث والعشرون

كيـــف أنّ تـــــوآو بنــــداو (Tua'o banda'o) قـــائد قـوات ملك ملـقـــى –وقـد رأى تشـتت شـمل قوات المسلمين– هب لنجدتهم بكتيبة من الجند ، وما جرى بعد ذلك ، وكيف شـرع ملك ملقى في الهـروب وكـيف تعقّبه رجالنا .

لقد أدرك توآو بنداو Tua'o Banda'o قائد القوات المصاحبة لملك ملقى حرجَ قواته (قوات المسلمين) عند الاستحكامات فوق الجسر ، فقد راحت هذه القوات ترفع أعلامها طالبة النجدة ، لذلك أبحر هذا القائد على رأس سبعمائة جاوي وقائديْن آخريْن معه لدعْم الجسر من ناحية المدينة قاصداً الانقضاض على مؤخَرة قواتنا (البرتغالية) ، وعندما رآهم أفونسو دلبوكيرك قادمين على طول أحد الشوارع الرئيسية في المدينة استدعى من المجموعة (الكتيبة) التابعة له كُلّاً من جوآو دي سوزا Joa'o de Sousa وأنطونيو دبرو Antonio Dabreu وإيرز بيريرا Aires Pereira على رأس جنودهم وأمرهم بالإنقضاض على هذه القوة في أثناء تقدّمها وأنْ يكون ذلك بسرعة حتى لا يصلوا إلى الاستحكامات فانقضّت عليهم قواتنا ببسالة وهاجمتهم بالرماح وأجبرتهم على الفرار .

وعندما رأى د. جوآو دي ليما والقباطنة الآخرون الذين كانوا ناحية المسجد هؤلاء المسلمين الفارين ، سارعوا لمهاجتهم من الأمام فقتلوا منهم هنا وهناك أعدداً ، فلما أدرك من نجا من القتل منهم أنه قد أُحيط بهم من الأمام ومن

الخلف قذفوا بأنفسهم في الماء فتلقاهم رجالنا (البرتغاليون) الذين كانوا في القوارب وقتلوهم على الفور فلم يتركوا منهم أحداً ، وفي هذه المواجهة مات توآو بنداو Tua'o Banda'o قائد ملقى الذي أرسله الملك وكذلك قُتل القائدان الآخران المرافقان له . وبعد أنْ أنجز رجالنا هذه المهمّة عادوا للاستحكامات .

ولما رأى د. جواو دي ليما D. Joa'o de Lima ورجاله -بعد أن تمركزوا في التحصينات- أن ملك ملقى يتراجع لطريق جانبي صاعداً في التل ، انطلق يتتبّعه ، وكان في أثناء تتبعه يواجه المسلمين ويقاتلهم في كل خطوة يخطوها . فلما رأى ملك ملقى وابنه -وكانا يركبان فيلين- أن رجالنا (البرتغاليين) يجدّون في إثره ، استدار عائداً وحوله ألفا مقاتل ، فانتظر القائد البرتغالي مقدمهم عند رأس الطريق وانقض برجاله برماحهم بشجاعة منقطعة النظير على الفيلة التي في الطليعة ، ويُقال إن فرناو جوميز دي ليموز Ferna'o Gomez de Lemos هو أول مـن أقدم على هذا العمل . ولأن الأفيال لا تتحمل إذا ما جُرِحت فقد استدارت وراحت تهاجم المسلمين خلفها فأحدثت بينهم فوضى واضطراباً . أما الفيل الذي كان يركبه الملك فقد أُصيب بجرح مميت فأمسك بخرطومه بالرجل الأسود الذي كان يقوده وضربه في الأرض فمزّقه إرباً ، وراح -أي الفيل- يصرخ بصوت عال ، أما الملك نفسه فقد أُصيب بجرح واستطاع الهرب لأن أحداً من رجالنا لم يتعرّف عليه ، وتراجع -ومعه ابنه وخطيب ابنته ملك باو[1] Pa'o الذي كان قد أتى إلى ملقى منذ أيام قلائل ليتزوج إحدى بنات الملك- إلى المدينة .

واستطاع أفونسو دلبوكيرك وبقية الرجال -بعد أن أحدثوا مدخلاً بالقوة عَبْر الاستحكامات- أن يتتبعوا المسلمين في الشوارع المؤدية للجسر وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، لكن لأن أهل المدينة الذين كانوا يقاتلون رجالنا في الشوارع كثيرو العدد ، خشي أفونسو دلبوكيرك أن يشرد رجاله في غير نظام فجعلهم يتجهون نحو الجسر وأمرهم بإقامة أسيجة (جمع سياج) في الجانب المواجه للمدينة ، وجعل كلاً من جورج ننز دي لياو Jorge Nunez de Lia'o وننو فاز

(١) 'Pam' .

دي كاستيلو – برانكو Nuno Vaz de Castelo - branco مسئولين عنها وأصدر لهما الأوامر أن يسيطروا على أحد الشوارع الرئيسية المؤدية للجسر بمدافعهم .

وعندما رأى المسلمون هذا ، تجمعوا في الشارع الآخر فأحس أفونسو دلبوكيرك أنه استطاع أخيراً التخلّص منهم فأصدر أوامره بإقامة أسيجة أخري في الجانب الواقع ناحية المسجد ولتمتد هذه الأسيجة من النهر إلى جدران المسجد ، وبهذه الطريقة يبقى الجسر في الوسط بين هذه الأسيجة ، والأسيجة الأخرى المذكورة آنفاً . وبينما العمل في إقامة هذه الأسيجة يجري على قدم وساق أرسل أفونسو دلبوكيرك جاسبار دي بيفا Gaspar de Paiva على رأس مئة رجل لإشعال النار في المدينة في الجانب الذي تهب من عنده نسائم البحر ، كما أرسل سيماو مارتينز Sima'o Martinz على رأس مجموعة أخرى لإشعال النار في مخازن الملك الواقعة ناحية المسجد . فلما علت ألسنة اللهب في الجانبين راحت تزمجر بضراوة فدمرت جانباً كبيراً من المدينة . وحالما رأى المسلمون ألسنة اللهب تراجعوا مبتعدين عن رجالنا .

وكان من بين ما احترق منزل خشبي واسع جداً ، وحسنٌ بناؤه قام عليه نجّارون مَهَرة ، جدرانه يبلغ سمك الواحد منها ثلاثين بلم Palms "البلم بطول راحة اليد" ، وكلها مطعمة بالذهب ، وقد تم بناؤه فوق ثلاثين عجله wheels العجلة منها بحجم البرميل الكبير ، ولكل منها عُسْلوج (قمة مستدقّة) تعد بمثابة النقطة الأخيرة في تصميم البناء وهو مسكن مرتفع جداً ومغطى بأعلام حريرية ومؤثث كله بمفروشات حريرية غالية جداً ، ذلك أنّه كان مُعَداً لاستقبال ملك باو(١) "Pa'o" وعروسه ابنة ملك ملقى اللذيْن كان من المقرر أن يسير موكب عُرْسهما المصحوب بالنفخ في الأبواق والمهرجانات في شوارع المدينة ، وكان في مخازن الملك والمخازن الأخرى حوله والتي أحرقها البرتغاليون كميات كبيرة من البضائع وأشياء أخرى غالية الثمن كان يحتفظ بها الملك في قصره . وبعد أنْ

(١) كُتِبت Pam في الفصول السابقة .

أتمّ رجالنا (البرتغاليون) هذه المهمة عادوا مرة أخرى إلى الحصن حيث يتمركز بقية الرجال ، وكان الوقت تقريباً بعد ساعتين من منتصف النهار (عصراً) ولم يكن رجالنا حتى ذلك الوقت قد أكلوا شيئاً .

وذهب القباطنة والقادة الذين كان أفونسو دلبوكيرك قد عَهِد إليهم بإقامة الاستحكامات ، وقالوا له إن الرجال قد أصابهم التعب ويعانون بشدّة من حرارة الجو ، وقد أنهكهم العمل تماماً واقترحوا عليه أن ينسحبوا لأخذ قسط من الراحة ، فلم يجبهم أفونسو دلبوكيرك لطلبهم لأنه كان يأمل في إكمال المتاريس ومن ثمَّ يقضي الليل في المكان نفسه ، لكنهم عادوا مرة أخرى يلحّون في الطلب فخضع لحكم الضرورة لأن الشمس كانت تغرب وبدأ في سحب رجاله إلى القوارب فلما أدرك المسلمون أن البرتغاليين ينسحبون بدأوا يطلقون النار من بنادقهم الضِّخام ذوات الفتائل ، وبدأوا يقذفون سهامهم وينفخون في أبواقهم فجرحوا بعض رجالنا وبسبب العَجَلة التي سببها أولئك الذين طلبوا من أفونسو دلبوكيرك الانسحاب للرّاحة ، أمرهم بأن يحملوا معهم خمسين مدفعاً كبيراً كان قد استولى عليها من الاستحكامات المقامة فوق الجسر ، فلما عاد البرتغاليون لسفنهم أمر بالعناية بالجرحى وكانوا قرابة السبعين ، لكن الذين أصابتهم السِهام المسمومة لم ينجَ من الموت منهم أحد سوى فرناو جوميز دي ليموز Ferna'o Gomez de Lemos الذي جرى كيّه بالحديد المحمّى بعد إصابته مباشرة ، فأنقذ الله حياته أخيراً .

الفصل الرابع والعشرون

كيف أن ملك ملقى بعد أن رأى البرتغاليين ينسحبون إلى سفنهم ، شرع في إعادة بناء الاستحكامات وحصّن موقعه على الجسر ، وعن الرسالة التي أرسلها أوتيموتاراجا Utemutaraja إلى أفونسو دلبوكيرك .

بمجرد أنْ انسحب البرتغاليون إلى سفنهم ، أمر ملك ملقى بإعادة تشييد الاستحكامات وجعلها أقوى مما كانت أوّل مرّة ووضع عندها ضِعْف المدافع التي كانت فيها من ذي قبل إذ كان في ملقى قدر كبير من المدافع كما سنذكر بعد ذلك ، وأمر بتقسيم الجسر بسياجات قوية وأقام سياجات أخرى في أحد الشوارع الرئيسية في المدينة والتي تؤدي إلى الجسر ووضع عندها كثيراً من المدافع ، وفعل الشيء نفسه في الجهة التي يقعُ فيها المسجد وعلى السّاحل في مواجهة موضع رسّو السفن وأمر رجاله بنثر كثيرٍ من الفروع والأغصان الشائكة والمسمّمة لتصيب رجالنا عند نزولهم إلى البر Chevaux-de-Frise ولأن الجاويّين كانوا يشكلون العدد الأكبر من بين جنوده ، وكانوا مستائين لعدم تسلمهم رواتبهم ، فقد أمر إرضاءً لهم بدفع كل مستحقاتهم بل ودفع مرتبات ثلاثة أشهر مقدماً ، فقد كان ملك ملقى يخشى كثيراً أن يُعاود أفونسو

(١) ... Mandou Lancar muitos abrolhos, cheios de herva الكلمة herva استخدمت في الجملة الأخيرة في الفصل السابق بمعنى العصير السام للأعشاب ، لكن في هذا النص (في هذا الفصل) رغم أنني فضلت الترجمة المذكورة أعلاه فإن هناك احتمال أن تعني الكلمة أشواك الأشجار أو النباتات

دلبوكيرك الهجوم على المدينة ، وبينما كان الملك مشغولاً على هذا النحو في تحصين دفاعاته أرسل أوتيموتاراجا Utemutaraja هدية إلى أفونسو دلبوكيرك من خشب الصندل ، وطلب منه بشكل سري الأمان له ولكل المستوطنة (أو القرية) التي يعيش فيها معلناً أنه يرغب أن يكون في سلام وصداقه معه (أي مع أفونسو دلبوكيرك) وأن يخدم ملك البرتغال ما وَسِعَه ذلك . وكان أوتيموتاراجا[1] Utemutaraja هذا يعيش في مستوطنة أوب Upe ويمتلك زهاء خمسة آلاف أو ستة آلاف عبد جاوي أو هم عبيده وعبيد أبنائه وأزواج بناته ، وهو رجل ثري جداً ويتاجر مع مختلف أرجاء العالم .

وقد قبِل أفونسو دلبوكيرك عَرْضه وأرسل له الأمان كما أرسل له في بعض الأحيان هدايا باذلاً جهدة كي يجلعه في صفّنا (البرتغاليين) والآن ، رغم هذا الإتفاق الذي عقده مع هذا الرجل والذي كان يقضي بالاّ يقدم عوناً لملك ملقى ولا يُبدي تعاطفاً معه ، فإنه بعد ثلاثة أيام أرسل له أفونسو دلبوكيرك يُخبره أنه علم بمساعدته لملك ملقى برجاله لإقامة استحكامات فوق الجسر ، وهذا مما يخالف الاتفاق المعقود بينهما ، كما أنه لا يتمشّى مع روح الصداقة أن يعاون المرء أعداء صديقه ، فأجاب أوتيموتاراجا أنه حقاً قدم مساعدات معيّنة لملك ملقى ممثلة في رجال يعاونون في إنشاء الاستحكامات ، لكن هذا لا يعني شيئاً فهو لم يفعل ذلك إلاّ ليتخلّص من الحاحه ثم كيف يعيش في أرض غريبة معه (أي مع ملك ملقى) إن هو لم يؤدِّ له هذه الخدمة .

ومع كل هذه الأمور التي تدعو للغضب فإن أفونسو دلبوكيرك لم يسحب وعده له بالأمان وأمر القادة والقباطنة ألاّ يُصادروا شيئاً من سكان المنطقة التي يتحكم فيها أوتيموتاراجا . وما فعل أفونسو دلبوكيرك ذلك إلاّ ليُقلّل عدد أعدائه في المدينة ، وليس لأن أوتيموتاراجا يستحق معاملة أفضل من غيره . وقام أفونسو دلبوكيرك أيضاً بأعمال مؤدّاها أنه جعل التجار المسلمين الأجانب يفهمون أنّه لم يأمر بنهب المدينة بسبب مراعاته لشؤونهم ومع هذا فإنه أي

(١) الجزء الأخير هو راجا rajah وهو لقب مميِّز تشريفي .

أفونسو دلبوكيرك ربما لا يستطيع أن يكبح رجاله عن سلب المدينة عند الهجوم الثاني عليها إذا لم يرضخ الملك لمطالبه . لذا فقد عمد هؤلاء التجار منذ ذلك الوقت فصاعداً إلى حث الملك على الجنوح للسلم لكن نظراً لعناء الملك فإنه لم يتفق مع آرائهم وإنما أخبرهم أنه منذ أيام قلائل كان رأيهم عكس ذلك تماماً .

ولما انقضت أيام قلائل ولم يرسل ملك ملقى رداً رغم أنه كان قد خَبِر بالفعل قوّة البرتغاليين ومقدرتهم خشى أفونسو دلبوكيرك أن يكون مضطراً لخوض حرب أخرى يخاطر فيها برجاله كما حدث في المرّة الأولى لترويض غرور الملك ، وليس لديه في البر أيّة وسائل بناء حصن (وكان بناء هذا الحصن هو هدفه الرئيسي) ولم يكن لدى روي دي أروجو Ruy de Araujo مشورة يقدمها في خِضَم هذه الأحداث لأنه عندما كان أسيراً كان قابعاً خلف أبواب مغلقة . ومن ناحية أخرى فإن أفونسو دلبوكيرك يرى أنَّ ترك ملقى في أيدي المسلمين يعني تدمير تجارة الهند تماماً وتدمير أسطولنا (البرتغالي) . لقد كان فِكْرُهُ مشوّشاً حائراً لا يدري ما سيتمخّض عنه مشروع ملقى هذا ، لذا فقد وضع الأمور كلها بين يدي ربنا Our Lord فقد كان دائماً يعتقد أن الاعتماد عليه هو ملاذه الأخير ، ووثق في ربنا Our Lord وبدأ في اصدار الأوامر واستعد بما هو ضروري لشن هجوم ثان على المدينة .

الفصل الخامس والعشرون

كيف جهّز افونسو دلبوكيرك الكبير قواته لتجديد الهجوم على التحصينات التي اقامها ملك ملقى على الجسر، وكيف طلب منه الصينيون الإذن للعودة إلى بلادهم، وعن السفير الذي أرسله معهم إلى ملك سياو (سيام).

عندما أدرك أفونسو دلبوكيرك أن ملك ملقى -بسبب كونه لا يُقيم وزناً كبيراً للبرتغاليين- لم يستوعب الدرس الذي لقّنوه إيّاه في اليوم الأول لهجومهم على المدينة، وراح مرّة أخرى يُقيم التحصينات فوق الجسر ويزودها بالرجال والمدافع للدفاع -عقد العزم في نفسه الجبارة التي لا تُقهر على مهاجمة المدينة مرّة أخرى وكسر حدّة غرور أعدائه مجهّزاً سفينة كبيرة من نوع الينك Junk وزوّدها بكثير من الرجال والمدافع -لأن هذا النوع من السفن يتسم بالشموخ !؟- وأمر بأن توضع في موقع يُشرف على الجسر حتى يستفيد رجالنا منه كمأوى يلجأون إليه وأن يكونوا -بفضله- في وضع أكثر أماناً عند مهاجمة الأسيجة التي أقامها المسلمون. وعيّن أنطونيو دبرو Antonio Dabreu قائداً لهذا الينك Junk وأمره أن يُهيّىء فيه أماكن لإقامة الجنود، وأن يزوّده بالمؤن وغيره مما يلزم لتحقيق هذا الغرض، حتّى إذا ما هبت عاصفة شديدة مصحوبة بالمطر لجأوا إليه (إلى هذا الينك) كما أمره ألاّ تنفَذ المؤن من عنده (وكانوا في مسيس الحاجة للمؤن)، ولحراسة هذا الينك Junk عيّن سفينة من

نوع الكارافيلا Caravela على رأسها سيماو أفونسو Sima'o Afonso وقادساً كبيراً على رأسه دوارت دا سيلفا Duarte da Silva ، فلما تم تجهيز كل ذلك طلب من أنطونيو دابرو Antonio Dabreu أن يُبحر على طول النهر وأن يمر فوق منطقة في النهر تعتريها الرّمال تقع قبل الجسر ، بينما هو نفسه (أفونسو دلبوكيرك) ببقية الرجال سيتبعونه ليكونوا قريبين منه .

لكن لأن هذا الينك Junk كان ذا عمق كبير غاطسٍ في المياه ، فلم يستطع أن يمر في هذه المنطقة (ذات الرمال) بسبب أن المياه كانت في حالة جَزْر محاقي ، فأراد أفونسو دلبوكيرك –رغبة منه في عدم تضييع مزيد من الوقت– أن يُرسل ينك آخر غاطسه أقل عُمقاً ، فلم يستطع اجتياز هذه المنطقة المائية أيضاً ، ولذا كان عليه أن ينتظر حتى يحدث المد الأعلى Spring tide[١] .

وعندما رأى ملك ملقى أن هذا الينك البرتغالي لا يستطيع اجتياز المنطقة المائية ذات الرمل وأنه ظل في مكانه ولم يعد ثانية إلى حيث كان ، أرسل أربع سفن صغار محمّلة بحطب الوقود والزفت والزيت ، لإشعال النار فيها حالما يبدأ المد وتركها تنساب نحو الينك البرتغالي بفعل التيار ، وفعلوا ذلك طوال تسع ليال متواليات .

والآن فإن أفونسو دلبوكيرك قد لاحظ هذا الأمر الذي يرتب له المسلمون لإحراق الينك ، فأمر القباطنة عندما ينسحبون كل ليلة أن يرتبوا الأمر بحيث ينامون في قواربهم بالقرب منه وأن يستعينوا بالرماح الطوال (المُعدّة لصيد الحيتان) والأعمدة الطوال المعلّقة في سلاسل حديدية لإبعاد السفن المحترقة وتغيير مسارها حتى لا تطول نيرانها الينك البرتغالي فنفذوا هذا الأمر بشكل جيد وأصبحت خطط المسلمين غير ذات جدوى .

وبينما هذا التأخير مستمراً في انتظار المدّ الأعلى أمر أفونسو دلبوكيرك الحدادين الذين جلبهم معه من جوا (كَوا) أن يشعلوا نيرانهم ليصلحوا بعض

(١) المد الأعلى يرتفع أحد عشر قدماً ، أما الجزر المحاقي فيكون (٨,٥) قدم ، قرب سواحل ملقى ، انظر :
China Sea Dictionary, Vol, 1, P.79.1878

الأسلحة التي لم تعد صالحة للاستعمال وأقاموا مخزناً للأقواس والأنشبة كانوا في مسيس الحاجة إليه . وأمر الوكيل التجاري للأسطول أن يجهز البراميل[1] والفئوس القصار والمجاريف hoes وآلات الثُّقْب وكل ما هو مطلوب لإقامة الاستحكامات فوق الجسر بمجرد الاستيلاء عليه ولإقامة جدران خارجية تحمي رجالنا من مدفعية العدو فلما اكتمل كلُّ شيء وتمَّ ، أمر بتحميل هذه الأشياء على متن سفن من نوع البارك والينك barques & Junks كان قد استولى عليها .

ولأن أفونسو دلبوكيرك كان قد علِم أن ملك ملقى مصمم حالما ينزل رجالنا للبر أنْ يرسل عدداً من القوارب واللنشات ليلاً لحرق الأسطول (البرتغالي) فقد أمر بيرو جونسالفيز Pero Goncalvez رئيس المرشدين أن يكون على رأس كل البحارة ليناموا على متون السفن كل ليلة وأمرهم باحكام المراقبة وطلب المساعدة إن دعت الحاجة .

وبينما كان أفونسو دلبوكيرك مشغولاً في ترتيب كل هذه الأمور ، ذهب إليه القباطنة الصينيون ورجوه أن يأذن لهم في الرحيل لأن وقت الرياح الموسمية الملائمة لإبحارهم قد حلّ وطلبوا منه أيضاً أن يتكرّم بالسماح لهم بأخذ قليل من الفلفل كان في سفنهم يخص تاجراً مسلماً من أهل ملقى ، وقد عاملهم أفونسو معاملة طيبة وأعطاهم الإذن بالرحيل وأمر بتزويدهم بما يلزمهم في رحلتهم وقدم لهم هدايا بسيطة ورغب إليهم أن يتجهوا في طرق عودتهم إلى سياو (سيام) لأنه يريد أن يرسل معهم مبعوثاً يحمل رسائل لملكها .

وكان الصينيون سعداء بهذه النتيجة ووعدوه أنهم سيرسلوا هذا المبعوث إلى ملك سيام (سياو) ويعودون حالاً بالجواب وراحوا يمتدحون شجاعة البرتغاليين وعدم إكتراثهم بمدافع العدو .

وسرعان ما جهّز أفونسو دلبوكيرك ، دوارت فرناندز الذي كان في الأسْر مع روي أروجو والذي يعرف اللغة جيداً وحمّله رسالة إلى ملك سياو (سيام) يخبره

---

(١) Pipas' .

فيها بمجريات الأمور في ملقى وكيف اعتزم تدميرها ونيّته إقامة حصن برتغالي فيها وطرد المسلمين منها ، وكيف أنه سيكون سعيداً إذا أتى شعب سياو (سيام) ليعيش في ملقى ، وأن سيده ملك البرتغال دوم مانويل علم أنه هندوسي وليس بمسلم فتعاطف معه ورغب في عقد سلام وصداقة معه ، وأمره (أي أمر أفونسو دلبوكيرك) أن يُعطي أماناً لكل سفن بلاده وتجارها إذا رغبوا في الاتجار في الموانىء التابعة لــه (للملك البرتغالي) ، وأرسل أفونسو لملك سياو واحداً من سيوفنا محلّى بالذهب والأحجار الكريمة ، وغادر الصينيون لبلادهم سعداء .

الفصل السادس والعشرون

الخطبة التي ألقاها أفونسو دلبوكيرك في قباطنة الأسطول وقادته ورجاله بخصوص الهجوم الثاني على ملقى وما حدث بعدها .

بعدما أعدّ أفونسو دلبوكيرك كل ما هو ضروري لمهاجمة ملقى للمرّة الثانية نما إلى علمه أنّ هناك بعض القباطنة اعتادوا القولَ بأنّه ليس من مصلحة ملك البرتغال الاحتفاظ بملقى ولا بناء حصن بها ، فجمعهم في سفينته مع كل القادة وأصحاب الرُّتب وحاملي ألقاب الفروسيّة في الأسطول وخطب فيهم قائلاً[1] :

---

(١) رواية كوريا Correa لهذه الخطبة كما أوردها في كتاب Lendas da India (جـ٢ ، ض ض ٢٣٢-٢٣٤) تستحق أن نوردها هنا لنُبيّن كيف أن رواية حدث واحد تختلف إحداهما عن الأخرى رغم أنهما قد إستُقيتا من مصادر موثوقة :
authentic sources, differ from each other : " Senhores capita'es, e nobres fidalgos, bem sabem vossas merce's que todo o estado d'El Rey nosso senhor depende e esta' posto nas vossas ma'os em que esta' muy seguro de nom receber quebra, nem falta, em quanto as vidas tiverdes nos corpos; do que dara'o bom testimunho os que viverem, e eu, que o tenho bem visto com meus olhos, nunqua poderei dizer os grandes vosso merecimentos ganhados com vosso sangue e tantos trabalhos, a que El Rey nosso senhor vos he em muyta obrigac i, e satisfaca'o que Sua Alteza nom faltara'. Bem sabem vossas merce's que no's hiamos pera
hir, com intento de sequar aquella navegaca'o, e passagem da pimenta e drogas que os mouros la' passava'o, que The fazem grande avesso a seus tratos; ao que nos hiamos com toda' vontade, e polo querer de Nosso Senhor tivemos contrastes de ventos que nom consentira'o que la' fossemos, e arribamos com tanto trabalho, e porque se nom perdesse o gasto que era feito n'armada, per conselho de vossas merce's bem atentado, foy assentado, pois tinhamos tempo, que viessemos esta viagem a Malaca, pera livrarmos os cativos, e tomar vinganca d'esta cidade, dos mortos, e roubos que era'o feitos; onde Nosso Senhor aquy nos aportou, e sobre bons conselhos avidos cometemos esta guerra, que esta' no esta do que vedes, com que bem certos estaes que a cidade sera' nossa polo querer de Nosso Senhor. Mas parece que avera' algumas pessoas que

"أيها السّادة ، لن تجدو صعوبة في تذكّر أنه عندما قرّرنا مهاجمة ملقى كان ذلك بقصد بناء حصن فيها لأن الجميع كان يرى ضرورة ذلك ، وبعد أن استولينا عليها لم أكن راغباً في إفلاتها من يدي لأنكم جميعاً نصحتموني بالتمسك بها ، لكنني تركتها وانحسبت ، وإني مستعد الآن كما ترون للاستيلاء عليها مرّة أخرى ، وقد علمتُ أنكم بالفعل غيّرتم آراءكم وليس ذلك لأن المسلمين

---

fara'o duvida que sendo tomada nom sera' possivel fazer n'ella forteleza e a sostermos, o que se assy nom fosse logoo estreito de Meca, a que nos Sua Alteza mandava

El Rey nosso senhor ficava com toda a perda, que sa'o muytas; a saber : o gasto d'armada, perda de sua gente, e sobre tudo estas perdas sem nenhum fruito, que sera' grande sua perda, porque esta cidade he o celeiro de todolas drogas e riqas mercadarias, que os mouros de todas as partes da India e do estreito de Meca aquy vem buscar, e leva'o suas naos carregadas, e passa'o per an tre as ilhas, e se colhem ao estreito muy seguro di os toparem nossas armadas, e as drogas que leva'o, que he grande soma, correm polo Cairo, e a Veneza, e d'ahy a ponente e levante, com que da'o muyto abatimento a's drogas da casa da India, que nos vendem por tresdobro do que aquy as compra'o a troco de roupas de Cambaya que trazem; do qual trato de tantos anos os mouros de toda a India s'ao grandes em muytas riquezas com que sa'o senhores nas terras, e dos coraco'es dos Reys e senhores, com a qual posanca nos tem feitos tantos malles em Calecut, e por todolas partes da India, que se o poder grande d'estes mouros nom fora, dor mindo tiveramos a India debaixo dos pe's. Pois que mo'r servico podemos fazer a Nosso Senhor em favor de nossa santa fe' sena'o punirmos estes mouros, e seus tratos aquy os confundirmos e apagarmos, que perca'o este tamanho bem como lhe aquy tomamos? E pois esta' ta'o manifesto que este servico nom farmos, indaque tomemos esta cidade chea d'ouro, se a nom deixassemos segura com segura forteleza, que durasse pera semper este tamanho servico de Nosso Senhor, e d'El Rey, e seus vassallos que n'estas partes militamos; tomaremos estes tratos, com que nos fa- remos riquissimos assy como o esta'o os mouros, e com lhe assy tomarmos seus proveitos os hi- remos deitando fo'ra da India, que sera' quando a Nosso Senhor aprouver.

"E pois tomando no's agora esta cidade, com sua tanta riqueza, sera' pera no's grande honra e proveito, e d'El Rey nosso senhor, que nos mantem, e sostem nossas geraco'es, e com seu tanto gasto aquy somos aportados com esta armada, e com os poderes d'ella ganha'mos, e El Rey tudo ficaria perdendo se lhe nom dessemos permicias do seu gas to e nossa obrigaca'o, que lhe forcad- amente devemos, que ha de der aquy lhe fazermos sua forteleza com nossos trabalhos, porque possamos dizer que ganha'mos esta cidade a's lancadas com noso sangue, e lhe entregamos ar- rematada pera sempre em seu servico, pedindolhe que este tamanho servico nos pague a nossos filhos e geraco'es, do que elle se nom podera' escusar; tudo, senhores, vos he presente, porque

دمّروا أفضل من فينا وإنما بسبب خطاياي التي تستحق ما حاق من فشل في تحقيق المُراد . ولما كنت عازماً عزماً أكيداً -طالما أنا حاكم للهند- ألاّ أُحارب أو أُخاطر برجالي في حرب برّية الاّ في المناطق التي يتحتم عليّ فيها بناء حصن لحمايتهم ، كما قلت لكم ذلك فعلاً من قبل ، والآن فإنني أرغب أن تتفضلُوا بالإدلاء بآرائكم مرة ثانية بحُرِّية وفي وثائق مكتوبة لتبيِّنوا لي ما يجب عليّ عمله ، ومع أنه سبق لكم أن وافقتم على ما يتحتّم علينا القيام به . ولأنني بالضرورة سأُقدم تقريراً عن هذه الأمور ، وتبريرات لإجراءاتي لسيدنا الملك د. مانويل ، فلا أريد أن أُترك وحيداً لأتحمّل اللوم بشأنها ، ورغم أن هناك أسباباً كثيرة يمكنني أن أسوقها لصالح الرأي القائل بضرورة الاستيلاء على المدينة وبدء حصن فيها لضمان استمرار تملكها ، فإنني سأكتفي هنا بإيراد سببين لتأكيد ضرورة ألاّ نتراجع فيما عقدنا عليه العزم .

"السبب الأول هو الخدمة الكبيرة التي سنؤديها لسيدنا الملك بطرد المسلمين من هذه البلاد ، لاخماد نار نحلة محمد (مافاميدو "Mafamedo")* فلا يكون لها وجود بعد ذلك وإنني متفائل أننا إذا ما أنجزنا -فقط- هذا العمل لأصبح كل مسلمي الهند تحت حكمنا لأن غالبهم -إن لم يكن كلهم- يعيشون على تجارة هذه البلاد وأصبحوا عظماء وأثرياء وسادة ذوي أموال طائلة . ومن الجدير بالتصديق أيضاً أنه ما دام ملك ملقى الذي دحرته قواتنا فعلاً والذي علم مقدار قوتنا دون أن يأتيه غَوْث من أي جهة كانت ، ومضى ستة عشر يوماً منذ حدث هذا ، ولم يتخذ إجراء للتفاوض معنا لإنقاذ ملكه - فإن هذا إشارة إلى أن ربّنا

---

cada hum por seu assindado me ha de dar sua determinaca'o pera me eu livrer ante Sua Alteza de quem me accusar. Pera que sem duvida lhes affirmo que indaque n'esta hora Malaca se me entregasse, com toda sua riqueza, a na'o tomaria se n'ella nom ouver de fazer a milhor, e mais forte, e possante forteleza que ouver n'estes partes; pois Malaca he a mais populosa cidade da India, que esta' no meo e estremo de todolas riqas mercadarias e tratos que por ella correm. E pois, senhores, tudo lhe tenho apresentado, vossas merce's agora se determinem no que facamos, porque eu nada hey de fazer, sena'o o que per elles for assentado."

* يقصد نبيّنا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام .

Our Lord قد أعمى بصيرتـه وقسّى قلبه ، وإن ربّنـا لتمّ أمر ملقى هذا ، لأننا عندما كنا نستعد لنبحر في منطقة مضايق البحر الأحمر على وفق الأوامر المتكررة لملك البرتغال (لأن هناك في مضايق البحر الأحمر هذه يمكننا كما يرى جلالته أن نقطع تجارة مسلمي القاهرة ومكة وجدّة مع هذه الأنحاء) أراد ربنا Our Lord صالح الملك البرتغالي فقادنـا إلى هـذا المكان (ملقى) لأنـه إذا تمّ الإستيلاء على ملقى لأغلقت متاجر البحر الأحمر (في القاهرة وجدة ومكة) أبوابها فساعتها لا يصبح تجارها قادرين على جلب البهار .

"السبب الثاني إن الاستيلاء على ملقى يضيف خدمات أخرى لملك البرتغال فملقى هي مركز البهار والعقاقير التي يحملها المسلمون كل عام إلى مضايق البحر الأحمر دون أن نكون قادرين على منعهم ، لكن إذا سلبناهم سوقهم القديمة هناك لم يبق لهم ميناء واحد ولا موقع واحد ملائم في كل هذه الأنحاء يمكن أن يتداولوا فيه التجارة في هذه الأشياء . ذلك أننا بعد أن تملكنا فلفل المالابار لم يعد أيٌ منه يصل للقاهرة خلا ما يحمله المسلمون من هذه الأنحاء (ملقى) ، فالسفن الأربعون أو الخمسون التي تُبحر من هنا كل عام محمّلةً بكل أنواع البهار لتتخذ طريقها إلى مكة* لا يمكن إيقافها دون أساطيل كبيرة ونفقات باهظة إذ يتطلب هذا أن تجول سفننا بشكل مستمر على مقربة من رأس كوموريم Comorim ، وفلفل المالابار الذي قد يأملون في الحصول على نصيب منه بسبب وقوف ملك كلكتا في جانبهم ، إنما هو في قبضة يدنا ، وتحت عينيّ حاكم الهند ولا يمكن للمسلمين الحصول على شيء منه دون الإفلات من عقابنا لهم كما نأمل ، وإني متأكد أننا إذا استولينا على تجارة ملقى وأبعدناها عن أيديهم لتدمّرت القاهرة ومكة تماماً ، أما بالنسبة للبندقية فلن يكون لها نصيب من البهار غير ذلك القدر الذي يحصل عليه تجارها ليشتروه من البرتغال .

"لكن إذا كان من رأيكم أنه من الصعب أن نحافظ على ملقى إن استولينا

* المقصود جدة (ميناء مكة) .

عليها لضخامتها وكثافة سكانها ، فلا ينبغي أن يكون هذا هو تفكيركم لأنه إذا سقطت مدينة ملقى تداعت بقية المملكة ولم يعد لملكها مكان واحد يهرع إليه بقواته ، وإن كنتم تخشون من كثرة النفقات التي يتطلبها الاستيلاء على المدينة ، وأننا في موسم لا يمكن فيه أن يتزوّد أسطولنا ورجالنا فإنني أثق في رحمة الله أنه حالما تصبح ملقى تابعة لنا نسيطر عليها من حصن حصين فإن ملك البرتغال سيُعَيِّن فيها حكاماً مُحنّكين ومديرين للعوائد وجمّاعين للضرائب مما سيغطي كل النفقات ، وإذا ما ذاق التجار الذين يأتون إلى هنا –والذين اعتادوا قبل ذلك أن يعيشوا في ظل العبودية الطاغية التي فرضها عليها الملاويون– عدالة البرتغاليين وصدقهم واعتدالهم ، وعلموا بتعليمات سيدنا ملك البرتغال القاضية بأن يحظى كل رعاياه في هذه الأنحاء بمعاملة طيبة فإنني على يقين أنهم سيعودون جميعاً ليستقروا في المدينة ، بل وسيبنون جدران مساكنهم بالذهب ، وكل هذه الأمور التي أطرحها أمامكم يمكن أن تكون بين أيدينا بمجرد إدارة المفتاح نصف دوره وذلك بأن نبني حصناً في هذه المدينة ونحافظ عليه وأن نُخضع هذه البلاد لحكم البرتغاليين وأن يكون الملك د. مانويل ملكاً حقيقياً هنا . ولكل هذا فإنني أرجوكم أن تتكرموا بالنظر لهذا المشروع بجدية فهو في أيديكم ، ولا تدعوه يضيع منكم ."

وبعد هذه الخطبة الرنّانة اختلفت آراء القباطنة وإن أعلن أغلبهم أخيراً ومرة أخرى أنه من صالح ملك البرتغال الاستيلاءَ على مدينة ملقى وطرد المسلمين منها وبناء حصن بها . وكان للأقلية رأي مغاير وأنه لا داعي لمهاجمة المدينة مرة أخرى فمن المشكوك فيه تحقيق هذا المشروع ، وأن الثأر من المسلمين لمعاملتهم لديوجو لوبيز دي سيكويرا Diogo Lopez de Sequeira ورجاله قد تم فعلاً وبقسوة ، وأنه حتى إذا كان لديهم كل ما هو ضروري لبناء الحصن فليس ثمة وقت لإتمامه لأن الرياح الموسمية قد بدأت بالفعل ومن الضروري التوجه للهند لدعمها فلا أحد يدري أمور جوا (كوّا) منذ غادرروها .

وقد أدرك أفونسو دلبوكيرك هذه الخلافات ، فاتخذ جانب الأغلبية وقرر

مـهـاجـمـة المدينة والتـحـصّن فـيـهـا ، أمـا بـالنسـبـة لكل الشكوك التي أثارها المعارضون ، فليتركها بين يدي ربنا يسوع المسيح* فقد يأمرهم جميعاً بما هو أفضل لخدمتـه ، وأمر أفونسو دلبوكيرك سكرتاريته بكتـابة القرار الرسـمي النهـائي ووقع عليه بنفسـه ووقع عليـه أيضـاً كل القبـاطنة والقـادة وذوي الرتب وحاملي ألقاب الفروسية ممن حضروا الاجتماع .

* يوقر المسلمون المسيح عليه السلام ويعترفون بمعجزاته التي تمت بأمر الله ، وهو بالنسبة لهم نبي كريم ، لكنهم لا يعبدونه ولا يعبدون أحداً سوى الله .

الفصل السابع والعشرون

أفونسو دلبوكيرك الكبير يهاجم ملقى للمرّة الثانية -بناء على القرار الذي انتهوا إليه- وكيف دخل الجسر بالقوة وتمركز فوقه .

بعد أن وقّع كل القباطنة وذوي الرُتب وحاملي ألقاب الفروسية على آرائهم التي أبدوها كما سبق أن ذكرت قرّر أفونسو دلبوكيرك مهاجمة المدينة والاستيلاء عليها معتمداً في ذلك على ربنا Our Lord بنيّة التمركز فيها . ولأن المسلمين كانوا قد استعدوا استعداداً كبيراً ونظّموا أنفسهم تنظيماً أفضل من ذي قبل ، فقد قرر أن يُهاجم الجسر بكل قواته مجتمعة (دون أن يُقسّمها قسمين كما فعل في الهجوم الأول) .

وبعد الاتفاق على طريقة الهجوم اتجه كل منهم إلى سفينته ليكون على أُهبة الاستعداد في انتظار اليوم الذي يكون فيه المد الأعلى فيرتفع الماء حتى يستطيع الينك Junk (الآنف ذكره في الفصل السابق) أن يتقدم ناحية الجسر ، فلما حل الوقت المناسب في يوم الجمعة ، قبل ساعتين من طلوع الصبح ، أمر أفونسو دلبوكيرك بإطلاق الإشارة المتفق عليها لتنبيههم ، فقد كانوا جميعاً قد استعدوا للمهمة ، فاتجهوا إلى سفينة القيادة وانطلقوا في قواربهم ، وكان أنطونيو دبرو Antonio Dabreu قد وصل الآن بسفينته من نوع الينك على مرمى طلقة من الجسر ، وبدأ المسلمون يطلقون النار عليه من البنادق الضخمة ذوات الفتائل[١] ، ويقذفونه بسهامهم السّامة blowing tubes & poisened

(١) 'Espingardoes' .

arrows ويمدافعهـــم التي تطلـــق قذائـــف مـــن رصاص القذيفـة منها بحجم الإسبيرا[1] Espera فأصابوا جانبْي اليَنْك ولم يجد أنطونيو دبرو ملجأ يحتمي فيه من طلقاتهم التي راحت تنهال على اليَنْك فكان هو أول من أصيب بطلقاتهم إذ أتته طلقة في فكّة أطاحت بكثير من أسنانه وقطعت من لسانه جزءاً .

ولما رأى أفونسو دلبوكيرك ، وقد كان في قاربه قريباً من الينك ، أنّ أنطونيو دابرو Antonie Dabreu قد جُرح أمر بنقله إلى السفينة لمداواة جروحه ، فقاوم دابرو ذلك ، لكن جرى تنفيذ أمْر أفونسو دلبوكيرك قَسْراً ، وأمر أفونسو دلبوكيرك بتعيين بيرو دالبوم Pero Dalpoem قائداً للينك حتى يشفى أنطونيو دابرو أيضاً . فلما انتهى هذا الأمر الذي سبّب تأخيراً واصل رجالنا دون تضييع وقت التقدم بالينك كما كان مقرّراً فلما وصلوا به إلى حيث يُشرف على الجسر لم يَعُد المسلمون قادرين على تحمّل ما أمطرهم به رجالنا –من أعلى الصاري الأمامي– بقذائف البنادق ذوات الفتائل والرماح المريَّشة الخفيفة darts وعلب البارود ، ففرّوا تاركين الجسر ، وانسحبوا إلى الاستحكامات التي أقاموها على جانبيه .

وأدرك أفونسو دلبوكيرك الفوضى التي حلّت بين صفوف المسلمين ، فأمر القادة والقباطنة بالإسراع بالتجديف وأن يتكتّلوا ليكوّنوا مجموعة واحدة للانقضاض على الاستحكامات على وفق الخطة المتفق عليها سلفاً . ورغم أنهم وجدوا خلفها قوات كبيرة من المسلمين ظلّوا يدافعون عن أنفسهم لمدّة طويلة بشجاعة ، إلاّ أن رجالنا استطاعوا اجتياح هذه الاستحكامات وهزموا المسلمين المدافعين عنها ، وقد جُرح عدد كبير من رجالنا عند اجتياح الاستحكامات كمل قُتل منهم رجلان أو ثلاثة بينما قُتل من المسلمين عدد كبير . وبعد أن وجد أفونسو دلبوكيرك مسيطراً الآن على الجسر ظل متمسكاً بموقعه رافعاً علمه وحوله جزء من قوّاته وأصدر الأوامر لبعض القباطنة والقادة بالاستيلاء على المسجد كما أمر آخرين

(١) "Espera" أو "Esfera" نوع قديم من المدافع – أنظر .Bluteru, S.V ، لكن أنظر جـ٢ ، فصل ٢٥ /الحواشي أيضاً .

بمهاجمة الأسيجة التي كان المسلمون قد أقاموها عند مدخل الشارع الذي يؤدي للجسر ، كما أمر ألاّ تغادر أيّة مجموعة مواقعها دون صدور أوامر صريحة لها بذلك .

وعندما وصل القادة إلى هذه الأسيجة أحدثوا الفوضى في صفوف المسلمين الذين لم يقاوموا إلاّ قليلاً ، ومن ثم استولى رجالنا على الموقع ، أما المجموعة الأخرى المنوط بها مهاجمة المسجد فقد واجهت مقاومة عنيفة ولم تكن مهمّتها سهلة إذ كان ملك ملقى نفسه موجوداً هناك ومعه عدد كبير من الأفيال والرجال واستمر دفاع المسلمين قوياً باسلاً ومضى وقتٌ طويل دون أن يستطيع رجالنا (البرتغاليون) دخول المسجد . فلما رأى أفونسو دلبوكيرك من موقعه فوق الجسر الموقفَ الذي يواجهه رجالنا (عند المسجد) أسرع على رأس كل قواته لتقديم العون لهم ، ولأنه كان عند مدخل الشارع الكبير المؤدي للمسجد عدد كبير من المسلمين يضغطون على جناحيْ قوّات القادة البرتغاليين الذين كانوا يجدّون في إِثْر الملك الذي كان بصدد الفرار مع ثلاثة آلاف من رجاله مسلّحين ويرتدون الدروع –لذا فقد ظل متمركزا هناك (بالقرب من مدخل هذا الشارع) مع رجاله ، رافعاً علمه ، وأرسل للقادة البرتغاليين آمراً إياهم أن يبقوا هادئين وأن يهرعوا إلى الموقع الذي هو فيه لأنه يوجد عدد كبير من المسلمين على جانبي قواتهم (البرتغالية) ، وطاعة لهذا الأمر انسحب هؤلاء القادة البرتغاليون فوراً وما إنْ التحمت قواتهم بقوات أفونسو دلبوكيرك حتى ترك كلاً من جورج ننوز دي لياو Jorge Nunez de Lia'o وننو فاز دي كاستيلو–تيكسيرا Nuno Castelo-branco وجميس تيكسيرا James Teixeira وبينيس فرنانـدز دي ميلـو Dinis Fernandez de Melo مع بعض الرجال لحراسة موقع المسجد والإستحكامات ، بينما عاد هو نفسه (أفونسو دلبوكيرك) مع بقية الرجال إلى الجسر ، وأمر القادة والقباطنة المتمركزين في الجانبين أن يبقوا كما هم وألا يحاربوا المسلمين حتى لو أقبلوا يهاجمونهم حتى ليتمكن (أي أفونسو دلبوكيرك) من تدعيم مركزه على الجسر ، وأصدر أمراً للسفن من نوع البارك

barques والتي كان عددها أربعاً محملة بالمدافع الضِّخام أن تبحر إلى الناحية الأخرى لتتفحص الميدان من الناحيتين ، وأن تجبر المسلمين على الابتعاد حتى يتمكن رجالنا من إقامة الاستحكامات بأمان ، كما أمر بإخراج كل الذخائر ومعدات القتال التي كانت في الينك Junk ، فاستطاع رجالنا في وقت قصير إقامة سياجيْن قويَّين ، فقد كانوا يعملون بحماس وروح عالية . وكان أحد هذين السياجيْن ناحية المدينة والآخر ناحية المسجد . وكانت هذه الأسيجة من براميل مملوءة تراباً بينها كثير من المدافع وأمر أفونسو دلبوكيرك بإقامة ظُلَلٍ فوق الجسر وفوق الينك ، من جريد النخيل إتقاءً لحرارة الشمس الشديدة وحتى لا يسقط رجاله بسبب المرض والعمل الشاق الذي انْخرطوا فيه .

الفصل الثامن والعشرون

كيف أمر أفونسو دلبوكيرك الكبير بأن يحظى رجالنا المتمركزون عند مدخل الشارع المؤدّي إلى الجسر بقسط من الرّاحـة ، وكيف أتى أوتاموتاراجا Utamutaraja ونيناشاتو Ninachatu والتجار الآخرون إلى أفونسو دلبوكيرك وجعلوا أنفسهم بين يديه ، بعد أن رأوْا سقوط المدينة .

بينما كان أفونسو دلبوكيرك مشغولاً على هذا النحو في إكمال التحصينات والاستحكامات فوق الجسر ، رأى أنّ القادة الذين كان قد أمرهم باتخاذ مواقعهم عند مداخل الشوارع متضرّرون من أوامره أو متذمرون منها (أكثر من كونهم غير راغبين في تنفيذها) وكانوا مستائين من قذف مدافع المسلمين التي وضعوها في شرفات منازلهم ، ومن طلقات بنادقهم ذوات الفتائل ، لذا فقد أرسل (أفونسو دلبوكيرك) بسرعة قُصوى كلاً من جاسبار دي بيفا Gaspar de Paiva وفرناو بيريز دندريد Ferna'o Perez Dandrade وبيرو دلبوم Pero Dalpoem وأنطونيو دابرو Antonio Dabreu –الذي كان قد تحسّن جرح فكّه– لنجدة زملائهم على طول أحد شوارع المدينة ، كما أمر كلاً من د. جواو دي ليما D. Joa'o de Lima وإيرز بيريرا Aires Pereira وسيماو دندريد Sima'o Dandrade وسيماو مارتينز Sima'o Martinz وسيماو أفونسو

Sima'o Afonso على طول شارع آخر يؤدي إلى موضع يتراشق فيه المسلمون مع رجالنا بالرماح وأن يسيروا في مجموعات خلال كل المدينة وألاّ يتركوا أي شخص يقابلونه إلاّ وأوْردوه موارد التهلكة ، وأنه هو بنفسه (أفونسو دلبوكيرك) سيلحق بهم لدعمهم حاملاً العلمَ الملكي ، ورغم كثرة عدد المسلمين إلاّ أن قادتنا انقضوا عليهم بشجاعة فائقة فلم يصمدوا أمامهم فأداروا ظهورهم مُدْبرين بل إنّ من كان منهم قريباً من رجالنا لم يجد أمامه مفرّاً سوى أن يقذف بنفسه في النهر ظانّين أن ذلك مانعهم .

وأقبل البحارة الذين كان أفونسو دلبوكيرك قد أمرهم أن يكونوا في السفن الصِّغار من نوع السكيف Skiff وأن يتحركوا في النهر جيئة وذهاباً -وقتلوا كل هؤلاء المسلمين الذين قذفوا بأنفسهم في النهر ، وعند غروب الشمس انسحب القباطنـــةُ والقادةُ إلـــى الجسر حيث الاستحكامات القوية علـى جانبيه ، وتمركز أفونسو دلبوكيرك في الوسط ، وظلوا طوال الليل يراقبون الموقف . وأصدر أفونسو دلبوكيرك للسفن الصغار من نوع البارك barques التي كانت متمركزة في النهر أن تُواصل إطلاق النار على المدينة طوال الليل ، وأمر رئيس المرشدين بيرو جونسالفيز Goncalvez أن يذهب مع كل البحارة ليناموا في السفن حاملين معهم التعليمات نفسها والقاضية بأنْ يُواصلوا القذف بالمدافع طوال الليل . لقد كان منظر المدينة مرعباً فقد بدت وكأنها كلها تحترق بسبب القذف المتواصل .

وعندما أطلّ الصبح لم يجرؤ المسلمون على الظهور في الشوارع لما أصابهم من رعب وسوء طالع ، واستمر الحال على هذا طوال عشرة أيام بلا توقف ليلاً أو نهاراً وخلال هذه الفترة كان رجالنا يُريقون باستمرار دماء المسلمين فقد كان الجوع قد ذهب بهم كلَّ مذهب فراحوا يُخاطرون بحياتهم بحثاً عن الطعام في المدينة فتلقّفهم رجالُنا وقتلوهم . ولما أدرك المسلمون ما حاق بهم وأن هناك خطراً كبيراً يؤدي لضياع حياتهم وأنهم قد فقدوا كلَّ أمل بدأوا يتجهون إلى أفونسو دلبوكيرك طالبين منه الرحمة ، وكان أول من ذهب إليه هم البيجو

Pe'gus فاستقبلهم استقبالاً حسناً ومنحهم الأمان ليمكنهم من مواصلة رحلتهم وأذن لهم بأن يحملوا معهم أمتعتهم ، كما سمح لكل التجار الذين كانوا قد قدموا من رأس كوموريم Comorim إلى الجهات الواقعة شرقاً ممن ليس لهم سفن بأن يُصدِّروا بضائعهم كما يحلو لهم وأن يواصلوا تجارتهم كالمعتاد وعمل على إحياء الملاحة بين بلادهم وملقى ، وكان إحياء الحركة الملاحية بين ملقى وهذه الأنحاء هو السبب الرئيسي لمعاملته الطيبة لهم .

وعندما رأى أوتيموتاراجا Utomutaraja الذي كان قد حصل على الأمان لنفسه ورجاله من أفونسو دلبوكيرك ، كما ذكرتُ في فصل سابق ، أنّ مدينة ملقى قد حاق بها الدمار ، خشي أن يلقى ما لا يسر بسبب أن ابنه قد لحق بملك ملقى لتقديم العَون له وليحارب ضد رجالنا (البرتغاليين) ، فأتى إلى أفونسو دلبوكيرك وراح يُقدم مختلف الأعذار لابنه ، مبُدياً بهجته للدمار والهزيمة اللتين حاقتا بملك ملقى . وكان ابنه قد لاقى نتيجة سوء عمله فقد أصابه جرح نافذ وقُتل عدد كبير من رجاله . وقد استقبل أفونسو دلبوكيرك ، أوتيموتاراجا بلطف ، ومع ذلك فقد أصْدر الأوامر لرجاله بألاّ يسيروا إلاّ مسلّحين ومع رجالهم ، وأن يُحكموا المراقبة ويكونوا على حذر لأنه لا يمكنه التعويل عليه (على أوتيموتاراجا) وتذكّر روي دي أروجو Ruy de Araujo ما شملَه به نيناشاتو Ninachato الهندوسي من لطف في أثناء فترة الأسر ، فأتى به إلى أفونسو دلبوكيرك طالباً منه أنْ يشمله بعطفه وأنْ يكرمه لقاء ما أدّاه له ولرفاقه المسيحين ، ففعل أفونسو دلبوكيرك وقال أنه يعده أن يُكافئه قبل أنْ يغادر إلى الهند لقاء فعله الطيب .

وعندما وجد أفونسو دلبوكيرك نفسه أقل انزعاجاً بسبب الجلبه التي بسببها المسلمون ليلاً ونهاراً ولأنه لم يعد في المدينة أيّة قوة قادرة على المقاومة وأن وقت تعويض ما فات قد حان ، أمرَ بنهب المدينة وأن يحتفظ كل من نهب شيئاً به لنفسه لكنه أمرَ مُحَذِّراً بعدم مس المنازل والمستودعات التابعة لنيناشاتو

الهندوسي[1] . وبعد أن تم نهب المدينة أرسل بعض التجار الذين كانوا قد فروا لمساكنهم الريفية (بعد أنْ رأوا المعاملة الطيبة التي حظِيَ بها نيناشاتو Nina-chatu يلتمسون مــن أفونسو دلبوكيرك الأمـــان ليأتوا للمدينة فمنحهم جميعاً الأمان ما عدا المالاويين منهم الذين هم أهل البلاد الأصليين ، فقد أمر بقتل كل من هو مالاوي .

وقد جرح عدد كبير من رجالنا في هذا الغزو الثاني لملقى ، وقد مات منهم من كانت جروحه بسبب سهام مسمّمة أما الآخرون فقد شُفوا بسبب العناية بهم على وفق أوامر أفونسو دلبوكيرك ، أما من جانب المسلمين فقد قُتل منهم ما لا حصر له من النساء والأطفال فلم يترك رجالنا منهم أحداً ، وتم الاستيلاء على ثلاثة آلاف مدفع كان منها ألفان من البرونز بالاضافة إلى مدفع كبير كان ملك كلكتا قد أرسله لملك ملقى . أما بقية المدافع فمن حديد كمدافعنا من نوع البيرسون bercon ، ومع كل مدفع من هذه المدافع حامِلُه ، لكنها –أي مدافع المسلمين هذه– لا تضارع (أي لا مثيل لها حتى عند البرتغاليين) وقد استولى البرتغاليون على كثير من البضائع من كل نوع بالإضافة للبنادق الضخام ذوات الفتائل والسهام المسمّمة والدروع المعدنية[2] والرماح الجاوية وأسلحة أخرى من أنواع مختلفة .

لقد استولى البرتغاليون على كل هذا وغيره كثير لم أذكره تحاشياً للإطناب ، وقد أمر أفونسو دلبوكيرك بتوزيع ذلك كله بين قباطنة الأسطول وقادته وكل

---

(١) 'Gudo'es' · مخازن أو غرف جانب منها تحت سطح الأرض وجانب منها فوق سطحها . فعلى سبيل المثال نجد في رواية كوريا Correa التي ذكرها بصدد أن أفونسو دلبوكيرك حزِن بسبب التهام النيران لثروات المدينة :
"Se'o fogo nos der a cidade, elle levara' todo o bem que ella tem de riqueza, com que a gente ficaria com trabalho e sem proveito." Ruy d'Araujo lhe dixe: "Senhor, posto que se queime Malaca, inda o milhor ficara', que esta' nos gudo'es, que sa'o casas de pedra fortes e meas feitas debaixo do cha'o."-Lendas da India, tom. ii, p.236. And again, during the progress of the saching : "Os capita'es, com suas quadrilhas de seus navios, ajuntava'o e metia'o fato em grandes casas pera depois o mandarem embarquar. Estas fazendas estava'o ein casas The tinha'o meas feitas debaixo do cha'o, per cyma argamassadas por resguardo do fogo."-Ib., p. 247.

(٢) 'Laudeis de Laminas' .

رجاله دون أن يأخذ لنفسه شيئاً إلاّ أنه احتجز ستة أسود كبار من البرونز لتوضع على قبره (عند موته) والسّوار الذي ذكرته في فصل سابق[1] وفتيات شابات من كل جنس وبعض الدُّمى ليرسلها للملك د. مانويل والملكة د. ماريا لكن هذه الأشياء ضاعت في السفينة فلور دي لامار Flor de la Mar في طريق العودة من ملقى إلى الهند كما سأذكر .

ولا يجب أن يندهش قرّاء هذا الكتاب إذا قلنا أن البرتغاليين قد استولوا على ثلاثة آلاف مدفع من ملقى ، لأن روي دي أروجو Ruy de Araujo ، ونيناشاتو Ninachatu قد قالا لأفونسو دلبوكيرك أنــه كــان يوجد في ملقى ثمانية آلاف مدفع وهو قول يجب تصديقه لأن في ملقى نحاس كثير وقصدير كثير ، وعدد كبير من الصنّاع المهرة ، الذين يضارعون في مهارتهم صنّاع ألمانيا ، ومن ناحية أخرى فالمدينة ضخمة يبلغ طولها فرسخاً ، وعندما نزل أفونسو دلبوكيرك بجنوده إلى البر تكالب عليه المسلمون من كل حدب وصوْب وصوّبوا إلى قواته مدافعهم من كل ناحية لكن يبدو أن هــذا العدد من المدافع كان غير كاف للدفاع .

(١) أنظر الفصل ١٥ .

الفصل التاسع والعشرون

انسحاب أمير ملقى من قوات أبيه (الملك) وتحصنه مع قوّاته عند نهر موار Muar وإقامته بعض التحصينات، لكن أفونسو دلبوكيرك وجّه ضده بعض القوات التي أجبرته على الفرار.

صمّم أفونسو دلبوكيرك -رغبةً منه في إقرار الأمور في ملقى- على تعيين نيناشاتو Ninachatu لكونه هندوسياً -حاكماً على منطقتي كويلين[١] Quilis وشيتين[٢] Chetins وليُطمئِنَ المسلمين عيّن أوتيموتاراجا Utemutaraja كبيراً لزعمائهم وبذلك اطمأن الناس وعاد التجار إلى المدينة، وكان عددهم في ذلك الوقت قليلاً، ومع هذا فلم يكن أفونسو دلبوكيرك يثق فيهما (نيناشاتو، وأوتيموتاراجا) ثقة كبيرة خاصة أوتيموتاراجا وليقمع شكّه هذا حاولَ أن يوقع الملك في قبضة يده، فأرسل كثيراً من القوارب لتُبحر صُعُداً في النهر في محاولة للإمساك به.

ولأن ملك ملقى كان يتلقّى التحذيرات كل يوم وكان يعرف رغبة أفونسو دلبوكيرك في القبض عليه، فقد خشيَ أن يُسلمه شعبه، فانسحب من المدينة وابتعد عنها مسيرة يوم واصطحب معه بعض التجار الملاويين والقادة التابعين له والمسؤولين الكبار وراح ينتظر قدوم الأدميرال (الأسَامين "Lassamane")

---

(١) في صورة ملقى التي قدّمها كوريا (Correa) في كتابه (Lendas da India) (Vol.2, P.250) نجد أن (Povoaca' quylly's) محددة إلى يسار المدينة ومفصولة عنها بأسيجة.

(٢) أنظر جـ٢، حواشي الفصل ٢٥.

الذي أرسله إلى جزيرة لنجا[١] 'Linga ليرسل أسطولاً كثير السفن مليئاً بالجنود على رأسه ملك جزيرة لينجا واسمه راجالينجا[٢] Rajalinga الذي كان تابعاً لملك ملقى لأن ملك ملقى كان مصمّماً على استرجاع المدينة (ملقى) لكن هذا الأمر لم يحدث لأن راجالنجا بعد أن علم باستيلاء أفونسو دلبوكيرك على المدينة (ملقى) لم يَجْسر على المجيء ، وكان تفكير ملك ملقى بسيطاً إذ كان يعتقد أن أفونسو دلبوكيرك بعد أن يسلب المدينة سيُبحر بأسلابه تاركاً المدينة ، وظل الملك في وهمه هذا طوال عشرة أيام منتظراً تطورات الأحداث ، لكنه عندما علم أن أفونسو دلبوكيرك بدأ في تأسيس حصن من أخشاب قوية[٣] ليحتمي مع رجاله فيه وأنه أظهر نيته في إقامة مستوطنة برتغالية في ملقى لتكون مقراً دائماً لهم ، انزعج كثيراً لهذه الأخبار ولم يعد آمناً على نفسه في موقعه هذا ، فتوغل بمن معه في المناطق الداخلية واستمر يتوغل مسيرة يومين ، ولأن هذه المجموعة المصاحبة للملك عانت بشدّة لنقص المؤن التي معها فقد انفصل الأمير (ابن الملك) بقواته عن أبيه وانطلق ليُقيم معسكراً بالقرب من النهر وأقام بعض الاستحكامات القوية واعترض النهر بكميات من الأخشاب حتى لا تصل إليه قواربنا .

وحالما علم أفونسو دلبوكيرك بذلك أرسل كلاً من فرناو بيريز دندريد Ferna'o Perez Dandrade وسيماو دندريد Sima'o Dandrade (أخيه) وجاسبار دي بيفا Gaspar de Paiva وايريز بيريرا Aires Perira وروي دي أروجو Ruy de Araujo وجورج ننز دي لياو Jorge Nunez de Lia'o على رأس أربعمائة جندي برتغالي وستمائة جندي جاوي قدمهم أوتيموتاراجا Ultemutaraja لهذا الغرض وقادة من البيجو Pa'gu على رأس ثلاثمائة رجل ليستقلوا القوارب والنشات ويبحروا في النهر صُعُداً ليدمّروا عُشَّ اللصوص (المقصود معسكر ابن الملك)

(١) جزيرة لينجا (Linga) ، سومطرة خط عرض صفر ، ١٠َ جنوباً (١٠َ ، .) وخط طول ٤٥َ ، ١٠٤ شرقاً .

(٢) ليس اسماً وإنما لقباً أي راجا الذي في لنجا .

(٣) أنظر فصل ٢١ .

فأدوا مهمتهم ، فما أن وصلوا إلى تحصينات ابن الملك حتى بدأوا في باقتلاعها بالآلات التي جلبوها معهم وهاجموا العدو .

فلما رأى الأمير (ابن ملك ملقى) هذا الأسطول وأحس بالروح العالية المصمّمة لرجالنا هدم معسكره وجمع رجاله ولم يقاوم على الإطلاق وفرّ إلى حيث أبيه بعد أن قطع مسيرة يوم تقريباً ودخل رجالنا على عجل في المباني التي أقاموها واستولوا على كل ما كان مخزوناً فيها مما لم يستطع الأمير (ابن الملك) حمله وكان من بين ما أخذوه محفّاته Palanguins التي كان يستخدمها ، وهي محفّات عالية ومزخرفة ، وسبعة أفيال بما عليها من هوادج ودروع واقية ، وبعد أن حققوا هذا النصر عادوا للمدينة .

وعندما وصل الأمير إلى حيث يوجد أبوه الملك نشبت خلافات بينهما بسبب ضياع ملقى ، وراح كل طرف يُحمِّل الآخر تَبِعَات الهزيمة وعلت الأصواتُ في أثناء هذا النزاع ، مما أدى إلى انقسام في الخطط ، وواصل هذا الجمع المهزوم طريقه إلى مملكة باو Pa'o "بام" قاطعين طريقاً صحراوياً ومناطق سَبِخَة راكبين أفيالهم مع أزواجهم وأولادهم ومعهم خمسون رجلاً أجبروهم على صحبتهم في هذا الفرار .

الفصل الثلاثون

انسحاب ملك ملقى إلى مملكة باو (بام) وكيف أرسل مبعوثاً إلى ملك الصين يطلب منه النجدة .

بعد أن وصل ملك ملقى إلى مملكة باو (بام "Pa'o") ورأى أنه لا علاج لما حاق به من سوء حظ ، قرر أن يُرسل سفيراً من قِبَله إلى ملك الصين طالباً منه العَوْن حتى يتمكّن من استرداد مدينته الضائعة ، مذكّراً إياه بالصداقة القديمة التي تربطه (أي ملك الصين) بملوك ملقى ، وكيف أنّ ملوك ملقى كانوا دائماً في طاعة ملوك الصين كما لو كانوا من أتباعهم ، وكي يعطي ملك ملقى لسفارته هذه مزيداً من الأهمية والمصداقية ، فقد رغب أن يذهب أحد أخواله بصحبتها فأرسل توآو[1] ناسم موادليار Tua'o Nacem Mudaliar الذي كان يثق فيه ثقةً كبيرة ، فاتجه هذا الخال مع بقية السفارة إلى نهر موار[2] Muar وأبحر في لينك Junk وصحب معه زوجته وبعض المسلمين ، وعندما وصل إلى ميناء كانتون[3] (كانتاو "Canta'o") وهو الميناء الصيني الذي اعتاد من يبحر للصين أن يرسو فيه ، قام ولاة الأمر في المدينة -على وفق العادة القديمة- بإرسال مبعوث لملك الصين الذي يقيم في المناطق الداخلية على بعد مئة فرسخ وثمانين فرسخاً ، ليُحيطوه علماً بهذه السفارة وطلبوا منه التوجيه بما يلزم علمه ، فقد جرت العادة في الصين ألاّ يدخل غريب فيما وراء هذا الميناء (كانتون) دون إذن الملك .

ووصل مبعوث ولاة الأمر في مدينة كانتون إلى بكين[4] Pequim ومكث شهرين

(١) كلمة مالاوية تعني (سيد) أو (حاكم) master of Lord .

(٢) نهر في ملقى بُنيَ على شاطئه مدينة باهانج Pahangأو باو Pa'o .

(٣) كانتون Canton أو كوانج تنج Quangtung ° ١٢ ، ٢٣° شمالاً ، ١٧َ ، ١١٣ ° شرقاً .

(٤) بكين Pekin أو شون-تيان Shun-tien في الصين ٥٣َ ، ٣٩ ° شمالاً ، ٢٩َ ، ١١٦ ° شرقاً .

قبل أن يعود إلى كانتون حاملاً الإذن بالسماح لمبعوث ملك ملقى بدخول الصين وتزويده بكل ما يلزمه في رحلته إلى بكين ، وما إنْ وصلت هذه الرسالة حتى شرع مبعوث ملك ملقى فوراً في شد الرّحال إلى البلاط الملكي الصيني وظل طوال الرحلة محاذياً لشاطىء النهر(١) حيث رأى المدن العظيمة والقصور الشامخة التي لن أُطيل في وصفها فلا علاقة لها بالمسار التاريخي الذي نخوض فيه . وعند وصول المبعوث إلى البلاط جرى استقباله استقبالاً حسناً من كل سادة البلاد وولاة الأمر فيها ، وبعد عدة أيّام رغب الملك الصيني في استقباله شخصياً رغم أن هذه لم تكن هي العادة المتبعة ، فلا أحد يرى ملك الصين ، وإنما يتم تَسْيير الأمور بواسطة الولاة والمحافظين وما أشبه . وبعد أن قدم مبعوث ملك ملقى لملك الصين التحيات والاحترامات المعتادة على وفق التقاليد الصينية ، طرح نفسه تحت قدمي الملك وذرف الدموع مدراراً ورجاه أن يساعد سيده ملك ملقى في أزمته الحالية ، فملك ملقى يثق فيه (في ملك الصين) تماماً .

فأمره ملك الصين بالنهوض وطلب منه أن يسرد عليه تاريخ الأمر كليه بالترتيب أو بتعبير آخر أن يذكر له كل ما جرى بالترتيب ، ولما كان هذا المبعوث شاهدَ عيان على ما حدث فقد سرده على الملك الصيني ، وقال إن سيّده ملك ملقى بعد أنْ لاقى هذه الهزيمة انسحب إلى مملكة باو (Pa'o) "بام" وهو هناك ينتظر على أمل أن يُوليه ملك الصين أذناً صاغية ويُساعده بالرجال والأسطول ليستعيد ملكه وليثأرَ مما ألحقه به قائدُ الملك البرتغالي . ومع أن ملك الصين كان بالفعل قد علم بكل ما جرى من الصينيِّين الذين أتوا من ملقى إلاّ أنه كان سعيداً بسماع التفاصيل من مبعوث ملك ملقى وراح يسأله عن أفونسو دلبوكيرك وعن البرتغاليين : أي نوع من الرجال هم ؟ وما هي طريقتهم في الحرب ؟! .

---

(١) ربما كان المقصود يانج-تسي-كيانج (Yang-Tsze-Kiang) التي جرى ربطها بواسطة القناة العظمى أو يون-هو (Yun-ho) أو شا-هو (Sha-ho) بفرع اليون هو (Yun-ho) أو نهر إيو-هو (Eu-ho River) الذي تقع عليه مدينة بكين .

وقد سرد عليه السفير -بصدق- كل الأمور ، فرضي الملك ، فلما انتهت المناقشات بينهما طلب منه الملك أن ينصرف ولا يزعج نفسه لأنه سيفعل كلَّ ما يريده ، لكن حقيقة الأمر هي أنّ الملك الصيني لم يكن راغباً في الوعد بمساعدة ملك ملقى لأنه كان قد عقد العزم على الدخول في صداقة مع ملك البرتغال وقائده أفونسو دلبوكيرك وعلى أن يرسل من طرفه مبعوثين يزورونه نظراً للأخبار الطيبة التي سمعها عنه ولمعاملته الطيبة للصينيين الذين وجدهم في ميناء ملقى ولرغبته في فتح باب التجارة في بلاده أيضاً . وأحد الأسباب التي شجعت ملك الصين على انتهاج هذه السياسية هي شكوى التجار الصينيين من طُغيان ملك ملقى وظلمه لهم في تجارتهم عندما كانوا في بلاده .

وقضى مبعوث ملك ملقى فترة طويلة في البلاط الصيني دون أن يلقى إجابة لطلبه وماتت زوجته في هذه الأثناء ، وبعد عدة أيام أتاه جواب الملك عن طريق بعض الرسْميين في البلاط يعتذر فيه عن تقديم العَوْن المطلوب منه مقدماً أسباب ذلك ، وكان السبب الرئيسي هو انشغاله بالحرب مع التتار Tartars . فرحل مبعوث ملك ملقى على الفور وعندما وصل إلى مدينة جانكويلو Janquileu مات كمدا حزناً لفشل مهمته ولموت زوجته ، وكان قد أوصى ببناء مسجد صغير في ضواحي المدينة حيث تم دفنه في قبر تحيط به سنادات مثلثة الشكل ، وكان قد أمر أن يُحفر عليها الكتابة التالية :

"هنا يرقد توآو ناسم سفير ملك ملقى العظيم وخاله ، الذي وافته منيته قبل أن يتمكن من الثأر من أفونسو دلبوكيرك أسد لصوص البحر" .

الفصل الواحد والثلاثون

موت ملك ملقى بعد وصوله إلى مملكة باو (بام) وكيف بدأ أفونسو دلبوكيرك في بناء الحصن والكتابة التي أمر بكتابتها على بوابة الحصن بعد إتمامه وما جرى بعد ذلك .

مات ملك ملقى بعد وصوله لمملكة بام Pao' بأيام قلائل ، فقد لاحقت المصائب هذا الملك التّعِسْ وأصيب بالكمد فقد فقَدَ مدينته وزوجته وأولاده وشعبه ، وبعد موته تفرّق المسلمون الذين كانوا قد ارتبطوا به في الغابات وبعد عدة أيام اتجهوا إلى ساحل البحر وأرسلوا يطلبون الإذن من أفونسو دلبوكيرك للعودة إلى المدينة فأذِن لبعض منهم ممن كانوا ذوي نفوذ لأنه وجد من الفائدة وجود مثلهم داخل المدينة حتى لا يُحرِضّون التجار على عدم القدوم إليها فأمر الجاويِّين بالتجمع معاً وأن يأسروا كل المالاويين الموجودين في الغابات ويُعيدوهم ليعملوا في بناء الحصن البرتغالي الذي كان حريصاً على البدء في تشييده ، وإذا كان من بينهم من تصادف واعترف بأنه مذنب في المذبحة التي جرت ضد رجال ديوجو لوبيز دي سيكويرا Diogo Lopez de Sequeira فليلحق به العقاب ، أما الآخرون فلينخرطوا في العمل في بناء الحصن وهم مقيّدون في الحديد .

وبالإضافة لهؤلاء أحضروا إليه ألفاً وخمسمائة عبد لملك ملقى مع نسائهم وأطفالهم فأخذهم جميعاً أسرى للملك د. مانويل لأنهم كانوا مِلْكاً لملك ملقى ، وأمر بتزويدهم بالمؤن عندما يعملون في بناء الحصن البرتغالي على وفق المعتاد

في البلاد فإذا ما تمَّ الاستغناء عنهم تُركوا ليعملوا لحساب أنفسهم ، فقد كانت هذه هي العادة عند خِدْمتهم لملك ملقى وما أنْ تمَّ ترتيب الأمر على هذا النحو حتى أمرهم بنزع الأخشاب من الحصن[1] ليجعلوا منه ظلّة لحماية العاملين وأن يجهّزوا الجير والأحجار ومواد البناء ، ورغم أنْ روي دي أروجو Ruy de Araujo لم يكن يتوقع أن يجد الأحجار الكافية لبناء الحصن ، إلاَّ أنَّ ربنا Our Lord أراد أن يكون للبرتغاليين حصن يحميهم بشكل طيب في هذه المدينة ، وأراد أن يُعبد فيها اسمه ، لذا فقد اكتشف البرتغاليون كميات كبيرة من الأحجار ومواد البناء في بعض المقابر القديمة لملوك ملقى الماضين مطمورة تحت سطح الأرض ، بالإضافة إلى أحجار من المساجد المتهدّمة ، وكانت هذه الأحجار تكفي لبناء حصنيْن لا حصن واحد ، والآن فالأيدي العاملة متوفرة بكثرة للبدء في البناء ، فأمر أفونسو دلبوكيرك بإقامة أساسات متينة على عمق رمح من رماح القتال لإقامة حصن متين ، كما أمر بحفر بئريْن لتوفير مياه الشرب ، وكان هذان البئران موجودين بالفعل وحوافّهما الحجرية مُقامة (المقصود أنه لم يكن مطلوباً إلاّ حفرهما من جديد) .

وحتى يتمكن رجالنا في الحصن من الدفاع معاً عند الضرورة دون أن يتمكن العدو من الفصل بين قواتهم[2] أقام منشآت من أربعة طوابق على طول البحر حتى يتمكنوا بمدافعهم من الدفاع ضد القوات الموجودة على التل المواجة للحصن .

وقد يرى القارىء أنه من الخطأ إقامة حصن في أرض العدو في هذا الموقع الضعيف لكن أفونسو دلبوكيرك لم يجد في كل المدينة موضعاً أكثر ملاءمة لأمن قائد الحصن وقواته من هذا ، ولأنه على طول هذا الحصن يمكن أن تصل إحدى سفننا ذات حمولة مئة طن عند الحاجة . وأطلق على هذا الحصن اسم "المشهور Afamosa" وهو جدير بهذا الاسم على وفق لما ذكره لي كثيرون ممن

---

(١) أنظر الفصل ٢٩ .

(٢) أنظر جـ١ ، فصل ١٥ . (Torre de Menagem)

رأوه ، ولن أذكر تفاصيل بنائه فهي أمور معروفة لدى البرتغاليين ولأن أفونسو دلبوكيرك كان شديد الاعتقاد في العذراء مريم Our Lady فقد أمر بإنشاء كنيسة أطلق عليها اسم "العذراء ذات البشارة*" Our Lady of Annunciation Nossa Senhora da Annunciade . ولتبقى ذكرى من شاركوا في غزو ملقى وتأسيس حصنها فقد أمر بإقامة نُصب حجري كبير نقش عليه أسماء كل الرجال المهمين . لكن البرتغاليين بطبعهم توّاقون للفخر فلم يُريدوا أنْ يميّز أفونسو دلبوكيرك أحدهم عن الآخر ، واعتبروا أنهم جميعاً شركاء في هذا الشرف على قدم المساواه سواء في غزو المدينة أو في إقامة الحصن ، وحتى لا يجعلهم يسخطون وفي الوقت نفسه لا يدمّر ما أقامه ، فقد أصدر الأوامر برفع هذا الحجر (النصب) ليكون فوق بوّابة الحصن ، على أن تكون الأسماء المنقوشة عليه إلى واجهة الجدار (حتي لا يراها أحد) وكتب بالنقش على ظهر الحجر (الناحية الأخرى الظاهرة) الفقرة الواردة في مزامير داوود والتي يقول فيها :

"الحجر الذي رفضه البنّاءون"(١)

"Lapidem Quem reprobaverunt edificantes"

---

* المقصود البشارة بالمسيح .

(١) "Psalm cxviii, 22 (cxvil Vulg)" .

الفصل الثاني والثلاثون

افونسو دلبوكيرك يَسُك النقود في ملقى بناء على طلب ولاة الأمر والناس في المدينة ويُحدِّد قيمتها ، وبقية ما جرى بعد ذلك .

وبينما الأمور في ملقى تجري على النحو الآنف ذكره في الفصول السابقة أتى نيناشاتو Ninachatu إلى أفونسو دلبوكيرك ومعه ولاة الأمر في البلاد وأعلنوا له أنّ الناس يُعانون كثيراً لنقص العُملة وتوسّلوا إليه أن يتكرم ويأمر بإقامة نظام ما للعُملة ، ورغم أن أفونسو دلبوكيرك كان بالفعل يفكر منذ أيام كثيرة في هذا الأمر حتى قبل أنْ يطلبوه منه إلاّ أنه كان منشغلاً في بناء الحصن طوال الوقت لذا فقد أجّله حتى تأتي الفرصة المناسبة حيث يكون أقل انشغالاً ، والآن فلأن الأسباب التي قدموها له تجعل هذا الأمر عاجلاً إذ لا يمكن للناس تحسين أوضاعهم دون عُملة ، لذا فقد أمر بتنظيم سك العملة بسرعة لأن في ذلك أيضاً ميزة ملكية للملك د. مانويل وتخليداً لنصره في هذه المملكة التي ضُمت للبرتغال حديثاً ، ولأنه –أي أفونسو دلبوكيرك– يملك صلاحيات الملك البرتغالي في هذا الأمر(١) ، ولرغبته في سحب عُملة المسلمين واجتثاث جذورهم وذكراهم من البلاد كذلك .

أمّا وقد عقد العزم على ذلك ، فقد أمر باجتماع كل التجار وولاة الأمر وأولي الشأن في المدينة وراح يناقشهم في هذا الأمر الذي طلبوه منه فوافقوا على

(١) "Maimonides Gezelah,5 "ubicunqua numisma alicujus regis obtinet, illic regem istum pro domino agnoscunt" quoted by Farrar, Life of Christ, II, 232, n .

رأي القباطنة والقادة البرتغاليين الذين كانوا حاضرين في هذا الاجتماع وهو ضرورة إقامة نظام للعملة وأن يكون من العملة التي قيمتها كيكسان[1] two Caixes والمسكوكة من القصدير والتي كانت تصدر باسم ملك ملقى ، ولابد أن تُسك عملة أخرى برسم الملك البرتغالي د. مانويل[2] ... with the sphere of أطلقوا عليها اسم الدينار* dinheiro "ومعناها : نقود" وعملة أخرى أكبر حجماً تساوي القطعة منها عشرة دنانير dinheiro وأطلقوا عليها اسم صولدو[3] Soldo وعملات أخرى تزن القطعةُ منها عشرة صولدات وأطلقوا عليها اسم باستاردو bastardo ، وطلبوا أن تُسك كل هذه العملات من القصدير المتوفر في أرض ملقى وأن تكون مناجم هذا المعدن ملكاً من ممتلكات التاج تابعة للملك البرتغالي .

ونظراً لأنه لم يكن في ملقى أية عملات ذهبية أو فضية وإنما كانت التجارة تَتِمّ بالمقايضة ، فقد اتفقوا على ضرورة وجود هذه العملات (الذهبية والفضية) . وبعد جدال وخلاف حول قيمة هذه العملات وُجد من الملائم في أعين الجميع أن العملة الذهبية يجب أن تُساوي ربع تنديا tundia وهي التي تساوي عندنا (البرتغاليين) ألف ري reis وأطلقوا على هذه العملة اسم "الكاثوليكية Catholi-co" أما العملة الفضية فقد استصوب التجار أن تكون هي عملة بيجو Pe'gu التي هي على نحو ما أقل من العملة القشتالية Castelete لكن الآراء اختلفت حول هذا الموضوع من الجانبين ، فأمر أفونسو دلبوكيرك بسك هذه العملة من الفضة التجارية حتى إذا ما رغب ملوك البرتغال في إرسال فضّة للبيع في ملقى نظراً لقيمتها العالية ، فقد لاقت رواجاً .

ورغم أنّ القيمة العالية للفضة لم يكن في صالح التجار إلاّ أنهم وافقوا على رأي أفونسو دلبوكيرك ووافقوا على أن يُطلق على هذه العملة اسم "الملقاويه Malaqueses" وأن تكون قيمتها هي قيمة ربع تانديا Tundia ، حتى يتم وقف تداول عملة المسلمين فوراً وبخاصة تلك العملة القصديرية التي كانت أكثر

(١) أنظر الفصل ١٧ .

(٢) Espera, Vol. II, P. 129.

(٣) "Cf. Lat. Solidus,Fr. sou" .

شيوعاً في البلاد أمر أفونسو دلبوكيرك بإنشاء دار للسك وأن يسلّم كل من لديه عملة ملك ملقى عملته إلى دار السك ، ومن لم يفعل تعرّض لعقوبة الإعدام فتم تسليم كميات كبيرة منها خوفاً من العقاب حتى أن مسئولي السك لم يستطيعوا إنجاز العمل بسرعة ليلاحقوا هذا الفيض في عملات ملك ملقى الذي تسلموه ، وفي وقت وجيز تم إعادة سك كميات كبيرة من العملات الذهبية والفضية والنحاسية[1] وعندما علم أفونسو دلبوكيرك من المسئولين بالكميات الهائلة من

---

(١) Correa's description of the coinage differs in some respects from this text. He says:- "Em Malaca nom corria nenhuma moeda d'ouro nem do prata, proque todo se compraua, e vendia, as mercadorias humas a troqo d'outras, e as miudezas do bazar de comer se compraua'o per huma moeda d'estanho, a que chamauao calayus. O Gouernador mandou laurar d'esta moeda assy miuda, e outra de dez soldos, a que pos nome bastardos, e de hum lado a espera e de outro hum A grego. Fez moeda d'ouro de valia de mil e corenta reaes, e n'ella huma mea fegura de Rey com coroa, e huma espada na ma'o, e letras que dizia'o derrador, COM ESTA CONQUISTADA E GANHADA, e da outra parte o escodo das quinas, e letras derrador que dizia'o, GLORIA PERA SEMPRE MEMORIA. A esta moeda po's nome catolica, e d'esta fez meos catalicos de preco de quinhentos e vinte reaes a que po's de huma parte a espera com letras que dezia'o, ESPERA EM DEOS PERA MAIS, e da outra banda o A grego, e letras que dizia'o, O ESCRAVO GANHA PERA O SENHOR. Estas moedas lauradas era'o muy fermosas, de que mandou laurar huma soma. E fez moeda de prata de setecentos e vinte reaes, de huma banda as quinas sem coroa, e da outra banda espera com as mesmas letras, que chamou reaes brancos, e meos reaes, "-Tom, ii, p. 256. From this extract we get the following values :-

10 Soldos - 1 Bastardo (pewter).

1.040 reaes = 1 catholico (gold).

520 reaes - 1 half Catholico (gold).

720 reaes = 1 real branco, i.e., white real (silver).

SCHEME OF THE PONTUGUESE COINAGE OF MALACA,

deduced from the foregoing text.

PEWTER.

2 Caixes, or Cash - 1 espera - 1 Dinheiro.

10 Dinheiros - 1 Soldo.

10 Soldos - 1 Bastardo.

SILVER.

1 Malaquese - 1 Tundia.

GOLD.

1 Catholico - 1 Tundiu - 1000 Reis (Portuguese).

العملات التي تلقوها أمر بعقد اجتماع مع ولاة الأمر في البلاد وأخبرهم أنه كان قد أصدر أوامر بسك كميات كبيرة من النقود بناءً على مشورة الجميع وأنه كان من الضروري تعميم إعلان في المدينة بشأن تغيير العملة توقيراً لسيده ملك البرتغال وملكه ، فوافقوا على أنه في صباح اليوم التالي لابد من الإعلان عن تغيير العملة ولابد أن يجتمع كل أولي الشأن ويتخذوا طريقهم إلى الحصن حيث يكون أفونسو دلبوكيرك وكل القباطنة والقادة وذوي الرتب وحاملي ألقاب الفروسية ، ليبدأوا من هناك موكباً على النسق الآتي :

في المقدمة أحد حكام المدينة الرئيسيين راكباً فيلاً بكل دروعه ومغطىً بالحرير ، حاملاً في يده علم القوات المسلحة لملك البرتغال يرفرف فوق رمح طويل ، وخلفه يسير الناس على الجانبيْن مشكِّلين موكباً ، وفي الوسط أحد المسلمين راكباً فيلاً آخر مغطى بالحرير أيضاً ، وخلفه حملة الأبواق ، ثم يسير بعد ذلك حكام المدينة وكل التجار وأولو الشأن وخلف هؤلاء أنطونيو دي سوزا Antonio de Sousa ابن جوآو دا سوزا Joa'o da Sousa وهو من سانتاريم of Santarem ، وابن نيناشاتو Ninachatu ، كل منهما على فيل من الأفيال التي كانت مخصصة لركوب ملك ملقى وأن يكون كل فيل من هذين الفيلين مزيناً بالأقمشة المطرزة وأمر أنْ يكون معهما كميات كبيرة من العملات الذهبية والفضية والنحاسية لينثروها على رؤوس الناس على وفق طريقة الإعلان التي إعتادها المسلمون . لقد ازدحم الناس ازدحاماً شديداً حتى ضاقت بهم الشوارع ، وراحوا يُغَنّون وينفخون في الأبواق على وفق لعاداتهم ، وامتدح الناس أفونسو دلبوكيرك لإصداره الأوامر بتوزيع هذه النقود عليهم بناء على مشورة أهل البلاد .

وبعد الاحتفال بهذه المناسبة استأذن البيجو Pe'gus أفونسو دلبوكيرك ليعودوا إلى بلادهم فأذِن لهم وأظهر لهم كثيراً من المعاملة الطيبة والتكريم مما جعلهم مسرورين وشكروه شكراً جزيلاً لموقفه منهم عندما أصدر أوامره بنهب المدينة فلم يسمح بسلب ممتلكاتهم ، ولم تكن ممتلكاتهم في الحقيقة قليلة إذ

كانت تبلغ قيمتها ألف متِك[1]* miticues من ذهب ، غير كميات من الذهب والفضة التي تم إبطالها .

وعندما تركهم أفونسو دلبوكيرك وعدوه أنهم سيعودون بسرعة لهذا الميناء بكثير من البضائع وسيعملون على إحضار ينك (نوع من السفن) كبير جداً كان يجري بناؤه في بلادهم لحساب ملك ملقى ، وترك هؤلاء البيجو في ملقى أحد أبناء المرشد وهو شاب من سلالة طيبة وتركوا معه مئة من أبناء جلدتهم (البيجو) ليعلم البرتغاليين لغة بلاده وكان توّاقاً لرؤية كل شيء ، وكان السبب الرئيسي لبقائه هو أن يرى حصننا وقد اكتمل ، وراح دائماً يعمل مع رجاله في بنائه ، وقد أمر أفونسو دلبوكيرك بالدفع لهم لقاء عملهم .

وفيما يتعلق الذهب الذي ذكرت آنفاً أنه يأتي إلى ملقى فإن أغلبه يأتي من منجم ميناماكابو Menamcabo الواقع في الطرف الجنوبي لجزيرة سومطرة على مسافة رحلة قوامها ستة أيام كما يأتي من مملكة بام (باو "Pa'o") أيضاً ، ويوجد ذهب في كل الجزر المحيطة بملقى لكن بكميات قليلة . ويجلبه إلى ملقى الجوريون Gores والصينيون أيضاً. أما الفضة فتأتي من مملكة سيام Sia'o ومن مملكة بيجو Pe'gu حيث يُوجد كثير من المناجم وهي من نوعية جيدة كالفضة القشتالية Castelete .

---

(١) يعتبر ركت Roquette الذي قدم لنا كتابات مختلفة :

(Matical) و (metical) و (medegal) و (metigal) أنه وزنة آسيوية تساوي درهماً (drachm) ونصف الدرهم تستخدم لوزن اللؤلؤ والعنبر .. إلخ .

وقد وصف بلوتو هذا الماتيكال (بفتح الميم "Matical" أو بكسرها "Metical") كعملة أو وزنة من ذهب كانت شائعة في موزمبيق وكانت تساوي ٤٨٠ ري (reis) على وفق لما قاله (Joa'o dos Santos) في كتابه (E thiopia, fol. 53, Col.3).

"quatorze maticaes que sa'o seis mil e seis contos reis"; from this latter passage we may deduce nearly 472 reis to the metical. Under metical, Bluteau quotes two passages from Portuguese au thors : (i) Joa'o de Barros, Decada i, 68, 2, to the effect that 30 meticals are equal to about 14.000 reis. This would give only 466 1/2 reis to the metical. (ii) Damia'o de Goes, fol. 23, c. 4, that each metical is worth 240 reaes da nossa moeda. If the real is equal to two reis, this value of the metical agrees with that assigned to it above by Joa'o dos Santos.

* لعلّها من مثقال العربية .

الفصل الثالث والثلاثون

التجار والمسلمون ذوو الشان في ملقى يشكون إلى أفونسو دلبوكيرك طغيان أوتيموتاراجا وكيف أنه جمع في قبضته كل المؤن ، ومارس أموراً أخرى كثيرة ذكروها له .

بعد أن قام الحصن البرتغالي شامخاً يمكن منه الدفاع ضد الأعداء ، لم تمض بضعة أيام حتى راح أهل البلاد يأتون من وقت لآخر يشكون لأفونسو دلبوكيرك أفعال أوتيموتاراجا Utemutaraja ويقولون إنه يُدبّر أمورا تنطوي على الخيانة وإنه متحالف مع الملك علاء الدين الذي خلف والده الذي مات في مملكة بام (باو "Pa'o") كما ذكرتُ آنفاً ، بهدف القيام بثورة ضد البرتغاليين ، وكي يُدلِّلوا على قولهم هذا بأبلغ دليل قدَّموا لأفونسو دلبوكيرك خطاباً كتبه أوتيموتاراجا للملك علاء الدين وإجابة هذا الأخير (الملك علاء الدين) .

وكان فحوى هذا الخطاب الذي أرسله أوتيموتاراجا أنه يعتذر عن صداقته لأفونسو دلبوكيرك والطاعة التي يُبديها له معلّلاً بمختلف الأسباب سلوكه هذا ، ويقدم عرضاً لهذا الملك أن يكون هو ورجاله طوع أمره إن كان مصمّماً على مهاجمة المدينة (ملقى) وأنه سيكون هو وممتلكاته وأهل بيته وأقاربه وأصدقاؤه مشاركين في هذه المهمة ذاكراً إن قوّاتنا قليلة . وقد احتفظ أفونسو دلبوكيرك بفحوى الخطاب في طيّات نفسه ولم يُبْده لأيٍّ شخص وراح منذ ذلك الوقت يبدي لأوتيموتاراجا كثيراً من النوايا الطيبة واعتبر أوتيموتاراجا ذلك شيئاً طيباً من أفونسو دلبوكيرك ولم يدر في خلده أبداً أن أفونسو دلبوكيرك على علم

بالخيانة التي هو متورّط فيها ، فبدأ يتصرف بشيء من الوقاحة في حكمه للمناطق التابعة له وسمح للمسلمين الذين يعيشون في منطقة دوب Dupe التي يحكمها بتداول العملة السابقة (التي ألغى أفونسو دلبوكيرك تداولها) ومنع عملتنا (البرتغالية) من التداول . ورغم أن أوتيموتاراجا كان حاضراً بشخصه وبصفته الرسمية عندما تمت الموافقة على سك هذه العملة البرتغالية ، إلاّ أنه لا هو ولا ابناؤه ولا أحفاده ولا أقاربه حضروا موكب الإعلان الرسمي بصدور هذه العملة ولم يُقِم أفونسو دلبوكيرك وقتها وزناً كبيراً لاعتراضه لكنه راح يتعامل معه بحذر وراح يُهدِّىء المسلمين الذين يأتونه شاكين من لصوصيته ، إذ إنّه يرسل رجاله في جماعات صغيرة حول المنطقة ليسلبوا العائدين للاستقرار في المدينة (ملقى) رغم الأمان الذي منحهم إيّاه أفونسو دلبوكيرك ، ولم يكتفِ أوتيموتاراجا بذلك ، فأصدر أوامره بالقبض على عبيد الملك والماندارين Manda-rins الذين كانوا تابعين لـه وكذلك العبيد الذين كانوا مملوكين للتجار ، وبدأ يتملك بعض المناطق في الداخل والتي هجرها حكام ملقى عندما هربوا مع الملك ، ولم يستطع أحد إجباره على التخلّي عمّا استولى عليه .

ولأن التجار والناس في المدينة قد أتوا مرة أخرى إلى أفونسو دلبوكيرك ليجأروا بالشكوى ضد أوتيموتارجا وأيضاً لأنه كان قد اعترض سبيل كل حمولات الأرز التي وصلت ولم يسمح لأي تاجر بشراء قدر منها وذلك ليحتكر هو تجارة الأرز مما أدى إلى ندرة المعروض منه –لكل هذا فقد أرسل أفونسو دلبوكيرك إليه– عن طريق روي دي أروجو Ruy de Araugo –ليُفاوضه كسباً للوقت ذاكراً له أن بعض التجار يشكون من سوء حكمه للمناطق التابعة له لكن لابد أنّ ذلك على غير أساس لأن التجار طبقة صعبة المراس يصعب إرضاؤها ، ومع هذا فهو (أي أفونسو دلبوكيرك) يرجوه أن يتكرم بإصدار الأوامر بإجراء تحقيق في هذه الأمور . ولم يُبالِ أوتيموتاراجا إلاّ قليلاً بهذا التلميح لإصلاح تصرفاته لدرجة أن أفونسو دلبوكيرك أرسل له مرة أخرى يذكر أن

أحد النـــير[1] Naire الذين دخلوا في المسيحية وكـــان يشغل منصب الميرينهو[2] Meirinho كان يسير في منطقة (ولاية) دوب Dupe ، فأمر (أي أوتيموتاراجا) بالقبض عليه وعندما قال هذا الميرينهو[2] بلطف أنه لابد أن ينظر في عواقب عمله (لأن هذا الشخص كان مسيحياً وليس تابعاً لحكمه) وأنه (أي الميرينهو) إذا أتى (الميرنهو) عملاً خاطئاً فما عليه إلاّ كتابة تقرير بشأنه إلى أفونسو دلبوكيرك الذي سيأمر بعقابه عقاباً شديداً ، لكن أوتيموتاراجا لم يُجب ولم يُسلّم هذا النيري وإنما بدأ منذ ذلك الوقت يُقيم استحكامات قوية في منطقة دوب Dupe وأحاطها بالخنادق .

وقد لاحظ روي دي أروجو Ruy de Araujo هذه الاشارات الواضحة التي تعبر عن وقاحة أوتيموتاراجا فعاد إلى أفونسو دلبوكيرك وسرد عليه كلَّ ما حدث ولم يكن أفونسو دلبوكيرك على وعي بأبعاد كل هذه الأمور بشكل كاف ، وقال روي دي أروجو أنه إذا لم يتم اخماد هذا الجاوي (أوتيموتاراجا) فوراً وإلى الأبد فإنه متأكد أنه حالما يُبحر البرتغاليون عائدين إلى الهند سيسبب مشاكل لا حصر لها للقائمين في الحصن وقد أدلى بهذه الآراء نفسها لأفونسو دلبوكيرك تجارُ المدينة الذين توسلوا إليه بشدّة ألاّ يرحل من ملقى إلاّ بعد طرد أوتيموتاراجا من البلاد ، لأنه خائن وشرير وكان دائماً خصماً مناوئاً لملك ملقى الذي وافته المنيّة وأنه انخرط عدة مرات في العمل على قيام ثورات ضده (أي ضد الملك الذي مات) وقال هؤلاء التجار إنهم لن يَجْسروا على البقاء في البلاد إن استمر فيها أوتيموتاراجا Utimutaraja وقدّموا بين يديْ دعواهم أسباباً كثيرة معقولة وذكروا أن أوتيموتاراجا ليس مجرد رجل كبير هَرِم السن ومن عائلة عريقة وأن كثيرين في هذه البلاد يعتبرونه موضع ثقة وإنما هو أيضاً رجل ذو أولاد كثيرين وأحفاد كثيرين وثراء عريض وأتباع وخدم لا حصر لهما . وبالإضافة لكل هذه الأدلة التي ساقها التجارُ أمام أفونسو دلبوكيرك ، فقد كان هو نفسه لديه معلومات مؤكدة تُفيد أن السبب الرئيسي الذي جعل هذا الجاوي

(١) انظر جـ١، فصل ١ .

(٢) وظيفته منع الجرائم والتصرفات المعيبة .

(أوتيـموتاراجـا) يفـعل مـا فـعل هو أنه لم يتـحملٌ أن يكون الكويلين Quilins والشـيتـيم Chitims –وهـم هندوس– غيـر خـاضـعين لحكمه ، وإنمـا لهم حـاكم ونظام قضـائي خـاص بهم ويـخضـعون لحكم نيناشاتو Ninachatu الذي يُسـيِّر أمـور حـكومتـه على وفق العـادات والتـقاليـد الهندوسـيّة . وثمّـة سبب آخـر أثار أوتيموتاراجا Utemutaraja وهو أنّ أفونسو دلبوكيرك كان يعطف كثيراً على التجار الهندوس ويوليهم عنايته لأنهم أكثرُ خبرة بالأمور التجارية وأكثرُ ثراء من المسلمين ونوو ممتلكات أوسـع ، ويمسـكون بين أيديهم بكل تجـارة وأعمـال ملقى كما أنهم كانوا ملتزمين بالعمل على استقدام أغنى ستمائة أسرة في كروماندل Choramandel للعيش في ملقى ، فكان تفضيل أفونسو دلبوكيرك للهندوس من ناحية وعمله على اجتثـاث جذور المسلمين من ملقى من ناحية أخرى هو سبب تحالف أوتيموتاراجا مع الملك علاء الدين للقيام بثورة ضد شعبنا (البرتغاليين) .

الفصل الرابع والثلاثون

أفونسو دلبوكيرك الكبير يتلقّى ما يؤكّد تآمر أوتيموتاراجا ضده ، فيصمّم على القبض عليه وعلى ابنه وزوج ابنته ، وما جرى مع زوجة أوتيموتاراجا ، وغير ذلك .

لقد أصبح أفونسو دلبوكيرك الكبير واعياً بمؤامرة أوتيموتاراجا التي تحالف فيها مع الملك علاء الدين والهادفة إلى التمرّد عليه ، كما كان لديه معلومات تُفيد أنه اشترى كل الأرز الموجود في السوق والذي يمثل مادة الغذاء الأساسية لسكان المدينة ، لكنه -أي أفونسو دلبوكيرك- كان يخشى أن يؤدّي ذلك إلى اضطرابات كثيرة إنْ هو تحمّل أفعال أوتيموتاراجا أكثر مما تحمّل بالفعل ، لذا فقد صمّم على القبض عليه وعلى ابنه وزوج ابنته وحفيده[1] فهيأ الأسباب عدة مرات للاجتماع بهم لإستشارتهم في أمور حكومة البلاد ، لكنهم كانوا دائماً يختلقُون الأعذار لعدم الحضور في الوقت الذي بدأ فيه أفونسو دلبوكيرك يستاء أكثر من ذي قبل ، ومع هذا ظل يُصانعه ويرائيه ويُخفي مشاعره نحوه .

لكن عندما حان وقت رحيل أفونسو دلبوكيرك إلى الهند ، ورأى أن هذا الأمر لا يمكن أن ينتهي إلاّ بعمل عسكري مكشوف على نحو ما ، أخفى نواياه الحقيقية وقال لخوجه إبراهيم[2] وهو مسلم من فارس كان صديقاً حميماً لأوتيموتاراجا Utimutaraja ، وكان يطلب منه (أي من أفونسو دلبوكيرك)

(١) "Tinha elle hum filho valente caualleiro, e tinha hum seu genro, casado com huma filha, de que tinha hum neto valente caualleiro, todos homens muy poderosos e riqos" Correa, p. 258.

(٢) Coge Abraham أي الريّس إبراهيم . عن معنى خوجة أنظر جـ١ ، الفصل ٦٠ .

باستمرار أنْ يوكل إليه منصباً رسمياً هو منصب حاكم الميناء ومشرف البحر (كويتول "Quitoal")[1] وكان أفونسو دلبوكيرك مصمماً ألا يوكل مناصب حكومة المدينة لأي شخص دون استشارة نوي الحيثية من سكانها ، فإن وافقوا عيّنه في هذا المنصب في حضورهم .

وقد رأى خوجة إبراهيم تحقيقاً لطموحه أن يعمل على إحضار أوتيموتاراجا وابنه وأقاربه الآنف ذكرهم إلى الحصن حيث يوجد أفونسو دلبوكيرك مع كل القباطنة والقادة البرتغاليين فلما وصلوا أمر بنزع أسلحتهم على الفور دون إجراء أي حوار معهم وأمر روي دي أروجو Ruy de Araujo أن يقرأ أمام الجميع تهماً بعينها موجّهة ضد أوتيموتاراجا وابنه وزوج ابنته وحفيده مُفادها أنهم يعملون ضد مصالح سيدهم د. مانويل ، بالإضافة لعرضه للخطاب الذي كتبه أوتيموتاراجا للملك علاء الدين .

واعترف أوتيموتاراجا ببعض التهم وأنكر أخرى أما بالنسبة للخطاب فقد قال إنه فعلاً قد كتبه لكنه لم يكن يقصد الثورة ضد أفونسو دلبوكيرك وإنما يريد أن يُوقع بالملك (علاء الدين) بين يديه ، أما بالنسبة للأرز الذي قالوا أنه اشتراه واحتكره فهو فعل ذلك بالفعل لتحقيق أرباح فذلك عمله الذي يرتزق منه ولم يفعل ذلك لأي هدف آخر ، وكل ما في الأمر أن الهندوس حاكوا مؤامرة ضده بسبب ما يكنّونه له من ضغينة حتى لا يأخذ نصيباً مما يختلسونه .

ولما انتهت أقواله أمر أفونسو دلبوكيرك بإيداع الأربعة سجناء في القبو وإحكام الرقابة عليهم كما أمر بتحطيم الاستحكامات التي أقامها -أي أوتيموتاراجا- وسد الخنادق التي حفرها ، كما أمر بيرو دلبوم Pero Dal-poem الذي كان يشغل منصب الأوفيدور[2] (قيّم العدالة أو كبير القضاة) بكتابة مذكرة قانونية عن أفعاله وصياغة خطاب قانوني ضده . وحالما علم

---

(١) حاكم الميناء ابن البحر ، على وفق لما نكره كوريا . يقول كوريا

"Que andaua em requerimento com O Gouernador que o fizesse gozil e guarda do mar"

. Chief magistrate (٢)

التجار وذوو الحيثية أن أفونسو دلبوكيرك قبض على أوتيموتاراجا وابنائه أتوا ليطلبوا استرداد ممتلكاتهم الكثيرة التي اغتصبها منهم هذا الأمير . فأصدر أفونسو دلبوكيرك إلى قيمّ العدالة (الأوفيدور "Ouvidor") بأن يُعادلهم كل ما يُبَرْهنون على أنه (أوتيموتاراجا) سلبه منهم ، ومن بين ما أمر بإعادته خمسمائة عبد كان قد استولى عليهم بالقوة . وبعد إعداد كل الصيغ والإجراءات القانونية أصبح الجميع في انتظار النطق بالحكم فأمر أفونسو دلبوكيرك باجتماع كل القباطنة والقادة وطلب من قيمّ العدالة (الأوفيدور) في حضورهم أن يقرأ التهم بجرائم الموجهة إلى السجناء الأربعة ، فحكموا بضرورة قطع أعناقهم[1] .

وحالما تم النطق بهذا الحكم أمر أفونسو دلبوكيرك بإقامة سقّالات هائلة مرتفعة في وسط ميدان المدينة حتى يشهد كل الناس تنفيذ حكم الإعدام فيهم .

وعندما علمت زوجة أوتيموتاراجا Utemutaraja أن زوجها وأبناءها حُكم عليهم بالموت أرسلت إلى أفونسو دلبوكيرك أحد الجاويين واسمه بيتكوتيير Pat-equitir طالبة الرحمة والصفح عن زوجها وأولادها ووعدت أنها ستأخذهم بعيداً لتعيشَ في بلدها (لأنها كانت جاوية) لأنها لم تكن أبداً سعيدة في ملقى ووعدت بأنها ستدفع مقابل ذلك تكاليف بناء الحصن (البرتغالي) سبعة باهارات ذهباً Bahares في كل باهار أربعة قناطير[2] فأجابها أفونسو دلبوكيرك أنه ليس من عادة البرتغاليين أن يبيعوا العدالة بالذهب ، وأنه من ناحيته آسف جداً لأنه وجدهم مذنبين فأنفذ حكم العدالة فيهم ولكنه سيأمر بتسليم جثثهم لتدفن على وفق طريقتهم في الدفن . وبعد أن تمت إقامة السّقالات الخشبية أمر قيم العدالة

---

(١) (Julga'ram que morressem morte natural;)

(٢) Correa's account of this proffered gift involves a curious typographical error in his text. The passage is as follows :-" E por ysso daria'o sete ba'res d'ouro e meo, que era'o trinta quintaes, por cada hum dez," p. 260. "And they would give seven and a half ba'res of gold, which was thirty quintals, for each one ten"; a manifest error for four.

The Quintal is equivalent to four Arrobas, or 58.7428 Kilo, French. Vieyra's description of the Bahar is somewhat confused. He gives three values, 386 lbs. avoird, 625 lbs. for different Eastern localities. Bluteau qoutes a passage from Damia'o de Goes, fol. 60, col. 3,......."Que faz cada Bahar tres quintaes, tres arrobas, e desoute arrates do nosso peso".

(الأوفيدور) بتنفيذ الحكم وأن يصحبه عدد كبير من الحرس وعدد كبير من الجنود المسلحين لأن المجرمين المحكوم بإعدامهم ذوو شأن في البلاد ، وعندما صعد المتهمون فوق السقالات أراد المنفذون تنفيذ الحكم في الأولاد أولاً فقال لهم أوتيموتاراجا أنه يُريد أن يتم إعدامه هو أولاً فهو رجل كبير السن ولا يتحمل أن يرى أولاده يُعدمون . وظلت جثثهم مطروحة منذ الصباح حتى المساء يراها كل أهل المدينة الذين لم يكونوا ليصدِّقوا أنَّ مثل هؤلاء يُعدمون .

إن مشهد إعدام هؤلاء المسلمين لم يكن ليتم إلاّ بإذن خاص من الله ، ففي هذا الميدان نفسه الذي أمر أفونسو دلبوكيرك بتنفيذ الإعدام فيه بسيف عدالة ملك البرتغال ، صمّم ملك ملقى منذ عامين على قتل رئيس القباطنة ديوجو لوبيز دي سيكويرا Diogo Lopez de Sequeira وكل من صحبه إلى مأدبة تم إعدادها لهم ، لولا أن امرأة من جاوه سبحت ليلاً إلى السفن لتحذر واحداً من البحارة البرتغاليين كان صديقاً لها[1] . وبعد أن أقامت زوجة أوتيموتاراجا مراسمَ الدفن على هذه الجثث الشيطانية أعطت لبيتكوتير Patequitir سبع متكات (miticaes) أو ثمانية ذهباً وطلبت منه أن يجمع كل عبيدها الكثيرين وأن يثأر لها من الكويلين[2] Quilins والشيتين[3] Chitins الذين كانوا سبباً في موت زوجها وأبنائها .

وعندما علم أفونسو دلبوكيرك بذلك أقبل برجاله وانقض على هذه المجموعة وقتل منهم عدداً كبيراً في شوارع المدينة فلما وجد بيتيكوير Patequitir أنه قد أُحيط به وأنه لا طاقة له بتنفيذ ما طُلب منه ، أخذ زوجة أوتيموتاراجا وحمل كلّ ما استطاع حمله من الممتلكات وأوْغل في المناطق الداخلية وأشعل النار في عدد كبير من مساكن الشيتين Chitins والكويلين Quilins واستمر على هذه الحال عشرة أيام أو اثنى عشر يوماً ، فلما وجد ألاّ جدوى مما يفعله أرسل يطلب الأمان من أفونسو دلبوكيرك فمنحه إياه لكنه لم يعد إلى ملقى .

وأوتيموتاراجا جاوي بالميلاد وكان هندوسياً لكنه أسلم منذ مدّة طويلة ، وكان

(١) انظر جـ٢ ، فصل ١٧ .

(٢) Aquellas corpos da Satanda's .

(٣) انظر فصل ٣٢ (أواخره) .

من عائلة متواضعة وبلغ من العمر وقت إعدامه ثمانين أو تسعين عاماً وكان قد أتى إلى ملقى فقيراً وعاش فيها قرابة خمسين عاماً . وقد ازدهرت حالته لاشتغاله بالتجارة واصبح ثرياً جداً . وكان معتزاً بنفسه طاغية جداً ، لا يَقَر له قرار نزَاعاً للثورة ، وكان هذا هو حاله وقت حكم الملك محمد ، وكان يحظى بسلطة ونفوذ كبيرين في ملقى ، ولولا التخلص منه لكان من المؤكد أن يسبب لنا (البرتغاليين) مشاكل لا حصر لها . لذا فقد كان أفونسو دلبوكيرك يردّد مراراً عندما لاحظ استقرار الأمور في ملقى بعد قتل أوتيموتاراجا Utemutaraja أنه (أي أفونسو دلبوكيرك) لو نفّذ هذه السياسة نفسها في هرمز مع خوجة عطار لما تمرّد ضدّه أحد ولما راح كثيرون يمارسون معه الخداع والدّجل .

أما ابن أوتيموتاراجا الذي قُتِل معه فقد كان هو الذي حمل خنجره ووقف مستعداً لقتل ديوجو لوبيز دي سيكويرا . وكان هذا القائد الذي عينه ملك ملقى بعد سقوط ديوجو لوبيز لمحاصرة السفن البرتغالية بقواته الكثيرة والتابعين لأبيه ، لكن ربنا Our Lord أراد وقتها ألاّ يعاقبه لكنه -ربنا- أراد من ناحية أخرى أن يدفع ثمن ما اقترفت يداه فنال جزاءه وتم إعدامه .

الفصل الخامس والثلاثون

كيف وصل دوارت فرناندز والصينيون الذين حملوه معهم إلى أوديا Udia' – حيث يعيش ملك سيام (سياو) ، وتقديمه رسالة افونسو دلبوكيرك ، وكيف أرسل إليه ملك سيام سفيراً .

عندما أبحر دوارت فرناندز Duarte Fernandez من ملقى بصحبة قبطانيْن صينيَين حاملاً رسالة من أفونسو دلبوكيرك الكبير إلى ملك سيام (سياو "Sia'o") ، كما ذكرنا آنفاً ، وصلوا في غضون أيام قلائل إلى مصب نهر كبير يؤدي إلى مدينة أوديا[1] Udia' التي يقيم فيها ملك سيام (سياو "Siao") فلما علم الملك من بعض الأجانب بوصولهم أرسل قبطاناً على رأس مئة لنش ليعلم من هم ومن أيٍّ جهة أتوا .

وحالما وصل القبطان إلى الميناء حيث الصينيون سأل دوارت فرناندز عن غرض الزيارة ومن الذي أرسله ، فقال له إنه مبعوث كبير قباطنة ملك البرتغال الذي يتمركز في ملقى بأسطول كبير وأنه يحمل منه رسالة لملك سيام (سياو) فأرسل القبطان السيامي تقريراً بذلك طالباً تعليمات بكيفية التصرف .

وكان ملك سيام على علم بالفعل بوصول أفونسو دلبوكيرك إلى ملقى وكان راغباً بشدة لمعرفة هذا المبعوث القادم من طرفه فأمر بإحضاره فوراً أمامه

(١) Udia' سميها برونن دي لا مارتنيير Brazen de La Martiniere : جوديا (Judia) عاصمة مملكة سيام ، من الاسم المحلّي سي-يو-ثي-يا 'Si-yo'-thi-yo' وتظهر في مخطوطة بدرو بريتو دي ريزندي Pedro Barretto de Re- sende (197, fol. 380) في خريـــطة بيرثوث ١٦٣٥م "Cidade de India, metropolli do Reino de siam" وكيث جونستون في الأطلسي الملكي يجعل يوثيا (Yuthia) أو (Ayuthia) إلى الشمال قليلاً من بنكوك Bangkok ٢٥´ ، ١٤° شمالاً ، ٢٧´ ، ١٠٠° شرقاً .

فركب القائد السيامي مع دوارت فرناندز والقائدين الصينيين في اللنشات وأبحروا صُعُداً في النهر[1] فلما رسوْا اتجه القائد السيامي وكل رجاله مع دوارت فرناندز Duarte Fernandez إلى القصر الملكي حيث كان الملك السيامي ينتظر في قاعة كبيرة كلها مغطاة بالقماش المزركش ومؤثثة بالوسائد والحشيات الغالية ومفروشة بالسجايد ، ومزوّدة بالستائر ، وكان الملك نفسه جالساً على كرسي عال فخم على الطراز الصيني وبالقرب منه ذات اليمين وذات الشمال كل زوجاته وبناته جالسات يَرْفلن في الأقمشة الحريرية المزركشة والحلي من الذهب والجواهر ، وإلى الأدنى منهن ذات اليمين وذات الشمال نسوة أخريات كريمات المحتد يُرْفلن بدورهن في الحرير والديباج والذهب والجواهر . لقد كان المشهد عظيماً جداً . ونساء هذه البلاد قصيرات القامة شيئاً ما لكنهن جميلات . وكان حاضراً في القاعة كل سادة البلاد وقد اتخذوا زينتهم وارتدوا أبْهى الحُلل كذلك .

وبعد أن دخل دوارت فرناندز هذه القاعة انحنى أمام الملك على وفق العادة الهندوسية واتجه إليه وسلّمه خطاب أفونسو دلبوكيرك والسيف ، فتلقّاهما ملك سيام معبراً عن شكره وامتنانه وسأله عن أحوال ملقى وعن ملك البرتغال وعن أحوال بلاده والقوات التي لديه . ولأن دوارت فرناندز Duarte Fernandez كان رجلاً حصيفاً قادراً فقد أحسن إخبار الملك عن كل ما سأل عنه . وعندما انتهى هذا اللقاء صدرت الأوامر للقائد السيامي لصحبه إلى بيته وأن يحتفي بالقادة الصينيين ، وفي اليوم التالي أمر الملك بالتجول به في المدنية ليراها تكريماً له وتمكينه من رؤية الفيل الأبيض الذي اندهش الصينيون لرؤيته اندهاشاً كبيراً وكانوا مستعدين لدفع مبالغ طائلة لشرائه ونقله إلى الصين .

وبعد عدّة أيام ودّع الملك دوارت فرناندز بحفاوة وأرسل في معيّته سفيراً إلى أفونسو دلبوكيرك حاملاً خطاباً إلى الملك د. مانويل وحلقةً مُزْدانة بالياقوت وتاجاً ذهبياً وسيفاً ذهبياً ، وانطلق الركب من مدينة أوديا Udia' حتى وصلوا

---

(١) نهر مينام Menam أنظر فصل ١٧ .

تارانك Taranque بعد سبعة أيام قطعوا فيها مسافة حتى الساحل الآخر لسومطرة ، ومدينة تارانك Taranque تابعة للملك سيام (سياو "Sia'o") ومن هذه النقطة استمروا منطلقين على طول مدنه حتى مياه كاباسيا Capacia الضحلة وعندما وصلوا ملقى وجدوا أسوار الحصن قائمة وجزءاً كبيراً من فتحات إطلاق النار والأبراج قد اكتمل وكثيراً من المدافع قد وضعت في أماكنها ، ووجدوا كل المدينة خاضعة لأفونسو دلبوكيرك .

وعندما رأى القادة الصينيون الحصن وقد انتهى العمل فيه ورضوخ المدينة لأفونسو دلبوكيرك ، وما يرفرف عليها من سلام اعترتهم دهشة شديدة ، إذ أنهم كانوا من قبل يتصوّرون أنّ أفونسو دلبوكيرك ورجاله سيتعرّضون للهزيمة ، لذا فقد خَجِلوا من أفونسو دلبوكيرك أن سفيراً من ملك سيام (سياو "Sia'o") أتى بصحبة دوارت فرناندز أمر القباطنة والقادة باستقباله واستضافه وأكرمه ، فسلّمهُ السفير رسالة ملك سيام ورسالة أخرى مصحوبة بهدية للملك د. مانويل . أمّا الخطاب الموجة لأفونسو دلبوكيرك فكان رداً على خطابه ، ذكر فيه سروره لتلقيه رسالة من أفونسو دلبوكيرك ، وروح الصداقة ، ويعرض عليه نفسه ومملكته لتكون في خدمة ملك البرتغال كما يعرض كلَّ ما هو مطلوب من مملكته من رجال وبضائع ومؤن وأنه يتمنى أن يعقد معه معاهدة صداقة لما سمعه من أفعال عظيمة قام بها البرتغاليون ضد المسلمين وأنه يأمل أن يأخذ له ثأره من الطاغية ملك ملقى (ذلك أن ملك سيام لم يكن قد علم بعد أنْ البرتغاليين قد استولوا على المدينة) .

الفصل ا لسادس والثلاثون

كيف أرسل أفونسو دلبوكيرك سفير ملك سياو وفي معيّته أنطونيو دي ميرندا دي أزيفيدو بتعليمات يتصرف بمقتضاها ، وعن الهدية التي أرسلها عن طريقه .

ما إن انتهى أفونسو دلبوكيرك من لقاءاته مع سفير ملك سيام (سياو "Sia'o") حتى صمّم أن يُرسله مرّة أخرى وبصحبته أنطونيو دي ميراندا دي أزيفيدو Antonio Miranda de Azevedo كسفير برتغالي للملك وأمره أن يُبحر بسفينة من اليَنْك مع الصينيين الذين ينتظرونه (وكان أفونسو دلبوكيرك على وشك الإبحار للهند) وزوّد سفيره هذا بالتعليمات التالية :

"سوف تُعلن لملك سيام (سيام "Sia'o") كيف أن سيّدي ملك البرتغال قد أرسلني إلى ميناء ملقى هذا لمعرفة حقيقة الخيانة التي حاكها ملك ملقى وولاة الأمر في بلاده ضد أحد رؤساء قباطنته ومن معه ، الذين قد أرسلهم (أي ملك البرتغال) لعقد معاهدة صداقة ، وكيف أن ملك ملقى قد قتل عدداً منهم : مع أنه كان قد منحهم الأمان ، وأسر منهم عدداً كبيراً آخر .

"وستقول له إنني بعد أن وصلت لهذا الميناء (ملقى) أرسلت مراراً للملك أطلب منه أن يقدِّم تقريراً عن إجراءاته ، وأطلب منه إطلاق سراح البرتغاليين الذين احتجزهم لديه وأن يقدم الممتلكات الخاصة بهم والتي كان قد استولى عليها . لكن غروره أعْماه فلم يقدم جواباً ولا رغب في عقد معاهدة صداقة أو سلام معي وإنما أبدى تعاطفاً مع مسلمي الهند (الذين كانت لهم سفن في مينائه)

ضد مصالح ملك البرتغال .

"وستقول له إنني لما رأيت تصميمه على غير أساس ، هاجمت المدينة (ملقى) ودخلتها عُنوة وهزمتُ الملك (الذي هرب مصاباً بجرح فقط) وهرب معه رجاله آخذين معهم أفيالهم لكنني حتى لا أُحطّم المدينة عُدت إلى سفني وظللتُ بها مدة خمسة عشر يوماً متوقّعاً أن يُعلن الملك توبته وبخاصة بعد أنْ خَبَر الأرواح الجسورة لمقاتلينا البرتغاليين ، لكنه لم يَرْعَوِ ولم يُقلع عن عزمه بالمخاطرة بدخول الحرب ضدّنا مفضّلاً ذلك على ترتيب اتفاق سلام وصداقة بيني وبينه .

"وستقول له إنني لأقْمَعَ هذا التمرد الذي أبداه ملك ملقى فقد هاجمت المدينة مرة ثانية وقهرتها وقتلتُ فيها خلْقاً كثيراً ، بل وقتلتُ بعض قادتهم ، واستوليت على أفياله وأحرقتُ قصوره لكني عفوت عن شعبه وتجار مملكته حتى لا أدمر المدينة وتجارة البلاد ، وإنني أُحيط ملك سيام (سياو "Sia'o") علما بذلك لأنني أعلم بالتأكيد أنه سيكون سعيداً بسماعه إزاحتي هذا الملك (ملك ملقى) لأنه كان دَوْماً في حالة حرب معه .

"وستقول له ان سيدي ملك البرتغال سيكون في الغاية من السعادة إذا أتى شعب سيام (سياو) بسفنه ليتاجر في ملقى ، وقد كان هذا هو السبب الرئيسي لسعادتي باستيلائي عليها ، وإن لَزِمَتْه أية حاجة لأسطول سيام (سياو) أو جيشها للحفاظ على ملكه فإنني أنا (أفونسو دلبوكيرك) بمثابة قائده العام سأستخدم هذه الأساطيل وتلك القوات في كل ما يأمرني به ."

ومع هذه التعليمات زوّده أفونسو دلبوكيرك بهدية يقدمها لملك سيام (سياو) باسم ملك البرتغال ، وهي بعض الصدريات من المخمل الأحمر ، ودرع طويل ومعه مجموعة أسلحة ، وخوذة متصلة برباط إلى الذقن مزركشة زركشة ثرية ، وترس من جلد[١] ذو مشدّات متقنة الصنع من أشرطة مطرّزة[٢] وجرابات للأسلحة من القطيفة والسّاتان (نوع من الأقمشة) ذوات ألوان مختلفات مُزْدانة

(١) النص البرتغالي : Adarga danta والكلمة Anta على وفق لما يقوله فييرا Vieyra حيوان في جزر الهند الشرقية يشبه البقرة الصغيرة وبدون قرون . وجلده ذو قيمة في صناعة الملابس الجلدية الصغيرة .

(٢) Funda حبل أو شريط يعلّق به الترس على الكتف .

بشرّابات من ذهب . وكانت هذه تخص ملك ملقى وكانت تزين المنزل الخشبي الذي كان زوج ابنته (زوج ابنة ملك ملقى) وهو ملك بام (باو) سينطلق منه في موكب خلال شوارع المدينة(١) ، وطِسْت لغسل الأيدي به مواضع ناتئة(٢) وآنيتان للأزهار ، لكل واحدة منهما مقبضان(٣) وهما متماثلتان تماماً ، وغلاّيتان متقنتا الصنع . وكوبان ذوا نتوء كلها من فضة ، وقوس ونشاب ولوازمهما(٤) وأربعة أفرع من المرجان ذي النوع الجيد ، ويمتاز كل فرع منها بالسّماكة ، لأن للمرجان قيمة كبيرة في هذه البلاد (سيام) وقطعة من قماش قرمزي ، كما أرسل معه هدية لسفير ملك سيام سَعِد بها كثيراً .

وحالما تلقى أنطونيو دي ميراندا Antonio de Miranda خطابات اعتماده التي سيقدمها للملك ركب الينك Junk الصيني فوصل إلى مدينة تارانك Ta-ranque التابعة لملكة سيام في أيام قلائل ، وهناك ترك الصينيين واتخذ طريقه براً على ظهور الجياد وثيران الجر حتى وصل إلى مدينة سيام (سياو) فاستقبله الملك استقبالاً كريماً .

ومملكة سيام مملكة غير عريضة (ضيّقة) تقع على ذلك الجانب الذي يُبحر فيه الصينيون ، وبها عدة موانيء وقرى ، ومن ذلك المكان يتم الوصول إلى ساحل تنيساريم(٥) Tanacarij وتارانك Taranque وسافياو Savia'o في عشرة أيام ، وعلى الناحية الأخرى من بحر سومطرة يمتلك ملك سيام كثيراً من الموانيء والقرى أيضاً ، وهو يحكم شعباً كثير العدد . وهم هندوس وفي بلاده كثير من التجار المسلمين من أنحاء مختلفة من العالم . وللصينيين منشآت في هذه البلاد لثقتهم في شعبها . وكان ملك سيام في حروب لا تنقطع مع ملك ملقى ، لذا فلم يكن آسفاً لضياع ملكه .

---

(١) أنظر فصل ٢٣ .

(٢) أنظر جـ٢ ، فصل ٤٤ ، حاشية ٣ .

(٣) (Albarradas) .

(٤) (Almazen) .

(٥) (Tanacarij) = (Tenasserim) ´٢ ، ١٢ ° شمالاً ، ´٥٥ ، ٩٨ ° شرقاً .

وهناك كثير مـن الأمور يمكنني أن أرويها عن مملكة سيام هذه لكن هدفي ألاّ أكتب عـن الممالك والبلاد إلاّ مـا كان ضروريـاً لفهم السياق التاريخي لكتابي هذا .

الفصل السابع والثلاثون

كيف أرسل أفونسو دلبوكيرك الكبير سفيري ملكيْ كامبار وجاوه ، وكيف أمر باكتشاف جزيرة مالوكو Maluco .

عندما وصلت الأخبارُ لملك كامبار Campar بهزيمة ملك ملقى وبالأوضاع التي صارت إليها مملكته ، خشي أن يوجِّه البرتغاليون قواتهم الضاربة إلى بلاده ، نظراً لأنه زوج ابنة هذا الملك ، فأسرع بعشرة لنشات وأبحر حتى نهر موير Muar الواقع في مملكة ملقى حتى وصل على بعد عشرة فراسخ من المدينة (ملقى) في مواجهة مملكة بام (باو 'Pa'o') فلما وصل لهذا النهر ، أرسل مبعوثاً إلى أفونسو دلبوكيرك بهدية من ثمانية أجولة[1] من جذور نبات عِرْق أكَر[2]* Lenhonoe من نوعية جيدة جداً وكتلتين من دم التنين[3] تستخدم لتلميع

---

(١) الكلمة البرتغالية Fardos تعني رَبْطة أو حزمة أو جوالاً ، والفاردو Fardo في الهند مقدار محدد عبارة عن ٤٢ رطلاً برتغالياً .

(٢) Lenhonce ، ربما كان المقصود بها len-hae وقد يكون المقصود به ما ذكره الراحل د. ماسون البرمامي Mason of Burmah من أنه هو نبات عِرْق أكبر Acorus Calamus ذو الجذور عبقة الرائحة . أنظر :
"J.F. Watson's Index to the Native and scientific names of Indian and other Eastern Economic Plants, p.342, fol. London, 1868, Indian Museum, Cf. Lenholoes, chapter Xliii" .

* في معجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية Acorus Calamus هي عِرْق أكر أو الوَجّ أ أقُورون ، وأسوقه الأرضية رائحة زكية .

(٣) Dargra'o خطأ مطبعي والصحيح draga'o . والعبارة التي استخدمها المؤلف هي : Sague de draga'o . وهي مادة راتنجية resin لشجرة يعرفها علماء النبات باسم Calamus Draco وفيما يلي ما كتبه بلوتو عن هذه المادة الراتنجية :
of the Sangue de Drago:-"He huma especie de goma, que por incisa'o destilla em licor, e logo em se levantando o sol, se endurece, e se congela .

الدهانات ، ورسالة يقول فيها لأفونسو دلبوكيرك أن هذه عيّنة ممّا يُجمع في بلاده وأنه راغب جداً في صداقته وراغب أن يكون تابعاً لملك البرتغال وخادماً له وأنه غير متورّط إطلاقاً في أفعال حميه (والد زوجته) .

فأرسل إليه أفونسو دلبوكيرك يشكره بإخلاص على هديته وعلى رغبته في خدمة سيده ملك البرتغال ، وأرسل له في مقابل هديته بعض الأشياء وعرض عليه رجاله وأسطوله ليكونا في خدمته عند الحاجة ، وعندما شرعَ رسول ملك كامبار Campar في العودة ، أرسل أفونسو دلبوكيرك يستدعي مبعوثاً آخر من ملك جاوه كان قد وصل هنا منذ أيام عديدة جالباً معه هدية من اثني عشر رمحاً مُفرطاً في الطول ومعها مقاليعها slings الخشبية مثبته في حديد ، وقطعة قماش طويلة جداً وقد زُخرفت برسوم تُبين الطريقة التي يذهب بها الملك إلى المعارك ومعه عرباته وخيوله وأفياله وعليها دروعُها الخشبية ، وعليها صورة الملك وقد ركب هَوْدجه ، وكل ذلك مرسوم بطريقة جميلة مُتقنة . وأرسل عشرين جرساً صغيراً يمكن إصدار معزوفات موسيقية منها كذلك ، ويحركها الموسيقيون بعصى منقوشة ، وهي تصدر معزوفات جميلة تبعث على السرور .

---

em humas pequenas lagrimas friaveis, e vermelhas como sangue. O sangue de Drago com estas qualidades he o melhor dos tres, que se vendem nas boticas. Mana de huma arvore do tamanho de pinheyro, que da muyto ramo, e lanca humas folhas da feyca'o de espadas; os frutos se parecem com ginjas, e formando huns como cachos, de amarellos se fazem vermelhos, e de vermelhos azues, e azedinhos ao gosto. Dissera'o alguns, que, tirada deste fruto a pelle, apparece a figura de hum drago, donde lhe veyo o nome; pore'm a mais commua opinia'o tem esta circunstancia por fabulosa .

"A outras duos gomas, que tem alguma semelhanca com esta, se da' o nome de sangue de Drago; huma se tira de humas plantas das Ilhas Canarias, a qual da' folhas como de pereyra, a outra tem folhas como de ginjeyra, e dizem que huma e outra se cria na Ilha de S. Lourenco..... Dissera'o outros que o sangue de Draga'o era huma certa especie de vermelha'o, muyto fino, e apurado. O que tamhem he falso, porque o verdadeyro vermelha'o he mineral, on artificial, e o sangue de Draga'o, que se usa nos boticas, he licor congelado a modo de resina, que se destilla das arvores, as quaes... se chama'o Dragoens. Sangra'o os moradores da terra estas arvores, dandolhes golpes na casca, onde acode a humidade que tem, e alli se coalha, e faz em resina, vermelha, dura, e transparente."

بالإضافة إلى جرسين كبيرين جداً يمكن قَرْعهما في المعارك ، إذ يصل الصوت المنبعث منهما إلى مسافة بعيدة ، وعرض الملك عليه المؤنَ والرجال وكل ما يطلبه في حربه في ملقى ، ذلك لأنه ملك جاوة كان شديد العداء لملك ملقى لطغيانه وظلمه رعايا جاوه إذا ما ذهبوا لملقى .

وقد أرسل أفونسو دلبوكيرك مع سفير جاوه هذا لملكها أحدَ الأفيال التي استولى عليها في ملقى لأن للأفيال قيمة كبيرة في جاوه ، وقطعةً من القماش الأحمر وأخرى من القطيفة القرمزية ، وقدم للسفير حقَّ المرور الآمن له والفيلُ الذي معه . وفي هذه الأثناء وصل إلى ملقى ثلاثة قوارب تستخدم المجاديف من النوع الجاوي[١] Pangajaoas من مملكة ميناميسيبو Menamcebo الواقعة عند رأس جزيرة سومطرة Camatra من الناحية الأخرى إلى الجنوب وقد أحضرت معها كمية من الذهب لمبادلتها بأقمشة الهند لحاجة بلادهم الشديدة لها . وأهل هذه المملكة حسنو الخِلْقة وملامحهم جملية ويرتدون أثواباً حِسَاناً ، وعباءات جلدية[٢] bajus ويضعون خناجرهم في قِراباتها المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة في أحزمتهم . وهم قوم ذوو طباع حسنة وصادقون ، وهم هندوس ويقدرون كثيراً أغطية رأس ذهبية معيّنة[٣] يُقال إن الإسكندر الأكبر تركها معهم عندما غزا بلادهم .

وبعد أن أرسل أفونسو دلبوكيرك كل هؤلاء المبعوثين (السفراء) صمّم أن يرسل مجموعة لاكتشاف جزيرة مالوكو Maluco وغيرها من جزر هذا الأرخبيل[٤] لأنه كان قد علم بُوجود جزر كثيرة فيه فجهَّز ثلاث سفن جعل على رأسها أنطونيو دبرو Antonio Dabreu الذي رويتُ عنه فيما سبق كيف أنه جُرِح في الينك Junk الذي هاجم به جسر ملقى[٥] ، لذا فهو يستحق هذا

---

(١) أنظر حاشية ١ ، الفصل ٢٥ .

(٢) أنظر حواشي الفصل ١٥ .

(٣) Carapuca de Oure .

(٤) من المشكوك فيه أن هذه إشارة لمجموعة جزر مولوكا Moluccas أو جزر البهار على خط الاستواء ، ٣٠َ ، ١٢٧ ْ شرقاً لان بورينو (Borneo) تقع بينها وبين شبه جزيرة الملايو ، وربما جرى استخدام هذا المصطلح بشكل عام للإشارة إلى مجموعة الجزر الكثيرة والصغيرة الواقعة في المحيط الباسيفيكي (الهادي) بين أسيا واستراليا على خط الاستواء .

(٥) أنظر الفصل ٢٧ .

التكريم (أن يكون على رأس سفن الكشف الآنف ذكرها) لروحه الجسور وصفات الفروسية التي يتحلّى بها . بالإضافة إلى سفينتين جعل على رأس إحداهما فرنسسكو سرّاو Francisco Serra'o وعلى رأس الأخرى سيماو أفونسو Sima'o Afonso ، وعَيَّن كمرشدْين لهذه السفن كلاً من لويس بوتيم Luis Botim وجونسالو دي أوليفيرا Goncalo de Oliveira وفرنسسكو رودريجز (Francisco Rodriguez) وهو رجل في مرحلة الشباب كان يعمل في إرشاد السفن بالهند دائماً ويعرف جيداً كيف يُقيم النصب التذكاري[١] عند الضرورة وكان هذا هو هدف أفونسو دلبوكيرك من إرساله لهذه الجزر ، وأرسل معهم اثنين من المرشدين من أهل البلاد أيضاً، كما أرسل جواو فيرير Joa'o Freire خادم الملكة البرتغالية د. ليونور D. Leonor كوكيل تجاري وديوجو بورجز Diogo Borges خادم الملك د. مانويل D. Manuel كموثِّق ، وجهّز ينك (نوع من السفن) محملاً بمختلف البضائع أعطى منها جانباً لنيناشاتو Nina-chatu ولهندوسي اسمه خوجه كرماني[٢] Cogequirmani كان أولاده وزوجته يقيمون معه في ملقى ، وانطلق خوجه كرماني هذا على رأس الينك . ونظراً لأنه لم يبقَ لتجهيز اليَنْك إلاّ القليل فقد انطلق قبل انطلاق أسطولنا بيومين أو ثلاثة أيام .

وكانت التعليمات التي وجهها أفونسو دلبوكيرك إلى أنطونيو دبرو Antonio Dabreu هي ألاّ يستولوا على أية أسلاب وأن يذهبوا إلى حيث لم تذهب سفن وألاّ يسمح لرجاله بالنزول إلى الشواطىء وإنما عليه أن يُقدِّم في كل الموانىء والجزر التي قد يصل إليها هدايا لملوكها وأولي الأمر فيها ، ولهذا الغرض فقد أمر بتزويدهم بكثير من قطع الأقمشة الحمراء والقطيفة القرمزية المكّية of Meca وببضائع مختلفة الأنواع ، وأكثر من هذا فقد أصدر الأوامر ألاّ يتدخل قائد أسطول الكشف هذا في أمر أي سفينة من ملقى أو من غيرها سواء كانت

---

(١) البدراو Padra'o هو العمود أو النَّصب التي تحفر عليه كتابة بعينها تخليداً لذكرى الكشف ، وكانت إقامة هذه الأعمدة من العادات المتبعة عند اكتشاف مناطق جديدة .

(٢) أي تاجر كرمان ، وكرمان تابعة لإمبراطورية فارس .

تابعة للمسلمين أو للهندوس قد يلقاها في جزر القرنفل[1] هذه أو جزر التفاح[2] تحمل بضائع ، بل ، أن يتعاملوا بالحسنى مع قباطنة هذه السفن إنْ أرادوا شراء بضائعهم وأن يراعوا عادات البلاد ويحترموا تقاليدها . لكن لا يذهب أحد من قباطنة هذه السفن البرتغالية للبر فيما عدا الوكيل التجاري والموثِّق مصحوبين باثنين أو ثلاثة معهما .

وكان على مُتون سفن الرحلة هذه عشرون برتغالياً وعشرون عبداً أسيراً ليعملوا عند المضخات (التي تضخ الماء من قاع السفن إن اعتراها رشح) ، وجرى تزويد هذه السفن جيداً بالمؤن والمدافع ، وكان على متونها كثير من الحبال والقار والجِلفَاطون (الذين يسدّون ما قد يعتري السفن من خروق) حتى يقوموا بمراجعة السفن وإصلاح ما بها من أعطاب عند رأس جزيرة كبيرة (تقع على مسافة أربعة أيام إبحاراً من جزر القرنفل) تسمى أمبوينو[3] Amboino لأننا كنا نعلم بالفعل بحالة المد والجزر هناك وقد انطلقت هذه الحملة الكشفية – بعد أن استعدت في شهر نوفمبر .

وحالما أبحر أنطونيو دي أبرو Antonio de Abreu أمر أفونسو دلبوكيرك بتجهيز ينك Junk (نوع من السفن) جديد ضخم جعل جزءاً منه للنيناشاتو Ninachatu وجزءاً لتجار ملقى الآخرين وأمر بتحميله بكثير من بضائع كمبي

---

(١) النص البرتغالي (Em essas Ilhas do Cravo) جزر مولوكا (Molucca) معروفة حتى الآن بجزر البهار .

(٢) Ou das Macans .

(٣) جزر أمبوينو Amboino أو أمبوينا Amboina ٤٥´ ، ٣° جنوباً ، ١٥´ ، ١٢٨° شرقاً إلى الجنوب قليلاً من جزيرة سيرام (Ceram) . وهي جزيرة مرتفعة تمتد أحد عشر فرسخاً من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، واكبر هذه الجزر تسمى جزر القرنفل . وثمة خليج كبير يمتد قرابة سبعة فراسخ في الجزيرة يقسمها تقريباً إلى قسمين . وخليج أمبوينا Amboina مكوّن عند مدخله من نقطتين (موضعين) مرتفعين ، نقطة ألانج Allang على الجانب الغربي ، ونقطة نوسانيف Noessanive إلى الشرق ، ويقعان عند خط عـــرض ٤٧´ ، ٣° جنوباً ، ٦´ ، ١٢٨° شرقاً والمسافة بينهما من الشرق إلى الغرب ستة أميال . ويوجد قرابة ثلاثة أطوال كبلية Cables' Lengths من نقطة نوسانيف Noessanive في اتجاه جنوب الجنوب الشرقي ، حيث يوجد شاطىء رملي ضيّق يمتد إلى الشرق وإلى الغرب ، يتراوح عمقه بين ١٥ و ٢٠ قامة (فاژوم) يمكن أن ترسو فيه السفن بأمان . وحركة المد والجزر في هذا الخليج غير منتظمة إذا تحكمها غالباً حركة الرياح ، وترتفع المياه فيه في حالة المد قرابة ستة أقدام أو سبعة – . Horsburgh, India discovery, vol. II,p.417 English edition. London, 1864 .

(كمبايا) التي استولى عليها في أثناء رحلته من الهند إلى ملقى وأمر بأن تتجه السفن Vessels إلى باسي 'Pace لتحمّل الفلفل لِخَزْنه في الحصن ليحملّه الصينيون والجوريون Gores المتوقّع وصولهم للبحث عن حمولات .

وبدأ كل التجار الآخرين ، والشيتين Chitin في ملقى يقومون برحلاتهم التجارية وينظمون ممارساتهم التجارية حتى أنه في وقت وجيز أصبحت التجارة السريعة في ملقى ذات شهرة كبيرة . وبدأ التجار يأتون إلى ملقى من مختلف الأنحاء ليجد كل منهم ما يحمله إلى بلاده ، ذلك لأنه قد انتشر في كل الأنحاء أن أفونسو دلبوكيرك أمر بمعاملة كل السفن القادمة إلى ملقى معاملة حسنه[١] .

(١) أنظر فصل ١٤ ، حاشية ٢ .

الفصل الثامن والثلاثون

عن الاجتماع الذي عقده افونسو دلبوكيرك مع القادة والقباطنة بشان ترتيب الأمور في ملقى قبل رحيله عنها ، وعن بعض القرارات التي اتخذها لحكومة البلاد قبل اتجاهه قاصداً الهند .

بعد أن أنهى أفونسو دلبوكيرك كل اتصالاته المتعلِّقة بالأمور التي ذكرتُها في الفصل السابق أمر باجتماع القباطنة والقادة وذوي الرتب وخَدَم الملك في كل الأسطول وذكر لهم أنَّ حصن ملقى قد انتهى كما يرَوْن وأنه مزوَّد بعدد كبير من المدافع ، وأنه قادر على الدفاع بنجاح ضد كل قوى ملوك هذه الأنحاء الذين قد يفكرون في خوض حرب ضده . ولأن الرياح الموسمية المناسبة للإبحار إلى الهند تهب الآن ولأنه من الضروري لهم أنْ يُبحروا الآن لأن الأحوال في جوا (كَوا) غير مستقرة ولا يدري ما عليه الأمور هناك ، فإنه يرغب إليهم بشدَّة أن يُدلوا برأيهم فيما يتعلق بالسياسة التي يجب عليه تنفيذها في أمر حكومة ملقى وكم محارباً يترك في الحصن وكم مدفعاً يقيمه فيه ، وكم سفينة Vessels يجب أن يتركها ، وهل يُعين قبطاناً للبحر أم لا ، وهل يُعين قائداً واحداً لحكم البر والبحر ، وهل من الضروري إبعاد بعض مسلمي المدينة من أُولي الشأن ممن هم موضع شك .

وظهر في هذا الاجتماع آراء مختلفة وفي خاتمة المطاف تم ترتيب الأمر على أن يكون للحصن قائد ، وللأسطول في البحر قائد آخر (قبطان) ولابد أن يكون

قائد (قبطان) البحر تحت إمْرة قائد الحصن (لقد تم ترتيب هذا الأمر لتجنب الأفعال المخجلة التي جرت في الهند لكن أفونسو دلبوكيرك أنزل بهم العقاب القاسي طوال فترة بقائه حاكماً للهند) ، كما تم الاتفاق على أن يُقسم قائد الحصن يمين الولاء بطاعته له (أفونسو دلبوكيرك) في كل ما يطلبه منه ، وأمر كل القباطنة والقادة أن يقسموا القسمَ نفسه . وإن شاء الله أن يترك قائد الحصن مكانه حل محله قائد (قبطان) الأسطول حتى يتم ترتيب الأمور .

وبعد أن وافق الجميع على هذه الترتيبات عيّن أفونسو دلبوكيرك ، روي دي بريتو باتاليم Ruy de Brito Patalim قائداً للحصن ، وفرناو بيريز دندريد Fer-na`o Perez Dandrade رئيساً لقباطنة البحر (الأسطول المتبقي في ملقى) وعيّن القباطنة الآتية أسماؤهم كل على رأس سفينته على أن يخضعوا لأوامرَ دندريد وهم : لوبو دي أزيفيدو Lopo de Azevedo نائباً للقبطان ، وكريستو فاو جريسز Christova'o Graces وإيرز بيريرا Aires Pereira وأنطونيو دي أزيفيدو Antonio de Azevedo وبيرو دي فاريا Pero de Faria وكريستوفاو ماسكارنهاس Christova'o Mascarenhas وفاسكو فرناندز كوتنهو Vasco Fernandez Coutinho وجواَو لوبيز دالفيم Joa'o Lopez Dalvim كما صدرت الأوامر إلى أنطونيو دي أبرو (Antonio Abreu) أن يبقى في ملقى مع القباطنة المرافقين له عند عودته من رحلته الكشفية الآنف ذكرها (عند عودته من جزر مالوكو "Maluco") كما عيّن روي دي أروجو Ruy de Araujo كوكيل تجاري ومسئول للعدالة Alcaide ومشرف على الحصن ، كما عين كلاً من فرنسسكو دي أزيفيدو Francisco de Azevedo وبيرو سالجادو Pero Salga-do) كموثّقين للحصن وعيّن جواَو جورج Joa'o Jorge مشرفاً (مستلماً) على المؤن وجاكوم فرناندز كموثّق لعمل المشرف الآنف ذكره وعين Almoxarife فرنسسكو كاردوزو Francisco Cardoso مشرفاً على مستودع الأسلحة وجعل براس أفونسو Bras Afonso موثّقاً له . وجعل مديراً لأمور الموتى Defunct والمستشفى ، كريستوفاو دلميدا Christova'o Dalmeida وعيّن موثّقاً تابعاً له

هو ديوجو كاماشو Diogo Camacho ، كما عيّن باستياو جاليجو Bastia'o Gallego في منصب ميرينهو Meirinho للحصن . وعين أيضاً حكاماً (ولاة) للبلاد (ليسوا على أية حال خارجين عن نطاق صلاحيات قائد الحصن) من الهندوس : نيناشاتو Ninachatu ومن المسلمين أحد رجال الدين[1] Caiciz ومن الجاويين في ولاية دوب Dupe مسلماً اسمه ريجون سراج Regunecerage من الجانب الآخر في المدينة عيّن تواَو كالاسكار Clalscar وهو جاوي بالمولد ، كما عيّن روي دي أروجو Ruy de Araujo حكماً بينهم إذا اختلفوا وإذا استلزمت أمور العدالة قيام محكمة عليا كان قائد الحصن هو صاحب السلطة فوق الجميع .

أما وقد جرى ترتيب الأمور على هذا النحو وعلم التجار في البلاد بتصميم أفونسو دلبوكيرك على الإبحار إلى الهند ، اتخذوا سبيلهم إليه ، وتحدث أحدهم نيابة عنهم قائلاً إنهم علموا أن سيادته يرغب في الرحيل تاركاً إياهم وقد اعترتهم دهشة شديدة أن يترك هذا الإنجاز المهم وأن يترك مدينة ثرية كملقى ، فالحالة الطيبة المستقرة للمدينة لن تدوم بغير وجوده . وأنه وقد احتفظ بحكومة أكبر مدن العالم وأعظمها لا ينبغي له أن يتركها عُرضة للدمار ليقوم بأي انجاز آخر مهما كبر ، لكن إذا كان مصمماً على الرحيل ، لحاجته إلى المال فإنهم سيقدمون له القدر الذي يريده من الذهب والفضة والبضائع ، بل إنهم مستعدون لإنفاق كل ما لديهم خدمةً لملك البرتغال ومن ثم فإنهم يرجونه بإلحاح ألاّ يترك المدينة إلاّ إذا صارت الأمور فيها أكثر استقراراً .

فشكرهم أفونسو دلبوكيرك كثيراً على عروضهم وسرد عليهم أسباباً بعينها تُبرر ضرورة عودته إلى الهند لكنه أيضاً وعدهم بأنه سيعود سريعاً لزيارتهم أما فيما يتعلق بأمن المدينة وأمور الدفاع عنها ففي الحصن البرتغالي كثير من المدافع والكثير من البرتغاليين الحاملين لألقاب الفروسية يمكنهم الدفاع عن المدينة ضد أيّ قوة في العالم . أمّا فيما يتعلق بأمن البحر وحماية تجارتهم ففي

(١) أنظر حواشي الفصل ١٦ .

الأسطول البرتغالي الباقي في هذه المياه الكثير من ذوي الرتب وحاملي ألقاب الفروسية . فقال التجار إنه ما دام في ملقى فإن اسمه وحده يكفي للدفاع عنها والحفاظ عليها لمئات السنين ، ولذا فهم يتوسلون إليه ألاّ يغادرهم ، وراحوا ينمقون الكلمات والعبارات ويبالغون في مدح شخصيته .

ومرة أخرى ، شكرهم أفونسو دلبوكيرك لثقتهم فيه وقال إنه من ناحيته كان يودّ أنْ يبقى لينفذ ما يرغبون فيه لكنه مضطر للتوجه إلى الهند لأن حصن جوا (كَوا) لم يكتمل بعد ولا يدري كيف سارت الأمور منذ رحيله عنها .

وحالما انتهى لقاؤه مع التجار وكان مستعداً تماماً للإبحار إلاّ أنه بقي يوماً آخر لأن ملك باسي Pace' الذي كان قد أسره في أثناء رحلته من الهند إلى ملقى (ذكرنا ذلك آنفاً)[1] وجعله في بيته وعامله بمودّة وكرّمه بما يتناسب مع رتبته - هذا الملك قد اختفى بشكل سري لمدة يومين ولم يكن أحد على علم بمكان ذهابه .

وبعد أن بذل أفونسو دلبوكيرك جهده لاسترداده مرة أخرى ليكون بين يديه ، أدرك أنه لا جدوى من البحث عنه ، استأذن من القادة والقباطنة الباقين في ملقى وركب هو ورجاله سفنهم ، إذْ استقل هو نفسه السفينة فلور دي لامار[2] Flor de la Mar وركب بيرو دلبوم Pero Dalpoem مشرف حسابات الهند في السفينة ترينداد Trindade وجورج ننوز دي لياو Jorge Nunez de Lia'o في السفينة انسكو بريجاس Enxobregas وسيماو مارتينز في ينك Junk (نوع من السفن) كبير محمل بمختلف البضائع التي تم الاستيلاء عليها عند سلب المدينة (ملقى) وأخذ سيماو مارتينز معه في هذا الينك ثلاثة عشر برتغالياً وخمسين رجلاً أصلهم من كوشن (كوشيم) ليكونوا حرساً ، وستين نجاراً جاوياً بأطفالهم ونسائهم ليعملوا بعد الوصول إلى كوشن (كوشيم) في خدمة الملك البرتغالي وذلك بإصلاح السفن ، فقد كانت الحاجة ماسّة لهم في الهند .

---

(١) أنظر فصل ١٥ .

(٢) "Partio o Governador de Malaca, em primeyro de Dezembro d'este anno O1511P - Correa , p. 258 ."

أما حاكم (والي) باسي Pace' الذي كان قد ثار ضد الملك (كما ذكرنا آنفا) فإنه بعد أن سمع أن البرتغاليين قد استولوا على ملقى امتلأ رعباً من أفونسو دلبوكيرك فقدم نفسه تابعاً للملك البرتغالي فقبل منه أفونسو دلبوكيرك ذلك لأن الملك الشرعي لم يقبل عروضه ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الحاكم (الوالي) طَوْع أوامر أفونسو دلبوكيرك وفي خدمته .

الفصل التاسع والثلاثون

الخطبة التي ألقاها كاميلو بورتيو أمام البابا ليو العاشر في الإطراء على الاستيلاء على ملقى والانتصارات التي حققها البرتغاليون بغزوهم الهند.

لقد استولى البرتغاليون الآن على مملكة ملقى وشيّدوا في عاصمتها (ملقى)[١] حصناً ، فسارع أفونسو دلبوكيرك بإعلام الملك د. مانويل بما كان ، فقام الملكُ البرتغالي -ليُشْعرهم بالأهمية الكبرى لما أنجزوه- بكتابة خطابات[٢] للبابا ليو

(١) أنظر فصل ١٧ عن المملكة الذهبيّة (ملقى) .

(٢) 2 " In hujus anni [1513] exitu Rex Emmanuel tres ligatos ad Leonem decimum Pontificem Maximum, cum muneribus regia magnificentia dignis, instutuit. Princeps legationis Tristanus Cugna fuit. Collegae duo jurisconsulti magnae apud Lusitanos auctoritatis extitere. Unus Jacobus Paciecus, alter Joannes Faria nominabatur. Per illos Pontifici sacras vestes ex auro, cum multis gemmis opere excellentl perfectis dono misit. Vasa praeterea ex auro, atque monilia maximi ponderis et pretii vestibus adjecit, Opus erat ejusmodi, ut cum materia nihil pretiosius excogitari posset,, artificium tamen ipsam materiam multis partibus superaret .

" Misit preterea elephantum Indicum mirae magnitudinis, quem non solum Romae, ubi homines, post inclinatum Romanae majestatis amplitudinem, illud animal nunquam oculis aspexerant, sed quacumque gradum inferebat, nemo circumfluentem undlque turbam , admiratione obstupefactam, submovere poterat. Panthera etiam venatica missa fuit, quod munes hand scio, an olim Romae Ediles, cum ludos magnificentissimos apparabant, et praeter alias immanes beluas, pantheras etiam

in publicis spectaculis exhibebant; praestare potuerint. Ea namque mansuefacta, non in circo cum bestiariis, sed in sylvis cum apris atque cervis praelium committebat, et principibus qui ventionibus oblectantur, plurimum committebat, et principibus qui venationibus oblectantur, plurimum voluptatis afferebat. Ea insidebat equi persici tergo, integumentis auratis eleganter instrati. Equum regebat Persa venator eximius, qui ad id munus obeundum ab Armuzii rege cum equo et Panthera missus fuerat .

العاشر يُخبره فيها بهذا (لأن هذه المملكة الذهبيّة ‹ملقى› مملكة قد أشاد بأهميتها كل الكتاب القدامى والمُحدثين) . وعندما علم البابا -عن طريق السفير البرتغالي في روما جوآو دي فاريا Joa'o de Faria بالانتصارات الكبرى التي حقّقها البرتغاليون في هذه الأنحاء من العالم بفضلِ كفاح أفونسو دلبوكيرك وحماسه وروحه العالية أمر بتسْيير موكب[1] يشترك هو نفسه -أي البابا- فيه

"Tristanus Cugna cum esset vir et nobilitate, et auctoritate, et existimatione non vulgari praeditus, tum propriis sumptibus eam legationem exornandam susceperat. Ducebat autem secum tres filios et cognatorum copiam, amplamque familiam quibus stipatus non abjecti Principis speciem prae se ferebat. Legationis scriba, Nicolaus Faria, qui equis Regiis curandis praeerat, agebat equum pulcherrimum, ephippiis aureis, et phaleris aureis, emblematis et gemmis maximi pretii distinctis instratum et ornatum, qui etiam Pontifici donandus erat."- Hieron. Osorii de Rebus Emmanuelis Regis. Col. Agr., 1574, fol. 297 b. Ciaconius, in his Vitae Pontificum (tom iii, A.D. cols. 328-9), repeeats this with an interesting anecdote of the sagacity of the elephant mentioned in the foregoing extracts .

(١) لقد دفعت هذه الأحداث الهائلة الضخمة البابا لإقامة قدّاس صلاة شكر في روما يحضرها كل الشعب ، وكان هذا حدثاً جليلاً وإجراء غير عادي بالنسبة لكنيستيْ سانتا ماريا دل بوبولو S. Maria del Popolo وسانت أوغسطينو (S. Agoso-tin التين ظهر فيهما هذا الحبْر (البابا) بشخصـــه وبكل هيبته ووقاره اللذين هما سمة من سماته في المناسبات العامة مما أضفى مزيداً من الوقار والهيبة على تلك الطقوس الدينية الاحتفالية وفي الوقت نفسه أمر كاميلو بورتيو Camello Portio أن يخطب خطبة في المصلّى chapel البابوي ، باللاتينية في مدح شخصية ملك البرتغال وأعماله وطاعته التي هي واجبة عليه للكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) وارتباطه بقداسة البابا .

وعلى أية حال فإن هذا الاحترام والود المتبادليْن بين ملك البرتغال والبابا سرعان ما تدعّما أكثر وأكثر بوصول سفارة ممتازة من العرش البرتغالي إلى روما بعد ذلك بفترة وجيزة مما أبهج قاطني روما كثيراً وكان سفير البرتغال الرئيسي في هذه المناسبة هو تريستانو كوجنا الشهير Tristano Cugna الذي كان له هو نفسه دور رئيسي في الحملة على الشرق ، وحاز شرفاً كبيراً لشجاعته وحُسن تصرفه . وقد صحبه في سفارته جاكوبو باشيكو Jacobo Pacheco وجيو فاني فاريا Giovani Faria أستاذا القانون المشهوران بعلمهما . وقد سار في الموكب الديني الاحتفالي الآنف ذكره ثلاثة أبناء لكوجنا Cugna وكثيرون من أقاربه وأصدقائه . وكان هذا الموكب قد تجمع عند بوّابات المدينة (روما) وأشرف عليه عدد من الكراولة Cardinals والأساقفة راحوا يرشدون الغرباء إلى القصور المخصّصة لإقامتهم لكن توافد الوفود والسفراء تباعاً كان أقل أهمية في نظر الجمهور من الحضور البهي ذي الدلالة للبابا بشخصه . وكان في هذا الموكب فيل ذو حجم ضخم غير عادي وأسدين ونمراً وغيرها من الحيوانات غير المألوفة . وظهر في الموكب أيضاً حصانان فارسيان بأغطيتهما المزركشة الجميلة وقد ركبهما فارسان من بلاد فارس يلبسان ثياب بلدهما . أضف إلى هذا وفرة الأشياء الثمينة التي لا تُقدّر بثمن والملابس الفخمة المحلاّة بالذهب والجواهر ، والفازات Vases وغيرها من الأدوات التي استخدمت في الطقوس الكنسيّة والتي غطّت مذبح الكنيسة ، لقد كانت كلها جملية بهيّة متقنة الصنع . وقاد الموكب مسئول برتغالي حاملاً الشعار البرتغالي . وعند الوصول إلى المقر البابوي حيث يقف البابا يراقب الموكب من النوافذ توقف الفيل وملأ خرطومه بالماء من آنية كبيرة كانت معدّة لذلك ، ورفع خرطومه ونثر المياه على الحشود المجتمعة بالقرب منه ولم تصب قطرة صغيرة من مائه المنثور هذا أحداً من المشاهدين في النوافذ أولئك المهذّبون رقيقي المشاعر ، وكان هذا احتفاء كبيراً بالبابا .

توقيراً واحتراماً لهذه الجهود ، وعند العودة إلى المقر الباباوي (القصر المقدس "Sacred Palace") ألقى كاميلو بورتيو[1] Camilo Portio في حضور الجميع الخطبة التالية في أكتوبر سنة ١٥١٣م :

" يا أبانا المبارك ، يا أكثر الآباء بركة ، إن كان هناك وقت لابد للشعب المسيحي أن يُقدِّم فيه الشكرَ للرّب the Lord ويبجّل قوّته وسلطانه لإنجازٍ تمَّ

وبعد ذلك بستة أيام تم تقديم السفير البرتغالي للجموع في موكب مشابه ، حضره البابا يحفّه الكرادلة والأساقفة ، وحضره سفراء الدول الأجنبية وكل المسئولين الكنسيين (في البلاط البابوي) وخطب فيهم -باللاتينية- باشيكو Pachico وخطب البابا ليو خطبة بالغة نفسها يمدح فيها الملك البرتغالي ويقدره تقديراً شديداً لإخلاصه للكرسي البابوي المقدّس Holy see وفي هذه المناسبة أوصى البابا بالحفاظ على السّلام بين دول أوربا ودعا لإتحاد الجيوش الأوربية ضد الترك (المقصود هنا العثمانيون بخاصة) وعبّر عن أفكاره هذه بتعبيرات جادة بليغة حاسمة فحاز إعجاب مستمعيه بخطابه إعجاباً لا حدّ له .

وفي اليوم التالي تمّ إحضار هدايا الملك البرتغالي إلى مستودعات الحدائق الملحقة بالمقر البابوي حيث أظهرت الحيوانات المفترسة رشاقتها وضراوتها في إلتهام الطعام (فرائسها) ، وهو مشهد قد يكون مألوفاً لهواة الصيد وملاحقة الطرائد ، لكنه بالنسبة للبابا قد يكون مثيراً جداً . لقد كان الملك البرتغالي يقصد إلى إثارة دهشة أهل روما بمنظر هذه الحيوانات النادرة جداً التي لم يرها أحد في روما منذ أجيال عديدة ، لكن وحيد القرن (الكَرْكدن) الذي تمّ جلبه من الشرق للإشتراك في هذا العرض قد هلك -لسوء الحظ- عند محاولة شحنه في السفينة لنقله إلى إيطاليا"

William Riscoe's Life and pontificate of Leo the tenth. London, 1846. vol. 1, pp. 362-363

(١) كاميلو بورتيو : يُكتب بإملاء مختلف (Portio) أو (Porcio) أو (Portius) أو (Porcarius) لا يجب الخلط بينه وبين شخص آخر يحمل الاسمَ نفسه حقق شهرة في أواخر القرن السادس عشر . وكاميلو المشار إليه في النص من مواليد روما ومن أصل نبيل وهو كاهن القديس بطرس في روما وقد عيّنه البابا ليو العاشر في ٤ مارس سنة ١٥١٧م أسقف تيرامو (Bishop of Teramo) (تيرامو أو ثيراموم "Theramum" أو أبروتيوم "Aprutium") المدينة الأسقفية في أبروزي (Abruzzi) وقد حقق شهرة كشاعر وخطيب . أنظر

(See Tiraboschi, Storia della Letteratura Italiana. Modena, 1792, 4to, tom vii, pt. 3, p. 1015.-Nuova Biblioteca Populare; Opere di C. Porzio, P. Giordani Torino, 1852, 8vo, p. 13.-Ughelli, Italia Sacra, vol. i, p. 371, "Vir varia literatura clarus".-Richard et Giraud, Bibliatheque Sacre'e, vol. xxiv, p. 427.) According to Giordani, Camillo Porcio died in 1521. Ughelli and Richard place his death in 1522. The following note is of interest:-

"Camillus Portius, ut meos quoque cives, in scenam hane inducam, quantae fuerit cel magno omnium stupore, et admiratione decoraret, sive pro rostris declamaret, ut nihil ejus dictione suavius, nihil jucunduis, nihil expolitius, haberetur. Is tamen simulac ab Leone Decimo Pontifice Maximo Aprutinae est Ecclesíae praefectus, acerbissima diuturni cujusdam morbi, nulli medicorum cogniti, correptus inclementia, postquam miserabili cruciatu menses plurimos decubuit affi-catatus, morbi demum ejus truculentia', et totius corporis doloribus oppressus, virente adhue aetate apimam egit, incredibili apud bmnes sui relicto desiderio."-Joannis Pierii Valeriani Bellunensis de Literatorum Infelieitate Libri Duo. Amstel., 1647, p. 15.

بفضلِ الشجاعةِ والجسارةِ ، فهذا العام (١٥١٣م) في الطليعة لما جرى فيه من حدث جَلَل يُعد مثالاً للعمل العظيم المتألِّق ، ففي هذا العام منَّ الله على شعبه (المسيحي) برحمته العميقة فغمرهم بالسرور وجعل سبباً لفرحةٍ جديدة ، منَّ على شعبه (المسيحي) بالرخاء والازدهار مع مناسبات عالمية للإبتهاج .

لأنّه بالإضافة إلى أنَّ الرب رفعكم إلى مرتبة القداسة هذا العام وبوَّأكم العرشَ البابوي مما يُعد كسباً للمملكة المسيحية (الدولة المسيحية "Christiandom") أكثر مما هو كسب لشخصكم فإن الرَّب قد جعل قداستكم الملاذَ الوحيد والأمان الذي لا أمان سواه إذْ تجدَّدت بكم الآمال في أمور كانت الآمال فيها قد انقطعت ، وفي الوقت الذي كان العالم كلُّه مشغولاً بالحروب المتواصلة ، أراد الرب أن يُعيد البهجةَ على نحو أعظم باختياره الجديد (لكم) . وفي هذا الوقت نفسه وهبَ اللهُ لملكَ البرتغال د. مانويل ، ذلك الملكُ الشجاعُ القوي الحسنُ طالعه الذي لا يُقهر انتصارات كثيرة وعظيمة ضد أعدائه حتى أنَّ المرء يمكنه أن يعتقد ببساطة أنَّ الرب Lord يحارب إلى جانبنا ، وحقاً إنه في هذا المشروع المتألِّق الأخير الذي حقَّقنا فيه النصرَ باسم الرب (يقصد الاستيلاء على ملقى) بدا أنَّ الرب أعطانا الإشارة (أو العلامة) على أنَّه من الآن فصاعداً لابدَّ أن نثق فيه وفي أنّه سيجعلُ النصر إلى جانبنا إذا عقدنا العزمَ على استخدام الفضائل والميزات التي وهبنا إيّاها والتي هي فينا بحكم الطبيعة ، والتي غدت معروفةً على مستوى العالم بين الأمم المتبربرة .

"أيمكن أن تكون هناك مصادفة في هذه الإنجازات التي تحقَّقت على أيدي البرتغاليين في الهند بقيادة الباسل أفونسو دلبوكيرك ؟! لقد دخلت في حوزتنا مدن كثيرة ذوات ثروات لا حدَّ لها وذوات قوة هائلة ، بقوّة السلاح . أيمكن أن يكون هذا صدفة ؟ وهزمنا في المعارك قبائل كثيرة . أصدفة هذا ؟ بل إننا هزمنا قوات تضم جنوداً مُخْتلفي الأجناس والأعراق أيضاً ، كانوا دائماً قادرين على تحقيق النصر في كل مشروع يكرِّسون أنفسهم له . وأكثر من هذا فقد أجبر البرتغاليون كثيراً من الملوك على أن يكونوا تابعين يدفعون الإتاوة ، بفضل

شجاعتهم وقوة سلاحهم ، وحتى أولئك الذين لم يُخاطروا بدخول الحرب ضدنا إمَّا أتوا بأنفسهم أوْ أرسلوا سفراءهم يتوسّلون السلام ويطلبون التحالف ، حتى نعفيهم من مواجهتنا لهم في حرب . ولقد كانت الطبيعة النبيلة للبرتغاليين أعظم وأكثر وضوحاً فهم لم يحتفوا بذبح أعدائهم وتدميرهم فحسب وهو ما مارسوه بالفعل مراراً ، وإنما كانت الروح البرتغالية الوثّابة التي منَّ الله بها عليهم هي التي جعلت الانتصارات التي تمت في هذا العصر الحديث تمحو من الذاكرة ما جرى في الماضي فغنائم هذا العصر تفوق غنائم عصر مضى ، وبالانتصارات التي تحقَّقت في هذا العصر انضم إلينا كثير من الملوك المهزومين الذين استولينا على ممالكهم ، واضطر الملوك الذين لم يُريدوا مواجهة قواتنا البرتغالية للتحالف معنا .

"من أجل هذا يا أبانا ، يا أكثر الآباء بركة فإن قداستكم بحكمتكم البالغة وبحماسكم المسيحي احتفاءاً بهذا النصر المهم (الذي لا يرنو لأعظم منه أحد) الذي وهبه ربنا Our Lord في هذا الموسم السعيد للمسيحي الحق الملك د. مانويل – أمرتم بهذا الموكب الدِّيني الجليل وصحبتم هذا الموكب بشخصكم . شكراً للرب ولكل القدِّيسين لهذه الإشارة العظيمة لرحمته بنا .

" لأن هذا ليس نصراً تم تحقيقه ضد قبيلة محاربه أو ضد مدينة عنيدة محصَّنة ، وإنما هو نصر على كل بلاد الهند العظيمة والشهيرة . فبعد أنْ تمّ إخضاع ممالك قوية مثل جوا (كَوا) وهرمز بقوة السلاح (عُنوة) وجعلها تابعة لملك البرتغال تدفع له الإتاوة ، عيَّن عليها أفونسو دلبوكيرك – باسم سيده ملك البرتغال – مَنْ يحكمها ، والآن فنتيجةَ هذه الانتصارات الكبرى بحراً وبراً تم الاستيلاء على مملكة ملقى الثرية الخصبة جداً والتي أسْماها القدماء –بسبب ثرائها الكبير– المملكة الذهبية(١) وهو اسم لم يطلقوه على غيرها ، لأنهم أرادوا بهذا الاسم التعبيرَ عن موارد ثرواتها الهائلة ، ولم يكن شغلنا الشاغل عند فتح

(١) أنظر فصل ١٧ .

هذه الممالك هو عظمتها فقط ، وإنما كان يشغلنا أيضاً أن شجاعة البرتغاليين لم يصل علمها إلى هؤلاء البرابرة قبل استيلائنا على ملقى ، أمّا الآن فإنني أقول إن قلوب البرابرة غدت في حالة رعب بسبب تلك البلاد التي استولينا عليها والتي فتحنا طرقها والتي لم نكن نعلم عنها شيئاً حتى الوقت الحاضر قبل فتح قوّاتنا لها .

"فعلى سبيل المثال فقد فُتِح لنا -بغزونا لمملكة هرمز- الطريق إلى بيت المقدس (حيث وُلد مخلِّصنا)* حيث أصبح في امكاننا استعادته وتخليصه من أيدي الكفرة الذين يمتلكونه طغياناً وبغير حق** لأننا قذفنا في قلوبهم الرّعب مما جعلهم يخشون أن يحيق بهم ما حاق برفاقهم (المقصود في ٢٥١ وجوا وملقى ..) وفي كل هذه الأمور أجدني في حيرة من أمري فأي حقيقتين يجب أن أُولهما أهمية أكبر ، ألحماس أكثر الملوك شجاعة د. مانويل أم لحسن طالعه ؟! فقد أنفق أموالاً طائلة وتكبَّد من المشاق ما لا حصر له ليصل باسم "المسيح" إلى هذه المناطق النائية ولأمم أجنبية عنا ، قاصداً بذلك أن يدعَم علَم الصليب المقدس بالقوة في مواضع لم يصل إليها قبل ذلك قط ، أم لشجاعة البرتغاليين وروحهم الوثّابة وفهمهم والتي أدّت إلى وصول المسيحية لبلاد مختلفة تماماً عن بلادهم بفضل جهودهم وروحهم الجسور التي لم يكن لها من قبل مثيل وبتصميم عميق وتوْق شديد ، واضطروا لخوض معارك ليست ضد أعداء قساة متبربرين ، وإنما أيضاً لخوض معارك ضد الجوع نفسه والعطش والبرد والحرارة التي لا تُطاق بل إنهم استهانوا بكل هذه المتاعب التي مرّوا بها تباعاً ليُنجزوا ما التزموا به تنفيذاً لأوامر الملك دوم مانويل ، وراحوا يعملون -بابتهاج- لتحقيق

* الخلاص في الإسلام كما هو معروف لا يكون إلاّ بالإيمان والعمل الصالح وإذا مات ابن آدم لم ينفعه في الأساس سوى عمله وصدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له ، وكل ذلك -على أية حال- من عمله ، فالمسلمون لا يؤمنون "بالاعتراف" للبشر ولا بعذاب الرب طريقاً للخلاص . هذا معروف معلوم ولا بأس أن يعرف المسلمون عقائد غيرهم .

** كُتب كثيرة ومراجع كثيرة عربية وغير عربية تحدثت عن إكرام المسلمين للقدس الشريف ، ومحافظتهم على تراث الأديان الأخرى لأن الإسلام دين يضم المفاهيم الأصيلة في كل الأديان السابقة عليه ، راجع على سبيل المثال : رحلة الأمير ردولف إلى مصر والقدس ، ٢ ج ، سلسلة الألف كتاب الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وكتاب إتحاف الأخصّا بفضائل المسجد الأقصى لشمس الدين السيوطي ، وكتاب القدس لكارين أرمسترنج .

ما أُنيط بهم .

"وفي كل هذه المشروعات فإن أولئك الذين سيجهدون أنفسهم بالنظر للأمور قد يدركون ببساطة أنَّ الله قد مَنَّ علينا بأفضال كثيرة ، وذلك عندما يتأملون قلّة عدد جنودنا الأبطال الذين تملكوا الهند كلها . فرغم أنهم لا يزيدون عن ثلاثة آلاف برتغالي في الأسطول فإنهم هزموا ممالك كثيرة في الهند واستولوا عليها بقوّة السلاح ، وراح ملوك هذه الأنحاء يرتعدون خوفاً من البرتغاليين الذين سبقتهم شهرتهم ، فأتى هؤلاء الملوك خاضعين يتوسّلون السلام أما أولئك الملوك الذين لم يرغبوا في قبول شروط السلام فقد فرض عليهم الغزاة قوانينهم بل إن بعضهم ممن أراد الله هدايتهم تحوّلوا للمسيحية* وتلقوا التعميد** ومن ثمَّ أصبح للمسيحية وجود في هذه المناطق النائية ، والنتيجة النهائية لهذه الانتصارات التي حقّقها هؤلاء الرجال قليلو العدد (ولا زال عددهم قليلاً) أننا استولينا على ملقى وهزمنا ملكها وجعلناهُ يفر بما تبقّى معه من قوات قليلة ، وأعْملنا السيفَ في معظم قواته ، وها هي ملقى ذات الشهرة العظيمة ، عاصمة هذه المملكة الغنية قد أصبحت في يد المسيحيين .

ومن أسباب قلّة عدد البرتغاليين المحاربين في هذه الأنحاء الآن اضطرارهم لترك بعض قواتهم لتشكل حاميات مقيمة في هذه الممالك المفتوحة .

هذه يا أكثر الآباء بركة هي مملكة ملقي الذهبية[1] التي تقع عند الطرف الآخر للخليج العظيم حيث نهر الجانج Ganges يصب مياهه في البحر ، إنها مملكة شهيرة جداً لثرواتها الطائلة ممثلة في بضائعها المختلفة الأنواع المتعددة ذوات القيمة العالية والتي ترد إلى هنا من بلاد مختلفة بسبب المواد ذوات القيمة التي تُصدَّر منها أيضاً ، لكل هذا فهي أعظم موضع في الهند كلها ، فليس من شيء واحد لازم للحياه إلاَّ وهو متوّفر فيها بكميات كبيرة .

* غني عن القول أن الكاتب مسيحي والخطيب مسيحي والبابا كبير المسيحين ، ونحن هنا نترجم ترجمة أمينة ولا شيء سوى ذلك .

(١) أنظر أول الفصل ١٧ .

** التغطيس في الماء وهو طقس مسيحي لابد منه لكل داخل في المسيحية .

"وكان يحكم مملكة ملقى قبل استيلاء البرتغاليين عليها ملك مسلم ثري وقوي ويمتلك أسطولاً وهو عدو لدود للمسيحيين عامة والبرتغاليين بخاصة ، وكان منذ عامين قد تسبب بغدْره في مقتل قائد (قبطان) برتغالي كريم المحتد ، كان قد وصل لهذا الميناء (ملقى) ، وكان أفونسو دلبوكيرك الشهير (الذي يستحق إسمه كل مدح بسبب أفعاله المتميزة) في هذا الوقت يحكم الهند باسم الملك البرتغالي أكثر الملوك شجاعة ، وقد جعل ممالكها الأخرى في سلام وأمان وكذلك الحصون التي أقامها فيها على هذا الجانب من نهر الجانج Ganges أو على حد تعبير البرتغاليين .

"داخل رأس كوموريم Comorim" ، وقد فكر هذا القائد (أفونسو دلبوكيرك) في الانتقام من ملك ملقى لغدره برجالنا ، وأدّى هذا إلى انتزاعه مملكة ملقى من ملكها بعد أن هاجمها براً وبحراً ، وكان قد وصلها في موسم طيب (للإبحار) .

"ولأن ملك ملقى لم يكن يدور بخلده أن تجري الأمور على هذا النحو ووجد نفسه غير مستعد للدفاع على النحو الذي كان يريده ، فقد لجأ للخداع وأرسل رسالة إلى أفونسو دلبوكيرك تنطوي على رغبته في السلام وكان أفونسو دلبوكيرك تواقاً للانتقام من الغدر الذي حاق برجالنا منذ عامين ، وبدأ ملك ملقى في إطالة أمد المفاوضات تضييعاً للوقت الذي راح يستغله في إقامة التحصينات ولم يغب هذا المكر عن البرتغاليين فاتخذوا مواقع هجومية وامتلأت نفوسهم عزماً وتأجَّجت نار الشجاعة في أعدادهم القليلة وانقضوا على السّاحل وأطلقوا مدافعهم فشتتوا شمل المسلمين وأحدثوا مدخلاً إلى المدينة بأقل قدر من الخسائر .

"ووجد ملك ملقى نفسه في هذه الورطة وأنه في موقف يتحتم عليه فيه الدفاع عن نفسه بقوة السلاح وأنه لا مجال الآن للخداع ، فنظم رجاله للدفاع من وراء استحكامات ، بينما ركب هو فيلاً وراح يتجول بينهم مُحَمِّساً إياهم باثاً العزمَ فيهم قائلاً أنه لا يجب أن يفكروا مجرد تفكير في خُذلان مدينتهم عند حاجتها

إليهم وفي هذا الظرف الطارىء الذي ألمّ بها . وإلاّ فإن البرتغاليين وقد ملأت الشجاعة أرواحهم وغمرتهم البهجة قد وصلوا للأسوار وراحت مدافعهم على طول الساحل تُصْلي المدينةَ ناراً حامية ، فبدأ سكان المدينة يُحِسّون بالخطر وسقطت قلوبهم رُعباً فتركوا الاستحكامات التي دافعوا عنها لفترة وجيزة وشرعوا في الفرار فلاحقهم البرتغاليون بروح المنتصر وكانوا في غير نظام (أي البرتغاليين) ودخلوا المدينة ووصلوا لقلبها حيث يوجد على جسر مقام فوق نهر يمثل مدخلاً ملاحياً ، وهذا النهر يجري خلال المدينة (في وسطها) حيث تمركز الملك في آخر مواقعه وجمع قواته المسلحة الرئيسية وراح يقوّي دفاعاته في هذا الموقع (الأخير) أكثر فأكثر ، وجمع هناك من كانوا بصدد الهروب ، وحتى لا يتمكن البرتغاليون من خوض النهر ، فقد مركز قوّاته فوق الجسر .

"وهنا غدا النضال أكثر حدّة ومع هذا فقد زادت آمال البرتغاليين في النصر (فقد صُدِم العدو إلى حد ما بضراوة الأسلحة البرتغالية) فحاربوا الكفار (يقصد المسلمين) بضراوة ، فلم يقيموا لأسلحة الكفار وزناً ولا لأفيالهم المدرّعة المثلثة هوادجُها برماة السِّهام واستهانوا بالصعوبات وقرّ قرارهم أنْ يخوضوا النهر رغم كل هذه الصعوبات فأحدثوا في قلب العدو طريقاً بفضل سيوفهم المُشْرعة ، فألقى بعض الأعداء بأنفسهم على أسلحة البرتغاليين من فَرْط يأسهم ، وألقى بعضهم الآخر بأنفسهم في النهر طلباً للأمان ، وأخيراً فرّوا جميعاً ومعهم ملكهم الجريح ، ولم يصمدوا سوى ساعات قلائل .

"ودخلت قواتنا البرتغالية المدينة فسلبتها ونهبتها وقتلت من أهلها خلقاً كثيراً ، وكان بالمدينة كميات كبيرة من الذهب والفضة وكثيراً من الذخائر ومعدّات الحرب ، كان من بينها ألفا مدفع ، وكان من بين الأسلاب سبعة أفيال معدّة للقتال بهوادجها وعدّتها المزدانة بالذهب بشكل يدل على ثراء بالغ ، فلم يخضع بشرُ هذه المملكة للإمبراطورية البرتغالية فحسب وإنما خضعت دوابّها أيضاً .

"آه ، يا أيها الإله الطيب ، أيها الرب العظيم ، ذلك هو سلطانك[1] وتلك هي

---

(١) النص من انجيل متي "ليتقدس اسمك ، وليأت ملكوتك ، ولتكن مشيئتك كما في السماء كذلك في الأرض" إصحاح

عظمتك وقوتك[١] ، فيدك اليمنى منحتنا الشجاعة ، ويدك اليمنى رفعت شأننا ، فكيف استطعنا دخول مدينة محصنة تحصيناً قوياً كهذه ، وكيف هزمنا ملكاً قوياً كهذا وطردناه منها ، كيف تأتّى لنا ذلك لو لم تكن عوناً لنا ولو لم تكن في صفنا . ففي ظل اسمك كانت العظمة والنصر فأنت الذي حطمت قوة الأعداء[٢] ، لم يكن ذلك بفضلنا وإنما بفضلك أنت الذي أخضعت لنا الأجناس الأخرى وأنت الذي جعلتهم تحت أقدامنا[٣] أنت الذي قذفت بسهامك[٤] فقهرتهم وأنت الذي أعميتهم بفيض نورك ، لقد كنت أنت قائدنا[٥]* ومشيرنا أنت الذي قذفت في قلوب أعدائنا الرُّعبَ ، وأنت الذي جعلتهم يولّون الأدبار ، فما رميْنا لكنك الرَّامي ، لا يا ربنا ، لا أبداً لم يكن هذا من أجلنا وإنما من أجل جلال اسمك[٦] .

"لكن السبب الذي جعلني أُطيل في الحديث عن الإستيلاء على ملقى هو أنّ ما حدث بعد تدميرها جدير بأن يُروى ، فمن خرائبها وخرائب مساجدها المهدّمة سرعان ما شيدنا حصناً حصيناً بدرجة كافية لقمع هذا الشعب المتمرّد ، وجرى تعيين حكام كل عام حتى يعيشوا في ظلهم وحتى يتم تنفيذ القوانين وتحقيق العدالة ، وبعد هذا جرى توقيع معاهدات سلام مع كثير من الملوك المجاورين لملقى كملوك بيجو Pegu' وسومطرة وبيدار Pedar وباسي Pace' وجاوه بل وحتى مع الصينيين في أقصى الشرق وقد رحب هؤلاء الملوك بذلك لصالح تجارتهم .

---

(١) في سفر الأخبار الثاني فقرة ٦ / إصحاح ٢٠ : "أنت المتسلط على جميع الممالك وبيدك قوة وجبروت وليس من يقف معك" .

(٢) أنظر سفر حجي في العهد القديم / إصحاح ٢ : " إني أزلزل السماوات والأرض وأقلب كرسي الممالك وأبيد قوة ممالك الأمم وأقلب المركبات والراكبين فيها ....." .

(٣) أنظر المزامير ٤٧/٣ "يخْضع الشعوب تحتنا والأمم تحت أقدامنا ..." .

(٤) المزامير ١٤٤/٦ "أبرق بروقاً وبدّدهم ، أرسل سهامك وازعجهم" .

(٥) أخبار الأيام الثاني / ١٣ / ٢ "وهو ذا معنا الله رئيساً"

* في الطبعة العربية للأناجيل رقم هذه الفقرة ١٣/١٢ .

(٦) العهد الجديد / الرسالة إلى أهل رومية ١١ / ٣٤ "من عرف فِكر الرّب أو صار له مشيرا ؟!" .

"وحتى لا يُعوز القوات البرتغالية الترابط فيها تمتد الإمبراطورية البرتغالية وتتسع ، فقد أبحر القائد اللامع أفونسو دلبوكيرك مغادراً ملقى[1] وعاد إلى جوا (كَوا) . كيف سأصف النصر الذي حقّقه هناك (في جوا) ؟ فهو ليس نصراً بقدر ما هو -كما يظهر- تدبير إلهي ، لأن هذا القائد اللامع كان قد استولى على مدينة جوا ومملكة جوا بالقوة المسلّحة في مناسبتين ، وقد غادرها تاركاً إياها محصّنة قادرة على الدفاع عن نفسها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، بينما واصل هو إبحاره إلى ملقى وزار حصون الهند الباقية ، فلما رأى العادل خان (الهيدالكاو "Hidlca'o") الذي كان يحكم المدينة قبل استيلاء البرتغاليين عليها أنّ أفونسو دلبوكيرك قد أبحر ولم يعد موجوداً ليدافع عنها أقبل بجنود كثيرين مشاة وخيالة وحاصر المدينة وبنى حصناً بالقرب من ذراع بحري وحاصر الجزيرة (جوا) وجعل رجاله يعبُرون إليها بينما راح هو -مع بقية الرجال- يزعج البرتغاليين الذين تركهم أفونسو دلبوكيرك في الحصن - بتحرشاته وقذائفه ، ووجد المحاصَرون (بفتح الحاء) أنفسهم في ضيق شديد وأزمة كبرى لقوة العدو وضخامة قواته ، لكن ما شاء الله كان ، ففي هذه اللحظة -وبينما كانت قواتنا تعاني هذه المعاناة- ظهر أسطولنا العائد من ملقى مجلّلاً بالشرف ، والفخار ، وما أنْ رآه العدو حتى اعتراه الرعب ، فلم تنتظر قواته حتى ينزل رجالنا من الأسطول ، فرفعت الحصار وأسرعت بالفرار في عجلة .

"لقد قرأنا عن الاسكندر الأكبر ملك مقدونيا ، أنه عندما وصل إلى الهند وهاجم مدينة محصّنة دافع سكانها عنها دفاعاً حسناً - اعتبر أنّ هذا عملاً فائق الأهمية ونجاحاً باهراً أن يستولي عليها ، حتى أن جنوده أعلنوا أنه بفعله هذا أكثر شجاعة من هرقل Heraclus . وإن كان الأمر كذلك فكم هو مقدار الشرف والنصر المؤزّر الذي يعود للملك د. مانويل الذي لم يكتفِ رجاله بفتح

---

(١) من هذه الفقرة وإلى نهاية الخطبة يتناول الخطيب أحداثاً مرتبطة بحكم البرتغاليين في الهند وهو ما تناوله مؤلف هذا الكتاب في الفصول التاليات في هذا الجزء من الكتاب .

مدينة الهند عنوة (بالقوة المسلحة) بل واصل فتوحه متجاوزاً الهند نفسها لتصل قواته إلى بلاد لم تطأها أقدام الرومان ولم يعرفها القوط Gothes ، وعبثاً هاجمها في مناسبات عدة سيزوستريس(١)* Sesostris ملك مصر وقورش Cyrus(٢) وسميراميس(٣) .

"وعندما أصبح أغسطس قيصر Augustus Caesar إمبراطوراً أحسَّ بسعادة تفوق الوصف ، وبهجة كبيرة عندما زاره ملوك الهند محمَّلين بالهدايا وعندما أرسلوا سفراءهم طالبين السلام .

---

(١) "Sed Germanicus..... visit veterum Thebarum magna vestigia : et manebant structis molibus literae AEgyptiae, priorem opulentiam complexae : jussusque e senioribus sacerdotum patrium sermonem interpretari, . referebat, 'habitasse quondam septingenta inillia aetatemilitari : atque eo cum exercitu Regem RHAMSEN,* Libya, AEthiopia, MEDISQUE et BACTRIANO AC SCYTHA, potitum'," etc.-Tacit., Annal., ii, 60.

* تحريف أوربي لإسم الفرعون المصري سنوسرت ، وما ذكره الخطيب هنا مشكوك فيه تاريخياً رغم قوة هذا الفرعون .

وفيما يلي ما ورد في معجم الحضارة المصرية القديمة تأليف جورج بوزنر وآخرون عن هذا الفرعون .

"سنوسرت الثالث esostris III : (من سنة ١٨٧٨-١٨٤٢ ق.م.) : أوصل الأسرة إلى ذروة قوتها ، وأخيراً قضى على سلطة النبلاء الذين استقلوا بحكم الأقاليم عن التاج . وغزا جنوب النوبة وضمه إلى مصر وبلغت حدود مصر في عهده جنوباً ، حتى سمنة الواقعة جنوبي الشلال الثاني وأقام حصوناً من سمنة إلى الفنتين لحماية المواصلات . وفي الدولة الحديثة عُبد سنوسرت الثالث المتأله في تلك المنطقة . وفي الشمال ، قاد هذا الملك بنفسه الحملة الحربية البعيدة المدى الوحيدة والتي لدينا سجل عنها أبان الدولة الوسطى . فاستولى على سيخم في جبل إفرايم . وبهذه الحملة زادت سلطة مصر على فلسطين وسوريا . وتقول ترنيمة لسنوسرت الثالث : "ذلك الذي يبيد القبائل دون أن يضرب ضربة ، ذلك الذي يطلق السهم دون أن يمس القوس" . ما من فرعون قبل هؤلاء نال مجداً كمجدهم . ولكن ذاكرة التاريخ خلطت بين أمجادهم ، وطمس الزمن تفاصيل تاريخهم . واحتفظت الأساطير الشعبية بطابع سنوسرت واحد ، هو البطل الأسطوري ، الذي بولغ في قصته بمرور القرون ، حتى بلغت المؤلفين الكلاسيكيين الذين رووا أعمال ذلك الفرعون الرائع ، بأسلوب جذاب . ذلك الفرعون الرائع . ذلك الفرعون الذي قهر العالم كله ، والذي كان أعظم ملك عرفه التاريخ ."

(٢) هذا يشير إلى وراثة قورش للمناطق التي كانت تابعة لعمّه (Cyaxaras) وبالتالي أصبح سيداً لكل آسيا تقريباً وشملت إمبراطورية بابل وآشور وميديا وفارس وآسيا الصغرى .

(٣) سميراميس ملكة أشورية ضم ملكها شبه الجزيرة العربية ومصر وجزءاً من أثيوبيا وليبيا وكل آسيا حتى نهر السند (Indus) لكنها لاقت مقاومة عند هذا النهر فلم تصل فتوحها لأبعد من ذلك .

* Valpy's Delphin edit. of 1821, has the following note here, to shew the identity of Sesostris and Rameses : "Eadem dicuntur de Sesotride a Diodoro. 'Armais, apud Josephum, unde hos Reges depromsit Eusebius frater Sesothios, ipso fratre expeditionem in Asiam faciente, invasit regnum Egypti, etc. Iste SESOTHIOS et praeterea AEGYPTOS. Sed Josephus haec nomina permiscuit. Nam SESOTHIS Josephi est SESO'STRIS Herodoti et SESOO'STIS Diodori."

"فمن ذا الذي يستطيع أنْ يُعدّد الخدمات التي قدمها ملوك الهند لملك البرتغال د. مانويل الذي لم تعرف الهزيمة سبيلها إليه ؟ ومن الذي يعدد الإتاوات التي دفعوها له ؟ والصداقة التي راحوا يستجدونها منه ؟ وأخيراً شروط التبعية التي قبلها معظمهم مُجبرين بفضل قوّة هذا القائد اللامع (أفونسو دلبوكيرك) ، وبالإضافة لأولئك الذين أجبرهم أفونسو دلبوكيرك بالقوة المسلحة أنْ يكونوا تابعين يدفعون الإتاوة ، لم يبق ملك واحد (في الهند) لم يتقرب إليه بأداء خدمات لا حد لأهميتها منهم ملك كمبي (كمبايا) وملك ناريسنجا Narsinga القوي الذي عندما علم بالنصر الذي حقّقه البرتغاليون في ملقى أرسل لأفونسو دلبوكيرك كوباً من ذهب وسيفاً من ذهب وقد إزدان مقبضه بياقوت لا يُقدّر بثمن وراح يتوسل من أفونسو دلبوكيرك أن يجعله (أي يجعل ملك نارسينجا) ومملكته في خدمته (أي في خدمة أفونسو دلبوكيرك) . لكن لماذا أركّز على ذكر الذهب والأحجار الكريمة والمواد ذات القيمة التي أرسلها الكفار إليه ؟ إنني سأتجاوز هذا لما هو أكثر أهمية بكثير ، فملك الحبشة المشهور بريست جواَو Preste Joa'o (بريستر جون)* التي تقع بلاده إلى الأدنى من مصر رغبة منه في صداقته لم يرسل له ذهباً ولا أحجاراً كريمة وإنما أرسل له ما هو أهم من ذلك بكثير وما احتفى به أفونسو دلبوكيرك احتفاءً يفوق الوصف . لقد أرسل له قطعة كبيرة من خشب الصليب الحقيقي "الصليب الأصلي[1] True Cross" وأرسل معه رسالة يقول فيها إن لديه مبرراً كافياً في إرسال هذا الجزء من الصليب الأصلي[2] لأننا نرفع هنا بقوة السلاح راية الصليب المقدس في مناطقَ بعيدة جداً عن أرض آبائه .

"لقد كتب المؤرخون أن ديمتريوس Demetrius ابن أنتيجونس Antigonus الذي خلف الإسكندر في السيادة على مقدونيا -بسبب مواظبته في الاستيلاء

* وردت الإشارة في تعليقات الترجمة العربية للجزءين الثاني والثالث عن فكره "بريستر جون" في اللاهوت المسيحي ، أو فكرة الأمير المسيحي الشرقي الذي سيمد يده لمسيحي الغرب للقضاء على العالم الإسلامي .

(١) Vera Cruz ، وهذه الكلمة vera نادرة الاستخدام إلاّ عند وصف الصليب ، لكنها ليست الكلمة الوحيدة . أنظر الحاشية التالية .

(٢) Verdadeira Cruz .

على المدن- أُطلق عليه اسم قنّاص المدن Poliocretes ، فأي لقب إذن سنمنحه للقائد الفذ أفونسو دلبوكيرك مـا دام قد استولى على هذا العدد الكبير من المدن ، وقهر هذا العدد مـن الممالك وشتّت شمل هذا العدد الهائل من الأعداء ؟ أي سعادة تلك التي يُحس بها ملك هذا القائد من رعيّته ، والذي استطاع بقوّة السلاح أنْ يحطم مملكة كلكتا القوية جداً ؟ ألم يجبر ملك نارسينجا Narsinga وما أدراك من هو ؟ أن يأتي عارضاً كل رعيته وكنوز مملكته وأفياله الوفيرة أملاً في أن يكون في سلام مع ملك البرتغال ؟ ألم يُعِدْ مملكتي كوشن (كوشيم) وكانانور بعد أن قهرهما في ميدان القتال ؟ ألم يحرر المسيحيين الذين كانوا يعيشون في الهند من ربقة العبودية ؟ ألم يستولِ على جزيرة سيلان ومملكتها ؟ وأخيراً فهو لم يكتفِ بهذه الانتصارات الكثيرة ، ألم يرسله الملك القوي جداً دوم مانويل لِيَشُن حرباً ضد السلطان الكبير في القاهرة وليمخُر عباب البحر الأحمر ؟ ثم ولكي لا يظل مكان في العالم إلاّ وامتدت إليه انتصاراته ، ألم يستولِ على مدينة أسفي[1] Cafim العظيمة في أفريقيا .

"إنّ كل هـذه الانتصارات والنجاحات ميمونة الطالع التي لم يسبق لها مثيل التي تمت في عهد الملك الغلاّب دوم مانويل لأكثر استحقاقاً للمدح مما استحقته نجاحات القدماء ، إنها تستحق من المدح بقدر ما نستحق نحن البشر من الأزدراء ، ذلك أن الملك البرتغالي ليس له من هدف سوى نشر العقيدة المسيحية في العالم كله كهدف صالح وعالمي لكل جهودنا ، في الوقت الذي فيه نحن جميعاً مشغولين ومُثقلين بالثأر لجراحاتنا . لقد هاجمَ الأعداءَ الكفرة بينما نحن يحارب بعضُنا بعضاً . لقد ضم ممالك جديدة ومناطق جديدة لملكه ، أما نحن فبسبب إهمالنا فقدنا ما كان في أيدينا بالفعل وسنفقد أكثر وأكثر إذا لم نصغِ لكلمات الرب the Lord الذي يدعونا كل يوم ويصرخ فينا أنْ أفيقوا .

---

(١) Cafim أو Saffi هي مدينة Rusupis القديمة . وهي مدينة ذات أسوار وميناء مراكشي إلى الشمال Mogador استولى عليها البرتغاليون في سنة ١٥٠٨م وتركوها سنة ١٦٤١م . انظر Osorius, Lib. v. , adinit عن أحداث الغزو البرتغالي لهذه المدينة .

"أيها السادة إنني أتوسل إليكم بحق عقيدتكم المسيحية أن تتذكروا كم حاق بالمسيحية من خسائر في الستين سنة الأخيرة . أهي خسائر يمكن أنْ تُنسى ؟! أيمكن أن نتذكر هذه الخسائر دون أن يعتصرنا الألم ؟ ماذا عن القسطنطينية ؟[1] وماذا عن نجروبنت[2]* Negroponte ؟ وماذا عن

---

(١) محمد الثاني ابن أموراث Amurath (مراد خان الثاني) وتولى السلطنة بعد وفاة أبيه وهو في سن العشرين في سنة ١٤٥١م أخذ على عاتقه فتح الامبراطورية البيزنطية Greek Empire وفتح القسطنطينية ، وبدأ بإزاحة كل العوائق التي تعرض المشروع الذي فشل في تحقيقه من سبقوه ، لقد ظهر أمام القسطنطينية بثلاثمائة ألف مقاتل (٣٠٠,٠٠٠) وأسطول من ثلاثمائة سفينة وبدأ حصاره في ٦ أبريل ١٤٥٣م ، وواجه المحاصَرون (بفتح الصاد) بقواتهم التي تتراوح بين ٨٠٠٠ و ١٠,٠٠٠ عدواً يفوقهم عدداً فاستسلموا الترك Turks (الكلمة هنا تعني الترك العثمانيين) بعد أن دافعوا ببسالة (٥٢) يوماً وفتحت المدينة عنوة في ٢٩ مايو وأباحها الفاتح لجنوده ، وقد قُتل قسطنطين آخِر الأباطرة البيزنطيين Greek في الهجوم الأول وأسر الفاتح كل السكان واسترقَّهم ، وفي غضون ست ساعات أو سبع كان الترك (العثمانيون) قد أخلوا

المدينة تماماً من السكان وأعقب ذلك فتح العثمانيين الصرب Servia والبوسنة وألبانيا واليونان والمورة Morea (البلوبونيز "Peloponnesus") ومعظم جزر الأرخبيل وخضعت إمبراطورية طرابزون Trebizond على ساحل آسيا (الصغرى) لشريعة هذا الفاتح في سنة ١٤٦٦م .

* نورد هنا مقتطفات مما أورده محمد فريد بك في تاريخ الدولة العلية العثمانية عن فتح القسطنطينية ، ومحمد الفاتح :

"ولد هذا السلطان في ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ هـ (٢٠ ابريل سنة ١٤٢٩م) . وهو سابع سلاطين هذه السلالة الملوكية ولما تولى الملك بعد أبيه لم يكن بآسيا الصغرى خارجاً عن سلطانه إلاّ جزء من بلاد القرمان ومدينة سينوب(١) ومملكة طرابزون الرومية(٢) . وصارت مملكة الروم الشرقية قاصرة على مدينة القسطنطينية وضواحيها . وكان إقليم (مورة) مجزأ بين البنادقة وعدة إمارات صغيرة يحكمها بعض أعيان الروم أو الإفرنج الذين تخلفوا عن إخوانهم بعد انتهاء الحروب الصليبية وبلاد الأرنؤد وابيروس(١) في حمى اسكندر بك السالف الذكر ، وبلاد البشناق (البوسنة) مستقلة والصرب تابعة الدولة العلية تابعيَّة سيادته ، وما بقي من بحث جزيرة البلقان (شبه جزيرة البلقان) داخلاً تحت سلطة الدولة العلية ....

فحاصر السلطان المدينة في أوائل ابريل سنة ١٤٥٣م من جهة البر بجيش يبلغ المائتين والخمسين ألف جندي ومن جهة البحر بعمارة مؤلفة من مائة وثمانين سفينة وأقام حول المدينة أربع عشرة بطارية طوبجية (مدفعية) وضع بها مدافع جسيمة صنعها صانع مجري شهير اسمه (أوربان) كانت تقذف كرات من الحجر زنة كل واحدة منها اثنا عشر قنطاراً(٢) إلى مسافة ميل . وفي أثناء الحصار اكتشف قبر أبي أيوب الأنصاري(١) الذي استشهد حين حصار القسطنطينية في سنة ٥٢هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان الأموي . وبعد الفتح بُني له مسجد جامع وجرت العادة بعد ذلك أن كل سلطان يتولى يتقلد سيف عثمان الغازي الأول بهذا المسجد وهذا الاحتفال يُعد بمثابة التتويج عند ملوك الإفرنج ولم تزل هذه العادة متَّبعة حتى الآن . ولما شاهد قسطنطين آخر ملوك الروم هذه الاستعدادات استنجد بأوروبا فلبى طلبه أهالي جنوة(٢) وأرسلوا له عمارة بحرية تحت أمرة جوستنياني فأتى بمراكبه وأراد الدخول إلى ميناء القسطنطينية فعارضته السفن العثمانية وانتشرت بينهما حرب هائلة في يوم ١١ ربيع الثاني سنة ٨٥٧ هـ (٢١ ابريل سنة ١٤٥٣م) انتهت بفوز جوستنياني ودخوله الميناء بعد أن رفع المحصورون السلاسل الحديدية التي وضعت لمنع المراكب العثمانية من الوصول إليها ثم أعيدت بعد مروره كما كانت وبعدها أخذ السلطان يفكر في طريقة لدخول مراكبه إلى الميناء لإتمام الحصار براً وبحراً فخطر بباله فكر غريب في بابه وهو أن ينقل المراكب على البر ليجتازوا السلاسل الموضوعة لمنعه ، وتم هذا الأمر المستغرب بأن مهد طريقاً على البر اختلف في طوله والمرجح أنه فرسخان أي ستة أميال ورصت فوقه ألواح من الخشب صبت عليها كمية من الزيت والدهن لسهولة زلق المراكب

عليها ، وبهذه الكيفية أمكن نقل نحو السبعين سفينة في ليلة واحدة حتى إذا أصبح النهار ونظرها المحصورون أيقنوا أن لا مناص من نصر العثمانيين عليهم ، لكن لم تخمد عزائمهم بل ازدادوا إقداماً وصمموا على الدفاع عن أوطانهم حتى الممات وفي يوم ١٥ جماد أول سنة ٨٥٧ هـ (٢٤ مايو سنة ١٤٥٣م) أرسل السلطان محمد إلى قسطنطين يخبره أنه لو سلم البلد إليه طوعاً يتعهد له بعدم مس حرية الأهالي أو أملاكهم وأن يعطيه جزيرة مورة فلم يقبل قسطنطين ذلك بل آثر الموت على تسليم المدينة فعند ذلك نبه السلطان على جيوشه بالاستعداد للهجوم في يوم ٢٠ جماد أول سنة ٨٥٧ هـ (٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م) ووعد الجيوش بمكافآتهم عند إتمام النصر وباقطاعهم أراضي كثيرة . وفي الليلة السابقة لليوم المحدّد أشعلت الجنود العثمانية الأنوار أمام خيامها للإحتفال بالنصر المُحقق لديهم وظلوا طوال ليلهم يهللون ويكبرون حتى إذا لاح الفجر صدرت إليهم الأوامر بالهجوم ، فهجم مئة وخمسون ألف جندي وتسلقوا الأسوار حتى دخلوا المدينة من كل فج وأعملوا السيف فيمن عارضهم ، ودخلوا كنيسة القديسة صوفيا حيث كان يصلي فيها البطريق وحوله عدد عظيم من الأهالي ، ويعتقد الروم حتى الآن أن حائط الكنيسة انشق ودخل فيه البطريق والصور المقدّسة وفي اعتقادهم أن الحائط ينشق ثانية يوم يخرج الأتراك من القسطنطينية(١) ويخرج البطريق منها ويتم صلاته التي قطعها عند دخول العثمانيين عليه عند الفتح . وقد أرخ بعضهم هـذا الفتح المبين (بلدة طيبة)(٢) سنة ٨٥٧ هـ وسُمِّيت المدينة اسلامبول أي تخت الاسلام أو مدينة الاسلام .

أما قسطنطين فقاتل حتى مات في الدفاع عن وطنه . وبعد فتحها جُعلت عاصمة للدولة وما تزال كذلك إن شاء الله ولنذكر هنا أن المسلمين حاصروا القسطنطينية احدى عشرة مرة قبل هذه المرة الأخيرة منها سبعة في القرنين الأوّلين للإسلام ، فحاصرها معاوية في خلافة سيدنا عليّ سنة ٣٤ هـ (٦٥٤م) وحاصرها يزيد بن معاوية سنة ٤٧ هـ (٦٦٧م) في خلافة سيدنا عليّ أيضاً . وحاصرها سفيان بن أوس في خلافة معاوية سنة ٥٢ هـ (٦٧٢م) وفي سنة ٩٧ هـ (٧١٥م) حاصرها مسلمة في زمن الخليفة عمر بن عبدالعزيز الأموي . وحوصرت أيضاً في خلافة هشام سنة ١٢١ هـ (٧٣٩م) . وفي المرّة السابعة حاصرها أحد قوّاد الخليفة هارون الرشيد سنة ١٨٢ هـ (٧٩٨م) .

هذا ثم دخل السلطان المدينة عند الظهر فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب وغيره فأصدر أوامره بمنع كل اعتداء ، فساد الأمن حالاً . ثم زار كنيسة أيا صوفيا وأمر بأن يؤذن فيها بالصلاة إعلاناً بجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين(١) . وبعد تمام الفتح على هذه الصورة أعلن في الجهات كافة بأنه لا يعارض في إقامة شعائر ديانة المسيحيين بل إنه يضمن لهم حرية دينهم وحفظ أملاكهم فرجع من هاجر من المسيحيين وأعطاهم نصف الكنائس وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين ثم جمع أئمة دينهم لينتخبوا بطريقاً لهم فاختاروا جورج سكولاريوس . واعتمد السلطان هذا الانتخاب وجعله رئيساً لطائفة الأروام واحتفل بتثبيته بنفس الأبهة والنظام الذي كان يعمل للبطارقة في أيام ملوك الروم المسيحيين وأعطاه حرساً من عساكر الإنكشارية ومنحه حق الحكم في القضايا المدنية والجنائية بأنواعها المختصة بالأروام كافة وعين معه في ذلك مجلساً مشكلاً من أكبر موظفي الكنيسة ، وأعطى هذا الحق في الولايات للمطارنة والقسوس . وفي مقابلة هذه المنح فرض عليهم دفع الخراج مستثنياً من ذلك أئمة الدين فقط ...

(٢) نجروبنت هي Euboea القديمة استولى عليها الترك (العثمانيون من البنادقة في سنة ١٤٧٠م) .

* تم فتحها في عهد محمد الفاتح أيضاً ، واسمها في الكتب العثمانية أجريبوس أو أغريبوز ، وتكتب نجربنت أيضاً ، وهي جزيرة أمام الشاطىء اليوناني الشرقي .

أنظر تعليق إحسان عباس في تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد ، ص ١٧٢ .

(١) ليبانتو ، اسمها القديم (Naupactus) غرب أثينا على الجانب الشمالي لخليج يحمل اسمها (خليج ليبانتو) حاصرها الترك (العثمانيون) سنة ١٤٧٥م دون طائل لكنهم تملكوها في سنة ١٤٩٨م وعاد البنادقة فاستولوا عليها سنة ١٦٨٧م لكن العثمانيين استعادوها في سنة ١٦٩٩م .

(٢) Modon واسمها القديم Mothooc دينة حصينة في مسينيا Messinia جنوب غرب تريبوليتزا Tripolitza كانت في ممتلكات البنادقة وربما استولى عليها الترك في هذه الفترة .

Durazzo ؟[1] ومـاذا عـن المدن الأخرى التي أصبـحت ويا للعـار في أيدي المسلمين Turks ؟ عن أيِّ شيء نبحث ؟ أننتظر ليأخذونا ونحن نيام ، ليأخذونا على غرّة ولمّا نستعد ؟ ليقتلونا قبل أن نحرس أنفسنا . إنهم حتى الآن في المجر Hungary وحتى الآن يشنُّون الحرب في سلافونيا Sclavonia ، وحتى الآن يطوفون البحر دون أنْ يتحداهم منًّا أحد ، وحتى الآن يعملون للانقضاض على إيطاليا .

"والآن ، أيها الأب المبارك ، يا أكثر الآباء بركة ، فقد أتيتَ كنجم للخلاص في وسط هذا البؤس الذي يجب ألاّ يوافق عليه أحد ، فلتأخذ يا أبانا احتياطاتك لهذا لتُحبط دوافع الخصام والخلاف التي تجعل ملوك المملكة المسيحية Chris-tiandom (العالم المسيحي) يتركـون إلى الأبـد هذه الحروب البشعة (البائسة) المستعرة بينهم فليس لها من نتيجة طيبة ، فليطرحوا عداواتهم ظَهْرِياً ليكونوا أصدقاء من جديد حتى يتحدوا معاً ويوجهوا أسلحتهم ضد العدو المشترك[2]* ليهزموه وليستعيدوا بيت المقدس بالتعاون مع الملك دوم مانويل "الذي يرسل ١٢,٠٠٠ مقـاتل على رأسـهم ديوك البـراجـانسي Duke of Braganca زوج ابنتـه في حملـة على أفريقيا" فإذا ما خرجنا من معاركنا معهم منتصرين كان هذا بفضل الرب الذي مكّننا من هذه الأمم المتبربرة التي تعبد الأوثان وتثق في أرباب زائفين ، ليـعلمـوا اسم ربنا Our Lord وليـعلمـوا أنه هـو وحـده هو الواحد الجبار المهيمن على العالم ،، آمين .

---

(١) إسمـها القديم Epidamnus و Dyrrachium مدينة بحرية ألبانية جنوب سكوتاري Scutari وكانت هذه المدينة حاضرة الدوشي Duchy استولت عليها أسرة أنجو-سيسلي Anjou-Sicil أعادها للأمبراطورية العثمانية السلطان بايزيد خان الثاني Bajazet II (١٤٨١-١٥١٢م) .

(٢) في اجتماع عقده البابا بيوس الثاني Pius في منتوا Mantua سنة ١٤٥٩م اقترح اتحاداً عاماً بين القوى الأوربية (قوى الغرب) ضد الترك (المقصود العثمانيين خاصة والمسلمين عامة) ونادى بإعداد حملة صليبية Crusade وكان على وشك أن يقودها بنفسه لكنه مات فجأة في سنة ١٤٦٤م في أنكونا Ancona وكان قد عيّن بالفعل في هذه المدينة لتكون مقراً لتجمع الكتائب المتحدة (القادمة من مختلف دول أوربا . لقد أدّى موت البابا بيوس بالإضافة للرعب الذي بثته جيوش السلطان العثماني محمد الفاتح في الغرب إلى إحباط خطط الصليبيين "الداعية إلى شن حرب صليبية") وإلى تفكك جمعهم (تفرق قواتهم) . لقد كانت دعوة البابا بيوس لحرب صليبية سابقة على الدعوة الواردة في هذه الخطبة بستين عاماً .

* أنظر مقدمة الترجمة العربية أيضاً ، جـ٢ ، جـ٣ لفهم أبعاد الحركة الصليبية في مطلع التاريخ الحديث .

الفصل الأربعون

قدوم قادة تابعين للعادل الخان لمحاصرة جوا بعد رحيل افونسو دلبوكيرك إلى ملقى وكيف تصرّف البرتغاليون إزاء ذلك .

لقد تذكّر العادل خان ما أعلنه أفونسو دلبوكيرك الكبير لأبيه على لسان مبعوث بعث به إليه (بينما كان أفونسو مُتّخذاً موقعاً في نهر جوا كما ذكرنا آنفاً وقد ضاق صدره ولم يَعُد وقتها قادراً على كَبْح مشاعره) إذ قال له أنه سيرى كلّ ما يقوله الآن وقد وُضِع موضع التنفيذ بعد ذلك ، ورأى العادل خان أنّ المدينة قد أصبحت في يد المسيحيين وأن الملرهو[1] Milrrhoa الهندوسي يقوم بأمر حكومتها ويجبي عوائد البلاد التابعة لها في البر الرئيسي - فترك لخياله أن يتصوّر أنّ الوقتَ قد حان لاسترداد المدينة (جوا) مرّة أخرى نظراً لرحيل أفونسو دلبوكيرك إلى ملقى ، فأرسل أحدَ القوّاد التابعين له وهو بولاد خان[2] Pulateca'o على رأس قوات من المُشاة والخيّالة لينقضّ على الملرهو Milrrhao ويطرده خارج البلاد ويقبض على تيموجا Timoja وأن يتمركز بقوّاته في موضعه الذي هو فيه حتى تأتيه تعليمات بالخطوات التالية (من العادل خان) .

(١) ميلرهو Milrrhoa : الجزء الأخير من الاسم وهو Rao يستخدمه الهندوس ليعنون به الأمير أو الزعيم وربما كان مشتقاً من الكلمة راجا Raja ويستخدمه الماهارات Mahratts ليميزون به الأشخاص العسكريين عن المدنيين . وتستخدم طبقة السودرا Sudras هذا المقطع للدلالة على الطبقة العسكرية Kshatriya . وقد أطلق المؤلف عليه في الفصل السادس اسم Merlao .

(٢) Pulateca'o هنا كما ترد تباعاً في هذا الكتاب اسم ولقب تم مزجهما معاً . فبولاد Pulad أو فولاذ Fulad اسم غير مجهول في التراث الشرقي أما Ca'o أو خان Khan فلقب يستخدمه المسلمون خاصة من ذوي الأصول الفارسية والباتانية Pathan ، ومن الشائع إلحاقه بالأسماء الأفغانية والباتانيّة أيضاً .

ومــا إنْ انطلق بولاد خــان بعــسكره حــتى علم الملرهو Milrrhao (الأمــيــر الهندوسي) بهجومة المُرتَقَب فأعد للأمر عُدّته وانتظره بخمسة آلاف مقاتل محلّى Peons من المشاة وخمسين راكباً ، وأرســـل في المقدمة هكرهــو[1] Hicarrhau ليدافع عن ممر في السلسلة الجبلية كان لابد أن يجتازه العدو ، لكنه أبطأ كثيراً حتى أنه مـا أنْ وصل للمـمـر حـتى وجـد بولاد خـان قـد اسـتـولى عليه بالفـعل وانقضت قوات بولاد خان على قوات هكرهو Hicarrhau فألحقت بها الهزيمة ، ولاحقتها بحماس شديد ، وقتلت قائدها (هكرهو) في أثناء فراره كما قتلت عدداً كبيـراً من رجاله ، وبدون انتظار انقضّت قوات بولاد خان على معسكر ملرهو (القـائد الهندوسي) وألحـقت به هزيمة سـريعة ، ووجـد ملرهو Milrrhoa أنه قد لاقى هزيمة منكره وأنه ليس هناك من يُنجده فاصاغ السَّمع لنصيحة تيموجا Timoja ولم يعُد إلى جوا وإنما إتخـذ طريقهُ إلى نارسينجا Narsinga وعندما وصل إلى بيسناجا Bisnaga حيث يقيم الملك (ملك نارسينجا) لقي استقبالاً حافلاً ، وبعد وصوله بفترة وجيزة مات تيموجا Timoja ، وبعد عدة أيام أتاه (أي ملرهو "Milrrhao") تقرير من (أونور) Onor أن أخاه الذي كـان قـد رفع راية العصيان واستولى على هذه المملكة (أونور) قد مات – فاستأذن (أي ملرهو) من ملك نارسينجا ليرحل ، وظل دائماً تابعاً مخلصاً لملك البرتغال .

وعندما وجد بولاد خان Pulate ca'o أنه قد حقّق هذا النصر وتملّك أراض تابعة لجوا نسي كل ما أمره به العادل خان وأراد أنْ يُتابع انتصاراته فجهّز عدداً من القوارب وطّوافات خشبية للعبور rafts وشرع دون إنتظار أي عَوْن في العبور إلى جزيرة (جوا) وحصّن قواته في بيناستاريم Benastarim وهو الموقع الذي لم يكن قد حصّنه رودريجو رابيلو[2] Rodrigo Rabelo قائد المدينة البرتغالي إمّا إهمالاً منه أو لأنه كان مشغولاً بأمور أخرى اعتبرها أكثر أهمية ، رغم أن أفونسو دلبوكيرك كان قد أمره بتحصين هذا الموقع قبل رحيله (إلى

(١) أطلق عليه المؤلف اسم إكرو Icarao في الفصل الرابع .
(٢) أنظر الفصل ٩ .

ملقى) لأن هذا الموقع هو موقع العبور والممر الرئيسي من البر الرئيسي إلى جزيرة جوا (كَوا) .

وحالما تمركز بولاد خان متحصِّناً في بيناستاريم عاقداً العزمَ على التمسُّك بموقعه العسكري فيها ، راحت قواته تشن الغارات على القرى الهندوسية المجاورة مُدَمِّرة ومُحرِّقة كل ما يصادفها . لكن عندما علم رودريجو رابيلو Rodrigo Rabelo بهذا خرج بثلاثمائة محارب راكب ، ومعه وزير كانانور Alguazil of Cananor الهَرِم على رأس أربعمائة من النير Naires بسيوفهم المسحوبة وتروسهم كان ديوجو كوريا Diogo Correa قد أرسلهم لنجدة المدينة ، فانقضوا جميعاً على قوات بولاد خان وألحقوا بها الهزيمة وقتلوا ألفا وخمسمائة من المقاتلين الترك (مسلمي البلاد من هذا العنصر) والخراسانيين Coracones وكانت هذه الضربة سعيدة الحظ والمفاجئة سبباً في بثِّ الحماس في رودريجو رابيلو Rodrigo Rabelo فراح يطارد العدوّ المهزوم بفرسانه ، ووجد الترك (مسلمو الهند من هذا العنصر) أن رجالنا يضغطون عليهم فاحتمى منهم قرابة ستين وراء بعض الأسوار المهدّمة فوق التل لينجوا بأنفسهم من اندفاع رجالنا (البرتغاليين) فانقض عليهم رودريجو رابيلو واشتبك معهم فدافعوا عن أنفسهم ببسالة لارتفاع الموقع الذي تمركزوا فيه ، ولصعوبة دخول الخيول في هذه المنطقة الصخرية ، ونجح المسلمون في قتل رودريجو رابيلو ، وكذلك مانويل دا كنها Manuel da Cunha الذي كان في الطليعة .

وعندما وجدت القوة البرتغالية أنها أصبحت بلا قائد عادت إلى المدينة حاملة معها أخبار هذه المأساة المحزنة ، فحزن البرتغاليون كثيراً لمصرع رودريجو رابيلو لأنه كان قائداً محبوباً يتحلَّى بشجاعة لا نظير لها . وعاد بولاد خان بما تبقي من قواته إلى بيناستاريم Benastarim مُصمماً على شن الحرب ضد المدينة (جوا) . وكان غالب رجالنا ممن لم يكونوا راغبين في أن يكون فرنسسكو بانتوجو Francisco Pantojo –مسئول العدالة في الحصن– هو قائد المدينة خلفاً لرودريجو رابيلو ، وبعث بعض الخلافات جرى إنتخاب ديوجو مندز دي

فاسكونسيلوس Diogo Mendez de Vasconcelos الذي كان أفونسو دلبوكيرك قد أمر بإحتجازه والتحفظ عليه لأسباب ذكرتها فيما سبق . وما أن تم ذلك حتى تقدَّموا جميعاً وأطلقوا سراحه وأوكلوا إليه حكومة المدينة وأقسموا يمين الولاء والطاعة له باعتباره ممثلاً لأفونسو دلبوكيرك حتى يأتي بنفسه ويرتب الأمر بما يراه أفضل ، وما أن أصبح ديوجو مندز دي فاسكونسيلوس في مركز القيادة حتى كتب إلى مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda الذي كان بسبيله – كرئيس قباطنة الأسطول– للقيام بحملة ضد كالكتا يُخبره بكل ما جرى ويرجوه أن يعود لنجدته .

الفصل الواحد والأربعون

كيف أنّ العادل خان -بعد أن علم أنّ بولاد خان قد أحْدث مدخلاً إلى جزيرة جوا واستولى على بيناستاريم- دون إذن منه ، أمرَ رسول خان بالاستيلاء على هذه المواقع منه ، وما جرى بعد ذلك .

وما أن علم مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda من ديوجو مندز Diogo Mendez بالمصاعب التي يواجهها حتى ترك ساحل كلكتا واتّجه بكل أسطوله بما عليه من رجال لتخليص جوا ، فلما وصلها وجد المدينة في فزع شديد من أخبار مُفادها اقتراب جيش كبير ذي عُدّة وعدد على رأسه رسول خان كبير قادة العادل خان ، مصحوباً بعدد كبير من المدافع . فسارع البرتغاليون بتحصين المدينة وإزالة الحواجز وجمع المؤن حتى لا يأخذهم العدو على غرّة منتهزاً فرصة أوضاعهم غير المواتية ، ومما ضاعف من إسراعهم في إنجاز كل ذلك خوفهم من أن يحل موسم الشتاء قبل أن يُعِدّوا للأمر عدّته ، وفي هذه الأثناء وصل ديوجو فرناندز دي بيجا Diogo Fernandez de Beja بأسطوله وقواته ، وكان أفونسو دلبوكيرك قبل رحيله إلى ملقى قد أرسله إلى هرمز ، وكان لوصوله أثر كبير في رفع معنويات رجالنا في جوا .

وعندما علم العادل خان أنّ قائده بولاد خان قد دخل جزيرة جوا (كَوا) وامتلك بيناستاريم Benastarim خشيَ من خُطْوته التالية ، لأنه (بولاد خان) شخصية غير هادئة وكان (بولاد خان) قد ثار ضد العادل خان بعد سقوط جوا في يد

البرتغاليين ، وخشي أن يرفع راية العصيان ضدّه طمعاً في عوائد البلاد ، فسارع (أي العادل خان) بإرسال أحد قادته المهمّين وهو رسول خان بقوات كبيرة مصحوبة بعدد كبير من المدافع لطرد بولاد خان من مواقعه .

ولم يكن بولاد خان سعيداً بوصول رسول خان ، بل إنه اعتبر أن العادل خان قد ألحق به إهانة كبيرة بإرساله قائداً آخر لهذه المهمة لأنه هو نفسه (أي بولاد خان) الذي أحرز النصر بدخوله الجزيرة ، وما أثاره أكثر أن هذا القائد الآخر الذي أرسله العادل خان هو رسول خان الذي لم يكن على علاقة وديّة معه ، ومن ثمّ قَرّ قراره على عدم الامتثال لأوامره (أي أوامر رسول خان) . والآن ، فقد كان رسول خان رجلاً عاقلاً متدبراً وقد أدرك أنه لن يُحَقِّق غرضه بالطرق العسكرية (أي إخراج بولاد خان من مواقعه) فقرّر أن يستخدم رجالنا (البرتغاليين) لتحقيق هدفه فراح يُدبِّر هذه الخِدَع والمكائد الماهرة .

لقد أتى معه جواَو ماشادو[1] Joa'o Machado وخمسة عشر برتغالياً كانوا قد أُسِروا مع فرناو جاكوم Fernao Jacome بعد إبحارهم من سقطرى Coco-tora (كما ذكرنا قبل ذلك) ومع هؤلاء الأسرى أتى المدعو دوارت تافارز (Duarte Tavares) المرشح لرتبة فارس في كونتيّة أبرانتس Abrantes والذي أسره الترك (أحد عناصر مسلمي الهند) في جزيرة شورام Choram – ولأن دوارت تافارز هذا كان على علاقة طيبة بالمسلمين ، فقد أرسله رسول خان إلى ديوجو مندز قائد جوا ، ليقول له إن سيده العادل خان يرغب بشدّة أن يكون في سلام وصداقة مع ملك البرتغال ، وأنه متضايق جدا مما فعله بولاد خان ، وأنّه أرسله (أي أرسل رسول خان) بقوّات للقبض عليه (أي القبض على بولاد خان) ، ولكنه عندما وصل وجده محصّناً لا يستطيع الوصول إليه وأنه بذلك قد أُعلن العصيان ضد العادل خان ، لذا فإنه (أي رسول خان) يرجو القائد البرتغالي بشدّة أن يساعده لطرد بولاد خان من مواقعه لأن العادل خان لا يريد خوض حرب ضد البرتغاليين وإنما ينشد السلام والصداقة .

---

(١) انظر جـ٢ ، فصل ٣٩ .

ووجد ديوجو مندز (قائد جوا البرتغالي) أنه ليس في صالح الملك د. مانويل ، أن يقف في صف بولاد خان ، ذلك التركي بحكم مولده ، المتنمر دائماً والثائر ضد العادل خان كما أن ديوجو مندز وثق فيما قاله دوارت تافارز الذي انخدع تماماً بمكائد رسول خان - لكل هذا وافق ديوجو مندز ومعه كل ذوي الرّتب وحاملي ألقاب الفروسية على مساعدة رسول خان فتم تجهيز القوارب والقوادس بسرعة ، وأمر ديوجو فرناندز دي بيجا Diogo Fernandez de Ba'ja أن ينطلق بمئة رجل صُعُداً في النهر ، بينما يشن رسول خان الحرب ضد بولاد خان من البر ، فحاقت الهزيمة ببولاد خان الذي فرّ للبر الرئيسي حيث مات مسموماً .

وحالما استولى رسول خان على بيناستاريم Benastarim وتحصّن فيها برجاله ومدافعه لم تمض أيام قلائل حتى أرسل إلى ديوجو مندز (قائد جوا البرتغالي) يطلب منه أن يتكرّم بتسليم المدينة *لأنها* أهم مدينة في مملكة سيده *العادل* خان ، فأصيب ديوجو مندز عند تلقيه هذه الرسالة بإحباط شديد واكتشف الخطأ الذي وقع فيه ، ومن الآن فصاعداً راح رسول خان يشن الحرب ضد البرتغاليين وأحْكم *الحصار* حول المدينة طوال *الشتاء* فعانى رجالنا *(البرتغاليون)* ضيقاً شديداً وتعرضوا للجوع ، وظلوا على هذه الحال حتى عاد أفونسو دلبوكيرك من ملقى ، فوجد جانباً كبيراً من أسوار الحصن قد تهدّم بفعل رياح الشتاء القاسية .

وعندما رأى جوأو ماشادو Joa'o Machado أنّ بعض *البرتغاليين* قد فرّوا إلى معسكر رسول خان يأساً من الوضع في المدينة إذ ظنوا أنها لن تصمد أكثر من هذا -ترك زوجته وأطفاله وكانوا معه بصحبة جيش رسول خان ، وأتى إلى معسكر البرتغاليين ومعه اثنا عشر مسيحياً ، فرفع ذلك كثيراً من الروح المعنوية لرجالنا ، لأن *هذا* حدث وقد بلغت الأزمة ذروتها . وجوأو ماشادو هذا كان قد تزوّج امرأة مسلمة ارتدّت إلى المسيحية ، وأنجب منها ثلاثة ابناء أو أربعة ، وكان هو نفسه قد عمّدهم سِراً* .

---

* عن حركة التحول للإسلام (أو العودة إليه) في الجيش البرتغالي ، أنظر مقدمة الترجمة العربية لهذا الجزء .

الفصل الثاني والأربعون

كيف جنحت سفن أفونسو دلبوكيرك الكبير في بعض المخاضات عند ساحل سومطرة في أثناء عودته من ملقى، لكنه نجا بشكل إعجازي وما جرى بعد ذلك.

عندما أبحر أفونسو دلبوكيرك من ملقى اتجه ليصل إلى قناة كان قد عبرها في أثناء قدومه من الهند، وبينما كان يمر في المياه الضحلة المعروفة باسم كاباسيا Capacia أمر قبطانيْ السفينة انشوبرجاس Enxobregas والينك Junk أن يقترب أحدهما من الآخر حتى يُبحر الجميع في جماعة مخافة أن يدبر الجاويون الموجودين على متن الينك Junk خديعة ضد البرتغاليين، بينما هو نفسه (أفونسو دلبوكيرك) وبيرو دلبوم Pero Dalpoem يُبحران متَّخذين وضع الحراسة والمراقبة بمعنى أنْ تحرس كل سفينة منهما السفينة الأخرى، وعلى هذا النحو واصلوا الإبحار وعندما وصلوا إلى جزيرة بَوْدر[1]* Powder لم يكن المرشدون التابعون لسفينة أفونسو دلبوكيرك في مواقعهم فلم يدركوا بعض المناطق الضَّحلة الواقعة إزاء هذا الجزء من ساحل سومطرة Camatra في مواجهة مملكة دارو[2] Daru مباشرة، فارتطمت بها السفينة فلور دي

(١) أنظر فصل ١٥، حاشية ٢.

* لا نجد رابطاً بين هذه الجزيرة والحاشية التي أحال إليها المترجم.

(٢) هذه المملكة لم يُشر إليها بيرثيلوت Berthelot في مخطوطة بدرو بريتو دي ريزندي Pedro Barretto de Resende's MS التي أشرت إليها مراراً، ولا أشار إليها كيث جونستون Keith Johnston في الأطلس الملكي Royal Atlas.

لكن ورد في كتاب Portolano الذي وضعه فرناو فاز دورادو Fernaor Vaz Dourad وصف في مقدمة جـ٢ نفهم منه أن دارو Daru على الجانب الغربي لسومطرة.

لامار Flor-de-La-Mar ليلاً ، فانشطرت مباشرة إلى جُزْءين فقد كانت في ذلك الوقت قديمة جداً[١] .

(١) وردت حادثة إرتطام سفينة أفونسو دلبوكيرك هذه في كتاب Correa ص ٢٦٩ كالتالي .

"The parallel account of the Shipwrech of Afonso Dalboquerque from Correa, p. 269, is very graphic :-"Assy vindo, lhe deu hum tempo trauessa'o ta'o forte que nom pode al fazer sena'o sorgir, que foy com huma ancora grande e huma amarra de ro'tas, que sa'o canas delgadas mocicas, que tro'cem, e fazem d'ellas fortes amarras. E tambem sorgio Pero d'Alpoym, que era a' sua vista. que os outros nom parecia'o, que correra'o a'uante, porque era'o mais metidos no mar : mas carrando a noite, o tempo e o mar se tanto aleuantou que foy tromenta aesfeita, em tal maneyra que conueo ao Governador cortar todos os mastos, porque a nao trabal haua muyto com o mar por proa ; e mandou que

todo ficasse amarrado a nao, e de todo fizessem jangada, porque a nao se hia ao fundo com a bomba que nom podia'o vencer. Polo que toda a gente se meteo no trabalho da jangada fortemente, em que alguns morrera'o, proque o mar era grande, vendo que nom tinha'o outra saluaca'o. E porque a jangada se desfazia na nao, enta'o a mandou o Gouernador largar por popa, e homens que defendia'o 'os negros que se hia'o meter n'ella com trouxas, que seus senhores mandaua'o meter. O Gouernador mandou meter os doentes no batel por popa da jangada, e fallou a toda a gente que elle em ciroulas e jaqueta se auia de meter na jangada; que portanto soubessem certo que d'outra maneyra ninguem n'ella nom auia d'entrar : pedindo a Deos misericordia das almas, porque das vidas ninguem fizesse conta.

"Enta'o o Gouernador per huma corda atada pela cinta se deitou no esquife, e com elle os homens que coubera'o, e se foy a jangada em que se meteo, e o esquife tornou a' nao tantas vezes ate' quw nom fiqou ninhum homem poruguez; e o Gouernador nom consentio na jan gada ninhums negro, nom gegra, que todos deitou ao mar, e ficaua'o pegados a' jangada. Estando n'este trabalho, a nao se quebron polo conu'es em dous pedacos, e se foy ao fundo; em que se perdeo a mo'r riqueza d'ouro e pidraria que nunqua se perdeo em nenhuma parte da India, nem nunqua perdera'. E porque a madeira da nao vinha fazer mal na jangada, se aleuantara'o, e 'agoa os foy leuando pera terra, onde tornara'o a sorgir com huma ancora que leuaua o batel, e assy cstiuera'o com as almas nas boquas pedindo misericordia a Deos, ate' que amanheceo, que o vento e mar era menos.

"Quando amanheceo, que da nao de Pero d'Alpoym nom vira'o a nao do Gouernador, e vira'o a madeira polo mar, a dera'o por perdida, e a gente morta, ou que se fo'ra a terra. Polo que deu a vela, e hindo pera terra ouvera'o vista da jangada, porque aleuantara'o panos nas pontas das lancas que metera'o na jangada pera defena'o dos negros; em que a nao foy sorgir perto da jangada, que todos bradaua'o; 'Senhor Deos, misericoria!' As que logo Pero d'Alpoym mandou o batel, em que se meteo o Gouernador com a gente que po'de, e tambem o batel, com a gente que descarregou na nao se tornou a' jaugada a'te que a descarregou; e todavia ouve homens que salua

وكان بيرو دلبوم Pero Dalpoem ناحية عُرض البحر أي أنه كان هو الأكثر بعداً عن هذه المخاضات ، وكان قد ترك المرساة لتوّه ، فسمع صياح طاقم سفينة أفونسو دلبوكيرك وأدرك أن السفينة تغرق فلزم موقعه طوال الليل في ظل عاصفة عاتية هوجاء ، وظل هكذا تحت رحمة حَبْل مرساته وعندما أشرق الصبح تبيّن أن القوارب التابعة للسفينتين ترينداد Trindade وفلور دي لامار Flor-de-La-mar قد غرقت ، فأصدر أفونسو دلبوكيرك أوامره بإعداد طوّافات خشبية يُشدّ بعضها إلى بعضها الآخر واندفع لابساً "جاكت" رمادي ، وكان يخشى أن تجرفه الأمواج وصحبه اثنان من البحارة فوصل إلى السفينة ترينداد Trindade بعد جهد جهيد واجتاز هذه الورطة بفضل هذه الطوّافات وبفضل الحبال التي أمر بيرو دلبوم Pero Dalpeom بمدّها وكان قد أمر أن يُربط في أطرافها دِلاء (جمع دَلْو "bucket") .

وراح رجال سفينة (فلور–دي–لا–مار) وهم يرون أنفسهم يُودِّعون الحياة وأن هذا هو آخر أيّامهم –يصيحون ويشكون لأفونسو دلبوكيرك ماهم فيه ، فقال لهم وهو يعبر ناجياً بنفسه ناظراً إليهم بمرارة عميقة لرؤيته لهم في هذه الحال البائسة– ألا يقلقوا ، وليطمئنوا وليثقوا في ربنا Our Lord فهو لن يتخلّى عنهم ، وأنه (أي أفونسو دلبوكيرك) لن يتركهم حتى لو ضحّى بحياته وبالسفينة الأخرى وكل من معه لإنقاذهم لكنه طلب منهم في الوقت نفسه أن يُعدوا طوافات أخرى لأنه سيعود إليهم ثانيةً دون تأخير .

وبينما كان ركاب السفينة الجانحة (فلور–دي–لا–مار) يعدّون الطوّافة اقترب الينك Junk الذي على رأسه سيماو مارتنز Sima'o Martinz قُرباً شديداً من البقعة التي فيها بقايا السفينة الجانحة (فلور–دي–لا–مار) حيث رجالنا قد

ra'o muyto ouro derrador de sy. Dom Joa'o de Lima po's a sua nao ao pairo, e abrio tanta agoa que correo ao som do mar, e pode fazer caminho porque era muyto a fastado da terra, quenada soube da perdica'o da nao do Gouernador, e' como o tempo abonancou, andou com pouqa uela aguardando polo Gouernador, que bem sabia que ficaua atra's; e assy andando, d'ahy a dez dias o Gouernador foy ter com elle, e seguira'o seu caminho pera Cochym, onde chegara'o com grande trablho de bomba, meos perdidos, ja' em janeiro de 1512."

تجمعوا على الجزء الذي لم تطله المياه ، وقد أدرك من في الينك Junk بوضوح ما يُعانيه رجالنا في هذه السفينة الجانحة ، لكنهم (ركاب الينك) ابتعدوا إلى عُرض البحر وتركوا زملاءهم ولم يظهروا مرة أخرى ، والسبب في ذلك أن الجاوِيِّين الذين كانوا على متن هذا الينك Junk قاموا بتمرّد "وكان هذا بسبب لا مبالاة جورج ننوز دي لياو Jorge Nunez de Lia'o رغم أن أفونسو دلبوكيرك كان قد حذّره منهم ، وكذلك بسبب المرض الشديد الذي ألمّ بسيماو مارتينز Sima'o Martinz" وقتلوا كل البرتغاليين في الينك دون أن يُفلتوا أحداً إلاّ أربعة بحارة انتهزوا فرصة الاضطراب الذي شمل الينك بسبب هذا التمرّد وركبوا قارباً من نوع الماديا (المدية) واتخذوا طريقهم إلى باسي Pace' حيث تلقّاهم حاكمها -الذي كان في ذلك الوقت يقوم بتمرّد أدّى لإستيلائه على مملكة باسي- وأكرمهم ووضعهم في سفينة في طريقها للهند ، وكانت قادمة من ملقى في طريقها إلى كوراماندل Choramandel ، وبينما هم على وشك الإبحار أقبل مركب كان ملحقاً بالينك الذي هربوا منه وكان هذا المركب مزدحماً بالجاوِيِّين الذين ذكروا أنّ الينك قد غرق .

وحالما وصل أفونسو دلبوكيرك إلى السفينة ترينداد Trindade بعد معاناة شديدة فقد أراد ربنا أن ينقذه بمعجزة ، ذلك أن كل الأسباب الدنيوية كانت تعني أنْ يغرق لإرتفاع الموج ارتفاعاً شديداً - تذكّر وعده لرجاله في السفينة الجانحة فأمر -على الفور- بيرو دلبوم Pero dalpoem بالإبحار بالقرب من السفينة الجانحة لالتقاط مَنْ فوقها ، لكن طاقم السفينة ترينداد Trindade -وقد فكروا في أنفسهم أكثر من تفكيرهم في زملائهم الذين يواجهون الخطر- اعترضوا على ذلك قائلين إنهم بدورهم قد يَجْنحون بسفينتهم لشدّة الرياح ، ولأنهم إزاء رف صخري .

لكن أفونسو دلبوكيرك رفض بأي حال أنْ يتخلّى عن واجبه في إنقاذ رفاقه ، فلم يُصغ سمعاً لهذه الثرثرة وإنما راح يذكرهم بما بذله زملائهم في مناسبات شتّى من جهود في ملقى ، وصمّم على المخاطرة بكل شيء لإنقاذهم ، وتقدّم

مُبحراً ليصل إلى الطوّافة التي أعدها من كانوا فوق السفينة الجانحة ومعه كل من فوق متن السفينة ترينداد فوجد أنّ الطوافة ليست فوق الحبل المُعد لها its Cable (أعلن بعض البحارة بعد ذلك أن الحبل قُطع ولم يعرفوا مَنْ فعل هذه الفعلة) ولأنه لم يكن من الممكن أن تصل السفينة للطوّافة بسبب الرياح وحالة البحر فقد جرى تعويمها نحو الشاطيء دون أن يكون مَنْ عليها قادرين على استخدام المجاديف ، ورغم أن أفونسو دلبوكيرك كان قد فقد الأمل في إنقاذهم فإنه أمرَ الطاقم برفع كل الأشرعة ، وأن يُسرعوا في الإبحار بقدر استطاعتهم ليصلوا للينك Junk قبل اصطدامه بالشاطيء وأن يجهزّوا مرساتين لإلقائهما عند الحاجة وأمر المرشدين بِسَبْر أغوار المياه بقِطَعِ الرصاص التي في أيديهم في حالتي المد والجَزْر ، وما هي إلاّ فترة وجيزة حتى وصلوا إلى الطوّافة فألقوا المراسي سِراعاً في مياه عمقها ثلاث قامات ونصف قامه (فازوم) وهو عمق مناسب واستخدموا الحبال وقد رُبطت في أطرافها دلاء وبراميل فارغة وبعد أن التقطوا الرجال ظلوا مكانهم طوال الليل يعانون عاصفة عاتية واضعين ثقتهم في رحمة ربنا الذي لم يتخل عنهم فقبل طلوع الصبح هبت نسائم ليّنة مكنتهم من التراجع عن هذا الموضع ليواصلوا رحلتهم .

الفصل الثالث والأربعون

ما خسرهُ البرتغاليون في السفينة (فلور–دي–لا–مار) وكيف واصل أفونسو دلبوكيرك –بعد أن جمع كل رجاله في السفينة ترينداد– طريقه إلى سيلان (سيلاو) وما جرى بعد ذلك حتّى وصولهم إلى كوشن (كوشيم) .

لقد كان في السفينة فلور–دي–لا–مار Flor-de-La-Mar التي جنحت ، وفي البنك Junk الذي تمرّد ركّابه الجاويّون علينا ، كثير من الأسلاب الثمينة ضاعت علينا نحن البرتغاليين ، لقد كانت هذه الأسلاب الأغلى ثمناً والأكثر قيمة منذ اكتشفنا الهند حتى هذه اللحظة ، كما ضاع علينا كثير من النسوة البارعات في التطريز وكثير من الفتيات من أُسر عريقة من كل هذه الأنحاء الممتدة من رأس كوموريم Comorim وإلى الشرق منها[1] كان أفونسو دلبوكيرك يحملهم للملكة د. ماريا D. Maria وفقد البرتغاليون الهوادج الخشبية المحلاّة بالأقمشة المطرّزة والمقصّبة التي كان يضعها ملك ملقى فوق أفياله أيضاً ، ومحفّات[2] قيمةٌ جداً كان يستعملها شخصياً (أي ملك ملقى) وكلها محلاّة بالذهب ومن أجمل ما تقع عليه الأعين ، وكميات كبيرة من الجواهر والأحجار الكريمة ، كان أفونسو دلبوكيرك ينوي إرسالها للملك د. مانويل . كما فقدوا أيضاً منْضدة ذات قوائم مغطاة جميعاً برقائق الذهب كان ملرهو Milrrhao قد أهداها

---

(١) أنظر على سبيل المثال الفصل ٣٩ .
"aquem de Ganges, a que os portuguees chama'o do Cobo do Comorim Pera dentro"
(٢) Andores .

ليرسلها أفونسو دلبوكيرك إلى ملك البرتغال وكان هذا وقت تسلّمه جوا . وكان أفونسو دلبوكيرك -عندما وصل إلى كوشن (كوشيم) قاصداً ترك هذه المنضدة في رعاية الوكيل التجاري- في عجلة شديدة من أمره ليلحق بالرياح الموسمية المناسبة للإبحار فنسي تسليمها للوكيل التجاري فأخذها معه إلى ملقى . وفقد كل رجالنا كميات كبيرة من الأسلاب التي جمعوها لأنفسهم أيضاً . لقد ضاع كل شيء كان في السفينة والينك Junk ولم يتم أنقاذ شيء خلا السيف والتاج الذهبي وسوار الياقوت وهي التي قدمها ملك سيام (سياو "Siao") لتُرسل هدية لملك د. مانويل ، لكن ما حزن أفونسو دلبوكيرك على فقده كثيراً أكثر من حزنه على فقد سواه ، هو ضياع السوار[1] الذي كان قد وجده مع نودابجيا -Naoda begea (النوخذة بيجيا) فقد كان أفونسو دلبوكيرك قشد جلبه لإرساله لملك البرتغال لتأثيره المُدهش . وكذلك أسف أفونسو دلبوكيرك لضياع تماثيل الأسود التي وجدها في بعض قبور ملوك ملقى والتي أوصى بوضعها على قبره في جوا كتذكار لإستيلائه على ملقى . ولم يكن أفونسو دلبوكيرك قد احتفظ لنفسه من بين كل الأسلاب إلاّ بهذين الشيئين (السوار والأسود) وكانت تماثيل الأسود هذه من حديد وليس لها قيمة مادية كبيرة[2] .

وفي رحلة العودة ، وبينما هم في المحيط الهندي في الطريق إلى سيلان Ceila'o نقصت المياه عندهم نقصاً شديداً وكذلك المؤن لولا أن الرب أعانهم فاستولوا على سفينتين كبيرتين كانتا منطلقتين من سومطرة وقد حُمّلتا بالفلفل والحرير وخشب الصندل والصبر[3] aloe . إذ أنه بمجرد أن رآهما أفونسو

---

(١) أنظر فصل ١٥ .

(٢) "Que por serem de ferro eram muito pera estimar"

وأميل إلى إعتبار كلمة (na'o) قد سقطت ومكانها قبل كلمة (eram) في هذا النص . وأن هذا السقط حدث في الطبعتين .

(٣) Lenholoes; i.e., lignum aloes. Cf. the note on lenhonoe, page 159. As very little appears to be now known of the wood-aloes, or Calamba, the following note will be read with interest:- "Calamba, Calamba', ou Calambuco; na 1 Decada, f. 17, col. 3, Joa'o de Barros lhe chama Lenholoe', aonde diz, 'passado este Reyno Camboja, entra outro Reyno Chamado Campa', nas inotanhas do qual nace o verdadeiro Lenholoe', a que os Mouros daquellas partes chama'o Calam

دلبوكيرك حتى أمر بمطاردتهما والاستيلاء عليهما فحصل مما بهما من مخزون على مياه ومؤن مما مكّنه من مواصلة طريقه إلى سيلان . ولأن مسلمي هاتين السفينتين ذكروا أن سفينتهم قد قدمتا من شول Chaul ودابول Dabul فقد أمر سيماو دندريد Sima'o Dandrade على رأس مجموعة المطاردة وكذلك دينيس فرناندز Dinis Fernandez بالبقاء على متنهما حتى يعلم حقيقة أمرهما .

---

buc'. Com J. de Barros es couforme A Academia Francesa no Diccion. das Artes, p. 90, donde diz que os boticarios chama'o ao Calamba' Lignum Aloes. Segundo as noticias que me dera'o Antonio de Mello e Castro, Viso Rey que foy da India, e Manuel Godinho de Sa', Capita'o da Nao Milagres, que assistio em Maca'o 32 annos, Calamba' na lingoa da terra, que o produz, val o mesmo que doenca da arvore. A reza'o desta nome he, que na Cochinchina, e nos Reynos de Champa', e Camboja, ha grandes devezas de arvores, muy espesas e enmaranbadas, e metendose entre ellas alguns Gentios practicos, e enmaranhadas, e metendos entre ellas alguns Gentios practicos, encontra'o huma certa casta de arvores, e as vezes vem alguma dellas, que se vay murchando, e dezem logo comsigo, ' esta arvore parece que tem doenca'; poem na devesa suas balizas, e vindo da hi a alguns dias por ellas, acha'o a tal arvore murcha toda, e cortando-a bem rente do cha'o, acha'o no amago da cortadura do tronco, hum como no', mais preto, que, a' maneira de cancro, chupou, e chamou a si o succo e oleo da tal arvore, que unido e junto nelle, tem o suave e precioso cheiro, que experimentamos, e quanto mais vigor havia na arvore, mais oleoso e precioso he o Calambuco; e se a arvore tinha pouco alento, na'o ha nella o Calambuco prezado, sena'o secco, e sem oleo, e val muy pouco.......o ditto Capita'o Manoel Godinho privava o Calamba desta maneira. Tirava com huma faquinha huma migalhinha deste pai, e a metia na boca, e andava com ella entre os dentes, e se ella se-lhe-ajuntava, e amassava entre os dentes como cera, tinha-a por boa; e esse dia andava ordinariamente com dores de cabeca, porque he cousa muito quente, e de cheiro muito penetrante; e desta especie tem muito pouca a Europa, porque tem grande preco em Japa'o, donde dizem, que val mais de outenta mil reis o arratel. Com este precioso aroma perfuma'o os Japoens as cazas e os vestidos. Usam delle os Chins nos accidentes de Paralysia, e na falta dos espititos vitaes. Feito em po', e tomado em vinho, ou em caldo, corrobora o estomago, veda os vomitos, e sara as dysenterias. Dizem que a arvore, que o produz, he algum tanto mayor que oliveira, com que tambem se parece. As vezes se acha'o humas pequenas porcoens deste pao nas margens do Ganges, por isso lhe-chaina'o alguns Lignum Paradisi.

"Eserevem algume modernos que tambem se acha Calamba', ou Calambuco, nas Ilhas Maldivas.....os Padres Missionarios da Compauhia no seu livro Summarias noticias da Cochinchaina mostra'o que ha somente nas terras del Rey da Cochinchaina, o qual como faz todes os gastos no deseobrimento, tem todo o proveito da conquista. Usam muito os Japoens delle para perfumes,"etc.-Bluteau

وقد اكتشف المسلمون الذين يشكلون طاقم سفينة شول (أو شيول) التي عيّن عليها سيماو دندريد أنه لا يعرف خط العرض الذي هو عنده ولا الطريق الذي يبحرون فيه لذا فقد اتجهوا به إلى جزر المالديف[١] Maldive ونجحوا في الوصول إلى كاندالوز[٢] Candaluz وهي الجزيرة الرئيسية في مجموعة هذه الجزر) وفر كل المسلمين على متن هذه السفينة منه ، وعلم سيماو دندريد من بعض مسلمي كانانور Cananor ممن وجدهم في هذه الجزر أن محمداً المصري[٣] Mafamede Mecari التاجر القاهري موجود هناك وهو رجل كان دوماً يؤيد سياسة مماليك مصر Rumes مع *الزاموريم** Camorim وكان يبذل قصارى جهده لمد نشاط مماليك مصر إلى الهند ، لكن عندما كان أفونسو دلبوكيرك في ملقى فإن محمد المصري هذا خشيَ أنّه عندما نحرز النصر (في ملقى) أنْ يسلّمه الزاموريم لأفونسو دلبوكيرك (لأن هذا كان موضوعاً لمفاوضات سرية كان يروغ منها الزاموريم دائماً) ، فانطلق مُبحراً من كلكتا بثلاث سفن محملة بالبهار وأخذ معه زوجته وأولاده وكل ممتلكاته فلما وصل حتى سقرطى وراح يُبحر قريباً من الشاطىء بين رأس جوردفوي[٤] Guardafum ومقديشو[٥] Magadaxo واجه عاصفة عاتية فارتطم بالساحل وفقد سفينتين من سفنه فواصل إبحاره في السفينة الباقية مع زوجته وأولاده إلى جزر المالديف ومن ثم إلى جزيرة ماندالوز Mandaluz وهناك قلب سفينته وأنقذ بعض البهارات التي

---

(١) الملاّحون عامة والأوربيون منهم بخاصةً غير واعين بأن كل سكان مجموعة جزر المالديف جنس متحضّر يعمل بالتجارة على نطاق واسع مع الهند وبخاصة البنغال وسيلان وسواحل مالابار ، وكذلك مع المناطق المُطلّة على البحر الأحمر ، وأنهم بحّارون مهرة . وهم شعب هادىء والجرائم عندهم نادرة ، بل أكثر ندرة مما هي عند غيرهم من الشعوب المتحضرة ، فالقتل عندهم غير معروف ، ولا السرقة ولا السُكر ، فهم مسلمون مستقيمون وشرب الخمر عندهم ممنوع مع أنه من السهل عليهم صنعه بتخمير عصير جوز الهند .

(٢) في الفصل الأول من الجزء الثاني اوردنا خريطة نقلاً عن :
"Portolano of Fernao Vaz Dourado" وتكتب أيضاً Candalus .

(٣) أنظر الفصل ٧ ، الحواشي .

* أو السامري كما تسميه بعض الكتب العربية .

(٤) أنظر الخريطة جـ١ ، ص ٨٠ من النص الإنجليزي .

(٥) أنظر فصل ٧ جـ١ .

كانت معه واشترى كاندورا Candura وهي نوع من السفن الصّغار المستخدمة في هذه الجزر .

فلما أتى موسم الإبحار بشكل مناسب ، أبحر بما تبقى معه من بهار وأخذ معه سيموا رانجل Siam'o Rangel إذ اشتراه واتخذ طريقة إلى قلهات[1] Calayate حيث غرقت سفينته (الكاندورا) فأبحر في سفينة أخرى كانت في طريقها إلى هرمز واتجه إلى عدن* Adem .

وفي هذه العاصفة ضاعت سفن كثيرة مِمّا كانت متجهة نحو مضايق البحر الأحمر ، وقد حدث هذا بينما كان أفونسو دلبوكيرك في ملقى . وبسبب هذا الدمار الشديد الذي حاق بمسلمي كلكتا لأن سفنهم كانت من النوع الكبير الذي ينجم عن ضياع واحدة منه خسائر كبيرة ، وبخاصة وأنهم لم يكونوا ليْجسروا على الإبحار إلاّ شتاءً خوفاً من الأسطول البرتغالي ، فإن أهل كلكتا راحوا من الآن فصاعداً يبنون سفناً صغاراً وراحوا يُبحرون بها في كل أنحاء مضايق البحر الأحمر .

وعندما علم أفونسو دلبوكيرك بعد وصوله إلى كوشن (كوشيم) أن محمد المصري قد وصل إلى جزر المالديف ، زاد إحساسه بالحزن والأسى لإرتطام سفينته في أثناء عودته من ملقى لأنه كان قد عقد العزم على أن يكتسح بها وببقية أسطوله سفن المسلمين التي تُبحر إلى جزر مالديف ليستولي عليها وعلى كل ما تحمله .

وقد كان سيماو رانجل Sima'o Rangel رجلاً كريم المحتد وهو أحد خدم الملك د. مانويل وقد سبق لأفونسو دلبوكيرك أن كلّفه بمهام كثيرة لأنه يحسن تدبير الأمور ، وعندما كان سيماو رانجل في كوشن (كوشيم) في الوقت الذي كان فيه أفونسو دلبوكيرك في ملقى ، بدأ سيماو هذا مع آخرين في إظهار استيائهم من بعض إجراءات لورنزو مورينو Lourenco Moreno وأنطونيو ريل Antonio Real وديوجو بيريرا Diogo Pereira التي تُلحق الضرر بمصالح الملك

---

(١) أنظر جـ١ ، فصل ٢٠ .

* كذا في النص .

البـرتغـالي ، وعـقـاباً له أرسلوه في كـاتور Catur (نوع من السـفن) إلـى جـوا فأسره مسلمون كانوا يستقلّون باراوات Paraos تابعة لكلكتا ، فاشتراه محمد المصري Mafamede Macari وأخذه معه . وقد كان أفونسو دلبوكيرك مُستاء استياءً شديداً لذلك وأراد أن يُعاقب الوكيل التجاري لورنزو مورينو ولكنـه كظم غيظـه لأن اللوم فـيـمـا حـدث كان يقع على عـاتق الجـمـيع ، لكنه -أي أفونسـو دلبوكيرك- كتب للملك البرتـغالي بكل ما جرى في أثناء غيابه فـي ملقى وكيف أنهم فشلوا في تزويد المدينة بالمؤن في أثناء الحصار .

الفصل الرابع والأربعون

كيف وصل أفونسو دلبوكيرك إلى كوشن ، ووصول أخبار جوا إليه ، وأخبار أخرى عن قدوم أسطول مماليك مصر (الروم) ، وعن وصول أسطول من البرتغال .

حالما وصل أفونسو دلبوكيرك الكبير إلى كوشن (كوشيم) -ولم تكن هناك أية أخبار عنه حتى هذه اللحظة ولا عن حوادث ملقى- ابتهج البرتغاليون وغمرتهم الحماسة ، لأنه عند وصوله خفّف مسلمو الهند من حدّة حماسهم إزاء أخبارٍ مُفادها قدوم الروم (مماليك مصر) إلى الهند . وخجل كل من لورنزو مورينو Lourenco Moreno وأنطونيو ريل Antonio Real وديوجو بيريرا Diogo Pereira من أنفسهم خجلاً شديداً ، لأنهم كانوا قد كتبوا للملك د. مانويل ذاكرين أنّ أفونسو دلبوكيرك -وكيل أسطوله- قد فُقد ولا يدري عنه أحد شيئاً ، كما أنهم راحوا ينشرون هذه الإشاعة عبْر أرجاء الهند ، رغم أن هذا القائد الكبير كان مرهوبَ الجانب جداً من المسلمين ، وكان مجرد وجوده "بالجاكت" الرمادي الذي نجا به يوم ارتطمت سفنه كافياً لبث الرعب في نفوسهم ، وكان خبر عودته للهند في حد ذاته كفيلاً بأن يَنْفَضَّ كلُّ ملوك الهند تاركين ما راحوا يحيكونه من مؤامرات ضد البرتغاليين .

لقد توجّه أفونسو دلبوكيرك إلى البر يوم وصوله ، وتوجه من رصيف الميناء -حيث اصطف القادة والقباطنة لاستقباله- إلى الكنيسة تُظلّلهُ ظلّة مزركشة ، وعلى باب الكنيسة كان في انتظاره القس حاملاً معه وعاءً يضم ذخائر دينية ،

وبعد أداء الصلوات الكنسيَّة ودعوات كثيرة لربنا Our Lord الذي أنجاه من المخاطر التي مرَّ بها ، وتوجَّه وكل الناس حوله إلى الحصن وشكر مرافقوه شكراً جزيلاً عند البوَّابة ، وانتحى بقائد الحصن ومسئولي الملك ، وبعد أنْ سرد عليهم كل ما جرى في ملقى وما جرى له في أثناء الرحلة ، سألهم عن ممتلكات الملك وعن السفن التي أبحرت محمَّلة بمنتجات الشرق هذا العام ، فرغم أنَّ الأمور العسكرية كانت هي التي تشغل فكره إلاَّ أنه كان لا يَغْفل عن الاهتمام بممتلكات الملك . واستفسر عن الأحوال في جوا ذلك أنها كانت شغله الشاغل حتى وهو في ملقى ، فقصُّوا عليه خبرها وكيف أنَّ المدينة كانت طوال الشتاء محاصرة بقوات كثيرة لثلاثة قادة من قوَّاد العادل خان ، وكيف عانى الناس في جوا بشدَّة من جرَّاء هذا الحصار ، سواء بسبب الحرب أو بسبب المجاعة وكيف انهارت أجزاء كثيرة من أسوار الحصن لقسوة رياح الشتاء ، كما أخبروه بموت القائد ومانويل دا كنها Manuel da Cunha .

وحزن أفونسو دلبوكيرك لموتهما ، فقد كان رودريجو رابلو Rodrigo Rabelo فارساً شجاعاً ، أما مانويل دا كنها Manuel da Cunha فلم يكن على اتفاق مع والده تريستاو دا كنها Trista'o da Cunha بشأن رحلته إلى الهند . وكان أفونسو دلبوكيرك أكثر ما يكون اهتماماً بأمْنِ جوا وسلامتها لذا فقد سارع بإرسال كاتور Catur (نوع من السفن الصغار) حاملاً رسالة إلى ديوجو مندز Diogo Mendez يُخبره فيها بقدومه كما كتب للقضاة وأعضاء مجلس المدينة[1] aldermen بسروره لأنه سيزورهم ثانية وأنه يُعد نفسه ليكون معهم حالاً وأنه يعتمد على رحمة الله وفضله ليثأر من الترك (أحد عناصر مسلمي البلاد) في بيناستاريم Benastarim وأنه يرسل لهم تفويضاً بأن يكون مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda قائداً للمدينة (جوا) وأن يكون دوارت دي ميلو Duarte de Melo رئيساً لقباطنة البحر ، وذلك حتى وصوله (أي وصول أفونسو دلبوكيرك) .

---

(1) Vereadores .

وحالما شاع خبر وصول أفونسو دلبوكيرك في أنحاء جوا عمّت البهجة وقُرعت الأجراس ، وأُطلقت النيران ، فقد اعتبر كل واحد من أهل المدينة أنه نجا من الموت . وعندما انطلق الكاتور الآنف ذكره وصلت رسالة من ديوجو كوريا Dio-go Correa قائد كانانور Cananor يذكر فيها أنَّ التجارَ حملوا أخباراً مُفادها أن أسطول مماليك مصر الكبير قد أبحر من السويس قادماً لنجدة العادل خان ضدّ جوا ، وأن هذا الأسطول قد تم تجهيزه بمجرد أن شاع خبر إبحار أفونسو دلبوكيرك إلى ملقى ، فاستاء جداً لهذه الأخبار لأن أسطوله صغير جداً لا يمكنه من ملاحقة أسطول المماليك المصريين ، وهو الأمر الذي كان يعتزم القيام به[1] ، وبينما هو في حيرة من أمره بأيّ الأمرين يبدأ ، أبفكّ الحصار عن جوا ، أم بملاحقة أسطول مماليك مصر ، وصل في ٢٠ أغسطس سنة ١٥١٢م د. جارسيا دي نورونها *D. Garcia de Noronha* الذي كان قد أبحر من البرتغال في العام الماضي على رأس ست سفن ، وقضى الشتاء في موزمبيق[2] ،

(١) انظر فصل ١٣ .

(٢) This expedition and its results are thus briefly tabulated in the 'Armada da India", Brit Mus. Add. MS. 20902, f. 14 :-

"Dom Gracia de Noronha Cappitam mor.

"Anno de 1511.

"6 nao's a 25 de Marco, e a 8 de Abril.

"Dom Gracia de Noronha Capita'o mor de seis naos, partio a vinte cinco de Marco : Capitaes Dom ayres da Gama, Pero Mascarenhas, Christouao de Brito, Jorge de Brito, Manoel de Castro Alcoforado : Foy Capita'o mor de mar Dom Gracia de Noronha, e destea seis Naos so' tres passara'o a India, E a Nao de Jorge de Brito descobrio o penedo de Sa'o Pedro.

"Neste anno tomou Affonso de Albuquerque Malaca, e em Agosto fez a fortaleza, de que foy o primeiro Capita'o Ruy de Brito Patalim, a que pos nome "Nossa Senhora da Assumpca'o."

"Pedro Mascarenhas foy na na'o Santa Eufemia, Jorge de Brito em Santa Maria da Luz, Manoel de Castro Alcoforado em S. Pedro, Christovam de Brtio em Santa Maria de Belem, D. Ayres da Gama em Santa Maria da Piedade.

"Destas seis naos so tres passaram a India, a saber as duas de Chrestovam de Brito, e D. Aires da Gama, que partira'o deste Reino doze dias depois do Cappitam mor, e Pedro Mascarenhas, que o mesmo Cappitam mor mandou de Mocambique (aonde chegou 'com muito trabalho) a India para tirar de confuzam aos que nella estava'o com sua chegada.

"Successo.-Seguindo Dom Gracia sua viagem, e nam podendo dobrar o Cabo de Sto. Agostin

وكذلك جورج دي ميلو بيريرا Jorge de Melo Pereira الذي كان قد أبحر في هذا العام من مملكة البرتغال على رأس ثماني سفن(١) على متونها حشدٌ كبير من المقاتلين كان الملك دوم مانويل قد أرسلهم ظنّاً منه أن أفونسو دلبوكيرك قد فُقد (لاقى حتفه) وأن الروم (مماليك مصر) سيستولون على جوا ، تلك المعلومات التي أرسلها له من الهند كل من لورنزو مورينو -Lourenco Mo

---

ho, quiz o seu Piloto fazerse na volta de Guinepara tomar outra mais larga sobre o mesmo Cabo, na qual travessa se ouvera de perder em hum penedo, que acharam no meyo daquelle Golfa'o, no qual de noute foy dar a nao S. Pedro, Cappitam Jorge de Brito, que fez farol as outras, que vinham na sua esteira, por razam do qual perigo, e do nome da nao, que no penedo, elle ouve o que hoje tem de S. Pedro."

The expedition here referred to, is thus tabulated in the "Armada da India", Brit Mus., Add.(١) MS. 20902, f. 15 :-

"Jorge de Mello Pereira Capitam mor de outo naos, e
Gracia de Sousa Capitam mor de quatro naos, que
fazem as 12 em duas Capitanias.
"Anno de 1512.

"12 velas a 25 de Marco partiu a mayor parte dellas.

"Jorge de Mello Pereira Capita'o moor de oito naos, e Capita'o mor Gracia de Sousa das outras quatro · partio a Vinte e cinco de marco : Capitaes Jorge de Albuquerque, Goncalo Pereira, Loppo Vaz de Sampayo, Gaspar Pereira, Dom Joa'o d'Eca, Jorge da Silueira, Sima'o de Mirada, Francisco Nogueira, Antonio Raposo de Beja, Pero de Albuquerque; A Nao de Francisco Nogueira se perdeo nos baixos de Angoya, E saluouse a gente,

"Jorge de Albuquerque filho do Joa'o de Albuquerque na Nao Nazare – Goncalo Pereira filho de Goncalo Pereira na Conceicao–Jorge da Silveira no Botafogo–Simam de Miranda nas Virudes–D. Joa'o d'Eca, ou de Sa (como diz outra Relacoao) na Magdalena–Francisco Nogueira em S. Antonio perdido–Loppo Vaz de Sampayo em Santa Cruz–Pero de Albuquerque filho de Jorge de Albuquerque na Bastiana–Antonio Raposo de Beja em....., Gaspar Pereira que era para servei de secretario de Affonso de Albuquerque, como o tinha sido de Dom Francisco de Almeida, na nao Santo Antonio o Grande.

"Neste anno se fez a fortaleza de Calicut a que se pos nome N. Senhora da Conceica'o, de que foy primeiro Capita'o Francisco Nogueira.

"Successos-A nao Santo Antonio, Capitam Francisco Nogueira, se perdeu nos baixos de Angoxa, onde morreo quasi toda a gente, e elle por nam saber nadar se deixou ficar com dous filhos seus sobre o que apparecia da nao, e na baxamar esprayou tanto que a pe enxuto se recolheu e

reno وأنطونيو ريل Antoanio Real .

وابتهج أفونسو دلبوكيرك ابتهاجاً كبيراً بوصول هذين الأسطولين وتوجه لربنا Our Lord بوافــر الشكر لوصــول هذين الأسطولين في الوقت المناسب وزاد سروره بوصـول ابن أختـه د. جـارسـيـا D. Garcia ومن مـعـه من رجـال نوي نوعيــة جيدة ليُعينه علـى أمـور الهند التي يزداد عبؤها يوماً بعد يوم ، وكان د. جارسـيـا قـد حمل معـه أوامر من الملك د. مـانويل بتـعـيـينه رئيسـاً لقبـاطنة الأسطول وأن يسـاعد أفـونسـو دلبـوكيـرك إذا اسـتلزم الأمرُ ذلك وأن يبـقى في الهند ، ولأنَّ كلاً من لورنزو مورينو Lorenco Moreno وأنطونيـو ريل Antonio Real وديوجو بيريرا Diogo Pereira كانوا قد كتبوا للملك البرتغالي ذاكرين له أن جوا محـاصرة وأنها ليست ذات قيمـة كبيرة ولا جدوى من الاحتفـاظ بها ظانِّين أنـهم بذلك ينتـقـمـون من أفـونسـو دلبـوكيـرك لعقـابه لهم على آثامـهم وممارساتهم الخاطئة وعملهم لغير صالح ملك البرتغال – لذا فإن الملك البرتغالي نظراً لهذه المعلومات التي أوْصلوها له كتب إلى أفونسو دلبوكيرك راجياً إياه أن يناقش أمر الاحتفاظ بجوا ومدى جدواه مع القباطنة والقادة والمسئولين التابعين له ، فإن كان الرأي يقضي بضرورة الانسحاب منها فإن عليه أن يدمِّرها ، مع أنه لم يغب عن عقله أن أفونسو دلبوكيرك قد استولى على هذه المدينة مرتين من المسلمين بعد جـهد جـهيـد وأنّه بفـعله هذا إنما أسـدى للملك البرتغـالي خدمـة عظيمة .

لقد أدرك أفونسو دلبوكيرك أن هذا من كَيْد دوارت دي ليموز Duarte de Lemos وجونسالو دي سيكويرا Goncalo de Sequeira لأنّه كان قد فاتهما شرف

---

huma das Islas de Angoxa, onde os Moures o tomarao, e depois dera'o pelo seu Xeque, que Antonio de Saldanha cativou, quando foy vingar as mortes que os Mouros daquellas Ilhas tinham dado a alguns dos nossos, que a ellas fora'o buscar mantimentos.

"No Mesmo anno de 1512

"I Navio a 13 de Julho.

"A 13 de Julho partio hum Cavaleiro por nome Joa'o Chanoca em hum navio a buscar a carga da Nao Galega, que, por nam estar para navegar, descarregou em Mocambique."

اصطحابه عند الاستيلاء على المدينة ، فاهْتبلا هذه الفرصة بإقحام نفسيهما في الموضوع . وعلى أية حال فقد أجَّل أفونسو دلبوكيرك طَرْح هذا الأمر للمناقشة ولم يذكره لأحد إلاّ بعد أن يهجم على بيناستاريم Benastarim (ويفك الحصار عن جوا) ، كما سنذكر بعد ذلك .

الفصل الخامس والأربعون

كيف أبحر أفونسو دلبوكيرك من كوشن (كوشيم) عازماً على ملاحقة أسطول الروم (مماليك مصر) وكيف تقدّم لمحاصرة حصن بيناستاريم.

لقد أسرع أفونسو دلبوكيرك بالإبحار بمجرد تلقّيه معلومات عن قدوم أسطول الروم (مماليك مصر) ورغم أن أسطوله لم يكن من القوة ممّا يؤهلّه لمواجهة أسطول العدو على وفق التقارير التي وصلت عنه لأن السُّفن البرتغالية في الهند كانت في حالة سيئة بعد العودة من ملقى بسبب إهمال موظّفي الملك البرتغالي في كوشن ، إلاّ أنّه اعتمد على عَوْن ربنا Our Lord ، فانطلق إلى جوا في ١٠ سبتمبر سنة ١٥١٢م بأسطول من ست عشرة سفينة بنيّة البحث عن أسطول الروم لكنه عندما وصل إلى كانانور Cananor متأخّراً شيئاً ما بسبب الرياح القاسيّة وجد تقريراً مُفاده أنّ قدوم الروم (مماليك مصر) أمرٌ غير مؤكّد فأرسل سفينتّين مما كان معه ، والتي وصلت من البرتغال ، لتعود مرة أخرى إلى كوشن لتحمِّل ما تُريده من حمولات ، ثم أبحر من كانانور قاصداً جوا عازما على القبض على قائديْ العادل خان في بيناستاريم benadtarim ، وعلم من بعض المسلمين في سفينةٍ استولى عليها كانت قادمة من عدن Adem أنّه ليس هناك أسطول للروم (مماليك مصر) سيأتي إلى الهند في هذا العام لأنّه قيلَ إن هدف هذا الأسطول (المملوكي) هو الاستيلاء على عدن في المقام الأوّل وتأمين منطقة مضايق البحر الأحمر حتّى لا يستطيع أسطولنا البرتغالي الإبحار هناك .

وما أنْ أرسى أفونسو دلبوكيرك أسطوله عند حاجز مياه جوا حتى صرّح

للقادة والقباطنة أنه اعتزم الهجوم على بيناستاريم قبل أنْ يعلم العادل خان بوصوله بينما يتجهون هم بكل الأسطول في مواجهة المدينة لأنه Hidalca'o يرغب أن يتّجهوا إلى جوا القديمة Old Goa لإحباط أية محاولة للعبور إليها من البحر قبل أن يتمكّن العادل خان من محاصرتها من ناحية البر ، ومع ما في ذلك من مخاطرة إلاّ أنّه صمَّم على أنْ يَشُق لنفسه طريقاً بين مدفعيّة الترك (أحد عناصر مسلمي الهند) وأن يعزلهم بحيث يكونون بمنأىً عن أيّ دَعْم يأتيهم ، وذلك لأنَّ مياه النهر كانت على عمق يسمح لأسطوله بالاقتراب من الحصن ، بل وملامسة التحصينات .

وما أنْ تمَّ تدبير الأمر على هذا النّحو حتى أمر بإنزال كل المقاتلين من فوق متون السفن الصغار فقد كان عليهم أنْ يصحبوه في مهمّته ، بالإضافة إلى مئة بحار ومدفعي انتقاهم من كل الأسطول وزوّدهم بأفضل مدافع عنده وبكثير من الطلقات والبارود وجعل على رأسهم تريستاو دي ميرندا Trista'o de Miranda قبطان السفينة القديس بدرو S. Pedro وبيرو دي أفونسيكا Pero de Afonsica قبطان السفينة سانتا ماريا دا أجودا Sancta Maria da Ajuda (ومعناها القديسة مريم المُعينّة "of the Aid") وفيسنت دلبوكيرك Vicente Dalbo-querque قبطان السفينة الصغيرة أجودا Ajuda وأنطونيو رابوزو Antonio Raposo قبطان السفينة فيروس[1] Ferros "ومعناها الحديدية" وجارسيا دي سوزا Garcia deSousa قبطان سفينة مالابارية[2] وايرز دا سيلفا Aires da Silva قبطان السفينة روزايرو Rosairo "ومعناها الأوراد الدينية ، جمع وِرْد - بكسر الواو وتسكين الدال" ، وقد جعله أفونسو دلبوكيرك رئيسَ قباطنة كل هذه السفن المذكورة أعلاه ، أما أفونسو دلبوكيرك نفسه فانطلق في كاتور Catur "نوع من السفن" . فلما استعدّ الجميع أمر د. جارسيا دي نورونها أن يتخذ طريقه ببقية الأسطول إلى جوا وأن يستعد بكل ما هو ضروري للزحف براً إلى

(١) كانت إحدى السفن التي جلبها جورج دي ميلو Jorge de Mello من البرتغال ضمن أسطول سنة ١٥١٢م .
(٢) كان جارسيا دي سوزا على رأس السفينة ساو جياو Sa'o Giao في الأسطول المذكور أعلاه .

باناستاريم Banastarim وألاّ يسمح لأيٍّ أحد من السكان بالخروج منها دون إذنه ، ومن ثمَّ أبحر ليُهيّيءَ لنفسه مدخلاً جيداً إلى جوا القديمة وحالما وصل في مواجهة حصن بيناستاريم أرسل إلى تريستاو دي ميراندا -Tristao de Miran da أن يعترض بسفينته سانت بدرو S. Pedro حتي يصل هو على بعد طلقة من الحصن ، وهو -أي أفونسو دلبوكيرك- سيتجه بمن معه من القباطنة والقادة الآخرين بسفنهم ويمكثون حتى تخف حِدة طلقات مدافع الترك (جنود العادل خان) .

فلما لم يعُدْ رجالنا خائفين من طلقات العدو أمر أفونسو دلبوكيرك القباطنة أن يقتربوا بسفنهم شيئاً قليلاً وأن يجعل جارسيا دي سوزا Garcia de Sousa سفينته منحرفة بالعرض بين الأسطول والحصن ، لأن سفينته كانت كبيرة جداً ويمكن استخدامها كساتر يحمي بقية السفن . لكن الترك (المقصود جنود العادل خان) الذين لم يكونوا سعداء باقتراب سفننا منهم أطلقوا كثيراً من الطلقات بضراوة . لقد أصبح رجالنا الآن على خط النار في مواجهة طلقات مدافع البازيليسك(١) basilisk التي نصبها الترك (جنود العادل خان) فوق المتاريس الموازية لخط الماء ، فجهّز أفونسو دلبوكيرك سفينة من نوع البارج abarge مزوّدة بمدفع معدني من نوع الكاميل(٢) Camel وأمر الكونستابل أن يتجه ليلاً مع ستة مدفعيّين ليُلقْي مراسيه بالقرب من المتاريس التركية (التي أقامها جنود العادل خان) ويبذل قصارى جهده لإخراس مدافعهم هذه من نوع البازيليسك .

وكان الكونستابل جندياً شجاعاً فأسرع ولم يعرف الخوفُ إلى لقبه سبيلاً لتنفيذ أوامر أفونسو دلبوكيرك فلما أشرق الصباح بدأ يطلق مدفعه من نوع الكاميل round shot Camel فأراد ربنا Our Lord أن تُصيب إحدى الطلقات مدفع البازيليسك في فوهته وتكسره ، وتقتل اثنين من المدفعيِّين المتحولين

(١) Basalicso مدفع قديم الطراز قذيفته تزن ستين رطلاً ، ماسورته واسعة وطويلة جداً .

(٢) Camelo . انظر جـ١ ، فصل ٢٣ ، الحواشي .

للإسلام (النص : المرتدّين "renegade") أحدهما من غاله والآخرمن قشتالة كانا قد فراً من الجيش البرتغالي عند دخوله جوا أوّل مرّة ولجآ إلى المسلمين* .

أمر ايرز دا سيلفا Aries da Silva –الذي وجد نفسه في خط نار مدفع البازيليسك– البحّارةَ بتقديم سفينته للأمام على نحوٍ أكثر مما هي عليه ، لكنهم اعتبروا هذا الإجراء سيئاً جداً فجعلوا السفينة بالعرض في مواجهة مدافع العدو . ولما أدرك الترك (جنود العادل خان) ارتباك رجالنا أطلقوا النيران بضراوة على جانب السفينة فكادوا يُقطِّعونها قطعاً ، وحدث أن إحدى الطلقات أصابت قَيّدوم السفينة (الجزء الأمامي منها) وأصابت ثلاثة براميل مليئة بالبارود فانفجرت ولحق الدمار بجزء من الممر المؤدّي إلى المستودع والتحصينات وسطح السفينة . وكُسِر لوحان خشبيان بالقرب من خط الماء ، ولم تحدث خسائر جسيمة في الأرواح إذ لم يحترق إلاّ ثلاثة من خدم السفينة . ومع هذا فقد غدا طاقم السفينة حذراً لدرجة أنهم قفزوا للمياه تاركين قائدهم ايرز دا سيلفا Aires da Silva وحيداً في السفينة . ولما رأى الترك (المقصود جنود العادل خان) ما حاق برجالنا من سوء طالع ، أطلقوا طلقة ضخمة ونفخوا في أبواقهم .

وعندما رأى أفونسو دلبوكيرك ، ايرز دا سيلفا في هذه الورطة اتجه بسفينة من نوع السكف Skiff مع أربعة رجال واتجه إلى سفينة ايرز آنفة الذكر تحت وابل من طلقات الترك (جنود العادل خان) وراح يدعو أفراد طاقم السفينة الذين راحوا يسبحون بعيداً ، للاقتراب منه وألا يتركوه بدون حماية ، ووبّخهم لتركهم قائدهم بهذه الطريقة المخجلة ، فلما رآه هؤلاء البحّارة يتقدم تحت وابل النيران خَجِلوا مما فعلوه وتشجعوا وعادوا إلى سفينتهم ، أمّا هو –أفونسو دلبوكيرك– فرغم الطلقات المنهالة –دعا معاونه الذي كان قادماً من قارب ليُغَيِّر اتجاه مؤخّرة السفينة (المصابة) ليجعلها في غير اتجاه فوّهات مدافع العدو ، وحالما تمّ ذلك أمر عدداً من الجِلفاطيين (المختصّين بسد خروق السفن) أن

* عن المتحولين للإسلام أو العائدين إليه – أنظر مقدمة الترجمة العربية .

يأخذوا معهم جلوداً وكل ما هو لازم لسد خروقها القريبة من خط الماء .

وبينما هؤلاء الجِلْفَاطيون يمارســون عملهمـ راح ايرز دا سيلفا -Aires da Sil va ومن معه من البحـارة يَنْزحـون المياه ، لكن إصـلاح أعطاب هذه السفينة لم يتم إنجازه في هذا اليوم فلمّا أتى الليل أمر أفونسو دلبوكيرك بسحبها ، وأمر تريستاو دي ميراندا بأن يجعل سفينته القديس بدرو S. Pedro تغيّر اتجاهها لتكون أمام السفن الصغار ، وأمر مسئولي هذه السفن الصغار -إذا ما حلّ الليل- أن يُسبلوا حبالها (يجعلوها طويلة ممتدة) حتى لا يتمكن أي قارب من الخروج في أثناء النهار (لأنه سيرتطم بهذه الحبال) .

وعندما رأى الترك (جنود العادل خان) السفينة بدأوا في إطلاق قذائف واحدٍ من مدافعهم الضِّخام عليها ، واستطاعوا بالطلقات الأولى أن يصيبوا متْنها من أحد الطرفين إلى الطرف الآخر ، ورغم أن رجالنا تعرَّضوا لمخاطر كثيرة وشديدة تهدد حياتهم إلاّ أن مهمة الترك (جنود العادل خان) لم تكن سهلة لأن مدفعيَّتنا قتلت عدداً كبيراً من رجالهم وخيولهم داخل الحصن ، وأسقطت كل السور حتى أن رسول خان Racolca'o وقادته لم يجسروا على الدخول فيه لكنه أمر رجاله بأن يصلحوا ليلاً ماهدمته مدفعيَّتنا نهاراً .

الفصل السادس والأربعون

افونسو دلبوكيرك الكبير يامر بإزالة الاستحكامات التي أحاط بها جنود العادل خان الحصنَ لمنع سفننا من الدخول ، وكيف ذهب إلى المدينة بعد أن جعلهم في الداخل ، وما جرى بعد ذلك .

وبينما الأمورُ تجري على هذا النحو ، أرسل أفونسو دلبوكيرك إلى د. جارسيا دي نورونها D. Garcia de Noronha يُعْلمه أنّه سيُرسل لَهُ سفينتين صغيرتين ، وزورقاً barge محملّة جميعاً بالبراميل الفارغة المربوطة معاً بحبال متينة للفّها حول السفن[1] من أسفل (عند خط الماء) ومدافعَ ، وأمره بالمرور في الممر الضّحْل[2] حتى يتمكن من مهاجمة الحصن من هذه الناحية ، وأن عليه أن

(١) الكلمة المستخدمة arrombadas هي حِبَال غِلاَظ تُلَفُّ حولَ السفينة ثقيلة الحمولة وقد رُبِط بها (بهذه الحبال) براميل فارغة عند خطّ الماء لتساعد على تقويم السفينة في المياه الضّحْلة .

(٢) الكلمة البرتغالية هي Passo seco . وليس لمدينة جوا أسوار رغم أنه في الوقت التي زارها لينشوتن Linschoten) وآخرون كانت الأسوار القديمة موجودة وإن كانت بغير بوّابات . وكانت محميّة ليس فقط بالتحصينات المعدّة للدفاع عن الميناء وإنما بسور طويل يمتد بشكل أساسي في الجانب الشرقي للجزيرة أيضاً ، وكان يبدأ من عند حصن في الشمال الشرقي للجزيرة عند موضع يُقال له دوجم Daugim ويمتد منه حتى كنيسة القديس براز Sa'o Braz ، ويرتبط هنا (في هذا الموضع) بحص قديم للمسلمين كان البرتغاليون قد أعادوا بناءه ومن ثم يستمر حتى بيناستاريم Benastarim ومن ثمَّ بحصن القديس ثياجو (سنتياجو "Sa'o Thiago") ومن ثمَّ يأخذ إتجاهاً جنوبياً إلى حصن مانجورال Mangueiral ومن ثمَّ إلى حصن جواو بابتيزا S. Joa'o Baptisa (يوحنا المعمدان) وكان لهذا السور ثلاث بوّابات عليها حراسة دائمة ليلاً ونهاراً ولأن الناس كانوا يجتازونها للعبور إلى أرض المسلمين في البر الرئيسي فقد كان يُطلق عليها اسم المقبر Passos ، وكانت هذه البوّابات متصلة بالحصون الثلاثة الآنف ذكرها : ممر أو معبر دوجيم Daugim إلى الشمال الشرقي ، وممر أو معبر سكو secco (الممر الضّحل) أو معبر حصن القديس براز Sa'o Braz إلى الشرق وممر (معبر) بيناستاريم إلى الجنوب الشرقي . وكان هذا الأخير هو الأكثر استخداماً ، فقد كانت مؤن الحياة اليومية تمر عبره قادمة من البر الرئيسي . أنظر :

يكون مستعداً بكثير من العربات المحمّلة بدانات المدافع والبارود والملابس العسكرية الواقية والمنصّات[١] benches وقُفف (جمع قُفّة) التراب[٢] والمعاول ومدافع كبار وصغار على عرباتها وبكل ما يلزم لمهاجمة الحصن بحراً وبراً ، وأن يستعد القادة بمجموعاتهم المدرّبة ، وأنه بمجرد أن يجعل السفن تجتاز الاستحكامات سيكون معهم . لقد أراد أفونسو دلبوكيرك أن يتم ذلك بسرعة حتى لا يتيح أيّ فرصة لوصول الإمدادات المرتقبة للترك (جنود العادل خان) . وعند تلقّي دوم جارسيا Dom Garcia هذه الرسالة أمر بتجهيز سفنه وتطويقها بالبراميل المربوطة بحبال من ألياف نخيل جوز الهند[٣] كما أمر بتجهيز الزورق barge وتزويده بمدفع كبير وعَهِد بالسفن إلى كلٍّ من فرناو جوميز دي ليموز Fernao Gomez de Lemos وأنطونيو دي ماتوس Antonio de Matos أما الزورق فقد عَهِد به إلى جوآو جوميز Goa'o Gomez وما أن استعدوا حتى اتخذوا طريقهم صُعُداً في النهر وعندما حاولوا اجتياز الممر الضَّحْل ارتطمت سفينة أنطونيو دي ماتوس بالقاع فقد كانت أضخم من السفن الأخريات وكان من الضروري أن نزيح عنها البراميل المربوطة بأحبال التي تُعينها على اجتياز هذا الممر الضَّحْل ، ولأن المدافع التي كانت فوق متونها ثقيلة جداً فقد مالت وانقلبت .

ومع هذا فإن كلاً من فرناو جوميز دي ليموز وجوآو جوميز ، تمكّنا من العبور وعند وصولهم للحصن أسْرعا وثبتا بمن معهما فوق المتاريس التي عند هذا الجانب وأمنوا أنفسهم بالقُرب القريب حتى أنّ الترك (المقصود جنود العادل خان) أطلقوا قذائفهم وسهامهم على رجالنا ، وقرّبوا السفن

"J.N. de Fonseca, sketch of Goa. Bombay, 1878, p. 153."

وأنظر المخطط الملوّن لجوا (كَوا) من مخطوطة سلون أيضاً Sloan (5027 A, Folio 52) .

(١) العبارة البرتغالية Bancos de Pinchar مصطلح شائع سرحه بلوتو Blutcau ويبدو أنه يعني هنا منصة أو مقعداً بثلاثة أرجل (قوائم) يستخدم في عمليات الهجوم .

(٢) Cestos .

(٣) يصنع من الليف الخارجي لثمرة جوز الهند ، وهذه الحبال هي المستخدمة في السفن في جزر المالديف وأنحاء الهند المختلفة .

الصغار شيئاً فشيئاً محملة بمدافعها ومع هذا تمسك رجالنا بمواقعهم ولم يتركوها . وعندما رأى رسول خـان أن البرتغاليين يشنون عليه هجومـاً مـن هذه الناحية أيضاً ، أصدر أوامره فوراً بنقل أربعة مدافع كبار لهذه الناحية من التحصينات ونصب بعضها وراء ساتر في الجـزء الأسفل وبعضها الآخر وراء ساتر في الجزء الأعلى مـن السور ، وبهذه الطريقـة راحت القذائف تنهال على سفننا من الجانبين ، ومع كل هذا الخطر المحدق برجالنا فإنهم أذاقوه من الكأس نفسها[١] .

وعندما تأكد أفونسو دلبوكيرك أنه من المُحال أن يأتي للعدو دعم عسكري أو تمويني من هذه الناحية عزم على اقتلاع الاستحكامات التي طوّق بها المسلمون الحصن وأن يؤمِّن رسوّ سفنه داخل هذه المسافة ليسهل التدفق منها فجأة ناحية الأسوار ، فأمر تريستاو دي ميراندا وايرز دا سيلفا اللذيْن كانا معه في السفينة (لأن سفينة هذا القبطان الأخير ظلت خارج هذا النطاق لأسباب ذكرناها آنفاً) أن يقووا السفينة سانت بدرو S. Pedro ليقتحما بها الأسيجة (التي أقامها المسلمون) ويسقطانها لإحداث فجوة كبيرة بينها يمكنهم منها المرور . وأرسل خلفهما كلاً من بيرو دي أفونسو ، وأنطونيو رابوسو ، وفيسنت دلبوكيرك ليقوموا بهذا العمل نفسه ، ولم تكن هذه المهمة بغير مخاطرة كبيرة فقد تعرضوا جميعاً لقذائف مدفعية العدو وسهامه وطلقات بنادقه . وحالما هبط الليل لحق بهم أفونسو دلبوكيرك حيث دمروا جزءاً كبيراً من الاستحكامات .

وبعد ذلك أمر تريستاو دي ميراندا أن يجعل رسّوه وراء الأسيجة وأن يُغيِّر إتجاه سفينته سانت بدرو S. Pedro باستخدام الحبل لداخل المسافة المذكورة آنفاً ليظل المدخل مفتوحاً قَدْر ما يستطيع وأمر السفن الأخرى أن تتْبعه . وحالما أدرك الترك (المقصود جنود العادل خان) أن رجالنا مشغولون ليلاً بإدخال السفن داخل الاستحكامات (الأسيجة التي أقاموها) ، حتى راحوا يقذفون بأحزمة قش مشتعلة إلى أسفل السور ليتمكنوا من رؤية رجالنا فيطلقون النار

---

(١) النص البرتغالي : Na'o deixavam de llho pagar na mesma moeda
والمعنى دفعوا له حسابه بالعملة نفسها أو أذاقوه من الكأس نفسه ....

عليهم ، وهكذا أصبح رجالنا في مواجهة مباشرة مع فوهات مدافع العدو وتعرّض أفونسو دلبوكيرك في سفينته skiff لمخاطر جمّة ، فتوسّل إليه القادة والقباطنة أنْ ينسحب خارج الأسيجة والاستحكامات حتى لا يعرّض نفسه للخطر بل ويعرض مشروعه كله للضياع وطلبوا منه أن يستريح . لقد قالوا ذلك وهم ينفّذون أوامره أفضل ما يكون التنفيذ وبأقصى شجاعة ممكنة .

لكن أفونسو دلبوكيرك بروحه التي لا تُقهر أجابهم بأنه لا يستطيع أنْ يذوق طَعْم الرّاحة وهو يراهم في هذا الوضع الحرج ، لكن عليهم تنفيذ أوامره لأنه لا ينوي تركهم إلاّ إذا عرف وضعهم . وعندما دخلت السفن متجاوزه الأسيجة والاستحكامات رتّبها جميعاً في وضع هجومي على الحصن . وتراجع أفونسو دلبوكيرك قاصداً التوجه للمدينة ليستعد لجلب الإمدادات من البر ، وبينما هو ينسحب سدّد العدو طلقاته لرجلين أسودين كانا يجدفان في سفينته skiff فلما خرج من الأسيجة إتجه إلى أحد الباراوات Para'o وأرسل اثنين من أهل جزر كناريا Canarese كانوا على متنه إلى البر ليأسرا واحداً من أهل البلاد يجيد اللغة المحلية ويمكنه الإفضاء بمعلومات عن العادل خان ، وقد استطاع هذان الكاناريّان بالفعل أسر اثنين من المسلمين كانا في طريقهما إلى حصن بيناستاريم فعلم منهما أفونسو دلبوكيرك أن يوسف الأعرج[(١)] Icufularij في طريقه على رأس ألفيْ مقاتل لإنقاذ الحصن وأنه يوجد داخل الحصن قوات مشتركة من ترك (أحد عناصر مسلمي الهند) وروم (مماليك مصريين) وخُراسانيِّين تصل إلى قرابة ستة آلاف ، وهناك قوات أخرى قوامها ثلاثة آلاف مقاتل من بينها مئة من مستخدمي البنادق ذوات الفتائل وثلاثمائة فارس .

وعندما سمع أفونسو دلبوكيرك بهذه الأخبار ، عيّن ايرز دا سيلفا Aires da Silva رئيساً لقباطنة السفن وألحق بخدمته باراو Parao كسفينة تموين لتزويده بالماء والمؤن الضرورية وطلب منه مهاجمة الحصن مباشرة من ناحية البحر بقواته ، بينما ينقضّ هو (أفونسو) على العدو من ناحية البر ، وبعد تنظيم هذه

(١) Icufularij ربما كان تحريفاً للاسم العربي يوسف الأعرج .

الخطة أبحر إلى المدينة في الكاتور Catur نفسه الذي أتى به . لقد استمرت هذه العملية ثمانية أيام وثماني ليالٍ ، وطوال هذه الفترة لم يكف الترك (المقصود جنود العادل خان) عن إطلاق مدافعهم فألحقوا بسفننا أضراراً وذلك لأنها كانت قريبة جداً من المتاريس وفي خط مباشر مع هذه المدافع ، واعتاد رجالنا المنخرطون في هذا العمل أن يقولوا أنه خلال هذه الأيام الثمانية أطلق المسلمون أكثر من أربعة آلاف طلقة من الوزن الثقيل بالإضافة للطلقات الأقل وزناً ، وأنهم اعتادوا قذف سهامهم وإطلاق بنادقهم نوات الفتائل من فوق السور فجرحوا عدداً كبيراً من رجالنا . لقد غطت سهام المسلمين عوارض السفن وصواريها وأغطيتها فغدا النظر إليها باعثاً على الرعب .

وقد أبدى تريستاو دي ميراندا ، وفيسنت دلبوكيرك في هذه الأيام شجاعة كبيرة رغم صغر سنِّهما وعانيا كثيراً من الزئير المستمر لطلقات مدافع المسلمين وطلقاتنا لأن سفينتيهما كانتا في الطليعة ، وقد أثَّر ذلك فيهما حتى أنهما ظلاّ لفترة طويلة بعد ذلك لا يسمعان . ومن ناحية أخرى فإن ايرز دا سيلفا Aires da Silva أنجز ما أُوكل إليه من أعمال بروح الفارس الشجاع ، وقد أدّت الحادثة التي وقعت لسفينته فراح يفكر قليلاً في الحبل المشدود وقليلاً في المرساة[1] إذ لم يكن يشغل باله إلاّ أن يكون في الطليعة وأوّل الجميع ليحسم النهاية في كل شيء فهو رجل لا يعرف الخوف . وبعد أن غادر أفونسو دلبوكيرك الموقع متوجِّهاً للمدينة ، بدأ ايرز دا سيلفا Aires da Silva ذات ليلة –بعد أنْ علم بوصول قافلة من ثيران التحميل محمَّلة بمؤن للحصن لتدخله من الناحية الأخرى– في التسلل مع رجاله وأنقض عليهم وأحرق مساكنهم وقتل من المسلمين عدداً كبيراً واستولى على كل المؤن ، وأسْلم من نجا منهم (من المسلمين) ساقية للرِّيح . وقد حارب كل من بيرو دي أفونسيكا Pero de Afon-seca وأنطونيو رابوزو Antonio Raposo وأرْسَيا سفينتيْهما دون رهبة من مدافع العدو كذلك .

ولا أعتقد أنَّ أحداً رأى في أيٍّ جزء من العالم مثل ما جرى هنا من حيث

(١) النص البرتغالي : "Nunca Curou de rageiras nem de proize" .

كثرة قوات الأعداء وكثرة مدافعهم ، ولا أعتقد أن أحداً سمع بشيء كهذا حتى أن أفونسو دلبوكيرك كان دوماً يشد من أزر رجالنا قائلاً إنه لا يجب أن يُقيموا وزناً للأخطار التي يجدون أنفسهم فيها ، فلا خوف على أبدانهم ولا خوف على حياتهم ، والدليل على ذلك أنَّ سفننا البرتغالية كانت في مَطَال مدفعية المسلمين Turks بحيث لم يكن فيها مكان يحتمون به لكن ربّنا Our Lord شاء أن يحفظهم .

الفصل السابع والأربعون

كيف وصل أفونسو دلبوكيرك إلى جوا وكيف استقبله سكانها استقبالا عظيماً وبقية ما جرى مع الترك (المسلمين أو جنود العادل خان) .

بعد أن قطع أفونسو دلبوكيرك الكبير الطريقَ على أيٍّ مدد أو عون يأتي للترك (مسلمي الهند من هذا العنصر) اتخذ طريقه في كاتور Catur إلى حصن جوا فلما وصل للرصيف –وكانت تلك هي المرة الأولى التي يدخل فيها المدينة منذ عودته من ملقى– أقبل السكّان للقائه عند بوابة القديسة كاترين Saint Catherine وجرى نزوله للبر كالآتي :

د. جارسيا دي نورونها ، مع كل طواقم السفن ، ومانويل دي لاكيردا قائد المدينة ، مع كل ذوي الرُّتب المقيمين في المدينة ، وبيرو ماسكارنهاس Pero Mascarenhas مع المجموعة المدرّبة على حمل السلاح من أهل المدينة والقضاة ونوّاب القائد aldermen وبقية أهل البلاد المحلّيين native .

وجهّزوا له فرساً فَتيّة غُطّيت بأغطية مُزَركشة جميلة مُقصّبة وسرْج ذي ركابيْن ، وزيّنت كل أدواتها الأخرى من لجام وغير ذلك بالفضة ، وهيّئوا له ظلّة مُقصّبَة حملها نوّاب المدينة ، وعند وصوله للبوّابة خطب الخطباء بين يديه خطباً فَحْواها بهجتهم بعودته وفرحتهم بالنصر الذي وهبه ربّنا Our Lord له على ملك ملقى .

وبعد أن انتهت هذه الخُطب الرنّانة اقترب منه مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda وسلّمه مفاتيح الحصن .

وبعد أن انتهت هذه الإجراءات الاحتفالية تحدث أفونسو دلبوكيرك لكل

الحاضرين بود شديد وهو فوق فرسه الفتيّة تحيط به كل حاشيته ، وبدأ موكبه على الفور في اتجاه الكنيسة والجميع أمامه راجلين ، وبينما هو في منتصف المسافة أقبل إليه رجال الدين ليستقبلوه حاملين صليباً وقد رفعوه عالياً فما أن رآه أفونسو دلبوكيرك حتى ترجَّل وركع أمام الصليب وطلب من حاملي الظُلَّة أن يُظَلِّلوا بها الصليب ، فهذا التشريف يجب أن يكون أولاً للصليب فقد تعذَّب ربنا Our Lord وعانى كثيراً وهو فوق صليب مثله* ، وبهذه الطريقة جعلوا الصليب تحت الظُلَّة في مقدمة الموكب وتبعوه جميعاً إلى الكنيسة . فلما انتهت الطقوس الكنسية ركب أفونسو دلبوكيرك فرسه الفتيّة مرّة أخرى واستظل بالظُلَّة واتخذ طريقه إلى قصر السيباهي Cabayo وهو المكان المخصَّص لإقامته وراح - فوراً- يجهِّز لما هو ضروري للإنطلاق براً ضد بيناستاريم Benastarim .

وعندما تجهَّز للإنطلاق بنيّة شنّ هجوم ضار ضد هذا الحصن (بيناستاريم) وإحداث ممر واسع يدخل منه جنوده ، وصلته أخبار أن رسول خان Racalca'o قد ترك الحصن وأنه يتقدّم بقوات كبيرة راجله وراكبه لمهاجمة المدينة (جوا) وحالما علم بذلك أمر مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda -قائد المدينة- أن يتجه لاكتشاف أوضاع العدو بمجرد طلوع الصبح ، ذلك أن الوقت الذي علم فيه بهذه الأخبار كان ليلاً ، وأمر بأن يكون معه في هذه المهمة كلاً من : بيرو ماسكارنيهاس Pero Mascarenhas وأنطونيو دي سالدنها Antonio de Saldanha وجوآو ماشادو Joa'o Machado ، وفرناو كالديرا Ferna'o Caldeira ومانويل فرناندز Manuel Fernandez وجوآو كابيسيرا Joa'o Capeceira ولورنزو بريجو Lourenco Prego وديوجو فرناندز Diogo Fernandez (الدليل "Adail")[1] .

وفي بكور اليوم التالي خرج هؤلاء جميعاً من البوّابة واتجهوا إلى المرتفعات المشرفة على الوادي الذي يعسكر فيه رسول خان بقوّاته فما أن ألقى مانويل

---

* هذه عقائدهم وهي مخالفة كما هو مفهوم لعقائد المسلمين الذين يحترمون المسيح كنبي مرسل لكنهم يرفضون أنه إله تعذب من أجلهم على الصليب .

(١) أنظر جـ٢ ، فصل ٢٧ ، حاشية ٣ .

دي لاكيردا نظرة على قوات العدو حتى قدّرها بثلاثة آلاف مقاتل فأرسل يُعلم أفونسو دلبوكيرك بموقع قوات العدو وعدد أفراده تقريباً ، عندئذ أمر أفونسو دلبوكيرك كلاً مـن روي جونسالفير Ruy Goncalvez وجواَو فيدالجو Joa'o Fidalgo على رأس ثلاثمائة من أهل البلاد المدرّبين على حمل السلاح والقاذفين بالسهام وحملة البنادق ذوات الفتائل وحملة الرماح بالذهاب على طول الممر المباشر لينضمّوا إلى مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda لدعم قوته ، ووراء هؤلاء أرسل ثلاثين راكباً حاملين رسالة إلى مانويل دي لاكيردا للاحتفاظ بموقعه لدعم المقاتلين من أهل البلاد من صفوف البرتغاليين لكنه حذره من الاشتباك في معركة مع الترك (جنود العادل خان) فإن وجدهم مصرّين على خوض حرب أعْلمه (أيْ أعلم أفونسو دلبوكيرك) .

وعندما أدرك رسول خان قلّة عدد رجالنا أقبل ليخوض معهم معركة لكن مانويل دي لاكيردا ظلَّ في مكانه ولم يُرِد محاربته فلما أدرك توقف ولم يجرؤ على التقدم نحوهم وبينما الطرفان على هذا الوضع أسرع جواَو ماشادو Joa'o Machado إلى المدينة وأخبر أفونسو دلبوكيرك كيف أن رسول خان في موضع يجعله مستعداً للحرب ، ويطلب منه (من أفونسو دلبوكيرك) أن يبيّن لهم ما يريده منهم ، فجمع أفونسو دلبوكيرك كل القادة والقباطنة وسرد عليهم الوضع القائم . وحالما أكّد جواَو ماشادو رغبة رسول خان في شن الحرب حتى أجمع رأي القادة البرتغاليين على شن حرب عليه بكل رجالهم .

وكان رأي أفونسو دلبوكيرك أنهم ما داموا قد صمّموا على شن هجوم بري على الحصن وأنهم الآن -بالفعل- يحاصرونه بحراً ، فإنه لطرد الترك (جنود العادل خان) منه فإنه ليس من الحكمة أن يذهبوا للبر (لهذه البلاد) ليتناوشوا مع المسلمين Moors وإنما أن يعقدوا العزم على الوصول لنصر حاسم وأن يجعلوا قلوبهم عامرة برغبة حارة وحماسة شديدة لأنه لدى المسلمين رماة سهام مدرّبين وجنوداً مِطْواعين ذوي تسليح خفيف ويمكنهم الاقتراب منهم والتحرك بكتائبهم في المكان المناسب ، بينما رجالنا (البرتغاليون) لا يمكنهم القيام بهذا

فتسليحهم ثقيل ولا يمكنهم مجاراة الترك (مسلمي الهند والمقصود هنا جنود العادل خان) في هذا المضمار في ميدان القتال ، ومع كل هذا الاعتراضات عادوا جميعاً يصرون على حرب الترك (جنود العادل خان) .

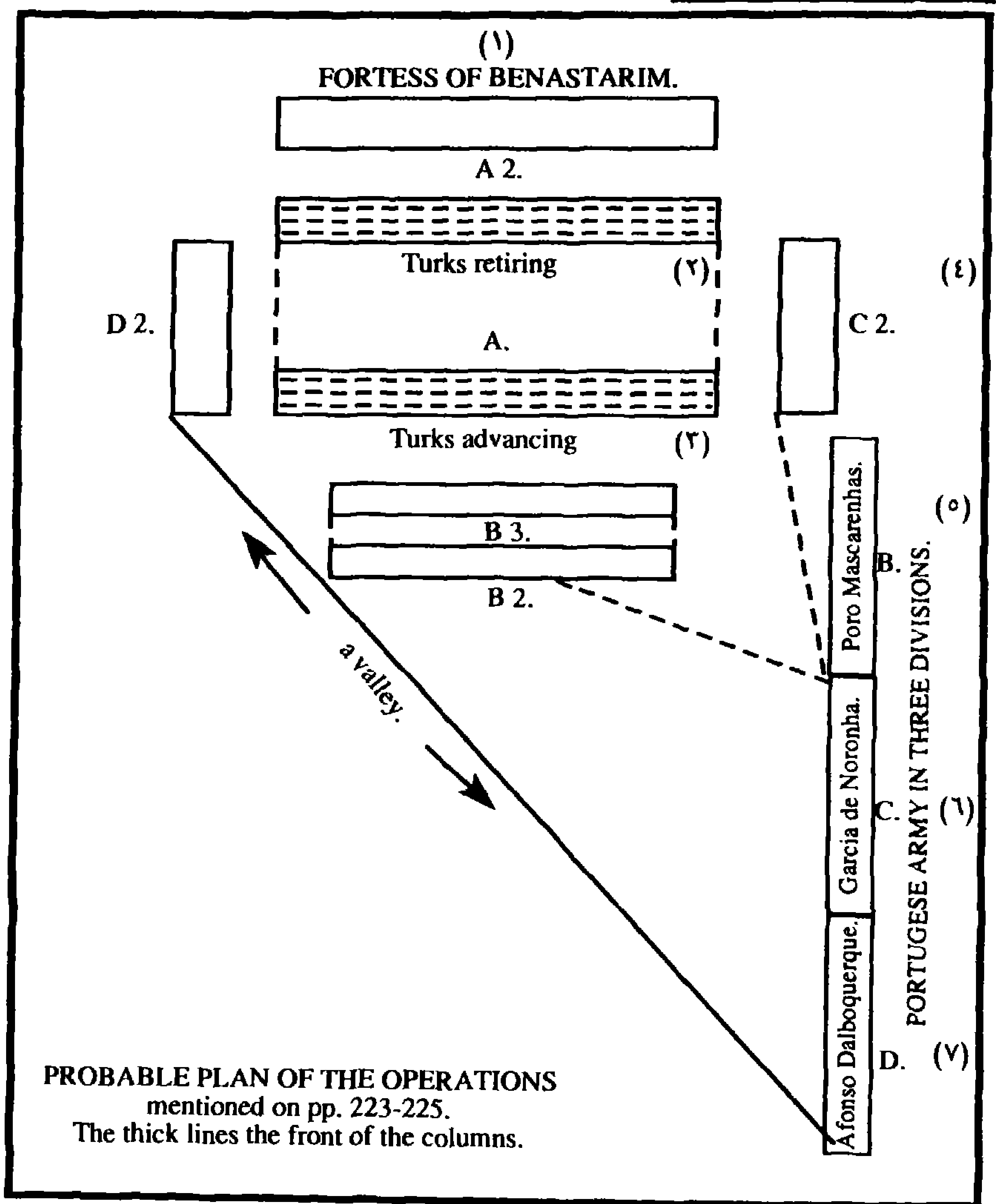
ورضخ أفونسو دلبوكيرك لرأي المجلس فأمر بالتقدم وفتح البوّابات وأبحر بكل قواته التي قسّمها إلى ثلاث مجموعات .

وفي الطليعة (B)[1] أرسل بيرو ماسكارينهاس Pero Mascarenhas وزوّده بأوامر تقضي بأن ينضم بقواته إلى قوات روي جونسالفير Ruy Goncalvez وجواَو فيدالو Joa'o Fidalgo وأن يهتم بشئون المجندين من أهل البلاد . وفي القلب (C) main body أرسل دي جارسيا دي نورونها بصحبة بيرو دلبوكيرك Pero Dalboquerque ولوبو فاز دي سامبايو Lopo Vaz de Sampayo وأنطونيو دي سالدانها Antonio de Saldanha وفرنسسكو بيريرا بيستانا Francisco Pereira Pestana وجورج دلبوكيرك[2] ، وجورج ننوز دي لياو Jorge Nunez de Lia'o وجونسالو بيريرا Goncalo Pereira ، د. جواَو ديسا D. Joa'o Dessa وديوجو فرناندز دي بيجا Diogo Fernandez de Beja ود. جواَو دي ليما D. Joa'o de Lima وجاسبار بيريرا Gaspar Pereira وجورج دا سيلفا Jorge da Silva وروي جالفاو Ruy Galvao وبيرو كوريا Pero Correa وجواَو دلجادو Joa'o Delgado ومانويل دي سوزا Manoel de Sousa وجيرو نيمو دي سوزا وغيرهم من ذوي الرتب وحاملي ألقاب الفروسيّة ، بينما هو نفسه (أفونسو دلبوكيرك) وبقية القوات في المؤخرة (D) (أنظر المخطط) وساروا جميعاً بهذا التنظيم القتالي على مرأى من الترك (المسلمين) (A أنظر المخطط) فبدأ رسول خان يدفع قواته ناحيتنا (البرتغاليين) ، فأمر أفونسو دلبوكيرك ، بيرو ماسكارينهاس Pero Mascarenhas أنْ يدور حول القوات المحلّية المدرّبة لمواجهة العدو (أنظر المخطط B2) وأمر د. جارسيا D. Garcia أن يُسرع بقواته

---

(١) أنظر المخطط في الصفحة التالية .

(٢) أنظر فصل ٤٤ . وردت هذه الأسماء ضمن أسطول جورج دي ميلو سنة ١٥١٢ .



تصور لخطة العمليات التي أتبعها أفونسو دلبوكيرك والواردة في هذا الفصل .

(١) حصن بيناستاريم .

(٢) تراجع جنود العادل خان .

(٣) تقدم جنود العادل خان .

(٤) تشكيل عسكري برتغالي .

(٥) تشكيل عسكري على رأسه بيرو ماسكارينهاس .

(٦) تشكيل عسكري على رأسه جارسيا دي نورونها .

(٧) تشكيل عسكري على رأسه أفونسو دلبوكيرك .

(٨) وادي .

- تابع الأحداث في الفصل لمعرفة دلالات الحروب الأوربية وما صاحبها من أرقام (A2 ، D2 ... الخ)

(بالخطوة السريعة) إلى أيامنهم (أنظر المخطط C2) بينما يبقى هو (أفونسو دلبوكيرك) عن شمائلهم ويحسّن موقعه صعُداً في الوادي منقضاً على القوات التركية (جنود العادل خان) من جناحها (جانبها) (أنظر المخطط D2) لكن د. جارسيا أسرع أكثر مما هو مطلوب فأرسل إليه أفونسو دلبوكيرك طالباً منه التوقف والاحتفاظ بموقعه حتى يصل هو (أفونسو دلبوكيرك) إلى رأس الوادي لأن هذا الموضع يمثل نقطة استراتيجية مهمة جداً لمهاجمة الترك (قوات العادل خان) ، فلما أدرك رسول خان أن قواتنا مصرّة على خوض معركة معه توقف وأمر قواته ألاَّ تتقدّم .

لكن أفونسو دلبوكيرك المجرِّب المحنك حالما لاحظ أن الترك (المسلمين الهنود) يبدّون التراجع وأنهم غيّروا خطتهم ، أمر بيرو ماسكارينهاس بالضغط عليهم بشدّة (أنظر المخطط B2) ود. جراسيا دي نورونها أن يتبعهم على طول خطّه his Line ومانويل دي لاكيردا أن يدعم المقاتلين من أهل جوا (المحلّيين) بالفرسان على وفق التعليمات التي كان قد أوكل تنفيذها إليه ، فلما وجد الترك (جنود العادل خان أو مسلمي الهند من هذا العنصر) في مواجهة الكتائب المدرّبة ، عمّتهم الفوضى وتراجعوا (أنظر المخطط A2) وولّوا وجوههم شَطْر الحصن (حصن بيناستاريم) .

الفصل الثامن والأربعون

رسول خان يفر بقواته وافونسو دلبوكيرك يتبعه حتى حصن بينيستيريج Benesterij وما حدث بعد ذلك .

عندما أدرك أفونسو دلبوكيرك الكبير أنّ رسول خان قد ولّى وجهه شَطْر الحصن ، أمر مانويل دي لاكيردا بالانقضاض على المسلمين بفرسانه ، ولأن رجالنا كانوا قد حشدوا معهم ألفا من المقاتلين الكاناريين Canarese فقد انفصلوا عنهم وراحوا يسيرون صُعُداً في الأرض المرتفعة . فلما رأى أفونسو دلبوكيرك أنّهم يسيرون بدون نظام فصل من تشكيله العسكري مجموعة من الجند لتُناور بحيث تكون في موضع وسط بين هؤلاء المقاتلين وقلب الجيش التركي (جيش العادل خان) فلما رأى هؤلاء المقاتلون أن الطريق قد قُطع عليهم تركوا الطريق التي كانوا يسيرون فيها واتجهوا إلى مخاضات جونداليج Gon-dalij لأنها كانت الأقرب وعبروا النهر فغرق منهم عدد كبير .

وفي أثناء حدوث هذا كان بيرو ماسكارينهاس مع مجموعة المقاتلين المدرَّبين من أهل جوا قد وصل بالفعل إلى الترك (جنود العادل خان) واشتبك معهم ، كما وصل سريعاً د. جارسيا دي نورونها من الناحية اليمنى ، وأصبح الطرفان المتقاتلان قريبيْن من الحصن ، وانقض البرتغاليون على الترك (جنود العادل خان) بشجاعة فائقة فاضطرهم للتخلي عن كل خيولهم وأصبح العدو في خوف شديد من رجالنا فازدحموا داخلين الحصن وأغلقوا عليهم بوّاباته تاركين كثيرين منهم خارج الحصن فاعْترى هؤلاء الذين لم يتمكّنوا منه دخول الحصن هلع شديد فراح بعضهم يرتدي أغطية الرأس الواقية headeager التي قذفها

إليهم الذين استطاعوا دخول الحصن ، وهَرْول آخرون ليدخلوا الحصن من الناحية الأخرى وكثيرون غاصوا في الطين فلاقوا حتوفهم ، وفضّل آخرون إلقاء أنفسهم في مجرى النهر فتلقّاهم ايرز دي سيلفا Aires de Silva وغيره من القباطنة وأعملوا فيهم السّيف إذ أن ايرز وغيره من القباطنة ما أنْ رأوْهم حتى أقبلوا في القوارب إلى أدنى سور الحصن مع كل رجالهم وقد حملوا تروسهم ، لأنهم ظنوا أن الوقت قد حان لاتخاذ هذا الإجراء ولو أن أفونسو دلبوكيرك كان في إمكانه الاتصال بهم لأمرهم بهذا .

وحالما رأى الترك (الجنود في معسكر العادل خان) رجالنا عند أدنى الأسوار قذفوا عليهم حجارة كثاراً وسهاماً ، وأطلقوا بنادقهم ذوات الفتائل بكثافة شديدة فاضطر رجالنا للتراجع وقد جُرح منهم عدد كبير . أما الجزء الآخر من قوّاتنا الذي كان متمركزاً ناحية البر فقد وجد أفراده أنهم قريبون من أسوار الحصن فحاول بعضهم تسلق أعمدة الرماح وحاول بعضهم القَفْزَ ذلك لأن السور من هذا الجانب البري كان أكثر انخفاضاً منه وأقل متانة منه من جانب النهر ، ولأنه كان من بينهم بعضُ ذوي الرتب وحاملي ألقاب الفروسيّة فقد أقبل رسول خان يجمع من جنوده وراحوا يقذفون رجالنا من فوق الأسوار فجرحوا عدداً كبيراً بسهامهم وبنادقهم ذوات الفتائل وعلَب البارود وأحزمة القش المشتعلة ، ومع كل هذا فلم تتراجع قواتنا . وبالنسبة للقادة الذين كان أفونسو دلبوكيرك يعوّل عليهم لنجدة رجاله الذين في هذه الناحية (البر) فقد بذلوا جهوداً كبيرة وعاون بعضهم بعضاً ، وكان أول من فعل هذا هو بيرو ماسكادينهاس Pero Mascarenhas الذي كان على رأس مجموعة من المدربين من أهل جوا ، وقد حدث بعد ذلك أن عانقه أفونسو دلبوكيرك وقبّله ، بينما حاق الخِزْي بآخرين لم يؤدوا واجبهم كما ينبغي ، لقد أدى بيرو ماسكارينهاس عمله كفارس شجاع ، رغم أنّه لم يكن مُجبراً على ذلك ، فقد ترك حصن كوشن (كوشيم) -وكان هو قائده- وأتى ليخدم الملك البرتغالي في الحرب .

أما فرنسسكو بيريرا بيستانا Francisco Pereira Pestana فقد كان أكثر

المهتمين بهذا الأمر فقد توجه للسور وضربه بقبضة يده (ولم يكن هذا بغير ألمٍ ألمَّ بها) وقال : "أريد أن أعرف ما إذا كان نسوة لشبونة Pedler women سيقلن إن فرنسسكو بيريرا كان هنا منشغلاً بهذا العمل ؟" فوبخه أفونسو دلبوكيرك قائلاً إنه مندهش لعدم قدرته انجاز هذا الأمر في هذه اللحظة غير المناسبة فبدأ فرنسسكو بيريرا –لأنه كان رجلاً عاطفياً ذا طبيعة نَزِقة– يتراشق بالكلمات الغاضبة مع أفونسو دلبوكيرك . وبلغ النزاع بينهما لدرجة أنه قال : "لماذا تفتعل معي الشجار وليس مع دوارت دي ليموز ، ألأنه يُظهر أنيابه his teeth لك ؟" فأجابه أفونسو دلبوكيرك كاظماً يُبدي أسنانه جيداً ، فأسنانه كبيرة جداً وطويلة"[1] ولم يقل له أكثر من هذا وأدار له ظهره لأنه منذ أيام قلائل بينما كانا يتراشقان بالكلمات تغاضى أفونسو دلبوكيرك عن عقابه وقال له : "أقسم بحياتي يا فرنسسكو بيريرا ، أن الغضب تملكني حتى إنه ليمكن أن أمزِّق نفسي" بل إنــه تناول معطفه القرمزي المشقوق الذي كان يلبسه ومزَّقه إرباً .

أما د. جارسيا دي نورونها بكل القوات المتبقية التي كان متمركزاً معها ناحية اليد اليمنى فقد حاقت بقواته الاضطراب حتى أنّ العدو منعها من التوجه للبوابات أو للسور وكل ما استطاع فعله هو اتخاذه موقفاً دفاعياً ، وكان أحد أسباب الفوضى التي عمّت مجموعته هو الخيول التي راحت تجري على غير هدى وتركل هنا وهناك وهي الخيول التي تركها الترك (مسلمو الهند من جنود العادل خان) وفرّوا ناجين بأنفسهم فوق أسوار الحصن . وقد عانى العدو كثيراً قبل أن يتمكّن من الفرار فقد قتل رجالنا منهم عدداً كبيراً . وخلال هذه الأحداث السريعة المتعاقبة ظن رسول خان أن البرتغاليين قد دخلوا الحصن ، وكان هذا بالفعل ممكناً لا شك فيه لو أن رجالنا كانوا قد استعدوا لذلك .

أما أفونسو دلبوكيرك بتشكيله العسكري في الجناح الأيسر فبدأ يهاجم المتاريس التي كان يتمركز عندها مِلك يحيى[2]* Miliqueaya وهو القائد الثاني

(١) أنظر جـ٢ ، فصل ٥١ . وقد ورد في هذا الفصل ذكر لأسنان دوارت دي ليموز طولاً غير عادي .

(٢) Miliqueaye ربما كان المقصود بهذا الرسم مِلك يحيى ويحيى هو يوحنا وهو بالانجليزية جون John .

* أو مالك كما تكتب بعض الكتب العربية هذا المقطع .

(بعد رسول خان) الذي دافع عن موقعه ببسالة بقواته كثيرة العدد ، ومع هذا فقد كانت قواتنا واثقة من إمكانية التغلب على العدو حتى أن أفونسو دلبوكيرك كان بإمكانه ببساطة وضع علَمَه على السور لوْ أنَّه كان يعلّق الآمال على دعْم يأتيه من الجانب الآخر . لكن لأن بينيستاريج Benestarij كانت مدينة كبيرة وأنه –أي أفونسو دلبوكيرك– لم يكن لديه مدفعية يمكنه بها إحداث خَرْق في الأسوار ، فقد أمر رجاله بالتراجع . ورغم أن جنودنا في هذا اليوم لم يفعلوا إلاّ ما ذكرتُه آنفاً فإنهم يستحقون الثناء فقد استطاع عدد كبير من حملة ألقاب الفروسية وذوي الأصل النبيل مثقلين بالسلاح وفي جو حَرُّه قائظ أن يسيروا على الأقدام من جوا إلى بينيستاريج Benestarij مسافة مقدارها فرسخان ونجحوا في الوصول إلى السور الذي استطاع الترك (جنود العادل خان) الدفاع عنه جيداً .

وقد جُرح في هذه المعركة : مانويل دي لاكيردا Manuel de Lacerda وبيرو دلبوكيرك Pero Dalboquerque وجورج دا سيلفا Jorge da Silva ولوبيز فاز دي سامبايا Lopez Vaz de Sampaya وروي جلفاو روي Galva'o وبيرو كوريا Pero Correa وجواو دلجادو Joa'o Delgado وروي جونسالفير Ruy Goncal-vez قائد القوات المحلّية المدرّبة ، وديوجو فرناندز دي بيجا Diogo Fernandez de Be'ja ومانويل دي سوزا Manuel de Sousa وجيرونيمو دي سوزا Jerony-mo de Sousa وكثيرون غيرهم من ذوي الأصل النبيل الذين صحبوا قادتهم وقاتلوا ببسالة لم يهابوا النيران ولا قنابل البارود ولا طلقات البنادق ذوات الفتائل ولا السهام ولا الأحجار . وبالإضافة لهؤلاء المذكورين أعلاه لدينا قائمة أكثر من مئة وخمسين من المدفعيّة لقربهم من سفح السور ، لكن هــذه الخسائر من جانبنا لم تكن بغير مقابل فقد قتلنا عدداً كبيراً مــن المسلمين وجرحنا منهم أعداداً أخرى قبل أن يتمكنوا مــن التراجع إلــى الحصن ، كما قتلنا عــدداً كبيراً مــن المسلمين ذوي الأصول الهنديــة الخالصة في جيش العــادل خان بعد إغلاق البوّابة ، كما قتلنا قائدين من قادة الهندوس

كانا يقاتلان إلى جانب المسلمين أحدهما اسمه ميرال*[١] Miralle والآخر كونيك[٢] Conaique .

---

(١) ربما كان الإسم Miralle يعني الأمير علي .

* إن كان المقصود أنه قائد مسلم يقود الهندوس فهذا جائز .

(٢) لا أستطيع إرجاع هذا الإسم إلى أصله .

الفصل التاسع والأربعون

كيف جمع أفونسو دلبوكيرك الكبير رجاله ورجع إلى المدينة (جوا) وكيف عاد مرة أخرى لمحاصرة الحصن وما جرى مع رسول خان.

عندما انسحبت قواتنا من أدنى الأسوار اتّخذ أفونسو دلبوكيرك موضعاً أمام الحصن لا تصلُه طلقات مدافع العدو ، ومكث فيه فترة طويلة مع كلِّ القادة والقباطنة وذوي الرُّتب وحاملي ألقاب الفروسية يتباحثُ معهم فيما يجب عمله لدخول الحصن ، فلمّا تمَّ فحص الأمور كلها بعناية إنطلق بكل جيشه إلى المدينة (جوا) ومكث هناك عدة أيام يعتني بالجرحى ويُريح مَنْ أنهكه التعب في يوم المعركة ، وأصدر أوامره بإعداد كل المدافع بسرعة ، وكذلك السّلالم التي تُستخدم في تسلّق الأسوار والمنصّات التي تُستخدم في عمليّات الهجوم[1] ban-cos pinchados والملابس الواقية ، والبراميل الفارغة لاستخدامها في إقامة الاستحكامات ، وكل ما يمكنهم جمعه من المدينة (جوا) لهذه المعركة التي هُم مقدمون عليها . وعندما تمَّ كلُّ شيء وغدا جاهزاً أصدر أوامره بعد يومين بخروج القوات المحلّية المدرّبة في حملةٍ مع كلِّ حملة البنادق ذوات الفتائل وقاذفي السهام لنقل هذه الذخائر وانتظاره عند الشّجرتين (وهما يمثلان علامة على منتصف الطريق من جوا إلى بينيستاريج "Benestarij") وأنْ يَنْصبوا في هذا الموضع خيمةً له ، وفي صباح اليوم التالي إنطلق بكل قواته البالغ عددها قرابة ثلاثة آلاف وخمسمائة فلما وصلوا لموضع الشّجرتين نصب معسكره وأحاطه بالمدافع من كل جانب وظل منتظراً مدة يومين وصولَ المؤن التي أوْكَلها

(١) أنظر فصل ٤٦ ، حاشية ٢ .

لتابعه باستيام رودريجز Bastiam Rodriguez (الذي يعمل الآن أميناً للميزانية في دار سك لشبونة) ، فلما وصل إنطلق أفونسو دلبوكيرك بكل قواته التي قسمها إلى ثلاثة تشكيلات عسكرية ، وأمر بيرو ماسكارينهاس Pero Mascarenhas بقيادة القوّات المحلّية المدرّبة في طليعة الجيش مع كل المدافع وإقامة بعض الاستحكامات التي يمكن أن يُقيم فيها هذه المدافع .

وما أن أصبح رجالنا على مرأى من الحصن بدأ الترك (قوات العادل خان) في إطلاق النيران عليهم ، فأمر أفونسو دلبوكيرك بمعاملتهم بالمثل وأوكل ذلك إلى بيرو ماسكارينهاس ، فاختبأ المسلمون الذين كانوا قد أظهروا أنفسهم فوق الأسوار . وترجّل أفونسو دلبوكيرك من فوق ظهر الفرس الفتية التي كان يركبها واتجه راجلاً إلى حيث نَصَبَ ماسكارينهاس مدافعه ، ولأن الليل كان قد حل ، فقد أمره أن يتقدّم أكثر نحو الحصن إزاء الموضع الذي كان جوآو ماشادو Joa'o Machado قد حدّده له باعتبار السور فيه أضعف منه من المواضع الأخرى ، إذ كان هدف أفونسو دلبوكيرك أنْ يُطيح بجزء من السور ، حتى يدفع فيه بمجموعة تشن هجوماً عاصفاً لا يستطيع الترك (جنود العادل خان) التصدّي له . وفي ذلك اليوم وصلوا فيه لم يفعلوا أكثر من نَصْب خيامهم حول أسوار الحصن غير بعيدين كثيراً عنها . وفي صباح اليوم التالي آوى أفونسو دلبوكيرك إلى صخرة جعل ظهره لها ليرى ما سيفعله رجالنا .

لقد أحسّ الترك (جنود العادل خان) بكبريائهم وقد جُرحت لجسارة أفونسو دلبوكيرك باتخاذه هذه المواقع لقوّاته فراحوا يُطلقون مدافعهم إلى حيث هو مراراً ، وفي هذه الأثناء أتى ديوجو مندز دي فاسكونسيلوس Diogo Mendez de Vasconcelso فأدرك أن الموضع الذي فيه أفونسو دلبوكيرك غير آمن لأنه يتعرّض لوابل من الطلقات فرجا أفونسو دلبوكيرك أنْ يقف وراء الصخرة ومع أن ديوجو مندز هذا وأفونسو دلبوكيرك لم يكونا على علاقة صداقة كاملة إلاّ أن الأخير (أفونسو) استجاب لمشورته وما إن أصبحا وراء الصخرة حتى أتت طلقة قتلت رجلاً كان يتنافس معهما منذ هُنَيْهة ، فشكر أفونسو دلبوكيرك ربّنا Our

Lord شكراً جَمّاً أن أنقذه ، وأمر بالاحتفاظ بهذه الطلقة وطلائها بالفضة والاهتمام بها تماماً كالاهتمام بمراسم جنازته لو كان قد مات ، وأمر بحملها (الطلقة) إلى كنيسة سيدتنا التي من جودالوب[1] Our Lady of Goadelupe مع مصباح كبير من فضةٌ وقلادة من ذهب مع أحجار كريمة وأسهم بمائة ألف ري reis نقداً لشراء الزيت لهذا المصباح ، وتم تنفيذ كل ذلك على يد بيرو كوريا Pero Correa الذي أصبح وكيله التنفيذي .

ولما انتهت هذه الحادثة المذكورة آنفاً ، أمر أفونسو دلبوكيرك د. جارسيا دي نورونها بالإندفاع باستحكاماته ليلاً ليكون أقرب لسور الحصن لأنه بوضعه الحالي كان بعيداً عنه فراح ينفّذ الأمر بنشاط طوال الليل حتى أنه قبل أن يُطل الصبح كان قد أقام استحكامات في الموقع الجديد أقوى من تلك التي كانت قبل نقلها ، مستخدماً في إقامتها عدداً من البراميل والسلال المملوءة تراباً ، ورتَّب كل المدافع في مواضعها الصحيحة وراح أفونسو دلبوكيرك طوال الليل يمرّ وهو فوق فرسه ليرى تقدُّم العمل ، ولما انْبلجَ الصبحُ ورأى رسول خان استحكاماتنا وقد أصبحت أكثر قرباً من الحصن ، جهّز أربعمائة تركي (مسلم تركي هندي) وأمرهم بالهجوم عليها .

وعندما سمع بيرو ماسكارينهاس Pero Mascarenhas وجوآو فيدالجو Joa'o Fidalgo –اللذان كانا على رأس القوات المدرّبة المحلية والمتمركزة في تجويف لتكون بعيداً عن مدى مدافع العدو– بخبر هذا الهجوم أقبلا برجالهما سريعاً ، وأقبل دوم جارسيا دي نورونها من الناحية الأخرى وانقضَّ الفريقان على قوّات العدوِّ بشجاعة ففرَّ العدوُّ مُخلِّفاً وراءه عدداً من قتلاه مُنْطرحين في الميدان ، وانهالت مدفعيتنا بعد ذلك على السور بضراوة منذ الصباح حتى المساء فلم يَجْسُر مسلم واحد على الظهور بين فرجات السور العلويّة .

ولأن مدافعنا قويةٌ جداً ومدفعيينا مهرةٌ جداً ، فقد ظهرت في السور خروق في عدة مواضع فلما رأى أفونسو دلبوكيرك حال السور أمر القادة بالاستعداد

---

(١) كنيسة إلى الجنوب من مدينة جوا .

لمهاجمة الحصن في صباح اليوم التالي واجتياح الترك (مسلمي الهند من هذا العنصر) بقوة السلاح ولم يحدِّد لأيٍّ منهم موضعاً للهجوم وإنما -حذّرهم وأن يتجهوا إليه حيثما وجدوه وأمر المدفعيِّين بالاقتراب من السور أكثر فأكثر ، فلما رأى رسول خان أنّ الضغط عليه شديد من جهة البحر ومن جهة البر وألاّ أمل له في الخلاص استدعى ملِك يحيى (أو مالك يحيى) -وهو القائد الثاني أو نائب القائد الأعلى وهو خراساني الأصل- وكل أولي الشأن في الحصن وخطبهم موضِّحاً كيف هي حالة الحصار ولا مجال لمددٍ أو عوْن وكيف تهَدّم جانب كبير من السور وكيف أن المؤن تناقصت وكذلك البارود وتناقص كل شيء مطلوب للدفاع ، ومن ثمّ فلابد من إنقاذ أنفسهم ببعض ترتيبات السلام التي يتحتم تدبيرها مع المسيحيين .

وبعد أن تدارس ملِك يحيى وغيره من الترك (أحد عناصر مسلمي الهند) وبعد أن وَعَوْا الدرسَ من خلال ما هم فيه ، انتهوا إلى ضرورة طلب هدنة يُعقد بعدها اتفاق سلام . وفي صباح اليوم التالي بينما كان أفونسو دلبوكيرك ينوي شنّ هجوم عاصف على الحصن ، علّقوا علماً أبيض على السور فلما رآه أرسل جوآو ماشادو على الفور للتحدث مع رسول خان ليعلم ماذا يريد ، فاتجه جوآو ماشادو سيراً على الأقدام إلى السور ونزل رسول خان ليطلب حقّ المرور الآمن من أفونسو دلبوكيرك لأنه (رسول خان) سيفعل ما يُطلب منه . وكانت حياة مسيحيٍّ واحد أفضل عند أفونسو دلبوكيرك من كل الترك (مسلمي الهند من هذا العنصر) في هذا الحصن ، لذا فقد غمرته الفرحة بهذا العرض وطلب من رسول خان إرسالَ رهينتيْن نويْ شأن فأرسلهما لأنه -أي رسول خان- كان راغباً بشدَّة في السَلام .

الفصل الخمسون

كيف جرى الحوار بين افونسو دلبوكيرك الكبير والقباطنة والقادة وذوي الرتب حول عَرْض رسول خان ، وعن الاتفاق الذي جرى ، وكيف انطلق (افونسو دلبوكيرك) عائداً إلى جوا .

حالما عاد جواو ماشادو Joa'o Machado بالرهينتيْن المسلميْن اللذيْن سيبقيان في المعسكر البرتغالي حتى إنتهاء مفاوضات السلام بين الطرفيْن ، تلك المفاوضات التي طلبها رسول خان كما ذكرتُ في الفصل السابق - حتى اجتمع أفونسو دلبوكيرك بكل القادة والقباطنة وذوي الرتب الموجودين في المعسكر وبيَّن لهم كيف أنَّ التركَ (جنود العادل خان) في حصن بينيستاريج Benestarij قد وصلوا بالفعل إلى نقطة الاستسلام لأن القائد رسول خان أُرسل للتفاوض من أجل السلام عارضاً أن يفعل ما يطلبونه منه وطلب منهم آراءهم ليتمكّن من إرسال ردٍّ للعدو .

وكان من رأي هؤلاء القادة ألاّ يدخل في مفاوضات سلام معه فهم قد خاطروا بحياتهم مخاطرات هائلة وكانوا يتمنون الموت خدمة لله والملك دوم مانويل وأنه ما دام لديهم مثل هذا الجيش الكبير هنا فلا مجال للنظر في عروض رسول خان وإنما لابد من شنِّ هجوم عاصف على الحصن والاستيلاء عليه بالقوة المسلحة والقبض على رسول خان فالعدو لم يَسْعَ للسلام إلاّ مضطراً فقد كان طوال الوقت يحتفظ بجيش كبير داخل الحصن بينما المسيحيون خارجه .

وكان رأي أفونسو دلبوكيرك ومعه د. جارسيا وآخرون ، مُخالفاً . لقد رد أفونسو دلبوكيرك على هذه الحجج قائلاً إن أفضل ما لدى العدو في الحصن هو مدافعه وخيوله وأنه إذا سلّم رسول خان الحصن بما فيه من مدافع وخيول وكل ما يحويه ، وسلّمه المرتدّين (يقصد البرتغاليين الذين تحولوا للإسلام وانضموا لجيوش المسلمين) فلا مبرّر لمواصلة الحرب معه بل سيدعه يمضي بمن معه حتى لو اضطر لبناء جسر من فضة ليمكنهم من العبور إلى البر الرئيسي ، فكل رجال الحصن لا مبرر لأخذهم أسرى فهم جميعاً لا يساوون عنده بِنْسَيْن بل إن أسرهم يُعد مَغْرماً لا مَغْنماً فثمة نقص كبير في المؤن داخل المدينة فكيف سيُدخلهم فيها ، بالإضافة إلى أنهم (يقصد البرتغاليين) إن كانوا يظنون أنهم بشنهم الحرب بقصد أسر رسول خان إنما يفعلون أمراً طيباً ، فإن هذا الأمر مشكوك فيه ، وسيكلّفهم موت أربعة أو خمسة من ذوي الرتب بل وربما عشرين لأن ثمانية آلاف مسلم محاصرين دون أمل في النجاة لابد أن يُقاتلوا قتال اليائس فيُريقوا كثيراً من دماء مهاجميهم .

وعندما استقر الرأي على ذلك أرسل أفونسو دلبوكيرك إلى رسول خان –عن طريق جوآو ماشادو– موافقته على السلام بالشروط التي ذكرتُها آنفاً ، فإن نفذها خلّى سبيله ومن معه وإن لم يفعل فلابد له أن يعرف أن الجيش البرتغالي لن يُبقي على قيد الحياة ممن في الحصن أحداً ولا حتى رسول خان نفسه ، فوافق رسول خان على هذه الشروط لرغبته الشديدة في السلام أمَّا بالنسبة للمسيحيين الذين تحوّلوا للإسلام فقد ذكر أنّه لا يستطيع تسليمهم لأن هذا يخالف قوانين البلاد .

فرفض أفونسو دلبوكيرك ذاكراً أنَّ هذه النقطة هي أهم من كل النقاط الأخرى فإذا لم يتم تنفيذها فلا مجال للمباحثات حول النقاط الأخرى . فلما أدرك رسول خان تصميم أفونسو دلبوكيرك ووجد ما هو فيه من ورطة رضخ لحكم الضرورة وتخلّى عن الإلتزام بقوانين بلاده وطلب من جوآو ماشادو استعداده لتسليم هؤلاء المسيحيين (البرتغاليين) المتحولين للإسلام شريطة ألاّ

يقتلهم أفونسو دلبوكيرك . فوافق أفونسو دلبوكيرك وأرسل له حقَّ المرور الآمن هو ومن معه من المسلمين والترك (أحد عناصر مسلمي الهند) على ألاّ يحملوا معهم غير ملابسهم التي يلبسونها فسارع رسول خان بإرسال زوجاته إلى البر الرئيسي وما أنْ أصبح هو وملِك يحيى نائبه على الجانب الآخر حتّى سارعا بالتوغّل وقد نسيا وعودهما لباقي الترك (أحد عناصر مسلمي الهند) بأنهما سيبقيان مكانهما حتى يطمئنا عليهم وأنّهم غادروا الحصن . لقد فعل رسول خان وملِك يحيى ذلك مخافة أن يتراجع أفونسو دلبوكيرك عن حق المرور الآمن الذي منحه لهم .

الفصل الواحد والخمسون

كيف دخل رجالنا الحصن وأرادوا سلب الترك (مسلمي الهند من هذا العنصر) إذا لم يمنعهم افونسو دلبوكيرك وما جرى مع المتحوّلين للإسلام، وكيف توجّه بمن مع إلى جوا.

ما إنْ سَرَتْ خلال المعسكر البرتغالي أخبارُ انتقال رسول خان وملِك يحيى إلى البر الآخر حتى أقبل البرتغاليون في تجمعات كبيرة غير منضبطة رغبة منهم في السلب والنهب فدخلوه وعاملوا التركَ (أحد عناصر مسلمي البلاد- جنود العادل خان) بقسوة حتى أن كثيرين منهم ألقّوا بأنفسهم في النهر خوفاً وهلعاً فماتوا غرقاً . وعندما أدرك أفونسو دلبوكيرك هذه الفوضى وتلك الاضطرابات سارع للبوّابة لمنع البرتغاليين من الدخول حتى يتم إخلاء الحصن من المسلمين ، بل واضطر لدخول الحصن لمنع قتل المسلمين تحقيقاً لما وعد به فحقّق ذلك بصعوبة بالغة .

ولأن المسلمين في الحصن كان عددُهم كثيراً ولم تكن هناك وسائل كافية لنقلهم إلى البر بالسرعة التي يرجوها أفونسو دلبوكيرك ، فقد أمر – رغبةً منه في إنهاء أمر طردهم – بالاستعانة بكل قوارب الأسطول لإتمام هذه المهمة ، فبدأ عددهم يقل تدريجياً ، ومع هذا فقد بقي عدد كبير من المسلمين ، تُركاً وفرساً وخُرسانيين وغيرهم من مسلمي البلاد مدة يومين حتى تمَّ نقلهم . وفي صباح اليوم التالي بعد أنْ تمَّ نقلهم إلى الجانب الآخر وصل يوسف الأعرج

Icufularij أحد قوّاد العادل خان بجيش كبير وكمية كبيرة من المؤن لنجدة رسول خان لكنه وجد حصن بينيستاريخ Benestarij قد استسلم فعلاً فوجد من المحال عليه أن يدخله ، فلما أدرك يوسف الأعرج ذلك عاد بجيشه مُحبطاً وألقى اللومَ الشديدَ على رسول خان لتسليمه حصناً يضم عدداً كبيراً من المقاتلين للدفاع عنه .

لقد وجد الترك (أحد عناصر مسلمي الهند) أنفسهم في أمان بعد عبورهم فـأوْغلوا بقيادة قـادتهم لداخل البر الهندي . وما أنْ خرج الأعداء جميعاً من الحصن حتى أمر أفونسو دلبوكيرك بجمع كل المدافع والخيول ، وإصلاح ما تهـدَّم من الحـصن ليكون على أقـوى حـال ممكنة ، وأن يتم تزويده بمزيد من المدافع وذخائر الحرب وعيَّن لحراسته أحد القادة مع مجموعة من الجند[١] .

فلما إنتهى من ذلك أمر بأن يَمْثُل أمامه فرناو لوبيز Ferna'o Lopez وغيره ممن تحوّلوا للإسلام (النص : المرتدين "renegades") فلما مثلوا أمامه خشوا ألاّ يُوفي بوعده الذي قطعه لرسول خان بألا يقتلهم فطرحوا أنفسهم تحت قدميه وراحوا يستعطفونه بدموع غزيرة ، لكن أفونسو دلبوكيرك ما كان ليُخْلِفَ وعدا فالتزم بما وعد به رسول خان ، لذا فقد أبقى على حياتهم لكنه أمر أن تقطع اليد اليمنى وإبهام اليد اليسرى لكل منهم ، وبجدع أنوفهم وقطع آذانهم . لقد ألحق بهم هذه المُثْلة المرعبة لخيانتهم وأفعالهم الشريرة ضد الله وضد الملك البرتغالي[٢] .

---

(١) حقق حصن بيناستاريم شهرة ورد كثيراً في الحوليات البرتغالية بعد استيلاء البرتغاليين على جوا (كَوا) ، وقد أفرد له بترو دِلا فال Pietro della Valle جانباً كبيراً ، وكذلك البيت الذي يُقيم فيه قائد الحصن ، كما وصف الشرفة التي يرى الواقف فيها المنظر البهي الجميل المحيط به . وكان في هذا الحصن مدفع ضخم جداً كان قد استولى عليه المسلمون ، وقد جرى الاحتفاظ به حتى وقت متأخر كذكرى تاريخية . أنظر :

"J.N. da Fonseca, sketch of Goa, Bombay, 1878 p. 153."

(٢) كاستانهيدا Castanheda-في روايته عن هذه القسوة المرعبة (التي ربما كانت ظلاً من ظلال محاكم التفتيش التي جلبت معها الرعب في الأعوام الأخيرة)- أضاف مزيداً من التفاصيل المرعبة التي تعد بمثابة وصمة عار لشخصية أفونسو دلبوكيرك رغم اتسامه بالشهامة ورحابة الصدر في مواضع أخرى . لقد ذكر أنه أمر بنزع شعر لحى هؤلاء البؤساء وشعر رؤوسهم . نزعه من الجذور وأن تملأ فجوات جروحهم وأفواههم وآذانهم .. rawplaces بالطين وذكر معلومات طريفة عن حياة فرناو لوبيز الذي رآه هو نفسه في جزيرة سانت هيلانه . يقول :

وقد كان فرناو لوبيز Ferna'o Lopez هذا هو قطب الرّحى في حركة البرتغاليين المتحولين للإسلام ، وفي أثناء عودته للبرتغال بعد موت أفونسو دلبوكيرك توقّف ولم يواصل الرحلة وإنما نزل في جـزيرة سـانت هيـلانه Saint Ilena وقرّرقـراره على الاستقـرار فيـها مع أحد عبـيده وظل بها حتى توفّـاه الله . وكان أوّل من استوطن هذه الجزيرة وأسّس فيـها صـومعة Hermitage وزرع أشـجاراً كثاراً

"E ho principal que ho moueo a fazer isto, foy por esr exemplo a outros que na'o fizessem outro tanto, e tambem por na'o ficar sem castigo hum crime tamanho como aquelle foy. E a justica foy com lhes mandar pubricamente e com prega'o cortar narizes, orelhas, ma'os dereytas, dedos das ezquerdas, e entregalos aos mocos que lhes depenassem os cabelos das barbas e das cabecas, e que os enlameassem, e injuriassem, e a Ferna'o Lpoez sobre todos porque era de mais qualidade : e Por derradeiro foy degradado pera Portugal, e eu ho vi na ilha de santa Helena, onde por esu rogo ho capita'o da nao que ho leuaua ho deixou so : e ali viueo muyto tempo, seruindo a nosso senor arrependido do peccado que fizera. E disseramme que assi ele como muytos dos outros soferao estes tormentos com muyta paciencia dizendo que mais merecia'o polo graue peccado que cometerao."-Castanheda, lib, iii, ch. xciii.

Correa gives even a more revolting account of this punishment, which was spread out over three days, and esulted in the death of more than half the number of the victims. He says :- "Depois de os mouros serem deitados fora da ilha de Goa, o Gouernador proueo eafortelezou os passos da ilha, como dito he. Logo entendeo com os arrenegados que estauao com o Rocalcao, os quaes, com baracos nos, pescocos e maos atadas detras, fora'o leuados a picota fora da cidade, com priga'o que dizia : 'Justica que manda fazer ElRey nosso senhor, que manda bascamar estes homens, porque forao tredores a sua ley e a seu Rey; e a morte lhes he perdoada por amor di Hidalca'o.' E chegados a picota negros algozes e mocos do pouo lhe depennarao e arrancarao quantas barbas tinhao, ate as sobranclhas, e lhe tirarao com lama fedorenta de chiqueiros de porcos, que pera ysso ja estaua prestes, aos rostros e olhos, onde os fizerao taes que lhe nom pareciao os rostros; com que fora'o tornados a prisao, em que jaziao deitados com corentes de ferro nos pes e pescocos, e algemas nas maos, e assy como jaziao mijauao e sayao por sy . Entao ao outro dia, assy d' esta maneyra como estauao , os tornarao a leuar a picota com o mesmo pregao, onde lhe cortarao as orelhas rentes e os narizes , e os tornarao a prisao, onde os meterao como estauao assy nas correntes de ferro sem serem curados. E ao outro dia assy os leuarao a picota com seu pregao, onde lhe cortarao as maos direitos e os dedos polegares das esquerdas; com que forao tornados a prisao, e forao curdos de suas chagas. De que na prisao morrerao mais d'ametade delles, e os que ficarao forao soltos, que liuremente se fossem por onde quigessem; o que assy fizerao, que todos desapparecerao."-Correa, pp. 315,316

وربّى كثيراً من الحملان hogs والماعز حتى جعل الجزيرة عامرة ملائمة لرسوّ سفننا في طريق عودتها من الهند[١] .

---

(١) رواية كوريا Correa عن هذا الرجل المسكين يشير إلى أن جهوده تستحق أن تُروى لأن المعتقد أنه أول من استوطن جزيرة سانت هيلانه . يقول

"Ferna'o Lopes se meteo em huma nao de Reyno, que em Lisboa tinha molher e filhos, a qual nao foy apartar na ilha de S. Elena, onde tomarao agoa; onde este Fernao Lopes fiqou escondido, qual achado menos na nao o forao bucar, e o nom achando lhe deixara'o hum quarto cheo de biscoito, e tssalhos de carne, e pexe sequo, e sal, e fogo, e roupas velhas que cada hum deu; e a nao se partio, e lhe deixara'o huma carta que vindo ally ter alguma nao desse sinaes de sy se era morto ou viuo, e se mostrasse pera o prouerem do que ouvesse mester; e a nao se partio. Ferna'o Lopes, vendo a nao partida, sayo do mato e tomou o que achou, e acendeo o fogo que se nom apagasse, e logo buscou pedras, que bateo humas com outras, e vio que fena'o fogo, e as guardou. Assy com os quatro dedos da mao esquerda, e com o cotinho da direita que tinha cortada, como Deos lhe minidtraua por sua grande misericordia, cauou em huma ribanceira, em que fez huma lapa, que dentro fez grande, em que se recolhia, e a boca da lapa tapaua com tojos. Achou heruas tenras, que era'o gostosas de comer, que cozia com sal em duas panellas que lhe deixara'o. Assy estando, o outro anno foy hy ter huma nao, e elle vendo vir a nao se escondeo.

"Os da nao, sayndo em terra que achara'o a lapa, e cama de palha em que dormia, e os sacos, e as duellas do quarto em que lhe deixara'o o biscoito, e as panellas, e os caruocs do fogo, ficarao espantados, e crera'o que era'o negros que ficariao ally fogidos d'outra nao; mas vendo o fato assentara'o que era homem poruguez. Tomara'o sua agoa, nom bolira'o em nada, antes lhe deixara'o biscoito, e queijos, e cousas de comer, e huma carta em que lhe dizia'o que nom se escondesse, que quando nao ally portesse fallasse, que ninguem lhe faria mal, E a nao so fez a' vela. Em largando as velas da nao cayo as mar hum galo, que as ondas trouxerao a terra, que o F. Lopes recolheo, e lhe daua arroz que lhe deixara'o, com que o galo fiqou com elle em tal amizade que sempre o acompanhaua onde andaua, e de noute se recokhia com elle a coua. Este galo esteue com este homem muytos annos, a que elle chamaua; que depois passando a tempo este homem parecia, e fallaua com agente das naos que passaua'o, e todos lhe dauao cousas pera prantar e semear, em que fez muytas aboboras, romas, palmeiras, ades, galinhas, porcas, cabras prenhes, que tudo se fez em muyta criaca'o, e tudo se fez brauo do mato.

"Este homem esteue muytos annos so n'esta ilha fazendo esta espantosa vida, o que sendo dito a ElRey desejou muyto de o ver, porque lhe dizia'o que era como homem seluagem; polo que ElRey o mandou rogar que por sua vontade fosse ao Reyno. O que elle fez, e foy, e escondido desembarqou em casa do capita'o da nao, d'onde de noite hia fallar com ElRey, e a raynha, que lhe daua'o hermedys e casas de frades em que estiuesse; o que elle nada quis aceitar, mas ouve licenca d'DlRey e se foy a Roma, e se confessou ao Papa, que folgou de o ver, e ouve cartes pera ElRey que o tornasse a inandar a ilha. O que assy o fez ElRey. Esteue este homem n'esta ilha pas

وبعد أن زوّد أفونسو دلبوكيرك الحصنَ بكل ما هو مطلوب إتخذ طريقه إلى المدينة (جوا) جيشه فتلقّاهم الناسُ عند بوّابتها بموكب بهيج ، ومن البوّابة اتجهوا مباشرة إلى الكنيسة ليشكروا ربّنا Our Lord على النصر الكبير الذي منّ به عليهم ، فلما انتهت الطقوسُ الكنسية ، شرع فوراً في تأسيس مستشفى كبير وزوّدها بالأسرّة وكلٍّ ما يلزمها للعناية بالجرحى الذين كان عددهم كبيراً جداً ، وجعل جارسيا دي سوزا Garcia de Sousa على رأس مجموعة سفن ليطوف بها عند ساحل دابول Dabul ويحاصره فلا يسمح بسفينة بالخروج منه أو الدخول إليه لأنه اعتزم شنّ حرب ضد العادل خان إذا حانت الفرصة .

وما أنْ أبحرَ جارسيا دي سوزا حتى شرع أفونسو دلبوكيرك في تجهيز كميّات كبيرة من الجير والأحجار ومواد البناء لتحصين حصن بينيستاريج Be-nestarij وتقوية ممرات الجزيرة فقد كانت الحاجة ماسّة لذلك ، وغيّر اسم الحصن فأطلق عليه حصن القديس بطرس Petros لأن سفينة برتغالية تحمل هذا الاسمَ نفسهَ قد تحطّمت تماماً في مواجهة هذا الحصن . وعيّن مانويل فراجوزو Manuel Fragoso مشرفاً على التحصينات الخارجية في بانجيج Pangij وبرج جزيرة شورام Choram ، وعَهِد إلى باستياو رودريجز Bastiao Rodriguez فارس البيت الملكي البرتغالي والمشرف الحالي على ميزانية دار السك في لشبونة برياسة حصن ديفاريج Divrij وجعله أيضاً مشرفاً على

---

sante de dez annos, sem nunqua o ninguem ver, porque se leel escondia.

"N'esta ilha fiqou hum moco jao fogido, que assy esteue com elle muytos annos. Este moco foy o que o descobrio a huma nao que hy foy ter, em que hia por capitao Pero Gomez Teixeira, ue fora ouvidor geral na India, que fez tantos medos as negro que o foy descobriz onde estaua escondido; que vendos tomado fez grndes prantos, cuidando que o queriao leuar na nao; mas P. Gomes o consolou, e com elle muyto fallou, e segurou que o nom leuaria, e lhe rogou que leuasse o moco. O Pero Gomes o leuou, com F. Lopes lhe prometter que se nom esconderia a gente. O que assy concertado o P. Gomes lhe deixou hum seuassinado em que pedia por merce a todos os capitaes, que ally chegassem, que nom fizesseem forca ao querer leuar ao Reyno contra sua vontade, porque todos os tem8

morreo depois d'ahy a muyto tempo, que foy no anno de 1546."-Correa, pp. 316.318.

العدالة والأمن في جوا طوال حياته لأنه كان ربَّ أسرة مُقيمة في جوا . وكان أفونسو دلبوكيرك ينوي أنْ يتجه إلى مضايق البحر الأحمر ويستولي على عدن إنْ أمكنه ذلك ، ولكنه لم يُحَدِّث أحداً بنيَّته هذه حتى يكون وصوله هناك مفاجئاً لم يعمل حسابه أحد ، لذلك أراد أن يطمئن على أمر جوا ، فأصدر أوامر عاجلة بإصلاح الممرات التي تُوصل ما بين البر الرئيسي والجزيرة لأهميتها الشديدة للأمن وحركة النقل . ولأن وقت الرياح الموسمية كان قد حلّ بالفعل فإنه قبل أن ينتهي من بعض الأمور أرسل إلى سفراء ملوك الهند الذين كانوا في جوا ينتظرون لقاءه . أما بدرو ماسكارينهاس Mascarenhas فإنه بعد أن رأى أنّ أمر الحصار بيناستاريخ Benastarij قد انتهى ذهب ليستأذن من أفونسو دلبوكيرك ليعود إلى حصن كوشين (كوشيم) لكن أفونسو دلبوكيرك كان راغباً في إبقائه ليكون قائداً لجوا نظراً لشجاعته وإعترافاً بفضله فرجاه بشدّة أنْ يبقى ليشرف على استكمال الأبراج لأنه بفعله هذا يكون قد أدّى خدمات لملك البرتغال أكثر من تلك التي يؤديها لو كان في كوشين (كوشيم) .

الفصل الثاني والخمسون

كيف أرسل أفونسو دلبوكيرك أسطولاً بقيادة ابن أخته د. جارسيا دي نورونها ضد كلكتا وكيف استدعى السفراءَ الذين كانوا منتظرين لقاءه في جوا، وما جرى بعد ذلك من أمور

والآن، فقد كان أفونسو دلبوكيرك ساخطاً على الزاموريم* لإخْلافه وعودَه وعدم إقراره اتفاقَ السلامِ الذي اقترحه عليه سفراء أفونسو دلبوكيرك بينما كان في طريقه إلى ملقى، وكان سيماو رانجل Sima'o Rangel من بين من حملوا رسالة أفونسو دلبوكيرك إليه -لذلك فإن (أي أفونسو دلبوكيرك) حالما انتهى من حملته ضد حصن بينيستاريج Benestarij وجَّه اهتمامه للانتقام منه (من الزاموريم) فأرسل ابن أخته د. جارسيا دي نورونها D. Garcia de Noronha على رأس أسطول إلى كلكتا لإلحاق أكبر أضرار ممكنه بالزاموريم ولحصار سواحلها فلا يسمح لأيِّ سفينة بالإبحار من الميناء محمَّلة بالبهار إلى مكة (المقصود جدة ميناء مكة)، وما أنْ أبحر د. جارسيا، انشغل أفونسو دلبوكيرك بمقابلة سفراء الهند الذين كانوا ينتظرون مقابلته في جوا منذ مدة طويلة، وأمر السكرتارية التابعة له بأن تعرض عليه كل أوراق وخطابات العادل خان وبعد أنْ درسها أرسل يستدعي سفير هذا الحاكم (العادل خان) وأخبره أنه إذا كان العادل خان يريد عقد سلام وصداقة مع سيده ملك البرتغال فإنه - أي أفونسو دلبوكيرك- يسعده هذا كثيراً لكن الشروط التي أحضرها معه (أي

* تسميه بعض الكتب العربية: السامري.

السفير) ليست هي الشروط نفسها التي كتبها العادل خان مراراً ، لذا فإنه – أي أفونسو دلبوكيرك– مصمم أن يُعيده ثانية مصحوباً بسفير من عنده (أي من عند أفونسو دلبوكيرك) .

وكان رد سفير العادل خان أنه ليست هناك اختلافات في بنود الاتفاق لكن إن أراد أن يُرسل (أفونسو دلبوكيرك) سفيراً برتغالياً فليفعل ، لكن هذا قد يؤدي إلى فوات وقت طويل ، لذا فهو يرجوه أن يأمر قباطنته وقادته بفك الحصار عن دابول[1] طوال هذه الفترة حتى يتم التوصّل إلى اتّفاق . وكان أفونسو دلبوكيرك راغباً جداً في الوصول لتفاهم مع العادل خان فلم يُضع وقتاً وأرسل إلى جارسيا دي سوزا الذي يُراقب ثغر دابول بفك الحصار عن الميناء بعد التأكد من أنّ حمولات السفن غيرَ ممنوعٍ تحميلها وإن أراد المسلمون إذناً بحريّة ملاحة سفنهم فلابد أن يرسلوا ليطلبوه من جوا .

وبعد أن أنهى أفونسو دلبوكيرك حديثه مع سفير العادل خان حتى أرسل في معيّته –ليتفاوض بشأن السلام– ديوجو فرناندز Diogo Fernandez مسؤول العدالة والأمن في جوا ، وابن جِل فيسنت Gil Vicente كموثّق تابع له وجوآو نافارو Joa'o Vavarro المترجم وستة أطقم كاملة من سروج الخيل ولوازمها ، وقائداً من أهل جوا على رأس عشرين رجلاً لمرافقتهم في الطريق . فلما إنطلق ديوجو فرناندز في رحلته استدعى أفونسو دلبوكيرك سفير ملك كمبي (كمبايا) الذي ظل يجوب (جوا) جيئة وذهاباً في انتظار مقابلة أفونسو دلبوكيرك ، لكن أفونسو دلبوكيرك تعمّد تأخير فترة رحيله لأقصى درجة ممكنة لأن الأسطول البرتغالي الذي يجري اعداده كان كبيراً جداً وكان يجري تزويده بكل شيء لأداء مهمة كبيرة مهما كان عِظَم هذه المهمّة –رغم أن أفونسو دلبوكيرك لم يذكر لأيّ أحد طبيعة هذه المهمة ولا جهتها– وكان أفونسو دلبوكيرك يخشى أن يخمّن المسلمون أنه في طريقه إلى مضايق البحر الأحمر (وهو قصده الحقيقي) فيصبح مشروعه هذا معروفاً عن طريق ملِك عزيز* (أو مالك كما تكتبها بعض

(١) أنظر خريطة فرناو دوراдو ، جـ٢ ، ص ١ .

* تميل إلى أنه ملِكياظ فهو اسم ذو طابع تركي مملوكي .

الكتب) Miliquiaz المتّسم بالدهاء وكان أفونسو دلبوكيرك حريصاً على التعمية على هدفه حتى لا يعلم العدنيون بوجهته فيستعدوا للتصدي له ، فقد كان ينوي مهاجمة عدن . ومما زاد في تشكّك أفونسو دلبوكيرك في نوايا ملك كمبي (كمبايا) أنه أرسل سفيراً ثانياً على غير توقّع في هذه الأثناء ، زاعماً أنه أتى للإسراع في إبرام الاتفاق .

لقد كان السبب الرئيسي لتأخير أفونسو دلبوكيرك هذا اللقاءَ أنّه كان شديد الرغبة في لقاء ملك كمبي (كمبايا) شخصياً ولأن الموسم الآن متأخر جداً وأن موسم الرياح الموسمية المُعينة على التوجّة لمضايق البحر الأحمر لم تأتِ بعد ، وان د. جارسيا دي نورونها الذي كان سيصحبه لا يمكنه أن يُنجز مَهَمّتين في الوقت نفسه (الذهاب إلى كمبي والذهاب إلى مضايق البحر الأحمر) فقد أرسل أفونسو دلبوكيرك السفيرين بنيّة أن يتجه هو (أفونسو دلبوكيرك) إلى كمبي – وهو في طريقه لمضايق البحر .

وعندما درس أفونسو دلبوكيرك المواد والشروط التي حدّدها ملك البرتغال كأساس للسلام صمّم على أن يُرسل في صحبة هذين السفيرين ، تريستاو ديجا Trista'o De'ga كسفير للملك البرتغالي وجواو جوميز Joa'o Gomez كموثّق تابع له ، مع هدية من أشياء من البرتغال وأخرى من الهند ، وزوّد سفيرنا بتعليمات يطالب بمقتضاها بإقامة حصن برتغالي في ديو Diu لتأمين رعايا الملك البرتغالي وممتلكاته وأن يُرسل تجار كمبي (كمبايا) بضائعهم إلى ميناء جوا وليس إلى أي ميناء آخر حيث سيجدون في هذا الميناء كل ما يلزمهم من منتجات الهند ، وألاّ يسمح ملك كمبي بوجود الروم (مماليك مصر) أو الترك (مسلمي الهند من هذا العنصر) في مملكته لأنهما أعدى أعداء البرتغاليين .

واستدعى أفونسو دلبوكيرك سفير ملك عزيز لزيارته وقبل عودته أمر أن يصحبوه ليرى الأسطول والترسانة التي كانت وقتها مليئة بالمدافع وعُدَد الخيل والأسلحة وكل أنواع الذخائر وأدوات الحرب وكل حظائر الخيول وأنْ يرى كلّ حملة السهام والبنادق ذوات الفتائل ، وكان عددهم كبيراً لأن كل شخص في

جوا سواء كان متزوجاً أو غير متزوج كان مأموراً بحمل سهم أو بندقية ذات فتيل ليس فقط للدفاع عن المدينة وإنما تحسّباً لأي أمر .

وأمر أفونسو دلبوكيرك أيضاً أنْ يرى هذا السفير حصن بينيستاريج Benes-tarij الذي شيّده المسلمون وكان قوياً منيعاً ويرى الموضع الذي هاجمته منه سفننا وكيف استولى عليه رجالنا بالقوة المسلحة غير هيّابين من عدد المدافع الكبير الذي نصبوه فوق الاستحكامات ، ورغب أفونسو دلبوكيرك أيضاً أن يُطلعوه على الحصن من الداخل ليرى حجم الدمار الذي ألحقه البرتغاليون به . كل هذا حتى يقول لسيده (ملك كمبي) ألاّ يُعوِّل كثيراً على تحصينات ديو Diu إذا أمره (أي أفونسو دلبوكيرك) ملك البرتغال بالإستيلاء عليها . وبهذه السياسة التي أتْقنها أفونسو دلبوكيرك جيداً في حالتيْ السِلْم والحرب طوال فترة حكمه للهند ، لم يشعر ملِك عزيز أبداً أنه آمن تماماً في ديو Diu رغم أنه كان يُخفي خوفه بمهارة .

الفصل الثالث والخمسون

وصول سفير فينجابور Vengabor إلى جـوا ، وكـيـف تعـامل افـونسـو دلبـوكيـرك مع رسول خـان ومـا جـرى بينهما .

بعدما إنطلق تريستاو ديجا Trista'o De'ga وسفيرا ملك كمبي (كمبايا) في إحدى السفن التابعة لملك عزيز (مالك عزيز) التي كانت قد قدمت إلى جوا محملة بالبضائع ، أرسل أفونسو دلبوكيرك جاسبار شانوكا Gaspar Chanoca إلى نارسينجا Narsinga لأنه كان قد أرسله إلى هناك بينما كانت الحملة إلى ملقى على وشك الإبحار ، وقد عاد بإجابة من ملك هذه البلاد ومعه سفير يحمل هدية للملك د. مانويل لكن سفير ملك نارسينجا هذا لم يجد الحملة البرتغالية قد عادت من ملقى بعد فعاد لبلاده ، لذا فقد أرسل أفونسو دلبوكيرك جاسبار شانوكا مرة أخرى ومعه التعليمات نفسها لهذا الملك وليحيطه علماً بحصار البرتغاليين لبينيستاريخ Benestarij وأن يقول له من بين أمور أخرى كثيرة أن على كل ملوك الهند أن يَهَبُوا للبرتغاليين مواضع في موانئهم لإنشاء مخازن متينة لحفظ ممتلكات الملك البرتغالي وأن يقول له إن البرتغاليين راغبون جداً في صداقته لذا فهم يرجونه أن يقدم لهم موضعاً في باتيكالا 'Baticala لهذا الغرض ، وفي مقابل هذا فإنه سيقدم كل الخيول التي ترد إلى جوا إلى نارسينجا فهذا يسرّه أكثر من ذهابها إلى العادل خان ، ورغم أن فر . لويس Fr. Luis كان قد كتب إلى أفونسو دلبوكيرك ألاّ يعوّل كثيراً على صداقة هذا الملك (ملك نارسينجا) ولا يثق في كلماته طالما كان ملك جارسوبا Garcopa على قيد الحياة ، إلاّ أنّ أفونسو دلبوكيرك كان مقتنعاً بالتعامل معه لأن ملك البرتغال

أرسل له مراراً بضرورة أن يكون على علاقة طيبة به لأنه هندوسي ، كما أنه أدى لأفونسو دلبوكيرك خدمات كثيرة .

وبعد ذلك بثلاثة أيام وصل سفير من ملك فينجابور Vengapor ليهنّيء أفونسو دلبوكيرك بسلامة العودة من ملقى وبنجاحه في الاستيلاء على حصن بينيستاريخ Benestarij جالباً معه هدية : أغطية مزركشة لستين حصاناً وذيول جميلة معالجة بشكل جيد وخمسة وعشرين سرجاً كل سرج بركابه وغير ذلك من معدّات الخيل[١] ، واقترح على أفونسو دلبوكيرك تعيينه في حكومة بلاد جوا مقابل أن يدفع إيجاراً معيّناً وأن يُسمح له بأن يأخذ ثلاثمائة حصان لحاجة الملك الشديدة إليها[٢] .

لقد استقبل أفونسو دلبوكيرك هذا السفير بترحاب وأمر بتقديم الخيول التي طلبها بالسعر الذي قال به وقدم هدايا أخرى كثيرة للملك مقابل هديته .

لأنه يسعى لصداقة ملك البرتغال وقدم نفسه شخصياً وكذلك قوّاته للمساعدة في الحرب ضد الترك (مسلمي البلاد من هذا العنصر) كما أن مملكته تُعد طريقاً حيوياً وآمناً إلى نارسينجا كما أنها مملكة عامرة بالمؤن وبها كثير من السروج وكل ما هو مطلوب للخيول مما يلبّي حاجة جوا .

وبعد أن انتهى أمر هذا السفير ، أرسل رسول خان الذي كان ينتظر في بلاد جوا على الناحية الأخرى من النهر بعد هزيمته في بينيستاريج -يطلب لقاء أفونسو دلبوكيرك في الموضع الذي يُحدّده فاعتذر أفونسو دلبوكيرك عن اللقاء لكن رسول خان ألحّ في الطلب بعد أن علم باعتزامه الإبحار من جوا . لقد سبب

(١) 1 "Sessenta cubertas de cavallo com suas testeiras, e colas, obre muito bem feita, e acabada, com ninte e cinco sellas com seus estribos e guarnicoes."

Cf. "Ephippia, frontalia, phaleras, et tegumeuta."-Osorius, p. 263.

(٢) 1 "Rex Vengapor (est autem Vengapor Regio mediterranea, cum Zabaimi regione continens), legatum ad Albuquercium de pace misit. Nomen enim illius per omnes illas terras cum hominum admiratione vadabatur, et multi ob eam causam Regis Emmanuelis imperium sequi volebant, ut in illius tutela constituti, aliorum Principum tyrannidem declinarent.......Hoc autem postulabat, ut liceret sibi equos trecentos precio, ut alii faciebant, persoluto, ex urbe singulis annis educere. Fuit huic postulato satisfactum , et legatus honorifice dimissus,"-Osorius, p. 263. From this it appears that horses were to be delivered yearly.

لأفونسو ضيقاً بطلبه لكن عندما أدرك (أفونسو) أن معاهدة السّلام التي يتفاوض بشأنها مع العادل خان لن تتأثر بهذا اللقاء حدّد له مكاناً للّقاء في نهر بينيستاريج Benestarij وقابله ولم يَجْر في هذا اللقاء أمرٌ ذو بال سوى مجاملات رسول خان لأفونسو دلبوكيرك وتعبيراته الدالة على رغبته في صداقته وأن يكون في خدمة ملك البرتغال .

لقد أدرك أفونسو دلبوكيرك بوضوح من خلال هذا اللقاء أن رسول خان لا يُحس بأمان في منصبه كقائد لقوات العادل خان ، وأن المسلمين قد أدركوا قلة عدد القوات التي بقيت معه وأنه لم يعد على علاقة طيبة بالعادل خان ، لذا فقد فكروا في التمرد عليه ، لذا فقد فكر هو بدوره في الاحتماء بقوة ملك البرتغال لأنه كان يخشى غدر العادل خان به .

ولم يرغب أفونسو دلبوكيرك في عروض رسول خان فوعده وعوداً غير مؤكّدة واستخدم معه كلمات مطّاطة وذلك حتى تتبيّن له –أي لأفونسو دلبوكيرك– مجريات الأمور فيما يتعلق بمعاهدة السلام مع العادل خان ، وقبيل انتهاء اللقاء سأل أفونسو دلبوكيرك رسول خان عن أخبار العادل خان فأجابه بوجود خلافات حادّة في معسكره لأن الفرس والخرسانيين التابعين له مناوئون للروم (مماليك مصر) والترك (أحد عناصر مسلمي الهند) لأنهم قتلوا كمال خان Ca-mal Ca'o أحد القادة الرئيسيين في البلاط والمشرف على ممتلكاته ، وكمال خان فارسي بالميلاد . وبعد انتهاء الحوار استأذنه أفونسو دلبوكيرك في الإنصراف وعاد إلى جوا دون إبرام أي إتفاق معه[١] .

---

(١) 1 Correa, at p. 324, saye that Afonso Dalboquerque excused himself from any interview with Rocalca'o, "O gouernador se escusou de fallar com, elle, somente lhe mandando palauras d'amizades".

الفصل الرابع والخمسون

عن وصـول سـفـارة من الحـبـشـة (بريسـت جـوآو) إلى جـوا ، وكـيف تم استقبـالها ، وكيف تمّ إرسـال السفير الحبشي إلى البرتغال وأحداث أخرى .

عندما وصل أفونسو دلبوكيرك إلي جوا وجد فيها استيفاو دي فريتاس Esteva'o de Freitas الذي أتى عـائداً من دابول Dabul حـامـلاً رسـالة من د. جارسيا دي سوزا D. Garcia de Sousa يذكر له فيـها أنه وصلت إلى الميناء سفينة من زيلع Zeila حاملة سفيراً من ملك الحبشة[1] Prestes Joa'os إلى ملك البرتغال ، وأن حكام البلاد قد احتجزوه ، فكيف يتصرف لأنه تلقى منه أمراً برفع الحصار وأنه لا يمكنه التصرف معه حتى صدور أوامر أخرى له .

وتملك السرور أفونسو دلبوكيرك لأن ملك البرتغال كتب له مراراً ليبذل كل جهده لجمع معلومات عن الحبشة وملكها والبشر الذين أرسل لهم الملك د. جوآو D. Joa'o –قبل موته– مبعوثين ليصلوا إليها بالطريق البرّي[2] ، فأعاد –فوراً– إيستفاو دي فريتاس Esteva'o de Feitas في السفينة من نوع الفوستا Fusta التي قدِم بها وحمّله رسالة إلى د. جارسيا دي سوزا يطلب منه فيها أن يُرسل إليه السفير (الحبشي) فأرسل دي سوزا مبعوثاً إلى حكام البلاد يُخبرهم أن الرجل الذي احتجزوه هو مبعوث ملك الحبشة لملك البرتغال ، وأن قائد الهند العام (أفونسو دلبوكيرك) سمع بوصوله ويريد لقاءه ، وأن ما ذكره لهم لا يحتمل أيّ شك .

---

(١) أنظر جـ١ ، فصل ٥٤ .

(٢) أنظر جـ٢ المقدمة ، والفصل ٤٩ .

ورغم أن حكام البلاد كانوا قد صمموا على ألاّ يطلقوا سراح الرجل دون أخذ رأي العادل خان إذ أنهم أرسلوا إليه يخبرونه بوصوله ، إلاّ أنهم خشوا أن يتصرف معهم جارسيا دي سوزا بخشونه ، فغيّروا رأيهم وسلّموه السفير ، الذي سارع بتجهيزه للرحيل وزوّده بكل ما يلزمه في رحلته فلما وصل إلى حاجز المياه عند جوا Goa أقبل أفونسو دلبوكيرك وكل ذوي الرتب والقباطنة والقادة لاستقباله في قواربهم . وكان هذا السفير الحبشي قد أحضر معه قطعة من خشب الصليب الأصلي للملك د. مانويل D. Manoel لذا فقد أحضر أفونسو دلبوكيرك كل رجال الدين إلى الشاطىء وتجمهر كل سكان المدينة حاملين الصلبان وتسلموا قطعة الخشب (التي قيل إنها من الصليب الأصلي) ورفعوا فوقها مظلّة للتكريم وساروا بها إلى الكنيسة الكاتدرائية ، وشكر أفونسو دلبوكيرك ربنا Our Lord لأنه جعله يرى بقايا الصليب الأصلي ، وهيأ له فاتحة للاتصال بملك الحبشة وأمر باستضافة السفير الحبشي وإكرامه وإمداده بكل ما يريد هو وزوجته ، والمرأة والرجل المصاحبان له -كل ذلك على حسابه- أي حساب أفونسو دلبوكيرك- الخاص .

وكان اسم السفير الحبشي ماتيوس Mateus وهو أبيض ويبدو كريم المحتد وقال أنه أخو بطريارك الحبشة .

ورغم أن رجالنا تشككوا في أمره وفيما إذا كان حقاً سفيراً لملك الحبشة أم لا ، بل وقالوا أنه مسلم جاسوس أرسله سلطان مصر المملوكي Grand Sultan لأنه يتناقش في أمور العقيدة بشكل يجعله يبدو وكأنه مُقحم على المسيحيين .

والذي يدعو للدهشة أن رجالنا شكّوا في أن هذا الرجل سفير حقيقي لملك الحبشة وأسرعوا بالجزم بأنه مسلم لأن الملك د. مانويل ليس مجهولاً في العالم الإسلامي كما أن الحرب المستمرة بينه وبين المسلمين مشهورة معروفة ، فما الذي يلجيء ملكاً كرّس نفسه للمسيحية وراغباً جداً في أن يكون على علاقة بالمسيحيين أن يُكلف مبعوثة بالإبحار عشرين يوماً إلى الهند ليعرف أي نوع من المسيحيين هم بينما هو -أي ملك الحبشة- لديه في بلاده برتغاليون كان د.

جوَاو الثاني قد أرسلهم إليه ، والقدس قريبة جداً من بلاده فرعاياه يزورون باستمرار قبر المسيح (القبر المقدس) ، لكل هذا فهم يشكون فيما إذا كان قيِّم الفرنسسكان (إخوة طائفة القديس فرنسيس) في جبل القدس (جبل صهيون "Sion") قد أرسلوا له قطعة خشب من الصليب الأصلي . إن هذا من عمل الشيطان الذي يعلم كيف يوسوس في الأماكن التي يستطيع منها أن يُلحق أكبر ضرر .

وبعد ذلك بعدَّة أيام استدعى أفونسو دلبوكيرك هذا السفير الحبشي وسأله - في حضور بيرو دلبوم Pero Dalpoem السكرتير ، والإسكندر دي أتيد Alex-ander de Ataide المترجم- عن أي الطرق سلكها وكيف أرسله ملك الحبشة بهذه الطريقة دون أن يُرسل معه بعض البرتغاليين الموجودين فعلاً في بلاده ، وما هي الرسالة التي أحضرها معه لملك البرتغال ، فقال السفير أنه أتى من زليع Zeila وأن ملك الحبشة قد أرسله ولم يُفضِ له بالطريق التي سيسلكه الاّ بعد اجتماعه به ولم يخبر أي أحد بذلك وأنه سلّمه عند توديعه رسالة لملك البرتغال ولم يقل له أي شيء آخر سوى أنْ يتجه للهند ويطلب من قائدها العام أن يأذن له بالتوجه للبرتغال ، ذلك خشية أن يعرف أحد بخبر هذه الرحلة فلا يتمكن من المرور ببلاد المسلمين دون أن يُعرِّض حياته لخطر كبير . وكان فحوى الرسالة التي جلبها معه أن سيده ملك الحبشة يريد أن يزوّج أبناءه من بنات الملك البرتغالي وبناته لأبناء الملك البرتغالي ، وأن يقدِّم له كتائب عسكرية ومؤناً لتحطيم الكعبة (بيت مكة "House of Meca") وسلطان مصر المملوكي في القاهرة ، ويقدم له كل ما يعهد به إليه ويجعل أي ميناء في بلاده في خدمته ، وذكر أن خشب الصليب الأصلي الذي بعثه إليه (إلى الملك البرتغالي عن طريق أفونسو دلبوكيرك) إنما أرسله قيِّم القدس ، وذكر أن ما ورد بالخطابات يؤكد هذا كله .

وأعلن أفونسو دلبوكيرك أنه ليس من عادته فتح الخطابات الموجّهة للملك البرتغالي ولا أن يستجوب السفراء الذين هم في الطريق إليه ، وإنما سيرسله

إلى الملك البرتغالي على الفور في أول سفينة تقلع إلى البرتغال . وحتى يصل خشب الصليب الأصلي لملك البرتغالي في الشكل اللائق أمر بإعداد غطاء ذهبي له . ولأن أفونسو دلبوكيرك كان الآن متعجلاً الإبحار إلى مضايق البحر الأحمر فقد أرسل هذا السفير الحبشي إلى قائد كانانور Cananor جورج دي ميلو بيريرا ليرسله للبرتغال في سفينة بيرنالديم فرير Bernaldim Ferire أو سفينة فرنسسكو بيريرا Francisco Pereira –أيهما أفضل بالنسبة له ، وأن يزوّده بكل ما هو ضروري لرحلته .

لكن في كانانور نظر إليه قائدها وكل البرتغاليين على أنه مهرّج وجاسوس أرسله سلطان مصر لذا فما أن أبحر به برنالديم فرير Bernaldim Ferire حتى عامله معاملة سيئة ، بل إنه قيّده بالحديد بناء على مشورة فرنسسكو بيريرا في موزبيق عندما توقفت السفينة للتزوّد بالمياه ، وفعلوا معه أموراً كثيرة أخرى (ربما ظناً منهم أنهم يسيئون بذلك إلى أفونسو دلبوكيرك) لكنني أعف عن ذكر ما فعلوه مع هذا السفير فقد ماتوا[(١)] .

وعندما وصلوا لمملكة البرتغال راح بيرنالديم فرير Bernaldeim Freire –أملاً منه في أن يبرّر ما قام به ضد هذا السفير– يردّد عن هذا السفير كثيراً من الأمور المرعبة والقبيحة ومع هذا فإن الملك البرتغالي – بسبب خطابات أفونسو دلبوكيرك– استقبله استقبالاً حسناً وعامله دوماً معاملة سفير ، وعندما إشتكى من المعاملة السيئة التي عامله بها كل من بيرنالديم فرير Bernaldim Freire وفرنسسكو بيريرا Ferancisco Pereira أمر بسجنهما في سجن حصن قشتالة وظلّوا قَيدْ السجن حتّى أبحر السفير قاصداً الهند (؟) بعد أن زوّده الملك تزويداً جيداً بكل ما يلزمه ومعه د. رودريجو دي ليما D. Rodrigo de Lima سفيراً من الملك د. مانويل

(١) 1 These actions, which are so magnanimously passed over unrecorded by the author of the Commentaries are thus clearly described by Correa. ".......metera'o o embaixador. em ferros, e lhe dormira'o com as molheres, e esbofeteara'o e depenara'o as barbas, defamando que era truao, falso, e espia do Turqo, que Afonso Dalboquerque que nom o soubera conhecer, e o queria fazer embaixador do Preste com enganos per ElRey por se fazer grandioso," etc.-Page 327.

إلـــى ملك الحبشــة . وعندما كان ديوجو لوبيز دي سيكويرا[١] Diogo Lopez de Siqueira –حـاكم الـهند– يدخل مضـايق البحـر الأحمر بأسطوله توفي هذا السفير المدعو ماتيوس Mateus بمجرد الوصول إلى مصوّع[٢] لكن د. رودريجو D. Rodrigo واصل رحلته سفيراً لملك البرتغال إلى ملك الحبشة وهو الأمر الذي لن أتحدث عنه لأنه وقع بعد وفاة أفونسو دلبوكيرك . وفي هذه السفن نفسـها التي قامت برحلة إلى البرتغال في هذا العام وصل سفير من ملك هرمز وسأذكر ذلك في موضعه .

(١) 2 Diogo Lopez de Sequerra, whoso portrait is given, from Goa, by Pedro Barreto de Re-sende, in Sloan. MS., 197, p. 15, succeedede Lopo Soarez de Aluergaria [the successor of Afon so Dalboquerque] in A.D. 1518, and gave place in 1521 to Dom Duarte de Menezes. For some bi-ographical memoranda of this governor the reader is referred to the above MS., and vol. ii, pp. 31.45.

(٢) مصوّع على الساحل الأفريقي ، أنظر الخريطة جـ١ .

الفصل الخامس والخمسون

عن وصول د. جارسيا دي نورونها إلى كوشن ، وكيف أبحر باسطوله إلى كلكتا بعد إقرار أمر ترتيب السفن ، وإرسال تلك التي كان يجب إبحارها إلى البرتغال محمّلة بحمولاتها خلال هذا العام وما جرى هناك .

بعد أنْ وصل د. جارسيا دي نورونها إلى كوشن أصدر أوامره للسفن فيما يتعلّق بحمولاتها إلى البرتغال هذا العام ورتب أمورَ السفنِ التي ستكون بصحبته ، ومن ثمّ أبحر إلى كلكتا Calicut بكل أسطوله فلما أصبح في مواجهة الميناء أرسل له الأمير -أخو الزاموريم- الذي كان على علاقة طيبة بنا يقول إن أخاه (الزاموريم) راغب في أن يكون في سلام مع ملك البرتغال وسيكون سعيداً بمنحهم موقعاً لبناء حصن لهم وأنه سيدفع لهم إتاوة . ومع هذا لم يجبه د. جارسيا بأيّة إجابه عن مقترحاته هذه نظراً لتلكُّئه في الإجابة عن هذه الطلبات وكثرة حيلة وخداعه ، وإنما واصل الحرب وحاصر السّاحل بحيث لا تبحر أية سفينة من السفن المحمّلة فعلاً إلى مضايق البحر الأحمر ، وظل في أداء مهمته طوال شهر يناير ، حتى كتب له أفونسو دلبوكيرك آمراً إيّاه بترك السّاحل المواجهة لكلكتا والعودة بعد أن ألْغَزَ إليه بشكل سرّي بنيّته التوجة لمضايق البحر الأحمر ، فهناك سيمكن الاستيلاء على هذه السفن بكل حمولاتها وسيكون ذلك أيسر من الاستيلاء عليها في كلكتا .

وما إن علم د. جارسيا بهذه المعلومات من خاله حتى ترك سواحل كلكتا وجهز

كل السفن التي تم إصلاحها بالفعل ووصل إلى جوا في العاشر من فبراير وسرد على أفونسو دلبوكيرك كل ما جرى مع الزاموريم وبيّن له كيف أن أمير كلكتا كتب له في اللحظة الأخيرة يذكر فيه أسفَ أخيه (الزاموريم) لعدم عَقْده اتفاق سلام مع البرتغاليين وأنه الآن راغب في عقد هذا الاتفاق وتقديم موقع لإقامة حصن برتغالي (لكنه حتى ذلك الوقت لم يكن قد قدّم أي موقع) لأن المسلمين في القاهرة هم الذين منعوه من ذلك ، وأنه -أي د. جارسيا دي نورونها- لم يواصل دراسة الأمر معه بسبب استدعائه (أي استدعاء أفونسو دلبوكيرك له) .

وبسبب هذه المعلومات انتظر أفونسو دلبوكيرك في جوا (كَوا) أربعة أيام أو خمسة وأرسل فرنسسكو نوجويرا Francisco Nogueira مزوّداً بتعليمات بضرورة إنهاء هذا الأمر لأنه يرغب رغبة شديدة في ترسيخ قَدَمِه في كلكتا "لأن الملك البرتغالي كان من رأيه أنه إذا تم إنشاء حصن في كلكتا أصبح فرنسسكو نجويرا قائداً له ، وجونسالو مندز Goncalo Mendez وكيله التجاري" وأمرهما أفونسو دلبوكيرك أن يقبلا أي موقع يُعرض عليهما إلاّ إذا كان في الحَيْد البحري reef في مواجهة رصيف التحميل الخاص بهم their pier في حوض الميناء ، وزوّده بخطابات للقادة والقباطنة والمسئولين في كوشن (كوشيم) وكانانور لتزيده بكل ما لديهم ممّا هو لازم لهذا العمل .

أبحر فرنسسكو نوجويرا Francisco Nogueira بعد استئذانه أفونسو دلبوكيرك قاصداً كوشن ليستعد لهذه المهمّة وسلّم الخطابات لقائدها ولمسؤولي الملك البرتغالي ، ومن ثم أبحر قاصداً كلكتا ليشرع في بناء الحصن ، لكن عندما علم الزاموريم أنّ أفونسو دلبوكيرك قد أبحر بعيداً تاركاً جوا وأنه لم يترك أسطولاً كافياً على الساحل لمنع عشر سفن محملة بالفلفل لتنطلق إلى مضايق البحر الأحمر ، راح يماطل فرنسسكو نوجويرا ويُطيل أمد المفاوضات ، فلما وجد فرنسسكو أن الزاموريم يخادعه عاد-أخيراً- إلى جوا ، وظل هناك منتظراً عودة أفونسو دلبوكيرك ، وبعد مغادرته أبحرت السفن التجارية التابعة

للمسلمين خارجة من كلكتا مواصلة رحلتها ، لكنها ما أنْ وصلت إلى المسافة الواقعة بين سقطرى ورأس جوردفوي حتى ضربتها ريح عاتية ففرق بعضها ، وجرفت بعضها الآخر الريح مما اضطرها للجوء لبعض الموانيء في كمبي (كمبايا) بل وفي دابول Dabul ، ولما وصل أفونسو دلبوكيرك إلى مضايق البحر الأحمر يجول إزاء سواحله استولى علي ما تبقى منها جميعاً وأخذها إلى جوا ، فحاقت الخسارة الكاملة بالتجار المسلمين بكلكتا .

الفصل السادس والخمسون

كيف ذكر أفونسو دلبوكيرك للقادة والقباطنة والمسؤولين ما ورد بخطاب ملك البرتغال فيما يتعلّق بتسليم جوا (كَوا) للعادل خان ، وما جرى الاتفاق عليه بهذا الشأن .

بعد أن انتهى كل ذلك أمر أفونسو دلبوكيرك بعقد اجتماع مع كل القباطنة والقادة وبعض ذوي الرّتب الذين لهم خبرة قديمة بأمور الهند ، وأتى بكل واحد منهم على انفراد وجعله يُقسم سِراً على الأناجيل المقدسة أن يكون كتوماً وألاّ يُفشي السّر الذي هو راغب في فضّه له ، ثم أعلن لهم (لأولئك الذين أقسموا القسمَ الآنف ذكره) أنه منذ أيام وصله خطاب من الملك د. مانويل يأمره فيه أن يناقش معهم ما إذا كان من مصلحته (الملك) الاحتفاظ بجوا (كَوا) أم لا ، لكنه (أفونسو دلبوكيرك) لضغط العمل وكثرة المشغوليات لم يذكر ذلك لهم ولم يذكر بعض المواد (البنود) التي حواها الخطاب والتي هي -فيما يرى- من كَيْد جاسبار بيريرا Gaspar Pereira ولورنزو مورينو Lourenco Moreno وأنطوينو ريل Antonio Real وديوجو بيريرا Diogo Pereria لأنه -أي أفونسو دلبوكيرك- كان قد لاحظ أنهم لم يكونوا سعداء بخوض هذه الحرب ، فانشغلوا بهذه المكائد والمؤمرات ، وأنه -أي أفونسو دلبوكيرك- لما وجد أنه من غير الحكمة عقد اجتماع عام لمناقشة هذا الأمر لِما في ذلك من إجحاف بمصالح ملك البرتغال - لذلك فقد دعاهم هم بخاصة لمناقشة هذا الأمر ، لأنه وجد في هذا أقلُّ الضررَيْن ، والآن فإنه (أفونسو) يرجوهم أن يتكرّموا بالإدلاء بآرائهم

حول هذا الأمر المطروح أمامهم ، وأن يكتبوا لجلالة الملك بآرائهم تلك حتى يرسلها في السفن التي هي على وشك الإبحار للبرتغال .

نص الخطاب الذي أرسله أفونسو دلبوكيرك لملك البرتغال بشأن الاستمرار في الاحتفاظ بقوات برتغالية في جوا :

"سيدي ، لقد استوليتُ على جوا لأن جلالتكم أمرتموني بذلك ، وكان المارشال[1] قد حمل أوامر في التعليمات الموجهة له بالاستيلاء عليها . وقد استوليتُ عليها أيضاً لأنها كانت المركز الأساسي الصامد الذي يعمل على طردنا من الهند ، وإذا اندفع أسطول الترك (مسلمي الهند من هذا العنصر) المزوّد بعدد كبير من المقاتلين والمدافع والسلاح ، ووصل أسطول الروم (مماليك مصر) في هذا الوقت نفسه – وبخاصة إذا كانت هناك خطة مسبّقة للقائهما ، وهو أمر متوقّع ، فلا شك أن الهزيمة ستلحق بي ، بل إنه إذا إنطلق أسطول كبير من البرتغال لما سمحوا بوصوله للهند . لكن بعد أن استولينا على جوا (كَوا) أصبح كل أمرٍ آخر رهن إشارتنا دون حاجة لمزيد من المشاكل ، وعندما استولينا على جوا ، غدا هذا النصر وحده كفيلاً بضمان هيبتكم أكثر من كل الأساطيل التي وصلت للهند خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة . وإن كان لجلالتكم رأى آخر يخالف رأي الذين كتبوا يوجهون هذه المشورة لكم ظناً أنه يمكن تأمين ممتلكاتكم من هذه الأنحاء بحصني كوشن وكانانور ، فهذا غير ممكن لأنه إن حدث مرةً وعانت البرتغال من مسألة التراجع أو الانسحاب للبحر ، لم يعد لممتلكاتكم الهندية ما يُبقيها ليوم واحد بدون رغبة ملوك البلاد ، فإذا إستولى واحد من رجالنا على أي شيء بالقوة من واحد من أهل البلاد فما عليهم إلاّ أن يرفعوا الجسر ويُغلقوا بوابات الحصن ، مما يجعل جلالتكم غير مالك على الحقيقة لهذه البلاد أو بتعبير آخر لا يجعلكم سيّداً لها ، والحال غير

(١) د. فرنانتو كوتنهو (D. Fernando Coutino) . أنظر جـ٢ ، فصل ١٣ .

ذلك في جوا ، ففي هذه المنطقة (جوا) لا يتجاوز الضرر الذي يلحق بالمسلمين أو البرتغاليين أبواب الحصن . عادلٌ أنت ، فالجيش جيشك والسيوف سيوفك وفي يد قائدك العام ما يجعلك تطمئن فتُوكل إليه النظر في شكوى كل مشتكٍ وإن حدث اليوم تحسّن فيما يتعلق بالطاعة التي يبديها أهل البلاد ، فإن هذا يعود فيْ الأساس إلى حقيقة أن الاستيلاء على جوا يجعل الأمور في الهند مستتبّة هادئة ، أما الحقيقة التي مؤدّاها أن الترك (مسلمي البلاد من هذا العنصر) يهاجمون الجزيرة باستمرار كما أكّد لك من كتبوا لجلالتكم فإن البرتغاليين دافعوا عنها ببسالة تستحق الاعجاب . إنني مُحبَط تماماً من العُصبة التي تعمل ضدّنا فملك كمبايا (كمبي) وهو ملك قوي أرسل سفراءه لي وأعاد كل القباطنة وذوي الرتب الذين جنحت سفينتهم[1] مع د. أفونسو دي نورونها ابن أختي في رحلتهم التي انطلقوا فيها من سقطرى ، دون أن يُطلب منه ذلك ، بل وأعطاني إذنا ببناء حصن في ديو Diu وهو أمر ذو أهمية كبيرة[2]

---

(١) أنظر جـ٢ ، فصل ٤٥ .

(٢) بالنسبة للمخططات والصور الملوّنة للتحصينات البرتغالية المنتشرة في أزمنة لاحقة في ديو Diu أنظر مخطوطة بدرو باريتودي ريزندي (مجموعة سلون "sloan , 197") (أوراق ١٦٦ وما بعدها) .

وقد ذكر تولبورت Mr. T.W. H. Tolbort في بحثه : The Portuguese Settlements in India) (دورية الجمعية الآسيوية ، البنغال ، يونيو ١٨٧٤ ، ص ١٣١) أن ديو Diu هي الأكثر جمالاً وطرافة من بين كل المستوطنات البرتغالية في الهند بعد جوا ، لكن الإنجليز لا يعرفونها كثيراً لأنها بعيدة عن طريق إبحارهم . وتستغرق الرحلة من دامان Daman إلى ديو بحراً قرابة ثلاثة أيام أو أربعة . وجزيرة ديو تقع إلى الجنوب من كاثيوار Kathiwar . وطولها من الشرق إلى الغرب قرابة سبعة أميال ، ومتوسط عرضها من الشمال للجنوب قرابة ميل . ويفصلها عن البر الرئيسي ذراع بحري يتيح جزئه الغربي ضحل في مواضع منه . ويقع جزء من الأراضي التابعة للبرتغال -ربما في ذلك قرية جوجولا Gogola- إلى الشمال من الجوْن (الخليج الصغير "inlet") في البر الرئيسي . وحصن ديو (أو قلعتها) بناه البرتغاليون في سنة ١٥٣٥م يقع في الطرف الشمالي الشرقي من الجزيرة . وقد أقيمت التحصينات من أحجار مستخرجة من الجزيرة ، والمدينة أو براسا Praca تقطعها كثير من المحاجر . والأحجار هنا حمراء مسامية كأحجار ساحل المالابار لكنها أقوى وأشد بكانة .

وهناك ثلاثة أحداث جعلت ديو Diu ذات شهرة في تاريخ البرتغاليين في الهند :

١- موت ملك باهادور الكمبي Bahadur of Cambay بعد حصار ديو Diu في سنة ١٥٣٧ - ١٥٣٨م .

٢- الحصار الثاني لديو في سنة ١٥٤٦م .

٣- نهب عرب مسقط لديو في سنة ١٦٦٨م.

والحدثان الأوليان من بين أهم الأحداث في الهند بالنسبة للبرتغاليين ، وربما يمكن مقارنتهما بالدفاع عن أركات Arkat أو لكنو Lakhnau في تاريخ الهند في عهد البريطانيين . والحدث الثالث حدث حزين بالنسبة للبرتغاليين على عكس الحدثين الأوليَيْن وهو علامة -بالإضافة لنكبات أخرى- على إنهيار قوة البرتغاليين . وقد قدم لنا كوريا Correa رسماً لحصن ديو على أيامه ، حوالي سنة ١٥٦١ .

لا أكان أصدّقه حتى الآن . ويلح عليّ الآن حاكم كلكتا (الزاموريم) في إقامة حصن برتغالي في مدينته وهو راغب في دفع إتاوة سنوية للتاج البرتغالي . كل هذا نتيجة استيلائنا على جوا دون أن أضطر إلى شن حروب ضد هؤلاء الملوك والأمراء .

"وإنني مُوقن يقيناً لا شكّ فيه أنه إذا تم بناء حصنيْ ديو وكلكتا كما آمل من ربنا Our Lord وتم تحصينهما جيداً فإنه إذا وصلت إلى هنا آلاف من سفن السلطان (السلطان المملوكي في مصر) فلن يقع في قبضته موضع واحد من هذه المواضع مرّة أُخرى . لكن إذا كان أولئك الذين يُشكّلون مجلساً إستشارياً لكم يفهمون أمور الهند كما أفهمها فإنهم لن يقصّروا في أن يجعلوا جلالتكم تدركون أنه لا يمكن أن تكون سيّداً لبلاد شاسعة كالهند بالتركيز فقط على القوات البحرية (فتلك سياسة مشكوك فيها ومحفوفة بالمخاطر) فهذه السياسة بعينها –وليس بناء الحصون– هي ما يريده منا المسلمون لأنهم يعلمون جيداً أن قوة قوامها الأسطول لا دوام لها وهم يريدون أن يعيشوا في بلادهم محتفظين بممتلكاتهم يمارسون تجارتهم في البهار في أسواقهم القديمة التقليدية ، لكنهم لا يريدون أن يكونوا رعايا لجلالتكم ولا أن يكونوا على علاقة صداقة بكم ولا أن يتاجروا معكم . وإن كان هذا لا يُسعدهم فكيف سيرضوْن بأن نتمركز في مدينة جوا ونقوّي دفاعاتنا فيها وكيف يرضَوْن أن يصبح جلالتكم سيداً لميناء مهم كهذا ، متحكماً في حاجز المياه عنده ، ألا يبذلون غاية وسْعهم لإثنائنا عن عزمنا ؟ وإذا كان يبدو أمراً شاقاً لأولئك الذين كتبوا حول هذا الموضوع لجلالتكم ، أن استعادة جوا قد استغرق محاولات عدّدا وكيف أنه كان أمراً أصعب أن نستعيدها من ملك قوي كالعادل خان يمتلك كثيراً من الجيوش والأسلحة لم يكن ليُحجمَ عن بذل كل جهده لاستعادتها ويوجه ضربة قاضية لهيبتكم إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، أكُنّا نتركه يفعل ذلك ؟ لو حدث هذا لكان يتعيّن على جلالتكم أن تترك الهند للمسلمين لنترك وضعنا في هذه الأنحاء مع كل النفقات الباهظة على الأسطول – رهناً بسفن هشّة كالفلين لا يمكن إبقاء

الواحدة منها طافية دون أربع مضخات (لضخ الماء الذي تسرّب فيها بسبب الرّشْح) .

أما بالنسبة للنفقات التي يقتضيها الاحتفاظ بجوا والتي كتب لكم بشأنها هؤلاء الرفاق التافهون ، فإن مجرد نفايات الهند (أو ما يتبقى منها) ذو كم هائل حتى أنه إذا ما تم استثمار الممتلكات البرتغالية جيداً بواسطة مسئوليكم فإن عوائدها وحدها تكفي لتغطية الجانب الأعظم من هذه النفقات ، وإن قالوا إنني راغب في الاحتفاظ بجوا (كَوا) لأنني أنا الذي استوليتُ عليها ، فلتكن مُوقناً أنني برتغالي مطيع ولو أمرتني بإعمال المعاول في الأسوار وإشعال براميل البارود تحت مباني الحصن[1] the Keep لمجرد السرور برؤية الأوراق مختلطة في الهند ، والمراوغة لإحلال لاعبين جُدد[2] ، فإنني طالما كنتُ على قيد الحياة ، وطالما كان من واجبي أن أُرسل لكم تقارير عن أمور الهند سأتمسك بجوا فأنا لا أُريد أن أُبهج الأعداء بهذه المأساة ولابد أن أُبقيها على نفقتي الخاصة حتى تُبدي جلالتكم الرغبة وترسل حاكماً جديداً يحكمها .

وإذا لم يكن ما ذكرته متفقاً مع أفكار بعض أولئك الذين ينظرون لأمور جوا بغير حماس ، فلتعلم علْم اليقين أنه طالما يحكمها رجل واحد كبير السن وضعيف مثلي فإنني أقبل أن أتولىّ حكم هذه البلاد المهزومة (المفتوحة) باسم جلالتكم كما أقبل أن أُحيل حكومة هذه البلاد التي استولينا عليها من المسلمين –إن سمحتم لي– لحاملي القاب الفروسية وذوي الرتب ممن ساعدوني في الاستيلاء عليها . لكن لا تطلب مني كل عام تقريراً بما أفعله كما لوْ كنت جامع ضرائب لمجرد أن أربعة من الزملاء سيئي الطوية جالسون في بيوتهم كالأصنام في المعابد الهندية (بادوجات 'Padogas') يقولون عني قولاً كريهاً ، لكن ثق بيّ واشكرني لأنني سأكون سعيداً لو أتمَمْتُ هذا المشروع الذي أُنْفِقَ عليه مبالغ قليلة . وأخيراً فكل ما يمكنني قوله أنه إن أردت جلالتك الآن أو في أي وقت

---

(١) Torre de menagem .

(٢) النص البرتغالي : Por tal que este Jogo de India se tornasse a baralha .

آخـر تسليم جـوا فـإن هذا يعني بوضـوع أن ربنا Our Lord قـد أراد نهـاية الوجود البرتغالي في الهند أما بالنسبة لي ، فلتكن جلالتكم متأكداً أنني طالما كنت حاكماً للهند -رغم ما أُعانيه من مشاكل كثيرة- فلن أرسل لكم بأية حال صوراً ملوّنة لمواضع وهميّـة وإنما ممالك استـولينا عليـها بقـوة السـلاح من سادتها وحصّنتُها وستتحدث هي عن نفسها في كل العصور .

"هذا رأيي فيمـا يتعلق بمسألة جـوا الذي طلبت مني أن أناقشه مع قادتها وقباطنتها والمسئولين فيها" .

نص التعليمات التي أرسلها ملك البرتغال إلـى أفونسـو دلبوكيرك بشأن جـوا :

"(جوا) هذه جوّها غير صحي بالمرّة ، وتكلّف -كثيراً- مصاريف لا داعي لها ولا تُسبب غير المتاعب لجنودنا .

"والحرب فيهـا مستمرة لأن العادل خان قوي جداً وسيبذل كل جهده لاستعادتها فهي عاصمة ملكه .

"وعوائد البر الرئيسي التي يعوّل عليها أفونسو دلبوكيرك كثيراً من المحال جمعها الآ بعدد كبير من الرجال مما يقتضي تكاليف كثيرة ، فالعادل خان نفسه لا يستطيع جمعها بدون استعانته بجيش كبير .

"ويمكن لهذا العادل خان أن يكون سعيداً بالموافقة على أن يكون تابعاً لجلالته (الملك البرتغالي) مقابل أن تعود جوا إليه" .

* * * * * *

وبعد أن تفحّص كلُّ القادة والقباطنة وذوي الرتب الذين جمعهم أفونسو دلبوكيرك كما أسلفنا في صدر هذا الفصل كتبوا للملك يُعبِّرون عن دهشتهم لرغبة جلالته في تسليم جوا بناء على نصيحة رجال لم يرتدوا أبداً البزَّة العسكرية لإحداث اضطراب في الأمور ، فمدينة كـ(جوا) ثرية ومهمة جداً لتحقيق مصالحه . إنها مدينة تملّكوها بعد أن أُريقت على أعتابها دماء برتغالية كثيرة . وعندما قرأ الملك البرتغالي خطاب أفونسو دلبوكيرك وما كتبه القادة والقباطنة وذوو الرتب كتب إلى أفونسو دلبوكيرك أنه يرى ضرورة الاحتفاظ بجوا وأنه يشكره شكراً جزيلاً لطريقته في معالجة هذا الأمر .

وحالما خرج الترك (أحد عناصر مسلمي البلاد) من حصن بينيستاريج Be-nestarij بدأ شعور الارتياح يعمُّ جوا بالتدريج وبدأت المدينة في الانتعاش ، وخجل الذين كانوا قد كتبوا للملك مطالبين بالتخلّي عنها . ودرج أفونسو دلبوكيرك بعد ذلك على القول إنه يستحق شكر ملك البرتغال لدفاعه عن فكرة الاحتفاظ بجوا (كَوا) ضد رغبات البرتغاليين الراغبين في التخلّي عنها ، أكثر من استحقاقه الشكر لاستيلائه عليها مرّتين من المسلمين Turks .

ملحق رقم (١)

وصف ملقى من مخطوطة بدرو باريتو دي ريزندي
(Livro de Estado Da India Oriental)

MALLAQUA.

DESCRIPSAM DA FORTALLEZA DE MALLAQUA.

A FORTALLEZA entre ho rio Pauagim, e Muar em altura de dous graos e vinte menutos da Banda do Norte foy conquistada e fundada pello insigne Afonso de Albuquerque em quinze de Agosto de mil quinhe'tos e onze esta oje feyta Cidade que tem a fortalleza dentro, e a Cidade sercada de hum muro de pedra e cal de altura de vinte pe's e a largura comessa embayxo em doze e arremata emsima em sete palmos. Tem seis balluartes em que entra ho que chama Courassa cada hum chamado com o nome que nelles estam escritos. Todos os muros com seus parapeytos; e cada balluarte tem de prassa vinte passos. E o que chama' Madre de D[eo]s a tem dobrada de man [ei]ra que apenas pode ser defendido e lauado dos mais Balluartes : o sircuyto de todo este muro he de quinhentos e doze passos entrando tambem ho lugar que ocupam os Balluartes : do Balluarte do Ospital athe Sam Domingos ha contramuro e do de Sanctiago athe Madre de Deos com entulho no meo ficando tudo de largura de catorze palmos, a artilharia que ha nestes Balluartes sam quarenta e huma pessas de doze athe quarenta e quatro liuras de pillouro de ferro. Todas sam de bronze, tirado noue que sam de ferro pera a qual ha' bastante poluora e monesois nos almazeis de sua Magde, destas, estam lansadas no cha' doze das grossas, sem repayros dedicadas pera ho forte da ilha das naos que se esta fazendo, e tambem estam algumas das outras pessas rebentadas =

Os cazados branquos que ha' nesta Cidade sam duzentos sinquenta,

os quaes teram dous mil negros catiuos de diferentes nasois, que todos sam de armas, e as tem bastantes pera elles : porque raro he ho cazado que nam tem seu cabide de lansas, e sate, oyto, e des mosquetes ou espingardas de pedemeyra com monisois bastantes para ellas : porem destes duzentos e sinquenta cazados branquos, os cento viuem da outra bando do rio que chama a banda de Mallaque. A respeyto de ho piqueno sircuyto qua fica dentro nos muros estarem tres Conuentos que ho ocupam quazi todo ; o de Sam Paulo, Sam Domingos, e Sancto Agostinho e viuem os ditos cazados em cazas de palha arriscados a hum jusendio = He esta banda muy fresca de pumares, e ortas de diuersos fruytos = Viuem fora de Mallaqua muytos cazados Christa'os da terra todos muy boa gente de armas e as tem de toda sorte particullarmente espingardas porque tira' com ellas muyto bem. Estes em toda ocazia' de gerra asm muy prestes e dellegentes: os mais delles anda' buscando sua vida : sam tam arriscados que por muy pouco da'o com hum cris pella barriga ferida que tem pouco, ou nenhuma cura porque alem de serem estas armas pella mayor parte de pessonha, o modo de seu feytio acollebrinado mostra bem de pessonha, o modo de seu feytio acollebrinado mostra bem o dano que fara, alem de que a pesonha basta so tirar sange para matar.

A fortalleza que esta dentro nesta Cidade onde viue o Capitam he huma torre de sinquo sobrados, e no segundo viue o Capita em huma caza de quadro como ho he a torre que tem cada pano de parede vinte passos, Nos outros agazalha o Capita ospedes e se tem a poluora. No pnmeiro se guardaua' quatro mil candis de arroz que agora na' ha'.

Tem huma serca de muro da mesma altura do da cidade e largura. Ao liuel do segundo sobrado da torre va' correndo humas cazas onde se agazalha a famillia do dito capita. Na' ha' aquy artilharia mais que a referida que fica nos Balluartes = =. Tem esta Cidade a renda do hum por sento aplicada pera as obras da fortificassa', que no tocante has do muro estam ja acabadas. O Rey da terra dentro onde esta esta fortaleza de Mallaqua he ho Rey de Jor e Pam, e grande amigo dos Portuguezes, he senhor de mais de com legoas de costa, e na' se estende muyto pella terra dentro; no mar he tabem senhor de hua corda de ilhas que ha' neste destrito a mayor parte dellas abitadas; a gente sam Malayos, a ley que professa he de Mouros o poder que tem he de athe doze mil homes de armas, e briga com artilharia, mosquetes, azagayas, paos tostados que chama salligas, espadas, rodelas, arcos, e frechas : crises de que se tem feyto menas, e som pitas que sa huas frechas piqueninas de pessonha que metem em zaruatanas e tiram com asopro co ellas e basta tirare sangue para matarem loguo : Christandade na ha oas suas terras. E pello Rio asima de Mallaqua tem os cazados della muytos e muy frescas ortas co muyta diuersidade de fruytas que has ha nesta terra muy boas alem de toda a sorte das que se dam na India muytas outras; e he muyto para notar que com esta cidade estar quazi debayxo da linha he de ares muy sadia e de aquas exsellentes, e muy fresca e fertil de tudo ho que lhe semea : onde choue quazi todos os dias e noytes= Tem os cazados de Mallaqua muytas legoas de terra de que sa senhores. De huma banda athe o Cabo Rachado e da outra athe o Rio Fermozo, e tambem muytas legoas pella ser-

ta', porem tudo despuoado sem quem ho cultiue, sendo terras muy fertis e que dera muyto arroz= confina pella terra dentro co' hos Manamcabos Mouros de huma terra que chama' Rindo, vassallos delRey de Pa', e junto delles estam sinquo ou seis mil tambem dos mesmos Mouros Manancabos, vassallos de sua Magde. que tem hum Portugues cazado em Mallaqua que hos gonossas embarcasois que va' de todas as partes leuarem as jaleas o melhor e ho pior he' que sem ho tomarem a seus douos, o que susende particullarmente no que vem da china pella muyta vallia do que saluam que he ouro, sedas, e almiscar : e tambem se nam pode negar que salua' estas jaleas muytas embarcasios e fazendas : mas conuem muyto andarem em pessoas muy desynteressadas, ou ao menos de boa consiensia que tam rarmente se acha em soldados= Os mais gastos que fazem as jalleas sam de marinheyros porque trazem de sinquenta pera sima a respeyto de remarem vinte e tres por banda, hum mais ou menos, a fora os dous que gouernam a popa e proa, leuando taobem algus de sobreselente pellosque podem adoeser ou cansar, dasse a cada marinheyro huma para de arros que he pouco mais de hum alqueyre cada mes e hum cruzado de quatrocentos e sesenta res todo o tempo que andam embarcados= e como huma jalea destas he de sinquoenta palmos de comprido pouco mais ou menos= e de menos de sinquo de largo, e quatro de altura de pontal, remada co' quarenta e seis remos, fica a mais ligeyra embarcassa' que anda no mar ; que para auisos, socorros, e se poderem desuiar dos enemigoas, seruem muy bem : e quantas mais ouvera milhor seruisso fezeram= Manda' se tambem algumas outras embarcois de Mallaqua com algus

auizos como Bantis mayto mais piquenos que jalleas que nam fazem gasto mais que ho dos marinheyreo que fica dito e os mantimentos dos soldados que com em terra lhos paga' tam poucas vezes se embarca' por elles com muyta vontade ; porque tambem quando as vezes se vam a alguma parte com a Pera e outros portos guanhar hum quartel dos mercadores, nem por isso sam lansados do presidio, nem deyxa de se-lhes-dar a sua paga, senam se entretanto la anda' Iefes ; porque de outra sorte nenhum soldado aturara na fortaleza com tam poucas pagas delRey sendo huma terra tam cara : e antes se pode estranhar auer aynda assy' soldados que asistam nella = =.

mandel que sejam a seu modo porque cada nassa do sul tem seu modo de roupas= e de Patane se trazem pataquas, algum ouro, boas pedras bazares, arros, carnes, legumes, asucar preto de cana, azeytes, e todo o genero de mantimentos, has milhores gallinhas e capois de todo o sul.

Este reyno de Patane na' se gouerna sena' por molher por costume muy antigo : Esta cento e sinquoenta legoas de Mallaqua por Costa e assy' se pode vir por ella sem mousa' de norte : particullarmente em balos que sam como nuaios darmada na' tam compridos mas de mais bojo co' dous mastros e seus remos com dous lemes que chama' Camudes; e em galles Malayos que sam menores que as nossas Panchelois que na' sam gales, nem balos, e mais paressem ballos que gualles, co seus remos, e Bantis do tamanho de huma Manchua grandemente ligeyros com remos e dous mastros : que sa' hos em que mais ordinariamente se nauege na costa de Mallaqua com marinheyros Malayos de Malaqua Christaos que leuam suas espingardas e panellas de pol-

uora=.

De Camboja onde ha' igreja e padres da Companhia, e o Rey muyto amigo dos Portuguezes, e ha' muyta madeyra de Angellim muyto bom lacre de formiga : Muyto arros milhor e mais barato que ho de Bengalla ; a mayor parte da gente que aquy asiste sam Japois Christaos, e Chinas Valhaquos que lansaram de Manilha os Castellanos peresses, ou elles fogira' ; e assy' sam hos mayores enemigos que temos : ha tabem neste reyno muyto Callamba e aguilla = Na costa de Champa ha' dous ou tres portos a que vam os Portugueses comersear, leua' boyois pretos da China, e algum fio de ouro ; e resgata' pao preto muyto mayor e milhor que ho de Mosambique : ha' aqui Igreja e Christandade co' hum padre da Companhia=.

Esta adiante o reyno de Cochim China e antes de entrar em seu porto junto delle esta huma Ilha donde os padres da companhia tem Christandade que se chama Pullo Cambim : e entrando no dito porto tem nelle os ditos padres Igreja e Christandade.

Alem da dita Ilha = ha dous portos neste reyno onde comersea' os portuguezes : hum em que esta O Rey : e outro que chama' Turam. Tem muyto milhor a colheyta que nenhum outro ; leua' se pera estes portos muytas roupas de sua sorte (oje esta o contrato por la quebrado pellas forsas do Capita' de Mallaqua, e assy' nam se vay la sena' da China). Vem do dito reyno alguma calamba, e muyta aguilla, muyta cantidade de cobre que trazem Malayos e Japois = . As mais breues viageis ue se faze de Mallaqua sam pera Pam que he hum porto oytenta legoas de Mallaqua do dito Rey muyto amigo dos Portuguezes que

ho he tambem de Jor e das ilhas maritimas = a este porto nauegam de Malaqua todos sem proybesa', leua' lhe roupas e anfiam, e de la trazem ouro em poo da mesma terra e em moeda, pedras Bazares, e d porquoespim, muyto arros, aguilla da costa, e algumas drogas que hos naturais do sul lhe trazem per nam querer vir a Malaqua=. Ha na mesma terra mais dous rios do mesmo Rey : onde se vay comersear e selleua e tras o mesmo = de fronte ao mar esta a Ilha de Pulo Tima' piquena montuoza, e muyto pouoada de Malayos : ha' nella muyta Cassa de pombos : hus animais como corsas muyto bons e gordos que chama Palandos : muyto bom peyxe fresco : ribeyras de agoa exsellente ; muytos figos ; e breu = o fundo junto della he de Vinte e sinquo brassas da banda de terra = da ponta da Romania outra ves, em que se fazem oje muytos galles e outras embarcasios : ha' nelle muyto mantimento, aguilla, e breu=.

Da outra banda naquella corda das ilhas de Bintam=esta a cidade de Bintam outra ves pouoada de nouo co muyta gente e muytas fortificasois por amor de Achem. Deste Rey de Jor e Pam ha outras Ilhas per aquy pouoadas, de pouca considerasa', e nellas mesmas junto ao estreytode Sincapura esta o porto de Bulla' muyto pouoado de Malayos, frequntado sobre maneyra de muytos mercadores de tode sul onde vem vender suas drogas de que rezulta grande rendimento a ElRey de Pam, o que fazem sem vir a Mallaqua pellas grandes tiranias que hos capitais daquella fortalleza vzam com elles em lhe tomarem as fazendas por presso muy ynferior ao que corre na terra e assy' lhe fazerem taobem leuar a sua modea muy ordinaria em todas as cidades e fortal-

lezas deste estado e que as tem chegado a igual mizeria de que hos mesmos Olandezes : e he' tanto assy' em Mallaqua que hos Christaos que va' a estes portos resgatar algumas destas fazendas lhas toma o Capitam por perdidas co muytas afrontas : e algua porisso as metem de noyte em caza e auiza ao Veedor da fazenda para pagare os direytos, cauza poronde se desencaminha' muytas = = = .

Da outra banda desta Ilha na costa da Samatra esta ho porto de Yambe Rio caudallozo, fundo e de apressada corrente, onde os Olandezes sam muy ressebidos e tem sua feytoria e resgatam gram copia de pimenta = Logo mais para Mallaqua pouqua distasia deste porto esta o grande Rio Andregy donde tambem tiram os Olandezes gram copia de pimenta = ha mais outros Rios em ue ha' escalla de Pimenta, e aguilla em que se na' falla particullarmente por ser de pouca cosiderassa' == Junto ha Ilha de Sabam que esta mais pera Mallaqua esta o porto de Siaca tambem de Malayos onde todas as Luas mouas e cheas ha grandes feyras de todas as couzas do sul, ouro, pedras de presso, e Bazares, Aguilla, Calamba, e outras muytas couzas, e mantimentos = deste porto hum Rio que vem sayr de fronte de Malaqua esta a boca de Bancalles na Samatra da outra banda de Mallaqua aonde ha todas as Luas a mesma feyra que alem das couzas referidas tem muyta carne de porquo fresca e salgada ; e de huas ouas de peyxe sauel que chama Trubo de que ha em Mallaqua grande expediente pera todas as parte, Esta aquy na boca de Bancalles o rio das galles de que de tudo he senhor ElRey da Pa' que foy sempre emperador do sul. O estreyto de Sinquapura em que atras fallamos que he onde os Olandezes vem es-

perar as embarcasois dos Portuguezes que vem da China, Manilla, Macassa e de todo o Archipellago de Maluco tem muytos canais e tam estreytos que em partes vam as embarcasios tocando co' as vergas nos aruores da terra onde as correntes das mares sam grandissimas : a agoa posto que funda muyto clara de maneyra que vem as peyxes andar nella os quais os mercadores que vam nas embarcasois compra' aos Salletes que sao os que abitam este estreyto yndo e peyxe nadando na agoa, e elles o vendem, e vam logo em ballois muyto lygeyros em que viuem co' suas famillias e fisga' ho peyxe e o trazem. Sam este Saletes gente pessima e particullarmente contra os Portuguezes ; sa' velhacos e traydores as mayores espias que tem los Olandezes porque onde quer que esteja a nossa embarcassa' das muytas parageis que aly ha' dam logo auizo aos Olandezes e os leua' e encaminha' a ella : de sorte que tem cauzado as mais das perdesois das nossas frotas ; e isto respeyto de os Olandezes lhe-darem grandes datos de tudo ho que assy' apanha'. E assy' conuem muyto que as nossas armadas de jaleas e nauios que vam a estes estreytos esperar as ditas frotas fassam toda a gerra possiuel a estes Salletes para os enxotar destas parageis=.

As viageis de mais importansia que se fazem de Mallaqua sam como fica dito pera a China, aonde se leuauam de Mallaqua todas as drogas do sul ; que ja oje na' vam mais que alguma pimenta e pouco ou nenhum crauo que a nos, e massa, esta em poder dos Olandezes : sendo senhoures das Ilhas de Banda de donde deytara hos proprios naturais que anda' vagamundos por todo o sul dezeijando alguma ocaziam pera se vingarem e recuperarem suas teras = O mais que leuam pera a Chi-

na he ho que lhe vay da India, e juntamente pera Manilla ho que se tras de la ja fica dito = He regimento de Mallaqua que nenhuma embarcasa' que venha da Banda do dito estreyto passe sam tomar Mallaqua e fazer aly direytos de tudo ho que trouxer de que paga' des por cento, e dous e Cidade pera forteficassam e artilharia : e ja ouue algumas que passando sem tomarem esta fortalleza fora' julgadas por perdidas = = .

Fas-se tambem viagem de Mallaca pera o Macasa que he huma Ilha que esta trezentas legoas de Mallaqua ao Veste, de hum Rey Mouro que sabe muy hem fallar Portugues, e tem muytos em suas terras e he' grande seu amigo, o que lhe leuam na' sa' mais que roupas ; e se trazem as drogas que aly vem vender os naturais do sul, tendo a terra em sy muyto mantimento, e tartaruga, e daquy he de que prinsipalmente se proue Malluquo ; para esta Ilha se fas tambem viagem de togo ho estado : ha nella Igrejas co' padres que administra' os sacramentos aos Portuguezes que aly asistem e vam e vem = Tem este Rey prometido de na' dar porto em sua terra a Olandezes como foy e assy' tem em sua terra Denamarcos, e Ingrezes = Sendo este Rey e todo seu reyno gentios mandou pedir a Mallaqua hum padre para lhe mostrar o que era a ley dos Christaos porque se lhe paresesse bem a tomaria : dizem que tardou em yr mais do que primetia couza tam ymportante = e assy' quando tinha chegado primeyro hum marinheyro de hum pataxo que chamaua' Lucar Mouro que lhe ensinou a sua ley e lhe pareseo tam bem que logo a tomou = = .

De Mallaqua a Pera sam quarenta legoas por costa pera a banda de

Leste foy Rey vassallo de Dua Magde muytos annos, e pagaua de pareas hum grande cantidade de callaym ha tres annos que lhe negou as pareas a que responde que ho liurem do Achem e que enta' pagara as pareas e sera vassallo de Sua Magde porque com as muytas armadas co' que ho Achem anda de ordinario nestes mares da de ordinario nas terras deste Rey ho destroe, e lhe catiua sua gente de maneyra que responde ho Rey que muyto bem conhesse de quanta mais ymportansia lhe sera ser sogeyto a Sua Magde do que ao Achem : mas que nam tem poder pera rezistir a este tirano, e a muyta forsa que tem, e na' lha dando Sua Magde forsado ha de procurar ho remedio de seus reynos com se-lhe = auasallar e pagar as pareas que pagaua a Sua Magde E aynda assy' teue com que rezester a hua armada nossa que ho hia castigar = Tem em seus reynos grandes minas de Callaym que he ho metal que fica dito de sorte que sayra' dellas todos os annos de sinquo para seis mis quintais de Callaym ; os quais antigamente vinham todos os mais delles pera Mallaqua e oje nam vem a tersa parte ho mais vam pera ho Achem donde os Olandezes o leuam, e o trazem para a India co' grandes ganhos = .

A feytoria que ho capitam de Mallaque tinha em Pera era donde tiraua o mayor ynteresse que oje na' ha' : e por estas e outras couzas descahio tanto esta fortalleza e capitania, que na' ouue prouido que quizese entrar nella no anno de seiscentos trinta e tres : e assy' foy entrar hum capitam mandado pello Visorrey.

ملحق رقم (٢)

وصف جزيرة جوا من المخطوطة الآنف ذكرها في الملحق الأوّل .

ILHA DE GOA.

DESCRIPSAM DE ILHA GOA E TO DAS SUAS ANEXAS.

ILHA DE GOA Metropolly e cabessa de todo ho estado da India de que Sua Magde he senhor esta em altura de quinze graos e quarenta e sinquo menutos. Tem de comprimento duas legoas de sircuyto e de largura huma e em partes pouco mais. Esta pegada co' a terra firme do Concam do Ballagatte he muy fresca e chea de muytas ortas e palmares com agoas muy boas e comerseada de todo oriente, porque como cabessa concorrem a ella por mar e terra todas suas fazendas e riquezas, e della se espalham por todo o mundo. E antes que entremos em dar mais particullar reza' desta Ilha e Cidade de Goa sera bem que ho fassamos dos fortes passos com que na sua entrada e por toda ella esta forteficada :-

DESCRIPSAM DO FORTE DE NOSSA S[ENH]ORA DO CABO.

Entrando pella ponta de Nossa Senhora do Cabo pera dentro da barra de Goa se a de afastar alguma couza da dita ponta porque lansa ao mar huma restinga de pedras cuberta de agoa pouco mais de mea legoa, fica da banda do sul o outeyro aonde esta a Igreja de Nossa Senhora do Cabo no mais alto delle, de frades Capuchos Recoletos o qual esta leuantado da superfisie do orizonte setenta brassas ficando a dita Igroja em hum terreyro de sinquoenta de roda na qual ha tres sisternas que leuam trinta mil pipas de agoa ;- fica afastado da rais do outeyro pera sima da banda do mar distansia de vinte brassas hum forte pera onde se vay por huma estrada cuberta que comessa em huma calheta que fica detras do mesmo monte da banda de dentro, de mil passos de

comprido athe chegar a huma porta do dito forte por onde se entra a hua plataforma de cem passos de comprimento e vinte sinquo de largura sercada pella banda do mar de hum parapeyto de seis palmos de altura com seis lugares para outrastantas bombardas : e pella do monte que lhe fica muyto alto e sobranseyro tem huas sete cazas de sobrado cubertas de terrados bastantes pera viuer nella qualquer pessoa que possa seruir de capitam = E embayxo tem no andar da dita prassa doze cazas em que podem viuer soldados piais, e bombardeyros : e nemhumas das ditas cazas esta aynda de todo acabadas = Nam asiste neste forte que chama' "Nossa Senhora do Cabo" Capitam nem soldado algum, e so tem hum negro que ho vigia : e tem na ditta plataforma quatro pessas de bronze em seus repayros de quinze athe vinte libras de pillouro de ferro = E como a vigia dos frades emsima he continua tem no dito Conuento monisois bastantes pera as ditas quatro pessas de artilharia.

Auisam de qualquer couza que paresse ao mar pera se prouer logo de capitam bombardeyros e gente como se faz porem nam deyxa de estar este forte offeressido a se arroynar com a muyta agoa que pello ynuerno desse do dito monte que fica arroynando as paredes das ditas cazas.

* * * * * *

FORTALLEZA DE PANGIM.

Pello Rio asima hum quarto de legoa do forte de Guaspar Dias esta o Castello de Pangim no qual se fizera' apozentos pera os Visorreis es-

tarem quando vam a barra despedir as armadas e naos do reyno por ficarem mais perto e quando he nesesario em qualquer ocazia' de enemigos estare' mais perto da barra = Estam feytos apozentos a borda do Rio e cazas muy bastantes e hum cais onde desembarca' pera as mesmas cazas e posto que ElRey quando se fizera' na era de seis centos e quinze se ouue por mal seruido e mandaua que as pagasse o Visorrey dom Jer[ony] de Azeuedo = despois o ouue por bem paressendo huma das melhores couzas que tinha o estado como de deyto o he' aonde quando os Visorreis lh na' esta', tem a Cidade hum homem Portugues por ter cuydado das ditas cazas e conserto dellas a que paga' sies Xes. cada mes = Estam em Pangim obra de trinta cazas entre terreas e de Sobrado alguas muyto grandes e fermozas de Portuguesses de Goa e outras dos que fazem aly sua abitassa' de que tambem parte esta' ao longo do Rio co' ortas e palmares de recreasam e rendimento e assy' va' continuando algumas cazas athe Sancta Inis que esta mais pera a barra e dahy athe Nossa Senhora do Cabo aonde esta' oyto cazas assy' de moradores de Goa " como de algus velhos ermitois Treseyros da. Ordem de Sam Francisco ; que estam e viuem aly retirados a sombra dos Recolletos do dito Conuento = Ha em Pangim doze ou treze almadias compridas e estreytas que leua des e doze remos por banda que serue' de leuar auiso a qualquer parte e prinsipalmente ao norte, e tambem pessoas e fazendas de pouco vollume porque por sua muyta ligeyreza nauegam sem armadas porque nam vam sogeytas a paros posto que ja acontesseo tomarem algumas. O gasto que esta fortalleza de Pangim fas a fazenda real, a qual na' he mais que haa torre antiga-

mente alta que oje esta no meo das cazas em que na' ha artilharia ne' couza defensavel he o seguinte, etc.

* * * * * *

PASSO DE RIBANDAR.

Asiante de Pangim fica huma ponte que a Cidade de Goa mandon fazer por mandado do Conde de linhares legoa de comprido obra insigue co' que foca o dito camynho muy fassil pera qualquer ocazia' apressada como ordinariamente acontese o que nam era antigamente antes de se fazer esta obra porque se nam podia yr sena' por mar em manchuas que pirmeyro que se achassem pera qualquer suseso apresado ; Era nessessario pera isso muyto tempo ; e tambem se ficam cobrando huns pedassos de varzeas muyto grandes que ho Conde de Linhares Vizorrey aplicou pera sustento do Ospital da Piedade que elle edificou e ynstetuhio.

Esta neste porto e paragem de Ribandar hum passo co' hum balluarte piqueno de des passos de comprido e seis de largo onde esta somente hum sino de vegia que como a artilharia aquy nam serue mais que pera hos da terra se pode por cada ues que for nessessaria = ficam lhe pegadas as cazas do Capitam ou tanadar, e muytas outras ha roda em que viuem Portugueses e Canaris co' huma Igreja que por todos sera' passante de vinte, e muytos palmares de huma e outra banda.

* * * * * *

PASSO DE DAUGY.

Passando pella Cidade de Goa indo pello Rio asima de propia parte em terra da mesma Ilha esta ho passo de Daugim chamado por outro nome da Madre de D[eo]s : pello mosteyro que lhe-fica peguado de Capucheo Recolletos : Na' he este passo mais que humas cazas grandes sobradadas onde mora ho capitam ou tanadar do dito passo = Na' ha' nelle artilharia nenhuma mais que hus de pee de Cayla', fazendo conta de se-lhe-por quando for nessesaria, porbayxo tem huma porta pro onde entra e saem os que passam pello dito passo de huma para outra parte em manchuas que ha de vigia e almadias pera passagem da gente e para fazerem chegar todas as embarcasois a registar no dito passo se acazo o nam querem fazer = De fronte da porta do dito passo a borda do Rio pegado na agoa esta hum balluarte razo coadrado que tem perto de duas brasas de altura, e de roda tem vinte e sinquo pasos andantes no qual se poem artilharia quando he necessaria pera qualquer ocazia' = E de ponta das cazas do passo comessa o muro que vay correndo pella Ilha em roda ao longo do dito Rio muyto grande espasso athe de fronte de Sam Joa'o Bautesta onde se afasta do Rio e vay continuando pella terra dentro da Ilha como se vera da planta = Tem este muro de altura em partes tres brassos e em partes menos, e em outras mais co' seus balluartes a espassos pera defenderem os panos de muro que ha' entre hus e outros posto que de Sam Joa' Bautista athe de fronte de Bargany' onde ja chegaua ho dito muro esta muy ymperfeyto e com muytas quebradas = E nam foy esta obra mais por diante por se entender era de pouco effeyto assy' por ho sircuyto ser

muy grande e descomprasado hauer mister mais de sinquoenta mil homes pera ho defenderem como por ficar muy destante da Cidade e aynda dos mais afastados arrabaldes della e tem se alcansado que com ho dinheyro que se gastou nesta obra se pudera ter forteficado a Cidade muyto bem e alem della a Ilha toda em roda quero dizer naquellas partes onde tinha nesesidade de forteficassam e assy' foy dinheyro perdido o que nella se gastou = Tem este passo de Daugy' capittam Portugues e fidalgo a quem se paga seu soldo e vensimento : mas ho que ho sustenta he os prois e percalsos e lagimas que lhe importa' muyto =.

* * * * * *

PASSO SECO CHAMADO DE SAM BRAS.

Passado ho passo de Daugy' indo correndo a Ilha de Goa a roda ao longo do Rio e muro se segue o passo sequo chamado de Sam Bras = Tem hum balluarte grande de pedra e cal pegado no dito muro : onde estam tres pessas de artilharia de Bronze em seus repayros huma de desoito liuras e as outras de des de pillouro de ferro este passo he muy perigozo e chegado has terras do Idolcam e de mare vazia se pode passar a pee enxuto e a este respeyto tem a guarda e vigia que abayxo se vera a quem se paga da fazenda real o que se segue, etc.

* * * * * *

PASSO DE SANCTIAGO POR OUTRO NOME BENASTARIM.

Continuado ai longo do mesmo Rio e muro adiante a vista deste passo seco esta ho passo de Sanctiago o qual tem no mesmo muro hum balluarte muyto forte e bem feyto em que estam sinquo pessas de artilharia huma de ferro mourisca muyto grande que tira pillouro de pedra de disforme grandeza : e as quatro de bronze que fora' dos galleois de doze athe desoyto liuras de pellouro de ferro = Pera se sayr ao Rio se ha' de passar por sinquo, ou seis portas que estam debayxo da Abobada das cazas do capitam ao longo do dito balluarte que todas em tempo de gerra era' de Rastilho, ou alsapa' que se fecha' do alto da Abobada parabayxo cayndo por encayxes de pedra ; e se abrem leuantandose do alto da abobada com mollinetes com que ficaua fortissima a entrada do dito passo, etc.

* * * * * *

PASSO DE SAM JOA' BAUTISTA : POR OUTRO NOME CARAMBOLLIM.

Ao passo de Sanctiago em roda da Ilha de Goa se segue outro passo que chama sam Joa' Bautista e por outro nome Carambollim porque esta em hua aldea deste proprio nome o qual nam tem Balluarte nem artilharia alguma fazendo conta de se-lhe-leuar e por no muro quando seja nessessario = para sua guarda e vigia, tem hum Tanadar que he o mesmo que capitam soldados naiques e piais cujo numero e o que a cada hum se paga da fazenda real se segue, etc.

* * * * * *

PASSO DE SAM LOURENSO POR OUTRO NOME AGASSAYM.

Adiante do passo de Sam Joam Bautista muyto grande distansia pello Rio abayxo. quazi de fronte da barra de MorMuga' e Ilha de Salsete esta o passo de Sam Lourenso que por outro nome se chama Agassaym porque esta em huma aldea do mesmo nome e he o por oude se passa para as terras de Salsete. Tem por fortalleza huas cazas de sobrado em que viue o capita' sem outra defensa de balluarte, muro, nem artilharia : fica muyto desuiado de Cidade porque esta quazi no fim da Ilha de Goa, etc.

* * * * * *

ILHA DE JUA.

A Ilha Jua' esta entre a Ilha de Goa e a terra firme pera a banda Nordeste, he de pouco menos de huma legoa de comprimento ; e hum tiro de falca' de largura onde mais = Tem na cabessa que comessa da banda de Goa noue moradas de cazas de Portuguezes de pedra e cal, muy boas e fermozas que sam de moradores de Goa = Junto a ellas esta a Igreja de Sancto Esteuam que he fregezia, onde asiste por vigeja hum cherigo de casta Canarim = como sam todas as mais das Igrejas da Ilha de Goa e suas adjasentes = Excepto algumas que hos tem frades de Sam Domingos, ou de Sancto Agostinho : e as de Bardes dos de Sam Francisco = E as de Salsete de padres da companhia de Jesus =

Perto da esta Ilha de Jua' ha' mil e dusentos Canaris entre os quais os oytocentos sam de armas, e a milhor gente de todas as demais Ilhas, e da de Goa : e acodem co' ellas todas as veses que sam chamados :- Esta Ilha, a de Diuar, Choram, e a das magas sam sogeytas ao capitam de Noroa.

ILHA DE DIUAR.

A Ilha de diuar fica de fronte da Cidade de Goa pera a banda do Norte a qual fas o mesmo Rio co' outro brasso que a serca, tera de comprimento huma legoa, e de largo hum quarto e em partes menos, esta nella o castello e passo de Naroa de que abayxo se fara mensa' da banda de Leste da terra firme dos Mouros : Tem este Ilha em sy' passante de quatro mil moradores entre os quais auera dous mil de armas e as tem, e os mais destes se ocupa' em cultiuar as terras : e outros sam pescadores mas todos Christaos ha' nella tres freguezias co' seus Vigarios co' as ordinarias que adiante se dira.

PASSO DE NAROA.

Passando pella Cidade de Goa indo pello Rio asima voltando sobre a ma' esquerda na ponta da Ilha de Diuar que fica de fronte da terra firme dos Mouros como atras se dis esta hum castello antigo que chama' Naroa, pegado ao qual esta' as cazas do Capitam bestantes pera se agasalhar co' sua famillia = Ao pee do castello ou torre esta huma caza no Rio fundada sobre arcos onde se vegia de mais perto as embarcasios que passa' = E artilharia que tem este torre sam quatro falcois e hum berso porque tambem ella na' he capas de artilharia de

mais porte = Estam junto a este passo des cazas de pedra e cal terreas = onde viuem cazados Portuguezes, etc.

* * * * * *

ILHA DAS MANGAS.

A Ilha das Mangas he hua ilheta que esta entre esta Ilha de Diuar e a terra firme dos Mouros e a Ilha de Jua' tem de comprimento hum tiro de pessa e pouco menos de largo = Na' tem mais que palmares e mangueyras tem humas cazas co' huas torrinhas do dono della que lhe serue' de fortes e oytenta canaris Christaos que a cultiua' e guarda' : e nam tem Igreja.

ILHA DE CHORAM.

Peguado ha Ilha de Diuar deuedida so por hum brasso de Rio fica a Ilha de Choram pera a banda de Noroeste a qual tem huma legoa e hum quarto de coprido e mais de duas de roda : muyto mais abitada que e de Diuar e assy' chega a ter perto de quinze mil almas dos quais sam de sinquo para seis mil humes de gerra sma todos pescadores e lauradores e algus marinheyros ; nam tem esta Ilha de Choram fortalleza nem balluarte algum ue a defenda mais que a mesma gente que he a mais rica, e luzida de todas as Ilhas, Tem em sy duas Igrejas = e muytos plamares, mangas, e terras de arros.

CIDADE DE GOA.

A Cidade de Goa esta lansada ao longo do Rio que fas Ilha comessando as cazas della de Panellim athe Madre de D[eo]s em que entra'

hos arrabaldes neste comprimento que sera de lous tersos de legoa : A largura he desde ho Rio athe Nossa S[enh]ora Lus lansando aynda algumas cazas mais adiante the junto ao outeyro de Bargany' : que serao mil seiscentos passos de largura e pellos outros dous lados da banda do comprimento, fica o grosso da Cidade entre os dous outeyros de Sancto Agostinho, e Nossa S[enh]ora do Monte que ficao Leste Oeste hum do outro, Sancto Agostinho para a banda de Veste e Nossa S [enh]ora de Monte para a de Leste, e dista hum do outro por linha recta dous mil passos e pello oblicar co' as dissidas e sobidas dous mil e trezentos cada hum destes outeyros fica caualleyro ha cidade de forma que estando artilharia em qualquer delles a podera' com fassillidade arrazar = Os fogos que ha' nesta Cidade de Goa dentro nos ditos lemites sam tres mil e quinhentos a fora os Conuetos dos quais os oytocentos sam de Portuguezes cazados que hus por outros tem dous escrauos que possa' tomar armas = sendo que conhessy muytos que tinha' a desaseis e a vinte : mas tabe algus na' tinha' nenhu' : Os mais delles sam Cafres, e de outras nasois da India = Halem destes tem hos ditos Portuguezes cazados oyto pessoas entre escraous Inuteis que chama' Bichos e escrauas, ou negras = aduertindos tambem que posto que ha muytos que nao tem pessoa nenhuma destes Inutcis = ha' caza em que ha vinte escrauas e mais = Todos os ditos cazados tem nuytas armas com que ornam suas cazas, assy' cabides de lansas, azaguayas e partezanas como tambem espingardas de pederneyra e murra' de maneyra que tem armas pera sy' e seus escrauos e so lhe podera faltar poluora e ballas que na' tem de portas a dentro = O mais numero de

fogos que ha' nesta Cidade sam de cazados prettos Christaos Canaris e de outras nasois da India que tambem tem algus escrauos de armas que sempre sera a metade do dito numero muytos destes sam offissiais mecanicos : hos dous mil delles homes de armas : e psto que algus delles por sua pobreza as na' tenha' de seu co' tudo ha outros que sam ricos e tem muytas = Ha' entre este numero de fogos tamhem muytos Gentios moradores, e offissiais Canaris, e Guzarates que se sustenta' do que tira' e ganham dos Portuguezes ; como do mantimento que leua' do terreyro de Goa, acarrettado, e trazido co' as Armadas que por este effeyto se fazem = Teram este dous mil cazados pretos que ha' em Goa tres mil e quinhentas para quatro mil pessoas em suas cazas Inuteis e de nenhum prestimo pera nenhuma couza do seruiso del-Rey ; Antes se sustenta assy' do que ganha' com hos Portuguezes como do mantimento que as armadas traze de fora =

Os soldados Portuguezes e filhos seus que ha' em Goa que se embarcam nas armades, nam se pode saber nem apontar namero serto : porque ora sam mais e ora menos conforme vem de reyno , de maneyra que as vezes sam mil e as vezes mais e se for como estes annos de seiscentos e trinta para qua em que faltara' dous annos arei naos do reyno ; e ouue as mais mortes e mayores doensas que nunqua se viram na India : seram tanto menos quanto o exprimentou o Conde de Linhares que para recuperar Ceylam e Mombassa em tempo de tantas callamidades lhe foy nesessario para tam grandes emprasas vallerse de Canaris e Cafres = e quando logo chegam do reyno os consomem nuyto as doensas como tambem a todo o forasteyro que chega a esta Ci-

dade de Goa que ou morrem ou chegam ao ultimo que tal he ho chima della que nam perdoa a ninguem ; e em particullar aos mais gordos e de mais carnes porque em lhe dando a doensa em quatro ou sinquo dias os acaba. E posto que a cantidade de fogos referidos e mais abigadores que se declara nesta descripsa' da Cidade de Goa seja do numero que se tem visto foy ja tanto mayor do que oje he' que se mostra' muytos bayrros seus despouoados co' a mayor parte das cazas caydas e as que aynda esta' em pee desabitadas ; de maneyra que tirado as rellegiois que oje estam em mayor aumento do que nunqua estiuera' na' tem a Cidade de Goa a tersa parte dos moradores que ja teue = e os que oje ha' mais pobres do que nunqua fora' como se vera pello comersio que antigamente tiuera' ; e pello que oje tem :-

A Ilha de Goa da grandeza que temos referido tem em sy' muy boas agoas e muytas fazendas de palmares, e varzeas de arros, e outros legumes e fruytos que possuem a mayor parte os Canaris naturays fa todos feytos Christaos sendo tambem muytas fazendas de Portuguezes = hauera aynda por toda a Ilha de Goa quatro mil Gentios moradores nella pouco mais ou menos fora os da Cidade e seus arrabaldes hos mais dos Canaris Christaos que viuem pella entre os quais ha muytos que chama' gancares, que sam como offissiais da Camara, sam gente de armas, e conforme a lista que deu o Tanadar Mor que he capitam desta gente sam tres mil e sesenta e dous, has armas de que vzam sam espingardas, espadas, e rodellas, lansas, e arcos e frechas : e todos estes Canaris da Ilha de Goa estam debayxo da jurdissa' do Tanadar Mor == Sam estes Canaris naturais de Goa muyto dados a papeis e de-

mandas ; porque alem de terem grande natural pera escreuerem, hos que se dam a isso fazem muyto exsellente letra por onde ha' mais de mil escreuentes na Cidade de Goa e por toda a Ilha : posto que hos mais delles no que escreuem aynda que se-lhe-dem copias poem mil negradas, sendo que ha outros que escreuem muyto esrto = Sam tantas as demandas que trazem hus co' outros ajudando tambem has que hos Portuguezes exersita' : as quais co' seus modos de requerimentos e trapassas estendem por muyto largos tempos : e paresse a Cidade de Goa mais academia de letigantes, que escolla de armas, nem fortalleza, e Cidade fronteyra e cabessa de hum tam dellatado estado = E podesse afirmar que ha oje em Goa mais escriuais : sollessitadores : aduogados : e demandistas : que soldados e capotais que cursem as armas e o seruisso dellas = E em concluza' sam sam mais de seis mil as demandeas que de prezente andam correndo em Goa : e so no Juizo dos feytos auia em Mayo deste anno de esiscentos trinta e sinquo comcluzos de muytos annos a esta parte mil e quinhentos feytos a que se nam podia dar vaza' alem dos que andaua' correndo e por aquy se vira os que aueria nos mais juizos =.

Os Mosteyros que ha nesta Ilha de Goa = o primeyro chamado a Madre de D[eo]s que esta ja fora dos arrabaldes da Cidade da banda de Leste junto ao passo de Daugim de Capuchos Recoletos tem de ordinario de trinta e sinquo pera quareta relligiosos nam tem ordinaria alguma da fazenda real porque se sustenta' de esmollas e nem por isso passam pior que hos outros : Tem estes frades quinze negros que hos serue : e muytos destes frades fora' soldados como tambem e fora'

grande parte dos das outras relligiois = e quando va' nas armadas por capellais ou passageyros susende muytas vezes nas ocaziois de brigas pellejarem co' tanto vallor os frades como os soldados, ou as menos exortare'-nos a isso com crussefixos nas maos = Esta outro conueto fora de Cidade que chama' Nossa S[enh]ora de Pillar, tambem dos mesmos Tecolletos Capuchos obra de m[e]a legoa da Cidade onde de ordinario asistem athe des relligiosos = sustenta'=se de esmollas como os outros sem padesserem faltas de tudo ho que lhes he nessessario == Esta mais nesta Ilha de Goa o Most [ei]ro de Nossa S[enh]ora do Cabo da mesma ordem dos Capuchos Recolletos onde asistem de ordinario athe quinze relligiosos que tambem se sustenta' de esmollas a caza esta na paragem que se te' referido da qual athe Goa auera duas legoas por terra := Na mesma Ilha de Goa em huma Igreja chamada Sancta Barbara que he fregizia obra de mea legoa da Cidade esta hum Counuento de P[adr]es de Sam Domingos onde asistem de ordinario, oyto, athe des relligiosos a que elles chama' a sua Recolleta tem de ordinario por anno sete maos e mea de azeyte para alumiar a lampada do sanctissimo sacramento = Nas terras de Bardes esta o Conuento ou Collegio dos Reis Magos que he da ordemde Sam Fran[cis] co onde asistem athe sete relligiosos da dita ordem = Neste conuento ha tambem hum Collegio de meninos pretos e branquos, onde lhes ensina' Latim e ler e escreuer aos que ho nam sabem : Neste Conuento se apozenta' hos Vizorreis quando desembraca' das naos em quanto se prepara ho que he nesesario para entrarem em Goa e tambem va' e elle outras muytas vezes = Tem este conuento de ordinaria por anno ho

que no titollo das Igrejas de Bardes fica declarado :-

RIBEYRA DOS NAUIOS, GALLES, E MAIS MAIS EMBARCASOIS DE SUA MAGDE.

Tem esta Cidade de Goa huma ribeyra de Sua Magde. a que chama' a Ribeyra Grande onde mora o Veedor da fazenda e estam os nauios de remo que serue' nas armadas, artilharia e fundissa' della, ferraria, e dous Almazeis de prouimmentos de toda sorte que sam nessessarios para as armadas = Os nauios que Sua Magde. oje tem em Goa sera' athe oytenta, entre nauios sanguiseis, e galleotas = Os sanguiseis carregam sinquoenta athe sesenta candis : que cada candil he como vinte alq[uey]res de Portugal = Os nauios athe oyteta nouenta candis, e as galleotas athe cento e sinquoenta = os mais destes nauios e sanguiseis se fazem em Bassaym por contrato que se fas co' hos capitais pella muyta mad[ey]ra, offissiais e mais petrechos que pera isso aly ha' : e de presente porque ho presso da mad[ey]ra tem cresido como em todas as mais couzas ; se fas cada nauio por seis centos e sinquoenta : mas ne' co' isso o capita' de Bassaym que ho contratou se ouue por pago antes moue demanda a Sua Magde. por ficar notauelmente lezo = E posto que estes nauios durem sinquo e seis annos a todo mais : co' tudo vam para Mascate, Mallaqua, Sam Thome e outras partes = Aonde ordinariamente fica' quazi todos : e alem disto os suceseo da gerra em que de contino anda' sam muy varios e gasta'-nos muyto e assy' he nessesario refazere'-se muytas vezes as armadas de nauios nouos e as que escapa' dura' algus annos e custa o concertar porque

em quazi todos os portos em que entra' tem nessesidade de conseto = Tem mais Sua Magde. huma gualle real muyto grande e fermoza a que chama' Sam Miguel e outra mais piquena que arribou indo para Mallaqua = E no porto de Panellim oyto galleois dos quais se aparelhara' quatro pera sayrem co' dous que estam prinsipiados no cais de Suncta Cri[stin]a que vem a ser doze por todos e isto a fora a armada de Mascate, Dio, e Mallaqua, que sam do numero de nauios que em a discripsa' de cada hua das ditas fortallezas se aponta = Mais seis nauios de remo que hao de yr co' hos galleois co' seu Capitam Mor e capitais debayxo das ordens do capitam geral dos ditos galleois.

A artilharia que ho estado tem em Goa de prezente sam somente cento e sinquoenta pessas nos galleios = este pessas no forte da Agoada = quatro pessas no forte de Nossa S[enh]ora do Cabo. Tres pessas no forte de Sam Bras do passo seco = Sinquo pessas no forte e passo de Sanctiago = No forte de MorMuga' seis pessas de bronze = desaseis sagres para ho forte de Gaspar Dias e Bardes = No paso de Naroa quatro falcois e hum berso = huma pesa de ferro de quatro liuras sinquo pessas na galle real = Tres pessas na outra galle mais piquena = Noue pessas nouas na Ribeyra auera mais athe sasenta sagres que anda' nos nauios das armadas = Vinte falcois meios falcois e bersos = quinze falcois meios falcois e bersos = quinze falcois meios falcois e bersos no almaze' que sam por todas trzentas e quatro e a grande falta de cobre que ha' no estado da India he cauza de na' auer muyta conforme trabalha nisso o Conde de Linhares VizoRey mas vay ho buscando por todos os modos, e co' ho fauor de D[eo]s fundira muyta em seu tempo

se estiuer mais annos na India =.

A Barra desta Cidade de Goa he depois de entrar da ponta de Nossa S[enh]ora do Cabo e da fortalleza da Agoada pera dentro distansia de mea legoa pello Rio asima de fronte do forte de Guaspar Dias : onde esta hum banco de area que a atrauessa com hum canal de des brassas de largura = e sinquo brassas e mais de preamar de agoas viuas = O Rio no prinsipio entre as ditas pontas tem de largura huma legoa : e entrando para dentro vay fazendo hua enseada pera detras de Nossa S [enh]ora do Cabo com que fica a largura do Rio mayor e depois vay estreytando pera dentro da forma que na planta se vee = Antes de chegar este Rio ao banco e barra lansa hum braso pera a banda do Norte a que chama' Nelur = o qual vay distansia de huma legoa pellas terras de Bardes dentro e na' torna a fazer sayda neste Rio sa ua' meter muytos nauios dos que ha' em Goa de trato = Passando de pangim fas este Rio dous brassos hum para o Sul e outro para o Norte : o do Sul vay athe Sancta Crus e nam passa mais adiante nem tem sayda para outra parte, O outro brasso que lansa para a banda do Norte vay fazendo as Ilhas de Choram, Diuar, e Jua' : e nem por isso deyxa hȯ Rio de Goa de ter fundo bastate para estare' nelle surtos e yrem e virem athe as naos de reyno que sam as mayores embarcasios que nauega' o mar == A barra de Goa a Velha tem tambem hum banco de area que a atrauessa' ; por meo do coal esta o canal de cem brasas de largura e sinquo de fundo de preamar : e seis de agoas viuas : o canal da Goa demanda ao Veste ; e o desta barra ao Sul : por onde se entra nella aynda com Sul como fizera' muytas embarcasois co' ho ynuerno = e quando as naos

ou galleois se recolhem a Mormuga' se ficam seruindo desta barra de Goa a Velha por lhe ficar em direytrua =.

A costa desta Ilha de Goa corre ao mesmo rumo de Norte a sul que a de Dama' ; Bassaym ; e Chaul : nam prefeytamente metendo mais para susueste e nornordeste e quanto mais se vay pera o Sul mais vay a costa metendo pera o susueste = Os ventos que cursam nesta costa sa' hos mesmos que temos dito atras, ha nella athe o Cabo do' Comorim = As correntes tambem sam quazi as mesmas que temos dito da costa do Norte tirado que como esta Goa desuiada de Cambaya e cem legoas nam lhe alcansa ja as correntes furiozas de suas mares ==.

As viageis que se fazem de Goa sam muytas peoque sa nauega para ho reyno e para todo ho estado com toda sorte de embarcasios = A prinsipal viagem e de mais porte que se fas de Goa he pera Portugal em naos de quatro cubertas que sam as mayores em que sa nauega no mar salgado = Onde se leua' e trazem grande copia de toda sorte de fazendas = As que vam de Portugual sam as milhores e de mais ganho, ouro, e prata ; porque alem dos sinquoenta por cento que se ganha de Portugal para a India se ganha mais a cresensa que as pattaquas vallem mais de oyto tangas, que de presente vallem noue tangas e mea = e aynda mais e assy' vay tambe' e ouro cressendo ao mesmo theor = Cauza por que fora' cressendo as fazendas e tudo ho mais que neste estado se compra com ouro e prata, a tanto que ja raramente se pode ter ganho nellas ; ao quq na' ha' poder se buscar remedio = peoque como o ouro e pratta he' fazenda por todo este estado, vay cressendo e abayxando conforme a falta delle ha' = Trasse de Portugual muyto co-

fal, assy' em ramos : como redondo = panos de vestir de toda sorte de la' : e a mesma la' = e tambem pano de linho branquo, muytas esmeraldas, robis, perolas, e aljofres grandes = que posto que estas tres ultimos espessies se leuaram da India pera Portugal ; com tudo cressera' depois tanto em presso na India que se tornara' a trazer a ella co' grandes ynteresses ; e assy' tambe' outras pedras preciozas de diferentes sortes : assy' soltas como feytas em joyas. Todo ho genero e sorte de couzas de comer e beber tirado pam e vaca, que se nam pode trazer por veniaga : e quaisquer pessas ricas e curiozas que hos Reis deste oriente compra' = folhas de espada largas e estreytas porque as estreytas serue' pera os Portuguezes, e tambem as largas porem estas compra' mais comumente os naturais, e particullarmente os Mouros, e tambem artilharia, e com mais commodidade a de ferro que se viera muyto alem do muyto que se ynteressa nella se ganhara muyto mais em ficar tode ho estado prouido co' ella para defensa de suas Cidades fortallezas e embarcasois = e em effeyto athe pedras de atafona se trazem de Portugual e com grande ganho sendo hum dos milhores lastros que podem trazer as naos = Todas estas fazendas que vem de Portugasl nam pagam direytos nenhus sendo os ganhos dellas has vezes exsesivas : e na prata e ouro assy' em pessas, como em moeda sempre passa de sinquoenta por cento : couza porque as naos vem a custar tanto ha fazenda real e renderem tam pouco = = = .

O que leua da India sam muytas couzas porem nas mais dellas ha oje muyto pouco ynteresse ; pellos Olandezes e Ingrezes encherem toda a Europa de roupas : em que auia, e nas drogas, o prinsipal ganho

deste comersio e aynda assy' leuam pimenta por conta delRey,-e algumas roupas de Cambaya : caras e rions : porque tabem estas sa' tam ynferiores ; e so menos do que antigamente que aynda que na' estiuera' tam sobidas de presso, e os Ollandezes o Ingrezes as na' leuara' aynda assy' em grande copia fora' hos ganhos muy piquenos = Leua' se tambem algumas roupas de Tutocorim que nam esta' tam vesiadas : mas tambem nestas ha pouco ganho = pessas de eruas de Bengalla = porque as cassas ja na' sam de nenhum ynteresse = Leuanse tambem algus enricollados e Ballachos de Negapata' e pimenta de Canara e costa do Mallauar, e canella de Ceylao = desta se na' partessipa' os Olandezes e tambem alguma do mato = e no tocante has mais drogas, nos, e massa, ja nam vem a nossos maos, e crauo muy pouco o qual tambem se leua pera Portugual ; e todas as fazendas de Chyna como sedas em pessas e em rama : porem estam oje em ga' alto presso que na' se leua' ja para veniaga pello pouco ganho, ou nenhum que pode auer nellas = Hia antigamente muyto anil de cabmbaya : Ja oje pello leuarem Ingrezes e Olandezes nem na India esta em presso pera se poder leuar, nem em Portugual tem expediente = Alem destas fazendas se leua' outras de pouco momento como huma fruyta que chama' Coca, e por outro nome Matapeyxe = Courama = Cayxaria dourados de Japa' e China = Escritorios e contadores de Dio, e de todo o Norte = colchas lauradas e camas de Dio, Chaul, Bengalla, e China = e Caurim por outro nome Buzio = athe couseyras pera portas se leua' de India : muyto pao preto de Mosambique e muyto arros que alem de ser mantimento he veniaga em que se ganha mais que em muytas das out-

ras = e por remate de tudo se leua e tem leuado muytos diamantes das minas nouas que se abrira', e ouue nao que leuaua duas arrobas de diamantes : porem oje sam ja muyto menos e assy' pellas ditas couzas esta este comersio de Portugual muy acabado : sendo que se nauegaua nelle mais de dous milhois de ouro ; e oje apenas andara' trezentos mil cruzados ; de sorte que nem os offisiais tem quem lhè carregue, nem elles com que carregar seus gasalhados = O tempo em que costuma' partir estas naos da India pera ho reyno he' desde o prinsipio de Dezembro athe neo de Marco : porem em passando des, ou doze de Feuereyro = se na' vam athe Mosambique co' a Mousa' dos Leuantes com que partem as embarcasois que vam para esta fortalleza : passam co' trabalho o Cabo de Boa Esperansa : e quando chegam a costa de Portugal he ja quazi ynuerno em que padessem tambem ygoais detrimentos assy' naos, como gente, e fazendas = = = .

As viageis depois das do reyno que se fazem de Goa de mais considerassa' sam para Mosambique e sam estanques que se dam por despacho : e sem trabalho rendem ao dono des, e doze mil Xes conforme as embarcasois que vam de tres, quatro, athe sinquo Pataxos : leuam roupas como fica dito : e todo ho genero de mantimentos o que tudo se declara no titollo de Mosambique : Onde se pos tabem ho tempo em que va' e vem : ho muyto que as vezes trazem estas embarcasois que ordinariamente sam pataxos de quinhentos athe mil Candis = e andara neste comersio melhoria de hum milha' = = = As viageis de Goa pera Mombassa e toda aquella costa sam de pouco momento que em Goa na' ha' as roupas que nella so vallem. E ass'y estas se fazem de Dio,

Dama', e Chaul : e quando de Goa vay alguma galleota, leua prouimentos e algumas teadas e se tras sera, escrauos, marfim, e ambre = Vam, e vem no mesmo tempo que a Mosambique = Andara neste comersio de Goa des athe doze mil Xes = = = .

As viageis que tambem se fazem de Goa de ymportansia sam as de Mascate e Basora, porque quem vay a Bassora, primeyro ha de yr a Mascate, e nem sempre as embarcasois que vam a Mascate passam a Bassora sena' as que querem pagar direytos do que leuam em Mascate : o que selleua ja atras fica dito e os tempos em que nauega' onde andam pataxos e galleotas e nauios de remo = Trarseha' empregado neste comersio quinhentos mil Xes = e as vezes mais, e menos = a mayor copia que de Mascate vem emprezado pera Goa he' em aljofar de Baharem em que ha' muyto ganho porem de nenhum se paga direytos porque como he couza de pouco volume fasilmente se esconde = Nauegasse de Goa pera ho Sinde leuando marfim : cocos = copra = calaym que he' hum metal da cor de estanho alguma couza mais duro, e todas as drogas de pimenta : crauo : cardamomo : canella : gengiure : e nos : e massa : Vay se em galleotas de quatro centos athe quinhentos candis no mesmo tempo em que vam para Mascate = e assy' tabem ha vinda trazem roupas de toda sorte de mais dura que as de Cambaya e athe as camizas e ciroulas feytas pello pouco que cusat' hos feytios, e esta gente do Sinde esr particularmente dada a cozer e laurar de sorte que athe couros vem de la laurados muyto curiozamente de seda que sam de muyta dura e estima = andara' neste comersio empregados de oytenta athe cem mil Xes = o que se yntende so nas embarcasois que

vam e vem pera Goa = = = As viageis que se fazem de Goa para Cacha e Nagana nam sam ordinarias de todos os annos senam quando se offeresse : vam e vem em galleotasde remo, e pataxos, no mesmo tempo que ao Sinde e Mascatte posto que em galleotas de remo sam muy arriscadas, pellos muytos paros que vam aquella enseada : e os Sanganes tambem andarem roubando como fica dito = o que se leua, e tras fica referido ja em seu lugar : e quando se fazem as viageis a saluamento dam muyto proueito e ynteresse = Andam neste comersio de vinte athe trinta mil Xes = .

A nauegassa' que se fas de Goa para Dio na' he em rezam do comersio de considerassa' porque em Dio, na' ha' mais que ho que fica dito : sena' por respeyto do prouere' esta fortalleza do nessessario : e assy' na' se vay la' sena' com a armada que leua a Cafilla pera Cambaya pera onde de Goa hia' todos os verois duas Cafillas com grande copia de nauios de remo que as uezes chegauam a trezentos : porem oje pellas rezois apontadas apenas ha' co' que poder yr huma e os nauios de Cafilla na' chegam a quareta e esses aynda vem descarregados : nam tendo mais ynteresses que ho que leua' de fretes e aynda em copra, cocos, areca, marfim, e callaym e algumas drogas posto que poucas = e assy' andando antigamente neste comersio empregados mais de dous milhois : na' chegam a andar oje cento e sinquoenta mil Xes : donde se deyxa bem vir a grande perda e descayda que so nesta terra dera' as Olandezes e Yngrezes a este estado = .

Para a banda do sul se fazem de Goa muytas viageis e nauegasios as primayras sam para o Canara com armada que leua e tras quatro Cafil-

las huma mais ou menos todos os verois de arros e trazer pimenta para as naos em que anda' ora cento, ora cento e sinquoenta nauios entre grandes e piquenas que chama' parangues, e trazem tabe' de Oner e Cananor a madeyra de mastros e vergas, nessessarios pera aribeyra de Sua Magde . Anda neste comersio do arros a fora a pimenta mais de trezentos mis Xes. = = = .

A armada do Cabo de Comorim leua e tras s Cafilla de Cochim duas vezes cada vera' = A primeyra com a Cafilla que vay buscar a pimenta pera as naos do reyno e a cayxaria courama e mais fazendas de roupas de Sam Thome, Negapatam e Tutocorim em que andaua' de trinta pera correnta nauios de Remo e oje a penas chegam a doze = Andara' neste comersio empregados a fora a pimenta sesenta athe oytenta mil Xes = = = A segunda vez que vay a armada a Cochim chega athe o Cabo de Comorim onde antigamente hia esperar as embarcasois da China, Mallaque, e Bengalla, que ja agora sam quazi nenhas mais que algumas de Mallaqua : de Bengalla muy poucas, e menos da China = Tras esta armada as embracasios da Costa de Travencor, Coulam, e Cochim afora os moradores de Tutocorim e as fazendas que aly vam parar de Bengalla, Mallaqua, China, e Manilla : Era esta Cafilla antigamente de sinquoenta e mais nauios : hoje na' chega' a des = Andara' neste comersio de quarenta para sinquoenta mil Xes e quando as vezes vem embarcasios do sul hum nauio tras esta contia so = O tempo em que custuma yr he em Feuereyro ; e uir por todo Mayo : e tambem costuma trazer a Goa arros das fortallezas do Canara = = = .

A nauegassa' que se fas de Goa para Ceyla' he em pataxos ou galleo-

tas de remo : Vam por todo Setembro quatro, ou sinquo pataxos ; ou des ou deze galleotas pera trazerem a canella que oje corre so por conta de Sua Magde e assy' nenhum vassalo ynteressa neste comersio mais que hos fretes porque lhe fretam as ditas embarcasois as quais tambem leua' algus prouymentos pera a dita Ilha de gente e o mais que lhe he nessessario pera sustento de seus moradores = A cantidade de canella que trazem sam dous mil athe tres mil bares = que cada bar sam em Goa tres quintais e des arrateis = Importou esta canella a Sua Magde o anno de seiscentos trinta e tres por yndustria do Conde de Linhares cento e sinquoenta mil Xes de que se tirara' hos gastos : Trazem tambem estas carauellas, e pataxos, os Ellefantes de Cayla' pera em Goa se venderem por conta de Sua Magde ho numero he conforme se cassa' : que ordinariamente he' de sete athe des = o presso por que se vendem tambem na' he serto, porque he conforme a grandeza, e a boa ocazia' = porque ha' Ellefante por que se da' dous e tres mil pagodes, de noue centos res o pagode = E outros tabem vallem menos. He animal que custa muyto a embaracar e trazer por sua grandeza ; e taobem morrem muytos - Trazem as ditas embarcasois muytos cocos por lastro e as curiozedades de Ceyla' de cabides de lansas, alabardas, ymageis de marfim, pessas de cristal, esteyras e chapeos de palha que sam de muyta estima = .

A nauegassa' que antigamente se fazia de Goa pera a China era tirado a do reyno a mais rica ; e de mayores cabedais que auia neste estado = porque so a primeyra nao que chamaua' a da prata que tomara' os Olandezes aos Portugueezes na India = a primeyra promessa que se

lhe fes de partido porque alargassem, fora' mil pais de ouro que cada pa' tem tres quartas de arratal = e oje ha anno em que apenas ha' quem queyra carregar huma galeota de trezento pera quatro centos candis pella continua asistencia co' que os Olandezes estam esperando no estreyto de Sincapura estas embarcasios que vam de Goa para a China ou pera Manilla e de la passa' ha China = O que leua' para Manilla sam vinhos = azeites = escrauos = amendoas = farinhas = pimenta = cordoalha = roupas de cachas, e algumas beatilhas, e canequis = e o mais que se leuaua nos primeyros tempos era' muytas joyas de diamantes de que a fazenda real nam tinha nenhus direytos ymporando grandes contias : Mas foram tantos que ja oje la tem menos vallia que em Goa = e assy' nas embarcasois que vam e vem a China e Manilla andaram de duzentos e sinquoenta para trezentos mil Xes prosupondo como atras fica dito que estas embarcasois sam esperadas nas monsois da vinda no estreyto de Sinquapura : de quatro sinquo e seis, entre naos e pataxos Olandezes muy bem artilhados e so co' ho lastro pera ficarem mais ligeyros = Onde tomando as nossas empachadas e carregadas sem artilharia ; ou muy pouco para se defenderem sam tomadas e vendo o pouco meo que ha para lhe escaparem os que vem nellas dam co' as galleotas, ou pataxos a costa e as vezes os queyma' : saluando o ouro que he sustansia de tudo : e alguma pedraria de rubis e aljores, e almiscar ; por cuja cauza, o mayor ou quazi todo o emprezo he nestas duas couzas : sendo o lastro e mais carga de muyta menos ymportansia : mas como as fazendas da China sam todas de muyta vallia : nunqua deyxam de ser de muyta considerassa' quaisquer que

hos enemigos toma' : porque nunqua podem deyxar de ser ao menos = Tutunaga que he hum metal mais preto que estanho : e Calaim muyto mais duro : lancoas que he por outro nome galangas = lousa de toda sorte e a milhor que ha no mundo : pao da China = asucares bons e muytos branquos = em fim muyta seda assy' em pessas como em rama : muytos dourados : que qualquer destas couzas sam de grande presso e a falta dellas as fas aynda sobir mais = O que vem de Manilla sam asucares que a mesma terra da' tam bos como os da China = sapa' que he hum pao que tambem aly nasse que serue de tintas = crauo = tartaruga = e algum ouro tambem da terra = Os tempos em que vam estas embarcasios para Manilla e Chaina he' desde Marco athe todo Mayo : e quando vem na mousa' do sedo he em Dezembro : chegando a Goa em Janeyro = e na do tarde em Feuereyro : e chegam a Goa em Marco, A bril, athe Mayo = = = .

A nauegassam de Goa para Mallaqua se fas no mesmo tempo que para a China e Manilla e alem disso tambem em Setembro = Esta este comersio ja quazi de todo acabado : porque como em Malaqua nam auia mais que as fazendas do sul de que as prinsipais era' drogas de pimenta, crauo, nos, massa = e todas as tinha' os Olandezes e Ingrezes esnhoreado ; e os Jaos e Mallayos nam vinha' buscar a Mallaqua as roupas de que se vestem pellas terem pellos Olandezes. Esta esta fortalleza oje tam falta de comersio, e trato : que sendo huma das tres da India, nam ouue em Setembro de seiscento trinta e tres prouido que quizesse yr entrar nella por onde se mandou capitam por Sua Magde mas aynda vam huma ; e duas embarcasois de quinhentos para seis-

centos candis : e trara' neste trato em Callaym, que he so' o que oje ha' em Mallaqua, e algum crauo, e tartaruga, que lhe vem do Macassa sinquoenta mil Xes empregados a fora algumas miudezas que nam sam de momento.

Vem a Goa alem das partes referidas huma nao mourisca todos os annos piquena do Rey de Carem do estreyto de Meca = que esta em pas co' ho estado que tras ensenso, e azeure ; e algus chamallottes = = = Das Ilhas de Maldiua e de Malale vam tambem muytas gundras que sa' hus nauios de remo piquenos e malfeytos pellos quais se dis que a palmeyra poem hum nauio ha vella : porque ho casco he do mesmo pao da palmeyra, cozido co' ho cayro dos seus cocos : a carga dellas ho ho mesmo cayro dos cocos = Ho mantimento da gente destas embarcasois os mesmos cocos, e a agoa delles mesmos = os mastros, e as virgas das palmeyras = as vellas de esteyras de palma = As de Malalle nam trazem mais que cayro, e destas vem mais todo pera a ribeyra de Goa = As de Maldiua vem raramente a Goa ; e trazem cayro = ou buzio e detas Ilhas he todo ho que ha' neste estado = peyxe sequo que chama' comballamas : algum ambar, tartaruga = e coco que chama' de Maldiua ou das Ilhas que se tem por grande contrapessonha muytas esteyras e cocos ordinarios que inda que piquenos se tem por de milhor carne que hos mais da India = O tempo em que vam e vem he desde Setembro athe Mayo : em quanto dura o vera' = Trara o comersio da nao do Rey de Cayxim e destas gundras empregado ao redor de trinta mil Xes = .

De tudo ho referido se collige que anda' nos comersios e nauegassois

de Cidade de Goa dous milhois ; oyto centos e sinquoenta e dous mil Xes, porem ha se de considerar que as vezes o mesmo cabedal que anda em hum comersio, anda tambem em outro, ou parte delle, como nos comersios da costa de Goa pera Cambaya, ou pera Cochim = e tambem parte destes dous milhois he de gentios que hus sam vassallos de Sua Magde e outros nam : e que muytos embarcasois de todas as partes fazem naofragio : ou sam tomadas dos enemigos Ingrezes, ou Olandezes que com grandes escoadras de naos ocupa' estes mares : e na' menos de muitos paros : que tem feyto e fazem muyto dano = e assy' que contra todos estes empedimentos e outros muitos sendo nam menos os castigos do Ceo de tromentas : fomes : pestes : e outros malles : ha' de andar sempre preuenindo remedios quem tem as costas apezado gouerno deste estado.

O Rey da terra dentro com quem confina' estas nosses de Goa : Bardes : e Salsette se chama o Idalcam, ou Idalxa' : capitam antigo que foy do Rey de Bisnaga e se lhe leuantou com esta parte das terras que gouernaua : de Gentio se fis Mouro : como se fizeram deste Oriente = O seu reyno por costa he desde o Rio do Mar athe Merizeu que sam sesenta e duas legoas de costa e pello serta' dentro se estendera neste distrito a doze legoas = A mayro parte de seus vassallos sam Mouros mas aynda tem algus Gentios = A gente que pode por em campo chegou ajuntar o anno passado em Vijapor que he a sua corte sinquoenta mil homes de cauallo pera se defender do Mogor que lhe pos serco nella, afora hos de pee de que nam fazem numero como ja fica dito : porem estes cauallos sa' hos mais delles guadaras : e entre

oyto ou des se achara hum bom arabio ou partio, porque os da terra aynda que nassa' delles ja nao sam couza de considerassam, donde tambem se pode ver ho que sera dos homes. As armas de que se vzam sam todas as que se vzam em Europa e sobre ellas muytos arcos e fre-chas hos de pee = e assy' tambem vza' de artilharia prinsipalmente em defensa de suas fortallezas = A forma de pas que guarda co' ho estado he ser ho Idalca' amigo de amigos e enemigo de enmigos : porem nam guarda elle isto tam pontualmente : porque tem comersio com ho Dachem onde manda naos de Dabul Cidade sua que esta no Norte, nam se lhe dando do nosso feytor Portugues que esta na dita Cidade como atras fica dito : e ha Persia nauios hus e outros sem cartazes : e em outros muytos particullares na' guardam os capitais e gouernadores do Idalca' os capitallos das pazes fazendo algumas semrezios aos vassallos de Sua Magde Christandade nenhuma tom os naturais do Idalcam = antes acolhendose os escraouos dos Portuguezes de Goa, ou os mesmos Portugueszes para sua terras os deyxa viuer em que ley querem : e ordinariamente os escrauos renegam e os Portuguezes viuem muy fora da ley que professa' = He costume e capitallo das pazes que tenha sempre o Idalcam hum embayxador na corte da Goa como ordinariamente asiste posto que algumas vezes falta ; e a despeza que faz he a custa de seu Rey, so as cazas lhe da ho estado = e nas fazendas que aprezenta na alfandega sa lhe quitam mil e quinhentos Xes por contrato .

As fazendas que ha' nestas terras do Idalca' nam sam outras mais que algumas roupas que chama' beatilhas ; argaris ; pacharis ; teadas ;

pedras bazare ; grande copia de diamantes de minas que a qunize annos se descobrira' de nouo nas terras do Rey de Golconda que chama' Cotummaxa que confina' com estas do Idalcam : e desde o descobrimeto das ditas miuas athe o prezente se tem empregado mais de des milhois nos ditos diamentes com nenhum, ou muy pouco ynteresse da fazenda real = a cuio respeyto o Conde de Linhares Vizorrey tem criado o offessio de Corretor Mor da pedraria com que se tem esperansa poder a fazenda real ter mais proueyto da muyta deste estado :- Vem mais das terras de Idalcam para Goa toda a sorte de mantimentos cauza porque hos Mouros tem com este estado algus maos termos paressindo-lhe que nos tem o sustento em suas maos particullarmente trigo, e carnes, e legumes de que comem os cauallos : e muyto mais que tudo isto os marinheyros dos nauios de remo = = .

As fazendas por que se resgatem todas as que vem das terras do Idalcam que lhe vem desta Cidade de Goa sam todas as drogas do sul, e as mais das que vem do reyno prinsipalmente prata, ouro, coral = e muytas da China como seda, ouro, lousa, pao : e o que com mais ynstansia procura' e leuam os vassallos do Idalxa, sam os causllos Arabios que se trazem de Mascate : e algus Cachis de Cache : posto que estes na' com tanta vontade : e assy' na' dam tanto por elles : como pellos Arabios = Tem esta Cidade de Goa huma caza de poluora ao longo do Rio hum pouco afastado do Amago da Cidade e qual tinha prinsipiada o Conde da Vidigueyra e a acabou o Conde de Linhares com grande trabalho e asistensia custando-lhe muyto de sua fazenda, he huma das melhores obras e mais bem trassada que ha na India

porque tem muytas cazas entre as quais ha tres patios pera ficare' as offissinas tam distantes huas das outras que auendo desastre de fogo em hua na possa empesser has mais dentro neste sircuyto ha hua na' possa empesser has mais dentro neste sircuyto ha hua fonte de agoa muy boa e moem continuamente oyto moynhos co' mullas = .

* * * * * *

As armadas que ho Estado da India lansa sam a primeyra pera a costa do Canara que consta athe quinze fustas entre nauios e sanguiseis a segunda he pera ho Norte de athe vinte nauios = a outra pera o cabo de Comorim de huma galle e des nauios = outra armada que se chama dos auentureyros que consta de athe vinte nauios esta nam sirue mais que de andar buscando paros dos Mallauares, etc.

* * * * * *

EPISTOLA

POTENTISSIMI, AC INUICTISSIMI EMANUELIS REGIS PORTUGALIE & ALGARBIORUM.

&C. DE VICTORIIS HABITIS IN INDIA & MALACHA. AD. S. IN CHRISTO PARTEM & D'N'M NOSTRUM D'N'M LEONEM. X. PONT. MAXIMUM.

[Woodcut of arms of Portugal ensigned with a crown.]

Anctissimo in christo Patri, ac bea tissimo Dno Dno nostro E. S. additissimus filius Emanuel Dei gratia Rex Portugalliae & Algarbiorum cirta ultrque mare in Affrica Dominus gui nee & conquiste nauigationis ac comertii Ethiopiae, Arabie, Persiae, atque Indiae, humil lima beatorum pedum oscula. Quantum Deo Opt. Max. quantum & tibi gratulari debeamus beatissime Pater, vel ex nuntio quod nostra Indica Classis proxime attulit satis apparet. Quod enim te Pont. Max. te S. Ro. Ecclesiae & Christiano Orbi presidente te sam admiranda in Dei laudem ac gloria' gesta tam ex uoto successerint tua certe laus tua gloria censeri debet, Iure itaque uisum est que in India Dei suffragio ad ipsius cultum spectantia nostris armis modo facta sint ad tuam Sanctitatem, utpote Christiane Reipublice Caput & orthodoxe religionis normam, carptim ac summatim, ne stilum Epistolarum excedamus prescribere, ut pro rerum dignitate cuncta pensari, summoque deo accepta referri ualeant, ac indies sui san ctissimi nominis gliscentem laude' xpianique dogmatis propagationem facile speremus.

Igitur paccata post plures dubii Martis ui ctorias non sine labore & sanguine partas, India relictis in ea opportunis presidiis Al phonsus de

Albiecherque protho capitaneus noster ut iactura', qua' superioribus annis nri fecerant, iniuriaque ulcisceretur auream Cher sonesum, Malacham accole appellante contendit, ea est inter sinum magnum et Gange ticum sita Vrbs mire magnitudinis, utque ui gintiquinque millium & amplius larium cen seatur terra ipsa fecundissima, ac noblissima rum, quas fert India mertium feracissima rum, quas fert India mertium feracissima ce lebratissimum ob id Emporium, ubi non modo uaria aromata & omnigeni odores, sed Auri quoque, Argenti, Margaritarum ac preciosorum lapillorum magna copia affluit : hanc Rex Maurus gubernabat eatenus uires suas Maumetica Secta protendente, caetera Gentiles tenent : Huc itaque cum instructa Classe applicuisset Alphousus Vrbem oppugnare destinat : Quod presentientes Sarraceni bello, se multis Munitionibus, & Armis praeparauerat, sed frusta : nam commisso bis praelio, nostri omnia ad bellum contra catholica fidei hostes opportuna : militum exercitus : armorum ac' comeatus praesidia ultro offerat : praesertim si mare rubrum suo coniunctum dominio ura classis traiiciat : ubi comodissime utriusque uires iungi possent. Haud exiguu' adorande & uere crucis lignum ad nos mit tit uiros uafros & industrios poscens quorum ingenio & artificio a Sulcani territorio & Regione Nilu' deflecti aliqua deuerti posse existimat : aderant tunc apud nostru' prefectum a Narsingue Rego legati, Rege Genti li adeo potentissimo, ut mille & quingentos belligeros Elephantes armatorum equitu' qua draginta millia praeter innumeru' peditu' nu merum suo arbitrio in aciem paruo negotio proferre tantuque agri possidere perhibeatur quantu' semestri itinere uix emettiri possti, huie plures Reges

ac Satrapes parent, quorum no' nulli maritimis oris proximi nobis sunt tri batarii. Apud Alfonsum & Cambaye Regis legatus, terra marique potentissimi, atque in ter Mauros maximi. Item a Zabayo Coe quondam dno, atque a Rege Grosapa, Aliique complures Regum Satrapumque legati a no stro prefecto fedus pacemque ultro exorantes ac sua munera singuli afferentes, in hac etia' quae proxime appulit classe ab Armuzii Re ge legatus cum multis margaritarum rerumque pretiosarum donis, in signum uidelicet fide litatis & recognitionis ad nos uenit : Hunc Regem Alfonsus idem urbe oppuletissima & precipuo emporio Armusio ui capto quin decim millium Seraphinorum, ea est aurea moneta ducatis equiqalens, annuum nobis tributarium effecerat. Inter hos successus Pater Beatissime Diuino suffragante numine per uniuersam Indiam plurimi Spiritus sancti gratia igneque affati depositis getilitiis erroribus indies ad nostram religionem co' uersi ueram dei fedem aguoscunt, obque Deo Opt. Max. summae gratiae sunt merito refe rendae : quod tam procul a nostro orbe, in tam remotis regionibus, quo ne fama quide sui sanctissimi nominis penetrauerat, nostra nunc sadula opera, suam ueram fidem cultumque celebrari, publicari, ac propagari dignatus sit : unde proculdubio diuina fauen te clementia sperandu' est, cum nunc Prefectus noster ad mare rubru' ut eius ostio occupato Sarracenis earum partiu' comertia in terdicat relictis in India oportunis presidiis ingenti classe properat ut ibi coniunctis sub Crucis uexillo presbyteri Ioannis nostrisque uiribus maximum dei obsequium, & Mau metice secte detrimentum & ignominia sequatur, extremaque Orientis ora, quo & sacras Apostolorum uoces, intonuisse compertum

est occidentali nostrae propediem iungatur, & ad ueri dei cultum ipsius suffragante numine traducatur. S. Sedi Apostolicae ac tuae sanctitati ut optimo pastori Christia ni gregis more debitum obsequium & obe dientiam oblatura. Bene ualeat Beatitudo tua, quam pientissimus Deus diu ac felicissime conseruare & augere ad uotum dignetur. Dat. in Vrbe nostra Olisipone. 8. idus Junias Anno Dni. M.D.XIII.

Romae impressum per Jacobum

Mazochium. 9. Augusti.

*   *   *   *

السجل الكامل

لأعمال أفونسو دلبوكيرك
ثاني نائب للملك البرتغالي في الهند

ألّفه وجمع وثائقه من أرشيف لشبونة
والمصادر الأرشيفية الملكية:
ابنه غير الشرعي

ترجمه عن البرتغالية:
والتردي جراي بيرش

ترجمه إلى العربية وقدّم له :
د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الجزء الرابع

السجل الكامل

لأعمال أفونسو دلبوكيرك

ثاني نائب للملك البرتغالي في الهند

مقدمة الترجمة العربية

ليس من هدف هذه المقدّمة للجزء الرابع والأخير لكتاب (السجل الكامل...) أن نضيف جديدا لما ورَد في الكتاب، ولم يكن هذا هو هدف مقدّمات الأجزاء السابقة، فكل ما يُطالعه القارئ في مقدمة هذا الجزء ومقدمات الأجزاء السابقة هي أفكار المؤلف لم نُضف إليها شيئا، لكننا ننبّه القارئ العربي لمسار الأحداث التاريخية حسب ، وطريقة استخدام المؤلف لبعض الألفاظ الاصطلاحية وما إلى ذلك. في مقدَمة هذا الجزء نقدِّم إلْمامة بسيطة بأهم ما ورد به من أفكار تاريخية بعضها جديد، وبعضها يمثل إضافة حقيقية للباحثين في التاريخ السياسي للمنطقة العربية، وللقارئ على سواء، ونبدأ بالعنصر الأول:

*** الشاه إسماعيل والبرتغاليون:**

إذا كان أفونسو دلبوكيرك هو الشخصية المحورية في هذا الكتاب حيث ربط المؤلف المسار التاريخي وحركة الأحداث به، فإن شخصية الشاه إسماعيل تمثل قاسماً مشتركاً في معظم فصول هذا الجزء سواء في الحديث عن الهند أو الخليج العربي أو البحر الأحمر، أو الموقف من الدولة العثمانية، أو الإصرار على تحطيم مصر وسلاطينها المماليك، بل وتدمير الكعبة المشرفة (وقد يكون دلبوكيرك قد أساء الفهم، وقد تكون المسألة مجرّد مناورة من الشاه إسماعيل) بل وخطة الاستيلاء على رفاة النبي صلى الله عليه وسلم للمقايضة به لتسليم القدس للبرتغال (ومرة أخرى من ناحيتنا قد تكون الموافقة على ذلك مجرّد مناورة من الشاه إسماعيل) بل إننا نفهم من هذا الكتاب أنّ أصابع الشاه إسماعيل لم تكن بعيدة عن تفجّر الخلافات بين العثمانيين والمماليك مما يجعل المعركة التي دارت بينهما التي أدت في النهاية إلى سقوط الشام ومصر في أيدي العثمانيين وهو ما تم بعد أقل من عام واحد من موت أفونسو دلبوكيرك، في حاجة إلى دراسة جديدة متأنيّة في ضوء الوثائق البرتغالية التي ساق منها مؤلف هذا الكتاب الكثير، والطريف أن ابن زنبل الرمّال الذي صاحب

قنصوة الغوري سلطان مصر إلى الشام ذكر أن هدف خروج هذا السلطان لم يكن واضحا، وأن من بين ما قيل كسبب لخروجه هو عقد صلح بين الشاه إسماعيل والعثمانيين، لكننا إذا طالعنا بنود الاتفاقات العديدة التي جرت بين هذاالشاه والبرتغاليين نجد من بينها تدمير السلطان الكبير grand sultan أي سلطان المماليك الذي يعمل افونسو دلبوكيرك حسابه ويخشى بأسه لأنه يعوق مشروعه للتوغل في البحر الأحمر (كما تؤكد معظم فصول الكتاب).

والشيء الغريب أن أفونسو دلبوكيرك - فيما يقول ابنه غير الشرعي (مؤلّف هذا الكتاب) كان يعتبر الشاه إسماعيل مُصيبة ألّمت بالإسلام أو على حد تعبيره صاعقة أرسلها الله من السماء لتشتت شمل المسلمين، ونظراً لدقة هذا النص نؤثر إيراده بالإنجليزية كما هو قبل التحدث عن مضمونه، يقول المؤلف في صفحتي ١٨٣ و١٨٤ (فصل ٤٢) مايلي:

when afonso dalboquerque heard all this news he declared (one day when the captqins were conversing with him about the enmity which the xeque ismael had towards the turk and the grand sultan, concerning differences of their law) that the xeque ismael had been a thunderbolt sent down by god upon the sect of mahomet for the preservation of india, although the weaue himself was not awqre of it; for when he was but a youth of eight years of age, and not holding any influential position, or havingany distinction in the kingdom, he had risen up in rebellion, in the year that the admiral' discovered india, and being favoured by the assistance of his unle had gained possession of turcomania, persia, the kingdom of khorassan, camarcand, a city of the tartars, the kingdom of aquilam, and all' lower armenia, and many other provinces of ghe turks and tartars, burning all the moorish mosques, but sparing the christian churches; and doing all this when only eight years old, what would he not have effected when now twenty - four yeqrs old, if god had not ordained that he should have two such powerful enemies as the tuks and the grand sutan of coiro?

and as afonso dalboquerque was a great conqueror, and very successful in hid method of performing great deeds, he wrote many times to the king d. manuel tho concert with all the christian powers that they should be on terms of friendship with the xeaue ismael, for if he were on their side, they would have no diffculty in ruining the power of ghe turk and the grand sultan; and to ask the permission of the pope to send him master workers to make guns for him, for this was the only ghing wanting to enable the xeaue to destroy his enemies. the captain of ghe xeaue ismael, who had now spent several days in ormuz, having come simply for he seke of seeing afonso dalboquerque, begged permission to retun, and afonso dalbquerque made him a present of many very valuble lumps of gold, and commanded his people to show him all the artillery that there wqs in ormuz, and told him to declare to the xeque Ismael that by means of that, and much more in porugal, he would serve him in the name of the king of portugal against his enemies in any way most conveient to him.

إننا نفهم من هذا النص أن أفونسو دلبوكيرك كتب مرّات عديدة للملك البرتغالي د. مانويل أن يتفق مع كل القوى المسيحية على وجوب تكوين علاقة صداقة مع الشاه إسماعيل لأنه إن كان في جانبهم لم يجدوا صعوبة في تدمير العثمانيين وسلطان مصر المملوكي وأن يتم استئذان البابا لإرسال خبراء لصناعة مدافع له. وهناك الكثير من الأفكار مما يجده القارىء في الترجمة الكاملة فليس من هدفنا هنا إعادة ما ورد في فصول الكتاب.

ففي الهند استغل الشاه علاقاته الودودة بالبرتغاليين وراح يُرسل سفراءه دائما لملوك الهند وأمرائها لقبول شعاره his cap وكان أفونسو دلبوكيرك واعياً بأن ذلك يعني رغبته في مدّ نفوذه السياسي، وبالفعل أحبط أفونسو دلبوكيرك محاولته في هرمز دون أن يُجاهر بعداوته، بل وبدون أن يُشعره بما كان ينتويه.

وبعلم البرتغاليين توالت سفاراته للعادل خان الذي أكرم وفادتها لكنه رفض

قبول المذهب، أما سفاراته لملك كمبي (كمبايا) فقد أخفقت وكانت مصحوبة بواقعة بشعة مؤدّاها أن ابن ملك منداو لجأ إلى ملك كمبي لمساعدته في أمور يجد القارىء تفاصيلها في الفصل ١٨ ، فأكرم وفادته وتصادف حضور سفير الشاه إسماعيل، الذي راق له هذا الشاب الوسيم (ابن ملك منداو) فراح يُطنب في الحديث معه والتلطّف إليه وسرعان ما دعاه لمأدبة مسائية ودبّر أن يكون معه على انفراد، ثم أنه أراد به سوءا بمعنى أنه أراد شق قميصه من دُبُر، ولَما أدرك الشاب (ابن ملك منداو) أنه يُريد بَسْطه أي طرحه أرضا (والبَسْط كلمة ذات أصل فصيح انصرف معناها في بعض دول الشرق العربي لهذا الفعل) دافع عن نفسه وارتفع صوته وهتف مناديا رجاله الذين هبوا لنجدته وكادوا يوردون سفير الشاه موارد التهلكة، وحاصر ملك كمبي الشغبَ سريعا، وأنّب السفير بطريقة دبلوماسيّة، ولم يكن الناسُ سعداء بفعلة السفير الذي عمل ملك كمبي على رحيله بالسرعة الممكنة وزوّده بالهدايا، لكن عمّال الميناء لفرط اشمئزازهم من هذا السفير أحدثوا في سفينته عطبا فما كادت تخرج من الميناء حتى توقّفت، لكن ملك كمبي عمل بأقصى سرعة على التخلص من هذا السفير فدبّر له سفينة أخرى، وهكذا رحل.

وقد تكون هذه الروايات مبالغا فيها، لكن السياق العام هو أن الشاه اسماعيل كان يستغل العلاقات الدافئة مع البرتغاليين وحكام الهند لتحقيق مطامح ومطامع خاصّة، ولا نريد أن نقول إن بعض سفرائه حاولوا ذلك أيضا من ناحية أخرى، لكن المؤكد أنّ أفونسو دلبوكيرك لم يقدّم له الاّ ما يحقق أغراضه هو (أي أغراض أفونسو دلبوكيرك) فقد رفض طلبه بأن يكون للفرس ميناء في الهند أو محطة تجارية وكان رفضه حاسما، كما رفض ضمّ هرمز إلى فارس وكان ردّه عمليا وقاطعا.

هذا عن الهند، فإذا ما انتقلنا إلى الخليج العربي، وجدنا الشاه إسماعيل يطلب من أفونسو دلبوكيرك تقسيم الخليج بينهما كما يجد القارىء هذا مبينا في الفصل ٣٤، ونظرا لانشغال أفونسو دلبوكيرك في مشروعات أخرى فقد

وافق على ذلك كما يجد القارئ هذا موضحا في الفصل ٤٠، بل إن أفونسو دلبوكيرك يعتبره تابعا ويخاطبه حاثا إياه على المحافظة على (ما أعطاه) من بلاد (أراض) باسم ملك البرتغال.

فإذا ما انتقلنا إلى البحر الأحمر، وجدنا الشاه إسماعيل يهدّد باجتياح حلب والشام بينما أفونسو دلبوكيرك موجود بأسطوله في البحر الأحمر مما أدّى إلى ارتباك السلطان المملوكي في مصر، ويطالع القارئ تفاصيل ذلك في الفصل الخامس، ويحدثنا الاستاذ بيرش المترجم عن البرتغالية أن السلطان المملوكي كان يخشى أفعال الشاه إسماعيل، وعينُه في الوقت نفسه على البحر الأحمر حيث أفونسو دلبوكيرك.

ومن المفهوم تاريخيا أن الدولة العثمانية منذ سقطت القسطنطينية كان توجّهها العام توجّها غربياً أوربياً أي أن حركة توسّعها كانت في الأساس ناحية الغرب، ولم تستدر الدولة العثمانية للشرق إلاّ دفاعا عن مؤخّرتها التي بدأ الشاه إسماعيل يهددها، فتحول اتجاهها للشرق، وياله من تحوّل!؟ واجتاح العثمانيون ممتلكات الشاه إسماعيل واستولوا على تبريز، لكن السلطان العثماني سمع في هذا الوقت بالذات بتحالف أوربي ضد بلاده، فعاد سريعا.

• التفسير الخرافي للتاريخ:

لقد كانت حملة أفونسو دلبوكيرك على البحر الأحمر حملةً فاشلةً بكل معنى الكلمة ولم يستطع أن يحقّق أيَّ هدف من أهدافه فلا فتح (عدن) كما كان يريد، ولا أقام فيها حصنا كما كان يتطلع وهذا بشهادة نصوص هذا الكتاب الذي بين أيدينا (وقد أفردتُ في هذه المقدمة فقرة لهذا) وكما لم يستطع احتلال مرفأ مجاور لها على الساحل العربي، ولا مقابل لها على السّاحل الأفريقي، وجنحت سفنه أكثر من مرّة، وقضى المرض على كثير من رجاله (انظر الفصل التاسع) ولم يكن موسم الإبحار مناسبا له، بالإضافة إلى الأخبار التي راحت تصل إليه من كل جانب بل ومن الملك البرتغالي نفسه عن أسطول مملوكي مصري في

طريقه إليه، لكل هذه الأسباب، وليس غيرها قرر أفونسو دلبوكيرك التخلّي عن مشروعه في البحر الأحمر ولكن إلى حين، ولم يأت هذا الحين بالنسبة له فقد مات بعد خروجه من البحر الأحمر بقليل (١٦ ديسمبر سنة ١٥١٥) ولم تكن هناك فرصة لتحالف حقيقي مع الشاه إسماعيل الذي كان مشغولاً حتى أذنيه مع العثمانيين الذين ألحقوا به هزيمة منكرة ودخلوا عاصمته تبريز سنة ١٥١٤.

لكن قائداً محنّكا مثل أفونسو دلبوكيرك ما كان ليعترف أمام جنوده ومليكه بهذا الفشل الكبير، فراح يُعطي للأمور طابعاً دينياً غَيْبيًا - وراح ابنه غير الشرعي يردّد لنا ما قاله أبوه. قيل إن حُمْرة مياه البحر الأحمر في بعض المواضع، واصطباغه بلون الدم أثار رعبه، لكن المرشدين المسلمين أكدوا له أنها شُعَبٌ مرجانية تتضح في حالة الجزر، وهذا صحيح، وقيل إن شعاعا من ضوء ظهر والسماء صافية وأن هذا الشعاع كان يشير لمكة المكرمة وقد أعطانا الاستاذ بيرش المترجم من البرتغالية فقال إن هذا الشعاع قد يكون نيزكا أو شهابا أو صاعقة كهربية وهو أمر مألوف، والأهم من ذلك أنه رأى صليبا فوق أرض الحبشة محلقا في السماء فزعم أن هذه إشارة للتوجه إلى الحبشة والتراجع عن قصده بالاتجاه إلى جدّة، لكن القارئ يلاحظ أنه لم يتجه إلى الحبشة كما ادّعى أن هذا الصليب يأمر بذلك ويلاحظ القارئ أن هذا الصليب المزعوم لم تتم رؤيته إلاّ وأفونسو دلبوكيرك في أسوأ أوضاعه: جنوح السفن، وقلة المؤن، ومرض الجنود، وليس أدلّ على توظيف الخرافة لأغراض سياسية أن أفونسو دلبوكيرك كتب مذكّرة بشأن هذا الصليب المزعوم وجعل كل الأسطول يوقّع عليها وأرسلها للملك البرتغالي. إننا إزاء قائد محنّك جبار عركته الأيام، وقبل ذلك رأينا الرحالة فارتيما يزعم أن «الرب» نفسه قد تجلّى (أي ظهر) للبرتغاليين في الهند، [تعالى الله علوا كبيرا]، وعند توقف أفونسو دلبوكيرك أمام عدن، توجه البرتغاليون إلى بوّابة بالذات لمهاجمتها لأنه كانت هناك بشارة من «الروح القدس» بأن فتح عدن سيكون من خلالها ثم اتضح أنها بوّابة مُضلّلة أي وهمية أو خادعة إذ كان وراءها جدار، وظل أفونسو دلبوكيرك - كما يتضح

من فصول هذا الكتاب – حتى نفسه الأخير عازما على العودة إلى البحر الأحمر، والاستيلاء على جدّة، مما يؤكد أن حكاية الصليب هذه حديث خرافة واستثمار للوهم لأغراض سياسية.

* معركة عدن:

رغم أنّ مؤلف الكتاب يسوق لنا هجوم أفونسو دلبوكيرك بأسطوله وجنوده على عدن (١٥١٣) في سياق البطولة، وراح يفصّل لنا بعض المغامرات الفردية التي قام بها بعض البرتغاليين في هذا الهجوم، إلا أن المؤكّد أن البرتغاليين تعرّضوا لهزيمة ساحقة، وانصرفوا من أمام أسوار عدن خاسرين تاركين قتلاهم، ولملموا كثيرا من جرحاهم، والاستاذ بيرش مترجم النص البرتغالي إلى الإنجليزية يؤكد في مقدمته ذلك، ومن المفيد أن نذكر أن الاستاذ بيرش هذا ليس مترجماً عاديا وإنما هو رجل ذو خبرة عسكرية كما أنه عضو في الجمعية الملكية البريطانية لأعالي البحار، ونحن بدورنا نؤكد أنّ هزيمة البرتغاليين هذه أمام أسوار عدن كانت أحد الاسباب الرئيسية لانسحاب أفونسو دلبوكيرك بأسطوله بعد ذلك من البحر الأحمر، وتراجعه عن خطة إرسال تجريدة عسكرية لنبش قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم، للمساومة على رفاته الطاهر لتسليم المسلمين مدينة القدس للملك البرتغالي.

إن هذه الهزيمة بالإضافة إلى الأخبار التي وصلت لأفونسو دلبوكيرك من الملك البرتغالي عن أسطول مملوكي مصري على وشك الإبحار من السويس لمواجهته، هي السبب الحقيقي لخروجه من البحر الأحمر، وليس الصليب الذي ادّعى انه رآه فوق أرض الحبشة، كما بيَّنا في أكثر من سياق في هذه المقدمة، ورغم الأهمية الكبرى لهذا الانتصار العدني فإن المراجع العربية – المتوفرة بين أيدينا على الأقل – لا تعطي هذا الانتصار ما هو جدير به من حفاوة وتفصيل. وليس من هدفنا هنا تقديم دراسة مفصلة عن هذا الأمر، فهو متروك للباحثين والدارسين، لكنني كنت مضطراً للرجوع إلى بعض هذه المصادر لتحقيق

الأسماء والمواضع وتدقيقها، وفيما يلي ما ورد في كتاب (الفَضْل المزيد على بُغية المستفيد في أخبار زبيد) لابن الديبع الشيبِ الزبيدي * (٨٦٦ - ٩٤٤هـ):

«... وفي الشهر المذكور [1]، وصل العلم بقدوم ثمانية عشر مركباً إلى بندر عدن، فيها جمع عظيم من الإفرنج، فجهز مولانا السلطان عسكراً إلى الثغر المحروس، وأمر بالتحفظ والتحرز، فامتثل أمره الشريف، وأمر بالقنوت عليهم في الصلوات الخمس بمسجد الأشاعر والجامع، وفي خطبة الجمعة يوم الجمعة، وكان وصولهم إلى بندر عدن ليلة الجمعة، السابع عشر من المحرم، ولم يعلم أحد بوصولهم. فلما كان الصباح رآهم أصحاب المراكب وأهل عدن في البندر، فأمر الأمير أهل عدن بالتغافل عنهم، والاشتغال بتحصين البلد من داخلها والأخذ بالحزم والتدبير، فأخذ الإفرنج شيئاً من حمل المراكب، فلم يجبهم أحد، فخرجوا إلى الساحل بسلالم قد استعملوها واستصحبوها فوق الأربعين، ونصبوها على أقصر جانب من سور مدينة عدن، فطلعوا عليهم إلى السور، ودخل بعضهم المدينة، فأمر الأمير أهل عدن بالخروج لهم من باب مكسور فخرجوا وجاوزوا عليهم السلالم، وقتلوا منهم جمعاً كثيراً، وأسروا أربعة نفر فانهزم الإفرنج، ورجعوا إلى أماكنهم خائبين، وارتفعوا عن المكان الذي كانوا قد نزلوا به رأي العين، وتحققوا أنهم لا قدرة لهم على المدينة، فأحرقوا الخشب التي كانت في البندر، وكانت فوق الأربعين مركبا ليأمنوا إغارتها بعدهم، ثم ساروا إلى باب المندب ثم إلى المخاء ومروا بها إلى البقعة والمتينة، ولم يدخلوا شيئا من هذه البنادر إذ كان اهلها وعساكر السلطان يتراءون لهم (عليها) بالسلاح وعدة الحرب.

ثم ساروا إلى الحديدة، وحاولوا دخولها فلم يقدروا ثم ساروا إلى جزيرة كمران فدخلوها في أوائل شهر صفر، ونهبوا ما فيها، وقتلوا من وجدوه فيها

* الكويت، المجلس الوطني للثقافة، السلسلة التراثية، ١٩٨٢

(١) محرم ٩١٩ هـ

من الدولة ومنهم، الشريف محمد بن عبدالعزيز بن علي بن سفيان، وابن أحمد الغصين وغيرهم ثم حاولوا دخول الحورة فلما نزلوا إليها وجدوا عساكر السلطان ترقبهم بها، فانهزموا، ورجعوا إلى البحر خائبين.

وفي يوم الإثنين، الخامس من شهر صفر، اجتمع طلبة العلم الشريف لقراءة صحيح البخاري بمسجد الأشاعر، بإشارة مولانا السلطان بسبب الدعاء على طائفة الإفرنج الواصلين إلى مدينة عدن وغيرها. ثم قرىء في يوم الثلاثاء، بمسجد الجامع. وفي يوم الأربعاء بالمدرسة المنصورية الوهابية بإشارة مولانا السلطان، وحضرت جموع كثيرة بسبب ذلك.

واستمرت القراءة على الإفرنج بعد صلاة الجمعة، بالجامع الظافري بزبيد من يوم الجمعة، تاسع الشهر المذكور، إلى أن عزموا من كمران، فكان يقرأ في كل جمعة فوق العشرين ختمة، ويتبع بقراءة سورة يس أربع مرات، وسورة تبارك الملك، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والدعاء عقب ذلك بتشتيتهم وتفريقهم وتمزيقهم وتغريقهم.

وأقام الإفرنج بكمران من أوائل شهر صفر إلى نصف جمادى الأول، وأخربوها، وطمّوا آبارها، وعفوا آثارها. ثم رجعوا إلى مدينة عدن فوصلوها يوم الجمعة، الثامن عشر من الشهر المذكور، وطرحوا مراكبهم في الأماكن التي طرحوها فيها أول مرّة، وعدتها ستة عشر مركباً، وتوجه المركبان الباقيان من كمران إلى زيلع فأحرقوا ما في بندرها من الخشب، وكانت نحو عشرة المراكب، ثم لحقوا أصحابهم إلى بندر عدن، فاجتمعوا في بندرها يوم الخميس، رابع عشر من الشهر، وكأن لأصحابهن بقدومهم من زيلع فرج عظيم، وضربوا المدافع، ونشروا الأعلام، وكان الإفرنج الواصلون قبلهم فتحوا الحرب على مدينة عدن ولم يقعوا على طائل لتحصين البلاد، وخبرة أهل عدن بحربهم من الفعلة الأولى، فضربوا المدافع، على عدن، فصدعوا بعض البيوت وقتلوا جماعة في الأسواق بالمدافع، التي كانوا يضربونها. ولمّا وصل أصحابهم من زيلع استعدوا للحرب وأحرقوا ما جاورهم من المراكب التي بالساحل، وكانت قدر عشرين

مركباً، ثم نزلوا إلى الساحل ليلاً في السنابيق والبحر حينئذ عار، وقد استعد أهل عدن بسلاحهم، وترتبوا في الساحل، فنزلوا من سنبقهم إلى العراء، رجالة مستعدين للحرب بالسلاح وغيره، وقد كان أهل جبل صيرة لما رأوهم متأهبين للنزول أعلموا أهل عدن بذلك، فلما نزلوا الساحل ثار عليهم المسلمون من كل جانب، وضربت المدافع من البلد ومن مراكبهم، وكانت ضجة عظيمة، وفتنة قوية، فنصر الله المسلمين عليهم وقتل مقدمهم الكبير وسبعة رجال منهم وجرح منهم جمع، وامسك المسلمون. عن لحاقهم إلى البحر خوفاً من امتلاء البحر بعد أن حازوا ثلاثة من قتلى الإفرنج، فحزوا رؤوسهم وأخذوا سلبهم، ورجع الافرنج بالجرحى منهم إلى مراكبهم فمات أكثرهم.

فلما كان في اليوم الثاني، ألزمهم المقدم بالنزول، فلم يفعلوا فخوفهم من البردعان فلم يؤثر فيهم ذلك، وانقطع رجاهم عن المدينة، وعن تحريك باقي الخشب الذي في الساحل، وكانت مدافع المسلمين تتلف لهم كل يوم برشتين أو ثلاثاً، فارتفعوا بعد ذلك إلى حيث لا تصلهم مدافع المسلمين، وضربت عليهم العرادة من صيرة، فاضرّت بهم ضرراً عظيماً، واخرجتهم من البندر كرهاً، فأقاموا بعد ذلك ثلاثة أيام في عيد لهم كما قيل. ثم توجهوا طريق الهند مكسورين، مخذولين، مذمومين، مدحورين، أول يوم من شهر جمادي الآخرة، لا قابلهم الله بخير ولا كتب لهم سلاة».

ورواية الزبيدي في جوهرها لا تختلف عما ورد في كتاب «السجل الكامل..» الذي بين أيدينا، لكن هذا الأخير أكثر تفصيلا وأكثر اهتماما بالوقائع الحربية، بينما الزبيدي حدثنا كثيراً نسبياً عن الدعاء عليهم في صلاة الجمعة، وقراءة صحيح البخاري والختمة وما إلى ذلك، وهذا أمر طيب لكن الذي لاشك فيه أن أسوار عدن المنيعة، ومدافع صيرة، والخطة المحكمة كان لها الدور الأساسي، مع عدم إغفال لطف الله سبحانه بطبيعة الحال، فالسيف والسور والمدفع والخطّه أصدَق أنباءً من الكُتُبِ، ففيها غالبا الحدُّ بين الجِدِّ واللعب.

وقد تعرض الزبيدي أيضا لوقائع البرتغاليين خارج عدن باختصار شديد،

بينما كنا نجد الرجل يفصّل القول في أمور أقل أهمية من ذلك بكثير، فهو يحدثنا في فقرات قصار عن البرتغاليين في هرمز والهند كالآتي:

«.. وفي هذه السنة [1] ظهرت مراكب الأفرنج في البحر بطريق الهند، وهرموز وتلك النواحي، وأخذوا نحواً من سبعة مراكب وقتلوا أهلها قتلاً ذريعاً، وأخذوا أموالهم جميعا..».

وفي موضع آخر يقول:

«وفي هذه السنة [2]، قويت شوكة المفسدين، وقطاع طرق المسلمين في البحر بطريق الهند ، وكان أعظمهم ضرراً طائفة الافرنج، فإنهم فعلوا بالمسلمين الأفاعيل وأخذوا كل سفينة غصباً، واستحلوا دماء المسلمين، وأموالهم ونساءهم وأولادهم، وفعلوا المنكر عياناً، واستمروا على ذلك زماناً فبعث أهل مدينة عدن الخبر إلى مولانا السلطان، فورد أمره الشريف بالتجهيز عليهم، وبذل الأموال العظيمة لمن يتوجه إليهم، فتوجه إليهم من مدينة عدن، اربعة عشر مركباً ما بين كبير وصغير، وفيها من المسلمين فوق ستمائة وتوجه معهم الفقيه اسماعيل الحرداني، والشيخ عثمان العمودي وجماعة من طلبة العلم للجهاد في سبيل الله وكان خروجهم من مدينة عدن في البحر يوم الخميس، السابع والعشرين من شهر شوال، واستمر القنوت عليهم في الصلوات الخمس، وفي الخطبة يوم الجمعة، بمدينة زبيد وعدن وغيرها». ولايذكر أكثر من ذلك.

*** معركة جالديران (كلديران):**

معركة أخرى أسهمت بشكل أو بآخر في إحباط التحالف بين أفونسو دلبوكيرك والبرتغاليين عامة من ناحية والشاه إسماعيل من ناحية أخرى، وأسهمت بالتالي في إفشال مشروع البحر الأحمر وضرب الأماكن المقدسة، ونعني بها معركة جالديران أوتشالديران (كلديران) التي هُزم فيها الشاه

---

(1) ٩٠٨ هـ

(2) ٩١٢ هـ

إسماعيل الصفوي هزيمة كبرى على يد القوات العثمانية التي لاحقته حتى دخلت عاصمته تبريز (١٥١٤) وهنا نجد قائد الشاه إسماعيل يقدّم لأفونسو دلبوكيرك تقريراً مفصلاً وصادقاً عن هذه المعركة مما أثار أسى أفونسو دلبوكيرك الذي كان كما أسلفنا القول يحضُّ ملك البرتغال والقوى الأوربية على التحالف مع الشاه إسماعيل بل وتقديم خبراء أوربيين لصناعة المدافع له، ولا تختلف رواية هذا الكتاب الذي بين أيدينا عن رواية المصادر العثمانية عن مجريات أحداث هذه المعركة إلاّ في أمر واحد مهم، وهو أن العثمانيين لم يتركوا تبريز الاّ بعد أن وصلتهم أخبار بتحالف القوى المسيحية الأوربية ضدهم لمحاصرة إسطنبول (القسطنطينية) مما يؤكد أن مراسلات أفونسو دلبوكيرك لملك البرتغال والقوى الأوروبية لم تكن بغير نتيجة، لكن القوى العثمانية التي كانت في ذلك الوقت تقتحم شرق أوربا لم تكن بذلك الهوان الذي يسمح للأوربيين بتنفيذ مشروعهم. ونورد فيما يلي نص محمد فريد بك في كتابه (الدولة العلية العثمانية) عن هذه المعركة المهمّة مع التعليقات المهمة التي أوردها المحّقق[1]، وهي كما أسلفنا لا تختلف عن رواية قائد الشاه إسماعيل الاّ في الجزئية التي أوردناها آنفا:

«محاربة العجم ودخول العثمانيين مدينة تبريز:

ولما عصى السلطان سليم واخوته والدهم السلطان بايزيد الثاني ساعد الشاه إسماعيل الأمير أحمد على والده ثم على أخيه من بعده وقبل من فرّ من أولاده عنده، وزيادة على ذلك أرسل وفداً إلى سلطان مصر يطلب منه التحالف لإيقاف سير الدولة العثمانية مبيناً له أنه إن لم يتفقا حاربت الدولة كلاً منهما على حدته وقهرته وسلبت أملاكه.

وبعد ذلك أعلن السلطان سليم الشاه إسماعيل بالحرب وسافر بجيوشه من مدينة أدرنه في ٢٢ محرم سنة ٩٢٠ (١٩ مارس سنة ١٥١٤) وفي أثناء مسيره

---

(١) د. إحسان حقي

تبادل مع الشاه إسماعيل رسائل مفعمة بالسباب. وسار الجيش العثماني تحت قيادة السلطان سليم نفسه كما جرت به العادة قاصداً مدينة تبريز عاصمة العجم وكانت الجيوش الفارسية تتقهقر أمامه خدعة منهم لينهك التعب الجيوش العثمانية فينقضوا عليهم و استمروا في تقهقرهم إلى أرباض تبريز فوقع القتال بين الجيشين في وادي جال دران [١] في ٢ رجب سنة ٩٢٠هـ [٢] (٢٤ اغسطس سنة ١٥١٤) فانتصرت الجيوش العثمانية نصراً مبيناً لمساعدة الطوبجية لها وفرّ الشاه. بما بقي من جيوشه ووقع كثير من قواده في الأسر وأسرت أيضاً إحدى زوجاته ولم يقبل السلطان أن يردّها لزوجها بل زوجها لأحد كاتبي يده انتقاماً من الشاه. وفتحت المدينة أبوابها ودخلها السلطان منصور في يوم ١٤ رجب سنة ٩٢٠ (٤ سبتمبر سنة ١٥١٤) واستولى على خزائن الشاه وأرسلها إلى القسطنطينية، وكذلك أرسل إليها أربعين شخصاً من أمهر صناع هذه المدينة الأمر الذي يدل على عدم إغفاله تقدّم الصنائع في أثناء اشتغاله بالحروب. وبعد أن استراح ثمانية أيام قام بجيوشه وأخلى مدينة تبريز لعدم وجود المؤونة الكافية لجيوشه بها مقتفياً أثر الشاه إسماعيل حتى وصل إلى شاطىء نهر الرس [٣] وعندها امتنع الإنكشارية عن التقدم لاشتداد البرد وعدم وجود الملابس والمؤونة اللازمة لهم فقفل راجعاً إلى مدينة بآسيا الصغرى للاستراحة زمن الشتاء والاستعداد للحرب في أوائل الربيع، ومر في عودته من بلاد أرمينيا لكنه لم يفتحها لعدم وجود الوقت الكافي لذلك.

وعندما أقبل الربيع بنضارته رجع السلطان إلى بلاد العجم ففتح قلعة كوماش الشهيرة وإمارة ذي القدر سنة ١٥١٥ [٤] ، ثم رجع إلى القسطنطينية تاركاً قوّاده لإتمام فتح الولايات الفارسية الشرقية. ولما وصل إليها أمر بقتل عدد عظيم من ضباط الإنكشارية الذين كانوا سبب الامتناع عن التقدم في بلاد

---

(١) جالدران وليس جال دران وهناك مدينة بهذا الاسم وتقع في شرق الأناضول إلى الجنوب من مدينة قارص.

(٢) ٢ رجب سنة ٩٢٠هـ - هو (٢٣ آب - أغسطس ١٥١٤م).

(٣) هو نهر اراس aras وهو ينبع من جنوب شرق تركيا ويمر بشمال ايران ثم الاتحاد السوفييتي ويصبُ في بحر الخزر

(٤) إمارة ذي القدر أو ذي القدرية: هي إمارة صغيرة تقع في شرق الأناضول الى الجنوب إذ تبدأ حدودها من غرب مدينة مرسين وتذهب بخط صاعد ومائل فتمر من أمام قيصري وتنتهي خلف ملاطيه ثم تنحدر حتى تصل الى البحر الأبيض المتوسط مشتملة على خليج الإسكندرونة.

فارس، كما سبق الذكر، خشية من امتداد الفساد وعدم الإطاعة في الجيوش وأمر بقتل قاضي عسكر هذه الفئة واسمه جعفر جلبي لأنه كان من أكبر المحركين لهذا الامتناع. وخوفاً من حصول مثل ذلك في المستقبل جعل لنفسه حق تعيين قائدهم العام ولم يكن من بينهم ليكون له بذلك السيطرة عليهم وكان النظام السابق يقضي بتعيينه من أقدم ضباط الإنكشارية.

وبعد عودة السلطان إلى القسطنطينية فتحت الجيوش العثمانية مدائن ماردين [١] وأورفة [٢] والرقة [٣] والموصل [٤] وبذا تم فتح اقليم ديار بكر وأطاعت قبائل الكرد كافة بدون كثير عناء بشرط بقائهم تحت حكم رؤساء قبائلهم.».

ولاشك أن انتصار العثمانيين عل الشاه إسماعيل قد خفّت كثيرا من ضغطه على الخليج العربي الذي كان يسعى لاقتسامه مع أفونسو دلبوكيرك، وكان هذا الأخير متيقظاً لذلك، وواعياً، وحريصاً على ألاّ تكون العلاقات الدافئة مع الشاه إسماعيل على حساب مصالح البرتغال، كما كان واعيا - كما يتضح من ثنايا هذا الكتاب - بأن الشاه ينشر أفكاره الدينية مستغلاً صداقته بالبرتغاليين، وبأن نشر هذه الأفكار يعني بالتالي امتداد نفوذه السياسي، فقبول شعار الشاه his cap يعني بشكل أو بآخر قبول هيمنته السياسيّة، كما أن هيمنته السياسية تعني بالتالي نشر شعاره his cap وكان أفونسو دلبوكيرك كاستعماري عريق حريصاً على ألاّ يعطيه إلاّ بِقَدَرْ، وكل كلمة في هذا الكتاب تؤكد ذلك لمن يقرأه بتمعن، فليس - إذن - من مبرّر لتكراره هنا.

*** عن أسماء المواضع والأشخاص:**

وردت في هذا الجزء أسماء مواضع كثيرة بصيغ لم تَعُد مألوفة في خرائط هذه الأيام، فكان من الضروري أن نركز على الأسماء المتداولة حالياً مع عدم

---

(١) ماردين: بلدة تركية في جنوب شرق الأناطول قريبة من الحدود السورية.

(٢) أورفه: بلدة تركية في جنوب شرق الأناطول قريبة من الحدود السورية.

(٣) الرقة: ضبطها ياقوت بفتح الراء والقاف المشددة، بلدة سورية في الشمال الشرقي منها.

(٤) الموصل: ضبطها ياقوت بفتح الميم وكسر الصاد، مدينة عراقية في شمال غرب البلاد.

إغفال الإشارة إلى الأشكال الأخرى للاسم، فالخرائط الآن تشير إلى جزيرة بريم في مدخل البحر الأحمر، لكن هذا ليس اسمها الفصيح الأصلي، يقول الأب انستاس ماري الكرملي العراقي وهو لغوي ضليع في تعليقاته على كتاب (بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك أو إمام) للقاضي حسين القرشي ما ننقله للفائدة كالتالي:

« جزيرة ميوق (بريم) perim

1 – توطئة

مما منيت به العربية في العصر الماضي وفي هذا العصر، ان العرب أخذوا ويأخذون بعض أعلام رجالهم ومدنهم من الإفرنج، مع أنها شرقية الأصل، كالعبرية مثلاً، أو العربية، أو الارمية. فأخذُ المعربين هذه الأعلام من ابناء الغرب محرّفة، أو مصحّفة، لا يرضى به غيور على لغته أو قوميته. فانك ترى بعضهم يقول: (ميخائيل) والصحيح (ميكائيل). والكلمة مركبة من العبرية من (مِي، أي: مَن) و(ك، مثل ك العربية، بمعنى مثل) و(إيل أو إل أي الله) ومفاد الكلمة: منْ مثل الله. فلا أعلم سبب قول بعضهم (ميخائيل) إلا لأنهم نقلوا هذا الاسم الشرقي الأصل من اللغة اليونانية.

ومما مسخوه أيضا: (أليشباع) اسم والدة يوحنا المعمدان، وامرأة زكريا الكاهن الأكبر، فانهم يقولون فيه (اليصابات)، (إليزابيث) لخلو لغة الغربيين من العين. ولا جرم أن الرجوع الى الأصل الشرقي هو ما يسلم به كل عاقل.

وأدهى من هذا: انهم تلقوا عن الإفرنج بعض أسماء المدن أو المواضع العربية، وتركوا الأصل، إما لجهلهم إياه بتاتاً، وإما تعصبا للشعوبية. والالفاظ من هذا القبيل كثيرة، وهنا لا أريد أن أتعرض إلا للفظ واحد هو (ميون) [1].

فان المعاصرين سموها ظلما بريم، جرياً على ما ينطق بها الإفرنج، والعرب لا تعرف هذا الاسم.

---

(١) ميون بفتح الميم وتشديد الياء المثناة التحتية المضمونة، يليها ولو ساكنة فنون والعامة تقول: ميوم بميم في الآخر في مكان النون، وأخرون يقولون مهوم بهاء بين الميم والواو ويميم في الاخر.

اما الكلمة الفصحى فهي الميون، كما نبهت عليها جريدة (القبلة) الرسمية في عددها التاسع والثمانين، وكانت تصدر في مكة في أيام الملك حسين.

٢ – موقع ميون واسمها عند الإفرنج والأقدمين

مَيُّون وزان قيوم، جزيرة من جزر البحر الأحمر، واقعة في مدخل مضيق باب المندب وتشرف عليه، وهي في الدرجة ٤١ والدقيقة ٢ من الطول شرقاً، وفي الدرجة ١٢ والدقيقة ٤٠، من العرض شمالاً، وعلى أربعة كيلو مترات غربا من ساحل جزيرة العرب.

وذكرها صاحب دائرة المعارف في مادة (بريم) ولم يشر الى اسمها عند العرب. وكان من المنتظر ان يرى الناطقون بالضاد اسماء بلادهم على ما يتلفظون بها، لا على ما ينطق بها الأجانب، فسامحه الله على هذه الهفوة!.

ويظن علماء الإفرنج أن هذه الجزيرة هي التي كان يسميها الأقدمون «جزيرة ديودورس» insula diodori، على ان الأمر مر تاب فيه. وأما قول صاحب دائرة المعارف: «وكانت بريم تدعى قدميا ديودوري» ففيه خطأ أن: الأول انه ذكر الأمر على وجه يشم منه رائحة التأكيد، والثاني انه قال ديودوري، والصواب كما ذكرنا.

وأما دائرة معارف محمد فريد وجدي، فلم تزد الغلطة إلا رسوخا في الافكار، فقد قال في مادة بريم: «جزيرة حربية محصنة في مضيق باب المندب، آخر البحر الأحمر، تابعة لإنكلترا عدد أهلها ١٤٩ نسمة. أ.هـ. ولم يذكر في ميون شيئاً.

٣ – شيء من تاريخها وحالتها

كانت ميون في بدء أمرها راجعة الى إمام صنعاء، وصنعاء قاعدة اليمن أو حاضرتها، إلا ان الإنكليز احتلوها عنوة، في سنة ١٨٥٧ وهي تقسم المضيق قسمين غير متساويين.

والذي زاد شأنها فتح ترعة السويس، فانها اصبحت تشرف على البحرين: البحر العربي أو بحر عمان، والبحر الأحمر، وغدت في أيدي البريطانيين مفتاحا

ذا بابين جبليين، أو سيفاً ذا حدّين مرهفين.

والذي يعبر من معبري المضيق هو الأصغر المجاور لبلاد العرب وهو الوحيد الذي يختلف اليه أصحاب البواخر البحرية، أما الثاني، فانه – وان كان أوسع وأعرض من الأول – صعب التجوال فيه لما هناك من الجزر الاطميةً المحتد، وتعرف بالإخوان الثمانية، وهي مبثوثة في انحائه بث الجراد في الأرض.

وطولها من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي تسعة كيلومترات، في عرض خمسة و علوها عن البحر ٧٥ متراً في جزئها الاعلى. وقد بنى الإنكليز على هذه القمة مناراً. والجزيرة بيضية الشكل في جلستها، ومخروطة مقطوعة في قوامها. وكل ما يرى فيها يدفع ناظرها الى القول بانها كانت في سابق العهد أطمة (بركاناً). ويتألف جرمها كله من صخرة مغشاة بقشرة رقيقة من الرمل. تكاد لا تكون قشرة. وليس في الجزيرة ماء عذب، ولا حطب، ولا خشب.

وجميع الظواهر تدل على أن ميون بقيت بدون سكان مدة، الى ان حملت دواعي سياسة الإنكليز، على اتخاذها معقلاً لهم، ولمنافعهم التجارية، ولاسيما لمنافعهم الادارية.

ولم يتكلم الناس عليها إلا في أواخر القرن المنصرم. ولما خافت إنكلترة ان يفلت بونابرت من ديار مصر الى ربوع الهند، أو أن يفعل الأفاعيل في البحر الأحمر، بعثت من أبنائها من يحتلها. ولم يدم هذا الاحتلال سوى عامين، وفي أثنائهما أسست فيها مبادىء قلاع، وحصون، وحفرت صهاريج لشرب الحامية، وما كاد الخطر يدبر حتى غادرها البريطانيون، لما كانت تكلفهم من المبالغ الطائلة.

وفي سنة ١٨٥٥ نهب مركب إنجليزي في ساحل بربرة، ولم يستطع البريطانيون أن يحصلوا من رؤساء القبائل على ما يرضيهم، فاضطروا الى احتلال ميون ثانية احتلالاً مع العزم على انهم يعدلون عنه. فركزت جيوش (شركة الهند الشرقية) العلم البريطاني، في ١٤ شباط من سنة ١٨٥٩، ومنذ ذاك الحين غيروا تلك الصخرة وجعلوها قلعة هائلة، تشرف على طريق الهند.

ففيها حامية عدد عسكرها الهندي ٢٠٠. ومثل هذا القدر أيضا عملة من العرب، وهم لا ينقطعون عن النؤوب ليدفعوا عنها كل وخامة، ويتقدموا في هذه الأرض من البحر.

وميناء ميون ينشأ من قرنين كأنهما قرنا هلال جبليّ عند المدخل المقابل لجهة بلاد الحبش. الواحد اسمه الميون، وبه عرفت الجزيرة، والآخر اسمه المنهال، وزان منِقَاد، وسمي كذلك لأن هذا الجانب من هذه الجزيرة لا يتماسك انهياراً، بخلاف ميون، فانه أثبت صلابة. والمرسى حسن لا تفعل فيه الرياح، وإن اشتدت. ويمكنه أن يسع سفناً كباراً فتكون في حمى حريز، وتحميه مدافع الحصن الذي يشرف على الجزيرة كلها، وعلى المعبر الضيق.

وزيادة على ذلك: اذا كان المركب لا يدنو من الساحل دنواً يمكن المسافر من النزول الى البرّ، فلابد من التقرب من الارض تقرباً عظيماً بلا أدنى خطر، وان كانت السفن تغور في الماء غؤُوراً بعيدا. والمرسى حسن، وهو عبارة عن بقعة عظيمة رملية، وبازائه سوق واسعة، فيها فُرس مولودون في الهند، وهنود، وأرمن، وهم يقدمون الفحم اللازم للمراكب أياً كان قدرها وفي سائر الأسواق ترى جميع البياعات من أجنبية ووطنية، مما يحتاج اليه الشرقيون، والإفرنج في السفر. وفي إحدى الأسواق خان حسن الإدارة، نظيف الحجر، يذهب إليه بعض المسافرين اذاما مرّوا بالجزيرة، وأرادوا الوقوف فيها للاستراحة. والقلعة التي بناها الإنكليز، واقعة على اليسار، على ساحل البحر الأحمر، وفي مهيبة المنظر. وقد اقيم هناك مسنيات، وعرِم، وطرق، منها مطوقة لها، ومنها شاقة لها، من أعلى إلى أسفل، وهناك منار بني في سنة ١٨٦٠م.

ويعوز هذه الجزيرة المرافق اللازمة، لتقوم بما ينتدب اليه، كل موقع تجاري. إذ ليس لها - على ما أشرنا اليه فويق هذا - ماء عذب، ولا زرع، ولا ضرع، ولقد اصبحت مكروهة، لأنها تطلب حاجياتها وطعامها من (عدن)، والماء من (تجورة)، مع ان هناك آلة مقطرة، وقد أقيمت في محل النزول إلى الجزيرة، أي عند أسفل القلعة، الا أنّ لها حسنة تنسي جميع ما فيها من المساوئ، وهي:

أنها قائمة على طريقة الهند، وقد اصبحت غُصّة في حلق البحر. وقد مررتُ بها مراراً عديدة وآخر مرة كانت في ٢٩ تشرين الثاني من السنة الماضية (١٩٢١) فلما وصلنا إليها، ذكر لي أحد ضباط المركب هذه الحكاية، وانا أترك العهدة عليه، قال:

في سنة ١٧٩٩، واجه أحد ربابنة البحر من الانكليز، ربّاناً فرنسياً في عدن، ولم تكن هذه يومئذ للإنكليز، فقال البريطاني للفرنسي:

– الى أين المسير، أيها المستر، الصديق الحميم، والزميل الفاضل؟

– الى جزيرة صغيرة قريبة من باب المندب، وهي شجاً في حلق البحر الأحمر وقد بُلغت ان احتلها باسم حكومتي.

– حسنا تعمل! وهل أنت متأكد انها خالية من كل أنس؟

– نعم، ليس فيها أحد.

– لعلك واهم، فما عسى أن يكون اسمها؟

– بريم.

– فاذا كنت متحققا امرك، فما عليّ إلا أن اشجعك في سعيك المشكور! ثم عاد كل واحد إلى مركبه، وكان قد علم الربان الإنجليزي ساعة إقلاع المركب الفرنسي من (عدن أبين)، فسبقه البريطاني إلى الجزيرة بعدة ساعات.

لما وصل الربان الفرنسيإلى ميون، رأى في أعلاها العلم البريطاني يخفق، فسقط في يده ولات ساعة مندم!

(منقولة عن: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (٢[١٩٢٢] ص٨٤ – ٨٧) بتصرف قليل). فهذا الخُرِيص إذن هو أول محتلات الأوربيين في أنحاء اليمن».

ووجدت في كشّافات هذا الباحث نفسه ذكر لجبل زكور zukur لكنه في الأطالس المتداولة زقر، والجزيرة التي هو فيها جزيرة زقر، ففضلت المتداول المألوف مع عدم اغفال الإشارة لغير ذلك. ولم يكن من المستطاب أن نطلق لفظ بارم barem على جزر البحرين المعروفة في الخليج العربي، وقد وقع الاستاذ بيرش المترجم من البرتغالية في خطأ فظن أنّ tauriz هي تورى وحدد موقعها

على الخليج، بينما هي تبريز المعروفة التي لم نشأ تشكيلها بكسر التاء كما فعل ياقوت، لكنني أنوّه عن كل هذا في هذا المقام.

والله من وراء القصد.

مقدمة الترجمة الانجليزية

olhai que ledus vao per varias vias, qunaes rompentes leoens, e bravos touros, dando os corpos a fomes, e vigias, a ferro, a fogo, a settas, e pilouros, a quentes regioens, a plagas frias, a golpeb de idolatras, e de mouos, a perigos incoguitos do mundo, a naufragios, a peixes, ao profundo.

can. lus, x, 147.

هذا هو الجزء الرابع والأخير للترجمة الكاملة للسِّجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك كما كتبه ابنه. وهذا الجزءُ بالإضافة للأجزاء السابقة يزيدُ من شغفنا بمتابعة أعمال هذاا لبطل، وقد يكونُ من الملائم أنْ نوردَ إلْمامةً مُختصرةً بالأحداثِ المهمة الواردة في هذا الجزء. والصورة التي يراها القارىء في مواجهة صفحة العنوان هي صورة مصغَّرة فوتوغرافيا طبق الأصل من كتاب كوريا lendas da indiai وردت في الموضع الذي يُعالج فيه هذه الفترة من تاريخ البرتغاليين في الهند، تلك الفترة التي كانت فيها السلطة البرتغالية (اللوزيتانية lusitanian) موجودة هناك بشكل عملي بفضل هذا الرجل العظيم (يقصد أفونسو دلبوكيرك). وقيمة هذه الصورة - باعتبارها معاصرة - كبيرة، ويمكن مقارنتها بالصور المُستقاة من مصادر أخرى والتي أوْردناها في ترجمات الأجزاء السابقة.

بعد استقرار الأمور في جوا (كَوا) وتوْلية أمرها لبيرو ماسكار ينهاس pero mascarenhas، أبْحر أفونسو دلبوكيرك في السابع من فبراير سنة ١٥١٣ بأسطول من عشرين سفينة على مُتونها ألف وسبعمائة برتغالي وثمانمائة مقاتل من أهل البلاد natives، للتوجّه إلى عدن بناءً على تعليمات ملك البرتغال،

للاستيلاء عليها لأهميَّتها العسكريَّة والاستراتيجية، وكان أفونسو دلبوكيرك على وَعْي كامل بهذه الأهميَّة. وقد وصل إلى سقطرى دون صُعوبات، وبينما كان إزاء سواحلها استولى على سفينة من شول* chaul وأجبرها على مصاحبة الأسطول البرتغالي حتى يمنعَ مَنْ فيها من نقلِ أخبار وصوله على رأس قوة حربية إلى مياه شبه الجزيرة العربية. وفي الطريق ظهرَ خلافٌ في الرأي حول طريقة تنفيذ الهجوم المرتقب على عدن، فكان هناك رأي بضرورة الدخول في مفاوضات مع حكّام عدن قبل الهجوم، وكان هناك رأي آخر يؤكّد ضرورة الهجوم الفَوْري والاستيلاء على المدينة، وكان أفونسو دلبوكيرك مع هذا الرأي الأخير الذي حظي أخيرا بالموافقة العامّة. وعندما أصبح الأسطولُ على مرأى من جزيرة عبدالكوري abedalcuria واصل الأسطولُ إبحاره مُساحلا (مُبحرا إزاء السّاحل) حتى قُرْب جزيرة ميت ** Meyet وعَبَر مدخل مضايق البحر الأحمر وأصبح على مرأى من عدن عند غروب الشمس، وليتجنَّب خدْعة ماكرة جرى التخطيطُ لها مُسبقًا لتدمير الأسطول توجَّه للدخول في المرفأ وجرت اتصالات مع الأمير مرجان MIRA MERJAO والي عدن الذي لم يتأخرٌ في اكتشاف نوايا أفونسو دلبوكيرك رغم ادّعاء هذا الأخير أنَّه يقودُ حملةً إلى السويس. وفي اليوم التَّالي وهو يوم عيد الفِصح عند الكاثوليك، جرت الاستعدادات للانقضاض على المدينة (عدن) وتم الاستيلاء على عدن من القوارب الكِبَار لاستخدامها في إنزال المُقاتلين إلى البر بأقصى سرعة مُمكنة.

وهنا يُقَدِّم لنا المؤلفُ وصفاً طويلا شائقا لمدينة عدن كما ورد في كتاب كوريا CORREA وقت الهجوم، وسيكون من المفيد لأغراض المقارنة إيراد رؤية أخرى لهذا العمل البطولي نفسه تمَّ نشرها من الأصل المعاصر المطبوع عن طريق ألواح خشبية محفورة، موجودة في المتحف البريطانلي في مجموعة يول

---

* أو شيول.
** أو Mete

H.Y.ULE, C.B.، رئيسنا، في الطبعة الثانية لرحلات ماركو بولو [1]

إنّه من الواضح أنّ الهجوم الأوّل على عدن - وهو ما وصفه المؤلف في الفصل الثالث - قد فشل، وكان السبب الرئيسي لهذا الفشل هو عدم كفاءة سلالم تسلُّق السور. فقد تسبَّب هذا في أنْ يسحبَ البرتغاليون قوّاتهم من مواجهة أسوار عدن التي ظلّ فوقها بعضُ المقاتلين البرتغاليين الأكثر مغامرة وأنْ يعودوا لسفنهم بعد أنْ فقدوا جورج دا سيلفيرا JORGE DA SILVEIRA أحد قادتهم، بالإضافة لقائد آخر هو جارسيا دي سوزا GARCIA DE SOU-SA الذي فصلُ المؤلف في روايته شجاعتَه وقَدَرَهُ المأسوي، بالإضافة لقتلى آخرين. وفي أثناء انسحاب البرتغاليين راحت قوّات الأمير مرجان والي المدينة - من موقعها في جزيرة صيرة - تَقْذفهم عِدة مرات، لكن دوم جارسيا دي نورونها DOM GARCIA DE NORONHA هاجم البرجَ في هذه الجزيرة وطرد منه قوّات أهل البلاد، وبعد نجاح هذه العمليّة بوقت يسير تلقّى أفونسو دلبوكيرك أخباراً عن اضطرابات REVOLT في القاهرة وخوف سلطانها من خبر دخول البرتغاليين البحر الأحمر، ومن أفعال الشاه إسماعيل XEQUE IS-MAEL.

وبعد أن أرسل أفونسو دلبوكيرك السفينة الصغيرة الثانية لشول (شيول) - التي كان جواتر جوميز JOAO GOMEZ قد استولى عليها مؤخراً لتسبقه أي لتكون بمثابة سفينة لكشف الطريق - أبحر إلى مضايق البحر الأحمر وسرعان

(1) The great reduction in scale which has been made in that view prevents the reader from making out some part of the inscription in the upper right - hand corner.It is as follows:

"Dese machteghe en grote stat Ade genoemt die gelege is int conicrijc fa Perse in den wech va mecha was bestormt en beuochte va alvonso dalburkerke capitein generael van de hoge en machtege edele conic va portegacl heer emanuel mz drieduist vijfhodert volcz die welke vochte drie vre lac tsege die de stat ware, dese bataelge gesciede up de heilige paescha uot int iaer os heere ih'u cristi als me screef. m. ccccc. wiij. En als dese edele en wel gemoedde capitein mz sine volcke ald ware vechtede tsege de ongelouige honde en viande ons heere ih'u cristi wies den hoop der more so seere i grote getale die binne der stat ware dat dese edele capeteyn mz sine volke moeste lie tsine scepe waert mz groter last en force al vechtede en dootslaede seer veel va die moren, die hem ooc groot scade dede onder sijn volc als elckerste mensche wel beclaghen mach". - Vol. ii, p. 438

ما أصبح على مرأى من جزيرة كبيرة شامخة قاحلة هي جزيرة جبل ذكور (زقر)* JEBEL - ZUKUR وألقى مراسيه إزاء ميناء على الجانب الحبشي للبحر الأحمر حيث وجد بعض العرب يجمعون العبيد فحرّر العبيد وعاقب التجار بالطريقة البربرّية الشائعة في هذا الجزء من العالم.

وأعقب ذلك فصل خصّصه المؤلف لوصف سواحل البحر الأحمر ورياحه ومدّه وجَزْره وتيّاراته المائية ربما كان ذا قيمة كبيرة جدا وقت كتابته لأولئك الذين كانوا يريدون الإبحار في هذه المياه الغادرة. وفي أثناء سَرْده في هذا الفصل سجّل لنا المؤلف مشروعيْن لم يتحققا وإنْ كان أفونسو دلبوكيرك ينوي تنفيذهما، المشروع الأوّل هو تحويل مجرى نهر النيل حتى لا يصل إلى القاهرة وذلك بثَقْب سلسلة الجبال حتى يغيض الماء ويتبعثر في بلاد بريستر جون PRESTER JOHN (الحبشة)، والمشروع الثاني هو إنزال قوة صغيرة من الخيّالة على ساحل شبه الجزيرة العربية للقيام بهجوم سريع خاطف للاستيلاء علي رفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) THE BODY OF MOHOMET.

وتوغّل الأسطولُ البرتغالي في البحر الأحمر فتوقف إزاء اللحّية LUYA OR LOHEYYA BAY حيث ارتطمت سفينة القيادة بالقاع، لكن جرى تعويمها - لحسن الحظ - بعد جهد كبير، دون أنْ يلحق بها ضرر، وفي اليوم التالي أتّخذ الأسطولُ سبيله - بأمان - إلى كمران CAMARAO بنية التوجّه إلى جدة JUDA AR DJIDDAH لكن الرياح كانت عكسيّة، وخلال فترة التأخير الاضطراري هذه رأى البرتغاليون صليبا في السماء ظهر على نحو إعجازي**، ولم يكن أفونسو دلبوكيرك فقط هو الذي رآه وانما كل من كان معه (أوردنا شكلا توضيحيا له نقلا عمّا ورد في ثنايا النص البرتغالي). وبعد بقاء دام شهرين (يونية ويولية سنة ١٥١٣) في كمران، رفع مراسيه واتجه إلى رأس زبيد RAS 0 ZEBID وهو موضع للتزود بالمياه على ساحل شبه الجزيرة

* في فهارس الأب أنستاس ماري الكرملي لكتاب «بلوغ المرام في شرح مسك الختام .. الخ» لحسين بن أحمد القرش، جبل بهذا الاسم (زكور)، ولعلها جزيرة (زقر) المعروفة.

** راجع مقدمة الترجمة العربية.

العربية، وذلك بقصد الاستفسار عن بعض البرتغاليين الأسرى جنحت بهم - في وقته سابق - سفينة على رأسها جرن بجوريو داكدرا GREGORIA DA QUADRA. وقد عاد جوأو جوميز JOAO GOMEZ الذي كان قد ذهب للاطلاع على مصائد اللؤلؤ في جزيرة دهلك DALACA OR DAHALAK حاملاً أخباراً غير طيبة مفادها أنَّ أهل الجزيرة يرفضون الاتجار مع البرتغاليين.

وفي هذه الأثناء أرسل أفونسو دلبوكيرك حامل رسائل إلى ملك البرتغال بحيث يسلكُ هذا المبعوث الطريقَ البريَّ المار بالقاهرة، ليخُبره بأخبار البرتغاليين في الهند، وفي اليوم نفسه الذي انطلق فيه هذا المبعوث حامل الرسائل ظهر في السماء على نحوٍ إعجازي شعاع من ضوء، ربما كان شهابا أو نيزكا أو صاعقة كهربية، فأثارت فزعَ كلٍّ مَن في الأسطول، بل وأثارت فزع أهل البلاد أيضا.

ويقدِّم لنا مؤلف هذا الكتاب (السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك) رواية عن جولات جريجوريو دا كدرا gregorio da quadra الذي ضلت سفينته ذات الصاّريين والتي كانت ضمن أسطول على رأسه دورات دي ليموز duarte de lemos، بعد أن أفْلتت من مرساها ذات ليلة حالكة عاصفة قُبالة ساحل مليندي melinde، وقد وقع كل طاقمها أسرى في صباح اليوم التالي قُبالة ساحل عدن، وكان حاكم عدن فيما يبدو راضياً بالاحتفاظ بهم أسرى دون أنْ يعرِّضهم للعذاب الشديد، كما هي عادة الحكام الشَّرقيين في ذلك الوقت إذا وقع بين أيديهم أوربيون ساقهم سوءُ طالعهم إليهم. وأصبح جريجوريو دار كدرا gregorio da quadra بمرور الوقت مُتقناً للغة العربية وراح يتردَّد على المدينة (المنوَّرة) متخفِّيا، لرؤية قبر محمد صلى الله عليه وسلم وبعد أن كاد يهلك في صحارى شبه الجزيرة العربية غير المضيافة inhospitable deserts of persia وصل أخيرا إلى البصرة busrah or bacora فركب إلى هرمز وهناك استقبله د. جارسيا دي كوتنهو d.grarcia de coutiho قائد الحصن البرتغالي استقبالا ودودا، وأخيرا عاد هذا الجوّال إلى لشبونة وأصبح راهبا كابوشينيا capuchin

friar وغادر الأسطولُ البرتغالي كمران cqmarao في ١٥ يوليو سنة ١٥١٣ واكتشف القائد البرتغالي جزيرة بريم perim في مضايق البحر الأحمر وأطلق عليها اسم ilha da vera gruz ومنها أرسل سفينتين لتسبقا إلى زيلع zeila – وكانت حملة بلا ثمر لأن أهل زيلع رفضوا إجراء أي اتصالات مع البرتغاليين. وفي ٤ أغسطس سنة ١٥١٣ أمر أفونسو دلبوكيرك برفع المراسي، فلم يَعُد ثمة وقت لأية محاولات أخرى فعّالة لدخول عدن، واتخذ طريقه إلى ديو diu فاستقبله المسؤولون من أهل البلاد استقبالاً حسنا، لكن هذا الاستقبال لم يكن ليخدع القائد البرتغالي.

واستمرت الرحلة بعد ذلك إلى شول (شيول) حيث كان تريستاو ديجا tristao dega قد عاد لتَوّه من سفارته إلى كمبي (كمبايا)، وواصل أفونسو دلبوكيرك إبحاره وتوقّف لفترة قصيرة في دابول* dabul حيث كان قد ترك هناك سفناً بقيادة لوبو فاز دي سامبايو lopo vaz de sampayo لمحاصرة الميناء لإجبار المسؤولين فيه على تسليم بعض السفن الوطنية التي كانت قد غادرت كلكتا حاملة بضائع بغير إذن البرتغاليين. وبهذا الطريقة وغيرها وقعت كل السفن الوطنية التي غادرت كلكتا في طريقها لمضايق البحر الأحمر في دي أفونسو دلبوكيرك الذي وصل أخيراً إلى جوالكوا، فاستقبله أهلّها بفرح وسرور غامرين.

وقدّم فرانسسكو نوجويرا francisco nogueira – الذي كان مفوّضاً لبناء حصن في كلكتا، للقائد (أفونسو دلبوكيرك) تقريراً عن الظروف اُلمحْبطة التي واجهها، وقد أوردت في ثنايا الفصل ١٥ منظراً معاصراً لهذا الحصن من كاب كوريا correa الموسوم باسم lendas da india وإزاء المنظر الكتابة الآتية:

"o. rey. de. caleqvv. co. temor. qve. os. nossos. tomaria. dele vindanea. da. morte. do. naricllal. co mvitos. rogos. afonso. dalboqverqve. the asentov pqz. fazendo. esta. forteleza. a. sva. cvsta. qve. esteve. em. mvita. paz. ate. o. ano. de. 1525. qve. do. joam. de. lima. sendo. caitam. alevatoy. oera. e. se. desfez. esta. forteleza. em. tenpo. do. governador. don433. anriqve. de. meneses.

* تكتب أيضا دابل

وعلى أية حال، فقد كان القائد البرتغالي مُصمما على الوصول لنتائج طيبة فيما يتعلق بهذا الأمر المهم وهو إنشاء حصن قوي في سواحل الهند الغربية، فأرسل ابن أخته د. جارسيا دي نورونها d.garcia de noronha إلى كلكتا لمقابلة الزاموريم* gamorim، بينما اتجه هو نفسه (أفونسو دلبوكيرك) إلى كوشن (كوشيم) وبعد لقاء عاصف مع الملك اتّضح له مدى المزايا القليلة التي حصله عليها عن طريق المفاوضات، أرسل تعليمات سرّية إلى أخي زاموريم كلكتا ينصحه فيها أنْ يَدُس السم لأخيه، ومن ثم يخلُفه في سلطته. وتم تنفيذ ذلك وأصبح الزاموريم الجديد مديناً بصعوده للسلطة للبرتغاليين، فأظهر امتنانه لهم بتقديم موقع لإنشاء حصن برتغالي سرعان ما بدأ العمل فيه في موقع يتحكّم في مدخل الميناء. ولم يُقَدَّر لهذا الحصن أن يستمر طويلا رغم أنّه حصن مهم لأيقدّر بمال وذو أهمية فوق التصور لأمّة تقوم سياستها على التحكّم في هذا السّاحل بقوّه عسكرية متفوقة. لقد تم تدمير هذا الحصن في سنة ١٥٢٥ بناء على أوامر د. أنريك دي مينيزس d.anrique de menezesحاكم الهند البرتغالي وقتها لمنع وقوعه في أيدي أهل البلاد.

وبعد أنْ أنجز أفونسو دلبوكيرك بنجاح سياته الرامية إلى إرهاب العناصر الوطنية في السواحل الوسطى للهند (سواحل وسط الهند) أبحر إلى كانانور، وهناك تلقّى معلومات عن اضطراب الأحوال في القاهرة والسويس والبحر الأحمر وسواحل شبه الجزيرة العربية وشمال الهند، ومن ثُم فقد أرسل بيرو دلبوكيرك إلى رأس جورد فوي وعدن للوصول إلى معلومات أدق عن إجراءات الترك ** turksالتي قيل إنهم يتخذونها لمهاجمة البرتغاليين في الهند.

وفي ديسمبر سنة ١٥١٣ أبحر أفونسو دلبوكيرك إلى كوشن (كوشيم) وأرسل ميجويل فيريرا miguel frrreira إلى الشاه إسماعيل عن طريق دابول*** dabul، وبعد إصلاح الأسطول اتجه إلى جوا فوصلها في بداية شهر

* تسمية بعض الكتب العربية السّامري، لكن السياق في كل أجزاء الكتاب يشير إلى أن كل من يتولى الحكم في كلكتا يطلق عليه هذا الأسم.

** راجع مقّدمة الترجمة العربية

*** في بعض الأطالس العربية دابل.

يناير سنة ١٥١٤، ووصل ميجويل فيريرا miguel ferreiral إلى تبريز tauviz ومن ثم للشاه إسماعيل الذي استقبله استقبالا طيبا وحمله هدايا ثمينة لأفونسو دلبوكيرك وحمل هذا المبعوث البرتغالي انطباعا طيبا عن بلاط هذا العاهل (الشاه إسماعيل). وقدم مانويل فراجوزا manuel fragoso المبعوث البرتغالي لبلاط ملك سيام siam لأفونسو دلبوكيرك تقريرا في جوا عن الظروف المأسوية للبرتغاليين في ملقى طالباً منه مدداً عاجلا فأرسل أفونسو دلبوكيرك هذا المدد على الفور ووصل في الوقت المناسب لدعم حصن ملقى، فقد كانت حامية الحصن الصغيرة تتوقع في كل لحظة أنْ يهاجمها أسطول كبير من تسعين يُنك junksعلى متونها ١٠,٠٠٠ مقاتل، وكان هذا الأسطول قد وصل بالفعل منذ أيام قلائل ورسا إزاء الحصن، ولكن وصول ثلاث سفن برتغالية ضخمة بثَّ الرعب في قلوب رجال هذا الأسطول المعادي فانسحبوا بأسطولهم ولم يتركهم البرتغاليون فكبّدوهم خسائر فادحة إذ انقض عليهم فرناو بيريز دندريد fernao perez daudrade في أثناء انسحابهم. وتمّ إرسال ديوجو فرناندز دي بيجا dio- go fernandez de bega وجيمس تيكسيرا james teixeira إلى بلاط كمبي (كمبايا) مزوّدين بتعليمات للعمل في الحصول على موضع لبناء حصن في ديو diu. ولم ينجحا في هذه المهمة كما لم ينجح سواهما، وقد سرد هذا الكتاب تفاصيل ذلك.

أما بيرو دلبوكيرك، فبناءً على التعليمات الموجّهة إليه، راح يجول حول سقطرى صيفا، وفي نهاية شهر مايو اتجه إلى هرمز فزاره ملكها وبعد أن فشلت المفاوضات في استرداد البرتغاليين حصن هرمز، أنزل بعض البضائع بإشراف اثنين من الوكلاء التجاريين وأبحر في الخليج persian gulf في شهر يوليو لاستشكافه حتى جزيرة البحرين barem وعاد إلى هرمز في أغسطس في طريقه إلى الهند، ولم تنجح محاولاته للحصول على الإتاوة من ملك هرمز، ومن ثمَّ حمل البضائع واصطحب الوكيلين التجاريين ووصل إلى جوا في ٢٨ سبتمبر سنة ١٥١٤ . وكان نتيجة التقرير الذي قدمه بيرو دلبوكيرك عن هرمز لخاله أفونسو دلبوكيرك أنْ اعتزم هذا الأخير التوجّه إلى هناك (هرمز) بأسطوله دون تأخير، وبعد أنْ تلقّى زيارات ذوات أهمية دبلوماسية من سفراء كل من ملك

نارسينجا narsinga الذي كان راغباً في التحالف مع البرتغاليين لمهاجمة العادل خان hidalcao (وهو أمر كان أفونسو دلبوكيرك قد تخلّى عنه لفترة)، والعادل خان الذي كان راغبا في الاحتفاظ بعلاقات يسودها السلام مع البرتغاليين، استدعى أفونسو دلبوكيرك جورج دلبوكيرك من كوشن (كوشيم) وأرسله إلى ملقى بأربع سفن على متونها مئتي رجل لدعْم هذه المستعمرة البعيدة. كل هذا وهو عاقد العزم طوال الوقت على قضاء الشتاء في هرمز لذا فقد أمر ببناء أربعة قوادس لإرسالها إلى هرمز لتقوم بدورها في الحملة التي ينوي القيام بها في الصيف التالي على عدن ومضايق البحر الأحمر.

وفي ٢٥ فبراير سنة ١٥١٥ عقد اجتماعا في جوا مع قباطنة ست وعشرين سفينة كانت هي كل الأسطول البرتغالي وكان على متنها ألف وخمسمائة برتغالي وسبعمائة من أهل ساحل المالابار، وفي هذا الاجتماع كشف أفونسو دلبوكيرك السياسة البرتغالية ووضّحها وبعد شيء من المعارضة من جانب القباطنة والقادة تقررّ الإبحار إلى هرمز والتمركز فيها. وفي نهاية يوم الأربعاء الموافق ٢١ فبراير ابحر الاسطول من ميناء جوا وفي ٢٥ مارس توقف ازاء قريات curiate على الجانب العربي للخليج وتابع إبحاره إزاء الساحل وألقى مراسيه قبالة مسقط mascate وهناك وصلته معلومات عن الأحوال في هرمز إذ أصبح ملكها بالفعل سجينا طوال الشهرين الماضيين بسبب الحركة التي قام بها الريس حامد reys hamid وهو فارسي.

وأبحر الأسطول البرتغالي في خط مباشر ليكون في مواجهة هرمز فوصل بأمان وهناك كان ميجويل فيريرا miguel ferreiva قد عاد من سفارته لدى الشاه إسماعيل فالتحق بالاسطول البرتغالي وقدّم لأفونسو دلبوكيرك تقريرا مفصّلا عن رحلته (إلى فارس). لقد كانت مؤامرة الريس حامد reys hamed فيما يبدو قد نجحت، وأنّها أصبحت أكبر من أن يواجهها دهاء القائد العام البرتغالي (أفونسو دلبوكيرك) الذي عمل على إطلاق سراح الملك ومستشاره الأول الريس نور الدين rexnordim (reys nordin) باغتيال الريس حامد

المتّمرد الذي يرجع إليه نجاح البرتغاليين في تملك حصن هرمز في ٣١ مارس أو أول أبريل سنة ١٥١٥. وكان هذا أمرا مزعجا، باعتباره يتعارض مع هدفه وهو اغتصاب عرش هرمز (أي هدف الريّس حامد).

لقد استقبل أفونسو دلبوكيرك سفير الشاه إسماعيل في هرمز استقبالاً حافلا وبمراسم فخمة رائعة، على نحو يُبهج العقل الشرقي، ولاشك أنّ الهدف من ذلك كان هو التأثير على ملك هرمز وسكانها وإظهار أهمية النفوذ البرتغالي في هذا الجزء من العالم. وقدم لنا مؤلف هذا الكتاب وصفاً طويلاً مفصًلا لهذه الإجراءات والأفعال. لقد كان نزع سلاح سكان هرمز، وانتهاز الفرصة بالاستيلاء على مدافع العدو، بمثابة «ضربة معلم» master - strokes أحرزتها السياسة البرتغالية كان من نتيجتها الاحتفاظ بهرمز في أيدي البرتغاليين. أمّا عن المعاملة غير الإنسانية «للهاربين runaway» البرتغاليين المقصود الذين هربوا من الأسطول البرتغالي إلى معسكر المسلمين الذين تم إحراقهم في قارب في الميدان الرئيسي لهرمز، فهذا عمل لا يمكن الدفاع عنه. إنه مثال طبق الأصل يُحاكي القسوة الشرقية، وسيجد القارىء أمثله أخرى لهذه القسوة عند تصفحه لهذا الكتاب، وربما كان دافع أفونسو دلبوكيرك لممارسة هذه القسوة هو أن يجعل من هؤلاء الخونه عِبْرة مرعبة في وقت بلغت فيه المخاطرة ذروتها إذ كان يمكن أن يتعرض الجيش البرتغالي كله للخطر إذا حدثت أية ردّة جادة if any serious defction had arisen ويُعد استقرار الأمور في هرمز، وإرسال فرنادو جوميز دي ليموز fernao gomez de lemos إلى بلاط الشاه إسماعيل حاملا بنود المعاهدة، ومغادرة د. جارسيا دي نورونها d. garcia de noronha إلى البرتغال، واستقبال بعض السفارات الوطنية وبناء الحصن البرتغالي من بين أكثر الأحداث أهمية وقد تناولها مؤلف هذا الكتاب مرتّبة على وفق ترتيبها الزمني، وذلك قبل استسلام أفونسو دلبوكيرك للمرض. وبعد تعيين نيكولا وفيريرا nicolao ferreina حارسا على ملك هرمز، وبيرو دلبكوكيرك – ابن أخيه – قائدا على الحصن الذي أعيد بناؤه من جديد، أبحر افونسو دلبوكيرك – وقد

غدا مرضه عُضالا – في السفينة فلور داروز flor da rosa بقيادة ديوجو فرناندز دي بيجا diogo fernandez وذلك في ٨ نوفمبر سنة ١٥١٥. وتفاقم مرض أفونسو دلبوكيرك عندما علم أنّ ملك البرتغال قد أمر بتعيين لوبو سوارز دي ألبر جاريا lopo soarez de albergaria بدلا منه (أي في منصب أفونسو دلبوكيرك). وفي يوم الأحد ١٦ ديسمبر مات على متن السفينة عندما كانت ترسو خارج حاجز الماء في جوا. لقد حزن سكان جوا حزنا شديدا عليه فقد كانوا مدينين جميعا لشجاعته وتعقّله. وينتهي الكتاب نهاية مناسبة بسرد لوقائع جنازة أفونسو دلبوكيرك ونص خطاب ملك البرتغال إلى لوبو سوارز lopo sua-rez محدّدا فيه سلطات حاكم الهند مع استمرار أفونسو دلبوكيرك في منصبه فيما عدا حصون كوشن (كوشيم) وكلكتا وملقى التي وضُعت تحت حكم لوبو سوارز بشكل قاطع. وبعد ذلك يتعرض المؤلف لمديحٍ كاَلَهُ لأفونسو دلبوكيرك وشخصيته وأعماله يتناول خلاله أحوال الهند وقت مماته، ورواية عن ظروف نقل بقاياه إلى كنيسة سيدتنا سيّدة الرحمة our lady of grace في لشبونة في إبريل، ومواراته نهائيا في مايو ١٥٦٦، وموجزا لشجرة عائلته التي تعود إلى دوم دينيس dom dinis ملك البرتغال ودوم سانشو dom sancho ملك قشتالة.

والملحق الذي أوردناه ذو فائدة لاحتوائه بعض المعلومات غير المتداولة كثيراً عن حصون الهند ومواضعها، بالإضافة إلى أمور أخرى مرتبطة بما ورد بنص هذا الكتاب.

أما الكشاف الذي يُغطي الأجزاء الأربعة فمفيد لاحتوائه على مداخل لم ترد عادة بنصّها في الكتاب، ومداخل الأشخاص في هذا الكشاف وردت على وفق الاسم الأول وهي طريقة طيبة في صُنع الكشافات عمل بها كثير من المؤلفين خاصة باربوسا ماشادو barbosa machado في ببليوجرافيته: bibliotheca.

ثبت زمني بأحداث الجزء الرابع

- أفونسو دلبوكيرك يبحر بأسطوله قاصدا جوا.. ٧ فبراير ١٥١٣.
- الوصول لميناء عدن ..... الجمعة الحزينة ٢٥ مارس ١٥١٣
- الاستعداد لمهاجمة عدن.... عيد الفصح ٢٦ مارس ١٥١٣.
- التوقف إزاء جزيرة كمران... خلال شهري يونيو ويوليو ١٥١٣.
- الإبحار الى جزيرة بريم في الطريق الى عدن... ١٥ يوليو ١٥١٣ .
- مغادرة عدن والاتجاه إلى ديو... ٤ اغسطس ١٥١٣ .
- الابحار إلى كوشن.... ديسمبر ١٥١٣ .
- الوصول إلى جوا (كوا).. بداية يناير ١٥١٤ .
- بيرو دلبوكيرك يجول إزاء سقطرى.. صيف ١٥١٤.
- بيرو دلبوكيرك يزور هرمز.. نهاية مايو ١٥١٤ .
- بيرو دلبوكيرك يبحر لاكتشاف البحر الأحمر.. ٧ يوليو ١٥١٤ .
- بيرو دلبوكيرك يعود إلى هرمز.. ٦ أغسطس ١٥١٤ .
- ويصل إلى جوا... ٢٨ سبتمبر ١٥١٤ .
- أفونسو دلبوكيرك يستقل الأسطول الموجود في جوا ويتجه إلى هرمز... ٢٠ فبراير ١٥١٥ .
- الإبحار إلى هرمز... ٢١ فبراير ١٥١٥ .
- التوقف إزاء قريات.. ٢٥ مارس ١٥١٥ .
- الاستيلاء على حصن هرمز... ٣١ مارس أو أول ابريل ١٥١٥ .
- د. جارسيا دي نوردنها يبحر من هرمز الى لشبونة... ٢٩ أغسطس ١٥١٥
- أفونسو دلبوكيرك يخبر القباطنة بمرضه.. ٢٦ سبتمبر ١٥١٥ .
- الابحار من هرمز إلى جوا .. ٨ نوفمبر ١٥١٥ .
- الوصول إمام ميناء جوا... ١٥ ديسمبر ١٥١٥ .
- موته .. ١٦ ديسمبر ١٥١٥ .

- خطاب من ملك البرتغال الى لوبو سوارز .... ٢٠ مارس ١٥١٦ .
- نقل عظام أفونسو دلبوكيرك الى لشبونه ....٦ إبريل ١٥٦٦ .
- دفنها .... ١٩ مايو ١٥٦٦ .

الفصل الأوّل

أفونسو دلبوكيرك يجّهز أسطوله ويستشير القباطنة والمرشدين في أمر الرحلة التي أزمع القيام بها، وكيف انعقد العزم على دخول مضايق البحر الأحمر، وماجرى حتى الوصول إلى عدن

بعد اتفاق أفونسو دلبوكيرك مع كلّ القباطنة وذوي الرتب في الهند على أمور جوا (كوا)، وكتابته للملك البرتغالي شارحاً له آراءه في هذا الموضوع – أرسلَ جورج دلبوكيرك jorge dalboquerque كقائد لكوشن (كوشيم) لأنّ بيرو ماسكارينهاس pero mascarenhas الذي كان يشغلُ هذا المنصب أصبح يتحتّمُ عليه البقاء في جوا، كما بيّنت ذلك آنفا، وبعد ترتيب هذا الأمر استقلّ الأسطولَ مع القباطنة والقادة والجنود في ٧ فبراير سنة ١٥١٣، وبلغ إجمالي عدد القوّات في أسطوله نهاء ألف وسبعمائة برتغالي وثمانمائة من المالاباريين والكاناربين.

إن الأسطولَ بكلّ قواته الآن خارج حاجز المياه إزاء جوا، فأمر – قبل الإبحار – بالاجتماع بكل القباطنة وهم:

- د. جارسيا دي نورونها d.garcia de noronha
- بيرو دلبوكيرك pero dalboquerque
- لوبافاز دي سامبايو lopo vaz de sampaio
- جارسيا دي سوزا garcia de sousa
- د. جواَو دي سي d. joao de sa

- جورج دا سيلفيرا jorge da silveira
- د. جوآو دي ليما d. joao de lima
- مانويل دي لاكيردا manuel de lacerda
- ديوجو فرناندز دي بيجا قبطان سفينة أفونسو دلبوكيرك diogo fernandez de beja
- سيماو دندرير simdo dandrade
- ايرز دا سيلفا aires da silva
- دوارت ذي ميلو duarte de melo
- جونسالو بيريرا goncalo pereira
- فرنانو جوميز دي ليموز fernao gomez de lemos
- بيرو دي أفونسيكا دي كاسترو pero de afonseca de castro
- روي جلفاو ruy galvao
- جيرو نيمو دي سوزا jeronymo de sousa
- سيماو فيلهو simao velho
- أنتونيو رابوس antonio raposo
- جوآو جوميز joao gomez

قبطان سفينة من نوع الكارافيلا caravela.

فلما اكتملَ عددُ المجتمعين أعلن أفونسو دلبوكيرك لهم أنَّ سيّده ملك البرتغال ركّز كثيرا على ضرورة الاستيلاء على عدن aden، وعلى ضرورة أن يتخذوا طريقهم إلى مضايق البحر الأحمر، وقد كرر الملك أوامره هذه في كل خطاب كتبه، واستطرد قائلا إنه في الخطابات التي أحضرها د. جارسيا ابن أخته، الآن، جرى التركيز أيضا على هذه المسألة بعزمه، مراعاةً منه للحيطة والحذر ولاشيء غير ذلك، أماَ وقد رتّب جلالة الملك كلَّ الأمور، واتخذ فيها القرار فلا مجال لطرْح الموضوع للمناقشة اللّهم إلاّ إذا ظهرت اعتراضات كثيرة، فساعتها سيكون (أفونسو دلبوكيرك) مضطراً لوضع خطّة أخرى. ومن ثمّ طلب منهم التكرّم بإبداء اعتراضاتهم إنْ وجدت، وبيان ما إذا كان هذا المشروع في غير

صالح ملك البرتغال أم لا. فأجمعت الآراءُ بعد المناقشة على ضرورة توجه أفونسو دلبوكيرك إلى مضايق البحر الأحمر ودخولها ولاسيمًا أنّ أحوال الهند تُتيح له القيام بهذا العمل.

فلما انتهى هذا الاجتماع الاستشاري التحق كلٌّ واحد بسفينته وفي بكور صباح اليوم التالي أمر أفونسو دلبوكيرك بإطلاق طلقة مدفع كإشارة لبدْء الإبحار فَرُفِعَتْ كل المراسي وأبحرت السفن في ريح مواتية متخذة طريقًا مباشراً إلى رأس جورد فوي [1] guardaum، لكن - في الخليج - كانت الريح شديدة عاصفة أدت إلى تأخّر لم يكن في حسبان أحد، وأدى هذا التأخرّ إلى نفاد مخزون الماء. ولأنه لم يكن في رأس جورد فوي موضع للتزود بمياه تكفي كل هذا العدد الكبير من السفن، بالإضافة إلى الوف من وصول أخبار الأسطول إلى عدن بسبب التأخر عدة أيام للتزود بالمياه - فقد أمر أفونسو دلبوكيرك بتوقف الأسطول كله في سقطرى [2] وبإلقاء المراسي في ميناء السوق [3]* coco حيث مكان الحصن البرتغالي. وكان في هذا المكان - بالفعل - قرابة خمسين من أهل فرتك [4] fartaquins كانوا قد بدأوا في إصلاح الحصن، لكنهم لم يكونوا يمتلكون أي وسائل للدفاع عنه، لذا فحالما رأوا الأسطول البرتغالي حتى لجأوا جميعا للسلسلة الجبلية المواجهة لكالاسيا* calacea [5] وهي ميناء يقع على الجانب الآخر للجزيرة. لكن المسيحيين من أهل البلاد أتوا للتباحث مع أفونسو دلبوكيرك فأمر بإهدائهم بعض الأقمشة والأرز، وأمر بهدم كل بيوت المسلمين moors وإشعال النار في كل ممتلكاتهم.

وبعد إتمام ذلك أمر أفونسو دلبوكيرك كل الأسطول بالتزوّد بالمياه، كما أمر

---

(١) انظر جـ ١، الفصل الأول.

(٢) انظر جـ ا، الفصل السابع.

(٣) في الساحل الشمالي الجزيرة في خليج تاماريد Tamarida

* لم نستدل على خليج بهذا الإسم في الساحل الشمالي لسقطرى في الأطالس المتاحة لنا ولعله الخليج المواجه لميناء قاضب.

(٤) انظر جـ ١ فصل ١٨

(٥) في الركن الشمالي الغربي للجزيرة

Ghubbet gollensier, ie gollonsir bay ويسميه col .yule باسم Colesseeah ويراه مقابلا الكلمة

Marco polo,and ed, II, 402 –Ecclesia

جواو جوميز goao gromes بالإبحار إزاء الساحل بسفينته من نوع الكارفيال وأن يدور حول الجزيرة حتى كالاسيا calacea مخافة أن تكون هناك سفن من نوع البارك barques تابعة لزهل فَرْتك أو سفن صغار للمسلمين تكون قد قدمت للتزوّد بالماء فتحمل أخبار قدوم البرتغاليين عند عبورها من جانب الجزيرة الآخر إلى فرتك وظفار [1] لقد فتش جواو جومير سواحل الجزيرة كلها ودخل الميناء دون أن يجد سفينة واحدة من نوع البارك barque(مركب ذي ثلاث صوار) ولاسفينة واحدة من نوع السفن الصغار vessel، ومن ثم انطلق عائدا، ولأنّ الرياح كانت شرقية معاكسة لعودته إلى ميناء السّوق coco الذي يتمركز فيه أسطولنا، فقد كان مضطراً لتغيير اتجاه سفينته، وبينما هو بسبيله لعُرض البحر وقع بصره على سفينة كانت في طريقها لمضايق البحر الأحمر فاستولى عليها، ولأن هذه السفينة كان قادمة من شول * choul التي تربطنا بها اتفاقات سلام، ولم تكن تحمل بهارا، فإنّ أفونسو دلبوكيرك لم يستولِ على شيءٍ منها رغم أنها لم تكن تحمل أوراقا تتيح لها حرية المرور الآمن، وإنما جعلها في صحبة سفنه ليستفيد من مرشدها في رحلته هذه، فلم يكن بصحبته أي أفونسو دلبوكيرك من يعرف سواحل البحر الأحمر هذه.

وعند عودة جواو جوميز joao gomez كان الأسطول قد تزوّد بالمياه فعلا، فراح أفونسو دلبوكيرك يتناقش مع كل القباطنة والقادة وذوي الرتب وحاملي ألقاب الفروسية في كيفيّة مهاجمة عدن، وذلك قبل أنْ يُبحر، وقد ظهرت آراء مختلفة في هذا الموضوع، فرأى غالبهم أنّه عند الوصول للمدينة (عدن) لابد من إجراء محادثات مع مسلميها moors قبل مهاجمتها لمعرفة ما إذا كان أهلها راغبين في طاعة ملك البرتغال والامتثال لخدمته، بينما كان من رأي آخرين ضرورة مهاجمة المدينة قبل إجراء أي اتصال.

وكان أفونسو دلبوكيرك مؤيدا لهذا الرأي الأخير، فقد كان من رأيه – كما قال – أنهّ في حالة مدينة مهمة كعدن ليس من الملائم مناقشة ما يجب عمله وإنما مهاجمتها على الفور فمعنى الحوار مع أهلها إتاحة الفرصة لهم

---

(١) انظر جـ١، حاشية٢ ، الفصل ١٨

* تكتب أيضا شيول

للاستعداد للدفاع عن نحو أفضل مما هم عليه، وإتاحة الفرصة لمدد يأتيهم من جهة من الجهات، لكن إذا انعقد الدفاع عن المدينة (عدن) بين يدي سكانها فحسب، أمكن البرتغاليين المخاطرة بحياتهم والانقضاض بكل قوتهم، ومن ثَمّ فمن رأيه أنه بمجرد الوصول إلى عدن وبدون إجراء أي اتصالات مع مسلميها، عليهم مهاجمتها فوراً لإحباط أيّ تدبير وقطع السبيل على أيةّ خطة دون البحث عن علاج وسط الخطر (في أثناء المعمة) فأهل عدن لن يَدفعوا إتاوة لمجرد قناعات فلسفية (المقصود لمجرد تقديم حجج وبراهين) وإنما سيدفعونها بعد أنْ نُغرقهم في الدماء. ووافق كلٌّ من في الأسطول البرتغالي على ذلك.

الفصل الثاني

أفونسو دلبوكيرك الكبير يُبحر من سقطرى ويصل إلى عدن، وما هو السبب الذي جعله لا يهاجم المدينة على الفور كما كان عقد عزمه آنفا، وما جرى من حوادث أخرى

وحالما انتهت هذه المناقشات (التي أوْردناها في الفصل السابق) أصدر أفونسو دلبوكيرك الكبير الأوامَر لكلٍّ الأسطول بالإبحار مباشرة إلى عدن adem. ولأنّ الرياح كانت قد بدأت تَخْمد فقد شرعت كل السَفن في الإبحار على نحو متعرِّج (ملتوٍ) قدر الإمكان تلّمساً لريح مساعدة تهب من ناحية رأس جوردفوى cope guardafum، فمن هذه النقطة تُساعد الريحُ التي تهب في اتّجاه المضايق على الوصول إليها، ومع هذا فقد راحت السفن تغيِّر مسارها من خط اتجاه ثابت (الخط المتوازي مع خط الطول rhumb - line) إلى خط اتجاه ثابت آخر بل إنها (السفن) لامست الساحل في موضع إلى الجهة التي تهب نحوها الرِّيح في عبد الكوري[١] ,abedalcuria، ومن هذه النقطة فصاعدا راحوا يسبرون أعماق المياه التي يجرون فيها على طول الساحل بنية العبور من ميت[٢] mete إلى عدن، لكن لأنّ اتجاه التيارات المائية كان معاكساً لاتجاه

(١) انظر جـ ١، حواشي الفصل ٥٣

(٢) Meyet. هذا هو المسار الحالي: السفن المتجهة إلى عدن خلال فترة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية تحافظ على إبحارها على طول الساحل الصومالي حتى تكون إزاء جزيرة meyet، ومن ثم تترك هذا المسار لتتجه إلى ساحل شبه الجزيرة العربية.

Gulf of aden pilot, 1882, p. 52

الريح، وموج البحر عاليا فقد واجه أسطولنا صعوبات كبيرة طوال ثلاثة أيام حتى أنَّ كل الكاتورات caturs التي كانت معلّقة في قَيْدُومات السفن (مقدّماتها) والمعدّة للاستخدام عند دخول الأسطول مضايق البحر الأحمر - قد فُقدت. وعندما تبيّن المرشدون أنهم على بعد عشرة فراسخ من ميت (mete أو meyet) صمموا على العبور إلى عدن، لكن لأنه إذا حدث وضلّوا الطريق إلى الميناء (عدن) لم يستطيعوا الوصول اليه ثانية بسبب الرياح الشرقية، فإنهم أمروا الأسطول أن يتخذ طريقا شمالياً غربياً حتى يكونوا دوما في اتجاه الريح (الجبهة التي تهب نحوها الريح) وواصلوا ذلك طوال هذا النهار وطوال الليل، فلما أشرق الصبح كانوا بين كاني كاني [1] Canqcani (Canicani) وسلسلة جبلية تسمى دار سينا [2] Arzina (Darsina) وفي هذا النهار أبحروا مُساحلين (إزاء السّاحل)، لكن عندما حلَّ الليل أمر أفونسو دلبوكيرك الذي لم يكن راغبا في تجاوز ميناء عدن - بإطلاق الإشارة المتفق عليها ليتوقّف الأسطول كله وأن تبقى السفن الصّغار تحت الأعمدة العارية bare poles حتى الصباح، وفي الصباح واصلوا الإبحار وعند غروب الشمس أصبحوا على مرأى من عدن adem. ولأنهم لم يكونوا يعرفون كثيرا عن طبيعة الأرض في البلاد، ولأن الأسطول كان كبيرا جداً ومخافة أن تصطدم سفنه بعضها بالبعض الآخر عند الرسو، فقد كان من رأيهم جميعا ألاَّ يحاولوا دخول الميناء ليلا وإنّما يُرخون حبالهم cables بنيّة أن يظلوا في مواقعهم طوال تلك الليلة. وبينما هم على هذه الحال أقبل بيرو دلبوكيرك pero dalboquerque في قاربه إلى سفينة أفونسو دلبوكيرك وأخبره أن قاع البحر على عمق خمس وثلاثين قامة (فازوم) فأصدر أوامره بإطلاق الإشارة للسفن لرفع مراسيها وأن تتحرك والمسبارات [3] وقطع الرصاص المستخدمة في السَّبْر [4] في أيدي المنوط بهم سَبْر الأغوار، وألاَّ تُلقى

---

(١) تسمى جزر كاني كاني Canicani على ساحل شبه الجزيرة العربية، شمال غرب سقطرى وجنوب شرق عدن، انظر

Barretto de resende map.

وانظر أيضا ج ١، فصل ٢٣

(٢) دارسينا Darsina بين عدن وجزر كاني كاني canicani. *انظر الخريطة انفسها.*

(٣) *Traquetes*

(٤) *prumos, i.e. plumbos*

المراسي إلاّ في منطقة في الحيد التي reef عمقها أربع عشرة قامة (فازوم) بالقرب القريب من ميناء عدن. وكان المسلمون قد رأوا بالفعل أسطولنا من فوق قمم الجبال الشاهقة التي تشرف على البحر كله، فأشعلوا النيران لإغراء رجال الأسطول بالتوجه إلى رأس بريّ مواجه مباشرة للمضايق بعد تجاوز عدن، ولو فعل رجالنا ذلك ما استطاعوا الوصول إلى ميناء عدن مرة أخرى طالما الرياح الشرقية تهب.

لكن أفونسو دلبوكيرك – بحذره المعتاد – وخوفا من أحداث غير متوقّعة، أمر كل الأسطول بالرسو وظل في موضعه طوال الليل. وفي صباح اليوم التالي وهو يوم الجمعة الحزينة [1] good friday أبحر الأسطول كله قاصدا إلقاء مراسيه في الميناء الشرقي، لكن كان في هذا الميناء عدد كبير من سفن المسلمين لذا فقد ظلت سفننا إلى الخارج بعيدة لمسافة قليلة.

وعلى أية حال فلأن رجالنا كانوا مستعدين جميعا بأسلحتهم ومستعدين بكل أدوات النزول للبر على وفق الخطط التي جرى إعدادها مسبقًا، فإنهم لم يشاؤوا تضييع الوقت وكانوا توّاقين للنزول إلى البرّ والانقضاض على المدينة (عدن). ورغم أنّ أفونسو دلبوكيرك كان شديد الرغبة في إرضاء رغباتهم لأن اليوم كان هويوم الجمعة الحزينة good friday يوم آلام المسيح passion of our lovd jesus christ وكان رأي أفونسو دلبوكيرك – شديد الإيمان به مُعلّقا عليه كل آماله، بالإضافة إلى أنه رأى أن أحكام الضرورة وظروف توقفه قد أدّيا إلى تغيير خططه شيئا ما، لذا فقد رغب أنْ يؤمّن سلامة الأسطول وأن يجعل كل سفينة في موضع لاتكون فيه في مسار سفينة أخرى، وقوّى من حبال الربط حتى إذا ما هبت – فجأة – رياح عاتية، لم تحدث كارثة، والحق أنّ هذه الرياح التي كانوا يخشون بأسها قد هبّت بالفعل فبعد أنْ ألقت السفن مراسيها هبّت الرياح الشرقية بقسوة حتى أن بعض السفن استعانت بثلاثة حبال cables وبعضها بأربعة.

---

(١) Sesta feira de endoencas

وبعد أن هدأت حدّة الرياح أرسل الأمير مرجان mira merjao حاكم المدينة (عدن) رسالة إلى أفونسو دلبوكيرك عن طريق أحد مسلمي كانانور cananor كان موجوداً في عدن يسأله: ماذا يريد؟ وعن أي شيء يبحث بأسوله هذا؟ فأجابه أفونسو دلبوكيرك بأنه القائد العام ورئيس قباطنة الملك د. مانويل ملك البرتغال وسيّد الهند، وأنه في طريقه إلى جدة [1] ليتعقّب أساطيل مماليك مصر (الروم[2] pumes) فإن لم يجدهم فإنّه مصمم على الذهاب إلى السويس ليعلم ما إذا كان سلطان القاهرة – حقا – قد تجاسر على إعداد أسطول يواجه به قوة سيّده ملك البرتغال.

وعاد هذا المبعوث المسلم the moor للبّر حاملاً هذا الرد فأعاده الأمير مرجان mira merjao سريعا محّملاً بهدية من دجاج وخراف وليمون وبرتقال، ورسالة يقول فيها إن مدينة عدن تابعة لملك البرتغال وأنه سينفّذ كل ما يطلبه، فأجاب أفونسو دلبوكيرك قائلا إنه ليس من عادته أنْ يقبل هدايا من حكام لم يعقد معهم معاهدات سلام وإنّه لن يقبل الهدية إلاّ على وفق هذا الشرط، وأنّ على المبعوث أن يقول للأمير مرجان mira merjao إنّه طالما كان راغبا في طاعة سيده ملك البرتغال فعليه أن يأمر بفتح بوّابات المدينة وأن يستقبل العلم البرتغالي والجنود البرتغاليين، أما بالنسبة للتجار المسلمين الذين توجد سفنهم في الميناء فإنّه – أي أفونسو دلبوكيرك – سيمنحهم حق المرور الآمن وأنّ على هؤلاء التجار أن يُقدمّوا له طلبات بذلك. لقد أقدم أفونسو دلبوكيرك على ذلك قاصداً إخراج هذه السفن من الميناء حتى يُقَلّل من عدد الأعداء الذين سيواجههم.

وعندما أدرك الأمير مرجان أنّ الأفعال لا الأقوال هي التي تُهم أفونسو دلبوكيرك أرسل رسالة مع اثنين من المسلمين ذوي الشأن في عدن مؤدّاها أنه (أي الأمير مرجان) مجرد خادم (تابع) لشيخ xeaue البلاد الذي لم يأذن له

---

(١) انظر جـ١، حاشية ٦، فصل ٦٠.

(٢) انظر جـ ٢، الفصل ١٤

بالسماح للبرتغاليين بدخول المدينة، لكن إن كان أفونسو دلبوكيرك يريد أي شيء فليأت ويناقش مايريده، ومعه عشرون رجلاً عند حافة الماء، وأنه (الأمير مرجان) سيُحضر معه أيضا عشرين رجلا، فاعتذر أفونسو دلبوكيرك عن أيّ لقاء بينهما في أي مكان إلا إذا كان هذا المكان داخل مدينة عدن، فلما عاد المبعوثان (المسلمان) بهذا الرد انقطعت الاتصالات بين الطرفين بعد ذلك ولم يتقدم التجار إلى أفونسو ولبوكيرك طالبين حق المرور الآمن لسفنهم. ونظراً للحاجة إلى الكاتورات caturs التي فقدها البرتغاليون في أثناء الرحلة لم يكن أفونسو دلبوكيرك مهيّأً بوسائل إنزال رجاله للساحل بالسرعة المطلوبة عند الضرورة فقد أمر بتجميع بعض السفن من نوع البارج (زوارق النقل أو مراكب البضائع)[١] التي يستخدمها المسلمون في هذه الأنحاء للوصول بسفنهم إلى البر والإقلاع منه بنيّة مهاجمة المدينة (عدن) إذا ما انبلج صبح اليوم التالي، الذي كان يوافق اليوم السابق لعيد الفصح[٢] Easter Eve.

عن موقع مدينة عدن:

تقع عدن [٣] على سواحل شبه الجزيرة العربية شمال خط الاستواء باثنتي عشرة درجة ونصف الدرجة. وربما كان محيطها أكبر من محيط مدينة إيفورا evora، لكن سكانها غير كثيرين. وفيها منازل جميلة جدا وشامخة، وكلها مشيّدة من أحجار وملاط. وتقع المدينة عند سفح سلسلة جبال شاهقة وعلى طول الطريق المؤدي إلى قمة هذه الجبال [٤] يوجد كثير من القلاع والأبراج التي تبدو وكأنها قد شيدت استئناسا بمنظرها الجميل أكثر من كونها لأغراض الدفاع.

وتقع عدن على مدخل طريق مداخل البحر الأحمر، وبالقرب منها تمر السفن

---

(١) Barcacos

(٢) عيد الفصح في سنة ١٥١٣ كان يوافق ٢٦ مارس.

* هو في الأساس عيد يهودي، وفصح في العبرية تعني العبور، وهو عيد الفطير الذي يراعي فيه عدم وجود خمير في أي طعام. وكان هذا العيد في شهر أبيب الذي سُمي بعد ذلك شهر نيسان، وهو تذكار لخروف الفصح، واعتبر المسيحيون بعد ذلك أن خروف الفصح إشارة للمسيح (عليه السلام) فاعترفوا بهذا العيد لكن بطقوس مختلفة.

مختصرا عن: دائرة المعارف الكتابية لمجموعة من رجال الدين المسيحي. جـ ٦ ص ص ٥٦ - ٥٩ (مادة: فصح)

(٣) انظر الملحق. افضل خريطة رأيتها لعدن هي خريطة القائد هاينز Haines.

(٤) comiada

المبحرة من الهند إلى هذه المضايق في شهور نوفمبر وديسمبر ويناير وفبراير، أمّا تلك التي تُبحر في شهر مارس فتلزم ساحل رأس جورد فوي لتكون دوماً على مرأى من بربرة [١] وزيلع [٢] وليس على مرأى من عدن لأنه في هذا الموسم من العام تكون الرياح الغربية قد بدأت تهب فعلا. والمدينة (عدن) أكثر تحصينا من ناحية البر منها من ناحية البحر. ويوجد موضعان يمكن إحداث مدخل فيهما. ومن هذه السلسلة الجبلية التي تشرف على المدينة (عدن) يمتد سور يستمر من ارتفاع شاهق [٣] حتى يصل إلى سور المدينة المقام ناحية البحر، ويبلغ طول سور المدينة الممتد على طول البحر قرابة سور لشبونة من البوّابة الذهبية لبوّابات اَلمسْفَنْ (موضع بناء السفن وترميمها). ويقع هذا السور في مواجهة الميناء الذي يطلق عليه المسلمون (أي أهل عدن) هو كيت [٤] (هقدة؟) focate والذي تتجه إليه كل السفن للرسوّ فيه، ويوجد فيه برجان محصّنان وضع فيهما أهل عدن مدافعَ وعدداً من المنجنيقات [٥] وفي هذا الميناء توجد جزيرة صغيرة صخورها حادّة لاينمو فيها أي عُشب، وهي منفصلة عن المدينة ويطلق عليها المسلمون اسم جزيرة صيرة [٦]* cira التي فيها حاجز مياه أو كتلة تشكل سورا تحتمي به السفن من الرياح الشرقية التي إذا هبّت كانت عاصفة شديدة الوَطْأَة يُعاني البحارة كثيرا من آثارها. وعلى رأس هذا الحاجز الآنف ذكره يوجد برج وحصن يتّسمُ كلاهما بالمتانة.

وعندما عاد أفونسو دلبوكيرك إليها بعد تجواله في المضايق وجد هذه الجزيرة مُحاطة بسور تتخلّله أبراج كثيرة كان الأمير مرجان mir merjao قد أمر بإنشائها خوفا من استيلاء رجالنا عليها وتحصّنهم فيها، لكن هذا الإجراء

(١) انظر جـ١، حواش فصل ١٨

(٢) انظر جـ١ حواش فصل ١٨

(٣) Talhado a pique

(٤) Bay of hokat (Focate) جنوب عدن القديمة في خريطة هاينز

* هقدة قرية بين عدن وموزع. ربما يُنسب إليها هذا الخليج الصغير. لكنني لستُ متأكدا من ذلك.

(٥) آله حربية لقذف الأحجار الكبار على العدو Trabuco

(٦) Sirah، جزيرة حصينة شرق عدن في الخريطة الآنف ذكرها.

* في بعض الأطالس بالسين غير المعجمة (سيرا)

لم يُفده كثيرا كما سنرى بعد ذلك. ولا يوجد في الجزيرة (صيرة) ولا في المدينة أي ماء سوى ما يأتيها محمولا من خارجها. وغالبا ما يمر عامان أو ثلاثة دون هطول أمطار. وخلف المدينة وراء السلسلة الجبلية يوجد ميناء آخر يسمّى رأس هيوف [1] ujufu (rasllejaf or heyof) محمي من كل ريح. وعمق المياه في هذا الميناء يتيح للسفن الكبار جدا ان ترسو، وفي هذا الميناء خور creek ضيق جدا لايبقى فيه سوى القليل من الماء في حالة الجزْر وقد أقيم فوقه جسر قديم يعتبر بالنسبة لمستخدميه أقصر الطرق من زبيد[2] zebir إلى عدن حيث يقضي الملك معظم وقته. وعلى طول هذا الطريق يجري مجرى مائي يعبر الخور في أنبوب إلى جوار هذا الجسر، ويصب في حوض كبير جرى بناؤه لهذا الغرض، ويقع على بعد فرسخ من المدنية ويأتي الناس بإبلهم لتشرب من هذا الحوض.

والماء الذي ينبثق من تحت هذه القناطر arches يصل إلى المنطقة الواقعة إلى الأدنى في أحواض أو بحيرات صغيرة، وإذا لم يكن هذا الجسر موجودا لما استطاع سكان المدنية الوصول في يوم واحد لهذه الأحواض الملأى بالمياه والمنتشرة في الحقول [3]. ووراء هذا الجسر (الذي يؤدي خدمات ذات صلة بجلب المياه) تقع هضبة عريضة تصل من السهل الداخلي إلى بوّابة في السلسلة الجبلية على جانبيها برجان شديدان محصّنان وعن طريق هذه البوّابة اعتادوا أن يصلوا بإبلهم للتزوّد بالماء في الوقت نفسه الذي كان فيه أسطولنا رابضاً في الميناء، وكان رجالنا في سفن الأسطول وقواربه يرونهم وهم يجيئون ويذهبون محمّلين (بالماء والمؤن) على طول الهضبة ويدخلون البوّابة الآنف ذكرها في هذه السلسلة الجبلية.

وعرض البَرْزخ من بحر إلى آخر FROM ONE SEA TO THE OTHER (كذا) زهاء ربع فرسخ مما يُظهر بشكل جلي أن عدن ليست جزيرة رغم أن الاعتقاد جرى على ذلك دائما في التاريخ القديم. لكن أفونسو دلبوكيرك نظراً

---

(١) Ras hejaf أو Ras heyof رأس هيوف على الساحل الشمالي لشبه جزيرة عدن في مواجهة الخليج الداخلي.
(٢) ربما كانت هي قرية بيار أحمد Biyar ahmed مكان إقامة السلطان إلى الشمال الغربي من عدن في الخريطة الآنف ذكرها، لكننا نفهم من الفصل التاسع أنها زبيد zebid شمال غرب عدن على الساحل الشرقي للبحر الأحمر.
(٣) بقايا هذه القناة ظاهرة في الخريطة بالحالة التي هي عليها وقت رسم عريضة العرض. ٥٤ بوصة، عمق المياه، ١٩ بوصة، وعرضها ١٦ بوصة، الجدار: ١٩ بوصة من الجانبين.

لرغبته في أن يتحقق أمله ويعود إليها ثانية ليهاجمها أراد أن يجمع عنها معلومات بشكل أفضل فأمر كلا من مانويل دي لاكيردا MANUEL DE LA-CERDA وسيماو ندريد SIMAO DANDRADE وبيرودي أفونسيكا PER-ODE AFONSECA وسيماو فيلهو SIMAO VELHO أن يتجهوا بقواربهم لاستكشاف كل ذلك ودراستة بعناية، فقد اعتاد دائما - أي أفونسو دلبوكيرك - أن يقول إنه مادام قد رأى عدن فإنه لن يهاجمها مرة أخرى من ناحية هذا الجزء (أو الجانب) الذي هاجمها منه.

وأمام هذه السلسلة الجبليّة من الناحية الأخرى من البر يوجد موضع يُقال له ربَك* RUBACA يعيش فيه عشرون من صائدي الأسماك الفقراء في أكواخ من قش، وفي هذا الموضع أحواض مليئة بمياه الشرب العذبة الطيبة وبستان نخيل صغير.

ولدى ملك عدن قرابة ألف وخمسمائة فارس وقوات كثيرة من المشاة. ومصدر دخله الأساس الذي يُبقيه في حكمه حقا يأتيه من نبات الفُوّة (1) MADDER الذي ينمو في بلاده والذي يبلغ محصوله السنوي نحو ٢٥,٠٠٠ جوال، وهو يحتكر شراء المحصول فليس لأحد أن يشتريه سوى ملك البلاد، ويقدمه له الولاة بسعر ستة أشرفيات (2) للجوال وهو يُرسله إلى كمبى (كمبايا) حيث يستخدم في صبغ الملابس، ويُباع الجوال الواحد هناك باثنين وعشرين أشرفياً. أما مصادر دخله الأخرى فقليلة القيمة.

وكان ميناء عدن هذا في القديم مستوطنة صغيرة لكن بعد اكتشاف البرتغاليين للهند وإبحارهم إلى هذه الأنحاء بدأ يتسع وأصبح سوقاً لكل أنواع البضائع التي تدخل البحر الأحمر عن طريق المضايق. والسبب في هذا أن الأساطيل البرتغالية على السواحل الهندية لم تكن تسمح لسفن المسلمين

* كذا في اطلس العالم لشارل جورج بدران، وفي الفضل المزيد في اخبار زبيد رباك من قرى عدن ص ٨٥ (نشر قسم التراث - المجلس الوطني للثقافة - ٣).

(١) ruiva وردت في معجم فييرا: ruiva dos tintureiros

(٢) انظر جـ ١، فصول ١٢، ٢٤، ٤٧

بالتوجه لهذه الأنحاء (الواقعة بعد مضايق البحر الأحمر) في الموسم المناسب لها، لذا فإن سفن المسلمين هذه تحاشيا لوقوعها في أيدي البرتغاليين، كانت تبحر دون أن تنتظر الرياح الموسمية المناسبة وتتجه إلى عدن وتبيع لتجارها المحليين، ومن ثم تشتري بضائع أخرى تحملها معها إلى الهند فإذا ما أتى وقت الرياح الموسمية أرسل تجار عدن هذه البضائع إلى جدّه ومكة [1] والسويس وغيرها من المواضع على جانبي البحر الأحمر WITHIN THE STRAITS؛ لذا فقد استقر في عدن تجار كثيرون من القاهرة وجدة والهند ومن بلاد أخرى جالبين معهم ممتلكاتهم الضخمة، مما جعل من عدن مدينة مهمة فهي الآن مشهورة بأنها أغنى بلاد كل هذا السّاحل.

---

(١) انظر جـ١، فصل ١٨

الفصل الثالث

الهجوم البرتغالي الأول على عدن بقيادة أفونسو دلبوكيرك وما جرى خلاله

عندما انقضى يوم الجمعة انشغل رجال الأسطول طوال اليوم في تثبيت السفن معا بالحبال كما ذكرتُ آنفا، وفي الليلة التالية استدعى أفونسو دلبوكيرك كل القادة والقباطنة ليخبرهم أنهم وإنْ كانوا قد وافقوا فيما قبل على ضرورة مهاجمة المدينة إلاَّ أنَّ امتداد السور بهذا الشكل لا يمكّنهم من السيطرة عليه فليس لديهم لإنجاز هذه المهمة العدد الكافي من الرجال والسلالم (وسائل الارتقاء) لذا فإنه يبدو من المستحسن أن يتّحد الجميع (أن يكوِّنوا تشكيلا عسكريا واحداً) لمهاجمة السور من موضع واحد وأنْ يكون تشكيلهم من صفَّين ليكون الصف الثاني بمثابة دعْم ومدد للصف الأوّل فإذا ما أحدثوا مدخلاً بالقوة للمدينة فعليهم أن يكونوا حذرين وأن يُسيطروا على مواقعهم وأن يسيطروا على بوّابة السلسلة الجبلية المُفْضية إلى المناطق الداخلية لأنّهم إن فشلوا في ذلك فقدوا كل المزايا واستطاع المسلمون MOORS (أهل عدن) أن يجلبوا للمدينة ما يريدونه من دعم ومدد مما يجعل البرتغاليين مضطرين للتراجع إلى سفنهم وسيكون هذا نكسة كبيرة وفشلاً ذريعاً لهم. وقال لهم إن من الضروري جدا لصالحهم أنْ يحاربوا كفرسان شجعان، وأنْ يبذلوا قُصارى جهدهم للسيطرة على البوّابة والاستيلاء عليها.

وبدأ القادة والقباطنة يشعرون بشيء من الارتباك وقالوا إنّه - أي أفونسو دلبوكيرك - ليس في حاجة إلى التشكك أو الحيرة وألاّ يفكر في التخلّي عن المشروع لأنهم مستعدون تماما للتعاون معه في مهاجمة المدينة. وما إنْ تمّ ترتيب الأمر على هذا النحو حتى قرر أفونسو دلبوكيرك أن يتقدم د. جارسيا

D. GARCIA لمهاجمة ومعه غالب الجنود وذوي الرتب وحاملي ألقاب الفروسية ممن يمكنه جمعهم وأن يكون معهم سلالم لتسلّق السور، وأن يكون هذا من جهة أيديهم اليسرى حيث مَرْكَزَ المسلمون (العدنيون) غالب قوّاتهم. ولأنه من هذا الجانب توجد بوّابة كانوا (أي البرتغاليين) قد تلقّوا «نبوءة» أو «بشارة» PROPHECY مفادها أنهم سيستولون على عدن عن طريقها (أي عن طريق هذه البوّابة). وعمل د. جارسيا على كسر هذه البوّابة لكنه وجد خلفها سورا مبنيا (أي انها بوّابة مضلّلة - بتشديد اللام الأولى وكسرها). وفي هذه الأثناء كان على أفونسو دلبوكيرك وبقية القوات البرتغالية أن يهاجموا من ناحية أيديهم اليمنى، وعلى جوآو فيدالجو JOAO FIDALGO قائد القوّات المدرّبة على حمل السلاح TRAIN BANDS أن يتخذ له موقعا بين القوتين حاملا معه سلّم تسلق عريض جدا يمكن أن يستخدمه ستة رجال جنبا إلى جنب في تسلق السّور. وفي الوقت نفسه كان على أنريك هو ميم ANRIQUE HOMEM مع مجموعة من مائة جندي من جنود المعدّات أن يعبروا قمة صخرة تكون قمتها في مستوى أعلى السور، حتى يمكنهم بهذه الطريقة النزول إلى المدينة، وحالما وصل رجالنا إلى قمة السور كان عليهم أن يقفزوا إلى داخل المدينة.

وبعد أن تلقى الجميع التعليمات المتعلقة بالواجبات المنوطة بكل منهم عادوا إلى سفنهم وعندما لم يبق على طلوع الصبح سوى ساعتين أمر أفونسو دلبوكيرك بالنفخ في الأبواق فأقبلوا سراعا إلى سفينته ومن ثمّ انطلقوا مع طلوع الفجر ليصلوا للسور. لكن لأنّ القاعَ كان يمثل رَفّاً واضحاً وبه صخور فقد اضطرت القوارب للتوقف على بُعد مدى رمية سهم من الشاطىء مما سبب إزعاجاً شديداً لرجالنا لأنهم كانوا جميعا مضطرين للخوض في المياه وابتلّ البارودُ الذي حمله حاملو البنادق ذوات الفتائل. لكن رجالنا لم يقصّروا رغم هذه الظروف فحمل القادة والقباطنة وخدم الملك السلالم فوق ظهورهم كفرسان شجعان، وبذلوا جهودا مضنية لوضع هذه السلالم في مواضعها إزاء السّور.

ووضع القادةُ والقباطنةُ الذين كانوا في مجموعة أفونسو دلبوكيرك سلالمهم

وتسلقوها للوصول إلى أعلى السور دون أن يضعوا في اعتبارهم المحاذير التي حذرّهم منها أفونسو دلبوكيرك، فقد تزاحم الرجال وراحوا يتنافسون أيّهم يصل أولا، ورغم أن هذا يدل على الشجاعة الاّ أنه سبّب فوضى كبيرة إذ لم ينضبط الإّ عدد قليل من حاملي ألقاب الفروسية وذوي الرتب، وقد أدّى هذا التزاحم والفوضى إلى كَسْر السلالم التي لم تتحمّل ثقل العدد الكبير التي ارتقاها في الوقت نفسه.

وعندما أدرك أفونسو دلبوكيرك أن سلالم المجموعة التي معه قد تكسّرت وأن رجاله سارعوا إلى سلم المجموعة التي على رأسها جواَو فيدالجو JOAO FDALGO قائد المجموعة المدربة، خشي أن ينكسر هذا السلّم أيضا، لذا فقد أمر حملة الفؤوس والرماح وأدوات الإصلاح للإسراع لمحاولة إصلاح السلم ودعمه ومنعه من أن يُكسر، ورغم جهودهم فقد كُسر هذا السلّم أيضا بسبب ثقل العدد غير الملائم من الرجال، وتكسّرت الرماح والسنادات قطَعاً، ومات عدد من هؤلاء المساعدين، وجُرح منهم عدد آخر [1].

وفي هذه الأثناء استطاع د. جارسيا بمعاونة مَن معه من القادة والقباطنة أن يضع سلالمه إزاء السور في مواضعها، ورغم أن المسلمين (أهل عدن) قد مركزوا عددا كبيرا من رجالهم لمواجهته إلاّ أنّ رجالنا قد ناوروا ودبّروا حتى أن عدداً كبيرا منهم قد تسلقوا إلى أعلى السّور، وجعلوا علمهم يرفرف فوقه. لذا فقد جرى القول إن جراسيا دي سوزا GRACIA DE SOUSA كان أول من وضع علَمه فوق أحد الأبراج الصغيرة فوق السور [2] TURRETS.

ولما رأى رجال المجموعة الذين مع افونسو دلبوكيرك أنّ زملاءهم قد ارتقوا السّور اعترتهم الغيرة فاتجهوا إلى السلّم الذي لدى مجموعة د. جارسيا قاصدين تسلقه فتكأ كئوا عليه فانكسر بدوره، بل وجُرح د. جارسيا نفسه، وكذلك عدد كبير من مجموعته. ولماّ رأى أن سلالمه قد تحطّمت وأنه هو نفسه لم يعد يستطيع أن يفعل شيئا، بل إنه مجروح وفي موقف عصيب، فقد جرى على

(١) انظر حفرا خشبيا باكرا لعملية تسلق الأسوار هذه في خريطة المتحف البريطاني Reproduced in Col. yule's Marco polo, 2nd cd., 1875, vol II p.488

(٢) cubelo. الكوبيلو cubello نوع من الأبراج كان يُقام سابقا على جدران مدينة أو حصن.

طول قمة السور بمن معه من الرجال واتجه إلى أفونسو دلبوكيرك يطلب منه المشورة بما يجب عليه عمله، فلما رآه أفونسو دلبوكيرك في هذه الحالة المؤسفة والدم يتدفق منه قال له: «ياسيدي، يا ابن اخت لاتندهش، فمن يزرع الشوك لايجني سوى الحصرم، أو بتعبير آخر ليس في هذا البستان الاّ هذه الفاكهة، ورغم أن هؤلاء المسلمين (يقصد أهل عدن) قد أصبحوا أفضل حالا وموقفاً منا لانكسار سلالمنا، فإنني واثق في ربنا ORU LORD أن سيمكننا من الثأر منهم في وقت آخر» ثم أمره أن يتخذ طريقه على طول السور مع رجاله ليرى، ما إذا كان يمكنه إحداث خرق يُمكِّن نحو عشرين أو ثلاثين شخصا من رماة السهام وحاملي البنادق ذوات الفتائل، من الدخول لمساعدة البعض من قوّاتنا ممّن ارتقى السّور، وأن يحصّنوا أنفسهم في بعض الأبراج الصغيرة فوق السور التي تم الاستيلاء عليها بالفعل، بينما يعمد هو - أي أفونسو دلبوكيرك - إلى العمل على إصلاح سلالم التسلّق لبذل محاولة أخرى للارتقاء إلى أعلى السور.

وحالما وصل د. جارسيا إلى كوّات السور (فتحات الرمى) اندفع خلالها فوجد قبالتها (من الداخل) ساترا بارتفاع قامة الرجل، فلما رأى رجالنا الكوّات وقد فُتحت جروّا سراعا لاقتحامها، لكن د. جارسيا الذي كان يحمل تعليمات من أفونسو دلبوكيرك بالاّ يسمح بالدخول إلاّ لرماة السهام وحملة البنادق ذوات الفتائل حاول بشق الأنفس أن يمنع الإّ أولئك المسموح لهم بالدخول ومع هذا فقد دخل جوآو د أتيد JOAO DE ATAIDE وبعض العسكر. فلما أدرك المسلمون MOORS (أهل عدن) قلة عدد رجالنا فوق السور وأن سلالمنا قد كُسِرت، اندفعوا عند فوّهات الإطلاق التي وسّعها د. جارسيا لمنع رجالنا من الدخول واستطاعوا إغلاقها ثانية بكميات كبيرة من الأحجار والأتربة والقش المشتعل وفي هذه الأثناء كان معظم رجالنا من حملة البنادق ذوات الفتائل والسهام قد مات، وجُرح آخرون، فقد عانوا معاناة من الدخان الخانق، بينما لم يستطع رجالنا الذين كانوا فوق السور منع المسلمين من سد الفتحات فلم يكن معهم رماح، وانما سيوف وتروس فقط.

الفصل الرّابع

جورج دي سيلفيرا وبعض ذوي الرّتب ممنّ كانوا فوق السور، بداوا يقفزون إلى الداخل، وراحوا يهاجمون المسلمين، وما جرى بعد ذلك

وعندما رأى القادة والقباطنةُ وحاملو ألقاب الفروسية وذوو الرتب ممَّن كانوا فوق السور أنَّ المسلمين (أهل عدن) يصيحون بهم من أدنى السُور*، ولا يقيمون لهم وَزْنا، غضبوا لكرامتهم، فلم ينتظروا أيَّ دعم يأتيهم وقفزوا إلى الداخل والتحموا معهم وأجبروهم على الفرار وتعقَّبوهم وهم يفرون بغير نظام داخل الاستحكامات التي أقاموها عند مداخل الشوارع التي تؤدي إلى ميدان السوق وقتلوا منهم عدداً كبيرا وهؤلاء القادة والقباطة وذوو الرتب وحاملو ألقاب الفروسية هم: جورج دا سيلفيرا JORGE DE SILVEIRA وإيرز سيلفا AIRES DA SILVA ود. جواَد دي ليما D. JOAO DELIMA وقيسنت دلبوكيرك VICENTE DALBOQUERQUE ود. جواَو ديسا D. JOO DES-SA وروى جلفاو RUY GALVAO وجواَو دي ميرا JOAO E MEIRA وروي بلها RUY PALHA وجواَو دي أتيد JOAO DE ATAIDE ومانويل دا كوستا MANUEL DA COSTE وجواَو جونسالفيز دي كاستيلو برانكو JOAO GONCALVEZ DE CASTELO - BRANCO وتريستاوي دي ميراندا TRI-STAO DE MIRANDA وجارسيا دي سوزا GRARCIA DE SOUSA ود. الفارو دي كاسترو D. ALVARO DE CUSTRO ولورنزو جودنهو LOU-RENCO وجل سيمون GIL SIMCES وغيرهم من خدم الملك.

---

* النص barking at them والمعنى قبيح وترجمته الحرفيه «ينبحون...» والاستعارة واضحة، لكن يكفي أن البرتغاليين فشلوا في تحقيق هدفهم ورأوا مدحورين كما سيتضح بعد ذلك.

ولّما رأى الأمير مرجان MIR MERJA قائد المدينة - الذي كان يراقب فرقة المقاتلين المدربين البرتغاليين، التي جعلها أفونسو دلبوكيرك على حافة السلسلة الجبلية - أنهم (أي هؤلاء البرتغاليين) لم يقوموا بأية حركة للهبوط، هجم على رأس مائة مسلم وانقضَّ على رجالنا من السور فواجهه البرتغاليون وقتلوا بعض رجاله، أمّا هو نفسه فقد جُرح. والسبب في قيامه بهذا التصرف أنّ خشي إن هبط رجالنا قبل أنْ ينقضَّ عليهم هاجموا مؤخّرة قوّاته. لكن بينما كانت هذه المواجهة تدور رحاها تجمعَ عدد كبير من المسلمين لدعْمه حتى أنّ رجالنا كانوا مُجْبرين على التراجع إلى أعلى إزاء السور فَقُتل جورج دي سيلفيرا كما جُرح عدد من الجنود البرتغاليين.

وفي هذه الأثناء مركز كل من جارسيا دي سوزا GARCIA DE DSOUSA ودوارت دي ميلو DUARTE DE MELO وجاسبار كاو GASPAR CAO وديوجو إستاسو DIOGO ESTACO وديوجو دي أندريد DIOGO DE ANDRADE وجواَو دي سوزا JOAO DE SOUSA وأندريه كوريا ANDRE CORREA ورجل مولّد MULATTO في أحد الأبراج الصغيرة فوق السور، وراح آخرون يراقبون - من فوق السور -المسلمين الذين اقتبروا وهم يطاردون البرتغاليين ويلاحقونهم وراحوا يقذفونهم من قرب قريب بالرماح الخفيفة[1] والسهام ولم يكن لدى رجالنا رماح تمكّنهم من مهاجمة العدو من أعلى وإبعاده. ولما رأى أفونسو دلبوكيرك - وكان في الجانب الخارجي بالقرب من السور - موقفَ رجالنا العصيب وضغط المسلمين عليهم، أصدر أوامره بإعداد سلّم آخر من أجزاء السلالم المكسّرة وأن يُجْري ربط هذه الأجزاء بالحبال حتى يمكن دعم أولئك الموجودين فوق السور، وحالما تمّ وضع هذا السلّم الجديد إزاء السّور حتى تسارع الجنود إليه راغبين في الصعود ولم تُتَحْ فرصة لمن فوق السور للنزول، ونظراً لكثرة عدد الجنود سقط هذا السلّم الجديد أيضا وتكسّر وأصبح قطعاً كثيرة. وخَجِل أنريك هو ميم ANRIQUE HOMEM الذي كان ينسحب مع مجموعه من هذه المأساة ومن محاولته غير المُتقنة لدعْم رجالنا، فحاول

(١) zagunchos

إنزال السلّم مرة أخرى لكن لم يكن الوقت كافيا لهذه المحاولة فأسرع افونسو دلبوكيرك ووبّخه وأجبره على العودة ثم اتجه إلى د. جارسيا D. GARCIA الذي كان قد تركه يُصلح السلّم والحبال حتى يتمكن رجالنا من النزول من فوق السور، ولأنّ السلّم كان قصيرا جدا، فقد استخدم رجالنا الحبال ونزلوا بأمان، فلم يبق أحد فوق السور إلاّ جراسيا دي سوزا والرجل الخلاسي (المولّد) التابع له. فلما رأى جراسيا دي سوزا أنّ الجميع قد تركوه بدأ ينادي أفونسو دلبوكيرك بصوت عال قائلا: «سيدي، فلتأمر بعض الرجال ليأتوا معي ليساعدوني في الدفاع عن هذا البرج الصغير فوق السور، فمن كانوا معي تخلّوا عني». وكان مَنْ مع جراسيا دي سوزا قد تركوه ونزلوا مستخدمين الحبال الآنف ذكرها وكُسرت أرجل بعضهم لفرْط عَجَلَتِهِم. لقد أصبح أفونسو دلبوكيرك حزينا جدا لوصول الأمور إلى هذا الحد ووجد نفسه عاجزا ليس من وسائل لديه لتحسين هذا الموقف الصعب فقال له: «لا أعرف ماذا أفعل لك فكل السلالم قد تهشّمت وليس بإمكاننا أنْ نفعل أيّ شيء، فساعةُ عدن لم يحن حينها، لذا أرجوك أنْ تُنقذ نفسك بهذه الحبال كما فعل القادةُ والقباطنةُ وحاملو ألقاب الفروسية الآخرون ممّن هم معي الآن».

ولم يُجب جراسيا دي سوزا وإنما استدار ناحية المسلمين (جند أهل عدن) الذين كانوا يشقّون طريقهم ليصلوا إليه في البرج الصغير أعلى السور، وقال للرجل الخِلاسي (المولّد) التابع له: «أنقذ نفسك لأنني سأموت هنا، فالله لم يُرِد أنْ أنزل من فوق هذا السور الاّ بالطريقة التي صعدتُ بها إليه. خذ تِرْسي هذا وسلّمه لسيّدنا الملك ليكون شاهدا أمامه أنني لقيت حتفي هنا لخدمته» ثم أخرج قطعة من خشب الصليب كان يعلّقها حول رقبته وأعطاها للخِلاسي (المولّد) التابع له، وفي هذه الأثناء كان المسلمون (جنود عدن) قد وصلوا بالفعل إلى قمة السور بالقرب من البرج الصغير الذي يحتمي به دي سوزا، فدافع دي سوزا والخِلاسي التابع له دفاعا مستميتا حتى أصابت إحدى سهام المسلمين رأسه أخيرا فانطرح وهَلَكَ بعد أن أحدث في صفوف المسلمين خسائر كبيرة.

وعندما وجد الخلاسي – الذي كان مصابا بجرح قاسٍ بالفعل – أن سيّده قد

هلك أخذ الترس وهبط مستخدماً الحبال .. وهذا الترس كان قد صُنع على نَسَق التروس المصنوعة من جلد البقر والتي يشيع استخدامها في المالابار، وكان عامراً بالسهام التي غُرست فيه. لقد استمرت هذه المعركة من الفجر حتى منتصف النهار حيث انسحب رجالنا. إنني لا ألوم جراسيا دي سوزا لرفضه أنْ يفعل كما فعل غيره من حاملي ألقاب الفروسية وذوي الرتب ولا ألوم هؤلاء الذين تركوه وتخلّوا عنه لأن كل السلالم كانت قد تكسَّرت ولأنّ السور كان شامخا ولم تكن هناك وسائل لارتقائه وليس من مَوْضع يمكن منه إطلاق المدافع عليه لارتفاع المد. ولأترك الأمر لقارئ هذا الكتاب ليحكم في هذا الأمر بما يشاء.

الفصل الخامس

افونسو دلبوكيرك يُجمّع قواته ويستعد لركوب السفن، وطلبه من د. جارسيا أن يستولى على المدافع التي نصبها المسلمون في جزيرة صيرة والتي راحوا يطلقونها على أسطولنا

بعد أن جمع أفونسو دلبوكيرك الكبير كلّ قوّاته استعدادا لركوب السفن، أمَر الأميرُ مرجان بإطلاق المدافع التي مَرْكزها في جزيرة صيرة* CIRA مما أدّى إلى مقتل بعض رجالنا وجرح كثيرين منهم. لقد أحدثت هذه المدافع الكبار أضرارا كبيرة برجالنا ولم يكن أفونسو دلبوكيرك يستطيع مقاومتها فلم يكن لديه سلالم لارتقاء الأسوار ولا وسائل تمكّنه من مبادلتها الضرب وكانت الحرارة شديدة شدّة غير عادية والرجال مرهقين فاضطر أفونسو دلبوكيرك للتوجه برجاله لركوب السفن.

وكانت أمواج المد واصلة إلى أدنى السور وكان اتجاهه لركوب السفن على غير رغبة كل الرجال، فقد كانوا راغبين في العودة إلى خوض المعركة، وكانوا راغبين في أنْ يأمر أفونسو دلبوكيرك بإنزال مدافعه الثقيلة ووضعها على الشاطىء وضَرْب السور بها لإحداث مدخل تحت ساتر قذائفها.

لكن أفونسو دلبوكيرك كان واعياً تماماً بعدم إمكانية تنفيذ ذلك للصعوبات التي أشرت إليها آنفا ولحالة المد، ولأن الرياح الموسمية أيضاً كانت قد بدأت تخف، وقضاءُ يوم آخر عند عدن قد يعّرض الأسطول لنقص شديد في المياه،

* في بعض الأطالس سيرة بالسين غير المعجمة، وأيضاً سيرا.

وأنّ العودة ثانية قد تعني ضياع شهرين ونصف شهر، وأنهم إذا كانوا راغبين في دخول مضايق البحر الأحمر فإن الرياح الشرقية على وشك أن تكُف عن الهبوب، لكل هذا فهو لم ينفّذ ما ذهبوا إليه وانما انسحب إلى السفن بكل قوّاته، وفي صباح اليوم التالي أمر ابن اخته د. جارسيا دي نورونها D.GARCIA DE NORONHA ومعه كل رجاله ليستولي على برج جزيرة صيرة ومتاريسها. وعند الوصول إلى قاعدة البرج مع كل القوة المصاحبة له شنّ هجوما شجاعاً أدىّ إلى الاستيلاء على البرج بخسائر لاتكاد تذكر. ولأنّ المسلمين (مقاتلي عدن) لم يستطيعوا مواجهة هذا الهجوم فقد قفز كثيرون منهم من أعلى السور وفرّ آخرون إلى المدينة، أمّا من بقى فقد أعمل رجالُنا فيهم السيف جميعا.. وكان في هذا البرج والمتاريس الملحقة به ثلاثة وستون مدفعاً(١) من حجم مدافعنا التي من نوع الكاميلو(٢) CAMELO ومدافع أخرى أصغر حجما. وبعد أن حقّق د. جارسيا هذا النصر تمركز في الحصن حتى حان وقت إبحار أفونسو دلبوكيرك لمضايق البحر الأحمر فقذف المدينة بمدافعه وأسقط كثيرا من منازلها.

وعندما عاد د. جارسيا إلى السفن أمر أفونسو دلبوكيرك كل الرّيسا MAS-LERS في الأسطول بإعادة تجهيز السفن بحبال الصواري وكل ما يلزمها وذلك من سفن المسلمين الموجودة في الميناء، كما أمر بسلب كل البضائع والمؤن الموجودة في سفن المسلمين تلك وبعد ذلك أمر بإشعال النيران فيها فلم يبْق منها سفينة واحدة.

وكل ما يمكن قوله فيما يتعلق بمحاولة البرتغاليين الاستيلاء على عدن أن القباطنة والقادة وذوي الرتب وحاملي ألقاب الفروسيّة قد هاجموا المدينة بشجاعة فائقة وخاضوا معركة شرسة لكن الحظ لم يحالفهم، لقد حسدهم الحظ وغار منهم فتخلّى عنهم فكيف يستولون على مدينة كبيرة وعظيمة ومهمّة جدا

---

(١) Bombardos, mortars

(٢) انظر جـ١، حواش ٢٢

كعدن، رغم لِحْية السلطان الكبير (سلطان مصر المملوكي)، ولولا تحطم السّلالم جميعا في وقت واحد - ذلك الحادث غير المتوقعّ - لأمكنهم الاستيلاء عليها، فقوات العدو لم تكن لتجسر على التلاحم مع القوات البرتغالية في شوارع المدينة رغم أنّ العدنيين كانوا قد رأوا أسطولنا من فوق قمم سلسلة جبال دارسينا[1] ARZINA قبل وصوله إلى ميناء عدن بثلاثة أيام. حقا لقد كان عملا يشرف البرتغال ويحقق مزايا كثيرة لأمن الهند، لوْ أننا استطعنا الاستيلاء على عدن والتحصّن فيها.

ولقد كان أفونسو دلبوكيرك يُكرر دوما أنّ للحفاظ على الهند في حوْزة البرتغال ومنع الاضطرابات في المناطق التابعة لملك البرتغال ضرورة في الاحتفاظ بأربعة مواضع:

عدن - لضمان السيطرة على مضايق مكة STRAITS OF MECA (يقصد مضايق البحر الأحمر) وذلك قبل أن يستطيع السلطان الكبير (السلطان المملوكي في مصر) إحباط المحاولات البرتغالية للاستيلاء عليها، وهرمز - لإحكام السيطرة على مضايق البصرة BACARA (يقصد الخليج العربي)، وديو DIU وجوا (كوا) للسيطرة على كل أنحاء الهند ولو أن البرتغال أمّنت لنفسها هذه المواضع الأربعة، وجعلت فيها حصونا منيعة لو فّرت كثيرا من المصاريف غير الضرورية التي تنفقها الآن.

وبعد أسبوعْين من إقامة أفونسو دلبوكيرك سلالم التسلّق إزاء أسوار عدن وصل للسلطان الكبير في القاهرة أخبار حملها راكب بعير أرسله شيخ عدن XEQUE OF ADEM لإخباره بدخول البرتغاليين البحر الأحمر وقطعهم طريق الحج إلى مكة (المكرّمة) فرد عليه سلطان القاهرة قائلا إنّه إذا كان البرتغاليون قد دخلوا البحر الأحمر فلا بد أن يحمي شيخ عدن موانئه وبلاده بنفسه، تماما كما أنه - أي سلطان القاهرة - سيحمي الموانىء التابعة له، والبلاد التابعة له، وسبب هذا الرد العنيف من سلطان القاهرة أنه (أي سلطان مصر المملوكي) كان قد أرسل لشيخ عدن منذ أيام قلائل مطالبا بتبعية عدن له HAND IT

---

(١) أطلق عليها الشاعر البرتغالي كاموس اسم Arzira، انظر الفصل٢

ذاكراً أنها كانت تابعة لأبيه وأجداده، لكن شيخ عدن أجاب OVER TO HIM بأنه ليس لعدن سيد سواه (أي سوى شيخ عدن). وقد أفاد المسلم حامل هذه الرسالة والعائد من القاهرة أن جدة قد قلَّ سكانها وأخرج منها النساء والأطفال خوفا من أسطولنا، وأن في القاهرة اضطراباً هائلاً بسبب ما أفادت به الأخبار من أن المسيحيين CHRISTIANS قادمون لغزو الاسكندرية، وأن الشاه إسماعيل XEQUE ISMAEL قادم بجيش كبير ضد حلب ALEPPO، لدرجة أن السلطان الكبير (المملوكي) عند سماعه دخول الأسطول البرتغالي مضايق البحر الأحمر غدا في غاية الحذر لأنه كان يعتقد أن ذلك جزء من خطّة معدّة سلفا لتدميره، وأن هذا الشيخ XEQUE نفسه (يقصد هنا السلطان المملوكي) أمر بإعدام أمير كبير AMIRQUEBIR وأوده كبير UDAQUEBIR ومرسال كبير MIRCELAQUEBIR وهم القادة العُمُد في مملكته لشكّه في أنهم ضالعون في هذه المؤامرة ضدّه، وأنه استدعى والي دمشق لكنه لم يحضر مخافة أن يتم إعدامه كما حدث للآخرين. وكل هذه الأخبار أكدّها بعد ذلك لأفونسو دلبوكيرك أحد الأحباش أتى مع روي جالفاو RUY GALVAO في زيلع ZEILA في رحلة العودة (أي عودة أفونسو دلبوكيرك وأسطوله) خارجين من مضايق البحر الأحمر.

الفصل السّادس

أفونسو دلبوكيرك يغادر ميناء عدن متجهاً مباشرة إلى مضايق البحر الأحمر

بعد أن أصبح أفونسو دلبوكيرك مستعداد للإبحار وزوّد أسطوله بكل ما هو ضروري لتأمين الرحلة، أرسل سفينة شول* (شاول) التي كان جواَو جوميز goao gamez قد أسرها في سقطرى - لتسبق أسطوله، وجعل فيها عشرين برتغاليا، ومترجما يهوديا، طالبا منهم أن يُحضروا مرشدا عند مدخل المضايق إذْ إنَّ عددا منهم يُقيم في هذه المناطق، ذلك لأنه كان يخشى أنهم إذا رأوْا أسطولنا الكبير كله، فرّوا، وبذلك يصبح بلا مرشد يُصاحبه إلى هذه الأنحاء. وحالما وصلت هذه السفينة إلى جزيرة تقع عند مدخل المضايق حتى أتى واحد من المرشدين ورحّب بها وصعد إلى متنها سائلاً إياهم إنْ كانوا في حاجة إلى مرشد، عندئذ خرج رجالنا من مخابئهم وأمسكوا به. وهؤلاء المرشدون يطلق عليهم اسم الربابن rubaes (أو الربابنة) وهم يعيشون عند مدخل المضايق في الجزيرة التي ذكرتها آنفا. ويتقنون الملاحة من هذه النقطة إلى داخل البحر الأحمر ولديهم خبرة كبيرة بكل المواضع الضحلة والمرافيء في هذه الأنحاء، والسفن التي تقصد إلى ميناء داخل البحر الأحمر تعمد إلى هذه الجزيرة طالبة مرشدا وتدفع الواحدة منها للمرشد ثلاثين كروزادو gruzados لمرافقتها حتى جدة.

وحالما انطلقت سفينة شول (شاول أو شيول) هذه أمر أفونسو دلبوكيرك

---

* تكتب أيضاً شيول

بالانطلاق مباشرة إلى المضايق فوصل إلى مدخله في غضون يومين. ولأنهم كانوا أول برتغاليين يصلون إلى هذا المدخل منذ اكتشاف الهند فقد أمر أفونسو دلبوكيرك برفع الأعلام على السفن وبإطلاق المدافع جميعا، فغمرت الفرحة كل من في الأسطول، واتجهوا للرسو في الميناء الشرقي الذي يقع مباشرة داخل مدخل المضايق فلمّا رسا الأسطول فإن رجالنا (الذين كانوا قد سبقوا في سفينة شول الآنف ذكرها) عادوا ومعهم المرشد الذي أمسكوا به، ورغم أن أفونسو دلبوكيرك كان يحمل معه ثلاثة مرشدين كان قد أسرهم من بعض السفن من زيلع كانت قد وصلت إلى ميناء عدن، فإنه كان مسروراً جدا لرؤية هذا المرشد الجديد فاستقبله استقبالا حسنا جدا، وفي صباح اليوم التالي ظهرت سفينة مسلمين في طريقها إلى داخل البحر الأحمر لكنها عندما رأت أسطولنا غيرت صواريها (اتجاهها) واتجهت لترسو وراء الجزيرة الواقعة في مدخل المضايق وهي جزيرة بريم [1] MIUM ابريم PERIM ويطلق عليها أحيانا ميون MEYUNفي ناحية الرياح التي تهب جهة اسطولنا، وبذلك نجت ولما رأى أفونسو دلبوكيرك أنّ الوقت يمر بسرعة، وأن حاجته لمياه الشرب شديدة، وأنه لم يكن يعلم أين يتزود بها إذا لم يخبره المرشدون المسلمون بأنه يمكن الحصول عليها من جزيرة كمران COMARAO - لكل هذا لم يسمح بمزيد من التأخير اذا أبحر في اليوم التالي متخذاً طريقه إلى عُرض البحر حيث البحر أكثر اتساعاً، أي من وسط المضايق، مراعياً أن يكون إزاء ساحل شبه الجزيرة العربية، وأن يكون ساحل الحبشة (بريستر جون) دائما مرئياً فوصل الأسطول البرتغالي أمام جزيرة تقع في منتصف هذا المضيق هي جزيرة جبل زكور [2] (زقر) jebelzocor (jebel zukur) لكنه لم يرس عندها هذا اليوم، فأرضها كانت جديدة بالنسبة له وللبرتغاليين الذين معه، فقد كان عليهم أن

---

(١) جزيرة بريم perim تسمى أحياناً ميون meyun جزيرة صخرية عارية أقرب لأن تكون مسطحة . طولها قرابة ثلاثة أميال وعرضها ميل وثلاثة أرباع الميل قريبة من باب المندب.

(٢) جبل وقر zukur عند خط عرض ١٤° شمالا، وهو أعلى جزيرة في البحر الأحمر وربما جرى اعتباره جبلا صغيرا. محيطة نحو ٢٨ ميلا. طوله نحو ٩ أميال من الشمال إلى الجنوب ، يتكون من سلسلة تلال شامخة جرداء.

يسبروا أغوار مياهها بالمسابير الرصاصية التي معهم، وعندما كانت الشمس تغرب طلب أفونسو دلبوكيرك من المرشدين أن يدلّوه على ميناء (من هذه الجزيرة) فجعلوا الأسطول يبحر ليكون في مواجهة سواحل شبه الجزيرة العربية ومن هناك إلى رأس الجزيرة حيث بقي محتميا من الرياح الشرقية وهناك ألقى الأسطول مراسيه في مياه عمقها ما بين ثماني قامات (فازومات) واثنتي عشرة قامة (فازوم) وكان في الميناء أربع سفن من بربرة وزيلع محملة بمؤن لجدة ومكة وقد حمل المسلمون فيها بعض النسوة والشباب الأحباش لبيعهم في جدة. غير أنّ (الحبشة) بلاد بريستر جون (بريستاو جوآو) فإن أفونسو دلبوكيرك لم يسمح بأسر هؤلاء الأحباش، وأما لابد من أسر هؤلاء المسلمين الذين فرّ بعضهم بالقفز إلي المياه وراحوا يسبحون هاربين، أما من بقي منهم فقد أمر بقطع أيديهم وآذانهم وأنوفهم لأنهم تابعون لشيخ xeque عدن وأمر بإنزالهم على برّ بلادهم، وراح أفونسو دلبوكيرك يتصرف على هذا النحو مع كل مَن أسرهم في منطقة المضايق ماعدا أهل كمران لأنه كان قد عقد العزم على إبرام معاهدة سلام مع هذه البلاد (الجزيرة).

الفصل السَّابع

وصف المناطق القريبة من موانىء مضايق البحر الأحمر

بوَّابات مضايق البحر الأحمر التي يُسميها المسلمون باب المندب ضيقة جدا، وهي تقع عند خط عرض ١٢,٢ْ وفي هذه المضايق جزيرة تمتد ناحية اليمن منها ويسميها المسلمون ميون* mium، وتمتد على أحد الجانبين مناطق بريست جواَو (بريستر جون أو الحبشة) ويسميها المسلمون jazem **، وتمتد على الناحية الأخرى مناطق شبه الجزيرة العربية. وبين هذه الجزيرة الآنف ذكرها والبر يوجد ممر مائي أو قناة لايزيد عرضها عن فرسخ واحد تمر فيه كل سفن المسلمين المتجهة للسويس والمناطق الأخرى على ساحلَيْ البحر الأحمر، ذلك أن هذه السفن تأتي بفعل الرياح الشرقية ومن ثم فإنها تركن إلى ناحية سواحل شبه الجزيرة العربية حيث بها موانىء ومرافىء محمية. وفي مواجهة جزيرة بريم mium تقع جزيرة صغيرة جدا (١) islet يمكن للمرء في حالة الجَزْر أن يعبر منها إلى البر الرئيسي دون أن تَبْتَلَّ قدماه. وفي هذه الجزيرة يعيش الربابنة rubaes الذين هم مرشدو المضايق. ويبلغ عمق المياه في وسط هذا المجرى نحو ثنتي عشرة قامة (فازوم)، وفي المرفأة المحمي من الرياح الشرقية يتراوح عمق المياه بين سبع قامات وتسع. ولا يوجد في هاتين الجزيرتين ماء عذب كما لا يوجد أي مرفأ محمي من الرياح الغربية، ويتم جلب المياه من البر

* ميون أو ميوم وهي بريم

** استخدمت هذه الكلمة في هذا الفصل - بعد ذلك - لتعني جازان ومعنى هذا أنها على ساحل شبه الجزيرة العربية وليست على البر الأفريقي. هناك إذن خطأ واضح وقع فيه المؤلف.

(١) شيخ ملو Malu ويسميها الليفتنانت جراي Gray في خريطته لجزيرة بريم والتي رسمها ١٨٧٤ باسم جزيرة المحَار oyster is.

الرئيسي على ظهور الجمال، وخلف جزيرة الربابنة هذه rubaes، قبل المدخل إلى بوابات المضايق مباشرة يوجد مرفأ جيد على البر الرئيسي محمي من الرياح الغربية ويتوفر فيه المياه المجلوبة من موضع غير بعيد عن الساحل. وبين جزيرة بريم milm وبلاد الحبشة[1] (بريست جواو أو برستر جون) يوجد ممر مائي آخر canal يبلغ عمق المياه فيها خمساً وسبعين قامة (فازوم) ويبلغ عرضه فرسخين. ولايبحر في هذا الممر سوى عدد قليل من السفن رغم أنّه اوسع وأكثر عمقا من الممر الآخر وتعليل ذلك أنه ليس في هذا الممر الأخير مرفأ يحمي من الرياح الشرقية يمكنهم الرسوّ فيه إنْ دعت الضرورة.

ويقسم المسلمون إبحارهم في البحر الأحمر[2] إلى ثلاثة

– «......

– انظر إنّم عند رأس جوردفوي،

– بعدها يفتح البحر الأحمر فاه عريضاً عميقاً،

– فالبحر بقاعه المتورّد كأنه قد استحى خجلا فاكتسى حُمرة،

– فلم يعد قادرا على حماية تخوفه فهامُم يندفعون إليه،

– وهنا الحد الفاصل بين آسيا وأفريقيا.

(١) انظر جـ ٢، فصل ٤٩

(٢) الشاعر البرتغالي كاموس تخيل السّيرانا تغني

"O eabo ve ja aroni:te cbanulo. f. agora Guardafu ??????? Oude coucea ·/ .// do afamndo Mar Roxo, que do ///// toma as cores Este como limite esta lancado, Que divide Asia de Africa; e as melhores Povoacoes, Que a parte Africa tem, Macua sao, Arquico, e Suanquem.

"Ves o wxtremo Suez. Que antiguamente, Dizem, que foi dos heroas a cidade, Outros dizem que Arsinoe, e ao presente Tem das frotas do Egypto a potestade: Olha as aguas, nas quqes abrio patente Estrada o grao Moyses na antigua idade: Asia comeca aqui, que se apresenta Em terras grande, em reinos opulenta.

"Olha o monte Sinai, que se ennobrece Co' o sepulchro de sancta Caharina: Olha Toro, e Gida, que the fallece Agua das fontes doce, e crystalina: Olha as portas do estreito, que fenece No reino da secca Adem, que confina Com a serra d' Arzira, pedra viva, onde chuva dos ceos se nao deriva.

"Olhas as Arabias tres, que thnta rerra Tomam, todas da gente vaga e baca, Sonde vem os cavallos para a guerra, Ligciros, e feroces, de alta raca.

Olha a costa, que corre ate que cerra Outro estreito de persia, e faz a traca O cabo, que co'o nome se appellida Da cidade Fartaque laai sabida.

"olha Sofar insigne, porque manda O mais cheiroso incenso pqrq as aras," etc. lusiadas,x, 97 - 101.

– وهنا قليل من أفضل أسواق بر الزّنج

– هنا أركوكو* arquico (؟) ومصوّع وسواكن.

– انه منظر في أقصى طرفه تقع السويس،

– التي كانت يوما مدينة عظيمة..

– إنها مدينة تتحدث عنها الحوليات القدمية،

– وفيها اليوم أساطيل مصر وسفنها التجارية،

– انظر الى عمق المياه في البحر الأحمر، لقد شقّه موسى العظيم في القرون الخوالي،

– هنا تبدأ آسيا باتساعها الهائل،

– حيث المناطق والممالك والإمبراطوريات الثريّة..

- – انظر جبل سيناء بشموخه وتباهيه،

– والتابوت الفضي لكاترين المقدسة،

– وانظر لميناء الطور وجدّة، قليل ماؤهما العذب،

– قليل عيونهما الفوّارة المترقرقة المياه،

– انظر لمضايق البحر الأحمر فهنا حدّ الجنوب،

– وممالك عدن القاحلة التي تحدها

– سلاسل جبال أرزيرا (؟) arzira

– حيث لا مطر..

– وانظر لشبه الجزيرة العربية بسواحلها الثلاثة، إنها شاسعة،

– ناسها سُمر تعتريهم صفرة tawny ينتشرون بشكل غامض فوق الأرض الشاسعة،

– من هنا تأتي الخيول العربية، إنها أفضل الخيول لخوض المعارك.

– إنها خيول نبيلة من سلالة راقية، كرّارة فرّارة، خفيفة الأطراف، مُعافاة،

– انظر للساحل الذي يمتد متصلا مترابطا،

– وانظر أبعد، انظر إلى مضايق الخليج persian straits حيث يمكن للنظر

* لعلها أبوك

أن يتابع

- الرأس شامخاً فخورا، انه اسم جدير بنا،
- وانظر إلى مدينة فرتك ذات الشهرة،
- وانظر إلى ظفار التي قدّمت لمذابح كنائس المسيحيين البخور القبقة.. الخ

(بيرتون)

أقسام، ونظن أن القواعد الأساسية لهذا التقسم تقوم على أنّ عرض البحر الأحمر يوجده فيه اثنا عشر جِمّا GEMMAS وهذا يعني ثلاثة مسارات يوميّة قوامها نحو ثلاثين فرسخا في العرض الأوسع للبحر، وهي تنقسم على النحو الآتي: أربعة جما GEMMAS أوْ سانجرادورا [1] SANGRADURA واحدة من البحر الرديء FOUT SOQ والجزر والمياه الضحلة والحيود البحرية الجزئية على طول سواحل شبه الجزيرة العربية وحتى السويس، وأربعة جما GEMMAS أخرى من البحر الرديء FOUL SEA كما وصفت آنفا على طول سواحل الحبشه (برست جواو) حتى القصير [2] COARحيث المسافة بينها وبين السويس كالمسافة بين الطور [3] OTOR والسويس. اما اربعة الجما GEMMAS الأخرى فهي من البحر الرائق CLEAR SEA في وسط البحر MIDDLE J THE STRAITS. وفي هذين القسمين اللذين جعلهما المسلمون للبحر العكر FOUL SEA يتراوح عمق المياه من ثماني قامات (فازومات) إلى اثنتي عشرة قامة (فازوم)، والقاع حيد جزئي. وإذا أمسك المرء بحبل المسبار (حبل سَبْر الأعماق) بيده يمكن للمرء أن يرسو حيث يشاء. لكن بالنسبة للملاحة في هذا البحر الخام أو الخشن ROUGH SEA يتم اصطحاب المرشدين عند بوابات المضايق لأنه إن كانت الرياح غير ملائمة يمكنهم أخذ السفن في ميناء

(١) Sangraduras. السانجرادورا أو السينجرادورا Singradura هو المسافة التي تقطعها السفينة في ٢٤ ساعة.

(٢) انظر جـ ١، فصل ٢٤ (*) لا علاقة بين هذه الاشارة وماورد في الفصل المذكور.

(٣) هي الطور وحرف O في بداية الكلمة أداة تأنيث برتغالية كما في oporto.

بين الجزر والمياه الضحلة وينتقلوا بها من ميناء إلى آخر.

المجرى CANAL الذي يؤدي يؤدي إلى وسط المضايق الذي يسميّه المسلمون بالبحر العريض يتراوح عمق المياه فيه بين خمس وعشرين قامة (فازوم) وأربعين قامة، وللإبحار هنا لاتحتاج السفن لاصطحاب مرشد فما دامت هذه السفن قد أتت في طقس مستقر فإن الرياح نفسها التي ساعدتهم على المجيء تمكنهم من الملاحة في البحر الواسع حيث يمرون بجزيرة تسمى زقر [1] JAZELZOCOR (JEBELZOCOR) التي تقع كما ذكرت في وسط المضايق ووراءها - في مواجهة جدة [2] JUDA - تقع جزيرة أخرى تسمى سور دمياط [3] SERTAO والسفن ترسو عندما ترى ذلك ملائما لان فيها مرسى طبيعيا (مُكَلاّ) جيدا جدا. ورغم كل السّخافات [4] التي ردّدها القدماء عن هذا البحر العكر FOUL SEA فقد أمكن لسفننا أن تبحر فيه وتعبره من جانب إلى آخر نهارا بأمان بعد اتخاذ الاحتياطات، لكن ليس ليلا، كما كان في إمكان سفننا الإبحار في وسط المضايق ليلا أو نهارا دون أية عوائق وأن ترسو وقتما تشاء مما يدل على تزوّدها بحبال متينة.

وليس في المضايق STRAITS ماء عذب، ولاتوجد صخور تحت سطح الماء لا يغطيها الاّ قليل من الماء كما اعتاد مسلمو هذه الانحاء القدماء القول، فهم كانوا يقولون ذلك حتى لا يجسد أحد غيرهم على الإبحار في هذه الأنحاء. وليس هنا عواصف ولا رياح عكسية ولا رعود هائلة [5] MUNDERINGS والرياح التي تهب في الربيع دائما شرقية، أما في الشتاء فالرياح غالبا غربية، لكن في بعض الأحيان يهب النسيم من ناحية البر بعد هبوط الليل، لمدة ساعة، وذلك عندما تهمد الرياح الشرقية. إنها بلاد حارة [6] HOT LAND ويسمي

---

(١) انظر حواشي الفصل السادس حيث كتبت الكلمة Jebelzcor.

(٢) ربما كان المقصود هنا عيد Eid

(٣) جزيرة كور دمياط kurdumyat أو سور دمياط cur domeate

(٤) Biocos، انظر جـ ٣، فصل ١٦، حاشية ٣.

(٥) Hurricanes عواصف شديدة غالبا ما تكون غير معروفة في البحر الأحمر، بينما العواصف المعتادة والنسيم الذي يحرك الشراع الثاني هما الأكثر حدوثا.

(٦) المناخ في البحر الأحمر هو الأكثر حرارة في العالم - باستثناء مناخ الخليج persian gulf، إذ تبلغ درجة الحرارة في البحر الأحمر في نهاية يونية قرابة ٩٨ فهرنيت ترتفع الى ١٠٥ في الظل في اغسطس

المسلمون مضايق البحر الأحمر باسم بحر القلزم BAHAR QUPIXUM وتعني بلغتنا البحر المغلق، وفي رأيي ان اسم البحر الأحمر هو أكثر الأسماء ملاءمة لهذا البحر لأن كان مضايق هذا البحر فيها كثيرمن البقاع يصطبغ ماؤها بلون الحمرة (وأنا في هذا لا أحذو حذو أفكار الذين كبتوا تاريخ الهند وإنما أحذو حذو رأي أفونسو دلبوكيرك الذي كان أول من توغّل في هذا البحر بعد اكتشاف الهند).

وبعد أن رسا أفونسو دلبوكيرك بكل اسطوله إزاء ميناء مَحْمِيٍّ من الرياح الغربية استعدادا لرحلة العودة للهند رأى من فوق أعْلى الدَّقل (أو الصاري) قطاعا من البحر مصطبغا بحمرة قانية في اتجاه مدخل المضايق ومن ثم إلى عدن ويمتد الى مدى الرؤية، وقد أصيب أفونسو دلبوكيرك بالرعب لرؤية هذا المنظر فسأل المرشدين المسلمين عن معنى هذا اللون الأحمر الممتد في مياه البحر، فطمأنوه قائلين إن عنف حركة المد والجَزْر مع قلة عمق المياه بالإضافة إلى أن القاع صخري كل ذلك هو سبب هذا اللون لكن السبب الأساسي هو الجَزْر أو هبوط المياه مما يؤدي إلى قلة المياه في منطقة المضايق بسرعة، فلاتصبح هناك تيارات مائية خلال المضايق، وعندما تصبح الرياح مرتفعة (غير قريبة من سطح الماء) يقل جريان الماء، خاصة إن كانت الرياح تهب من الغرب إذ تندفع المياه عندها بعنف أكثر خارجة من المضايق، فتزداد حُمرة البحر، ويوجد من رأس البحر الأحمر straits أعني السّويس إلى البحر الشرقي levant sea (أي البحر المتوسط) طريق قصير جدا، وعلى وفق ما سجله المسلمون في كتاباتهم فإنَّ الاسكندر الأكبر عندما غزا هذه البلاد كان قد نوى ربط البحر الأحمر بالبحر الشرقي levant (المتوسط) باستخدام مجرى النيل، وقال المسلمون الذين تناقش معهم أفونسو دلبوكيرك إن آثار هذا العمل (أي ربط البحر الأحمر بالنيل ومن ثم بالبحر المتوسط) مازال ظاهرا متمثلا في طريق من القاهرة إلى القدس يسمّيه المسلمون الرَّملة [1] ramila.

وتتبع المنطقة الممتدة من مداخل البحر الأحمر على طول سواحل شبه

---

(١) الرملة Ramleh. آثار هذه القناة تظهر في وادي طميلات Tumilat التي نقلتها أخيرا قواتنا من الاسماعيلية ismailijeh التل الكبير.

الجزيرة العربية حتى كمران[1] comarao، شيخ عدن xeque of adem وعلى طول هذا الساحل لاتوجد مدينة واحدة ولا ميناء ممتاز، فليس هناك إلاّقرى وأجزاء من البر ناتئة في البحر تحتمي السفن بها من الرياح الشرقية والرياح الغربية. وتنبع المنطقة من كمران camarao حتى جدّة juda شريف جازان ja- zem. اما جدّة نفسها فهي تابعة للشريف بركات parcati، لكن في الوقت الذي وصل فيه أفونسو دلبوكيرك إلى البحر الأحمر كانت تابعة لسلطان القاهرة الكبير (السلطان المملوكي) الذي عيّن فيها وكيلا تجاريا وجعل معه عشرين مملوكا لجمع الضرائب على البهار وكل البضائع التي تصل إلى الميناء. وجدّة ميناء صغير، وغالب المنازل فيها من قش، لكن عندما هزم د. فرنسسكو دي ألميدا d.francisco de almeida الروم (مماليك مصر)[2] أتى الأمير حسين mirocem ليعيش في جدة فأحاطها بالسور وشيدّ أبراجا ليحميها من هجمات البدو alarves الذين يعيشون في الصحراء حتى مكة meca (التي تستغرق الرحلة اليها يوما) لأن هؤلاء البدو ينقضون على جدة ويسرقون سكانها، أما من ناحية البحر فلم يقم ببناء تحصينات فلم يكن أهل جدة يخشون من ناحية البحر شيئا.

وميناء جدّة مطوّق بحيود صخرية تشبه الجزر وتشكل شواطىء قرب البر تغطيها المياه hidden . وهي ميناء مَحْمي من كل الرياح. وليس في جدة مؤن وانما يتم جلبها من بربرة barbora وزيلع[3] zeila وألارجا[4] (ras aar alaca gah) ومصوّع[5] mecua وفي أثناء الفترة التي قضاها أفونسو دلبوكيرك في البحر الأحمر عانى سكان جدة بشدّة من المجاعة لأن المسلمين لم يكونوا يجسرون على القيام برحلاتهم التجارية.

ومن جدّة الى الطور otor تعيش قبائل بدويّة كثيرة alarves. والطور هي مدينة المسيحيين. ومن رأس سدر[6] acintura حتى السويس في المناطق الداخلية

(١) خليج كمران Kamaran ، إلى الادنى من الحية Loheyyah التي نقلتها أخيرا قواتنا من الاسماعيلية mlijehis لتل الكبير.

(٢) انظر ج٢ ، فصل ٤. (٣) انظر الفصل الثاني (٤) رأس الارجا Alargah بالقرب من جبل حسن في عدن

(٥) مصوّع Massowah أو Musawwa - جزيرة مصوّع ميناء الحبشة في الطرف الجنوب لخليج harkiko

(٦) Ras sedour راس سدر في خليج السويس بين السويس والطور ناحية الساحل العربي (الشرقي) Arabian.

كلها مناطق يسكنها البدو وحتى القدس وينتشرون حولها على جانبي سلسلة جبل سيناء sinai بين الخليج العربي persian guif والبحر الأحمر.

وبين جدّة والطور على طول ساحل البحر يوجد ميناء يُقال له ينبع [1] lium-bo، ومن ينبع هذه الى المدينة (المنورة) التي تقع في الداخل تستغرق الرحلة يومين، حيث يوجد رفاة النبي صلى الله عليه وسلم*.

لقد كان أفونسو دلبوكيرك قد عقد العزم على تنفيذ مشروعين مهمين لولا ان الموت حال بينه وبين تنفيذهما (أولِيكن كلامنا أكثر دقّة: إذا لم يأمر الملك د. مانويل بعودته من الهند، بعد ان استمع إلى مشورة أعدائه. اي أعداء أفونسو دلبوكيرك). المشروع الأول هو أن يتوغّل إلى سلسلة الجبال التي تجري على جانبي النيل في بلاد الحبشة (بريست جواَو) لتحويل مجرى النهر، وبذلك لاتجد القاهرة مياه لري أراضيها. ولتحقيق هذا الهدف أرسل عدّة مرات يرجو الملك د. مانويل أن يُرسل له عمالا من جزيرة ماديرا madeira ممن لهم خبرة في قطع الأحجار ممن اعتادوا حفر قنوات يستخدمونها في ريّ قصب السكر في جزيرتهم تلك (جزيرة ماديرا)، وكان من المكن تنفيذ هذا المشروع بسهولة شديدة، لأن حاكم الحبشة (بريست جواَو) كان توّاقا لتنفيذه لكنه لم يكن يملك وسائل التنفيذ، ولو أنّ هذا المشروع قد تم تنفيذه (وأعتقد أنه كان سينفّذ لو لم يمت أفونسو دلبوكيرك) لأضحت أرض القاهرة خرابا. فالبدو alarves الذين يعيشون في الصحراء بين قنا[2] cana والقصير[3] cocaer كانوا من القوّة بمكان بحيث يمكنهم قطع النهر وتحويل مجراه عندما يكونون في خلاف مع سلطان القاهرة الكبير كما سأذكر بعد ذلك، فما البال بأفونسو دلبوكيرك انه كان يستطيع ذلك بمساعدة حاكم الحبشة preste joao.

والمشروع الثاني أن يقوم عند عودته إلى البحر الأحمر (بحر قامة straits of

---

(١) Limbo الآن ينبع Yenbo ميناء يمثل مدخلا للمدينة المنوّرة على ساحل رملي منخفض عند الطرف الشمالي لجون (خليج صغير). ويقع مدخل الميناء عند ٣٠ و٤ ٢٤ْ شمالا، ويوجد سور بن كوان مخرَّب الآن لكنه كان متينا في وقت مضى. والبيوت في هذا الميناء مهدمة أيضا.

* النص false prophet، قاتلهم الله، هل تمتد دعوة زائفة لتشمل المساحة من خط عرض ٦ جنوبا إلى خط عرض ٦٠ شمالا في أقل من ألف عام، وهي اليوم لا تخلو منها دولة في العالم.

(٢) هناك مزيد من المعلومات عن ذلك فيما بعد. (٣) القصير ٦.٢٦ْ شمالا وهناك طريق قوافل إلى نهر النيل تستغرق الرحلة لقطعة في اتجاه الغرب أربعة أيام، وكان العابرون من أوربا إلى الهند يستخدمونه فيما مضى.

meca (وكان يأمل ان يتمّ ذلك بسرعة بمساعدة الرّب) بتجهيز حملة من أربعمائة فارس على متن سفن من نوع التافورا (الكافورا) toforeas لينزلوا في ميناء ينبع ولينطلقوا بسرعة إلى مسجد مكة[١] temple of meca ويسلبوا منه كل كنوزه وهي - حقا - كثيرة، ويأخذوا معهم رفاة نبيهم• false prophet وينقلوه بعيدا للمقايضة عليه بمعبد القدس temple of jerusalem (المسجد الأقصى) (المقصود افتداء القدس به). وكان يمكن تنفيذ هذا المشروع بسهولة فالمسافة من ينبع الى المدينة لاتستغرق أكثر من يوم ونصف يوم، وفي المدينة عظامه صلى الله عليه وسلم وليس في المدينة سوى عدد قليل من المسلمين يعتبرهم الناس أولياء صالحين sqknts، وقد صبغوا أظافر أصابعهم[٢] finger nails ويعيشون على الصدقات التي ترسلها لهم القاهرة، والتي تردهم من الشريف بركات (الشيخ بركات xeque paracati) الذي عادة ما يكون هو حاكم المدينة أيضا. إن هذا المشروع يسهل تنفيذه لأن ثلاثمائة فارس بدوي of the alqrves بدون سلاح لن يجسر واحد منهم على مهاجمة قواتنا، كما أن وصول دعْم لهم من القاهرة يستغرق ثلاثين أو أربعين يوما فمثل هذه الحملة التي ستنجدهم تستلزم استعدادا وجمالاً تحمل الماء والمؤن لأنها ستسلك طريقا ليس به ماء وتحفُّه الصحراء من كل جانب. إن هذه المساعدة المرتقبة لن تكون ذات جدوى لأنه إلى أنْ تصل أخبار دخولنا المدينة (المنوّرة) إلى القاهرة، تكون حملتنا قد عادت إلى ينبع، واستقل رجالها سفنهم. ومن جزيرة ميوم mium (هي بريم prim) حيث باب المندب (مدخل المضايق) كما ذكرتُ آنفا يمكن للمرء أن يبحر مُساحلا لشاطيء بلاد بريست جوآو prest joao (الحبشة) حتى ساحل دهلك[٣] (وجزيرة دهلك) dalaca حيث يوجد حاكمان مسلمان moorish lords

---

(١) لابد أن خطأ حدث هنا، فالمقصود هو المدينة (المنوّرة)، أما جده (بكسر الجيم) jiddah أو بضمها juda فهي ميناء مكة ولا يوجد قبر محمد صلى الله عليه وسلم في مكة وإنما في المدينة التي تعد ينبع بمثابة ميناء لها.

(٢) Com as sunhas alfenadas والألفينا alfina - فيما يقول فييرا vieyra- نبات pivet plant . وربما كانت الأصباغ تصنع من عصير ثمار بعض النباتات العلّيقية. ومن الواضح ان التعبير يحمل معنى الازدراء ويعني أنهم نحال لا قيمة لهم يسهل كسْرهم. وقد تكون كلمة alfenadas ذات علاقة بالكلمة ألفينيم alfenim وتطلق على لفافة نحيلة طويلة من معجون محلّى تستخدم في الصيدلة العربية.

(٣) ساحل دهلك، وجزيرة دهلك dahalak بين ٢٥, ١٥ أ شمالا و٣٨, ١٦أ شمالا.

أحدهما هو عزالي (؟) azali والثاني هو دنكالي dankali. ومن دهلك حتى مكوه[1] macua macua وسواكن[2] cuaquem وخليج هركيكو[3] (argeego or harkiko bay) arqwico تقع بلاد بريست جوآو (الحبشة) التي يمتد حكمها على طول سواحل المناطق الداخلية لمقديشيو magadoxo وسوفالا cofala. وعلى هذا الجانب الأبعد للبحر الأحمر تمتد سيادة حاكم الحبشة (بريست جوآو) حتى سواكن (في اتجاه القاهر)، ومن الداخل تمتد حتى النوبا [4] muba وبلاد من بلاد المسلمين تسمى أجاجي[5] auaui يأتي منها الذهب إلى سواكن في كتل مكعبة مثل النرد dice، ويطلق الأحباش فقط على حاكمهم (بريست جوآو) اسم إلاتي elati وهي كلمة تعني الإمبراطور.

ومن سواكن حتى القصير تعيش قبائل بدوية bands of alarves، لديهم خيول كثيرة وجميعهم مسلَحون و تقع القصير على ساحل البحر الأحمر وهي مدينة كبيرة [5] لكن سكانها قليلون ومبانيها قديمة وبها خرائب وكنائس عليها شارات الصليب وعليها أيضا كتابات منقوشة بالخط اليوناني مما يدل على أنها في وقت أو آخر كان يسكنها مسيحيون. ومن القصير حتى رأس البحر الأحمر رحلة قوامها ثلاثة أيام عبر المناطق الداخلية[6] حتى النيل حيث تقع قرية قليلة المساكن تسمى قنا [7] cana كان البرتغاليون واليهود القشتاليون قد اعتادوا في ذلك الوقت المرور بها وهم في طريقهم إلى الهند وكان سبب تفضيل تلك الطريق على الطريق المارة بجدة هو الخوف الشديد من المرور بمكة meca.

وفي المناطق الداخلية بين القصير وقنا يعيش كثير من البدو alarvesمشاة

---

(١) ليس المقصود مصوّع المذكورة آنفا وانما مكوه macowa او جزيرة Makawwa ٤٤ . ٢٠ً شمالا.

(٢) sawakin او suakin (٣) Argeego o harkiko bay

(٤) "Ve Meroe. que ilha foi de antiga fama Que ora dos naturaes nba se chams cam.
lus., x. 95

(٥) أجي Aji أقوى القبائل الصومالية جنوب شرق الحبشة.

(٦) انظر مخطط القصير Kossair في خريطة الأدميرالية رقم ٨ ب البحر الأحمر، ٢ (ح cheet).

(٧) اربعة أيام على وفق ماورد في Red sea pilot الطبعة الثانية ١٨٧٣، ص ٦١
المقصود قنا Cona التي وردت آنفا في هذا الفصل، وهي قنابولس kenapolis التي تحدث عنها إيبرز Ebers في كتابه Egypt vd. II. pp. 22300223 قائلا: «قنا... حلت محل قفط القديمة koptos (nowkuft) كنقطة بداية القوافل التي تتجه من النيل إلى القصير على ساحل البحر الأحمر. وقديما كان يتم تصدير كميات كبيرة من القمح الى شبه الجزيرة العربية من خلال طريق القوافل هذا لكن القمح والحبوب التي تصل جدة إنما تأتيها عن طريق السويس. ومازال طريق قنا – القصير يعج بالمسافرين في موسم الحج من صعيد مصر والنبوية والسودان، ويفضل مسلمو وسط أفريقيا طريق قنا – القصير حيث يمكنهم الوصول إلى جدّة بسهولة.

وفرسانا، وعندما يكونون في خلاف مع السلطان الكبير فإنهم في بعض الأحيان، قد اعتادوا على قطع شواطىء النيل عندما تكون المياه مرتفعة لتنهمر المياه في وديانهم الواسعة، وذلك انتقاما منه (من سلطان القاهرة) وكي يمنع السلطان أفعالهم هذه الذي تلحق بالقاهرة أضرارا كبيرة، إذ تحرمه من ري بعض الأراضي المرتفعة حول القاهرة، فإنه كان يلجأ للقوة أحيانا ولتقديم الهدايا أحيانا أخرى لكسب ودهم وجذبهم الى جانبه.

وفي قمة البحر الأحمر تقع السويس وهي قرية مساكنها من قش وجرت العادة ان يكون بها ثلاثون مملوكاً أرسلهم السلطان للحفاظ على سفنه حتى لا يحرقها البدو alarvesالذين اعتادوا مهاجمة المماليك في بعض الأحيان وأيضا لرش هذه السفن بالمياه صباح كل يوم حتى لا تتشقق أوصالها بفعل الحرارة الشديدة وقرية السويس هذه قد اصبحت مبانيها الضخامُ أطلالا، فقد كانت قديما عامرة بالسكان، ولا بد أنها هي المشار إليها في العهد القديم باسم سياو جابر (١)* siao gaber.

(١) إشارة خاطئة والمقصود Ezion Geber شمال خليج العقبة وليس السويس.
Cf. Er. Shaw , Travels, p.322, Numb, xxxxlll,35, Deut,II8,etc.

* يقصد جلعاد شرقي الأردن ، وبذلك يكون المؤلف قد خلط الأمور
انظر قاموس الكتاب المقدس، مادة جلعاد.

الفصل الثامن

كيف ابحر افونسو دلبوكيرك من المرفا الآنف ذكره قاصداً كمران camarao وكيف كادت سفنه تجنح في الطريق

نظراً لحاجة الأسطول الشديدة للمياه العذبة لم يَبْقَ أفونسو دلبوكيرك في المرفأ الآنف ذكره إلاّ هذه الليلة فـإنّه بعـد أنْ جـمـع المؤمن من السـفن التي استولى عليها، أحرقها - أي هذه السفن - وأبحر عند طلوع الصبح متجهاً إلى كمران فلمّا وصل إلى جزيرة جبل زقر jebelzocor أخبر المرشدين أنّه سيكون أمراً جيدا أنْ يتوقّف الأسطولُ إزاء ساحلها لأنّ الوقتَ قد صار متأخراً وربما لا يَصلُون إلى كمران إلاّ في وقتٍ متأخرٍ من الليل، بل إنّه غير متأكد من أنّ كلّ سفنِ أسطوله يمكنها الرسوّ في مرفئها، فأجابوا بأنّه ليس من داعٍ لتوقفّهم في أيّ مرفأ غير مرفأ الجزيرة التي هم بصدد الذهاب إليها.

وعلى أيّة حال فإنّ أفونسو دلبوكيرك أصرَّ مع هذا على ضرورة أنْ يدلّوه على مرفأ؛ لأن الرّيح ستكون هامدَة خلال الليل وأنه لن يكون في إمكانهم الوصول في وقت مناسب لإرساء سفن الأسطول، عندئذ قال الرّبابنة rubaes (المقصود المرشدين الذين أسرهم عند مدخل البحر الأحمر) انه يمكن الاتجاه نحو قرب سواحل شبه الجزيرة العربية في مياه عمقها اثنتا عشرة قامة (قازوم) وهناك يمكن لسفن الأسطول أن تبقى خلال الليل. لكن عندما أقبل الصبح واصلوا الإبحار بالقرب من أدنى جزيرة جبل زقر jebelzocor، وقبل الغروب بساعة أمر أفونسو دلبوكيرك هؤلاء الربابنة rubaes (المرشدين الذين أسرهم عند

مدخل البحر الأحمر) مرّة أخرى بإرشاده إلى مرفأ؛ لأنه كان في هذه الأثناء حريصا جدا على الالتجاء إلى شاطىء مخافة أن تحيق به ظروف سيئة في أثناء الليل.

فقاد الربابنةُ الآنف ذكرهم كلَّ الأسطول بنظام إلى مواجهة اللحيَة (١) luya حيث كان يوجد خليج (خور) كبير، ينْتَأ فيه لسان يمتد في البحر، حيث يوجد مرفأ جيد مَحْمِي من الرياح الشّرقيّة، وبينما الأسطول كله يُبحر مُتجهاً إليه وقد رفع أشرعته كلها، أقبل واحد من الربابنة rubaes (المرشدين الذين أسرهم أفونسو دلبوكيرك عند مدخل البحر الأحمر) وطلب من أفونسو دلبوكيرك أن يأمر كل سفن أسطوله أن تُدير رؤوسها نحو الريح (أي أن تبحر نَحْو الرّيح) (٢) بكل استطاعتها لأن السفن إنْ استمرت في اتجاهها الذي هي عليه لن تكون قادرةعلى اجتياز رأس الجَيْد. لقد قال هذا الربّان (المقصود المرشد) rubae ذلك ليثبت لأفونسو دلبوكيرك أنّ لديه من المعلومات ما يفوق معلومات أقرانه، وعلى أيةُ حال فإنّ أفونسو دلبوكيرك أمر مرشد سفينته أن يُعْمد إلى سبْر أغوار المياه بالمسابير وأن يتّجه بالسفينة كما اقترح الربّان rubae الآنف ذكره، فاتجه المرشد بالسفينة كما طُلب منه لكنه في الوقت نفسه كان يَسْبر المياه بالمسبار الذي في يده فلامست السفينةُ القاعَ عند عمق ثماني قامات (قازومات) ثم ارتطمت مرة أخرى في مياه عمقها أربع قامات ونصف القامة، وعلى هذا الجَيْد ارتطمت السفينة ثلاث مرّات.

وحالما لامست السفينةُ القاعَ أمر المرشد بإنزال كل الأشرعة فورا (٣) وإلقاء المراسي وان تدير السفن إلى الخلف بسرعة باستخدام الحبال لتُسحب إلى مياه عمقها خمس قامات ونصف القامة، وعندما رأى كلٌّ من لوبو فاز دي سامبايو

---

(١) loheyyah او loheia خط عرض ٤٢ . ١٥ شمالا على ساحل شبه الجزيرة العربية. انظر المخطط في خريطة الاميرالية Admirally chart رقم ٨ ب - بحر احمر 4 sheet.
ولايظهر أن هناك مرسى جيد للسفن في مطبوع «مرشد البحر الاحمر Red sea pilot"

(٢) Que mandasse ir a Armada toda a orsa quanto podesse. see Jal, Gloss Naut, s.v.orza

(٣) Amaihar de ramahica, Toute de suite, Jal, s.v.

lope vaz de sampaio ود. جـوأو. دسـا d. joao dessa وبيـرو دي أفونسيكا pero di aonseca وسيماو فيلهو simao velho وجوميز دي ليموز fernao gomez de lewoz هذه الحادثة التي جرت لسفينة القيادة، لفّوا أشرعتهم وألقوا مراسيهم واتجهوا بقواربهم فورا لسفينة القيادة. أمّا القباطنةُ الآخرون الذين كانوا بعيدا أكثر في عُرْض البحر فقد كانت الرياح مواتية لهم أكثر، فتقدّموا لاتخاذ موقع جيد حيث أرسى د. جارسيا d. gar-cia سفينته.

وعندما وجد مرشدُ سفينة القيادة أنّها قد رُبطت بالحبال نزل إلى سفينة صغيرة من نوع السكيف skiff وراح يَسْبر المياه حولها فوجد قاعا ملائما غير بعيد عنها فراح يمد حبل السّحب (أو الجَرْ towing - rope) إلى المادانيلا madanellaالتي كانت قد أرسيت في مياه عمقها ست عشرة قامة (قازوم) ولأنّ القاع الذي ارتطمت به السفينة كان مغطّى بالرمال، فإنهم استطاعوا في فترة وجيزة تَقْويم السفينة لكن هذا كان بجهد كبير بذله ديوجو فرناندز دي بيجا diogo frrnandez de beua قبطان السفينة، فرغم أنّه كان مصاباً بجرح شديد نتيجة طلقة من طلقات البنادق ذوات الفتائل أصابته في صدره عند محاولة دخول عدن (وظلت هذه الطلقة في صدره حتى موته إذ لم يمكن استخراجها من بدنه مما اضطره إلى استخدام أنبوب من رصاص للإبقاء على حياته)، إلاّ أنه بذل جُهدا شديدا لإنقاذ السفينة، وساعده في ذلك كلّ ذوي الرتب وحاملو ألقاب الفروسّية لأنه في هذه الأثناء كان كل البحارة مشغولين بالاهتمام بكنوزهم (ممتلكاتهم الشخصية). وعلى أية حال فقد ثبت أن هذه السفينة كانت مُحْكمة جدا فلم يتسرب إليها أدنى قدر من الماء ولم يعترها رشح لأنّ اصطدامها بالقاع كان خفيفا بالإضافة إلى أنّ هذا القاع الذي ارتطمت به كان رمليا، ولّما أُعيدت كل الأمور إلى نصابها ثانية، شرعوا في الإبحار وتوقفوا بقصد الرّسو حيث رسا د. جارسيا بالفعل.

وطول الليل راحت سفن الأسطول كلها تلقي مراسيها في هذا المرفأ فلما أطلّ الصبح أبحروا ثانية ووصلوا إلى كمران camarao وما إنْ توقّفت إزاء مرفئها حتى رأى رجال الأسطول بعض السفن من نوع الجلبوت [1] shallops مقلعةً من المرفأ، وبمجرد رؤيتها أمر أفونسو دلبوكيرك، د. جارسيا، بمطاردتها ظناً منه أنها تابعةٌ لدابول dabul وأنها كانت تتعقّبه، فلما وصل د. جارسيا إليها وجد أنها تحمل أشخاصا لنقلهم من الجزيرة إلى البر الرئيسي، وأنّهم كانوا يفرّون خوفاً عند رؤية أسطولنا، ومن ثم فقد أمرهم بإنزال أشرعتهم وأخذ منهم بعض المسلمين رجالا ونساء، بالإضافة إلى شيخ مهم principal xeque كان هارباً من حاكم عدن king of aden . ورسا كل الأسطول في المرفأ حيث وجدنا سفينة تابعة للسلطان الكبير (السلطان المملوكي) وسفينة أخرى تابعة لأحد التجار بلا طاقم فقد فرّ مَنْ فيها خوفاً من أسطولنا، وفي اليوم التالي همدت الريح الشرقيّة، وبدأت الريح الغربية تهب فقلق أفونسو دلبوكيرك لأنّه وجد أنّه لم يعد في طاقته الاتّجاه إلى جدة أو السويس كما كان يأمل، فالرياح التي تهب في البحر الأحمر إمّا شرقية، وإمّا غربية [2] وليس غير ذلك.

---

(١) Geluas see vol. I. p.226

(٢) من الصعب تصديق ذلك بالنسبة للرياح في البحر الأحمر هذه الايام (ايام المترجم) انظر: Red sea pilot. I.c.

الفصل التاسع

إصرار أفونسو دلبوكيرك على الإبحار من كمران إلى جدّة وماحدث في أثناء الإبحار إليها، وعن العلامة التي رآها في السّماء

بعد مرور أيام كثيرة، وبينما كان أفونسو دلبوكيرك الكبير يُوقف أسطوله إزاء كمران بسبب الرياح الغربية، بدأت الرياح الشرقية تهب خلال الليل، ولأنّه كان توّاقا لإتمام رحلته فقد أرسل في التّو إلى القباطنة والقادة للاستعداد للإبحار في اليوم التالي، فلمّا أطلّ الصبح رفعوا مراسيهم وأبحروا بين بعض الجزر والشواطىء الرملّية – وكانت هذه الممرّات ضيّقه جدا لإبحار سفن كبار كسفن الأسطول البرتغالي – فاتجهوا إلى جزيرة تقع في البحر العريض (عُرْض البحر) لكن حالما وصلوا إزاء هذه الجزيرة، بدأت الرياح الغربية تهب من جديد فألقت كل السفن مراسيها في مياه يتراوح عُمقها بين خمس عشرة قامة (فازوم) وثلاثين قامة، وظلوا في هذا الموضع أياما كثيرة، وتضايق أفونسو دلبوكيرك بسبب هذه الرياح الغربية العاصفة، وكان توّاقاً لمعرفة طبيعة المياه والرياح وفي وسط البحر (البحر المكشوف البعيد عن السواحل والجزر) فأرسل جواَو جوميز JOAO GOMEZ في سفينة من نوع الكارافيلا CARAVELA ومعه المرشد دومينجو فاناندز DOMINGO FERNANDEZ للاتجاه الى جزيرة زبير[1] CEIBAO في وسط المضايق لمعرفة اتجاه الرياح هناك لأنه – أي أفونسو دلبوكيرك – لم يكن ليصدق أنّ وضع الريح غير المواتي إلا بسبب

(١) saba او zebayer جزيرة عند خط عرض ١٥,٥ شمالا إلى غرب الشمال الغربي لجبل زبير jebel ze-bayir . وبين جبل teir وراس باب المندب قرابة نصف ميل مغطاة بالسهول الرملية التي تتخللها بعض التلال الرملية لها فوهات بركانية.

خطاياه.

وانطلقا في مهمتهما حتى وصلا إلى هذه الجزيرة وبعد أن تَمّ سبْرَ أغوار المياه حولها [1] عادا إلى الأسطول وقالا للقائد إنهم وجدا هناك الطقس غير المواتي تماما كما هو الحال في موضع رسو الأسطول، كما وجدا أن أغوار المياه عند هذه الجزيرة بَعْد سَبْرها من الأغوار نفسها التي يرسو فيها الأسطول الآن، لكن ليس هناك تيّارات مائيّة من ناحية لأخرى، فليس ثمة إلاّ حركة المدّ والجَزْر وسعِد أفونسو دلبوكيرك بهذه الأخبار التي أتى بها جواو جوميز joao gomez فما دامت التيّارات المائية غير موجودة فإنه يأمل أن يكون قادرا على اتخاذ سبيله متعرجا حتى يصل إلى جدّة أو على الأقل إلى بعض المرافىء على البر الأفريقي (بر الحبشة أو بر بريست جواو) لكن هذا كان مستحيلا فمن غير المكن الإبحار بشكل متعرّج في البحر الأحمر نظراً لوجود مناطق ضَحلْة تُشكّل خطرا. ولما وجد الربابنة [2] (المرشدون الذين أسرهم عند مدخل البحر الأحمر rubaes) أنه يمعن التفكير في هذا الأمر، طمأنوه لأن تغيّر اتجاه الريح أمر طبيعي تماما في البحر الأحمر، وأنه عندما يظهر نجم معين في السماء اسمه turia ناحية الجنوب تهب الرياح الشرقية فيتمكن بها من الوصول إلى جَدة. وبشعاع الأمل هذا الذي أظهره الربابنة (المرشدون) قرر أفونسو دلبوكيرك أن يستريح بأسطوله أياما قليلة أخرى وأن يظل راسياً مكانه، وبينما هو في حالة انتظار ظهر في السماء ناحية الحبشة (بريست جواو) preste joao صليب بشكل واضح جدا، وكان متألقا ولامعاً على النحو الذي رسمناه في هذا الفصل، وعندما مرّت فوقه سحابة تمزّقت السحابة دون أنْ تمسّه (الصليب)، ودون أن تحجب وضوحه. لقد رأى هذا الصليب كلُّ فرد في الأسطول، فانهمرت دموعهم وركعوا وراحوا يُوقّرونه ويعبدونه.

---

(١) انظر خريطة الأميرالية البحر الأحمر.

(٢) Rubaes وهناك خطا طباعي من النص إذ وردت Rudaes.

فلّما رأى أفونسو دلبوكيرك هذا الصليب خَلُص إلى أن ربّنا OUR LORD يوجّههم إلى ناحية أرض بريست جوآو PREST JOAO وليس إلى ناحية جدّة، مادام - أي ربّنا - قد أظهر علامة صليبه المقدّس HIS HOLY GROSS في هذه الناحية، فقررّ أنْ يتجه إلى البر الأفريقي، لكن رجال الأسطول - لقلة إيمانهم - جعلوه منزعجاً، وسببوا له قلقا على أمل منعه من التوجه إلى البر الأفريقي.

وعلى أية حال فقد أمر أفونسو دلبوكيرك بإجراء تحقيق (استقصاء) بين كل رجال الأسطول فيما يتعلق بهذه العلامة (الصليب) التي ظهرت في السماء فاقّروا جميعا أنّهم رأوْا الصليب في السماء لفترة طويلة، فتم إعداد وثيقة دُوّن فيها هذا، وتم إرسالها للملك د. مانويل.

ولّما انتهى أمر هذه الواقعة (ظهور الصليب الآنف ذكره) كانت الحاجة إلى الماء لاتزال تزداد في الأسطول ووجد أفونسو دلبوكيرك ألاّ أمل في قيامه بهذه الرحلة المرتقبة (فنحن الآن في أواخر شهر مايو) فأمر كل الأسطول بالإبحار فاتجهوا إلى كمران CAMARAO حيث مكثوا طوال شهري يونية ويوليو دون أنْ يهطل المطر مرّة واحدة في هذه الفترة وما تعرضوا لطقس سيء في وقت لم يكن يجرؤ فيه قارب على المرور في كل المضايق. وخلال هذه الفترة التي قضاها هنا قضى المرضُ على كثير من رجاله، فالمنطقة غير صحّية، وأمر بإصلاح كل السفن وإعادة تجهيزها استعدادا لحلول الوقت الذي يُبحرون فيه إلى الهند. والآ فلأن جزيرة دهلك [1] DALACA مشهورة في هذه الأنحاء بصيد اللؤلؤ فقد أمر جوآو جوميز JOAO GOMEZ قبطان الكارافيلا CARAVELLA باستطلاع هذا الأمر وأن يبذل قُصارى جهده للاستيلاء على جلبوت حتى يعلم منه أخبار جدّة والسويس، وجعل في صحبته ربانا (مرشدا) من أهل البلاد، بالإضافة إلى المرشد البرتغالي دومينجوز فرناندز DOMINGOS FER-NANDEZ.

(١) انظر حاشية ٢٥، فصل ٧

وحالما انطلق جواو، حتّى صمّم أفونسو دلبوكيرك على التوجّه إلى زبيد [1] ZIBIT وهي المدينة الرئيسة التي يُقيم فيها دائماً شيخ عدن XEQUE OF ADEM، بهدف أن يتفاوض معه بشأن بعض البرتغاليين الأسرى الذين مازالوا عنده، والذين كانت قد جنحت بهم سفينتهم الصغيرة التي كانت مصاحبة لدوارت دي ليمز [2] DUARTE DE LEMOS عندما اتجه إلى رأس جوردفوري كرئيس لقباطنة أسطول برتغالي (ذلك الأسطول الذي كان فيه جريجوريو دا كدرا GREGORIO DA QUADRA قبطانا، كما سأذكر بعد ذلك، لأنني أتجنب ذكر هذا الأمر الآن حتى لا يتشوّش السّرد التاريخي أو ينقطع. ولكي يُنجز أفونسو دلبوكيرك هذه المهمة على خير وجه أرسل أحد المسلمين التجارالذي كان قد أسره مع زوجته وأطفاله من سفينة سلطان القاهرة الآنف ذكرها، وسلّمه خطابا لشيخ عدن وآخر للأسرى الذين كانوا هناك، ووعده أنه إذا عاد بالأسرى أعاد له زوجته وأطفاله وأطلق سراحه.

فقال هذا المسلم انه إذا أنزله إلى السّاحل فعل كل ما طلبه، فأنزله، ولما وصل هذا التاجر إلى زبيد حيث شيخ عدن (تبعد زبيد عن عدن مسافة سبعة أيام) سلّمه الخطابات لكن في اليوم التالي أعاده دون تأخير إلى حيث القارب الذي حضر فيه إلى السّاحل في حراسة بعض الرجال، وبمجرد وصوله قال هذا المسلم لرجالنا دون أن يذكر شيئا عن الأسرى البرتغاليين، انه إذا أراد أفونسو دلبوكيرك أن يُعيد إليه زوجته وأطفاله، فإنه سيدفع له مائتي بارداوا [3] PARDAOS ولم يقل أكثر من هذا لأنّ المسلمين الذين كانوا يحرسونه لم يسمحوا له بقولِ المزيد، رغم أنّهم دلّوه على موضع يمكنه منه الحصول على بعض المؤن الطازجة، ومن ثم عادوا لشيخ عدن دون مزيد من المحادثات.

وبعد ثلاثة أيام من عودة السفينة حاملة هذا الرّد، وصل جواو جوميز

---

(١) سميت zebir في الفصل الثاني لكن السياق يفيد أنها هي المكان نفسه (زبيد) وراس زبيد على ساحل شبه الجزيرة العربية ٦ ,١٤ شمالا، بها ينبوع ماء ممتاز يصب في البحر، ومازال يستخدم كمكان للتزود بالمياه عند القيام برحلة من كمران إلى باب المندب.

(٢) تناولنا شخصيته في جـ ٢، الفصل ٥١

(٣) انظر جـ ٢، فصل ٢٠

وسرد على أفونسو دلبوكيرك كيف وصل إلى جزيرة دهلك[1] GOOA GOMEZ DALACA وكيف رسا خارج منطقة المياه الضحلة التي تحيط بالمرفأ، وكيف اتجه راكبا سفينة صغيرة من نوع السكيف STIFF الى الشاطىء، وكيف أرسل له شيخ الجزيرة عن طريق فارسيْن يسأله ماذا يريد فأجابهم بأنه أتى تنفيذا لأوامر قائد الهند العام الذي يرسو بأسطوله الكبير في كمران ليسألهم إن كانوا راغبين في مبادلة أية بضائع باللؤلؤ [2] فكان ردّ الشيخ انه ليس في المدينة تجّار وانما جنود وفرسان مدجّجون بالسّلاح، وعندما تلقى هذا الرد لم يكن من سبيل لمزيد من المناقشة مع المسلمين فانسحب وأبحر حول الجزيرة التي تقع في مواجهة أراضي بريست جواو (الحبشة) (والمسافة بين دهلك والساحل الأفريقي كالمسافة بين الحقول الواقعة على نهر تاجوس TAGUS ومدينة لشبونة – لكنه لم يعبر إلى هناك (إلى البر الأفريقي) فهو لايحمل تعليمات تخوّله بهذا، وقال انه التقى بجلبوت (نوع من السفن) في البحر، كان ركابُه يصطادون اللؤلؤ وعند الاقتراب منه توجه – أي الجلبوت – إلى المياه الضحلة والشواطىء الرملية التي لاتستطيع الكارافيلا CARAVELLA الخوض فيها.

وأحس أفونسو دلبوكيرك بشيء من الابتهاج لهذه الأخبار لأن الطقس إن أصبح ملائما أمكنه الإبحار إلى أرض بريست جواو بكل أسطوله كما كان قد اعتزم. وبينما هو يفكرفي هذا الأمر أتاه جندي وقال له: إن كنتَ راغباً في أن ترسل لملك البرتغال تقريرا بما حدث في هذه المنطقة من العالم فإنني يمكن أن أقوم برحلة إلى القاهرة ومنها إلى البرتغال. فسأله أفونسو دلبوكيرك: كيف يمكنك أن تنفّذ هذه الرحلة دون أن تكون عارفاً بلغة البلاد؟ فأجاب الجندي: انني كنتُ مسلما لكنني التحقتُ بالمسيحيين في أزمور [3] AZAMOR، لذا فإنني أستطيع أن أقوم بهذه الرحلة بأمان فأنا أتقن اللغة العربية. فلما رأى أفونسو دلبوكيرك أنه لا خطورة في الأمر وأن الملك دوم مانويل سيسعد إذا علم

---

(١) انظر حاشية ٢٥ فصل ٧

(٢) انظر ج ١، فصل ٦٠

(٣) شمال غرب ساحل مراكش

أن البرتغاليين قد حققوا نجاحاً في البحر الأحمر، قبل هذا العرض التطوعي وأمر بإمداده بالمال وتجهيزه لهذه الرحلة وأصدر إليه تعليمات بكيفية التصرف، ثم أمر بتَقْييد قدميه وطرحه على البرّ الرئيسي أمام كمران ليبدو وكأنه هارب من الأسطول وقد وصل هذا الرجل إلى البرتغال وسعد الملك البرتغالي بالأخبار التي حملها وأرسل معه ردا يحمله في رحلة العودة. وفي هذه الليلة نفسها التي انطلق فيها أفونسو دلبوكيرك بأسطوله، وكانت السماء صافية تماما هبط من ناحية الحبشة (بريست جوأو) شواظ من نار [1]، كان هذا الشواظ عريضا جدا وطويلا جدا وراح يتسع بَيْنا هو يهبط في اتجاه جدّة ومكة فسبب رعباً هائلا بين رجال الأسطول. بل إن الأسرى المسلمين بمن فيهم الشيخ الآنف ذكره أصابهم الرعب لأنهم اعتبروا ذلك بمثابة نبوءة مؤدّاها أن بريست جوأو سيقدّم علفاً لخيوله داخل بيت مكة TEMPLE OF MACA (أي الكعبة المشرّفة). وقد أجرى هذا الشيخ وكل من معه حوارا حُراً مع أفونسو دلبوكيرك وأظهر له كثيرا من الامتنان حتى يوم الإبحار.

(١) شعاع ناري في سماء صافية كان مثار دهشة لدى أهل العصور الوسطى كما ورد في الحوليات الأوروبية والحوليات الشرقية

الفصل العاشر

جريجوريو دا كودرا ومن معه من الأسرى عند حاكم *king* عدن يتمكنون من الفرار، وماجرى معهم حتى وصولهم إلى البرتغال

لقد ذكرتُ لتوّي شيئا عن البرتغاليين الأسرى لدى شيخ عدن والذين لم يطلق سراحهم، والآن فإنني سأسرد على القارىء كيف هربوا من الأسر، لكنني أجد من الملائم أن أشرح أولاً كيف جنحت سفينتهم. لقد جرى الأمر على النحو الآتي: بينما كان دورات دي ليموز duarte de lemos رئيس القباطنة قد رسا بأسطوله خارج ساحل مليندي melinde هبت عليهم ريح عاصفة هائلة فانفلتت بعض سفنه من مراسيها ولم يعرف أحد ما إذا كانت حبالها قطعت بفعل شدة العاصفة أم بفعل فاعل. وكان القبطان هو جريجوريو دا كودرا gregorio da quadra رجلا شريفا من خدام الملك د. مانويل d. manuel وكانت التيارات المائية [1] تتجه بشدّة نحو مضايق البحر الأحمر فجرفت السفينة معها، وذات صباح وجد طاقمها أنفسهم إزاء عدن.

فلما رأى أهل عدن هذه السفينة وأدركها أن على متنها مسيحيين انطلقوا بسفينتين من نوع الفوستا fusta واستولوا عليها وأسروا كل من فيها وأحضروهم إلى شيخ عدن في زبيد [2] عاصمة المملكة، فأمر بإيداعهم مع الأسرى والسجناء مختلفي الجنسية في حوض جاف، فقد كان هذا الحاكم

(١) يبلغ معدّل سرعة التيارات المائية أربعين ميلا في اليوم. انظر: Red sea pilot

(٢) أنظر الفصل ٩، حاشية ٥.

(الملك) معتل المزاج يُعامل الأسرى بقسوة وظلوا في سجنهم هذا ثماني سنين ولم يكن قد تبقى منهم على قيد الحياة إلا خمسة عندما رسا أفونسو دلبوكيرك إزاء عدن. و كان جريجوريو داكودرا gregorio da quadra رجلاً أريبا فانتهز الفرصة وتعلّم اللغة العربية وأتقن الحديث بها لدرجة يمكن معها أن يظن سامعه أنه عربي moor، وعمل في حرفة الحياكة واعتاد أن يصنع الطواقي cops في محبسه حتى أصبح بارعاً جداً في صنعته حتى راح المسلمون يحضرون له كل مقادير التمور والزبيب المخصصة لغيره من الاسرى.

وبعد أيام قليلة من خروج أفونسو دلبوكيرك من المضايق قاصداً الهند، ثار أحد المسلمين الرئيسيين في مدينة زبيد ضد ملكها الذي كان يحتفظ بهؤلاء الأسرى (البرتغاليين) مُدَّعيا أنَّه أحقّ بالُملك، وهزم قوات ملك عدن واستولى منه على مدينةزبيد zebit وأطلق سراح الأسرى وأتاح لهم أن يذهبوا حيث شاءوا. ولأنه كان قد نذر لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يحج إلى قبره إن وهبه - أي محمد صلى الله عليه وسلم - النصر فإنه بعد ترتيب أمور المملكة اتخذ سبيله للحج. وكان جريجوريو داكودرا gregorio da quadra قد عقد العزم على الذهاب إلى مكّة وأن يمكث فيها في انتظار القافلة التي تأتي من دمشق كل عام بنية أن يتجه بعد ذلك من دمشق إلى البصرة [١] bacora ومنها إلى هرمز، فرجا الملك الجديد أن يأخذه معه لأداء الحج، فاعتبره الملك (الحاكم) الجديد وليا من أولياء الله الصالحين saint وابتهج لرغبته في اصطحابه لأداء الفريضة فأعطاه جملا يركبه ودفع كل تكاليف سفره.

وحالما وصلوا للمدينة حيث رفاة (مرقد) النبي محمد صلى الله عليه وسلم في وسط المسجد temple وقد أحيط قبره بسور من أعمدة حديدية راح الملك وكل من حوله يطوفون بالقبر وهم يردّدون أدعيتهم. و كان معهم جريجوريو داركودرا gregorio da quadra الذي تذكر عقيدته في يسوع المسيح the faith of jesus christ التي نشأ عليها، فَصَعُبَ عليه هذا الموقف فانهمرت دموعه بغزارة، وراح يتذمّر شاكيا:*

(١) على راس الخليج. تكتب Basra او Bassorah

* ارتأينا حذف المفردات التي نطقها: لانها غير لائقة بشخص ومقام أشرف المرسلين وخير الأنام، نبي الهدى محمد عليه الصلاة والسلام (قسم النشر - دار الكتب الوطنية)

لقد راح يُتمتم بتلك الكلمات والدموع الكثيرة تنهمر من عينيه حتى أيقن الدراويش ورجال الدين [1] COCIZERS الذين كانوا بالقرب منه أنه رجل مقدّس فطلبوا منه بإلحاح أن يقيم بينهم عدة أيّام.

والآن فلأن قافلة دمشق كانت قد انطلقت قبل وصول هذه المجموعة إلى مكة بيومين، فإن جريجوريو دا كودرا GRGORIO DA QUADRA قرر أن يعبر الصحراء ويحاول اللحاق بها فإن لم يستطع اعتمد على رحمة ربنا ORU LORD واتجه إلى مضايق هرمز.

ومن ثم فقد أخبر الملك (ملك عدن) أنه يود القيام بزيارة قبور آل البيت في فارس TEMPLE OF MOHOMET'S GRAND CHILDREN ويطلب إذنه للقيام بهذه الرحلة لكن الملك كان راغبا في الاحتفاظ به في صحبته (كولي صالح) لذا فقد قال له بعطف: «إلى أين تريد أن تذهب؟ ليس هناك شيء سوى الصحراء، فحتى طيور هذه البلاد ليس بينها وبين طيور هذه الأنحاء اتصال» ومع هذا فقد استأذن جريجوري دا كودرا GREGORIO DA QUADRA وانطلق في هذه الرحلة لايدري أين يتجه وظل يقطع الصحراء لعدة أيّام فلم يلق نبتة خضراء واحدة فلا شيء إلاّ أكام الرمال وعندما انتهى ما معه من مخزون المؤن راح يأكل الجراد وغير ذلك من الحشرات ذوات الأجنحة ولم يكن معه ملابس فيما عدا قطعة من قماش يغطي بها عريته وكانت الشمس قاسية فتقرّح جسده بشكل قاس، وظهرت خطوط مقرّحة على كل أسفل جسده حتى أنه لم يكن يستطيع أن ينطرح أرضا لينام وانما اعتاد أن يحفر بيديه بين الرمال لعمق مناسب ثم يدخل في هذه الحفرة لينام واقفا، ولما شعر أخيرا بوهن شديد وأن كل طاقته قد استنفدَت ولم يعد يستطيع مواصلة السير اتجه إلى سفح تلٍّ رملي وخرّ راكعا ورفع عينيه إلى السماء طالبا رحمة ربنا OUR LORD قائلا: «ياربنا، انني واحد من مخلوقاتك حُزتُ الخلاص بدمك الغالي، وبإذنك هربت من

---

(١) انظر جـ ٢ ، فصل ١٦

الأسر فلتكمل فضلك وتمنَّ برحمتك ولاتجعل نهايتي في هذه الصحراء، لاتجعل نهايتي بائسة هكذا» وبدأ يعترف بخطاياه أمام الرب متوسّلا إليه أن يخلّد روحه، وبينما هو يتمتم بهذه الكلمات وغيرها تمّ رفْعه من فوق الأرض وتم حمله إلى أعلى التل الرملي وتركه الذين حملوه دون أن يرى من هم، وظل فوق التل الرملي على هذه الحال، ولما تطلّع إلى الأدنى وجد جملا فلما تقدم قليلا رأى مسلما A MOOR فاتجه إليه.

لقد كان هذا المسلم قد أتى برفقة قافلة كانت تتوقف هنا للتزوّد بالمياه فقد كانت هذه البقعة إحدى بقاع التزود بالمياه على الطريق.

وذُهل المسلمون في القافلة لرؤيته وقرروا أنه لابد أن يكون أحد الدراويش (أو الأولياء الصالحين) فحملوه معهم وتألموا لحالته المحزنة والقروح المفتوحة التي تملأ جسمه وأعطوه عباءة يتغطّى بها وسألوه من أين أتى وكيف وصل إلى هذا المكان، فقصَّ عليهم ما كان وكيف أنه كان بسبيله لزيارة القبور المقدسة في فارس*. وعندما تزوّدت القافلة بشيء من الماء واصلت رحلتها ووصلت الى بابل BOBYLONIA وهناك تركوه ليواصلوا رحلتهم إلى دمشق. وعلى أية حال، فإن جريجوريو داكودرا GREGORIO DA QUADRA وصل إلى البصرة BACARA وركب طرّادا TERRADA [(١)] (سفينة هندية صغيرة) كانت في طريقها إلى هرمز بصحبة بعض المسلمين فلما وصل إلى بوّابة حصننا (البرتغالي) سأل عن تاريخ اليوم، فقالوا له إنه يوم الخميس من أسبوع آلام المسيح [(٢)] (مابين ليلة العشاء الأخير وموته) فطرح نفسه على الأرض وانهمرت الدموع من عينيه وشكر ربنا أن أعاده إلى أرض المسيحيين في هذا اليوم بأمان. وعندما رآه د. جارسيا دي كوتنهو D. GARCIA DE COUTINHO قائد الحصن اعترته دهشة شديدة وسأله عن الطريق الذي سلكه حتى وصل

---

* النص الحج إلى الأضرحة المقدسة في فارس، ومعروف أنه لاحج في الاسلام إلاّ من خلال شعائر معينة في مكة المكرمة وزمانها (الطواف والسعي والوقوف بعرفة).

(١) انظر جـ ١، فصل ٢٩

(٢) Quinta feira de endoencas

إلى حصن هرمز، فقص عليه جريجوريو دا كودرا كل ما جرى معه وأنه قبل أن يصل أفونسو دلبوكيرك بأسطوله إلى عدن كان قد حاول الهروب مع أربعة من رفاقه في جلبوت (وكان الباقون قد ماتوا) لكن تمت اعادتهم وقدموا لهم طعاما مخدّرا فظلوا في غيبوبة طوال ثلاثة أيام وفي هذه الاثناء تم وسمهم بسمة المسلمين[1]، وانه عندما غادر أفونسو دلبوكيرك المضايق كانوا هم في زبيد وانه لايعلم شيئا عنه غير ذلك. وقد عامله د. جارسيا بود شديد وزوّده بما يلزمه من مؤن لرحلته إلى الهند، وعندما وصل أخيرا لملكة البرتغال اصبح راهبا فرنسسكاني على وفق تقاليد الكابوشية capuchian، وبذا أنهى حياته في رحاب القداسة.

(١) أي أجريت لهم عملية ختان.

الفصل الحادي عشر

افونسو دلبوكيرك يبحر من كمران
قاصدا الهند وماجرى في اثناء الرحلة

بعد أن جمع أفونسو دلبوكيرك الكبير بعناية كل المعلومات التي أمكنه الحصول عليها عن مضايق البحر الأحمر ومجريات الأمور فيها، واصبح شديد الرغبة في إتمام رحلته إلى الهند، أمر القباطنة والقادة بالاستعداد، وفي ١٥ يوليو سنة ١٥١٣ حوّل خط إبحاره خارجا من مرفأ كمران وانطلق مباشرة إلى مضايق البحر الأحمر دون أن يلامس أي ساحل، فلما مرَّ خلالها عمد إلى الرسوّ بكل أسطوله خلف الجزيرة [١] التي تقع عَبرْ مدخل المضايق كما وضحت آنفا. وحتى لايترك منطقة إلا اكتشفها أراد جمع معلومات عن هذه الجزر والمرافىء فيها؛ لذا فإنه قبل غروب الشمس في يوم من الأيام، ركب قاربه واصطحب معه المرشد دومنجو فرناندز domingo fernandez، ود. جارسيا دي نورونها d. garcia de noronha ولوبو فاز سمبايو lope vaz de sampayo وجوأو دي ليما joao de lima واتجه معهم إلى مرفأة الجزيرة الذي يُطل ناحية أرض بريست جوأو (البر الافريقي) وهو جون (خليج أو خور) كبير [٢] يتوغل في بر الجزيرة كثيرا ويضم داخلهُ ثلاثة أخوار صغيرة [٣]. ومدخل المرفأ بموقعه

---

(١) بريم perim أو ميون Meyune.

(٢) يقع مرفأ بريم في جنوب غرب الجزيرة ويحمل اسمها، وهو مرفأ صغير ينقسم قسمين كل قسم يبلغ طوله نحو ثمانية أو تسعة أطوال كبليْه cables (الطول الكبلي وحدة بحرية للطول) ويبلغ عرض مدخله أربعة أطوال كبلّية ونصف، وعمق المياه به عشر قامات (فازومات) أو اثنتا عشرة قامة (فازوم) ويمتد على الجانبين قرابة نصف طول كبلي. والنراع الشمالي الشرقي تتخلله المياه الضحلة، اما النراع الشمالي الغربي فالرسوّ فيه أفضل. ويمكن الرسو فيه في مياه عمقها خمس قامات أو ست وقاع المرفأ رملي ومرجاني، وفيه مواضع كثيرة يمكن للسفن أن تستدير فيها (تحوّل اتجاهها). انظر:
Red sea pilot p. 127.

(٣) تُظهر خريطة الأدميرالية لجزيرة بريم هذه الأغوار (الخلجان الصغيرة) بوضوح.

هذا يجعل السفينة التي تدخله تبدو محاطة باليابسة حتى أن البحر المفتوح يختفي من أمام النظر. وعمق المياه في هذا المرفأ ما بين ست قامات واثنتي عشرة قامة، ويمكن أن يستوعب مائتي سفينة من سفننا، وهو محمي من الرياح من كل جوانبه.

وعندما وجد أفونسو دلبوكيرك نفسه خلال المرفأ نزل ومعه كل القباطنة والقادة واكتشف جانبا كبيرا من الجزيرة التي وجدها مغطاة بأحجار كبيرة وصغيرة غير ثابتة، ولم يجد فيها شجرة واحدة ولانبتة عُشب. وفي واد رملي يقع ناحية البحر الأحمر وجدوا خزانا قديما على نمط أحواض المياه، وكان بلا غطاء، ولم يكن فيه أي قدرٍ من الماء، كما وجدوا بركة ملأتها الأتربة ولم يستطيعوا أن يروا سوى فتحتها. وفي هذه الجزيرة هضبة صغيرة مُدَوَّرة في مواجهة المضايق، وقد أمر أفونسو دلبوكيرك بإقامة صليب ضخم ومرتفع فوقها بعد صنعه من خشب أحد الصواري، ونقش عليه اسم الجزيرة كما اطلقه عليها وهو «جزيرة الصليب الحقيقي itha da vera gruz» ليكون ذكرى يخلّد بها مجيئه إلى مضايق البحر الأحمر. وبعد أن استكشف الجزيرة انسحب الى القوارب ومن ثمّ للسفن، وفي اليوم التالي أرسل كّلاً من: روي جالفاو ruy galvao في إحدى السفن، وجوآو جوميز joao gomezفي كارفيلا gqra-vela لينطلقا إلى زيلع ويعملا على إجراء اتصالات مع مسلميها ويدرسا طبيعة المكان والتجارة فيه والسكان وإن رفض المسلمون قبول العروض البرتغالية، فعليهما إشعال النار في أي سفينة يجدونها في الميناء، ومن ثم يعودون إلى عدن للبحث عن الاسطول لانه – أي أفونسو دلبوكيرك – سيرسو بعيدا وفي مواجهتها (عدن) منتظراً عودتهما.

وحالما انطلقا، ابحر أفونسو دلبوكيرك بأسطوله والقى مراسيه أمام المدينة (عدن) وكان في مينائها عدد كبير من السفن الكبار، كما وجد جزيرة صيرة cira قد حُصنت بسور وبمزيد من الأبراج لم تكن موجودة من قبل، لكنه – أفونسو دلبوكيرك – رغبةً منه في أن يُشعر المسلمين بغباء أفكارهم وبأن

حصونهم هذه لن تغني عنهم شيئا ولن تحقق لهم مزيدا من الأمن ، فقد ارسل ابن أخته د. جارسيا دي نورونها على رأس مجموعة كبيرة لمهاجمة الجزيرة، وأمر الكونستبل بأن يسحب مدفعين camelos [1] ويجعلهما في سفينتين رئيسيتين تقتربان اقتراباً شديداً من سور الجزيرة وأن يطلق النار ليلحق أكبر قدر من الضرر يستطيعه بالأعداء الكامنين وراء هذه الحصون. فانطلق د. جارسيا d. garcia بمن معه وهاجموا الاستحكامات وتصدوا بشدّة، وشجاعة للمسلمين الذين دافعوا عنها ولم يمض وقت طويل حتى استولى على الحزيرة. وما إن استقر فيها حتى أمر رجاله بإقامة مدفع comelo في البرج الرئيسي، ومن هذا الموقع راح يطلق النار على المدينة (عدن) فأسقط عددا كبيرا من المنازل. والآن فلأن المنجنيق a catapult الذي وضعه المسلمون فوق قمة الجبال بدأ يلحق ضررا كبيرا برجالنا المتمركزين في البرج، فقد أمر د. جارسيا المدفَعِي جوآو لويز joao luiz بإطلاق النار على أبعد مدى يستطيعه ناحية منجنيق المسلمين هذا ويدمّره إن أمكنه ذلك، وكان جوآو لويز غاضبا لمقتل أحد رجاله المدفَعِيين فأطلق النار على المنجنيق وأحكم التسديد فدمّرة بالطلقة الثانية، وليحمي المسلمون أنفسهم من قذائفنا راحوا يقميون سورا من أحجار وملاط. وعندما أدرك التجار الغرباء ممّن لهم سفن في الميناء ما حاق بمنازل المدينة من دمار، خشوا أن يصدر أفونسو دلبوكيرك الأوامر بإحراق سفنهم أيضا، فأرسلواه اليه يقولون إنهم يودّون افتداء سفنهم بأي مبلغ يريده، فكانت إجابته انه لن يأخذ أي مبالغ ولن يقبل بغير إطلاق سراح الأسرى المسيحيين عند شيخ عدن فإن لم يفعل فلن يترك سفينة إلاّ أحرقها.

ولم يعد التجار بأيّ عَرْض آخر، فصمّم أفونسو دلبوكيرك على تنفيذ وعيده، فعرض على القباطنة والقادة ماقاله للتجار ولكنهم لم يوافقوا لأنه عمل لايستحق

---

(١) جـ ١، فصل ٤٧

المخاطرة بحياة برتغالي واحد كما أنه عمل قليل الأهمية بالاضافة إلى أن لدى المسلمين مدافع كثيرة يمكنهم إطلاقها لحماية هذه السفن وأن هذا العمل لا يمكن تنفيذه بسهولة وهو سيكلّف كثيرا . وعندما تأمل أفونسو دلبوكيرك هذه الحجج التي ساقها قادة دخل قلوبهم شيء من الخوف، قرر أن يُنفّذ خطته مستعينا بالبحّارة sailorsوحدهم فقد كان معتادا ان يُطق عليهم «فرساني mu cavaliers». ومن ثمّ فقد أمر فرناود أوفونسو fernao afon-soرئيس سفينته أن يستعد بمائة رجل لتنفيذ هذا الأمر، وليجعل القباطنة والقادة وذوي الرتب يخجلون من أنفسهم، وعندما استعدوا ركبوا القوارب وصاحبهم أفونسو دلبوكيرك في السكيف skiff الخاص به ومعه بعض النافخين في الأبواق ليشجّعهم. وفي منتصف ليلة الجمعة، ولم يكن المسلمون قد أقاموا نوبة حراسة، أجرى قواربه إزاء الشاطىء وانطلق مسافة كبيرة على جانب الماء وانقض على ثلاثين مسلما كانوا يحرسون السفن وقتل غالبهم وأشعل النار في السفن لكنها - أي السفن - كانت مشبعّة بالماء فلم يحترق منها إلاّ ثلاث سفن، وبعد هذا عادت المجموعة للقوارب ومن ثمّ للسفن، وقد غمر الفرح الرجال لقيامهم بهذه المغامرة دون أن يلحق أحداً منهم ضرر فخجل القادة والجنود لهذا النصر غير المتوقع وطلبوا من أفونسو دلبوكيرك أن يذهبوا لإحراق بقية السفن فرفض أفونسو دلبوكيرك لأن المسلمين الآن يراقبون السفن وقد استعدوا لهذا الأمر.

وفي هذا الصباح نفسه عاد روي جونسالفير ruy goncalvez وجوآو جوميز joao gomez وذكرا أنهما وصلا إلى زيلع واكتشفا مدخل الميناء لكنهما لم يتلقّيا رداً عندما اتّصلا بأهل البلاد وبدأ بعض المقاتلين الفرسان يتحرشون بهم وحاولوا استدراجهم فلما أدركا ذلك تجنّبا الدخول في صراع، ومع هذا فقد احرقا عشرين سفينة محلية كبيرة كانت في الميناء. وفي زيلع فرّ أحد الأحباش إلى روي جالفاو ruy galvao (كما ذكرت آنفا) [١] فأرسله

(١) انظر أواخر الفصل الخامس

أفونسو دلبوكيرك إلى الملك د. مانويل ليحمل إليه معلومات عن هذه الانحاء لان هذا الحبشي كان رجلا لديه قدرات كبيرة ويمكنه التحدث في هذه الأمور لأنه كان دائما قريباً من الوكيل التجاري للسلطان الكبير (السلطان المملوكي المصري).

الفصل الثاني عشر

أفونسو دلبوكيرك يُبحر من عدن قاصداً الهندَ وما جرى حتى وصوله إلى جوا

ولما وصلت الأمور إلى غاياتها أمر أفونسو دلبوكيرك القباطنة والقادة برفع المراسي، وانطلق بعيدا عن ميناء عدن في ٤ أغسطس وألقى الأسطول نظرة على رأس جوردفوي cape guarda fum ومن هذا الرأس غيروا اتجاههم الى الناحية الأخرى، وشقوا طريقهم في اتجاه ديولوسندي [1] diolocindi ومنها إزاء الساحل حتى وصلوا أخيرا إلى ديو diu حيث استقبلهم ملِك عزيز (ملكياظ mkliueaz) بترحاب شديد وقدم لكل القباطنة والقادة كثيراً من الهدايا. ومكث أفونسو دلبوكيرك في هذا الميناء ستة أيام انتهز فيها الفرصة لإصلاح قوارب السفن التي أنهكتها كثرة الاستعمال.

وبمجرد وصوله أقبل مالك عزيز [2] (ملكياظ) لزيارته فورا في سفينته وتناقشا معا في أمور غير ذات أهمية.

وقال له أفونسو دلبوكيرك إنه يرغب في أن يترك في الميناء سفينة محمّلة بالبضائع لبيعها ورجاه أن يبقى الوكيل التجاري البرتغالي والمسؤولون معه في السفينة وان يلقوا جميعا معاملة حسنة. ولم يكن مالك عزيز مستعداً باعتذارات كافية يقدمها، لذا فقد رحّب وقدّم عروضا فضفاضة، فكال له أفونسو دلبوكيرك

---

(١) ربما كان الجزء الأخير من هذه الكلمة تعني أن diolocindi تقع على سواحل السند scinde . انظر Dr. G.P. Badger, Travds of Varthema , p. 04, cheo, Joqh, joaah, or kow هي إحدى مصبات نهر السند Indus.

(٢) انظر، جـ ٣، فصل ٥٢

من الكيل نفسه (دفع له بنفس العملة) ثم استأذنه مبديا كثيرا من مظاهر الصداقة. ثم غادر بسفنه محملة بعد ان ترك السفينة انكسوبريجاس [1]، enxobregas محملة بكل بضائعها وعيّن عليها كوكيل تجاري فرناو مارتينز إيفانجيلهو fenao martinz evqugelho وعيّن كموثّق له جوريج كوريا jorge corea. وعندما أصبح الأسطول في عُرْض البحر قدّم أفونسو دلبوكيرك روي جالفاو ruy galvao ليسبق إلى جوا (كوا) بسفينته ليخبر قائد المدينة بقدوم الأسطول كله كما أمر جيرونيوم ذي سوزا jerongmo de sousa أن يتجه إلى كل من كانانور cananor وكوشن cochim للأمر نفسه، اما هو – أفونسو دلبوكيرك – وبقية الأسطول فقد اتخذ طريقه إلى شول chaulحيث وجد أن تريستاو وديجا [2] tristao قد وصل منذ يومين إلى هذا المينا وأن بصحبته سفيرا من ملك كمبي (كمايا).و سرد تريستاو ديجا كيف ان الملك استقبله استقبالا حسنا جدا وأعطاه خطابا موجّها إلى أحد المسلمين ذوي الشأن هو ملِكوبي milecopi يُظهر فيه رغبته في خدمة ملك البرتغال، الاّ أنه عندما وصل إلى كمبي (كمبايا) وجد ملكها قد توغل إلى أقصى أطراف مملكة مانداو [3] mandao ومعه جيش كبير من مشاة وفرسان ومدافع لشن حرب ضد الملك، وهناك انتظر عودة الملك في شامبانيل [4] champanel فلما حضر سلّمه الخطابين لكنه أجاب ببرود فيما يتعلق بأمر ديو diu ويبدو أنه لن يقدّم ما طُلِبَ منه لأن الملك – بعد الحوار الذي جرى معه – عرض بعض الجزر الأخرى على طول الساحل يمكننا أن نشيّد فيها حصنا ومستوطنة، لكنه – أي تريستاو ديجا – لم يقبل ذلك باسم البرتغاليين لأنه لم يكن مزوّدا بتعليمات من أفونسو دلبوكيرك تخوّله قبول ذلك. وعلى أية حال فقد علم من ملِكوبي milecopi أن ملِك عزيز (مالك عزيز أو مليكياظ) كان في وضع سيءٍ لأنه وجد نفسه خارج

---

(١) اسم سفينة يبدو أنه مشتق من اسم قرية قرب بلم belem في ضواحي لشبونة: انظر: castanheda, II, chap. cxil, p.355

(٢) Manda أو Mandoo جنوب غرب إندور Indur, ٢١, ٢٢° شمالا، ٢٩, ٧٣° شرقا.

(٣) انظر جـ ٣، فصل ٥٢

(٤) HUM ESTANTE DOS GUZARATES

ديو، وأنه بتحريض من مماليك مصر rumes لن يسمح لهم بدخول بلاده مرّة أخرى. [1].

وبعد أن أفضى تريستاو ديجا بما عنده أتى سفير كمبي (كمبايا) لزيارة أفونسو دلبوكيرك وسلّمه أوراق اعتماده وأعلن في الوقت نفسه أن ملك كمبي أرسل ليطلب من أفونسو دلبوكيرك أن يتلطّف ويأذن له بإرسال مجموعة من أهل كجرات [2] guzarates للتجارة في ملقى malaca وطلب أيضا حقّ المرور الآمن لسفن كمبي (كمبايا) للإبحار في هذه الأنحاء (أنحاء ملقى) ويشكو من أن البرتغاليين قد استولوا على السفينة مري MERI التابعة له [3]، وأنه الآن يلتمس من أفونسو دلبوكيرك أن يأمر بإعادتها له لأنه قد تمّ الاستيلاء عليها في فترة كان هو فيها في حالة سلام مع ملك البرتغال.

وأجاب أفونسو دلبوكيرك بأن سيّده ملك البرتغال كان توّاقا لأن يكون في حالة سلم وصداقة مع ملك كمبي (كمبايا) وتوّاقا للمتاجرة مع بلاده، ولهذا السبب فإنه (أي أفونسو دلبوكيرك) لم يشن عليه حرباً أبدا ولا أحرق قُراه ولا قذف بالمدافع قلاعه وحصونه، وإن كانت سفنه أو رجاله قد لحقهم أي ضرر من البرتغاليين فذلك لأنه (أي ملك كمبي) كان يأخذ جانب الملوك والحكام الذين هم في حالة حرب مع سيّده ملك البرتغال خاصة ملك ملقى وملك هرمز، اللذّين سبق أن زوّدهما بكثير من السفن المحمّلة بالأسلحة والرجال، لكنّه (أي أفونسو دلبوكيرك) كان يتظاهر دائما بعدم علمه بذلك حتى لا يقطعَ العلاقات معه. وكتب أفونسو دلبوكيرك يعبر عن شكره الوافر لِمِليكوبي MILECOPI لاهتمامه بأمور سيّده الملك البرتغالي واعداً إياه بمكافأة كبيرة لخدماته، أما بالنسبة للسفينة مري MERI التي طلب ملك كمبي استردادها فإنه – أي أفونسو دلبوكيرك – قد أمر بتجديدها وإصلاحها في كوشن (كوشيم) وسيُعيدها إليه عن طريق سفيره.

---

(١) انظر جـ١، فصل ٣٠ و جـ٢، فصل ٢٤

(٢) Hum estante dos Guzarates

(٣) انظر ج١ ، فصل ٣٠ وجـ٢ ، فصل ٢٤

عندئذ كتب السفير للمليكه بكل ماجرى مع أفونسو دلبوكيرك وأرسل الخطاب مع أحد خدمه، اما هو نفسه فاصطحب البرتغاليين لتسلم السفينة مري وإعادتها وحدث أنه عند الوصول إلى جوا (كوا) أن أبحر بهذه السفينة إلى كمبي والآن، فلأن أفونسو دلبوكيرك كان قد تلقّى معلومات أن سفنا من كلكتا كانت قد انطلقت كالمعتاد قاصدة البحر الأحمر، وأنها تأخّرت في إقلاعها وأن عاصفة ضربتها مما أجبرها على اللجوء إلى ميناء كمبي عند سفح جبل دلي [1] DELI بل إن إحدى هذه السفن قد دخلت دندا DANDA في زمام شول (شيول) CHAUL، فإنه بمجرد دخوله (أفونسو) الميناء أرسل يطلب تسليم هذه السفينة له لأنها تابعة للمصريين في القاهرة MECERIS OF CAIRO وهم أعداء سيّده ملك البرتغال فأمر حاكم شول (شيول) CHAUL بسرعة تسليمها له. وكان في هذه السفينة ثلاثة آلاف قنطار من الفلفل الأسود والزنجبيل. وأبحر أفونسو دلبوكيرك مرة أخرى ليرسو بسفنه أمام دابول [2] DABUL وأرسل يطلب تسليمه السفينتين الأخريَيْن، فبدأ المسؤولون يقدمون اعتذارات وحججا ولم يكن أفونسو دلبوكيرك بمستطيع أن يتأخر أكثر من ذلك، لذا فقد ترك لوبوفاز دي سامبايو LOPO VAZ DE SAPAYO على رأس ثلاث سفن وزوّده بأوامر لمحاصرة الميناء ومنع أي دخول أو خروج منه لأغراض تجارية إلى أن يتم تسليم السفينتين.

وبعد أن أبحر أفونسو دلبوكيرك بأيام قلائل تم تسليم السفينتين بكل ما تحملانه من بهار.

ولأن أفونسو دلبوكيرك كان قد تلقى أيضا معلومات أن هناك سفينة أخرى تابعة لكلكتا موجودة في ميناء باتيكالا (٣) BATICALA، فقد أرسل انطونيو رابوزو ANTONIO RAPOSO في جلبوت QALIOT (سفينة شراعية صغيرة

(١) انظر جـ ٢، فصل ٤٦

(٢) انظر جـ ٢، فصل ٣٤

(٣) انظر جـ ٢، فصل ١٢ و١٧

ذات مجاديف) ليطلب تسليم السفينة فإن رفض حكام المدينة حاصر الميناء وأوقف حركة الملاحة.

وأرسل أيضا فرناو جوميز دي ليموز إلى مانجالور MANGALOR نظرا لورود معلومات بوجود سفينتين هناك، وزوّده بالتعليمات نفسها، وبذا استولى أفونسو دلبوكيرك على كل السفن التي أبحرت من كلكتا قاصدة البحر الأحمر في هذا العام مما سبب خسائر فادحة للتجار من أهل البلاد.

واتجه هو نفسه إلى جوا (كوا) فاستقبله سكانها بفرح شديد، وهناك وجد هدية أرسلها له أحد سفراء الشاه إسماعيل كان في بلاط العادل خان عن طريق احد خدمه، بنية أن يعود (أي هذا السفير) لرؤية أفونسو بعد عودته من رحلته إلى البحر الأحمر، وذلك قبل أن يغادر (أي هذا السفير) إلى بلاده فارس.

الفصل الثالث عشر

كيف سَرَد فرنسسكو نجويرا لأفونسو دلبوكيرك كل ما جرى مع الزاموريم بشان إقامة حصن برتغالي، وعن الاجتماع الذي عقده مع القادة والقباطنة بهذا الشان وما تمّ اتخاذه من قرارات

بعد أن وصل أفونسو دلبوكيرك الكبير إلى جوا استقبله القباطنةُ والقادةُ وسكانُ المدينة بكلِّ مظاهر الفرح، جاء فرنسسكو نجويرا FRANCISCO NO-GUEIRA الذي كان قد أبحر في وقت سابق مزوّداً بتعليمات لبناء حصن كلكتا (كما سبق أن أوضحت)، وقدَّم تقريرا لأفونسو دلبوكيرك مؤدَّاه أنَّه سلَّم خطاباته إلى الزاموريم (السامري CAMORIM) لكن من خلال المناقشة التي جرت مع هذا العاهل في عدَّة مناسبات بشأن بناء الحصن البرتغالي، وجدَه دائماً غير مرحّبٍ بالفكرة مُقدِّماً الأعذار ذاكراً أنه لا يستطيع أن يقنع مسلمي البلاد ببناء هذا الحصن في الموقع الذي يطلُبه البرتغاليون، لكنه يستطيعُ أنْ يقِّدم لهم موقعاً في شال CHALLE وهو الأمر الذي رفضه فرنسسكو نجويرا، وحتى لو تم إعطاؤه موقعاً في كلكتا فمن غير الممكن إنشاء الحصن فيه إذا لم يكن أفونسو دلبوكيرك بشخصه موجوداً؛ لأن القادة التابعين للملك والمسؤولين في بلاطه رغم أنهم كان قد سبق أن تلقوا أوامر بمساعدته بكل طاقتهم في تنفيذ هذا المشروع إلاّ أنهم يروغون ويعملون سرا على عرقلة هذا المشروع إرضاءً لمكيْ كانانور وكوشن (كوشيم).

وقد استاء أفونسو دلبوكيرك استياءً شديداً من مراوغة الزاموريم، ويرجع سبب استيائه إلى أنه كان قد عقد العزم على ترسيخ أقدام البرتغاليين في كلكتا، ومن ثمّ فقد بدأ ينتهج سياسة جديدة وعزم على الوصول إلى قرار حاسم في هذا الشأن فأمر بعقد اجتماع مع القادة والقباطنة وموظفي الملك وسرد عليهم ما جرى بين الزاموريم وفرنسسكو نجويرا FRANCISCO NO-GUEIRA وكيف أن السفن التي قَدِمت من البرتغال هذا العام حملت خطابات من الملك البرتغالي يقول فيها أنه بالنسبة لأمور كلكتا لايجب عليه – أي أفونسو دلبوكيرك – أن يضع في اعتباره أنه لا مبّرر لشكوى ملك كوشن (كوشيم) وأن السبب فيما كتبه الملك لابد أن يكون راجعا لبعض الأمور التي لاأساس لها التي كتب بشأنها المسؤولون البرتغاليون في كانانور وكوشن للملك البرتغالي والحقيقة ان اضطراب الأمور يعود إليهم هم أنفسهم لأنهم يعملون على إرضاء ملوك هذه الأنحاء الذين يعملون على تدمير مشروع حصن كلكتا الذي يرغب الملك د. مانويل في إنشائه لأن جلالة الملك البرتغالي – حقا – وإن كان ملتزما بإبقاء ملك كوشن في منصبه كملك وملتزما بأن يدفع له السعر المتفق عليه للفلفل إلاّ أنه – أي ملك البرتغال – غير ملتزم بعادات هذا الملك ووثنيته ولا هو ملتزم بشَنّ الحرب ضد كلكتا عندما يريد ملك كوشن ذلك.

وبعد ان استمعوا لهذه الحجج التي ساقها أفونسو دلبوكيرك راحوا يناقشون الموضوع باهتمام. فكان من رأي د. جارسيا والقباطنة أنه لا بد من إنشاء حصن كلكتا باتفاق الطرفين وبروح الصداقة كما وافق الملك البرتغالي لأنه في مدينة كبيرة مثل كلكتا يمكن تحصينها بسرعة، لا يمكن إقامة حصن فيها بالقوّة إلاّ بعد إراقة دماء كثيرة. أما الموظفون الملكيون فكان رأيهم مخالفا فقد ذكروا أنه ليس من صالح ملك البرتغال إقامة حصن كلكتا لأنّه لايمكن المحافظة عليه دون تكاليف باهظة وهو الأمر الذي يجب أن يتجنبّه أفونسو دلبوكيرك ما وَسعه الجهد (فالملك يريد هذا الحصن لأسباب اقتصادية أكثر مما يريده لأي سبب آخر) وأنه يكفي تماما لتدمير حركة الملاحة في كلكتا وتدميرها إذا تقّرر

ذلك أن يتجوّل الأسطول مبحراً إزاء سواحلها لوقف حركة التجارة، واستمروا يذكرون أسبابا أخرى تؤيد فكرة التخلي عن بناء هذا الحصن.

وبعد أن أدلى د. جارسيا والقباطنة الآخرون بآرائهم أدرك أفونسو دلبوكيرك أن اعتراض المسؤولين الملكيين على إنشاء هذا الحصن متمش تماما مع رغبات ملكي كوشن وكانانور فأعلن انّه لا يفكر ابدا في شن حرب معوّقة مع الزاموريم وإنما هو مصمّم على معالجة الأمر بحيث يتم بناء الحصن ذلك لأن أيّ سياسة أخرى ستؤدي ببساطة إلى شُغْل الأسطول البرتغالي في الهند دائما بحصار كلكتا مما يعوقه عن تنفيذ مشروعات أخرى، ولإتاحة هذه الفرصة للأسطول لابد من أن يكون البرتغاليون في سلام وصداقة مع ملكيْ كلكتا وكوشن وأن يبذلوا كل ما يستطيعونه من جهد لإبقاء هذه الصداقة ففي هذين الميناءين سيتوفّر دائما البهار في أكياس مما يجعل تحميله للبرتغال يتم على أفضل وجه، وأن هذه الصداقة لن تستمر ولن تكون مُؤَمّنة - خاصة مع الزاموريم - إلاّ إذا كان لسيّدنا الملك حصن في كلكتا، لأنّه إلى جانب أن بناءه سيعطي للبرتغاليين هيْبة أكثر بين المسلمين، فإن إنشاء هذا الحصن يمكننا - كما لابد أن نفعل - من طرد الوكلاء التجاريين المسلمين المصريين، لأنهم حقا سبب كل هذه المتاعب، ولابد أن ننهي فورا وتماما هذه المشاحنات مع الزاموريم فلا فائدة منها سوى أنها لصالح المسلمين وتسبب ما لا حصْر له من المشاكل لحكومة الهند (البرتغالية). وقال أفونسو دلبوكيرك أيضا إنه إذا كان هؤلاء الأشخاص الذين كتبوا لسيدنا الملك البرتغالي ذاكرين عدم جدوى حصن كلكتا، يأخذون على عاتقهم - فقط - أن يبحروا في البحر حاملين أسلحتهم على ظهورهم، وأن يطلقوا مدافعهم على سفن المسلمين التي تحمّل الفلفل إلى مكة كما فعلنا، لو أنهم فعلوا لا بتهجوا بما فيه الكفاية لعدم دخولنا في مشاحنات مع كلكتا. واستمر قائلا إنه رغم أنّ لورنزو مورينو LOURINCO MORINO وأنطونيو ريل ANTONIO REAL كانا قد كتبا لملك البرتغال أن بناء حصن كلكتا سيزيد من المصروفات البرتغالية في الهند فإن المبالغ الجاري تحصيلها لقاء حق المرور

الآمن للسفن الوطنية NATIVE المتجهة إلى كلكتا للتحميل تكوّن مبلغاً ضخما إذا تمّ الحفاظ عليها ونصف هذا المبلغ كافٍ لدفع رواتب الموظفين والضباط وباقي الرجال ممن سيتمركزون في هذا الحصن بعد إنشائه. وقال أفونسو دلبوكيرك «وأكثر من هذا فإنني أثق في ربنا OUR LORD انه عندما نذهب إلى كلكتا ستنهي هذا الأمر بطريقة حكيمة نظراً للمنافسة بين هذين الملكين PRINCES فسيأتي تجار كوشن ليبادلوا بالفلفل البضائع وفي هذا خدمةكبيرة لمصالح ملك البرتغال».

وبهذه الحجج الذي ساقها أفونسو دلبوكيرك عَدِم كل المستمعين اليه أيّ اعتراض وحار المعترضون جوابا فقد بسط أمامهم الأمر بوضوح فلم يَعُد هناك قول لقائل. وحتى لا يضيع وقت، ولتنفيذ أمر جرى إقراره بشكل نهائي أمر أفونسو دلبوكيرك الأسطول بالاستعداد لانه عقد العزم على أن يذهب بنفسه ومعالجة هذا الأمر. وكتب أيضا لملك البرتغال وأرسل الخطاب مع إحدى سفن التحميل التي وصلت البرتغال في هذا العام ذكر له فيه كل ما جرى وما انعقد عليه العزم. وكان جواب الملك يتضمن أنه يقدّر الحجج التي سيقت لصالح بناء الحصن في كلكتا وأنه لا يحبّذ المناوشات المستمرة مع كلكتا (مع أنه كتب مراراً قبل ذلك يطالب باستمرار الحرب مع كلكتا) وأنه الآن موافق على هذا الاتجاه وانه لابد من إتمام ذلك على النحو الذي يحقق صالح البرتغال. وأنه – ملك البرتغال – يعتبر هذه المشورة المقدمة له أكثر قيمة من أية مشورة أخرى بعد أن أُحيط علما بكل ما جرى تنفيذه. وأن التقارير التي تصله تمكنه من الإلمام بأمور الهند بشكل طيب رغم بعده عنها، كما لو كان فيها.

الفصل الرابع عشر

افونسو دلبوكيرك يبُحر إلى كوشن ويُرسل د. جارسيا دي نورونها إلى كلكتا لإقرار اتفاق السلام، وما دار مع ملك كوشن بهذا الشأن

والآن فإن كل القباطنة والقادة قد انتهوا إلى قرار بضرورة بناء حصن في كلكتا للأسباب التي سبق إيرادها بالتفصيل، لذا فقد اختمر في عقل أفونسو دلبوكيرك أن يبحر بالأسطول إلى كوشن (كوشيم) بأسطوله الذي كان جاهزاً بالفعل ومن هذا المكان يجري اتصالاته للوصول بهذا الأمر (بناء حصن كلكتا) إلى نهاية طيبة، وأمر ابن أخته د. جارسيا دي نورونها، أن يطلق إلى كلكتا ليعلم من الزاموريم ما ينوي عمله ويطلب منه تنفيذ أربعة أمور.

الأمر الأول أن يقدم مساحة في موضع رسوّ السفن في مواجهة حاجز المياه[1] CERQME لبناء حصن عليه يمكنه استيعاب رجالنا ويحميهم من الاضطرابات والمشاكل التي عانوا منها في الماضي.

والأمر الثاني أن يتحتم عليه أن يقدم الفلفل الذي يطلب منه لتحميل السفن المتجهة إلى البرتغال على أن يقبل بدلاً عنه بضائع مختلفة الأنواع على وفق الأوراق والأسعار السائدة في كانانو، وأن يسمح للوكيل التجاري لسيّده ملك البرتغال بشراء الزنجبيل الذي اعتاد منتجوه أن يأتوا به لبيعه في السّوق، كما جرت العادة في البلاد. والأمر الثالث أن يعيد كل الممتلكات البرتغالية التي

---

(١) انظر جـ ١، فصل ٣١

استولى عليها المسلمون في الماضي.

والأمـر الرابع أن يدفع إتاوة سنوية لقـاء تكاليف الحـصن ومن يحـرسـونه، وتعادل نصف الرسوم الإجبارية على التجار المسلمين مقابل حق المرور الآمن لسفنهم.

وبعد أيام قليلة من إبحار د. جارسيا إلى كلكتا، أبحر أفونسو دلبوكيرك إلى كوشن وحالما وصلها أتى ملكها لزيارته وفي اللقاء بينهما والذي حضره كل من جاسبار بيريرا وديوجو بيريرا ولورنزو مورينو المسؤولون في المحطّة التجارية – بدأ الملك يجأر بالشكوى أن أفونسو دلبوكيرك لم يحطه علما بهذه الصداقة الجديدة مع الزاموريم وأظهر بعض الخطابات التي كتبها أفونسو دلبوكيرك له (للزامـوريم) والردّ عليهـا، ولما كانت هذه الخطابات لا تحـوي شيئـا يمكن أن يعتبره ملك كوشن خطأ فقد راح أفونسو دلبوكيرك يهدئ من روعه ويظهر له عطفا كبيرا وقال له: «حقـا إن هذه الخطابات هـي خطاباتي، إنني لا أنكرها، ولابد أن يكون لديك من الإدراك لفـهم ذلك، أنه لابد أن أرد باسم سـيدي الملك على الأعداء والأصدقاء علي سواء، خاصة على الذين يرسلون لي طالبين السلام والصداقة، ويريدون أن يقدموا لي حصنا في موانئهم، مثلما فعل الزاموريم. إنني أعلم أيضا بشكل جيد كيف أنك تعمل على كسب الأصدقاء والأعداء إلى جانبك، وأنك تبذل كل جهدك للاحتـفاظ بمملكتك وبلادك في أمـان رغم أنك لم تخبرني بشيء من ذلك ولا أنا طلبت منك أن تخبرني رغم أنه سيكون عملا ينم على الفهم من جانبك بإحاطتي علما بهذه الأمور، لأنك تطلب مساعدتي في كل ما يواجـهك من صعوبات، وتذكر أنه عند مـوت خـالك [1] كيف أتيتُ سريعا لنجدتك رغم أن الأسطول كان جاهزا للإبحـار الفوري للهجوم على جوا (كوا) وإذا كنت حـراً في أن تفـعل مـا يحلو لك ومـاتراه الأفضل لك فكيف لايكون لي

(١) انظر جـ ٢، فصل ٥٠

الحق نفسه وأن أعلم من الزاموريم ما يرغبه مني وأن أردّ على خطاباته حتى لو كان عدواً لسيدي ملك البرتغال، وبالإضافة إلى هذا فإنه يمكنني ألاّ أكون في حالة سلام معه إن كان ذلك يسرني فإنني أملك أن أحافظ على السلام معه إن أردتُ، وأن أشنّ عليه حرباً إن أردتُ، وأن أحرق سفنه إن أردتُ وأن أحطم كل موانئه إن أردت [١]. وإن كان لواحد منا الحق في الشكوى فأنا صاحب هذا الحق وليس أنت، فإذا كنتُ لم أدمّر الزاموريم فذلك بسببك أنت فقط وملك كانانور فأنت عندما رأيت أنه هُزم ساعدته بقواتك وأرسلت إليه سفنا محمّلة بالمؤن والعتاد، أبحرت في ظل حق المرور الآمن لسيدي ملك البرتغال، لأنك كنت راغباً في ذلك، لكن لو أنكما كنتما فعلا راغبين في تدميره (كما كنت مرارا تجعلني أفهم ذلك) ووقفتما إلى جانبي وإلى جانب المارشال [٢] في الهجوم على كلكتا لكان قد تم تدميره تماما». وارتبك ملك كوشن شيئا ما لوصول النقاش إلى هذا الحد، ولهذا العنف الذي طرح به أفونسو دلبوكيرك المسألة أمامه، فقال إنه كان دائما خادم ملك البرتغال وأن كل أفراد أسرته قد ماتوا في سبيل خدمته منذ دخل البرتغاليون الهند في الوقت الذي كان فيه ملك كلكتا هو العدو الرئيسي له، ومن غير المعقول أن يعود الآن ليساعد هذا الملك ضد البرتغاليين، وأن السبب في أنه لم يساعد البرتغاليين في مشروع كلكتا (كما يقول أفونسو دلبوكيرك) هو أن البرتغاليين لم يطلبوا منه مزيدا من المساعدة ولم يكونوا في مساعدة غير تلك التي كان المارشال قد طلبها سابقا منه.

فأجابه أفونسو دلبوكيرك أنّ عليه أن يضع في اعتباره أنّ الخلافات التي كانت بين البرتغاليين والزاموريم في الماضي كان بسبب دفاعهم عن مملكة كوشن التي ادّعاها لنفسه، وأنّه إذا كان أقاربه قد ماتوا في سبيل خدمة ملك البرتغال وكذلك المارشال [٣] فإن كل أولئك الذين انتهوا في كلكتا ماتوا دفاعاً عن شرفه ومملكته (أي شرف ملك كوشن ومملكته) بل إنه حتى هو نفسه (أفونسو

---

(١) لاحظ التكرار في نهاية الفقرات، وما يحدثه من تأثير
(٢) دوم فرناندو كوتنهو. جـ ٢ الفصول من ١٢ إلى ١٧
(٣) انظر جـ ٢، فصل ١٥

دلبوكيرك) قد أصيب في ذراعه اليسرى فلم يعد قادرا على رفعها إلى رأسه[1]، وانه يريده أن يكون على علم تام انه إذا كان هو (ملك كوشن) وملك كانانور قد عقدوا العزم سلفا على دعم الزاموريم ومن الآن فصاعدا على مساعدة الزاموريم كما فعلوا حتى الآن، فإنه هو (أفونسو دلبوكيرك) أيضا من جانبه قد عقد العزم على ألاّ يشن الحرب عليه أكثر من هذا، ومن ثم فلينظر كل واحد لصالحه.

وبعد انتهاء النقاش استأذن ملك كوشن في الانصراف ولم يكن سعيداً بهذا ولا بأمور أخرى سمعها، ومع هذا فإن ملك كوشن وملك كانانور رغبة منهما في عرقلة هذا المشروع (بناء حصن كلكتا) لم يقطعا اتصالاتهما بالكيمال[2] CAI-MAIS وحكام المالابار. وقد علم أفونسو دلبوكيرك هذا كله من الوزير AL-GUAXIL ألمسن الذي كان يعيش في كلكتا.

(١) انظر جـ ٢، فصل ١٦

(٢) انظر جـ ١، الفصل الاول

الفصل الخامس عشر

كيف ارسل د. جارسيا إلى افونسو دلبوكيرك بما دار بينه وبين الزاموريم وماجرى نتيجة ذلك وكيف ذهب افونسو دلبوكيرك وبنى حصنا هناك

والآن وقد أصبحت العلاقة بين ملك كوشن (كوشيم) وأفونسو دلبوكيرك على النحو الذي ذكرناه في الفصل السابق، فقد سعى كل طرف منهما لتحسين موقفه بكل جهده، وهنا وصلت رسالة من د. جارسيا إلى أفونسو دلبوكيرك يذكر فيها أنّه عند وصوله الى كلكتا طرح أمام الزاموريم الأمور اللازمة (أربعة عناصر سبق ذكرها) لكنه لم يتلق إجابة حتى الساعة الأخيرة، وانه لا يظن – حقا – أن الزاموريم ينوي اتخاذ الخطوات الضرورية لإنهاء هذا الموضوع (بناء الحصن البرتغالي) فهناك تعويق مستمر وفي كل يوم يظهر للمسألة بعد جديد لدرجة أنه لايجد الكلمات التي يعبّر بها عن معنى هذه المماطلة وذلك التسويف.

وكان أفونسو دلبوكيرك يعلم جيدا من أي ناحية يأتي هذا التسويف فصمم أن يقطع الطريق على هذا المكر باختصار وبأفضل طريقة. ولأن الزاموريم كان يلقى تشجيعا من التجار المسلمين المحلّيين للاستمرار في تأخيره لمشروع بناء الحصن البرتغالي، فقد فكّر أنه من الحكمة استخدام أخي الزاموريم ذلك الأمير الذي كان خادماً مخلصا لملك البرتغال، ومن ثمّ كتب له خطابا شخصيا قال له فيه إنه إنْ كان حقا يريد أن يكون صديقاً لملك البرتغال (كما أعلن ذلك مراراً) فقد حان وقت ذلك بأن تأمر بدس السم للزاموريم فإذا مات تشاورا معا في الأمور على نحوٍ يسرّه. ولأن هذا الأمير (أخو الزاموريم) كان راغباً في السلام

وكان مشمئزا من مسلمي مصر MOORS OF CAIRO المقيمين في كلكتا لأنهم لايكفون عن تقديم النصيحة لأخيه (الزاموريم) بعدم الاستجابة لمطالب البرتغاليين، بالإضافة إلى أنه كان توّاقاً لتولّي الحكم - فإنه نفّذ اقتراح أفونسو دلبوكيرك (دسّ السّم لأخيه).

وبمجرد موت الزاموريم اعتلى هذا الأمير (القاتل) العرش فاتخذ لنفسه ذلك الوزير الهَرِم الذي كان قد أتى من كانانور والذي لم يكن أخوه يؤيّده بسبب ولائه وصداقته الحقّة لملك البرتغال، وبعد انقضاء ايام قليلة ارسل الزاموريم* الجديد عن طريق واحد من الكيمال CAIMAIS التابعين له إلى د. جارسيا يطلب منه أن يكتب إلى أفونسو دلبوكيرك يخبره أن أخاه (الزاموريم السابق) قد مات وأن الملك صار له وأنه سيكون سعيداً بعقد سلام مع ملك البرتغال وتقديم أي موقع في كلكتا يشاؤه لبناء حصن برتغالي، وأنه - على أية حال - لم يذكر هذا الأمر للمسلمين ذوي الشأن في البلاد لأن ذلك سيؤدي إلى خلاف شديد بينهما لأنهم جميعا راغبون في استمرار سياسة التشدد والتمرد كما كان في عهد الزاموريم السابق.

ولأن هذا الزاموريم الجديد كان رجلاً صادقاً وكان متأثراً بزوجته وَلِها بها (ذلك أنه كان من عادة هذه البلاد أن يتخذ الرجل زوجات كثيرات، لايرث أولادهن العرش، إلاّ أنه احتفظ بزوجة واحدة هي هذه الزوجة المشار إليها وأعلن ان أولاده منها سيرثون العرش) التي كانت شديدة الرغبة في الاحتفاظ بسلام وصداقة مع البرتغاليين، وكان هذا هو السبب في رضوخ مسلمي البلاد وقبولهم لاتفاية السلام هذه. أمّا بالنسبة للمسلمين الذين لم يمكن اقناعهم بقبول هذه الاتفاقية فقد أمر بقتلهم أمام عينيه إرضاءً لزوجته، كما طرد المسلمين الأجانب بزوجاتهم وأطفالهم وممتلكاتهم خارج المملكة. واستقرت الأمور بعد أن

---

* هذا يؤكد ما ذهبنا أليه في هذه الترجمة أن الزاموريم ليس اسما وانما أقرب ما يكون إلى اللقب (الحاكم أو الملك) ومع هذا فإن بعض الكتب العربية تسميه السامري.

كانت مزعزعة بسبب المسلمين فعقد د. جارسيا معاهدة سلام مع الزاموريم (الجديد) على أساس الشروط الآنف ذكرها والتي حدّدها أفونسو دلبوكيرك، وكتب د. جارسيا بما جرى لقائده (أفونسو) الذي ما إن علم بذلك حتى أبحر قاصداً كلكتا، وبعد مقابلة مع الزاموريم (الجديد) تبادلا خلالها مشاعر الود والصداقة بدأ العمل في إنشاء الحصن وتم وضع اساساته في المياه بين الحَيْدْ البحر REEF وبالقرب من مرسى السّفن.

ومساحة هذا الحصن[1] كمساحة حصن كوشن، ولها برجان ناحية البحر، وبينهما على طول السور بوّابة صغيرة [2] WICKET GATE لتلّقي المدد عند الضرورة دون أن يتمكن مسلمو البلاد من منعه، وفي هذا السور نفسه سجن[3] من ثلاثة طوابق متين جدا وقوي، ومن ناحية المدينة تم تشييد برجين آخرين متينين جداً وبينما يوجد الباب الرئيسي للحصن إزاءه مَعْقِل للدفاع وبعد أن تقدم العمل تقدما كبيرا وارتفع البنيان بحيث يمكن الدفاع عنه بلا صعوبة سلّم أمر العناية به لفرنسسكو نوجويرا FRANCISCO NOGUEIRA وزوّده بقوّة كافية لحراسته وجعل جونسالو مندز GONCALO MENDEZ هو الوكيل التجاري ومسؤول دفع الرواتب والأجور كما جعل جوآو سراو JOAO SER-RAO موثّقا للمحطة التجارية.

لقد أصبح من الضروري الآن أن يبحر أفونسو دلبوكيرك لإتمام أمور لم تتم، فاستأذن الزاموريم (القاتل) وسط مظاهر الصداقة والود وترك الحصن مزوّدا تزويدا جيدا بالمدافع والبارود والمؤن الوفيرة واتجه قاصدا كانانور، وأرسل الزامويم الجديد بصحبته سفيرين ليذهبا إلى البرتغال وقد حملا معهما هدية للملك د. مانويل وخطاب سلام موقعا منه شخصيا ومن ذوي الحيثية في مملكته وقد ختمت بختم ذهبي طالبا منه (أي من ملك البرتغال) ان يُرسل هو أيضا خطابا مثله لتأكيد معاهدة السلام التي أبرمها مع أفونسو دلبوكيرك وأن يمنحه

(١) انظر CORREAS LENDAS DA INDIA VOL. II, P.330
(٢) POSTIGO - باب صغير في باب كبير
(٣) انظر جـ ١، فصل ١٧

حق المرور الآمن في كل الموانىء التابعة للبرتغال. ووصل السفيران إلى البرتغال واستقبلهما الملك بحفاوة وودعهما بحفاوة أكثر عند ابحارهما إلى بلادهما.

ثلاثة انجازات حققها أفونسو دلبوكيرك في هذا العام (١٥١٣) أثارت الإعجاب والدهشة إلى اقصى درجة بين ملوك الهند وحكامها.

الإنجاز الأول هو دخول البحر الأحمر وهو مشروع كانوا يرونه صعب التحقيق، وقد جعلهم هذا في حالة غيظ شديد، والإنجاز الثاني هو تسلّمه كل سفن المسلمين محملة بالبهار والتي كانت - أي هذه السفن - مبحرة هذا العام من كلكتا إلى مكة (المقصود جدة ميناء مكة). لقد تسلم هذه السفن عند عودته من مضايق البحر الأحمر ماراً بموانئ كمبي حتى جبل دلي MOUNT DELI والإنجاز الثالث هو هذا الحصن الذي شيده في كلكتا لأنها - أي كلكتا - كانت هي السوق الرئيسية للمسلمين الغرباء ـ الأجانب) الذين يتاجرون مع الهند، وببناء هذا الحصن تنقطع رحلاتهم الى كلكتا. وكان ملك نارسينجا NAR-SINGA قد اعتاد أن يعلن أنه مادام زاموريم كلكتا موافقاً على بناء حصن للبرتغاليين في بلاده. فإنه يمكن لأفونسو دلبوكيرك أن يبني ايضاً حصناً في بيسناجا BISNAGA إن كان ذلك يسرّه. وهذا الحصن قد جرى هدمه بعد ذلك عندما اصبح د. أنريك مينزيس[1] D.ANRIQUE MENEZES حاكماً للهند بناءً علي مشورة سيئة قدّمها له القادة والقباطنة لحصار ضربة المسلمون حوله وقد ندم د. إنريك بعد ذلك ندماً شديداً لهدمه، لأنني أعتقد - بعمق - أن هذه المشورة لو تم تقديمها في عهد أفونسو دلبوكيرك لما أمر أبداً بهدمه حتى لو اجتاحه المسلمون تماما كما حدث في جوا. لقد كان هذا الحصن بمثابة قدم

---

(١) الحاكم السابع للهند في الفترة من ٢٥ ديسمبر ١٥٢٤ إلى ٢٣ فبراير ١٥٢٦. انظر صورته وفكرة عن حياته في:
P.BARRETTO DE ROSENDE'S LIVRO DO ESTADO DA INDIA BRIT. MUS., SLOANE MS, 197, FOLIO 19:
"Em seu tempo se desfes a fortaleza que hos Portugueses tinha em callecut por na ser de prouyto Auendo padessido grandissimos sercos pello samorim = sendo sempre muy bem socorrida gov, mador"

واحدة فوق رقبة زاموريم كلكتا، وهذا في حد ذاته كان هدفا رئيسيا يحركه (أي أفونسو دلبوكيرك) للعمل لإنجاز هذا المشروع.

الفصل السادس عشر

كيف أبحر افونسو دلبوكيرك الكبير قاصدا كلكتا وعروجه على كانانور، وعن الأخبار التي كتبها له فرناو مارتينز إيفانجلهو FERNAO MARTINZ EVANGELHO من ديو وكيف أرسل بيرو دلبوكيرك باسطول لاكتشاف مضايق فارس PERSIAN STRAITS وغير ذلك مما جرى

بعد أن استأذن أفونسو دلبوكيرك من الزاموريم اتجه مباشرة إلى كانانور عاقداً العزم على عدم ترك الهند هذا العام، ليس ليستريح من عناء ما مرّ به من متاعب – حقاً – وإنما ليرتب بعض الأمور التي اربكها الموظفون والمسؤولون الملكيون وأضروا فيها بمصالح الملك البرتغالي وممتلكاته خلال فترة غيابه عن الهند. لقد أراد معالجة ما وقعوا فيه من أخطاء. لقد وصل إلى كانانور في الوقت المحدّد وخلال أيام قليلة وصلته رسالة من فرناو مارتينز إيفانجلهو FERNAO MARTINA EVANGELHO الذي كان في ديو DIU ذكر فيها أن جلبوت في الميناء كان قد وصل من مضايق البحر الأحمر حاملا رسولاً من قاضي القاهرة CADI OF CAIRO معه خِلَع لكلٍّ من ملك كمبي (كمبايا) والعادل خان [1] HIDAL CAO ولكلّ الولاة [2] مع تبريكات ومبّررات لا حصْر لها ويحثهم – بكلمات كثيرة – على شن الحرب ضد المسيحيين.

(١) انظر جـ٢، فصل ٢٢
(٢) Guazis

وقاضي القاهرة هو أحد الأشخاص من ذوي النفوذ (المكانة) هناك، وهو بمثابة شيخ العلماء في مكة [1] CHIEF PRIEST لأن السلطان الكبير (سلطان مصر المملوكي) هو الذي يعتمد اختياره فهذا القاضي يتلقى الاعتماد مباشرة من السلطان الكبير. ووصلت أيضا أخبار من الشخص نفسه مؤدّاها أن السويس قد أصبحت خالية ليس بها إلاّ هياكل القوادس (نوع من السفن) وأن الطاعون انتشر في القاهرة نفسها حتى أن عشرين ألفا يموتون فيها كل يوم (وليس في هذا ما يدعو كثير للدهشة ففي هذه المدينة ٢٥,٠٠٠ شارع) وأنه بعد ابحار أفونسو دلبوكيرك من عدن، انطلق جلبوت من هذا الميناء (عدن) واتجه إلى زيلع ليروي راكبوه كيف أن المدفعية البرتغالية قتلت عدداً كبيراً من أهل المدينة، وأن شيخ xeque عدن كتب الى الملك king زيلع بضرورة أن يُرسل كل السفن التي في مينائه وكل المقاتلين عنده ممن يرغبون في القتال لقاء أجر لكن ملك زيلع أجابه بأنّ عليه أن يطلب المساعدة من جهة أخرى لأنه في حاجة لكل سفنه وكل مقاتليه ليدافع عن بلاده. وبعد أن وصل الجلبوت هناك وصل طرّاد [2] terrada قادم من ساحل فَرْتك [3] وأن ملك عزيز (مالك عزيز أو مليكياظ meliqueaz) بعد أن تناقش مع المسلمين فيه، أوصاهم بألاّ يخبروا أحداً بهذه الأخبار، لكنه (أي فرناو feruao) استطاع عن طريق مسلمين أصدقاء استطاع ربط مصالحهم به أن ملك عدن نصح كل مسلمي مملكته الموجودين في ديو diu أن يخرجوا منها في أول فرصة لأن لديه معلومات أن القائد العام البرتغالي في الهند يستعد لتجديد الهجوم عليه، ولأن الأمر كذلك فإنه قد جمع كتيبة من أهل فرتك قوامها ستمائة مقاتل أخذهم عنوة من بعض السفن التي رست في الميناء، وأنّ ملك فرتك king of furtaque قد صمّم على مساعدة البرتغاليين بسبب هذا الإجراء العنيف والقسري الذي اتخذه ملك

---

(١) caciz ، انظر جـ ٢، فصل ١٦

(٢) انظر جـ١، فصل ١٨

(٣) جـ١، الفصل ٢٦

عدن، ببعض الرجال إذا حضر إلى هذه الأنحاء لمحاربته (ملك عدن)، وأن ملك عزيز (مالك عزيز) قد ذهب إلى بلاط ملك كمبي (كمبايا) بشأن الأمور في ديو diu حاملاً معه كمية كبيرة من الفضة والذهب والجواهر والأقمشة الغالية ومائتي حصان ليحّرض الملك وحكومته، ومن بين ما حمله من هدايا سيف كان أفونسو دلبوكيرك قد أهداه له فيما مضى، وأن سفينة من هرمز قد وصلت تحمل أخبارا بموت خوجة عطار الذي أشار إلى الملك في آخر لحظة وقبل أن يلفظ أنفاسه بأن يقبلوا العمامة السوداء شعار الشاه إسماعيل ومذهبه* وأن يسمحوا للبرتغاليين ببناء حصن في هرمز، وبدون تنفيذ هذين الأمرين فإنه يشك كثيرا أن يستطيع الملك المحافظة على ملكه.

وعندما تلقى أفونسو دلبوكيرك كل هذه الأخبار التي بعث بها فرناو مارتينز إيفا نجلهو fernao martinz evangelho أصبح في غاية الحذر لأنه وجد أن دخوله البحر الأحمر قد أحدث في وقت وجيز جدا عدداً من التغيرات الكبيرة، لذا فقد أمر بإعداد أسطول من أربع سفن لتتجَه إلى رأس جوردفوي وعدن، إذا سمحت حالة الطقس لجمع معلومات عمّا يجري هناك، وبمجرد إعداد هذا الأسطول حتى عينّ بيرو دلبوكيرك ابن أخيه رئيسا لقبطانته، أما قباطنة السفن الذين عيّنهم فهم: دوي جالفاو ruy galvao، وأنطونيو رابوزو an-tonio rabosc، وجيرونيمو دي سوزا jeronymi de sousa وعيّن كوكيل تجاري تريستاو ديجا tristao dega وعيّن كموثق للأسطول جواو تيكسيرا joao teixeira وزوّدهم بأوامر مكتوبة مؤداها انه إذا كانت حالة الطقس تسمح فعليهم التوجه لإلقاء نظرة على عدن وأن يقضّوا الشتاء في هرمز ويطالبوا ملكها بالحصن الذي تركه أفونسو دلبوكيرك ليخزن فيه البرتغاليون البضائع التي يجلبونها ويطالبه أيضا بالإتاوة التي حل ميعاد دفعها في العام الماضي وإذا ما أنهى ذلك اتجه ليكتشف مضايق فارس straits of pevsia

* النص To accept the cop of xeque Ismael and grant his prayer

ومن ثم يعودون إلى الهند. وحالما تلقى بريو دلبوكيرك هذه الأوامر استأذن عمّه وأبحر مباشرة إلى رأس جوردفوي، وسأتحدث بعد ذلك عن رحلته.

الفصل السابع عشر

إجراءات أفونسو دلبوكيرك الكبير مع وزير كانانور فيما يتعلق ببعض أمور اتاها كانت معوّقة لمصالح ملك البرتغال، وكيف ابحر (أفونسو) قاصداً كوشن، وعن الرسالة التي أرسلها له سفير للشاه إسماعيل الذي كان في دابول dabul، وكيف تمّ إرسال ميجل فيريرا بصحبة هذا السفير في سفارة إلى الشاه إسماعيل

عندما أبحر بيرو دلبوكيرك، بدأ أفونسو دلبوكيرك الكبير يحقق في تصرفات معينة غير نظاميّة اعتاد المسؤولون ممارستها مما يعرض الممتلكات الملكية للخطر، وأنّبهم تأنيبا قاسياً لإهمالهم ما عَهِد به إليهم، وبعد ترتيب كل الأمور لتكون كما ينبغي، التفت إلى أعمال وزير كانانور alguaxil of cananor ، وكان أفونسو واعياً لها، ذلك أن هذا الوزير اعتاد ممارسة أعمال معوِّقة لمصالح الملك البرتغالي كما اعتاد الحديث عنه (عن أفونسو دلبوكيرك) بشكل سيء لأنه لم يكن مؤيدا لتصرفاته الشريرة المنطوية على الاستبداد، وأيضا لأن أفونسو دلبوكيرك كان متعاطفا مع الوزير كبير السن الذي كان يعيش في كلكتا والذي تسبب الوزير الحالي في طرده من كانانور لوقوفه إلى جانب البرتغاليين – لكل

هذا استدعى أفونسو دلبوكيرك هذا الوزير الجديد ليمثل أمامه، وأهداه سلسلته الذهبية التي كان هو نفسه يضعها حول رقبته وقال له في الوقت نفسه إنه يقدّم له هذه السلسلة رغم الأقوال السيئة الكثيرة التي يتقوّلها عليه (على أفونسو دلبوكيرك) لكن فيما يتعلق بالأمور المرتبطة بمصالح سيده ملك البرتغال فإنه يرجو أن يسير فيها سيراً حسناً حتى لا يقدم الموظفون الملكيون البرتغاليون مزيداً من الشكاوى ضدّه، وألا يزرع بذور الشّقاق بين ملك كانانور وقائد الحصن البرتغالي فالأمور إذا لم تسر في مسارها الصحيح فسيكون من الضروري أن ينزل به العقاب الذي يستحقه، ولابد أن يتذكر أيضا أنه عفا عنه في واقعة تصرفه العنيف ضد المسلم أبو القاسم (1) pocaracem إذ سلبه خيوله لا لشيء إلاّ لأن هذا المسلم كان على علاقة طيبة بالبرتغاليين.

ولم يكن الوزير سعيداً عند سماع كلمات التأنيب هذه فأجاب بأنه شديد الولاء لملك البرتغال، وأنه النسبة لكل الأمور التي يعنيها بالنسبة لملك كلكتا، فإنه من ناحيته كان يعمل دائما على توجيه الأمور لتكون في النهاية لصالح الملك البرتغالي أما فيما يتعلق بخيول أبو القاسم pocaracem فالخطأ يقع على عاتق موظفي الملك البرتغالي في المحطة التجارية وليس على عاتقه هو. وعلى أية حال فإن أفونسو دلبوكيرك رغم مالديه من معلومات مؤكدة أن هذا الوزير رجل سيء وأنه مناوىء لصالح ملك البرتغال، فقد صَانعَه لأنه (أي أفونسو دلبوكيرك) كان حتى هذه اللحظة على علاقة طيبه بملك كانانور.

وبعد ذلك وصل مبعوث من سفير الشاه إسماعيل الذي كان في بلاط العادل خان. لقد سبق أن تحدث عن هذا الرجل (سفير الشاه إسماعيل) وذكرتُ أنه قد وصل إلى جوا حاملاً رسالة لأفونسو دلبوكيرك بينما كان هذا الأخير في مضايق البحر الأحمر (2). وكان فحوى رسالته هو طلب حق المرور الآمن حتى يمر إلى هرمز ويطلب من أفونسو دلبوكيرك أن يرسل بصحبته سفيراً برتغاليا

---

(1) انظر جـ ٢، فصل ٤٨

(2) انظر آخر فصل ٢

للشاه إسماعيل. لكن لأن أفونسو دلبوكيرك كان راغباً في أن يرى الرجل كل الحصون البرتغالية في الهند خاصة حصن كلكتا الذي كان يجري بناؤه، فقد حثّه على السفر إلى كلكتا ومن ثم إلى كوشن لأنه سيرسله ليعود إلى بلاده من هناك (كوشن)، وكان أفونسو دلبوكيرك راغباً ايضاً في ان يرى المبعوث سفن الشحن العديدة التي تصل هذا العام من البرتغال [١] وأحجامها وأن يرى كل بقية الأسطول الذي يجري إصلاحه والَمسْفن (موضع بناء السفن وإصلاحها) وما فيه من عمل يجري على قدم وساق. وهذا لأنه رغم أنّ ميجويل فريرا mi-guel fereiva حمل في التعليمات الموجّهة إليه أوامر بأن يشير إلى كل هذه الأمور في حديثه مع الشاه إسماعيل الاّ أن أفونسو دلبوكيرك كان راغباً في أن يكون هذا المبعوث الفارسي شاهد عيان على عظمة ملك البرتغال.

وبعد أيام قليلة من رحيله أبحر أفونسو دلبوكيرك قاصدا كوشن (كوشيم) في منتصف ديسمبر سنة ١٥١٣، فلمّا وصلها جهّز ميجويل فيريرا خادم الملك البرتغالي بأربعة خيول مسرجة يحل أحدها محل الأخرى، وأمره أن يذهب كسفير برتغالي للشاه إسماعيل وحمّله تعليمات هي نفسها التعليمات التي سبق أن حملها روي جوميز ruy gomez كما ذكرتُ آنفا عن حديثي عن الاستيلاء على جوا أوّل مرّة [٢] والتي لم تسفر عن أي نتيجة طيبة لأن خوجة عطار كان قد أمر بدسّ السّم له عند وصوله هرمز (رغبة منه ألاّ يتم الاتصال بين البرتغاليين والشاه إسماعيل) كما سبق أن روينا بالتفصيل.

وعندما تزوّد ميجل فيريرا بالتعليمات المطلوبة أمر أفونسو دلبوكيرك بتهيئة سفره ومن معه حتى دابول dabul فمن هذا الميناء سيصطحب سفير الشاه

---

(١) "Sendo vinte e dous dias de setembro d"este anno, chegarao a barra de Goa tres naos do Reyno, e por Xapitao Mor d'ellas jOao de Sousa de Lima, e outra Anrique Nunes de Liao, e Joao d"Abreu, da Ilha da Madera. Estas tres somento; e outra nao de guerra Xapitao Francisco Correa, filho de Braz Afonso Correa, Corregedor de Lisboa, Que Partindo de Mocambique Pera a fndia se apartou da companhia, se perdeo que nunqua mais apareeo, e porque a nao era noua a baa de vela, e nom ouve tromenta n'esh travessa, se presumio que podia auer desastre de fogo - correa, landu, vol. ii. p. 361.

(٢) انظر جـ ٢، فصل ٢٣

إسماعيل الذي كان في انتظاره، وقد أكرم أفونسو دلبوكيرك مبعوث الشاه كثيرا، ذلك المعبوث الذي انبهر بملامح أفونسو دلبوكيرك ومنظره حتى أنه طلب برسم صورة له بالحجم الطبيعي ليحملها معه للشاه.

وانطلق السفيران (يقصد السفير والمبعوث) الفارسيان ومعهما ميجل فيريرا، وترّيث أفونسو دلبوكيرك بعد ذلك عدة أيام في كوشن لإجراء بعض التعديلات الضرورية فلما أرساها ترك د. جارسيا دي نورونها ابن أخته للإشراف على تحميل السفن التي يتعيّن إبحارها إلى البرتغال هذا العام وطلب منه أن يستضيف سفراء الزاموريم cqmorin بطريقة مناسبة، أولئك السفراء الذين كانوا سيتجهون إلى البرتغال في تلك السفن، وأمر بإصلاح كل الأسطول الراسي في كوشن لأن هذا الأسطول سيبحر في الربيع إلى حيث تتطلّب مصالح ملك البرتغال. وبعد ذلك أبحر أفونسو دلبوكيرك إلى جوا (كوا).

الفصل الثامن عشر

السفراء الذين أرسلهم الشاه إسماعيل إلى ملك كمبي وإلى العادل خان، وأصل هذه السفارات وفحواها

نظراً لأنّ الشاه إسماعيل كان شديد الرغبة في جذب ملوك الهند ليكونوا في علاقة صداقة به، وأن يتبعوا مذهبه الشيعي [1] to folliw his religious tenets فقد كان يرسل لهم بشكل متتابع سفراءه، واستمرارا في هذه السياسة فقد أرسل سفراءه إلى ملك كمبي (كمبنايا) cambay وإلى السيباهي[2] cabayo فقد كان يعلم أنه إذا هذان الاثنان بما لهما من سلطان كبير وملك واسع – اتّبعاه أمكن له جذب الحكام الآخرين إلى صداقته ومذهبه دون عناء. وقد حدث في العام الذي توغل فيه أفونسو دلبوكيرك في البحر الأحمر (١٥١٣) أن أرسل الشيخ إسماعيل مرّة أخرى سفراءه إلى الملكين الانف ذكرهما، كما كان يفعل قبل ذلك وجهّز كل واحد منهما بمائة من الخيل المسرجة وبخيام جميلة مزركشة غالية وأوانٍ وأدوات مائدة من فضة وزوّدهما بتعليمات مؤدّاها أن يعرضوا على هذين الملكين ضرورة قبول مذهبه (الترجمة الحرفية: قبول عمامته أو غطاء الرأس الخاص به his cap)[3] وفي هذا اعتراف بسلطته العليا، وأن يسمحوا بقراءة كتب المذهب الشيعي والأدعية الخاصة بهذا المذهب في مساجدهم، وقد أرسل الشاه إسماعيل بهذا الطلب نفسه سفيرا إلى ملك هرمز وقد عمل هذا الأخير بنصيحة خوجة عطار وقبل طلب الشاه إسماعيل كما ذكرنا آنفا، وحثّه، على ذلك الريّس نور الدين[4] أحد

(١) cepta

(٢) انظر جـ ٢، فصل ١٨

(٣) corapuca

(٤) انظر جـ ١، فصل ٣٥

وزراء هرمز الذي كان فارسياً بالمولد وبقبول ملك هرمز عمامة cap الشاه إسماعيل يكون قد اعترف بسلطته.

وقد وصل السفير الفارسي إلى العادل خان إلى مدينة[1] calbergate حيث وجد العاهل (العادل خان) هناك وكان السفير قد جلب معه الهدية نفسها – خيولاً مسرجة بسروج غالية حسنة وأقمشة معصّبة وحريرا فارسيا وبعض قطع الذهب والفضّة، وزُمرّدا وكأسا[2] من الفيروز العادي الذي رأه ديوجو فرناندز diogo fernandez مسئول الأمن والعدالة[3] الذي كان أفونسو دلبوكيرك قد أرسله لبلاط العادل خان، والذي تصادف وجوده في ذلك الوقت (عند لقاء سفير الشاه إسماعيل بالعادل خان). لقد قال ديوجو فرناندز إن هذا الكأس أعجوبة إذا نظر المرء إليه. وعندما وصل هذا السفير إلى المدينة الآنف ذكرها سرعان ما أرسل مبعوثا لزيارة أفونسو دلبوكيرك في جوا كما ذكرتُ في موضع سابق، وعلى كل حال فقد استقبل العادل خان سفير الشاه إسماعيل بترحاب، وبعد أيام قليلة أعاده بعد أن أخبره بما يقوله للشاه وكيف أنه شاكر وممتن للصداقة التي يعرضها عليه، لكنه (أي العادل خان) لا يستطيع أن يقبل إلاّ المذهب الذي نشأ في ظلاله والدعوات (الصلوات) التي اعتادها، وأعطاه بعض الجواهر كهدية للشاه إسماعيل ومن ثم أرسله إلى دابول dabul ليستقل سفينة ويرحل لكنه أرسل مبعوثا من هذا الميناء لأفونسو دلبوكيرك كما ذكرت لتوّي.

أما سفير الشاه الآخر والذي ذهب إلى كمبي فقد وصل إلى شامبانل champanel فاستبقله ملكها بترحابٍ شديد، لكن مغادرته لم تكن مصحوبة بتكريم، بل لقد كانت بليّة فقد حدث ما أرويه في السطور الآتية: لقد حدث في

---

(١) إنني غير متأكد إذا كان هذا المكان هو كولابور kolapoor أو كولهابور kulhapur وهو ميناء مهم في بيجابور bi-japur (الآن في ولاية بمباي) ٤٣ ,١٦ْ شمالا، ١٣ , ٧٤ شرقا. وفي حالة ما إذا كانت كلمة gate تشير الى ghauts أو حافة الجبال الممتدة على طول الساحل والتي تقع خلفها مدينة كولابور kolapoor إل الشمال الشرقي من جوا فربما كان هذا صحيحا.

وكالبرجا kalberga ايضا تسمّى kulpurga, go lberga, calberga هي مدينة بعيدة جدا في منطقة الدكن. ومع هذا فتركيب الكلمتين متشابه جدا مع الكلمة الواردة في النص calbergate ٢٠, ١٧ْ شمالا، ٤٠ , ٧٦ْ شرقا.

(٢) porcelana

(٣) انظر جـ ٢، فصل ٢٧

الوقت نفسه الذي وصل فيه هذا السفير إلى مبتغاه، أن كان قد وصل إلى بلاط ملك كمبي الابن الأكبر لملك منداو mandao وبصحبته بعض أتباعه ليطلبوا مساعدة عسكرية يستعين بها ضد أحد إخوته الأصغر منه سناً والذي استولى على الملك منه بعد وفاة الملك الأب، وقد تناقش سفير الشاه إسماعيل مع هذا الشاب (ابن ملك منداو) عندما التقى به في بلاط ملك كمبي وسرعان ما دعاه لمأدبة مسائية، وذات ليلة عندما كان مع هذا الشاب الوسيم على انفراد أردا به سوءا treeated him rudely* (فهذا الأمر شائع بين رعايا الشاه إسماعيل أكثر مما هو شائع بين المسلمين الآخرين - إن صحّت التقارير) فراح الشاب يصيح فهبّ لنجدته كل الرجال التابعين له. وعندما أدرك سفير الشاه إسماعيل هذا التجَمّع والصياح دفع بالشاب خارجا، وتحصّن في البيت الذي يقيم به وراح يدافع عن نفسه ضد مهاجميه، فلما وصلت هذه الأخبار إلى ملك كمبي أرسل حرسه لقمع هذا الاضطراب، فتم ذلك بعد مقتل سبعين أو ثمانين شخصا من الطرفين. وخجل الشاب ابن ملك منداو mondao ممّا حدث فاتجه إلى راجبوت[1] reys botos التي لها حدود مع مملكته فتلقى مساعدة ضد أخيه المتمرّد فاستعاد ملكه.

ومملكة منداو[2] mandao لها حدود أيضا مع مملكة كمبي وأهلها مقاتلون أشدّاء، وفي كل مدن الراجا rajah وقراه توجد حاميات عسكرية. وكان الملك السابق - والد هذا الشاب - قد اعتاد دائما أن يجعل معه سبعة آلاف أو ستة آلاف امرأة راكبات خيولا (فارسات) حاملات أقواسهن وسهامهن. وقد اعتدن أن يصحبنه في رحلات الصيد لكنه لم يكن يأخذهن معه في الحرب، وقد أبطل الابن هذه العادة بعد توليه الملك. لقد استاء ملك كمبي من تصرف سفير الشاه إسماعيل (لمحاولته ممارسة اللواط مع هذا الشاب) فسارع بإبعاده ذاكراً له أن من يأتي إلى بلاده لا يحاول مثل الشيء، فلا مجال هنا لمثل هذا الأمر، ومع هذا

* المعنى: أراد أن يَشُقَّ قميصه من دُبُر أو بتعبير أوضح أراد أن يلوط به.

(١) انظر فصل ٢٣

(٢) انظر فصل ١٢

فقد قدم له فيلين وحيوانا يُقال له جاندا gauda (وحيد القرن) وأشياء أخرى كثيرة مقابل الهدايا التي أحضرها، وأصدر الأوامر للقائد بحمله إلى سورات[1] currate وإركانه – بما معه ومن معه – السفينة.

وعندما وصلوا إلى سورات، ركب السفير على الفور سفينة كانت على وشك الإبحار إلى هرمز. وقام الخدم بعد ذلك مباشرة بتحميل الفيلين والحيوان الآخر والأمتعة في سفينة أخرى لكن المسلمين (أهل البلاد) لم يكونوا سعداء تماما بما أتى به هذا السفير فوضعوا دقْلا غير سليم في السفينة لذا فما إن ابتعدت السفينة قليلا عن الساحل وتعرضت لرياح البر الشديدة نوعا ما حتى كُسر الدّقل، فاضطروا للعودة إلى سورات currate فاضطر ملك كمبي لتسلّم هديته ثانية. وعلى أية حال فقد أتم هذا السفير رحلته أخيرا في سفينة أخرى، ولم يكن سعيدا حقا بالضيافة التي أولاه بها ملك كمبي، كما أنه اغتم عندما علم بالمَقْلب trick الذي مارسها المسلمون مع خدمه (وضع دَقل مكسور في سفينته).

(١) انظر مخصص سورات surat أو surrate في. de resende's Ms, B.M., sloane, pedro barretto Ms 197, F. 182

الفصل التاسع عشر

كيف أنّ ميجويل فيريرا الذي تمّ إرساله كسفير إلى الشاه إسماعيل، وصل إلى توريز (تبريز) tauriz وعن الاستقبال الذي جرى له، وما حدثَ حتى عودته إلى هرمز

وصل ميجويل فيريرا - الذي كان قد أبحر قاصداً كوشن - إلى دابول da-bul حيث كان سفير الشاه إسماعيل الذي كان يتوقّع وصول مبعوثه، كما كان يتوقع أن يرسل أفونسو دلبوكيرك الكبير شخصا ما لزيارة سيده الشاه إسماعيل، وكان هذا السفير توّاقا لحدوث هذا. ولأن هذا السفير البرتغالي كان مصاحبا أيضا لسفير أرسله العادل خان، فقد أبتهج سفير الشاه إسماعيل كثيرا لوصولهما فلم يكن يطمع في شيء أخر غير أن يرى بلاط الشاه إسماعيل غاصا بسفراء كل ملوك العالم. وبعد وصول ميجويل فيريرا بأيام قلائل ركبوا جميعا في سفينة وأبحروا إلى هرمز فاحتفى بهم ملكها، ومن هرمز اتخذوا طريقهم مباشرة إلى تبريز tauriz[1]* حيث كان يقيم الشاه إسماعيل الذي كان قد أُحيط علما بالفعل بقدوم ميجويل فيريرا عن طريق خطاب أرسله سفيره، كما كان على علم بقدوم سفير العادل خان الذي كان ضمن الرحلة نفسها. لقد كان الشاه إسماعيل توّاقا لصداقة أفونسو دلبوكيرك لشهرته العظيمة فأراد أن يحتفي بسفيره ميجويل فيريرا احتفاءً كبيرا، فأمر أولي المكانة في بلاطه وكل العسكريّين باستقباله ومصاحبته حتى الحضرة الملكية (الشّاهيّة)، وذلك قبل تقديم سفير العادل خان. وقد جعل هذا التصرف سفير

(١) ربما كانت هي توري Tourie على ساحل الخليج ٤١ ,٢٧ْ شمالا، ٢٧ ,٥٢ْ شرقا.

* هي تبريز بلا أدنى شك، واجتهاد الاستاذ المترجم من البرتغالية لا محل له.

العادل خان في غاية من الغضب فقد كانت مراسم الاستقبال التي استقبلوه بها أقل بهاءً من تلك التي استقبلوا بها ميجويل فيريرا.

وعندما التقى ميجويل فيريرا بالشاه إسماعيل سلّمه أوراق اعتماده فتلقّاها الشاه بكثير من الكلمات والمظاهر الدالة على الود والصداقة. لكن ميجويل فيريرا أصيب بمرض شديد هذا اليوم لذا فلم يكن قادرا على مزيد من المناقشات والحوار مع الشاه إسماعيل فسلّمه الخطابات واستأذنه ليعتني بصحته حتى يشفى فوافق الشاه الذي أمر كبير الأطباء بعيادته وبذل قصارى جهده لعلاجه حتى يسترد صحته وتوعّده بقطع رقبته إذا لم ينجح في مهمته. وفي غضون أيام قليلة بدأت صحة ميجويل فيريرا تتحسّن قليلا فأرسل الشاه إسماعيل يستدعيه مرّة أخرى وسأله عن ملك البرتغال وملكه وعن الملكة وعن ابنتهما وعن أسلوبنا في استخدام السّلاح وكيفية إدارتنا للحروب، وعن الذين نحاربهم، وهل في البرتغال خيول كثيرة، وسأل ايضا عن السفن في الهند، وحركة الملاحة، وعن كثير من التفاصيل المتعلقة بسلطان الملك د. مانويل وممتلكاته خارج البرتغال.

وأجاب ميجويل فيريرا عن كل هذه الأسئلة على وفق التعليمات التي أعطاها له أفونسو دلبوكيرك، وأيد كلامه المبعوث الذي كان قد تمّ إرساله إلى أفونسو دلبوكيرك وأطلع الشاه إسماعيل على صورة أفونسو دلبوكيرك التي أحضرها وتحدث بعبارات فخمة مادحاً عظمة أسطوله في الهند، وكيف أن أحداً من ملوك الهند لا يجرؤ أن يرسل سفنه خارج موانئه دون الحصول على حق المرور الآمن من ملك البرتغال. وكان الشاه إسماعيل سعيدا بسماع كل ذلك وبحواره مع ميجويل فيريرا لطريقته الممتازة في التعبير عن كل هذا، وقبل عودته إلى الهند دعاه في مناسبات كثيرة ليحضر مجلسه وتناقش معه حول ممتلكات الملك البرتغالي وعن أمور الهند، وعن رغبته (رغبة الشاه إسماعيل) في تدمير السلطان الكبير grand sultan وتدمير بيت مكة (يقصد الكعبة المشرفة) بل إنه عرض أن يجعل نفسه ومملكته لقاء تحقيق هذا الغرض.

وبعد أيام كثيرة قضاها ميجويل فيريرا في بلاط الشاه إسماعيل على هذا النحو، استأذنه أن يُعيده إلى أفونسو دلبوكيرك مزوّدا بالإجابة عمّا طُلب منه لأنه (أي أفونسو دلبوكيرك) تواق للحصول على معلومات عن ذاته الملكية (الشاهيّة) وأنه (أفونسو دلبوكيرك) كان قد أمره بالعودة بالسرعة الممكنة. لقد كان الشاه إسماعيل سعيداً جداً بمجيول فيريرا لدرجة أنّه كان يعزّ عليه فراقه ويعز عليه أن يأذن له بالرحيل لكنه اضطر لذلك فأرسل معه في رحلة العودة السفير الفارسي نفسه الذي كان قد أتى معه ليكون سفيرا له (للشاه إسماعيل) عند أفونسو دلبوكيرك، وحمّله هدية من أقمشة حريرية كثيرة وأقمشة مقصّبة ومطرّزة وخيول مسرجة ومهيّأة تهيئة فخمة وحقائب للبريد مختلفة، وأسلحة فارسية، وحلّتين من قماش مقصّب بأزرار من ذهب وحزام وترس وخنجر وأشياء أخرى كلها من ذهب وقطعا من الفيروز [1] بحالتها الطبيعية كما استُخرجت من المناجم.

لقد كانت هذه الهدية ذات قيمة فعلية كبيرة قسّمها أفونسو دلبوكيرك بين كل القادة والقباطنة ولم يُبق لنفسه منها شيئا الاّ الخيول وحتى هذه جعلها للملك د. مانويل وأمر بتسليمها لموظفي المحطة التجارية، لكن لأن قطع الذهب بدت له جيدة واعتبرها تذكارا من ملك قوي هو الشاه إسماعيل، فقد دفع مقابلها للقادة والقباطنة وأرسلها إلى الملك البرتغالي عن طريق ابن اخته د. جارسيا دي نورونها. وعندما تسلّم ميجويل فيريرا الخطابات التي وجهها الشاه إسماعيل إلى أفونسو دلبوكيرك استأذن واصطحب السفير الفارسي معه ووصلا إلى هرمز واحتفت بهما كل القرى التي مرّا بها واستقبلها ملك هرمز والريّس نور الدين استقبالا حافلا. وخلال فترة إقامتهما في هرمز منتظرين الرياح المواتية للرحيل إلى الهند وصل أفونسو دلبوكيرك عازما على ضبط الأمور في هذه المملكة (هرمز)، فاستقبلهما هو أيضا استقبالا حاراً.

(١) الكلمة البرتغالية alqueire كما يعتقد فيرا vieyra تساوي بوك واحد pock وثلاثة كوارتات quarts وبوينت pint إنجليزي.

الفصل العشرون

كيف وصل أفونسو دلبوكيرك الكبير إلى جوا وعن الأخبار التي وصلته من ملقى والدّعم العسكري الذي أرسله إلى هناك، وكيف أحرز فرناو بيريز دندريد نصراً على أسطولٍ جاويٍّ

وفي بداية يناير سنة ١٥١٤ وصل أفونسو دلبوكيرك الكبير إلى جوا وفيها وجد سفراء من ملك بيجو pegu وملك سيام siam وآخرّ من أُمِّ الملك محمَّلين بهدايا ثمينة وخطابات يبثّونه فيها التحيات ويُكيلون له المديح معبّرين عن رغبتهم الشديدة في صداقتهم لملك البرتغال ويرغبون في بعض الترتيبات لتحقيق أمن التجارة في ملقى، ولأن أفونسو دلبوكيرك كان هو أيضا من جانبه راغباً في أنْ تُحقّق تجارة ملقى شهرة وانتشارا بين ممالك هذه الأنحاء فقد سعد كثيرا لطلبهم هذا واحتفى بالسفراء احتفاء كبيراً.

وأتى بصحبة هؤلاء السفراء، مانويل فراجوز manuel fragoso الذي كان أفونسو دلبوكيرك قد أرسله في وقت سابق مع انطونيو دي ميراندا[1] antanio de miranda لملك سيام، ليعُد له (لأفونسو دلبوكيرك) تقريرا مكتويا عن كل الأمور: التجارة، وملابس أهل البلاد وعاداتهم ومواقع موانئهم، وأرسل أفونسو دلبوكيرك هذا التقرير بسرعة مع الهدايا إلى دجارسيا دي نورونها في السفن المحملة والتي على وشك الإبحار ليتم تسليمها للملك البرتغالي دوم مانويل. وقد سلَّم مانويل فراجوز لأفونسو دلبوكيرك خطابا من روي دي بريتو باتاليم ruy de prito fptalim قائد حصن ملقى [2] يروي فيه عن الوضع في المستوطنة ويُظهر كيف أنَّ بيتكويتير patequitir قد قام بثورة مع مماليك [3] (عبيد slaves)

(١) انظر جـ ٢، فصل ٣٦ (٢) انظر جـ ٢، فصل ٣٨

(٣) انظر جـ٢ ، فصل ٢٤

أرملة أوتيموتا راجا utemutaraja الذين يزيد عددهم عن ستة آلاف، مع بعض المسلمين من أهل البلاد الذين انضموا اليهم وأقاموا حصنا ذا حواجز ومتاريس منيعة جدا حتى يستخدموه كقاعدة لعملياتهم العدوانية بالتعاون مع اللّسامين [1] lassqmqna أو الأدميرال البحري (أمير البحر) الذي يتجول بأسطوله في مضايق ساباو [2] sabao مانعا وصول أيه مؤن إلى المدينة، فأرسل دوي دي بريتو أسطولا بقيادة فرناو بيريز دندريد rernao perez dandrade ، وجيش بريا بقيادة أنطونيو بسوا antonio passoa لمهاجمة المتاريس والأسوار ورغم أن الموقع كان حصينا من الناحية الطبيعية وأن اختراقه يشكل خطورة كبيرة إلاّ أنهم (البرتغاليين) هاجموا الموقع ببسالة واقتحموه بالقوة وقتلوا من الأعداء عدداً كبيرا. وعندما أدرك بيتكويتير patequitir أن الهزيمة قد حاقت به تراجع على طول نهر موير[3] muar للمناطق الداخلية وأرسل يطلب العون من ملك جاوه مقابل أن يسلمه حكم ملقى.

وبعد أن قرأ أفونسو دلبوكيرك هذا الخطاب استفسر من مانويل فراجوزو عن كيفية وصول أنطويو دي ميراندا إلى ملقى *، وكيف - وقد وجد وضع البرتغاليين في ملقى صعبا - قرر أن يبقى بنفسه هناك مُرسلاً أنطونيو دي ميراندا ليصحب السفراء في رحلتهم، وفي لحظة انطلاقه وصل أنطونيو دبر an-tonio dabreu - الذي كان قد أبحر لكشف مالوكو [4] maluco ومندافونسو mendafonso - بسلام فيما عدا فرنسسكو سرّاو francisco serrao الذي فُقدت سفينته في جزيرة تيرنيت[5] ternate وبقي هناك مع الذين نجوا معه، وأنه قد حدثت مشاحنات مع أهل هذه الجزر الذين يحكمهم ملك، ولن أذكر تفاصيل ذلك لأن نهاية هذا الحدث وقع بعد وفاة أفونسو دلبوكيرك.

---

(١) انظر جـ ٢، فصل ١٨

(٢) مضايق سابون Sabon ومانتول Mandol معقّدة جدا وعلى وفق ما يقوله هورسبرج Horsburgh(ص ٢١٠) لم يسبق للأوربيين محاولة الإبحار فيها. وعلى جانبي هذه المضايق حيود بحرية ومياه ضحله لايمكن ان تبحر فيها الاّ السفن الصغار.

(٣) انظر نهر موا Mua في خريطة ديوجو هوميم في بداية جـ ٣.

* المعنى مضطرب تماما وغير واضح فقد تكرر اسم انطونيو دي ميراندا في سياق غير مفهوم، ولعل هناك خطأ طباعياً.

(٤) انظر جـ ٣، فصل ٢٧

(٥) انظر: l. de Verthema, p. 245, haki. soc. ed. "Va tidore, e temate, co' o fervente cume, que lanca as flammas oudeadas.

وبذلك يكون أفونسو دلبوكيرك قد علم عن طريق مانويل فراجوزو بآخر وأصدق الأخبار عن الوضع المتأزم في ملقى فامر بتجهيز ثلاث سفن فوراً على متونها مائة وخمسون جندياً وقدراً كبيراً من معدات الحرب وأوكل هذه السفن لكل من فرنسسكو دي ميلو francisco de melo وجورج دي بريتو jorge de brito ومارتيم جوديز martim guedez، وكان من رأيه أن هذه السفن كافية بعد وصول الدعم الكبير ممثلاً في سفن أنطونيو دبرو[1] antonio dabreu، وذلك حتى يتمكن هو من تعيين قائد للحصن [2] ووصل هذا الدعم في ميعاده إلى ملقى، واستقبله من في الحصن بفرح فبهذه القوّة الجديدة التي تشكل دعماً أتى في وقته استراحوا وقل توترهم نظراً لأنهم كانوا يتوقعون في كل ساعة وصول الأعداء بأسطول كبير لينقضّوا عليهم. ولم تمض سوى أيام قليلة حتى ظهر عند غروب الشمس أسطول من تسعين سفينة بقيادة pateonur متجها ناحية ميناء ملقى، وكان على متون هذه السفن عشرة آلاف مقاتل بالإضافة إلى ما لا يُعد من الينكات junks في نهر موير muar، وكان بصحبته كل من بتيكويتير pat-equitir واللسّامين، وألقوا جميعا مراسيهم بالقرب من أسطولنا.

وعندما رأى بتيكويتير patequitir متانة تسليح سفننا وكثرة عتادنا ورأى هذا العدد غير المتوقع من رجالنا المسلّحين غيرّ رأيه وتخلّى عن العزم الذي أتى به وهو أن ينزل بجنوده جميعا وينقض على حصننا فتوجّه إلى باتيونور pa-teonur واللسامين lassaana وقال لهما إن من رأيه أن هذه اللحظة غير مناسبة لمهاجمة المدينة (ملقى) لأنه إن نزلوا جميعا بقواتهم فإن الفرنك frangues (أي البرتغاليين) سيبقى لهم السيطرة في البحر ويمكنهم بسهوله حرق كل الأسطول، فإذا ما تمّ تدميره دُمّروا معه لذا فالأفضل لهم أن يهرعوا إلى مرافئهم في نهر موير muar ومنها يشنون الحرب على ملقى. ولأن هذه النصيحة بدت عاقلة متدبّرة لهم جميعا فقد رفعوا مراسيهم قبل ساعة من طلوع النهار وأبحروا. لكن

---

(١) انظر جـ ٢، فصل ٣٨

(٢) على وفق ما ذكره كوريا Correa، فإن أفونسو دلبوكيرك كان قد ذهب إلى ملقى كرئيس القباطنة. lendas,II,381

فرناو بيريز دندريد كان يراقب تحركاتهم فما إن لمحهم يتراجعون حتى أعطى الإشارة بفك حبال كل أسطوله وطاردهم وانقض عليهم قبل أن يصلوا إلى نهر موير muar وأغرق كثيرا من سفنهم وقتل عدداً كبيرا من رجالهم، وقد لاقى بعض رجالنا (البرتغاليين) حتفهم وجُرِح منهم عدد كبير.

ولما كان باتيونورْpateonur في الطليعة فقد وجد فرصة بينما كان رجالنا مشتبكين مع أسطوله أن يتراجع بأقصى سرعة وحالما وصل إلى نهر موير ركب الينك junk التابع له وأبحر ووصل جاوه غير سعيد بفشل مشروعه وأصاب الجاويين إحباط شديد لهذه الهزيمة، لأنها بالفعل نصر عظيم لنا في هذا الجزء من العالم، يمكننا أن نرويه للأجيال. لقد أبحر بتيكويتير patequitir واللسامين lassamana صُعُداً في النهر في السفن نفسها وأنقذا نفسيهما بالتوغل في المناطق الداخلية. وعاد فرناو بيريز دندريد إلى ملقى مُجلّلاً بهذا النصر واستقبله القباطنة والقادة وبقية رجالنا في الحصن بفرح غامر. ولن أتحدث بالتفصيل عن هذا النصر وغيره من الانتصارات التي أحرزها فرناوبيريز على المسلمين فقد تم تعيينه كرئيس للقباطنة في هذه الأنحاء لأن هناك مؤلفين آخرين كتبوا كثيراً عن هذا القائد.

الفصل الواحد والعشرون

كيف أرسل أفونسو دلبوكيرك الكبير كُلاً من فرناندز دي بيجا وجيمس تيكسيرا كسفيرين إلى ملك كمبي، وكيف وصلا إلى سورات ومنه إلى بلاط الملك

استاء أفونسو دلبوكيرك من الأخبار التي كتبها له فرناو مارتينز إيفا نجلهو عن رحلة مالك عزيز (ملك عزيز) إلى بلاط ملك كمبي، وخشي أن يتعرض المشروع المقترح ببناء حصن في ديو diu للتعويق وألاَّ يُسفر عن أي نجاح وخشي أنْ تؤدّي زيارة مالك عزيز (ملك عزيز) بالإضرار بهذا المشروع على نحو أكثر مما أضرّت به خطاباته، رغم أنَّ أفونسو دلبوكيرك حتى ذلك الحين كان كثير الأمل في النجاح إذا كانت المعلومات التي يرسلها له ميليكوبي milecopi عن طريق تويستاو ديجا tristao dega – صادقة. واعتزم أفونسو دلبوكيرك تنفيذ هذه السياسة فأرسل كلاًّ من ديوجو فرناندز دي بيجا، وجيمس تيكسيرا كسفيرن ليتفاوضا مع الملك حول هذا الأمر، وأرسل عن طريقهما هدية لهذا الملك عبارة عن طَوْق من ذهب وخنجر له غمْد من ذهب خالص وniello work [1] وسيف قصير من ذهب وعشرة كوفودات [2] covados من المخمل الأسود وقطعة قماش خضراء مقصَّبة من فارس وقطعتين من الصين وطسْتين معها أباريق [3]، وكلها مطلية بالذهب. وحتى تحظى هذه السِّفارة باعتماد اكثر من السفارات

---

(١) Anilado

(٢) انظر جـ ١، فصل ٤٧

(٣) albarrada مزهرية بمقبضيْن

الأخرى - لرغبة أفونسو دلبوكيرك الشديدة في وضع أقدام البرتغاليين في ديو - فقد أرسل أيضا - كهدية - عشرين حصانا بِجِدّتها وأواني فضية للمائدة وجعل عدداً من أهل البلاد أعضاءً في الوفد، ووجَّه إلى سفيريْه تعليمات مكتوبة.

وحالما انطلق ديوجو فرناندز، وجيمس تيكسيرا، قدَّما كُلّاً من بيرو كومادو pero queimado وجانا باتيم [1] ganapatim الهندوس الذي يجيد لغة أهل كجرات guzarate ليسبقاهما ويطلبا من ملك كمبي حقَّ المرور الآمن ويخبرانه بقدوم سفيرين من طرف أفونسو دلبوكيرك. ولأن الطقس كان معاكساً فقد تأخّرت رحلتهما طويلا حتى أنهما لم يصلا إلى سورات currate حتى ١٥ مارس. ولأن بيرو كويمادو pero queimado لم يكن قَدْ عاد بعد[2] فقد أرسلا ليطلبا من دستورخان [3] desturcao حاكم المدينة حق المرور الآمن وأنّها يرغبان في الرسوِّ والنزول إلى البر.

ولأنه كان قد تلقّى بالفعل أوامر باستقبالهما بترحات (كان الملك قد علم بقدومها من بيرو كويمادو) فقد أرسل لهما حق المرور الآمن وأرسل لهما كّلاً من مياكوجا MEACOJA وميبوبو MEABUBU القائد التابع لملك كمبي وأخو ميليكوبي MILECOPI - ليقيما في منزله - مع تعليمات باستقبالهما وتقديم خيول - ليتم تبديلها في كل مرحلة من مراحل السفر - لركوبهما وركوب خدمهما، وعربات[4] لحمل أمتعتهما. وحالما نزلا إلى الشاطىء اتجها مباشرة دون تأخير إلى منزل دستور خان DESTURAO لزيارته لأنه كان مريضا وطريح الفراش وبعد مبادلته التحية الودية ظلّوا يتناقشون حتى تمَّ إحضار

---

(١) انظر: Correa's Lindas Vol II p.368 حيث توجد رواية موازية لهذه الحملة يرد فيها اسم هذا الهندوس جاندا شاتيم Ganda Chatim والحاشية في الصفحة نفسها تشير الى كاستانهيدا (book II, chap. 127) اذا ورد الاسم هكذا Anagapatu، وفصل ١٣١ ورديه Gamqpatu

(٢) تختلف رواية كوريا في التفاصيل Lendas, II 369

(٣) في Cariea's lendas اسم الرجل هو Deruscao دروس خان

(٤) Of these carretas, Correa, l.c. says: "As carretas, eh que ell e os Portuguezes forao, erao de muytos lauores, e paramentadas de pannos de seda, cubertas do sol, e as carretas de tal andar, porque a terra he compinas muyto chas, que a gente n'estas carrctas vao dormindo tao assassegados como no chao". Cottea gives a long and yery minute account of the grandeur of this embassy and of the festivities in which Diogo Fernandez indulhed.

ثوبْين من حرير CABAYAS (لباس وطني من حرير) كان دستور خان قد أرسل في طلبهما، كي يهديهما إلى كل من ديوجو فرناندز وجيمس تيكسيرا، إذ كانت هذه هي العادة المتّبعة، لكن ديوجو فرناندز قال له إنّ سفراء ملك البرتغال ليس من عادتهم قبول هدايا إلاّ من الملوك الذين هم معتمدون عندهم، ولأن دستور خان اعتبر هذه الإجابة جارحة له، فقد قبلا هديته لحاجتهم له ليُظهرا له أنه ذا قَدْر عندهم، ومن ثمّ استأذنا واتجها إلى منزل أخي ميليكوبي MEL-ECOPI الذي كان مستعدا بالفعل لاستقبالهما. وفي صباح اليوم التالي أرسلا عن طريق دورات فاز DUARTE VAZ ورودي بيز RUY PAEZ بعض الأشياء – كهدية – لدستور خان الذي رفضها في البداية ثم قبلها أخيراً، أسوة بما فعلا. وبعد مرور ثلاثة أيام أو أربعة أرسل لهما دستور خان أنّه تلّقى خطابا من سيده الملك يأمره فيه بتقديم كل ما يلزمهما للرحلة، ويسألهما عن الوقت الذي ينوون فيه الانطلاق اليه فكل شيء مُعد وحاجز لهما. ولأن بيرو كويمادو PERO QUEIMADO كان قد رجع في هذه الأثناء حاملاً أخباراً مؤدّاها أنّ ميليكوبي MILECOPI ليس موجوداً في البلاط وأنه على خلاف مع الملك (وقد كان في التعليمات التي وجهها أفونسو دلبوكيرك للسفيرين ألاّ يفعلا شيئا إلاّ بمشورة ميليكوبي MOLECOPI هذا) فقد رَاوَغا في أمر الوقت الذي يريدان أن يتجها فيه للملك وأرسلا إلى دستور خان عن طريق دورات فاز DUARTE VAZ يذكران أنّ الرجل الذي سبقهما للحصول على حق المرور الآمن يقول إن الملك غير موجود في البلاط وأنه خرج لمدينة باتان[1] PATANE ليشن الحرب على REYS BOTOS*، ولأن أفونسو دلبوكيرك كان قد أمرهما في تعليماته بأن يعودا لقضاء الشتاء في جوا (كوا) وأن الرياح الموسمية الآن قد مضت وليس هناك الآن فرصة لفعل أي شيء، لذا فقد قرّرا العودة في أقرب وقت. فأجاب دستور خان – عن طريق ميبوبو MEABABU أنهما مادامافد حصلا بالفعل

(١) Pattan أو pattun أو Anhulwar Pattan في ولاية بمباي ١٧ , ٢٣ْ شمالا، ٥٦ , ٧١ْ شرقا

• في الكشاف Reys Botos أو Rajpute

على حق المرور الآمن واصبح كل ماهو لازم للرحلة جاهزاً فإنه يبدو له أنه ليس من روح الصداقة ألاَّ يقوما برحلتهما للملك، بل إنه لايضمن أن يكون هو شخصيا بعيداً عن العقاب إنْ سمح لهما بالعودة دون رؤية الملك أولا فلهذه الغاية أتيا، وأنه لابد من إعلام الملك أولا بأنهما قد غيراً رأيهما وقرّرا العودة وبعد أن يأتي ردّه (الملك) يمكنهما الانصياع لما يأمرهما به.

وعندما تلقّى كل من ديوجو فرناندز دي بيجا وجيمس تيكسيرا هذا الإصرار من دستور خان، أدركا أنهما لايمكنهما عمل أي شيء سوى مايرغبه هو، ولكي يَبرا بقاءهما بعدما قالاه فقد أرسلا إليه يقولان إنهما سينفذان ما يرغبه مادام يرى أنّ ذلك أفضل وأن أفونسو دلبوكيرك سينظر إلى الأمر بما فيه الصالح ومن ثم فهما على استعداد للتوجه فورا إلى البلاط. فأصدر دستور خان أوامره بتزويدهما بكل ما يطلبونه وعيّن قائد الملك حسام الدين(؟) MEACAMADIM مع ثلاثين من الرامين بالسهام من أهل البلاد لمرافقتهما وتدبير مراحل الرحلة، فانطلقا من سورات في ٢٨ مارس ووصلا إلى شامبانيل[1] CHAMPANEL في الرابع من إبريل واتجها إلى بستان خضروات بالقرب من المدينة، حيث ارتديا أفضل ثيابهما ليذهبا إلى مقابلة مليكوبي MELECOPI الذي كان موجودا في هذه المدينة (شامبانيل) في هذا الوقت.

وعندما علم ميليكوبي MELECOPI بوصولهما أرسل أحد أبنائه على رأس عدد كبير من الرجال راجلين وراكبين مصحوبين بعدد كبير من النافخين في الأبواق لاستقبالهما وقضيا الليل عنده واختفى بهما احتفاء كبيراً وأقام لهما المآدب وسلّمه ديوجو فرناندز دي بيجا خطابا وهدية من أفونسو دلبوكيرك وأخبره بالتعليمات الموجّهة إليه والهدف من زيارته. فقال لهما ميليكوبي MEL-ECOPI إن ملك عزيز (مالك عزيز) بعد مغادرة تريستاو دي‌جا TRISTAO DEGA قد ذهَب إلى بلاط الملك وتحدث معه بروح الود والصداقة ونصحه ألاّ

(١) انظر حاشية ٦، فصل ١٢

يقدّم حصناً للبرتغاليين في ديو لأنه إذا رغبوا في بناء هذا الحصن فليس ذلك الإّ لينزعوا منه مُلكه في خاتمة المطاف، ومن ثم فإن على الملك أن يحصّن ديو تحصينا شديدا، والآن فإنه – الملك – يعتقد أن أي قوّة في العالم لاتقدر عليه.

وبعد نقاش طويل جرى بينهم حول هذا الموضوع، نصحهما ميليكوبي MEL-ECOPI بكيفية التصرّف وأشار إليهما بالموقف الذي يجب اتخاذه في هذا الأمر فاستأذناه وواصلا رحلتهما إلى مادوفال[1] MADOVAL حيث يوجد الملك وأرسل ميليكوبي MELOCOPI معهما أفراد أسرته المهمّين وستة فرسان وحثهما ألاّ يقيما في أيّ مكان خلال المكان الذي يشير إليهما به هذا الرجل (الذي هو من أسرته).

(١) أوردنا وصفاً لها في آخر فصل ٢٣.

الفصل الثاني والعشرون

كيف وصل ديوجو فرناندز دي بيجا، وجيمس تيكسيرا إلى مادوفال، وكيف جرى استقبالهما، وماذا جرى بينهما وبين رئيس الوزراء سوداما خان

بعد أن خرج ديوجو فرناندز، وجيمس تيكسيرا من مدينة شامبانيل CHAM-PANEL أرسلا رسالة شفهية إلى حسام الدين (؟) MEACAMADIM قبل أن يقتربا من مدينة مادوفال MADOVAL لأنه الشخص المنوط به تدبير أمر إقامتهما ليذهب قبلهما إلى سوداما خان CODAMACAOرئيس الوزرا ليعرِّفه بقدومهما فأرسل لهما أنَّ عليهما أن يقيما هذا اليوم في بستان خضروات تابع له يقع خارج المدينة مباشرة.

وفي صباح اليوم التالي أرسل أحد أفراد أسرته المهتَّمين وهو تركي بالمولد على رأس ثلاثين فارساً وعدداً كبياًر من المشاة يحملون كثيرا من الأبواق والمزامير ليصحبوهما على وفق المراسم إلى مأدبة في بيت رئيس الوزراء فلما وصلا خرج ملِك كود رَجَوي MELIAUE COADRAGUI – ابن دستور خان الذي كان «أي الابن» أحد وصفاء الملك – لاستقبالهما وتم إدخالهما في قاعة كبيرة حيث كان سوداما خان CODAMACAO في انتظارهما فاستقبلهما بودٍّ شديد وكرّمهما فقدم له ديوجو فرناندز الهديّة التي أحضرها له وخطابا من أفونسو دلبوكيرك. وبعد مناقشة قصيرة أخبرهما أن يذهبا ليستريحا وعندما يعود الملك من رحلة الصيد سيذهب لقصره ويخبره بوصولهما ويسأله عن الوقت الذي يختاره للقائهما، وأمر باستضافتهما في إحدى غرف منزله لينعما

بالراحة.

وفي صباح اليوم التالي ذهب سوداما خان إلى قصر الملك ومن هناك أرسل إلى ديوجو فرناندز، وجيمس تيكسيرا يخبرهما بعودة الملك وأنه راغب في مثولهما أمامه فورا وأرسل لهما لحراستهما ملك كود رَجَوي MELIQUE COUDRAGUI مع كل فرسان البلاط وعدداً كبيراً من نافخي الأبواق، فوصل هذا الركب بمجرد انتهاء ديوجو فرناندز وجيمس نيكسيرا ومن معهما من ارتداء ملابسهم ومن ثم ركبوا الخيول المعدّة لهم واتجهوا مباشرة إلى القصر، وبعد مرورهما خلال كثير من القاعات والغرف وصلا إلى قاعة كبيرة حيث كان الملك جالساً فوق كنبة منخفضة[1]، وكل قادة مملكته جالسون في صفوف إزاء الحائط كل في مكانه وعلى وفق رتبته فاتجها إلى الملك (وقدما أمامه الهدية التي أرسلها له أفونسو دلبوكيرك، فتلك هي العادة المتبعة لديهم) وانحنيا أمامه على وفق المتّبع فاستقبلهما الملك بترحاب مظهراسروره بقدومها وبعد أن قبَّل الجميع يد الملك قَدَّم له ديوجو فرناندز خطاب أفونسو دلبوكيرك فقرأه لأنه كان مكتوبا بالعربية ثم أخبره ديوجو فرناندز أنّ أفونسو دلبوكيرك قائد الهند العام يرسل له تحياته[2] ويقول له إن كل أسطول ملك البرتغال في خدمته.

شكره الملك كثيرا لهذا العرض وسأله عن حال أفونسو دلبوكيرك وعن مشاقّ الرحلة التي واجهاها. وبعد انتهاء هذه المجاملات قادهما ملك كودرَجَوي ME-LIQUE COADRAGUI جانبا إلى رأس القاعة، وقدم لكلّ واحد منها عباءة[3] CABAIA من قماش مقصّب، وقدم للآخرين ممّن معهما عباءات من قطيفة حمراء. وبعد أن ارتدى الجميع هذه العباءات الجديدة انحنى كل واحد منهم امام الملك انحناءة أخرى على وفق التقاليد الوطنية المتبعة، فأشار أن يذهبوا جميعا إلى مقر إقامتهم، أما بالنسبة للأمر الذي أتوا من أجله فإن سودا ماخان CODAMACAO سيحيطهما علما به لأنه – أي الملك – ينوي إعادتهما من

(١) Catle
(٢) Calema
(٣) انظر الفصل ٢١.

حيث أتيا دون تأخير.

وفي اليوم التالي، بعد الغداء، استدعى سوداماخان هذين السفيرين وطلب منهما أن يعرضا أمامه كل ما يطلبونه من الملك لأنه (أي دستور خان) تلقى أوامر من الملك بإعادتهما من حيث أتيا بسرعة. فقال ديوجو فرناندز FER-DIOGO NANDEZ إن السبب الأساس لمجيئهما هو طلب موقع في ديو DIU لإقامة حصن برتغالي عليه حتى يتم حماية رجال الملك البرتغالي وممتلكاته فلا تتعرّض للضرر، لأن أفونسو دلبوكيرك قائد الهند العام يأمل تدبير أمر تجارة ضخمة في مملكة كمبي (كمبايا) وإذا حدث هذا فسيكون الملك في بحاجة إلى أن يكون البرتغاليون بالقرب منه لخدمته، لأنه في هذه الحالة سيكون حصاد دار الجمارك ضعف ما هو عليه الآن. فأجاب سوداما خان CODAMACAO بأنه حتى هذه اللحظة لم يرد ذكر لموقع يُقام فيه حصن برتغالي إلاّ في باكار[1] BA-DAR وهو الموقع الذي جرى منحه لتريستاو ديجا TRISTAO DEGA عندما كان هنا في وقت سابق. والحقيقة أن هذا الموقع يكفي لتوثيق أواصر الصداقة مع الملك واستمرار حركة التجارة في مملكته، فاسم الحصن في حد ذاته مسألة بغيضة.

ومن ثمّ اعلن له ديوجو فرناندز أن رجال الملك البرتغالي وممتلكاته لايمكن جعلهم في باكار BAKAR وإنما في حصن حصين وقوي جدا حتى لا يتعرضوا للسرقة ولا للقتل، تلك الأمور التي حدثت بالفعل في كل من كلكتا وكولم (كولاو COULAO)، وملقى، لكن إذا جرت هذه الأحداث الآن في هذه المناطق حيث يوجد حصن برتغالي، ظل الجميع في حالة سلام وأمان وصداقة، ولأن ملك البرتغال يرغب أن يحافظ على صداقته على ملك كمبي ويقيمها على أسس متينة فإنه أرسلهما الآن ليطلبا التنازل عن موقع لبناء هذا الحصن في ديو، وإلى جانب هذه الأسباب ساق هذان السفيران مزايا أخرى كثيرة

(١) بكر (بفتح الباء والكاف) Bakar أو بتشديد الكاف (بكّر) اسم جزيرة وحصن في السند ٢٧,٤٥ شمالا، ٦٨,٥٩ شرقا على وفق ماورد عنها في: K.johnston;s Royal atlas ويبدو انها بيكا Beka الواردة في west Coast of Hindostan Pilor, 1880, 226 لكن الموقع كما ورد في ص ٢٢٨ مختلف عما ورد في جونستون Johnston.

ستتمخّض عن بناء الحصن. فأجاب سوداماخان CADAMACAO انه بسبب لطف أفونسو دلبوكيرك فإنه (أي سوداما خان) سيطرح أمام الملك كل الأسباب الأخرى التي أثاروها وأنه سيتحمل كل ما يستطيع من إزعاج لاعادتهما من حيث أتيا بالسرعة الممكنة.

وانقضت ثلاثة أيام فأرسل سوداما خان يستدعيهما ثانية، وكان استدعاؤه لهما ليلا ليسلمها الرسالة التي أملاها الملك والتي ورد بها أنّه نظراً لرغبته في المحافظة على صداقته مع ملك البرتغال، ولأن أفونسو دلبوكيرك قائد الهند العام كان قد أرسل إليه في وقت سابق بهذا الطلب، فإنه – أي ملك كمبي – سيسعده أن يقدّم موقعا للحصن في أيٍّ من الأماكن الآتية: بيروش[1] , BERCHE سورات CURRATE، مايم[2] MAIM، دمبز[3] DUMBES، باكار BACAR ليختار من بينها ما يشاء، وليرسل ليخبره بما وقع عليه اختياره، فإذا لم يقبل منها أي موقع دلّ هذا على سوء طويته HIS HEART WAS NOT GOOD.
فأجاب ديوجو فرناندز أنه ليس لديه تعلميات من أفونسو دلبوكيرك تمكنه من أن يقبل موقعاً للحصن البرتغالي إلاّ في ديو DIU ثم أردف قائلا إنه يرى ان سوداما خان شخص مهم يثق به الملك كثيرا وأنه (أي سوداما خان) لابد أن ينظر بجدية فائقة لمدى الشرف والمكاسب التي سيحوزها ملك كمبي اذا تاجر البرتغاليون في بلاده، فبذلك ستصبح مملكة كمبي مملكة عظيمة مرة أخرى وستتحسن كثيرا عوائدها المالية وستتمكن سفنها من الإبحار في أمان دون عوائق تعترضها. وعلى أية حال فإن سوداما خان سأله ما إذا كان البرتغاليون

---

(١) Beroche أو Bharuch أو Baroach أو Broach في خليج كمبي ٤٤ ، ٢١ْ شمالا، ٥٨ ، ٧٢ْ شرقا، ويمكن للسفن حمولة مائة طن أن تصل الى Nerbudda وفي حالة المد إلى مدينة Baroach بالقرب من مصبه بثلاثين ميلا، لكن وجود مرشد ماهر مسألة ضرورية.

(٢) انظر مخطط Meyme ووصفها في:
P.Barretto de resende's Ms, Br. Mus., Slo. Ms. 197, f. 202.
وتسمى الآن Mehim انظر:
west Coast Of hindostan Pilot, P.175 في شمال ساحل كونكان KOnkan بالقرب من جزيرة سالست salsette

(٣) بالقرب من سورات Surat تسمى دوموس Domus في: West Coast of Hindo stan Pilot, p. 183. وفيما مضى كانت القناة أعمق هنا، وكانت السفن المتجهة عبر الحاجز إلى سورات...

سيمنعون سفن كمبي من القيام برحلاتها إلى مضايق البحر الأحمر وعدن إذا كانت محمّلة بالبهار، رغم احتفاظ ملك كمبي بصداقة البرتغاليين والسلام معهم. فأجاب ديوجو منذر انه سيكون من غير المعقول ان تتجه سفن كمبي الى هذه الانحاء التي هي في حالة حرب مع ملك البرتغال فالأصدقاء يصادقون صديق صديقهم ويعادون عدوّه. فقال سودا ما خان إنه إذن بناءً على هذه القاعدة لن يكون في مقدور سفن كمبي أن تبحر في أمان إلى مضايق البحر الأحمر وعدن مع أنهما يمثلان المركزين الرئيسيّين لحركة التجارة فما هي المكاسب إذن التي سيحصل عليها ملك كمبي بتحالفه مع ملك البرتغال؟ أما بالنسبة لطلب أفونسو دلبوكيرك فقد سلّمه لملوكه ملك عزيز (أو مالك عزيز)، وإذا لم تكن العروض التي عرضها عليهم غير مقبولة منهم فإنه (أي سوداما خان) لن يمكنه طرح الموضوع مرّة أخرى أمام الملك.

فأجاب ديوجو فرناندز لِمَ لا يقنع الكجراتيين GUZERATES بالرحلات التجارية إلى ملقى وبيجو PEGU ومارتابين[1] MARTABANE والبنغال BENGALA وهرمز وكل الأماكن الأخرى الخاضعة لملك البرتغال مستغلين السلام بينهم وبينه، دون ان يعملوا على الإبحار إلى مضايق البحر الأحمر وعدن حيث يشن الملك البرتغالي حربا؟ إن أفونسو دلبوكيرك مصمم على الذهاب بأسطوله إلى هناك ليدمّرها، وبعد أن يُقر الأمور هناك يمكن لسفن كمبي أن تتجه إلى هناك. لكن سودا ماخان كان قد قال إنه لن يزعج الملك أكثر من ذلك بالحديث في هذا الموضوع لذا فقد طلبا منه ان يرسل رسالة لأفونسو دلبوكيرك بين فيها شروطه، كما ذكرا أنهما مصمّمان على الرحيل، وفي نهاية هذا النقاش عادا إلى مقر إقامتهما.

(١) في بيجو Pegu

الفصل الثالث والعشرون

ديوجو فرناندز وجيمس تيكسيرا يستأذنان ملك كمبي، وماجرى حتى وصولهما إلى جوا

بعد انقضاء ثلاثة أيام أرسل سوداما خان CODAMACAO إلى ديوجو فرناندز وجيمس تيكسيرا يخبرهما ان يذهبا للاستئذان من الملك الذي أرسل في طلبهما، وكان مستعدين فانطلقا وبصحبتهما ملك كودرَجَوي على رأس تشكيل كبير من الفرسان، كما حدث عند قدومهما أوّل مرّة، ودخلا القصر وبقية الرجال المصاحبين لهما بعد أن قُدِّم لكل منهم عباءة CABAIAS ارتداها وخنجرا ونطاقا[1] يتمنطق به، وتقدموا جميعا بهذه الهيئة لتقبيل يديْ الملك فقال لهما إن عليهما مراجعة سوداما خان لأنه سيسلمهما رسالة، وتحدث إليهما بكلمات وبودة لنقلها عنه إلى أفونسو دلبوكيرك. ومن ثمّ زارا سوداما خان في منزله فسلّمهما خطاب الملك إلى أفونسو دلبوكيرك وقدم لهما هدايا من منتجات كمبي (كمبايا) وحيوانا[2] ضخما لم يُرَ قبل ذلك في هذه الأنحاء. وكان هذا الحيوان موجودا في شامبانيل CHAMPANEL وكان ينوي تقديمه لهم في سورات CURRATE. وبعد أن تلقّيا الرسالة من سوداما خان استأذناه واتجها

(١) Camarabands

(٢) According to Correa, this was a ganda or Rhinoceros, "que desembarcando em Goa fez espanto sua vista. Esta Ganda, ... inandou Gouernador a Eirey. E porque assy era espantosa a vista da ganda, Eirey a mandou ao papa: que era alimaria mansa, baixa de corpo, hum pouqo comprido, os coiros pes e maos d' alifante, a cabeca como de porquo comprida, e os olhos junto do focinho, e sobre as ventas tiuha hum corno, grosso e enpto, e delgado na ponta' comia hera, paba, arro cozido. lendas du ludia, pp. 373, 374.

حيث يقيما فوجدا الخيول والعربات قد تمّ إعدادها بالفعل فانطلقا حتى وصلا الى سورات في اليوم الثامن من شهر مايو. ولأن المناخ كان في ذلك الوقت عاصفا[1] لم يجازف بالإبحار وانتظرا حتى انتهى الشتاء وطلبا من دستور خان أن يزوّدهما بوسيلة نقل على وفق أوامر الملك لأنهما توّاقان للرحيل، فأمر بتجهيز ثلاث سفن صغار من نوع الكوتومبات COTUMBASفحمّلا أمتعتهما والحيوان الذي كان قد وصل في ذلك الوقت إلى سورات (والذي قدّم في وقت لاحق لملك البرتغال الذي أرسله بدوره للبابا لكنه لم يصل فقد غرقت به السفينة).

وبعد أن شحنا بأمان كل أمتعتهما استأذنا دستور خان وانطلقا وبصحبتهما اثنان من قادة ملك كمبي رافقاهما حتى رصيف الميناء فاستأذنا القائدين وأبحرا في طريقهما إلى الهند فوصلا (جوا) في ١٥ سبتمبر فوجدا أفونسو دلبوكيرك في قلق شديد لأنه كان قد سلّمهما تعليمات مكتوبة بألاّ يقضيا الشتاء في كمبي لأي سبب مهما كان ولأنه لم يتلق بشأنهما خبرا حتى هذه اللحظة، فسرد عليه ديوجو فرناندز وجيمس تيكسيرا تفاصيل ماجرى وأشار إلى أن ملك كمبي كان غير ميّال أبدا لمنحهم مكاناً لإقامة حصن في ديو لأن ملك عزيز* MILIQUEAZ قد حثّه على عدم قبول ذلك بتقديم الرشاوى التي يقدمها باستمرار لبيليرين BILIRRANC الزوجة الأساسية للملك ذات التأثير الكبير عليه (الوارد في النص: التي تحكمه WHO RULED HIM)، أمّا بالنسبة للمواقع التي حدّدها لبناء الحصن فقد أوْردها في خطابه.

وكانت مملكةكمبي قديما في يد الهندوس، ويجعلها ميناء باراباتين BA-RAPATANE قريبة من بلاد الرجبوت أو الراجبوتانا[2] REYSBUTOS ويقربها من مملكة الدكن ميناء يقع بين شول (شيول) CHAUL ومايم MAIM. ويمتد ساحلها قرابة مائة وثلاثين فرسخا، وشكلها كما أشرنا في هذا الفصل

---

(١) رغم أن الرياح الجنوبية تسود بشدّة بعد منتصف شهر مايو إلاّ أن الطقس العاصف الممطر عادة لايكون حتى في الليالي المظلمة ــ أحيانا ــ من ٨ إلى ١٨ يونيو. انظر: West Coast of Hindostan Pilot, p.18

* صيغة متداولة في بعض الكتب العربيه لهذا الاسم: مالك عزيز

(٢) Rajputs راجبوت الراجبوتانا Rajputana شمال كمبي (كمبايا)

ويبلغ عرضها في المناطق الداخلية زهاء ستين فرسخا. وسطحها مستو عامر تماماً بالمؤن وبها عدد كبير من الخيول القيمّة جدا. ولها حدود في المناطق الداخليــة مع مملكة دلهي[1] DELJI ومع مملكة مــاندو MANDOU اللتين يحكمهما ملكان قويّان جدا. وعندما اكتشف البرتغاليون الهند كانت كمبي بالفعل في يد المسلمين منذ مائتي سنة، وقد حدث هذا على النحو الآتي.

تتبع كمبي جزيرة قريبة من البر الرئيسي بها صخور شديدة الانحدار تسمّي جزيرة بيت أو بت[2] BETEZAGOR كان التجار المسلمون من عرب وفرس يلجأون إليها للتجارة ببضائعهم مع الهندوس، وكونوامستوطنة وبدأوا في تكوين تحالفات على الهندوس الذين كانوا – على وفق ما تمليه عليهم معتقداتهم ودينهم – لا يحتفظون بأسلحة في منازلهم – مما مكّن المسلمين من أن يصبحوا سادة كل القرى والمرافيء الساحلية ومنها بدأوا يتوغلون للداخل وفي غضون فترة قصيرة وجدوا أنفسهم سادة البلاد كلها، وبدأوا يشيّدون سفناً مسطّحةُ قعورها KEELED وقاموا برحلات تجارية لكل أنحاء الهند.

وكان الملك الثاني في الأسرة الحاكمة المسلمة في كمبي غازياً عظيماً قد أرسل بعض السفن إلى ساحل مليندي (ماليندة) وانطلقت من هذا الساحل إلى رأس الرجاء الصالح بقصد الوصول إلى أوربا لكن عند وصولها للرأس كانت الرياح عكسية شديدة فرست السفن إزاء البر، واستطاعت الوصول إلى جزيرة مدغشقر SAO LOURENCO وأقام بحارتها وكل من عليها في هذه الجزيرة لان سفنهم لم تعد صالحة للإبحار واستوطنوا بعض المرافيء، والرأي السائد أنهم اصل السكان المسلمين في جزيرة مدغشقر.

ولأن بلاد كمبي عامرة بالمؤن وكل أنواع البضائع فإن السفن التجارية كانت تأتيها من مختلف أنحاء الهند.

---

(١) Delhi

(٢) جزيرة Bate أو Bet في خليج كوتش Cutch طولها قرابة خمسة اميال ولاتزال الجزيرة مليئة بالمعابد والأضرحة المرتبطة بعقيدة كريشنا Crishna، ولان السكان في غالبهم من البرهميين Brahmins فمصدر رزقهم الاساسي هو الحجاج الذين يترددون على هذا المكان.

وعندما وصل ديوجو فرناندز إلى بلاط كمبي كان على العرش ملك في الأربعين من عمره وكان متزوجاً من امرأة ذات قدر وشأن، إنها ريبوتا RE-YBUTA تسمّى بليرين BELIRRANE وكان عنده إلى جانبها خمسمائة زوجة*. وكان هذا الملك بارعاً في الصيد بالصقور، وكان إذا ذهب للصيد اصطحب معه ثلاثمائة فارس. وقد اعتاد هذا الملك أن يقضي معظم وقته في مدينة مادوفال[1] MADOVAL لأنها قريبة من سلسلة جبال الراجبوت (راجبوتان REYSBUTOS) تلك البلاد التي كان دوماً في حالة حرب معها.

ويمتد طول المدينة عدّة فراسخ، وهي مدينة مزدهرة ويتوفر فيها الماء العذب، ويرى المرء فيها كثيرا من المآدب وكثيرا من المنازل الفخمة، وهذا هو السبب الذي يجعل الملك يقضي فيها معظم وقته وإن كان معظم جيشه ومدافعه وذخائره وثرواته في مدينة شامبانيل CHAMPANEL بسبب شدّة تحصينها. وفي شامبانيل حصن فوق الجبال فيه رجال شداد يثق الملك فيهم ويعهد إليهم لثقته هذه بحراسة المدينة، وقد زودهم بقوّة من الفرسان. وكان في مملكة كمبي يوم زارها ديوجو فرناندز وجيمس تيكسيرا أربع شخصيات رئيسية تتولّى أمور العدالة وتدير ممتلكاته. وكان سوداما خان هو أهم هذه الشخصيات فقد كان استاذا للملك وهو الذي علمه القراءة، وهو - أي سودا ما خان - تركي* بالمولد، أما الثلاثة الآخرون فهم: دابيا دستور DABIADASTUR وأستور ملك ASTRRMALOQUE وأستور خان ASTURCAO.

(١) هي في الغالب أحمد أباد Ahmedabad أهم مدن كمبي. لكن الكاتب البرتغالي حذف الحرف a في أول الكلمة ظنا منه أنه أداة تعريف وحرف L في آخر الكلمة أظنه خطأ مطبعيا من الطابع فالمفروض انه d ٢٢,٢ شمالا. ٧٢,٣٢ شرقا.

There is little doubt that this city of Mdoval is none other thau Ahmadabad, the. chief city of Catnbay. the Portuguese writer has cut off th initial a., mistaking i for the definite article, but I can only explain the final d becoming b a typographical crror. the latitude is 22 deg 2 min. N., longitude 72 deg. 32 min. E. Father Clemente Tosi in his l'India Orientate, Roma, 4 to, 1676, vol. i, pp. 20, 21, recites: "Etirando verso settentrione sincontra Amadabat Metropoli, e citta, che a verun' altra cede fra quelle dell Imperio del Mogol. E di cercuito niente inferiore a Londra girando lo spacio di sei miglea. E situato in una ainenissima Pianura lungo le rive d'u fume. E assicurata da una buonissima fortezza, da un muro, che la ricinge valido, e sedo. Le strade, e le piazze sono ampie, e selciate con gli edifitij dall uno, e latro lato molto bene intesi. Fiorisa di merantie, e gli habitatori sono molto induslriosi. puo in un tratto mettere iusieme da sei mila cavalli in eirea," ete.

* أشرنا كثيرا في حواش سابقة إلى مفهوم تركي هنا، وهو ليس بالضرورة عثمانيا.

الفصل الرابع والعشرون

كيف واصل بيرو دلبوكيرك رحلته إلى رأس جوردفوي، وكيف أتى ملك هرمز لزيارته

بعد أن أبحر بيرو دلبوكيرك من جوا (كما ذكرتُ آنفا) اتجه مباشرة إلى سقطرى CACOTORA بقصد التزوّد بالمياه العذبة منها، وبينما هو في عُرض البحر رأى ثلاث سفن فاعترضهاالكنه وجد أنها قادمة من كلكتا وأنها حصلت على حق المرور الآمن من أفونسو دلبوكيرك فخلّى سبيلها لتتابع رحلتها. وكان على متون هذه السفن كل التجار المسلمين الذين كانوا يتابعون أعمالهم التجارية في كلكتا، وكان معهم زوجاتهم وأطفالهم وممتلكاتهم لان ملك كلكتا كان قد أصدر قرارا بطردهم كما سبق أن ذكرنا. وواصل بيرو دلبوكيرك رحلته بعد أن خلّى سبيل هذه السفن - إلى سقطرى، وظل يجول في هذه الأنحاء وبالقرب منها طوال الصيف، وفي هذه الأثناء استولى على عشر سفن ذوات حمولات غالية، تابعة للمسلمين،و كان في طريقها للبحر الأحمر، ولأن الموسم الآن قد تقدم كثيرا، ولأن الرياح المناسبة قد لا تستمر فترة كافية منذ ذلك الوقت فصاعدا لمساعدته في الإبحار إلى عدن - على وفق تعليمات أفونسو دلبوكيرك، لذا فقد اتجه ليرسو بأسطوله إزاء هرمز فوصلها في نهاية شهر مايو وحالما ألقى مراسيه في خليجها حتى أرسل ملكها توران شاه TERUNXA الذي كان على العرش وقتها خلفا لأخيه سيف الدين[1] الذي مات بالسّم - حاكم علي* HACEM ALE وهو مسلم من مواليد جرادا GRADA ليزوره في

(١) انظر جـ ١، فصل ٦٠.

* أوردته بعض الكتب العربية حكيم علي لكن طريقة الكتابة الإفرنجية، وكذلك التراث الديني لصاحب الاسم يجعلنا نفضل هذه القراءة حاكم علي.

السفن وليقول نيابه عنه ان المدينة في خدمة ملك البرتغال، وانه (ملك هرمز) تابع لملك البرتغال.

وأظهر بيرو دلبوكيرك كل مظاهر السرور لهذه الزيارة، وأعلن سعادته لأنه وجد ملك هرمز على هذا النحو من التعقّل، وفي صباح اليوم التالي أرسل إلى الشاطىء تريستاو ديجا TRISTAO DEGA ومعه مترجم يهودي تحوّل إلى المسيحية هو فرنسسكو دلبوكيرك FRANCISCO DALBOQUERAUS ومعه خطاب من أفونسو دلبوكيرك لملك هرمز، وتعليمات يعلن بمقتضاها أن عمّه (عم بيرو) أفونسو دلبوكيرك قائد الهند العام قد علم بموت أخيه الملك سيف الدين، لذا فقد أرسله لإقرار أمور السّلام معه، ذلك السلام الذي انعقد بين البرتغاليين وملك هرمز المتوفّى، ويرجوه أن يأمر بدفع الإتاوة المستحقة عن العامين الأخيرين.

ولأن السفن التي جلبها معه محمّلة تماما بالبضائع، فهو يرجوه أن يتكرّم بتسليم الحصن الذي تركه عمّه (أفونسو دلبوكيرك) ولم يكتمل وذلك لخزن البضائع به وحتى يكون البرتغاليون الذين سيتركهم مع هذه البضائع آمنين من أي أحداث سيئة قد تجري في هرمز.

فأجاب ملك هرمز انه بالنسبة للحصن فإنه لا يستطيع تسليمه لأنه بالقرب من القصر الملكي كما أنه أيضا قريب من البحر، لذا فليأت البرتغاليون ليروا ما إذا كان ان هناك مكان آخر بالقرب من البحر أو داخل المدينة يمكن فيه أن تكون البضائع والرجال البرتغاليون في أمان فساعتها سيهيئ لهم المكان فورا، أما بالنسبة للإتاوة فإن أخاه الملك الراحل كان قد كتب – قبل موته مباشرة – لملك البرتغال يرجوه أن يلغي إتاوات السنوات الماضية، وكان قد أرسل له هدية قيمة من لؤلؤ وأشياء أخرى، لذا فليُرْجِىء البرتغاليون مطالبتهم بالإتاوات السابقة حتى يأتي رد الملك البرتغالي، فإذا لم يلغها فساعتها سيدفع كلّ ما عنده، أما فيما يتعلق بإقرار السلام فإنه مستعد لتنفيذ كل ما يرغبه أفونسو دلبوكيرك.

وعاد تريستاو ديجا TRISTAO DEGA بهذا الرّد، ولم يكن بيرو دلبوكيرك سعيدا به فأعاده للملك ليقول إنه لم يطلب أبداً تسليم القصر الملكي وانما – فقط – المخزن والحصن اللذْين كان عمه (أفونسو دلبوكيرك) قد بدأ في إقامتهما على نفقة ملك البرتغال وبرضا أخيه ملك هرمز الرّاحل وحكومته كما هو موضّح في الخطاب الذي يشتمل على بنود اتفاق السّلام الْمُبرَم بين الطرفيْن، لذا فإنه يرجوه أن يتكرم بالأمر بتسليم الحصن والمخزن حتى يخزن البضائع بين جدرانه ليبدأ في بيعها، وحقا إذا استمر الوضع كما هو الآن لن تحصّل دار الجمارك أي مبالغ إضافية ولو قليلة. أما بالنسبة لقول ملك هرمز أن الحصن لصيق بقصره فهذا في حد ذاته كان هو ما يجب أن يرغب فيه الملك، فالقرب من البرتغاليين يؤمّن ذاته الملكية ويجعله في أمان ضد مخطّطات أعدائه وهذا القرب يجعل مملكته أكثر أمنا ويضمن له الحفاظ عليها، ويجعل ميناءه أكثر أزدهارا فَستَرِدُ اليه كل ثروات العالم.

وكانت إجابة ملك هرمز على هذا هي أنّه صحيح أن أخاه الملك الراحل كان قد منحهم الموقع الحالي للحصن، لكنه لم يضع في اعتباره وقتها ما ينشأ عن هذا الموقع من أمور غير ملائمة، لكنه – أي أخاه الملك الراحل – هو وخوجه عطا قد أدركا بعد ذك ما حاق بالقصر الملكي من ضرر من جرّاء ذلك، لذا لم يسمحا بإتمامه (الحصن) وكان هذا هو السبب الرئيسي للخلاف بين الطرفيْن. ولأن الحصن في مواجهة القصر – بالإضافة لأسباب أخرى كثيرة – فإنه لن يسلّم المبنى، وأن يعرض بناء حصن برتغالي في مكان آخر يختارونه على نفقته الخاصة (أي نفقة ملك هرمز) والأمر لا يحتاج لأكثر من هذا فهذا البديل موجود في خطاب أفونسو دلبوكيرك.

فأجاب تريستاو ديجا tristao dega انه ما دام ملك هرمز يودّ الالتزام بنصوص خطاب أفونسو دلبوكيرك وأن يقدم موضعا آخر لبناء الحصن البرتغالي فإن بيرو دلبوكيرك رئيس قباطنة الأسطول لن يقبل بغير المستشفى أو دار الجمارك لأن أفونسو دلبوكيرك حدّدهما دون سواهما لأنهما قريبان من

القصر الملكي حيث تكون بضائع ملك البرتغال ورجاله أكثر أمنا، هذا إذالم يكن ملك هرمز راغبا في إعادة الحصن البرتغالي لهم. فأجاب الملك أن المستشفى التي يطلبها بيرو دلبوكيرك هي عمل خيري ذو طابع ديني أنشأها أجداده لاستقبال المرضى والحجاج الذين يمرّون على هرمز وسيكون أمراً مخجلاً أن يتنازل عن بيت نُذِرَ لله لتحويله إلى حصن أما بالنسبة لدار الجمارك فهي دار تُدفع فيها منذ القدم عوائد ملوك هرمز ومعنى استيلاء البرتغاليين عليها انهم يأخذون عَيْنَيْه. وأكد أنه لن يتنازل عن أيّ من هذين المكانين لكنه – كما أسلف – مستعد لتقديم أيّ مكان آخر يختارونه. وبهذا الجواب الحاسم عاد تريستاو ديجا وردي لبيرو دلبوكيرك كل ما جرى مع ملك هرمز.

الفصل الخامس والعشرون

كيف أن بيرو دلبوكيرك – وقد رأى أن ملك هرمز لن يسلّمه الحصن، ولا موضعا لبناء حصن آخر – أرسل يطلب مخزنا يخزن فيه بضائعه، ومن ثمّ أبحر ليكتشف مضايق فارس

لقد أصبح بيرو دلبوكيرك واعياً الآن بالأعمال المعّوقة التي يمارسها ملك هرمز، ووجد أنه ظل هنا (في ميناء هرمز) لعدّة أيّام دون أن يُنجز شيئا، فأرسل تريستاو ديجا إلى الملك يقول له إنه ما دام قد اتفق مع أفراد حكومته على عدم تسليم الحصن الذي كان أفونسو دلبوكيرك قد بدأ بناءه وعلى عدم تسليم أحد الموقعين المشار إليهما لإقامة حصن بديل فلابد أن يأمر – على الأقل – بتقديم بعض المخازن لخزن حمولات السفن بها حتى يبدأ عرضها للبيع، فأظهر الملك سعادة بالغة لوصول الأمر إلى هذا، فأمر بتقديم المخزن نفسه الذي كان في الوكالة التجارية البرتغالية سابقا، وقت زيارة أفونسو دلبوكيرك الأولى لهرمز، فوجد البرتغاليون فيها بعض الأشياء التي ظلت على حالها، وتم تسليم هذا المخـــزن بناء على أوامـــر الريس نور الدين REXNORDIN إلى كلّ من تريستاو ديجا، وجوآو تيكسيرا.

وبعد أن تسلم البرتغاليون المخازن سارعوا بإنزال البضائع إليها. وحالما تمّ تفريغ سفن المسلمين هذه (التي سبق الاستيلاء عليها كما أسلفنا) حتى أمر بيرو دلبوكيرك بإشغال النار فيها. ورغم أنه خسر بذلك مبلغا كبيرا من المال كان من الممكن ان يدفعه المسلمون لقاء استرداد سفنهم الإّ أنّه وجد المكسب

بحرمانهم من سفن قادرة على الإبحار. وبعد ذلك عيّن كلاً من تريستاو ديجا، وجواو تيكسيرا كوكيلين تجاريين ليبقيا مع البضائع التي تم تفريغها، كما عيّن كلاً من كريستوفاو كيركادو CHRISTOVAO CERCADO وفاسكو بيريز VASCO PIREZ الموثّقين في الأسطول ليكونا معهما ومن ثم انطلق ليكتشف الخليج (PERSIAN SEA (I.E. PERSIAN GULF على وفق التعليمات التي تلقاها من أفونسو دلبوكيرك، وبينما كان يرفع أشرعته استعدادا للإبحار أرسل له ملك هرمز رسالة شفهية حملها له حاكم علي HACEM ALE يرجوه فيها ألاّ يقوم بهذه الرحلة لأن سفنه كبيرة جدا، والخليج مليء بالمناطق الضحلة والجزر[1] وهو يخشى أن يصيبهم مكروه في أثناء الرحلة فأجاب بيرو دلبوكيرك أنه ممتن جدا لهذه النصيحة لكنه لا يستطيع ان يلغي هذه الرحلة فقائد الهند العام قد وجّه إليه تعليمات مؤدّاها أن يكتشف كل الخليج THE STRAITSوأمره أيضا أن يعرف ما إذا كانت البحرين[2] BAREM مازالت على طاعته (طاعة أفونسو دلبوكيرك)، وأنه ما دام (بير دلبوكيرك) في طريقه إلى هناك فيمكن لملك هرمز أن يطلب أية خدمة يؤدّيها له فأسطول ملك البرتغال في خدمته بل إن عمّه أفونسو دلبوكيرك قد أمره بذلك، وطلب بيرو دلبوكيرك منه (أي من ملك هرمز) أن يتكرم بتجهيز الإتاوة والخطاب الذهبي GOLDEN LETTER لأنه عند عودته سيكون عليه الإبحار مباشرة إلى الهند.

وعندما رأى ملكُ هرمز أنّ بيرو دلبوكيرك مصمّم على القيام بهذه الرحلة رغم نصحه له بالعدول عنها أمر بتقديم مرشدين بحريين له يكونان على خبرة بالإبحار في الخليج وزوّده بخطابات يمكنه استخدامها في أثناء رحلته هذه، تساعده على تدبير مرشدين آخرين وكل ما يلزمه. ورجاه أن يتلطّف ويهتم بأحد

---

(١) مياه الخليج عميقة عندما يكون البر القريب من المياه عاليا، أما إذا قل ارتفاعه قل غَوْر المياه (عمقها). وفي الخليج جزر مختلفة المساحات وهي في غالبها من أصول بركانية والملاحة فيه تتطلب انتباها كبيرا. والرياح ــ كما في معظم البحار الداخلية ـــ غير مؤكّدة (غير منتظمه) وتهب بين الحين والآخر بعنف، وتهب شتاء في الاتجاه العكسي. وهي تهب فتوجه السفن نحو الشاطيء دون حاجة لكثير من الجزر. Persian Gulf Pilot, 1870

(٢) بارم Barem مشهورة في هذه الانحاء بصيد اللؤلؤ، وهي عل الجانب العربي من الخليج وتسمّى الآن البحرين، طولها نحو ٢٧ ميلا من الشمال وعرضها عشرة أميال. المدينة الرئيسية فيها هي المنامه Manameh في الركن الشمالي الشرقي وهي حاضرة قبيله العتوب Utube، وقدر الكابتن كيمبل Kemball المقيم السياسي السابق في الخليج عدد سكان هذه الجزر ٥٠,٠٠٠ نفس.

قباطنته (قباطنة ملك هرمز) كان يُبحر في هذه الأنحاء، وفي ٧ يونيو أبحر بيرو دلبوكيرك وتوغّل في الخليج PERSIAN SEA واكتشف كل موانئه وجزره وقُراه الموجودة على الساحل حتى جزيرة تسمّى لولوتيم(١) LULUTEM فلما وصل إزاء البحرين BAREM اصبحت الرياح غربية وأصبح الموسم متأخرا لايُمكّن من العودة إلى الهند على وفق التعليمات التي يحملها، فغيّر اتجاه سفنه ووصل إلى رأس الـ (٢) RAXEL حيث وجد أن الأمير بوزاكا MIRBUZAKA قائد الشاه إسماعيل كان قد استولى على عشرين طرّادا (٣) TERRADAS تابعة لأحد قباطنة ملك هرمز.

فلما وصلت أنباء هذا الاستيلاء إلى بيرو دلبوكيرك أرسل إلى قائد الشاه إسماعيل يخبره أن أفونسو دلبوكيرك أرسله هنا ليكون في خدمة ملك هرمز ومن ثمّ فهو يرجوه أن يتكرم بإعادة هذه الطرّادات للقبطان التابع لملك هرمز وأن يعيد أيضا كل ما استولى عليه منه، فتم تنفيذ هذا الطلب وبعد ذلك اتجه بيرو دلبوكيرك مرة ثانية إلى هرمز فوصلها في ٦ أغسطس فأرسل إليه ملك هرمز بمجرد وصوله حاكم علي HACEM ALE لزيارته وليشكره شكراً جزيلا لمسعاه لدى قائد الشاه إسماعيل المدعو بالأمير بوزاكا MIRBUZAKA فيما يتعلق بالطرّادات. ودنا تريستاو ديجا وجوآو تيكسيرا أيضا من الشاطيء ليجتمعا به وأخبراه أن الملك لم يدفع لهما الإتاوة ولا هو أعد الخطاب الذهبي GOLDEN LETTER مع أن الملك كان قد وعدهما بذلك قبل إبحارهما داخل الخليج.

وبعد انقضاء يومين أرسل بيرو دلبوكيرك رسالة لملك هرمز عبّر تريساتو ديجا وجوآو تيكسيرا، وموثّق الأسطول فاسكو بيريز VASCO PIREZ يكرر فيها

---

(١) الجزيرة الوحيدة التي تحمل اسما بالقرب من هذه الجزيرتهي حلول Hulul في وسط الطريق المائي تقريبا، أعلى القمم فيها ١٨٠ قدما يمكن رؤيتها على بعد يتراوح بين ١٤ و١٥ ميلا. تبعد عن رأس ركامRas Rekkam بنحو ٧٢ ميلا جنوب شرق في نصف شرق. وبها مرفأ جيد للسفن لكن الجزيرة قاحلة تماما.
وتتردد عليها قوارب صيد اللؤلؤ، وحافة شاطيء اللؤلؤ خارج الجزيرة مباشرة.

(٢) يبدو أنها صياغة غير كاملة مفادها رأس الـ ..... Ras al

(٣) سفن حربية صغيرة.

طلبه بشكل رسمي ويقول فيها إنه إذا لم يكن الملك راغباً في تسليم الحصن الذي كان أفونسو دلبوكيرك قد بدأ في إنشائه فلابد أن يردّ على ذلك كتابه، ولابد أن يأمر بتسليم الإتاوة لأنه (بيرو دلبوكيرك) لاينوي العودة إلى الهند بدونها. ولم يكن ملك هرمز راغباً في تقديم أيٍ رد مكتوب، وبدلا من ذلك أرسل ردا شفهيا آخر يذكر فيه أنّه بالنسبة للحصن الذي بدأ يتحدث عنه ثانية فقد سبق أن ذكر اسباب عدم تسليمه أما بالنسبة للإتاوة فإنه - أي ملك هرمز - رجل فقير بسبب المصاريف الباهظة التي أنفقها لذا فهو يرجوه أن يضع ذلك في اعتباره وأن يضع في اعتباره ايضا كل الأمور الباقية المتعلقة بالعودة المرتقبة لسفيره الذي أرسله إلى البرتغال في وقت سابق بشأن هذه الإتاوة، وانه في حالة عودة هذا السفير بالرد يمكنه أن يقدمه لقائد الهند العام، وبعد ذلك استأذن تريستاو ديجا من الملك وانصرف.

الفصل السادس والعشرون

كيف ناور بيرو دلبوكيرك مرّة أخرى لإجبار ملك هرمز على دفع الإتاوة، وكيف أبحر قاصداً الهند حتى وصل إلى جوا

لقد استاء بيرو دلبوكيرك استياءً شديداً لإجابة ملك هرمز التي أشرنا إليها في الفصل السابق فأعاد إليه على الفور تريستاو ديجا ليقول له إنه مادم (أي الملك) قد ردّ صنيعه الطيب بإرجاع الطرّادات إليه بصنيع سيء فإنه – أي بيرو دلبوكيرك – لن يبرح الميناء إلاّ بعد أن يدفع – أي ملك هرمز – كل ما هو مدين به. وسلّم تريستاو ديجا هذه الرسالة للملك ثم عاد للسفن فورا دون انتظار أية إجابة. ولما رأى الملك وأفراد حكومته إصرار بيرو دلبوكيرك خشوا انه إن ظل متعكرّ المزاج عل هذا النحو فقد يطلق النار على قرابة سبعين سفينة تجارية في الميناء كانت بسبيل الإبحار إلى البحر الأحمر (وكانت هذه السفن قد رست في هرمز نظراً لمعلومات وصلت قباطنتها تفيد أن اسطول بيرو دلبوكيرك كان يجول في منطقة رأس جورد فوي). لذا فقد وافق ملك هرمز وأفراد حكومته بالاجماع على أن يدبروا أمر دفع كل ما يستطيعون دفعه من الإتاوة التي مضى وقت دفعها، فأرسل له الملك على الفور حاكم علي HAKEM ALE ليقول له إنه مادام (أي بيرو دلبوكيرك) لم يضع أحكام الضروريات في اعتباره ولا هو راغب في انتظار عودة سفير هرمز لملك البرتغال بالرد، فإنه – أي ملك هرمز – يسعى لاقتراض بعض الأموال لدفعها له، وهذا كل ما يستطيه، وبعد ثلاثة أيام ارسل ملك هرمز حاكم علي ليسلّمه عشرة آلاف أشرفي وليعتذر له عند عدم إمكانه

إرسال مبلغ أكبر فالتجار فقراء جدا (لأنهم لم يجسروا على القيام برحلاتهم التجارية خوفا من الأسطول البرتغالي) وأنه لم يتم جمع هذا المبلغ إلاّ بعد معاناة شديدة أما بالنسبة للخطاب الذهبي GOLDEN LETTER فيجري إعداده وما إن يتمّ فسيرسله إلى قائد الهند العام.

ووجد بيرو دلبوكيرك ان موسم الإبحار لن يسمح له بمزيد من التأخرّ، فقبل عشرة الآلاف أشرفي، وأمر بتحميل البضائع التي ظلت على البر للبيع، وبعد أن تزوّد الاسطول بالمؤن والماء أرسل رسالة شفهية للملك عن طريق كل من تريستاو ديجا وجوآو تيكسيرا يقول فيها إن أفونسو دلبوكيرك علم أن الشاه إسماعيل توّاق للاستيلاء على هرمز لذا فإنه من جانبه يرجو الملك رجاء حارا بألاّ يسمح لأي قوّات مسلحة تابعة للشاه إسماعيل بدخول بلاده، مادام الملك البرتغالي قد اعترف به ملكا وفرض على البرتغاليين حمايته، وأن على ملك هرمز أن يتخذ الأسباب ليعلن أنه غيرم مسموح لأي شخص من فارس بالتوجه إلى الهند لأن أفونسو دلبوكيرك أعلن أن كل من يقبض عليه في البحر في طريقه للهند سيتم ضرب عنقه بالسيف، والتجار مستثنون من ذلك، فليأت أكبر عدد من التجار فلا بأس في ذلك، مهما كثر عددهم، فلهم حق المرور الآمن، وإنه إذا وصل أي سفير من قبَل الشاه إسماعيل إلى هرمز في طريقه لأي ملك من ملوك الهند فلا يُسمح بأن يكون في صحبته أكثر من خمسين شخصا لأن أيّ أشخاص يزيدون عن هذا العدد سيتعرّضون للأسر.

ولأن ملك البرتغال كان قد أصدر أوامره بهجْر ميناء باتيكالا BATICALA وأن تتجه كل الخيول القادمة من شبة الجزيرة العربية وبلاد فارس إلى جوا (كوا)، لذا فإنه يرجوه أن يتكرم بإصدار الأوامر لكل السفن التي تحمل خيولا بالتوجه الى جوا فهناك ستكون كل البضائع متوفرة لشحنها في رحلة العودة، وإذا ما تم إقرار هذا الأمر فإنه من ناحيته (أفونسو دلبوكيرك) لن يعطي حق المرور الآمن لأي سفينة مالم تكن متوجهة إلى هرمز ببضائعها فإذا لم تتجه لهرمز استولى على بضائعها وأعمل السيف في رقاب أفراد طاقمها.

وكان جواب الملك أنه مقتنع تماما بضرورة توجه التجار إلى جوا بشرطين، أولهما أن لا يجب تطبيق العقاب المذكور إلاّ على أولئك الذين يُدانون بشكل واضح بتعمدهم ترك جوا والاتجاه إلى موانيء أخرى. والشرط الثاني هو ضرورة إصدار أوامر بحسن معاملة التجار واضعا في اعتباره كم هي عزيزة الخيول في هرمز ومدى التكاليف التي يتكلّفها شاحنوها. وإذا ما تم مراعاة هذين الشرطين بالإضافة إلى الحصول التجار عل سعر مناسب لبضاعتهم يحققون من خلاله ربحا فإن كل التجار سيسعدون بالتوجه إلى جوا دون حاجة لأي عقاب يجبرهم على التوجه إلى هذا الميناء (جوا) أو غيره.

وبعد أن استمع تريستاو ديجا وجواو تيكسيرا لهذا الجواب استأذنا الملك وحالما وصلا للسفن، أعلم بيرو دلبوكيرك القباطنة أنه على وشك الإبحار، وفي صباح اليوم التالي نشروا أشرعتهم وأبحروا مباشرة إلى الهند ولم يحدث في أثناء الرحلة ما هو جدير بالتسجيل ووصل الأسطول كله إلى جوا في ٢٨ سبتمبر سنة ١٥١٤ فوجد هناك سفير ملك هرمز الذي كان قد وصل من البرتغال قبل ذلك بأيام قلائل مع السفن التي وصلت من البرتغال هذا العام[١]. وقد سعدت المدينة كثيرا بوصول بيرو دلبوكيرك فقد سبقته أنباء استيلائه على أسلاب كثيرة ذوات قيمة، وحالما نزل إلى البر توجه فورا لزيارة عمه أفونسو

---

(١) The British Museum Ms. Add. 20,902, gives, at f. 17. the following aecount of the ships sent from fortugal to India in 1514:

"Anno de 1514.

"Christovao de Brito, Capitam Mor.

"Christovao de Brito, Vapitao moor de cinco naos patio a Vintasete de Mareo; Cnciseo Pereira Rusticao: Manoel de Mello, Luis Dantas, Joao Derrao: E Neste anno se foulao, a que se pos nome sancthomc. E foy prineiro Capitao, e feitor lleitor rodrigue`.

E em dous d julho do mesmo anno partio Sebastiao de s vellas m sousa por Capitao inoor de tres Navios de que forao capi taes luis figueira e pedr Aluares frances para fazerem teitoria na iha de sao lourenco que nao teue efeito "successos day cinco naos. luis dantas chegando a india primeiro, que os de sua compahia, foy por mandado do affunso de albuquerque a cambaya carregar de algumas inercadorias para ajuda da carga, anode se perdeu, sal vandose a gente".

the marginal note to the first paragraph of this extract is: "outra nelacao diz que partiu a 9 de abril com esles capitaes = mol. do melo, em sut Ma du lu = franco pereira coutinho em stu Maria da Ajuda = luis dantas, perdido = Joao serrao".

"Esta mesma relacao diz que depois de partida a armada das 5 naos partirao mais 2 vellas a 11 de junho para na ilha de s. lourenco assentarem trato, e feitoria de que eam capitaes luis figueira, e pedreanes franees:. Cf Correa, lendas, p. 385.

دلبوكيرك وسرد عليه كل ما جرى في أثناء الرحلة وبيّن له كيف أن ملك هرمز قبل عقيدة الشاه إسماعيل (شعار الشاه إسماعيل COP OF QEAUE IS-MAEL وأمر بتلاوة النصوص الدينية الشيعية في كل مساجده وأنَّ الريس نور الدين REXNORDIN هو المتحكمّ في كل شيء وأرسل لاستدعاء كل أبنائه من فارس، وأن قائداً للشاه إسماعيل اسمه الأمير بوزاكا MIRBUZACA كان يجول بأسطول في كل نواحي الخليج.

وكان أفونسو دلبوكيرك سعيداً بعودة ابن أخيه بأمان لحاجة الهند لوجوده، لكنه لم يكن سعيدا بمجريات الأمور في هرمز وعقد العزم في نفسه على التوجه هذا العام إلى هرمز ليجعل الأمور في مسارها الصحيح قبل أن يرسخ الشاه إسماعيل أقدامه هناك، ولم يضع أفونسو دلبوكيرك وقتاً فبدأ يستعد معلناً أن هذه الاستعدادات التي تجري إنما هي للتوجه إلى البحر الأحمر STRAITS OF MECA وكانت قيمة الأسلاب التي جلبها بيرو دلبوكيرك قرابة ٤٠,٠٠٠ كروزادو للتاج بالإضافة إلى سفينة محملة بالبضائع لم يتمكن من بيعها، هذا إلى جانب عشرة الآلاف أشرفي التي دفعها ملك هرمز كإتاوة، ورغم أن المسؤولين الملكيين البرتغاليين نصحوا أفونسو دلبوكيرك بتحميل حمولات النقد السّائل (الأموال الجاهزة) للبرتغال لأن التكلفة ستكون أقل الاّ أنّه تذكّر حجة رجاله فلم يفعل ذلك وإنما أمر بوضع منضدة في ميدان عام وأعطى لكل واحد أجره – نقودا وبضائع – حتى يوم التسليم، وقد سعد الجميع لذلك سعادة كبيرة.

لكن حدث قبل أنتهاء تسليم الرواتب والأجور أن أصبح أفونسو دلبوكيرك منزعجاً جدا بسبب واحد من البحّارة ذوي الرتبة البسيطة LASCAR، فقد كان هذا البحار يتضوّر جوعا ووجد أفونسو دلبوكيرك – على غير ما كان يتوقّع – أنه لن يقّدم له أي مبلغ نقدي، فنزع شعراً من لحيته وقال: «إنني أقسم بالحياة مادمتُ حيا، ماذا تريدني أن أفعل لك؟ هيا خذ هذه الشعرات من لحيتي واذهب وارهنها» وأخذ هذا البحار الشعيرات واحتفظ بها، وعندما حدث أن رأى

الآخرين يقبضون أجورهم علناً ذهب إلى أفونسو دلبوكيرك وصاح «انظر، هذا هو شعر لحيتك، ارسل لتَفُك الرهن وادفع لي» فعانقه أفونسو دلبوكيرك وقال إن رجلا يحتفظ بشعر لحية قائده لابد أن يتم الدفع له وبشكل جيد، لكن لأن كل الأموال الحكومية التي تخص ملك البرتغال قد تم دفعها، فقد أمر بالدفع من أمواله الخاصّة، ومنذ ذلك الوقت أصبح يُطلق عليه اسم بحّار أفونسو دلبوكيرك.

الفصل السابع والعشرون

وصول سفير ملك نارسينجا واستقبال أفونسو دلبوكيرك له، والرسالة التي سلّمها له عند عودته، وكيف أرسل معه كلاً من انطونيو دي سوزا، وجوآو تيكسيرا لإنجاز الأشغال التي اتى من أجلها هذا السفير

بعد أن علم أفونسو دلبوكيرك عن طريق ابن أخيه بيرو دلبوكيرك بالوضع الحالي في هرمز وَقَرَ في عقله أنْ يذهب إلى هناك في الصيف بأسطول قوي مُسلّح جيدا لإتمام بناء الحصن، ولإحكام قبضته على هرمز قبل أنْ ينشغل الشاه إسماعيل بها، ولتحقيق هذه الغاية كَتَمَ هدفَهُ وعمّى عليه وأعلن - على غير حقيقة نواياه - أنّه سيتّجه بأسطوله إلى مضايق البحر الأحمر STRAILS OF MECA بناء على أوامر تلقّاها من الملك د. مانويل. وفي هذه الأثناء وصل سفير يُدعى ريتيلم شيتيم RETELIM CHETIM من قِبَل ملك نارسينجا، وهذا السفير يشغل منصب حاكم براسيلور[1] BRACELOR والقرى الواقعة على حافّة البحر، بالإضافة إلى أنّه أحد الشخصيات المهمة في الأسرة المالكة ويحظى بتقدير كبير من الملك، وكان بصحبته عدد كبير من الهنود التحقوا به لخدمته.

فلما علم أفونسو دلبوكيرك أنّه على وشك الوصول وعلم بما تحظى به طبقته من تَقْدير، أمرَ قائدَ الحصن بيرو ماسكارينهاس PER MASCARENHAS أنْ

(١) انظر مخطط مدينة براسيلور Brasilor وحصنها وكذلك وصفهما في:
P. Barretto de Resende's Ms, British Museum, Sloane 197, Fo. 284

يذهبَ على رأس عدد كبير من الفرسان لاستقباله خارج المدينة، فلمّا وصل إليه أدّى له التحيّة، وكان هذا السفير قد أتى مصحوباً بكثير من الفرسان ومعه قائد على رأس مجموعة من أهل البلاد PEENS ، وكان قدومه مصحوباً بكثير من الرّسميّات. لقد أتى وفي مُقدمة ركْبه أربعة أفيال عليها هوادجها الخشبية المكسوّة بالحرير، وقد ركب كل فيل منها أحد الهندوس من طبقة ذات شأن، وقد جلبوا معهم طُسُوت مطليّة بالفضّة بها لآلىء وجواهر وأحجار كريمة وأشياء أخرى من الصناعات المحلّية ذوات قيمة كهديّة لأفونسو دلبوكيرك. ومضى الركْب بكل عُدّته إلى قصر السيباهي السّابق حيث كان أفونسو دلبوكيرك في انتظارهم في صالون واسع مزدان بالأكاليل والميداليات وتذكارات الانتصارات والأسلحة، وبه ظلّة من حرير مقصّب وقد جلس أفونسو دلبوكيرك على عرش من قطيفة حمراء، وقد حفّه كل القادة والقباطنة وذوي الرّتب وذوي الحْيثيّة ممّن كانوا في جوا، إذ وقفوا جميعا إزاء جدران القاعة، فأفونسو دلبوكيرك رغم أنه يعيش بين رجاله عيشة مُعتادة الإّ أنّه دائما يظهر أمام المسلمين والهندوس في مظهر مُهيب يَدُل على سلطته حتى يجبرهم على أنْ يُظهروا له التقدير العظيم والإجلال الكبير.

وعندما دخل السفيرُ في المقدمة إلى القاعة هبط أفونسو دلبوكيرك إلى منتصف القاعة – احتراما لقدره – واستقبله، ومن وسط القاعة انطلقا إلى الموضعين المحدّدين لجلوسهما، فسلّمه السفير – وهو واقف – الهديةَ التي أحضرها كما سلّمه خطاب اعتماده من ملك نارسينجا وقد ورد في هذا الخطاب أنْ يتكرّم أفونسو دلبوكيرك بأنْ يعيد سفيره بأقصى سرعة ممكنة.

وطلب أفونسو دلبوكيرك من السفير أنْ يذهب ليرُيح نفسه من عناء السفر بينما سينظر هو في خطاب ملك نارسينجا ويرتّب أمر عودته، وأمر بتزويده ورجاله بكل ما يلزمُهم على نفقة البرتغاليين. وفي صباح اليوم التالي أمر أفونسو دلبوكيرك باستدعاء هذا السفير وقال له إن ملك نارسينجا ذكر فيما كتب أنه يرغب في أن يوافق – أي أفونسو دلبوكيرك – على كل ما كتبه، لذا

فهو يود أنْ يعرف الأمور التي أتى (أي هذا السفير) من أجلها، فأجاب السفير بأنّ سيده ملك نارسينجا شديد الرغبة في الاحتفاظ بصداقته وسلامه اللذين أبرْمهما مع ملك البرتغال، ولكوْنه - أي ملك نارسينجا - عالما بما بين البرتغاليين والعادل خان من خلافات، فهو - أي ملك نارسينجا - مصرٌ على شنّ حرب ضدّه، فإن كان أفونسو دلبوكيرك لا يزال على عدائه مع العادل خان، فما عليه إلاّ أنْ يُرسل له رسولا بذلك، حتى يقوما معاً (ملك نارسينجا وأفونسو دلبوكيرك) بشن حرب ضد العادل خان، فيحطّمانه معاً دون مشقّة كبيرة.

وتحدّث الخطاب أيضا عن تجارة الخيول. فقال أفونسو دلبوكيرك انه سينظر في هذا الأمر بعناية وسيجيب عن هذا الطلب مستقبلا، والسبب في هذا الرد أنّ ملك نارسينيجا بعد أنْ كان أفونسو دلبوكيرك قد أرسل له في وقت سابق كلاّ من مانويل فرناندز ANUEL FRNANDEZ وجاسبار شانوكا GASPER CHANOCA ليضغطا عليه كي يضم قوّاته إلى القوات البرتغالية لشنٍّ حرب ضد العادل خان، كان دوماً يقدِّم الأعذار دون أن ينتهي إلى قرار في هذا الشأن، لهذا فقد أراد أفونسو دلبوكيرك أنْ يؤجل الموافقة على هذا المشروع حتى يفهم ملك نارسينجا أنّ في مقدور البرتغاليين تدميره (أي تدمير ملك نارسينجا) بحرمانه من التجارة في الخيول، وتحويلها إلى العادل خان.

وسارع السفير بإعلام ملك نارسينجا بهذا الرد الدبلوماسي الذي أدلى به أفونسو دلبوكيرك فلما أدرك الملك أن القائد البرتغالي لم يَهَش لِعَرْضه ولم يُسارع بالقول أنّه بصدد إعداد حملة لغزو بلاد العادل خان الأمر الذي كان في وقت مضى يلّح عليه، خَلُص إلى أنَّ أفونسو دلبوكيرك قد تلّقى - ولا بُد - رسائل من العادل خان، لذا فإنه - أي ملك نارسينجا - سارع بإرسال مبعوث إلى سفيره يُخبره بالإسراع في إرسال الردود وأن يقول لأفونسو دلبوكيرك ان الملك (ملك نارسينجا) - فعلاً - في الطريق على رأس كل قوّاته العسكرية في انتظار ردّه.

وعندما رأى أفونسو دلبوكيرك أنّ ملك نارسينجا NARSINGA لم يألُ

جُـهدا للوصـول بالأمـور إلى حد الأزمـة، وكأنـه يريد الوصـول إلى قرار حـاسم خوفاً من العـادل خـان، سلّم السفيـر رسـالة وجـهّز كُلاً من أنطونيـو دي سـوزا ANTONIO DE SOUSA وجـواَو تيكسـيـرا JOAO TEIXEIRA على رأس عشرة فرسان وخمسين جنديا هنديا ليكونوا بصحبة السفير في طريق العودة ولإرسـاء علاقـات الصـداقة التي كادت تتـحطم بينهمـا (بيـد البـرتغـاليين وملك نارسـينجـا) وورد في التعليمـات التي سلّمـهـا لهمـا أنْ يُعلنا للملك بـاسمه أنه إذا كان يرغب حقـا في مساعدة البرتغـاليين في مشروعهم المرتقب لبـلاد العادل خـان فـيمكن أنْ يكون هـذا في ظروف تسـمح بدفـع أجـور كل الرجـال، أمـا بالنسـبـة لتجارة الخيول فإن عليه أنْ يدفع من الآن فصـاعدا ثلاثين ألف كروزادو -CRU ZADOSسنويا وأنْ يعـمل على طلب الخـيـول من جـوا وأنْ يدفع جـمـاركـهـا، وأيضـا من باتيكالا BATICALA أو باكلور BACALOR أيّ المكانين يحـدّده أفونسـو دلبوكيـرك. وذكر في تعليـمـاته أمورا أخـرى لإبلاغـها للملك لأنّه – أي أفونسو دلبوكيرك – اعتبر أنَّ الوقت قد حـان لعقد صفقةٍ رابحة مع الملك ففي بعض الأحيان تمكّن الظروف السـعيدة من تحقيق نتائج طيبة وعظيمة قد تفوق مـا يُحقّقه سلطان ملك، وعلى أيّة حـال فبعد أنْ تَم تجهيز كل ذلك انطلق الرّكب الذي حملّه أفونسو دلبوكيرك هدية لملك نارسينجا من الأشياء التي جلبها بيرو دلبوكيرك من هرمز وأشياء أخرى من البرتغال.

الفصل الثامن والعشرون

رحيل سفير ملك نارسينجا ووصول سفير من العادل خان للاتفاق على أمور السلام وتجارة الخيول وسفير آخر من أم العادل خان للعمل على الإسراع في الاتفاق، وكيف تصرّف أفونسو دلبوكيرك

لقد علم العادل خان أنّ ملك نارسينجا أرسل سفراء، لأفونسو دلبوكيرك الكبير، وأنّه يستعد بقوّات كبيرةُ لغزو بلاده وشنّ الحرب عليه، فخشي أن يعقد ملك نارسينجا وأفونسو دلبوكيرك صفقة بخصوص تجارة الخيول التي هي المنبع الرئيسي لسياسته الدفاعيّة لذا فقد أرسل مبعوثا حاملاً خطابات لسفيره الذي كان في جوا منذ عدّة أيّام خلت (لأنه أي هذا السفير كان قد أتى في وقت سابق بصحبة كل من ديوجو فرناندز مسؤول العدالة وجواو تيكسيرا، كما سق أن ذكرت[1] وكان أفونسو دلبوكيرك قد أرسلهما للعادل خان لكنهما عادا دون الوصول معه إلى نتيجة) للإسراع بالأمور عن ذي قبل وليعلن له أنه ما داما قد اتفقا على أنه طوال سريان معاهدة السلام بينهما لن يمنع قدوم سفن المسلمين المحملة بالبضائع إلى دابول DABUL، فإنه (العادل خان) يرجوه أنْ يتكرّم بعقاب قباطنته لنقضهم الاتفاق واستيلائهم على كل سفينة في طريقها إلى دابول لأنه (العادل خان) راغب في استمرار السلام والصداقة مع ملك البرتغال كما أرسل له مرارا عن طريق سفرائه، وأن ينظّم تجارة الخيول وألاّ يحولّها إلى

(١) انظر فصل ١٨

ملك نارسينجا. وأعْلَمَ السفيرُ أفونسو دلبوكيرك بكل ما كتبه له العادل خان ورجاه أن يعجّل بإرساله بالرّد، لأن سيّده العادل خان يتصوّر أن هذا الأمر لم يتم البتّ فيه بسبب إهماله (أي إهمال السفير). لكن لأن أفونسو دلبوكيرك كان قد عقد العزم على التسويف وإرجاء البت في الأمر حتى يكتشف ما إذا كان ملك نارسينجا يرغب في الوصول إلى اتفاق معه بشأن الأمور التي أرسلها له أم لا (لأن أفونسو دلبوكيرك كان يفضل صداقة ملك نارسينجا فلأنه هندوسي يمكن التعويل عليه عند الانشغال بفتح مملكة الدكن، بينما العادل خان مسلم لايمكن أن تستمر العلاقات معه في حالة سلام بسبب كَيْد الترك* الذين ينصحونه بألا يكون على علاقة طيبة بالبرتغاليين) فأجابه بانه سيرسله بالرد.

وبعد مرور أيام قليلة أرسلت أم العادل خان التي لها تأثير كبير عليه – بعد أن أدركت تأخر السفير ولشدّة رغبتها في أن يكون ابنها في حالة سلام مع البرتغاليين – رسالة إلى أفونسو دلبوكيرك عن طريق إحدى وصيفاتها (وهي امرأة ذات قدر وواسعة النفوذ ومتزوجة من مسلم يتحكم في الأسرة الملكية للملكة الأم) تتناول فيها اتفاية السّلام هذه مقدّمة له عروضا كثيرة راجية إيّاه أن يُرجع سفير ابنها (العادل خان) بالرد فهذا السفير ظل ينتظر منذ مدة لتلقّي رسالة منه، وتطلب أيضاً أنْ يأذن لوصيفتها الآنف ذكرها بشراء عدد قليل من الخيول لحاجتها إليها، فالنساء ذوات الشأن في بلادها يمتطين الخيولَ في غدوّهن ورواحهن، ولذا فالخيول في بلادها ذات قيمة كبيرة بصرف النظر عن ضرورتها للأغراض الحربية، فسمح أفونسو دلبوكيرك للوصيفة بشراء الخيول المطلوبة وأرسلها فورا لتقول لسيّدتها صاحبة النّبل انه مشغول في أمور كثيرة شديدة الأهمية لذا فهو لا يستطيع الآن إرسال سفير ابنها العادل خان بالرد، لكنه سيرسله حالما يستطيع.

---

* المقصود مسلمو الهند من هذا العنصر (ترك أسيا الوسطى).

لكن لأن سفير العادل خان الحّ كثيرا على أفونسو دلبوكيرك في أمر تسليمه رسالة واعادته الى بلاده، وأيضا لان كلا من أنطوينو دي سوزا وجوآو تيكسيرا لم يكونا قد عادا بعد بأية رسالة من ملك نارسينجا NARSINGA (الذي كان ينتظر حتى يصل إلى قرار نهائي بشأن المعروض عليه)، وأيضا لأن وقت رحيل أفونسو دلبوكيرك إلى هرمز قد أزف - فإنه (أي أفونسو دلبوكيرك) أرسل - أخيرا - سفير العادل خان، واضعاً في اعتباره الوصول إلى تفاهم مع أيهما (العادل خان أو ملك نارسينجا) بما يحقق مصالح البرتغال، ولكي يكرم العادل خان ويتودّد إليه فإنه - في الوقت نفسه - أرسل بصحبة سفيره هذا، جوآو جونسالفيز دي كاستل - برانو - JOOA GENCLVEZ DE COSTEL BRANCO بصحبة نبيلةٍ من خيالةٍ وراجلين، وأرسل عن طريقه إجابه إلى العادل خان يبّين فيها أنه بسبب الرغبة في توثيق عُرى الصداقة والاقتراب منه فإنه سيقدم له كل الخيول التي تصل إلى جوا بشرط تسليمه للبر القريب من جوا وممر الجات[1] GATE، لأنه بذلك يصبح الوضع الحربي في جوا أكثر أمنا، وأنه يعده أن سيّده الملك د. مانويل D. MANUEL سيقدم له كل التأكيدات التي يرغبها حتى يتيقّن أنّ الملك البرتغالي لن يأمر بشن الحرب ضده ولن يغيّر سياسته إزاءه لصالح ملك نارسينجا، أمّا فيما يتعلّق بمعاقبة القباطنة البرتغاليين الذين استولوا على سفنه عند توجّهها إلى دابول DABUL الأمر الذي لايتفق مع المعاهدة المعقودة بينهما، فإن هذا جرى على يد برتغاليين متمرّدين في قادس متمركز هناك ولم يكن في إمكانة أن يوقع عقابا بهؤلاء البرتغاليِّين المسلحين بحق المرور الآمن والذين يسرقون سفن المسلمين، ذلك لأنه لو فعل ذلك، فإنهم - خوفامن العقاب - قد يهربون إلى معسكره (معسكر العادل خان) أو إلى بلاده وساعتها فإنه (أفونسو دلبوكيرك) متأكد أنه سيستقبلهم بترحاب، والحقيقة أنه منذ أيام قليلة سطا أربعة من البحارة

---

(١) Ghaut

البرتغاليين صغيري الرتبة على سفينة من كانانور ووجدوا لأنفسهم ملجأ في بلاده (بلاد العادل خان) ولم يستطع (أفونسو دلبوكيرك) أن يوقع بهم العقاب الذي يستحقونه، لكل هذا فمن الأفضل – فيما يظن – أن يتركهم يسرقون سفن المسلمين. ولقد نجحت خدعة أفونسو دلبوكيرك هذه فحالما وصل السفير كتب العادل خان خطابات للتانادارات [1] TANADARS في كل بلاده بالقبض على كل البرتغاليين المقيمين في بلاده وإرسالهم إلى أفونسو دلبوكيرك حتى ولو كان من المتزوجين والمستقرين في بلاده، وفي الفترة التي اتجه فيها أفونسو دلبوكيرك إلى هرمز نقل مسؤولو العادل خان هؤلا البرتغاليين إلى جوا وسلّموهم لقائد الحصن.

والسبب الحقيقي للشكوى التي تقدم بها العادل خان والتي أدّت لكل ما أسلفناه هو أن أفونسو دلبوكيرك كان قد استاء منه لإيوائه، في مملكته بعض البرتغاليين ذوي الرتب الدنيا وراح يعاملهم معاملة حسنة وأكرمهم، لذا فقد أرسل (أي أفونسو دلبوكيرك) رسالة سرّية إلى دوارت دي سوزا DUARTE DE SOUSA الذي كان يجول إزاء ساحل دابوك في قادس – كما سبق أن ذكرت – بأن يتظاهر أنه تمرّد على سلطة أفونسو دلبوكيرك وأن يستولي على كل سفن المسلمين المتجهة إلى هذا الميناء حتى لو كانت تحمل حق المرور الآمن من البرتغاليين. وحتى لا يتمكن العادل خان من التأثير على بعض الجنود البرتغاليين بالرشوة ذلك أن هؤلاء الجنود كانوا قد ثاروا بتحريض وإغراء شديدين منه (من العادل خان) لذا فقد أمر دوارت دي سوزا بالقبض على أحد هؤلاء الجنود كان على وفق المعلومات التي وصلت عنه على وشك إعلان نيته بالهروب إلى معسكر العادل خان إذا لم يبّت لصالحه في مظلمة قدّمها، ولأن هذا الجندي كان عاملا ماهراً ويجيد صب المدافع فقد أصدر أمراً بشنقه، فكانت الصيحة العامة التي أطلقها الحاضرون هي «انهم يشنقون هذا الرجل

---

(١) انظر ج ٢، فصل ٢٥

لأنه مفيد ويمكن الاستفادة منه في بعض الأغراض» وفي الوقت نفسه كان أفونسو دلبوكيرك قد رتّب - مسبقاً - مع كاهن جوا أن يأتي بكل رجال الدين ليرجوه إنقاذ حياة هذا الرجل، وفي الطريق إلى ساحة الإعدام أعادوه للسجن وتم إطلاق سراح الرجل بعد أن تراجع عن عزمه، وعندما عاد السفراء بإجابة العادل خان عن كل هذا وجدوا أن أفونسو دلبوكيرك قد مات.

الفصل التاسع والعشرون

وصول د. جارسيا إلى جوا بالسفن التي كان يجري إصلاحها في كوشن. واستعداد أفونسو دلبوكيرك باسطوله للإبحار، وإرساله جورج دلبوكيرك ليكون قائدا لملقي، وما جرى في أثناء الرحلة

وبعد خروج السفراء – الآنف ذكرهما في الفصل السابق – من جوا وصل د. جارسيا دي نورونها d. garcia de noranha بكل السفن التي كان قد جرى تركها في كوشن لإصلاحها، وبمجرد وصولها، شرع أفونسو دلبوكيرك في تهيئة أسطوله وتجهيزه وشغل نفسه بإعداد كل حصون الهند البرتغالية بالوافر من الرجال والمدفعية والمؤمن وكل ما هو ضروري لها، لأن الملك د. مانويل قد أكّد له على ضرورة ألاّ يترك الهند إلاّ بعد تأمين حماية الممتلكات البرتغالية تماما حتى تكون حصون البرتغاليين وممتلكاتهم قادرة على مواجهة ما قد ينشأ من اضطرابات وما قد تتعرّض له من متاعب،، فأن يحافظ المرءُ على ما في يديه يُعد أكثر أهمية من السعي للحصول على مكاسب جديدة. وبعد أن نفّذ أفونسو دلبوكيرك أوامر الملك في هذا الشأن، أمر د. جارسيا أن يجعل الأسطول في حالة استعداد للإبحار.

وبعد أن تم كل ذلك استدعى من كوشن جورج دلبوكيرك وأرسله على رأس أربع سفن على متونها مائتا رجل وكل ما استطاع تدبيره من ذخائر الحرب، وأرسله ليكون قائداً لملقى بعد أن دبّر أمر عودة بيرو ماسكارينهاس -pero mas

carenhas إلى كوشن وإنهاء فترة خدمته، وعهد برئاسة قباطنة جوا إلى د. جوآو دسا d.joao dessa. والآن فلأن أفونسو دلبوكيرك كان قد عقد العزم على قضاء الشتاء في هرمز بنيّة أن يتوجه بعد ذلك ويستولي على عدن ويتوغّل في البحر الأحمر – فقد أمر بتشييد أربعة قوادس وإرسالها له مزوّدة بكل ما يلزمها حالما ينتهي بناؤها، إلى هرمز.

لقد أصبحوا الآن جاهزين تماما للإبحار، وفي هذه اللحظة أرسل الزاموريم camorim ليستأذن في إرسال سفينتين إلى عدن لكن أفونسو دلبوكيرك اعتذر عن تلبية هذا الطلب ذاكرا انه مما يناقض الاتفاقية التي أبرمها، وأنه هو نفسه – أي أفونسو دلبوكيرك – بصدد الاتجاه إلى عدن وبالتالي لايرغب أن تسبقه هاتان السفينتان إلى هناك لُتعلم ملك عدن بقدومه. ورغم كل هذه الأسباب وغيرها ألحّ الزاموريم في طلبه فرضخ أفونسو دلبوكيرك لحكم الضرورة ومنحه مايريد من حق المرور الآمن لهاتين السفينتين على ألاّ يُشحنا بالفلفل لأنهما متجهتان إلى بلاد معادية لسيّده ملك البرتغال وشريطة أن يقوم تجار كلكتا بإعداد قادسيْن كبيرين له على نفقتهم، ولم يطلب هذا الطلب الإّ لتبرير تقديم حقّ المرور الآمن. ومع هذا فـإن االتـجـار – نظراً للمكاسب الكبـيـرة التي سيحققانها بإرسال بضائعهم إلى البحر الأحمر – كانوا سعداء ببناء القادسيْن الكبيرين اللذين طلبهما، وحتى يتم إنجازهما بمزيد من السرعة ترك أفونسو دلبوكيرك، دوارت باربوزا duarte barbosa ليشرف على العمل فيهما وأمدّه بنجّار برتغالي وجماعة من الحرفييّن من أهل البلاد، فقد كان أفونسو دلبوكيرك ينوي تحويل كل سفن الأسطول البرتغالي في الهند إلى قوادس بعد عودته من البحر الأحمر.

وبعد أن اصبح أسطول جورج دلبوكيرك جاهزاً تماما للإبحار استأذن أفونسو دلبوكيرك وأبحر من ميناء جوا في صباح يوم السبت ووصل إلى باسي pace دون أن يحدث ما هو جدير بالتسجيل في اثناء الرحلة، وكان وصوله اليها في اللحظة نفسها التي كان فيها ملكها – وهو تابع مخلص لملك البرتغال –

مستعداً بجيشه لشنّ حرب على أحد أمراء البلاد رفع راية العصيان ضدّه. فلما علم ملك باسي pace بوصول جورج دلبوكيرك أرسل إليه في التّو من يزوره راجياً إيّاه أن يقف إلى جانبه في هجومه المرتقب لأنه يثق في عوْن البرتغاليين له لتحقيق النصر على أعدائه، فأجاب جورج دلبوكيرك – وحده برجاله لمهاجمة العدو لأنه واثق برحمة الله الذي سيمكنه من الثأر من هؤلاء الأعداء، وما على ملك باسي pace إلاّ أن يقف مع جيشه فوق مُرْتفعٍ من الأرض وقد حمل كل واحد منهم غصن شجرة في يده، ليروا بأعينهم كيف يحارب البرتغاليون.

وما إن تمّ الاتفاق على ذلك حتى نزل جورج دلبوكيرك برجاله المقاتلين وشرع في مهاجمة العدو الذي كان متمركزا في موقع منخفض والملك وكل رجاله واقفون في موضع خلفي، وانقض البرتغاليون بشجاعة فشتتوا شمل العدو وقتل من أفراده عدداً لا يحصى، وفر الباقون. ومن ثم عاد برجاله إلى المرفأ حيث رست سفن الأسطول. وعندئذ أمر الملك رجاله بمتابعة الفارين من أفراد العدو بينما اتجه هو ليرى جورج دلبوكيرك ليشكره شكراً جزيلاً وليمتدح إنجازه – لأنه بالفعل أحد الانتصارات الكبرى التي تم تحقيقها في هذه الأنحاء من العالم بالنظر لعدد رجالنا القليل.

ومن ثم استأذن جورج دلبوكيرك من الملك عارضاً عليه أن يخدمه في أي وقت يحتاج فيه إلى مساعدة، واتخذ طريقه مباشرة إلى ملقى، فلما وصلها تولّى أمر حصنها، وعاد دوي دي بريتو باتاليم ruy de brito pqtqlim في الأسطول نفسه إلى الهند، لكنه عندما وصل إلى جوا وجد أن أفونسو دلبوكيرك قد مات. وكان جورج كيرك فارساً هماماً حيّ الضمير جداً حتى إنه في رحلته الأولى إلى ملقى أخذ عشرة آلاف كروزادو gruzados وفي رحلة العودة أحضر اثنتي عشرة كروزادو وأخذ عشراً، وهو الأمر الذي لا يحدث الآن.

الفصل الثلاثون

أفونسو دلبوكيرك يعقد اجتماعا بشان الرحلة التي أزمع القيام بها والقرار بالاتجاه إلى هرمز والأخبار التي وصلته عند وصوله إلى مسقط

بعد أن نظَّم أفونسو دلبوكيرك أمور الهند على النحو الذي رأيناه وتزويد حصونها بكل ما يلزمها، وجهّز أسطولاً من ست وعشرين سفينة وعيّن عليها القباطنة التالية أسماؤهم:

- د. جارسيا دي نورونها d.garcia de noronga
- بيرو دلبوكيرك pero dalboque
- لوب فاز دي سامبايو lope vaz de sampayo
- ديوجو فرناندز diogo femandez
- إيرز دا سيلفا aires da silva
- سيماو دندريد simao dandrade
- دوارت دي ميلو duarte de melo
- فاسكو فرناندز كوتنهو vasco femandez coutinho
- انطونيو فيريرا antonio ferreiva
- فرناو جوميز دي ليموز Fernaq gomez de lemos
- انطونيو دابوزو antonio raposo
- روي جالفاو ruy galvao
- جورج دي بريتو jorge de grito

- جيرونيمو دي سوزا jeronymo de sousa
- سيلفسير كورسو silvestre corco
- مانويل داكوستا manuel da costa
- بيرو فيريرا pero ferreira
- جواَو بيريرا joao pereira
- فرناو دي ريزندي fernao de resende
- فرنسسكو بيريرا francisco pereira
- جواَو جوميز goao gomez
- جواَو دي ميرا joao de meira
- ننو ننز رابوزو nuno nunez raposo
- بيرو كورسو pero corco
- فرناوديانز ferhaodianes
- فيسنت دلبوكيرك vicente dalboquerque

وهذا الأخير كان قبطانا للسفينة نازاريث nazareth التي كان على متنها عمه أفونسو دلبوكيرك، وقد ركب الجميع سفنهم في ٢٠ فبراير، وقد اجتمع أفونسو دلبوكيرك بكل القادة والقباطنة على متن سفينته وحضر الاجتماع د. جواَو ديسا d.joao dessa قائد حصن جوا ود. سانشو دي نورونها d.sancho de noronha مسؤول العدالة والأمن، كما حضره نيكولا وفيريرا[١] nicolao fer- reiva السفير البرتغالي لدى ملك هرمز والذي كان قد وصل في وقت سابق في شهر سبتمبر [٢] من البرتغال حاملاً ردّ الملك البرتغالي عن الأمور التي عرضها عليه.

---

(١) Of his man correa gives the following notice: "Veo n"estas naos (I.e., the fleet of christovao de Brito) hum embaixador que eirey d'ormuz, e cojatar, thihao mandado por terra a Wirey com suas cartas de vassalagem, pedindo a eirey qu the confirmasse sua paz pera semper; ue pageza que dria, com condicao que nun qua thi mais pedissem outra nehuina consa. O qual messigeiro eracao homem auisado, que deu a eirey muy larga couta de todo o feito d\ ormuz, e d' outras muytos conasas da india e turquia, que eirey the fez merce e arogo d'eire se fez christao, e se chamou nicolao d ferreira: - len-dias, pp. 386, 387.
"corea gives the dat of 22nd august.

(٢) يوم ٢٢ اغسطسطى وفق ما ذكره كوريا Correa

وفي هذا الأجتماع أفضى إليهم أفونسو دلبوكيرك أنه جمع هذا الاسطول وزوّده بكل المؤن والذخائر التي أمكنه جمعها كما جنّد من أمكنه تجنيدهم وهم قرابة ألف وخمسمائة برتغالي، وسبعمائة مالاباري، وأخبرهم ان الملك دوم مانويل كان قد كتب له العامَ تلوَ العام أنه من مصلحة البرتغال دخول البحر الأحمر وبناء حصن في عدن، وأنه في هذا العام الذي هم فيه كتب له خطابا يذكّره بهذا الواجب بعينه كما عرّفه بمدى سعادته إذا استقرت الأمور في هرمز وترسّخت أقدام البرتغاليين فيها، وأنَّ لديه معلومات معينة مفادها أنّ ملك هرمز – بعد موت خوجة عطّار – قد قبل شعار cap الشاه إسماعيل وصلواته prayer (المقصود مذهبه) وهذا يعني أنه سيأتي وقت يكون فيه الشاه إسماعيل حاكماً لهذه المملكة، وأن سفير ملك هرمز نيكولاو فيريرا nicolao ferreira الذي كان حاضرا يعلم أفضل منه «واستمر أفونسو دلبوكيرك قائلا إنّه لأن الملك دوم مانويل كان قد كتب له مركّزا على هاتين المسألتين، فإنه – أي أفونسو دلبوكيرك – من جانبه يرغب أن يعلم منهم أيُّ المشروعين أكثر فائدة للبرتغال حتى ينفّذه الأسطول أنذهب إلى البحر الأحمر ونقيم حصنا في عدن أم نرسّخ أقدامنا في هرمز بحيث لا يستطيع الشاه إسماعيل الاستمرار في ترسيخ أقدامه فيها.

وبعد أن طرح أفونسو دلبوكيرك كل هذه المسائل أمام المجتمعين اختلفت الآراء فمالت بعض الآراء إلى التوجه إلى البحر الاحمر وإقامة حصن في عدن، بينما فضل الآخرون التوجه إلى هرمز لإكمال بناء الحصن الذي كان العمل قد بدأ به فعلا. ولتجنّب هذه الخلافات أراد أفونسو دلبوكيرك قبل الوصول إلى قرار نهائي بسماع رأي نيكولاو فيريرا nicolao ferreira الذي أعلن أنَّ سيّده ملك هرمز الذي كان قد أرسله كسفير له إلى ملك البرتغال قد مات وأن الحاكم الحالي لهرمز فارسي تابع للشاه إسماعيل، وأن هذا الحاكم يستعين على حكم البلاد بثمانية أو سبعة من أقاربه يأمرهم بتنفيذ ما يطلبه داخل المدينة فسيطروا عليها ويمكن أن يستولوا عليها إذا حان الوقت المناسب بقتل الملك الحاكم وتسليم مملكة هرمز للشاه إسماعيل (رغم أنهم كانوا في خدمة سيده ملك هرمز

الراحل) وإذا حدث واستولى الشاه إسماعيل على مملكة هرمز أصبح من الصعب إخراجه منها. ولما كانت الأمور على هذا النحو الخطير فإن من رأيه (نيكولاو فيريرا) أن يتجه الأسطول إلى هرمز لإقرار الأمورفيها ففي هذا ما هو أكثر فائدة لملك البرتغال.

وبعد أن أدلى نيكولاو فيريرا برأيه أعلن أفونسو دلبوكيرك أنه من جانبه لايشك أن إغلاق مضايق البحر الأحمر هو أهم إنجاز يمكن تنفيذه خلال الهند كلها (المترجم: لاحظ أنه يُعد المنطقة كلها بما فيها مضايق البحر الأحمر تابعة للهند) تم تدير السلطان الكبير (سلطان مصر المملوكي) ومعبد مكة (يقصد الكعبة المشرّفة(إذا تم بناء حصن في عدن، لكن هذا المشروع لابد من تأجيله حتى يحين وقت لا تكون فيه أمور الهند وضرورياتها غير ملحّة، فهذه الأمور تُجبر البرتغاليين على تغيير سياستهم، ولايمكن الحصول على دعْم من المملكة الأم (البرتغال) إلاّ بعد عاميْن. وبصرف النظر عن هذا فإن الشيء الذي يجعله أكثر من غيره حذرا في تنفيذ التزاماته هو المعلومات التي وصلته والتي مؤدّاها أن ملك هرمز قد قبل شعار cap الشاه إسماعيل ومذهبه (أو صيغة الأذان الخاصة به) وأن الريِّس نور الدين [1] reys nordim رئيس وزرائه فارسي بالمولد وهو رجل هَرِم طمّاع يضع ملك هرمز بين يديه كل كنوزه وممتلكاته، ولديه أبناء كثيرون، كما أنه – أي أفونسو دلبوكيرك – يلاحظ كثرة السفراء الذين يرسلهم الشاه إسماعيل باستمرار لمختلف أنحاء الهند والأمور التي بدأوا يتداولونها مع ملوك البلاد وأمرائها والهدايا التي اعتاد الشاه إرسالها اليهم، فلكل هذا ولأسباب أخرى كثيرة لن يذكرها في هذا الصدد، فمن رأيه أنه يجب عليهم التصميم على الاتجاه إلى هرمز لإقرار الأمور فيها بشكل نهائي لأنه في هذه المدينة (هرمز) (يمكنهم الحصول على أموال كثيرة تغطي تكاليف حاجاتهم الضروريّة ودفع الأجور، فإذا ما تم تنفيذ مخطّطاتنا في هرمز بنجاح فسننتهز

---

(١) كتب قبل ذلك rexnordim

كل فرصة بعد ذلك للتوغل في البحر الأحمر وتدمير أسطول السلطان المملوكي وهدم الكعبة emple of meca ولأن بقيّة القباطنة والقادة يتفقون على رأي أفونسو دلبوكيرك فقد أمر بكتابة وثيقة رسمية تفيد موافقتهم ليوقعها كل واحد منهم وبعد أن استأذن قائد جوا المدعو جوآو دستاو في الانصراف، أبحر أفونسو دلبوكيرك بكل أسطوله في اليوم التالي وهو يوم أربعاء الرّماد (أوّل أيام الصوم الكبير عند النصارى) الموافق ٢١ فبراير وفي يوم البشارة (بشارة جبريل عليه السلام لمريم بحملها بالمسيح) في شهر مارس كانوا قد أصبحوا إزاء قريات [١] curiate وهناك وجدوا أسطولا تابعاً لملك هرمز كان يجول لحراسة ساحل (؟) mautaques فلما أدرك من فيه وجود أسطولنا ابتعد في اتجاه آخر. وواصل أفونسو دلبوكيرك إبحاره إلى مسقط [٢] maccate وألقى مراسيه هناك للتزوّد بالمؤن والماء. ولما رأى أولو الأمر في مسقط أسطولنا تذكروا الدرس الذي كانوا قد تعلّموه [٣] وأقبلو بسرعة لزيارة أفونسو دلبوكيرك حاملين هدية لطيفة، فسألهم عن أخبار هرمز فأخبروه أنه منذ شهر أو شهرين قام الريّس حامد ruys hamed وهو مسلم فارسي ابن أخ الريّس نور الدين رئيس وزراء المملكة برفع راية العصيان وحاصر الحصن والقصر الملكي وسجن الملك والريس نور الدين وأبناءه، وأصبح الآن هو مالك البلاد، وقالوا إن بعض الخطابات التي وردت فعلا لميناء مسقط كانت بالفعل مختومة بختم الحاكم الجديد الذي يحتفظ في هرمز بخمسمائة فارس من الرماة بالسهام ويعاونه في الحكم اخوته الثلاثة، أما بالنسبة لأولاد إخوته وأخواته وأبناء عمه وأبناء أخواله وأقربائه فيكونون خمساً وعشرين أسرة استدعاهم من فارس ليقيموا في هرمز. ولم يرتح أفونسو دلبوكيرك لهذه الأخبار لأن أمور هرمز لم يكن من السهل تنظيمها كما كان يظن، ومما زاد من قلقه أنه كان قد كتب للملك دوم مانويل ذاكراً أنه سيقبض على زمام الأمور في هرمز ويُنهي أمرها. لقد وجد أفونسو دلبوكيرك أنه إذا لم يسارع بإنقاذ المدينة (هرمز) فإنها على وشك أن تضيع منه.

---

(١) انظر جـ ١، فصل ٢١

(٢) انظر جـ ١، الفصل ٢٢

(٣) انظر جـ ١، الفصل ٢٣

الفصل الواحد والثلاثون

إبحار أفونسو دلبوكيرك من مسقط إلى هرمز والرسائل التي أرسلها لملكها، وماجرى بعد ذلك

بعد أن علم أفونسو دلبوكيرك من ولاة الأمر في مسقط بكل مجريات الأمور في هرمز كما أسلفنا أمر بإعطائهم بعض قطع القماش التي جلبها معه وتزوّد بالماء والمؤمن ومن ثمّ استأذنهم وأبحر مباشرة إلى هرمز دون أن يتوقف في أي مكان آخر. وعند وصوله إليها أمر بإطلاق كل مدافعه تحيّة للمدينة. وغدا الريّس حامد حذرا لرؤيته سفن الأسطول وما فوق متونها من جنود فأرسل فورا حاكم علي HADEM ALE للقيام بزيارة رسمية – نيابة عن الملك – حاملاً معه هديّة من مؤمن، وكان بصحبة حاكم علي هذا ميجويل فيريرا MIGUEL FER-REERA الذي كان أفونسو دلبوكيرك قد أرسله في وقت سابق إلى الشاه إسماعيل كما سبق وبيّنت. وكان ميجويل هذا قد مكث في هرمز لعدّة أيام وكذلك سفير الشاه إسماعيل الذي كان بصحبته، وكانا في انتظار طقس مواتٍ ليبحرا إلى الهند. وبعد أن قدّم ميجويل فيريرا لأفونسو دلبوكيرك تقريرا مفصّلاً عن رحلته سأله هذا الأخير عن مجريات الأمور في هرمز، فأجاب بما يؤيّد رواية ولاة الأمر في مسقط وأن الريّس حامد REYS HAMED بمجرد أن رأى سفن الأسطول البرتغالي في الميناء قام بإعطاء الملك قدراً أكبر من الحرية وأفرج عن الريس نور الدين وأبنائه، وأنه منذ أيام قليلة خلت وصل إبراهيم بك ABRAHIM BEQUE أحد القادة المهّمين للشاه إسماعيل ومعه ستة رجال أو سبعة في خدمته وترك خيوله وبقية المجموعة المرافقة له على البر المواجه، وعند

سؤال سفير الشاه إسماعيل عن سبب وصول هذا القائد إلى هرمز أعلن أن ذلك بهدف أن يُرسل من ميناء هرمز مبعوثا بعشرين حصاناً وبعض الخطابات لملك كمبي.

واستوعب أفونسو دلبوكيرك معنى وصول إبراهيم بك المدّبر ومعناه الماكر، فلم ينظر إلى الأمر بعدم اكتراث، فهو قائد مجرِّب ولم يغب عن باله ما يجب عمله فأرسل إلى الأمر سريّة بفرض حراسة حول الجزيرة بالقوادس والسفن الشراعية التي للواحدة منها شراعان حتى لا يدخل أيّ غريب إلى الجزيرة، وطلب من ميجويل فيريرا MIGUEL FERREIRA أن يعود إلى الساحل ويمكث مع سفير الشاه إسماعيل حتى يُرسل - أي أفونسو دلبوكيرك - بما يجب عمله. وبعد أن صرف ميجويل فيريرا استدعى حاكم علي HAKEM ALE وأرسله ومعه دوارث فاز DUARTE VAZ خادم ملك البرتغال الذي يتقن لغة أهل البلاد جيدا وحّملهما رسالة إلى الملك وإلى الريّس نور الدين ولم يرد فيها ذكر للريّس حامد. والتقى دوارت فاز بالملك وقال له إنه باسم أفونسو دلبوكيرك يخبره أن السفير الذي كان أخوه الملك سيف الدين قد أرسله لملك البرتغال موجود الآن مع البرتغاليين ومعه خطابات وإجابة عن رسالته (رسالة أخيه الملك الراحل سيف الدين) لكن لأن هذا السفير قد عاد إلى مسيحيّته التي نشأ عليها وأنه عند عودته وجد أن سيف الدين (ملك هرمز الراحل) وخوجة عطّار قد ماتا، وكانا هما اللّذين أرسلاه فإنه خشي أن يأتي إلى برّ هرمز إلاّ إذا أرسل ملك هرمز الحالي ابن الريس نور الدين أو ابن أخيه ليكون رهينة لدى البرتغاليين فليرسل إذن الرهينة حتى يرسل إليه سفيره حاملا الرسالة التي أؤتمن عليها، وإنه - أي أفونسو دلبوكيرك - يعتذر له عن طلبه رهينة لأن ملك البرتغال هو الذي أمره بهذا، وأيضا فإنه - أي أفونسو دلبوكيرك - تجنباً للمتاعب أمر بإحكام المراقبة حول الجزيرة، حتى لا تدخل أية قوّات عسكرية إليها ومن ثمّ فهو - أفونسو دلبوكيرك - أعلن هذه الحقيقة عن طريق منادٍ يُعلم الناس بذلك لأن أيّ عسكري FIGHTING MAN سيكون موجوداً في هرمز بدون إذن

سيتم قطع عنقه، وكل هذا لصالح البلاد وهدوئها، أمّا بالنسبة للأمور الأخرى التي يجب مناقشتها معه فإنه سيُرسل بشأنها بعد أن يتسلم (أي ملك هرمز) الرسالة التي أحضرها له السفير من سيّده ملك البرتغال.

وأجاب ملك هرمز قائلا لدوارت فاز DUARTE VAZ إنه مبتهج كثيرا لعودة سفيره من عند ملك البرتغال أما بالنسبة لردّته عن الإسلام ودخوله المسيحية دون إذن منه فلن يُبدي في ذلك رأيا حتى يتشاور مع أفراد حكومته، لكنه سيرسل لهم - دون تأخير - ما يتقرّر بهذا الشأن، وفي اليوم التالي أرسل شابا من أبناء الريّس نور الدين كرهينة فأرسل أفونسو دلبوكيرك، نيكولاو فيريرا مع جمع مهيب، وجعل بصحبته بيرو دالبوم PERO DALPOEM المسؤول في حكومة الهند البرتغالية، والمترجم اسكندر دي أتيد AL-EXANDER DE ATAIDE، وفي أثناء ذهاب نيكولاو فيريرا مصحوبا بموكبه هذا لتسليم ملك هرمز الخطابات والإجابة عن الأمور التي أرسله من أجلها سأل أفونسو دلبوكيرك الشاّب الرهينة عن أمور الريّس حامد لكن هذا الصبي كان مكتئبا مرعوبا فلم ينطق بكلمة فلما رآه مضطربا على هذا النحو لم يسأله عن شي آخر وإنما أعاده بمجرد عودة نيكولاو فيريرا.

وبعد أن روي بيرو دلبوم ونيكولاو فيريرا لأفونسو دلبوكيرك كلّ ما جرى سألهما عن الريّس حامد أي نوع من الرجال هو؟.

فقالا إنه رجل وسيم في زهاء الثلاثين من عمره ذو حضور نبيل وقوام متين وعاقل متدبّر ومُحب للأمور العسكرية وهو يقف وإنما - كما قالا - بالقرب القريب من كرسي الملك حاملا سيفا قصيرا ويده على خنجره وأن الملك لايجيب بأكثر مما يمليه عليه هذا الشاب. لقد أدرك أفونسو دلبوكيرك أن الريّس حامد مُصمم على الدفاع عن الجزيرة فأمر كل القباطنة والقادة بالاجتماع في سفينته وقال لهم إنه مادام ملك هرمز - كما يظهر من الخطاب الذي كتبه الملك د. مانويل - قد رأى تصميمه على الشروع في العمل فورا لإقرار الأمور في هرمز، بينما هم حتى الآن يأخذون الأمور ببساطة، فإنه يريد الآن منهم أن يخبروه كيف وبأي طريقة يتصرّف مع الملك. وبعد مناقشة هذا الجانب أو ذاك من

الموضوع لبعض الوقت أعلن أخيراً د. جارسيا باسم الجميع إنه لا حاجة في الحقيقة لقول المزيد في هذا الموضوع فما دام الحصن الذي كان العمل قد بدأ فيه مازال خاضعا للشروط نفسها وللاتفاق نفسه، ومادام أنه ليس في المدينة كلها أي موضع آخر أكثر ملاءمة لبناء الحصن وأكثر فائدة لمصالح ملك البرتغال فلابد من السماح باستكماله (أي الحصن) بدلاً من الدخول في مشروعات جديدة تستغرق وقتاً أطول لإنجازها، وعلى هذا فلابد من الارسال إلى الملك أن يقدم مكانا للإقامة في المدينة حتى يقيم فيه البرتغاليون الذين سيُتركون في البلاد للإشراف على العمال الذين سيتم اختيارهم لإنجاز العمل.

واتفق القادة والقباطنة على ذلك فأرسل أفونسو دلبوكيرك كلاً من ديوجو فرناندز دي بيجا، وبيرو دالبوم، واسكندر دي أتيد المترجم ليخبروا الملك أن أفونسو دلبوكيرك سيكون سعيدا للتباحث مع أفراد حكومته لترتيب بعض الأمور التي ستعود بالفائدة عليه لذا فهو يرجوه أن يتكرّم بإرسال أفراد حكومته للتباحث معه حاملاً معهم نص الأتفاق الذي سبق إبرامه مع سلفه الملك سيف الدين وخوجة عطار لأنه – أي أفونسو دلبوكيرك – يريد الوقوف إلى جانبه وعندما وصلت الرسالة إلى الملك أجاب الريس نور الدين باسم الملك – لان الريس حامد كان يأبى أن يدخل في أي حوار مع أفونسو دلبوكيرك، وكان يأنف من تلقّي رسائل منه – وأفادت رسالة نور الدين هذه أن ملك هرمز يعد نفسه كما كان دائما ابناً لملك البرتغال وأن مدينة هرمز وكل مملكتها ملكه وأنه مستعد لعمل كل ما يُطلب منه لكنه من الضروري إبلاغ أفراد حكومته بهذه السياسة التي سينفذها في هذه الليلة نفسها. وفي صباح الغد سيُرسل الإجابة لأفونسو دلبوكيرك. فلما أشرق الصبح أقبل حاكم علي hakem ALe إلى سفينة أفونسو دلبوكيرك وقال له في حضور كل القباطنة أن الملك قد ناقش مع أفراد حكومته بشأن الإجابة عما طلبة البرتغاليون، والحقيقة فإنه – أي ملك هرمز – يريد أن يقدّم لهم أقصى ما يستطيع من خدمات وخاصة أن ملك البرتغال هو الذي أمره بذلك، وأنه – أي ملك هرمز – على وعي بأن طلب تسليم الحصن

الذي أصبح الآن جزءا من القصور الملكية - أمر ملزم له على وفق الاتفاقية المعقودة مع البرتغاليين، ومع هذا فإنه يرجو أفونسو دلبوكيرك أن يتكرّم ويتخلّى عن هذا الحصن، وهو - أي ملك هرمز - سيقدم له أي موقع آخر يختارة لبناء حصن جديد ولاضرورة بذلك إلى كتابة اتفاق رسمي جديد.

وبعد أن تداول أفونسو دلبوكيرك والقادة والقباطنة، حول هذا الأمر، وافقوا على التخلي عن المطالبة بالحصن، شريطة أن يقدّم لهم الملك رهينتين من ابناء الرّيس نور الدين ضمانا لتنفيذ وعوده، وأرسل أفونسو دلبوكيرك بذلك الرد إلى الملك عن طريق بيرو دلبوم pero dalpoem ومانويل داكوستا manoel da costa والمترجم اسكندر دبي أتيد alexaner de ataide الذي يرافق دائما حاملي الرسائل. فأجاب الملك أنه قبل الاستجابة لطلب تقديم الرهينتيْن من الضروري أولا معرفة الموقع الذي سيختاره لبناء الحصن الجديد وأتى معهم حاكم على ليعرف نوايا أفونسو دلبوكيرك الذي قال - وهو غاضب بعض الشيء - أن يخبرا الملك أنه لا يستطيع أن يفهم طريقهم في إدارة الأعمال، فما داموا -أي الملك وأفراد حكومته - سبق وأرسلوا قائلين انه إذا ظلّ الحصن ضمن ممتلكات ملك هرمز فإنهم سيقدمون إلى البرتغاليين أيّ موقع آخر يختاره، والآن فإنه بعد أن طلب رهينتين لتنفيذ هذا الشرط يقولون إنه لابد أولاً من تحديد موقع الحصن الجديد ثم بعد ذلك يسلمون الرهينتين. إذن لابدُ أن يعلم ملك هرمز أنه - أي أفونسو دلبوكيرك - قد اتفق مع أخيه الملك الراحل ورئيس وزرائه خوجة عطّار، وهو - أي أفونسو دلبوكيرك. سيتمسك بهذا الاتفاق (العقد)، وليأت الريّس نور الدين لمناقشة الأمر معهم وليحضر نص العقد السّابق إبرامه لأنه ينوي وضعه موضع التنفيذ، فهو - أي أفونسو دلبوكيرك - لا يطلب منه منازله ولا مسجده وإنما يطلب منه الحصن البرتغالي الذي كان العمل قد بدأ فيه على حساب سيده ملك البرتغال، وليكن - أي ملك هرمز - متأكدا أنه إذا لم يتم تسليم الحصن فإنه - أي أفونسو دلبوكيرك - وكل القادة والقباطنة الذين معه مستعدون للتضحية بحياتهم.

الفصل الثاني والثلاثون

ملك هرمـــز يـرسل الـريّس نـور الديـن لإجراء محادثات مع أفونسو دلبوكيرك الكبيـر بشان تسليم الحصن ومـا جرى في خلال المحادثات

وصل حاكم علي إلى الملك وسرد عليه وعلى أفراد حكومته كل ما جرى مع أفونسو دلبوكيرك فاندهشوا جميعا عندما أدركوا تصميم البرتغاليين. فأعاد الملك بسرعة حاكم علي مرّة أخرى برسالة يرجو فيها أفونسو دلبوكيرك ألاّ يغضب لأنه سيرسل إليه رئيس وزرائه الريس نور الدين بسرعة للتشاور معه وسيوافق – أي ملك هرمز – على كل رغبات سيادته، لكن الريّس نور الدين رجل كبير السن ومريض بالنقرس وسيكون غير قادر على الصعود إلى السفينة لذا فهو يرجوه أن يتكرّم ويأتي إلى الشاطىء ليلتقي به في قادس، وأن يُرسل بعض الرهائن من البرتغاليين لحين عودته.

وعلى ذلك ففي صباح اليوم التالي ركب أفونسو دلبوكيرك قادساً كبيرا، وصحب القبطان سيلفستر كورسو silvestre corco وكل القباطنة ليكونوا إزاء السّاحل، وأمر كلاً من لوبو فاز دي سامبايو lopo vaz de sampayo وسيماو دي أندريد simao de andrede وإيرز دا سيلفا aires da silva وبيرو دلبوكيرك pero dalboquerque ودوارت دي ميلو duatre de melo وفاسكو فرناندز كوتنهو vasco fernandez أن يستقلّوا قواربهم إلى الشاطىء لنقل الريّس نور الدين إلى القادس وأن يأخذوا معهم ديوجو فرناندز دي بيجا diogo fernandez de beja الذي كان قد تقرر تقديمه كرهينة. فلما وصل القبطان إلى الساحل سلّم الرهينة (ديوجو فرناندز دي بيجا) لقائد ملك هرمز وركب الريّس نور الدين

القارب الذي كان به لوبو فاز دي سامبايو lopo vaz de sampayo وكان مع الريس نور الدين الريس مظفرٌ أخو الريس حامد، وخادمْين من خدم الريس نور الدين واتجهوا جميعا إلى القادس الذي به أفونسو دلبوكيرك الذي ما إن رأى الريس نور الدين حتى عانقه وأظهر له كثيرا من مشاعر الود، وبعد أن جلسا تناقشا لفترة قصيرة حول الأمور التي جرت في المناسبة الأولى لزيارته لهرمز.

وبعد أن انتهى الحديث في هذا الموضوع سأله الريّس نور الدين أثمة ضرورة لإقرار ملك هرمز لما يجري بينهما من مفاوضات؟، فأجاب أفونسو دلبوكيرك مؤكدا ضرورة ذلك وأضاف أن ملك هرمز لابد أن يكون في طاعة سيده ملك البرتغال أيضاً وأن يكون مرتبطا بالمعاهدة التي أبرمها. فقال الريس نور الدين إن الملك الذي يعدّه - أي يعدّه أفونسو دلبوكيرك، والداً له كما كان يعده دائما قد أرسل رسالة في وقت سابق يطلب منه فيها التخلّي عن ذلك المبنى الذي سبق وأقامه بالقرب من القصر، لكنه عاد فاستجاب لطلبه تقديراً له، ونظراً لأن إقامة حصن جديد سيتطلب تدبير مزيد من المواد الجديدة لبنائه مما يشكل عبئا وبخاصة أن هذه المواد لايمكن جمعها في وقت قصير كما يرغب لذا فملك هرمز يسّره أن يسلّمه حصنه الذي كان قد بدأ العمل فيه ليتم إكماله قريبا، فهرمز وكل مملكتها تابعة لملك البرتغال. لقد توصل الطرفان إلى هذا الاتفاق بوسائل دبلوماسية لأن الريّس نور الدين كان يخشى من مطالبة أفونسو دلبوكيرك بالمستشفى وهي مبنى يحظى بتوقير شديد بينهم، لذا فقد فضّل - أي الريس نور الدين - تسليمه حصنه القديم عن تقديم الرهينتين. كما أن أفونسو دلبوكيرك - على النحو نفسه - كان قد طلب المستشفى لإجبارهم على تسليم الحصن، لأن المستشفى تقع في أفضل موقع في المدينة وتُطل على مَرْفأين رئيسيَّيْن أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب. وبعد أن اتفق الطرفان حول هذه المسألة قال له الريس نور الدين إن ملك البرتغال ذكر في خطاباته التي جلبها مبعوث ملك هرمز إليه أنه قد فوّض كل الأمور للقائد البرتغالي (أي أفونسو دلبوكيرك) لذا فهو - الريس نور الدين - يرجوه أن يتكرّم - كما هو

دأبه – أن يُقسم باسم ملك البرتغال على الحفاظ على الاتفاق المبرم بينهما وأنه – أي الريس نور الدين – سيقسم بدوره باسم ملك هرمز على الحفاظ على هذا الاتفاق، ومن ثمّ وضع أفونسو دلبوكيرك يده على الأناجيل book وأقسم بتنفيذ كل ما ورد في الاتفاق، وأخرج الريس نور الدين من صدره مصحفا شريفا an-other book صغير الحجم مكتوبا بالحروف العربية ومذّهب الأطراف وأقسم أن يظل دائما مطيعاً لملك البرتغال وأفراد حكومته.

وبعد أن أقسم كل واحد منهما أمر أفونسو دلبوكيرك بإهداء الريس نور الدين عباءة من قماش مقصب cabaia بأزرار من ذهب ومِرَشّة ذات خرزات كبيرات من ذهب، وإهداء الريس مظفر عباءة أخرى من ساتان أحمر بأزرار من ذهب، وأرسل عن طريق نيكولاو فيريرا nicolao ferreira إلى الملك سواراً غاليا من ذهب ومُزَخْرف طالبا منه ألاّ يرد هذه الهدية القيمة التي هو جدير بها حقاً، ومنح حاكم على خمسين كروزادو، وخمسة أذْرع covados من قماش قرمزي، وطلب من الريس نور الدين أن يُعرّف الملك بضرورة أن يتكرّم بإصدار الأوامر بإغلاق باب الحصن الذي يُفْضي إلى القصر الملكي بسرعة وأن يفتح فيه بابا آخر يؤدي إلى السّاحل، وأن يمنحه مقراً لإقامة رجاله في المدينة حتى يتم بناء الحصن، وكتعبير عن الصداقة والسلام بين الطرفين، فليأمر برفع العلم البرتغالي ليرفرف فوق القصر، وسلّم أفونسو دلبوكيرك الريّسَ نور الدين العلم في التو واللحظة، وذلك حتى يعلم الجميع أن ملك هرمز في طاعة ملك البرتغال.

وقال الرّيس نور الدين إنه سيتم تنفيذ كل رغباته وطلب منه حق المرور الآمن حتى يتمكن المسلمون من جلب المؤن والبضائع من البر الرئيسي، فوافق أفونسو دلبوكيرك شريطة ألاّ يدخل المدينة أحد من العسكر فإن حدث هذا فلن يُعفي أحداً من هؤلاء العسكر من القتل وقبل أن يستأذن الريس نور الدين في الانصراف كان أفونسو دلبوكيرك راغبا في السؤال عن أمور الريّس حامد وإلى أي مدى سار في مؤامرته لكن الفرصة لم تكن سانحة لوجود الريّس مظفر الذي لن يسمح له بالحديث مع أفونسو دلبوكيرك على انفراد. ومن ثمّ عاد

الريّس نور الدين إلى الشاطىء مصحوبا بكل القادة والقباطنة البرتغاليين تماما كما كان الحال وقت قُدومه وعاد ديوجو فرناندز (الرهينة) إلى السفن البرتغالية، وسارع الملك بالأمر برفع العلم البرتغالي على أعلى برج من أبراج قصره، فتم اطلاق كل مدافع السفن البرتغالية تحية للعلَم.

وبعد أن انتهى الريس نور الدين من ذكر كل ما جرى مع أفونسو دلبوكيرك لملك هرمز، أمر هذا الأخير بسد الباب الذي يصل بين القصر والحصن ويفتح الآخر المفضي إلى الشاطئ وما إن تم ذلك حتى سارع بالإرسال إلى أفونسو دلبوكيرك يخبره أن باب الحصن غدا مفتوحاً الآن ويمكنه وضع يده عليها متى شاء، فأمر أفونسو دلبوكيرك د. ألفارو دي كاسترو d. alvaro de castro ولوبو دي أزيفيرو lope de azevedoمع جماعة مدربه على حمل السلاح من أهل الهند بتملّك الحصن وحدث هذا يوم الأحد وهو آخر أيام شهر مارس سنة ١٥١٥ وهو (أحد السّعف) [١] palm sunday، فانطلقت المدافع بالتحية وغمر الفرحُ البرتغاليين. وعندما هبط الليل اصطحب أفونسو دلبوكيرك، ابن اخته د. جارسيا وعددا من القادة والقباطنة لتفقد الحصن، وعند بوّابته خرّ على ركبتيه راكعا وراح يذرف الدموع مدراراً شاكرا ربه أن أعاد إليه بيته دون حرب وبدون أن يضحي بأحد من رجاله وفي اليوم التالي أمرهم بإقامة أسيجة من أعمدة وأعواد، يُسد ما بينها بالطين على طول الشاطىء وأن ينصبوا بينها مدافع، وأقام خلال هذه الأسيجة بعض الأكواخ الخشبية حتى يحتمي بها المدفعيّون والعمال والجنود. وبعد إتمام ذلك بعد إيام قليلة أتى أفونسو دلبوكيرك وأقام في هذا الموضع [٢] الذي اكتمل نصف بنائه وأمر بأن يقيم الجنود الآنف ذكرهم في المستشفى.

---

(١) أحد السّعف في أول ابريل سنة ١٥١٥
(٢) Torre de menagem

الفصل الثالث والثلاثون

كـــيف أرسل الريس نور الدين – عن طريق المترجم اسكندر دي اتيد – بسَرْدِ لمؤامرة الريس حـامد، وما جرى بعد ذلك

بعد أن جرى الاتفاق الآنف ذكره في الفصل السابق وعودة الريس نور الدين إلى بلاط ملك هرمز، أرسل له أفونسو دلبوكيرك عن طريق المترجم اسكندر دي أتيد قائلا إنه يعرف أن الريّس حامد – ابن أخيه – قد استولى بالفعل على القصر الملكي وكل ما فيه من كنوز ونفائس وأموال بل وأسر الملك نفسه، لذا فهو يرجوه أن يُرسل له – سراً – عن حقيقة الأمر. ورغم أن الريس نور الدين لم يجرؤ على فتح فمه خوفا من ابن أخيه (الريس حامد) إلاّ أنه خشي أن يفقد كرامته إن هو لم يجب عن اسئلة أفونسو دلبوكيرك بهذا الشأن فأرسل له يقول: إنه بعد موت الملك سيف الدين قام بتنصيب الملك الموجود حاليا في الحُكْم، ولرغبته في تأمين مُلكه عيّن ابن أخيه الريس حامد وأخويه كمشرفين على كل القصر من بوّاباته حتى مواضعه الداخلية، ولأنه – أي الريس نور الدين ظلّ كما هو رئيسا chief للأسرة المالكة للملك الراحل بعد موت خوجة عطار، فقد أخذ على عاتقه تسيير أمور الحكومة لأن الملك الجديد صغير السن، وبعد عام واحد من ممارسته لسلطته، راح الريس حامد يرجو الملك أن يُوكل إليه أمور الحكومة كي يجعله يشغل منصب خوجة عطار المتوفّى وأن يسلمه منازله التي اعتاد شغلها، وقد رفض الملك طلبه عدّة مرّات وأمره أن يصرف نظره عن هذا الطلب وأن يستعد ببعض قوارب المراقبة atalaias لأنه – أي ملك هرمز – ينوي إرساله

كقائد لها ضد الـ (؟) noutaques، ودفع الملك لأفراد طاقم القوارب التي معه أجور شهر مقدما لكن الريس حامد بعد أن أبحر عاد وقد ملأه الفخر أكثر من ذي قبل إلى قصر الملك، وذات ليلة ممطرة دخل القصر بمن معه من أفراد طاقم القوارب وتستَّر أخواه اللّذان كانا يقيمان في بعض غرف القصر على دخوله، وتوغل في القصر حتى وصل إلى غرفة نوم الملك الذي كان نائما مع زوجته، وأمسك به بيده، وسحب خنجرة ورفع صوته قائلا له ما إذا كان يعرف الآن – أي ملك هرمز – أنه – الريس حامد – قادر على قتله.

وخشي ملك هرمز على حياته وانطرح على قدمي الريس حامد متوسّلا إليه ألاّ يقتله وأنه سيفعل ما يريد، ومن يومها استولى الريس حامد على السلطة كلها، وعلى أموال القصر وخزائنه وأعانه أخواه على ذلك، فهو يسيطر تماما عليهما وعلى أبنائهما، وفي يوم وصول أفونسو دلبوكيرك بأسطوله أطلق الريس حامد سراح الملك والحق إنه – أي الريس نور الدين – لم يكن يستطيع مقاومة الريس حامد لأنه كان طريح الفراش وقد داهمه مرض النقرس. وذكر أن الريس حامد ما إن أخضع الملك لسلطانه لم يدعه يذهب وإنما جعله كسجين ولم يسمح له حتى بالحديث مع أيّ أحد في غير حضوره فحاقت بالملك الأسير الحسرة ولم يكن يستطيع أن يعطي لأي شخص أي شيء سوى من ماله الخاص فقد استولى الريس حامد على مفاتيح كل خزائنه ولم يسمح له سوى بمئة أشرفي xerafins في العام، وراح ينفق هو (أي الريس حامد) باقي الأموال كما يحلو له، وبذا أصبح الريس حامد هو الملك الحقيقي وأصبح الملك وليس من ملكه شيئا، وأصبح هو نفسه (الريس نور الدين) خارج السلطة.

وما إن علم أفونسو دلبوكيرك بهذه الأخبار من اسكندر دي أتيد alexandre de ataide حتى أصبح قلقاً (لانه كان قد ترك الريس نور الدين يعمل بالتنسيق مع الملك الراحل) لذا فإنه سرعان ما أعاد مبعوثه وأمره أن يُعلن للملك أن سفير الشاه إسماعيل كان قد أرسل له ليبدي رغبته في زيارته (أي زيارة أفونسو دلبوكيرك) لكنه قبل أن يلتقي به لابد من أن يتحدث (أي أفونسو دلبوكيرك) مع الريّس نور الدين، لذا فليتكرم ويأتي إلى الحصن للتباحث معه، وأمر أفونسو

دلبوكيرك كلا من أنطونيو رابوزا antonio raposo وننو مارتينز رابوزو nuno martinz raposo والسكثير وبيرو دلبوم per dalpoem إلى الذهاب وإحضاره (احضار الريس نور الدين) فحضر وبصحبته كل التجار وذوي الحيثية في البلاد وحضر بصحبته الريس مظفر reys mudafar أخو الريس حامد.

رحب أفونسو دلبوكيرك بهم جميعا وجعل كل واحد منهم يقْسم أنه سيكون دوما تابعا مخلصا لملك هرمز حتى لو أدى الأمر إلى التضحية بمنصبه وحياته، وجعلهم يُقسمون ألا يعترفوا أيضاً بأي رئيس وزراء للملك والملكة سوى بالريس نور الدين الذي تسلّم هذا المنصب من الملك الراحل، وقال انه من ناحيته أيضا سيقسم (أي الريس نور الدين) أنه سيحكم بينهم بالعدل وأن يحمي الملك من أعدائه، وقد جعل الريس مظفر يُقسم القسم نفسه وألاّ يُطيع الاّ أوامر الملك ولا أحد سواه إلاّ الريس نور الدين، وحاول الريس مظفر التملّص من هذا القسم لكنه في خاتمة المطاف نفّذ ما طلبه أفونسو دلبوكيرك وأقْسم.

وبعد أن تم هذا استأذن الريس نور الدين لكن قبل مغادرته انتحى به أفونسو دلبوكيرك جانبا في آخر غرفة الاجتماع، ومعهما المترجم اسكندر دي أتيد فكرّر عليه الريس نور الدين ما سبق أن أرسله له، ورجاه أن يحترم شيبته وألاّ يسمح بتعريضه لقلّة القيمة في أواخر أيامه فقد كان دائما تابعاً مخلصاً لسيده الملك سيف الدين (الملك الراحل) وهو الآن تابع مخلص لملك هرمز الحالي، فطمأنه أفونسو دلبوكيرك لأنه سيطرد قريبا جدا الريس حامد من هرمز ليعود الملك حرا مرّة أخرى، وأنه هو نفسه (الريس نور الدين) سيتمتع بالكرامة التي كان ولايزال يتمتع بها دائما.

الفصل الرابع والثلاثون

سفير الشاه إسماعيل يزور أفونسو دلبوكيرك وكيف استقبله، وما جرى بعد ذلك

بعد أن ترسّخت قدما أفونسو دلبوكيرك بشكل جيد في حصننا أرسل إليه سفير الشاه إسماعيل عن طريق ميجويل فيريرا miguel ferreira برغبته في زيارته لتسليمه رسالة وردت من سيّده الشاه. فأجاب أفونسو دلبوكيرك بأنّه لا يستطيع استقباله هذا اليوم لانشغاله ويمكنه أنْ يأتي في الغد في أي وقت، ومن ثم أصدر أوامرَ سريعة بأن يُجهّزوا أمام بوّابة الحصن التي تؤدي مباشرة إلى الشارع الرئيسي في المدينة منصّة كبيرة من خشب يتم ارتقاؤها بعد صعود ثلاث درجات وأن تُغطّي كلها بالسجاد وتحلّى دائريا بالأقمشة وأن يوضع عليها ظلّة من قماش مقصّب وأن يُوضع عليها بعض الوسائد من قطيفة خضراء وكرسيان لهما اللون نفسه على أن يحلّيا بالذهب.

وأمر قادةَ الفرق المدرّبة بالاستعداد برجالهم وأسلحتهم وأن يكونوا في نظام دقيق (وكان عددهم زهاء ستمائه رجل) وأمر رجال البنادق ورماة السهام بالاصطفاف على طول الساحل وأمر كلَّ الجنود الآخرين بحمل رماحهم والاصطفاف في أقرب موضع للمنصّة بطريقة يُتيحون فيها ممرًا طويلا، وبالإضافة إلى هذا كانت هناك تشكيلات أخرى، وكل جماهير هرمز – لقد كان منظراً مدهشا وأمَر كلَّ القادة والقباطنة وذوي الرتب وخدم الملك أن يكونوا فوق

المنصّة مع أفونسو دلبوكيرك وقد أتّخذوا زينتهم ومع كل واحد منهم تابعه الذي يحمل سلاحه.

وَمَا إنْ تمَّ ترتيبُ الأمرِ على هذا النحو حتى أرسل أفونسو دلبوكيرك في اليوم التالي – بعد أن تناول الجميع طعام الإفطار – ابن أخته د. جارسيا دي نورونها بكل القباطنة والقادة وذوي الرتب وحاملي ألقاب الفروسّية للتوجه إلى سفير الشاه إسماعيل واحضاره.

وكان ملك هرمز واقفاً يطالع المشهد من نافذته المطلة على البحر ومعه ولاة الأمر في مملكته ويتأمل طقوس النصر. وعندما وصل د. جارسيا لمكان إقامة سفير الشاه إسماعيل حياه بحرارة تحية تليق بسفير ملك عظيم وسار الموكب كالتالي في مقدمة الركب فارسان مسلمان، ثم مدرّبو النمور ومع كل واحد نَمِرُه panther مُقيدا في سير جلدي، وبعد ذلك ستة خيول في صف واحد عليها سروج غالية بهيّة، وأطقم رؤوسها من صلب، وعليها دروع جانبية مغطاة بأقمشة مزركشة، ووراءها اثنا عشر فارسا مسلما وقد ارتدوا ملابس فاخرة حاملين حليا ذهبية وقطعاً من أقمشة حريرية ومقصّبة في طُسُوت من فضة، ووراءهم مباشرة عازفو الأبواق التابعون لأفونسو دلبوكيرك والقارعون على الطبول، وبعد ذلك كل القباطنة والقادة وذوي الرُّتب على وفق رتبهم في صفّين، وأخيرا يأتي د. جارسيا ومعه سفير الشاه إسماعيل، ووصلا إلى حيث كان أفونسو دلبوكيرك في انتظارهم.

وحالما وصل السفير إلى الحصن، أطلق أسطولُنا المزدان كله بالأعلام كل مدافعه تحية له فبدا وكأن العالم كله يُطلق مدافعه وعندما وصل السفير إلى الدرج الأخير للمنصّة قام أفونسو دلبوكيرك من فوق كرسيّه وتقدم خطوتين أو ثلاث فحيّاه السفير بحرارة على وفق عادتهم وسلّمه خطابا من الشاه إسماعيل لملك البرتغال فتسلمه أفونسو دلبوكيرك وغطاء رأسه cap في يده، وظل هكذا حاسر الرأس طوال إمساكه بالخطاب، وسلّمه في المقابل خطابا له ناوله أفونسو دلبوكيرك للسكرتير بيرو دالبوم pero dalpoem الذي كان واقفاً بجواره، وبعد

تسليم الخطابات والتفوّه ببعض الكلمات أهداه الهدية التي أحضرها والتي لن أتحدث عنها هنا فقد سبق في مقام آخر أن ذكرتها.

وتلقّى أفونسو دلبوكيرك الهديّة بتقدير ورضا كبيرين وبعد أنْ أصدر أوامره بجمعها معا راح يحاور السفير فترة قصيرة سائلاً إياه عن الشاه إسماعيل وحاله ومحل إقامته، كما سأله عن أحواله هو (أي أحوال السفير) وكيف تحمّل مشاق الرحلة.

ولما انتهت المقابلة طلب منه أفونسو دلبوكيرك أن يذهب ليستريح وسوف يتحدث معه أكثر في يوم قادم، فاصطحبه د.جارسيا عائداً به إلى منزله بالموكب نفسه وبالطريقة نفسها التي تمّ استقباله بها وأمر أفونسو دلبوكيرك بإكرام وفادته هو ومن معه وتزويدهم بما يطلبونه.

وبعد يومين أمر أفونسو دلبوكيرك بإحضاره وفي الحوار الذي جرى بينهما عبّر عن رغبة الشاه إسماعيل في توثيق عُرى الصداقة مع ملك البرتغال ويشكره على كرم الضيافة والمعاملة الطيبة التي يتلقاها سفراؤه من البرتغاليين في الهند عارضا عليه أماكن بعينها certain places في مملكته إن كان يسرّه قبولها، وأنّه يود أنْ يجعله سيّدا lord (حاكما) لهذه المواضع لشهرته العظيمة التي وصلت إليه (أي إلى الشاه إسماعيل).

وعندما انتهت هذه المقابلة طرح السفير أمامه أربع مسائل منصوص عليها في التعليمات الموجّهة له (للسفير).

المسألة الأولى: أن العوائد المالية المفروضة على البضائع القادمة من فارس إلى هرمز إنما هي من حق الشاه إسماعيل.

المسألة الثانية: أن المنطقة الساحلية الواقعة بين البحرين [1] والقطيف[2] يجب أن تكون مخصصة لسفنه العابرة من فارس إلى سواحل شبه الجزيرة العربية.

---

(١) انظر حواشي الفصل ٢٥

(٢) القطيف، على ساحل شبه الجزيرة العربية، وهى مدينة مهمة الآن، على بعد تسعة أميال ونصف شمال غرب رأس تنورة وتوجد مئذنة بارتفاع يتراوح بين ثمانين ومئة قدم في الجزء الجنوبي من الحصن استخدمت للمراقبة آنذاك، ويُقال إن مبنى الجمارك الواقع جنوب الركن الشمالي الغربي بناها البرتغاليون كما يدعون ذلك والى جوار القطيف موارد مائية كثيرة
Persiqn Gulf Pilot , 1870 , P.123.

المسألة الثالثة: أن يساعد أفونسو دلبوكيرك بأسطوله الشاه اسماعيل للاستيلاء على جوادر [١] guardare لأن ملك مكران [٢] macaram التابع له قد رفع راية العصيان واستولى عليها.

وجزيرة جواردار ** guardare هذه تقع بين ديوليسند[٣] diolicinde وبلاد جاسك[٤] jasque التي تشكل جزءاً من مملكة هرمز حيث يلجأ إليها الـ (؟) nautaquesمعظم أوقات السنة ومنها ينقضّون على السفن المتجهة إلى هرمز.

المسألة الرابعة للشاه ضرورة أن يكون للشاه إسماعيل مرفأ في الهند حتى يتمكن التجار الفُرس من الاتجار ببضائعهم ويطلب إذننا لانشاء محطة تجارية فارسية في هرمز.

وبعد أن طرح السفير هذه المسائل أجاب أفونسو دلبوكيرك أن أموراً مهمة كهذه تتطلب دراسة متأنية ومن ثم فإنه سيضعها في الاعتبار ويدرسها ويرسل له بشأنها بالسرعة الممكنة.

---

(١) ربما جزيرة تاروت Tarot الكبيرة الخصبة المواجهة القطيف (المترجم)

** افتراض الاستاذ المترجم من البرتغالية أنها جزيرة قبالة القطيف أمر مستبعد تماما.

(٢) مكران على الساحل الفارسي للخليج. انظر خريطة Haines , Brucks ، ١٨٢٩.

(٣) انظر حواشي الفصل ١٢

(٤) Jaslh على الجانب الفارسي للخليج. انظر
Persiqn Gulf Pilot , P.140.

الفصل الخامس والثلاثون

أفونسو دلبوكيرك يَسْرُد على القادة والقباطنة كل ما جرى بينه وبين الريّس نور الدين، وأحوال ملك هرمز وماتوصّل إليه من قرارات بهذا الشان، وزيارة ملك هرمز لأفونسو دلبوكيرك في الحصن، ومَقْتل الريس حامد

بعد أن علم أفونسو دلبوكيرك من الريّس نور الدين بأحوال ملك هرمز، استدعى ابن أخته د. جارسيا دي نورونها وكل القادة والقباطنة وذكر لهم كل ما جرى كما أخبره به الريس نور الدين، وطلب منهم واحداً واحداً أن يخبره بكيفية التصرّف، فأجمعوا على ضرورة تحرير الملك من هذا الطاغية الذي لابُد من إصدار أمر إليه بمغادرة المملكة مع إخوته فورا، وجرى الاتفاق على ذلك بينما كان أفونسو دلبوكيرك قد عقد العزم على قَتْل الريّس حامد هذا رغم أنه لم يُفْضِ بعزمه هذا لأحد سوى لابن أخته د. جارسيا (فالسِّر إنْ عرفه كثيرون ما غدا سَرّاً) فراح يفكر في طريقه للإيقاع به في يد البرتغاليين على أن تكون طريقة هادئة لا تُسبب إزعاجاً كثيرا، فراح أفونسو دلبوكيرك بين الحين والحين يُرسل إليه رسالة شفهيّة مفادها أنه يود رؤيته والحديث معه، وكانت هذه الرسائل الشفهية تصل للريّس حامد بكلمات لطيفة رقيقة، لكن الريّس حامد كان يلتمس الأعذار لعدم اللقاء، وكان يقول إنه إذا ذهب الملك للقاء أفونسو

دلبوكيرك فيمكن ساعتها انتهاز الفرصة لرؤيته والتحدث معه، لأنه فيما يبدو كان هو أيضاً يُفكِّر التفكيرَ نفسه أي أنّه هو بدوره كان يفكر في قتل أفونسو دلبوكيرك إذا سنحت الفرصة وكان قد جهّز لتحقيق ذلك عدداً كبيراً من المقاتلين داخل المدينة، وعلى أية حال فقد كان أفونسو دلبوكيرك يقبل أعذاره وراح منذ ذلك الوقت فصاعداً يدبِّر لترتيبات تؤدّي إلى قيام ملك هرمز بزيارة له (أي لأفونسو دلبوكيرك) فلو صحبه الريّس حامد صار أمر قتله سهلا، وعلى هذا فقد أرسل بيرو دلبوم pero dalpoem سرا للملك يخبره أن أفونسو دلبوكيرك يود رؤيته ويلتمس منه أن يتكرّم بتحديد مكان اللقاء ووقته بما يناسبه.

وأجاب ملك هرمز أنه سيُناقش الأمرَ مع أفراد حكومته ويرسل بالقرار الذي ينتهون إليه، وفي صباح اليوم التالي أرسل الملك عن طريق حاكم علي hakem ale إلى أفونسو دلبوكيرك بأنّه هو أيضا يرغب في لقاء معه وأنه سيأمر بإقامة خيمة عند باب قصره حيث يمكنهما الالتقاء معا. لكن أفونسو دلبوكيرك أدرك أن هذه خدعة يكمن وراءها الريّس حامد فأجاب بغضب قائلا إنه عندما أتى لهذا الميناء في مناسبات سابقة كرئيس لقباطنة أربع سفن كان أخوه الراحل الملك سيف الدين يأتي لزيارته عند رصيف الميناء [1] pier خارج قصره والآن وقد أصبح (أي أفونسو دلبوكيرك) قائداً عاماً للهند وقد ازداد سلطانا وقوة بدرجة كبيرة عن ذي قبل - كما يلاحظ هو بنفسه - فإنه يبدو له أن ذهابه لزيارة الملك في قصره مسألة تحط من قدره، وإنما لابد أن يتمّ اللقاء على النحو الذي يريده هو (أي يريده أفونسو دلبوكيرك)، وعاد حاكم علي بهذا الرّد، لكن الملك والريّس نور الدين اللذْين كانا راغبين في أن يتحرّرا من قيود الريّس حامد قالا إنه لأمر طيب أن يذهب الملك ويزور أفونسو دلبوكيرك في الحصن واتفق معهما ولاة الأمر في المدينة، لكن الريّس حامد - وكان رجلا معتدا بنفسه أصرّ على أنه ليس مما يشرّف ملك هرمز ولا مما يزيده وقارا أن يذهب لزيارة قائد الملك البرتغالي في منزله، وبعد تبادل رسائل كثيرة بين الطرفيْن قَبِل الريّس

---

(١) Cerame - حاجز المياه

حامد أخيرا بأن يذهب الملك لرؤية أفونسو دلبوكيرك لأنه كان ينوي إذا أتيحت له الفرصة في أثناء فترة هذا اللقاء أن ينفِّذ نواياه الشيطانية، وعلى هذا فقد أرسل - باسم الملك - عن طريق حاكم علي أن ملك هرمز سيأتي في صباح اليوم التالي ليراه على ألاّ يكون في موضع اللقاء أي أحد سوى القادة والقباطنة البرتغاليين وأن يكونوا بغير سلاح لأن الذين سيرافقون ملك هرمز سيكونون أيضا بغير سلاح. وأرسل افونسو دلبوكيرك يقول إنه راغب في رؤية الملك رغبة شديدة لذا فهو سيوافق على هذا الشروط لكن بقية رجاله الذين يؤدّون واجبهم خارج مكان اللقاء لابد أن يكونوا مسلّحين فتلك كانت دائما هي العادة المتبعة التي لايمكن تغييرها. وما إن تمّ الاتفاق على ذلك حتى أمر أفونسو دلبوكيرك بتجهيز غرفة استقبال كبيرة كانت مشيّدة من طوب نيّىء وكان العمل قد انتهى منها قريبا وزينت بالأقمشة وأقيم بها منصّة غُطّيت بالقماش المقصَّب عليها مقعدان غُطيا بالقطيفة الحمراء ولهما شراريب ذهبية، ووضعت الأرائك إلى جوار الجدران، وعليها الحواشي لجلوس القادة وذوي الحيثية المصاحبين للملك كما أمر أيضا المدرّبين على حمل السلاح، وحملة السهام والبنادق ذوات الفتائل بالاستعداد بأسلحتهم بالقرب من بوّابة الحصن المطلّة على البحر، كما أمر قادة الفرق الذين كانوا يقيمون في المستشفى أن يكونوا على استعداد وعندما يسمعون طلقة مدفع - كإشارة - أن يسيروا في الشارع ناحية اليمين وأن يتجمعوا أمام بوّابة الحصن المؤدّية إلى المدينة للسيطرة عليها وأصدر الأوامر للقادة الآخرين بالاستعداد لاستقبال الملك في اليوم التالي واضعين اسلحتهم سرا في طيّات أثوابهم وان يجعلوا خناجرهم مخبّأة للاستفادة بها إذا دعت الحاجة، وطلب من د. جارسيا نورونها أن يختار مجموعة من خمسين رجلا موثوقا بهم لمراقبة البوّابة حالما يدخل الملك والريّس حامد والريّس نور الدين، فليغلقوها بعد دخولهم ولا يسمحون لأحد بالدخول.

وبعد ترتيب الأمر على هذا النحو أرسل أفونسو دلبوكيرك في صباح اليوم التالي عن طريق بيرو دالبوم والمترجم اسكندر دي أتيد ليخبر الملك أنّه في انتظاره.. وحالما وصلا إليه بالرسالة استعد الملك فورا مع كل أفراد حكومته

ونوي الحيثيّة في البلاد، فركب هو نفسه حصانا وسار الباقون على أقدامهم، وكان يحيط بالملك كثير من رماة السهام الذين شكلوا حرساً له ووصلوا إلى الحصن حيث كان أفونسو دلبوكيرك في الانتظار. وكان الريّس حامد قد أتى للغرض الذي سبق أن ذكرته وقد أحضر معه جماعته المسلّحة بالدروع والخناجر[1] تحت عباءاتهم[2] بينما كان هو نفسه يحمل سيفا وخنجرا ويرتدي درعا وفي يده قضيب حديد طويل لكسر الدروع. وعندما تقدّم ليصبح قريبا من بوّابة الحصن طلب من الملك أن يبقى كما هو ليدخل هو أولا ليرى المبنى وما إن دخل حتى اتجه إلى أفونسو دلبوكيرك دلبوكيرك الذي عامله باحترام، وقال للمترجم اسكندر دي أتيد ليسأله لم أتى بسلاحه في يده بينما جرى الاتفاق على ألاّ يحمل أي من الطرفين سلاحا، فأجاب الريّس حامد متغطرساً كعهده دائما «ما كان هذا لينطبق عليّ» واستدار عائداً حيث ترك الملك قاصداً أن يعود من حيث أتى لأنه أدرك أن الفرصة غير مواتية لتنفيذ تدبيره، وسرعان ما التقى بالملك الذي كان قد بدأ الدخول من بوابة الحصن فقال له لاتدخل أكثر من هذا لأنه لدى أفونسو دلبوكيرك عدد من الرجال كلهم مسلّحون. وسمع المترجم اسكندر دي أتيد هذه الكلمات فقد كان قريبا منهما فقال له: «تعال من هذا الطريق، وسأريك بنفسك جميع الترتيبات المعدّة» وأمسك بيده وأتجه به ناحية أفونسو دلبوكيرك الذي طلب منه أن يُبعد أسلحته لأنه من الخطأ أن يأتي بها، وبدأ الريّس حامد يفقد أعصابه فوضع يده على سيفه القصير فأدرك أفونسو دلبوكيرك أنه منفعل، وأن اللحظة قد حانت لقتله وهو الأمر الذي كان قد عقد العَزْم عليه فنادى بصوت عال مستدعيا بيرو دلبوكيرك الذي كانت لديه بالفعل أوامر مسبّقة بكيفية التصرف «اقبض عليه» فقفز بيرو فورا ووقف بين أفونسو دلبوكيرك والريّس حامد في اللحظة نفسها التي أمسك فيها الريس حامد بسترة القطيفة التي كان يرتديها أفونسو دلبوكيرك الذي دفعه بعيدا عنه وقال لبيرو

---

(١) Tarcados

(٢) Cabaias

دلبوكيرك: «اقتله» فغمره فورا بطعنات كثيرة من خنجره حتى أنّه مات فورا دون ان يتمكّن حتى من الصراخ فاستدار أفونسو دلبوكيرك حتى لا يراه ومشى وئيدا إلى حيث الملك، وقال لدوم جارسيا والقباطنة والقادة الذين تبعوه، ردا على أسئلتهم: «لا شيء، لقد انتهى الأمر».

وحالما ترك دوم جارسيا الملك مع أفونسو دلبوكيرك، حتى جرى عائداً بسرعة إلى البوّابة ليمنع أي شخص من الدخول فنفّذ ذلك دون صعوبة كبيرة. وعندما رأى الملك مصرع الريس حامد – ولم يكن الملك يريد أن يقتله أبدا وانما كان ينوي فقط طرده من المملكة – خشي أن يقتله البرتغاليون أيضا، وكان حوله الريس نور الدين والريس شرف xarafe ابنه (الذي زار البرتغال) وحاكم علي، فلما وقعت عين أفونسو دلبوكيرك عليه أقبل عليه بعد أن خلع غطاء رأسه وهش في وجهه وابتسم وطمأنه وقال له انه ملك هرمز باسم سيّده ملك البرتغال ثم أجلسه على أحد المقعدين فوق المنصّة ووقّره واحترمه كملك طالبا منه السماح لتنفيذ هذا القتل في حضرته الملكية، لأن الريس حامد ما حاق به، إلاّ لغطرسته، وقد وضع يده على السيف الذي يحمله عندما دخل القاعة بل وأمسك بردائه (رداء أفونسو دلبوكيرك)، وأيضا لأنه (أي أفونسو دلبوكيرك) كان لديه معلومات أنّه قد سجنه (أي سجن ملك هرمز) واستولى على كل مملكته وخزائنه. لقد قال أفونسو دلبوكيرك كل هذا وغطاء رأسه في يده وراح يعبر للملك بعبارات ودودة محبّة عن كل ذلك، وقد كان أفونسو دلبوكيرك يجيد هذا الأسلوب الذي يعرف جيدا كيف يستخدمه في هذه المواقف.

وشكره ملك هرمز شكراً جزيلاً على كل ما فعله وأعلن له أنه يعتبره والدا وأن كل ما فعله طيب جدا وأنه ممتن لتلقي المملكة من يده باسم ملك البرتغال.

الفصل السادس والثلاثون

الريّس مظفر وأخوه يهاجمون قصر

ملك هرمز بكل أعوانهما انتقاما لمقتل

الريّس حامد، وما جرى بعد ذلك

لقد رأى إخوة الريّس حامد أنه قد جرى تَحْييدهم ومن معهم من الرجال أي ابعادهم عن مجريات الأمور، ومع هذا فقد اعتراهم الشك فاقتربوا بفؤوسهم من الأبواب بقصد كسرها واقتحامها (وهم لم يعلموا بما جرى خلف الأبواب لأن الأوامر كانت قد صدرت اليهم بمواصلة قَرْع الطبول)، وعندما اقتربوا من الأبواب لكسرها أمر أفونسو دلبوكيرك بإطلاق قذائف أحد المدافع لمنع مغامرتهم تلك.

وكانت هذه الطلقات إشارة مُتفق عليها سلفاً مع قادة الفرق المدرّبة على السلاح، وحالما سمعوا الإشارة اتجهوا مباشرة إلى البوّابة وأجبروا أخا الريّس حامد على الانسحاب برجاله، وعندما بدأوا يتحرشون بهم أتى دوم جارسيا dom garcia وطلب منهم باسم أفونسو دلبوكيرك أن يُدركوا ما هم مقبلون عليه لأن من بينهم موالين لملك هرمز والريس نور الدين، وقام أفونسو دلبوكيرك بدوره في تهدئة مسبّبي الشغب بأن أرسل كلّاً من دوم ألفارو داسيفليرا dom alvaro da silveira وروي جلفاو ruy galvao وديوجو فرناندز دي بيجا diogo fer- nandez de beja أن يتجهوا إلى رجاله البرتغاليين وحثهم على الهدوء والسيطرة على أعصابهم، وأصدر الأوامر للقادة والقباطنة بحمل أسلحتهم وترك د. جارسيا مع الرجال، واتجه مع الملك والريس نور الدين إلى الشرفة وأمر بإقامة منصة فيها وفرشها بالسجاد وجلس فوق هذه المنصّة مدّة طويلة على مرأى من

المسلمين الذين كانوا قد ظنوا أنه قُتِل. وعندما رآه إخوة الريس حامد سألوه بلهجة حادّة عن أخيهم وواصلوا إلحاحهم في السؤال حتى أن أفونسو دلبوكيرك أرسل لهم عن طريق المترجم اسكندر دي أتيد alexandre de ataideأنه – أي أفونسو دلبوكيرك – سيأمر بتسليمهم رأس الريس حامد إن كانوا راغبين في ذلك.

وعندما سمعوا بذلك أدركوا أنّ الريس حامد قد قُتِل فبدأوا يهدّدون الملك وأعلنوا أنهم سيتخذون طريقهم إلى الحصن لينُصّبوا أحد أبناء الملك الراحل سيف الدين، ملكاً عليهم، واندفعوا هائجين إلى القصر الملكي وأغلقوا بوّاباته واستعدوا بكل مدافعهم عازمين على التحصّن داخل القصر. والآن ولأنه كان من المطلوب قمع كل هذه الاضطرابات الناشئة عن مقتل الريّس حامد بسرعة قبل أن ينضم إلى المتمردين آخرون من خارج زمام القصر والحصن البرتغالي أرسل أفونسو دلبوكيرك يطلب إحضار عدد من سلالم التسلق من السفن وأمر رجاله بالاستعداد لدخول القصر الملكي بالقوة وأمر بإقامة بعض المدافع في الشرفة، لكن الريّس نور الدين رجا أفونسو دلبوكيرك أن يُرجئ اتخاذ أية إجراءات فعالة ضدهم حتى يرُسل الملك من يتباحث معهم لمعرفة نواياهم، فهو يشك أنهم حقيقة يريدون تنصيب ملك جديد، فأرسل الملك رسالة إلى الملالي (جمع ملّة) التابعين له الذين راحوا يتقدمون ويتأخرون ويروحون ويجيئون دون الوصول إلى نتيجة حاسمة.

ووجد أفونسو دلبوكيرك انه لن يصل إلى نتيجة عملية إن استمرت الأمور على هذا النحو، فأرسل إلى ابراهيم بك قائد الشاه إسماعيل وسفيره، وعن طريقهما ارسل للمتمردين رسالة مؤدّاها انه إذا لم يخرج كل مَنْ في الحصن ويتجه إلى البر الرئيس قبيل غروب الشمس فليتأكد الجميع أنه لن يترك منهم أحداً الاّ قتله، وتحدّث ابراهيم بك – الذي كان هو المحرّض الرئيسي لهذا التمرّد – مع المتمرّدين فأقنعهم بسهولة بإخلاء القصر والتراجع إلى أطراف المدينة وبعد ذلك أرسل يرجو أفونسو دلبوكيرك أن يرسل جثة أخيهم الريّس

حامد لحمله معهم إلى بلادهم، وسفينةً ليتمكنوا من العبور إلى البر الرئيس بزوجاتهم ورجالهم الذين يبلغ عدد المقاتلين منهم سبعمائة ووافق أفونسو دلبوكيرك على تقديم سفينة لهم، أما بالنسبة لجثة الريس حامد فإنه لايستطيع أن يقدّمها لهم لأن اولئك الذين يخونون ملوكهم لايجب أن يكون لقبورهم مكان معروف.

وفي هذه الليلة نفسها رحل إخوة الريس حامد وكل رجالهم إلى البر الرئيسي، وقبل الغروب بنصف ساعة ركب أفونسو دلبوكيرك ومعه الملك وكل رجالنا ليسيروا في موكب في وسط المدينة ثم إلى القصر وأمامهم عازفو الأبواق وقارعو الطبول، وأتى في المؤخرة دوم جارسيا والريس نور الدين مع كل القادة والقباطنة وذوي الحيثية سائرين على الأقدام. وعم المدينة بهجة كبيرة عندما رأى الجمهورُ الملك وسعد الجميع لتحررهم من عبوديّة الريس حامد وراحوا يكيلون المديح لأفونسو دلبوكيرك وسبب هذا المديح أن أفونسو دلبوكيرك رغم أن الملك قد أصبح بين يديه، وأن القصر - بكل خزائنه - أصبح بين يديه ويمكنه الاستيلاء عليه لجعله حصنا، الاّ أنه كرجل محّنك راح يبدي للملك توقيراً شديدا وراح يُظهر له أنه ما أتى إلى هرمز الاّ ليخدمه ويحافظ على مُلكه، منتهزاً هذه الفرصة ليمحو عن نفسه وصمة أنه طاغية.. ووصل الملك أخيرا إلى قصره بهذا الموكب الانتصاري فسلّمه أفونسو دلبوكيرك له وللريّس نور الدين باسم ملك البرتغال في حضور سفير الشاه إسماعيل، وقائده إبراهيم بك حتى يكونا شاهدين عَدْلين لهذه المأثرة العظيمة التي أسداها أفونسو دلبوكيرك، فيرويانها عندما يعودان إلى فارس.

الفصل السّابع والثلاثون

ملك هرمز يزور أفونسو دلبوكيرك مرّة أخرى في الحصن، وماجرى بينهما، وما أنزله من عقاب بسبعة برتغاليين كانوا قد هربوا في وقت سابق لمعسكر المسلمين

بعد أيّام قليلة من مَقْتل الريّس حامد أرسل ملك هرمز الريّس نور الدين ليقول له إنه شديد الرغبة لزيارته ويطلب ترتيب أمر هذه الزيارة ذاكراً أن مناسبة الزيارة السابقة في الحصن لم تُتحْ فرصة للحوار بينهما بسبب ما جرى من أحداث، وقد حمل الريس نور الدين معه هدية من الملك لأفونسو دلبوكيرك من الذهب الخام وأشياء أخرى نفيسة من المصنوعات المحلّية. لقد كان من الواضح أن ملك هرمز كان ممتناً لأفونسو دلبوكيرك لأنّه خلّصه من هذا الطاغية (الريس حامد)، وقد أجاب أفونسو دلبوكيرك أنه لشرف كبير له أن يتكرّم الملكُ بزيارته في المبنى الذي تسلّمه من هذا الخائن، وعاد الريّس نور الدين بهذا الجواب حاملاً معه هدية من القائد البرتغالي للملك، عبارة عن سيف محلّىً بالذهب.

وحدّد الملكُ يوم الثلاثاء ميعاداً لِلّقاء فأمر أفونسو دلبوكيرك بخروج عازفي الأبواق وقارعي الطبول لاستقباله وأقبل الملك راكباً حصاناً يصحبه الريس نور الدين وكل أفراد حكومته وذوي الحيثية في البلاد سيراً على الأقدام وفي مقدمة الركب من يحمل هدية على وفق العادة المتبعة في البلاد.

وكان أفونسو دلبوكيرك ينتظر الوصول الملكي مع كل القادة والقباطنة في

ذلك المبنى الذي هيّء بالأقمشة المزينة والمزركشة، وبه ظُلة ومقعدان غطيا بالحرير لجلوسهما وإلى جوار الجدران أرائك عليها حشيّات للقادة والقباطنة ومرافقي الملك، وحالما وصل الملك تقدم أفونسو دلبوكيرك إلى المدخل مع كل قادته وقباطنته لاستقباله وبعد تبادل التحية والكلمات الودودة أعلن الملك أنه مدين بالفضل لأفونسو دلبوكيرك لتخليصه من هذا الرجل السيء وطغيانه وانه سيظل دائما ممتنا لذلك ذاكرا واجبه في أن يبقى دوْما في طاعة ملك البرتغال فباسمه امتلك مملكة هرمز. وأجاب أفونسو دلبوكيرك انه خادمه ولن يقصّر أبدا في تثبيته في مُلكه وأوصى كل رجاله (رجال أفونسو دلبوكيرك) بالملك خيرا وبضرورة أن يكونوا في خدمته دائما وأن يضحّوا بحياتهم وممتلكاتهم من أجله.

وبعد مرور وقت طويل نسبيا في الحديث عن الفوضى التي سببها الريّس حامد في المملكة، دبّر أفونسو دلبوكيرك مع الملك خدعة هدفها نزع سلاح أهل المدينة، وهو الأمر الذي كان أفونسو دلبوكيرك توّاقا إليه لإحكام سيطرته على هرمز بشكل أقوى، فقال أفونسو دلبوكيرك للملك إنّه منذ أيّام قليلة مضت أصدر - أي أفونسو دلبوكيرك - أوامر بقتل الريّس حامد الخائن كما يعلم، وكان للريس حامد هذا إخوة وأقارب، مازال يوجد في المدينة (هرمز) بعض هؤلاء المخلوقات كامنين لن يقذف على واحد منهم سهما لكراهيته للموت، لذا فهو يرجوه أن يتكرّم لتجنب هذه المشاكل بإصدار أوامره بألاّ يحمل أحد في هرمز سلاحا، ونظراً لالتزام البرتغاليين بحمايته وحماية مدينته فيكفي أن يكونوا (أي البرتغاليين) هم المسلّحون وبهذه الطريقة يمكن أيضا منع الصراع بين أهل البلاد والبرتغاليين. لقد كان ملك هرمز مستاء من القسوة التي عامله بها الريس حامد، لذا فسرعان ما وافق على اقتراح أفونسو دلبوكيرك هذا وقال إنه سيأمر بإعلان ذلك، وبعد انتهاء هذا النقاش عاد الملك إلى قصره سعيدا جدا.

وفي صباح اليوم التالي أصدر الملك أوامره فورا أن يُنادي المنادي في المدينة ألاّ يحمل أي مسلم مهما كانت درجته ومكانته قوسا أو سهما أو أي سلاح آخر داخل المدينة، نهارا أو ليلا ومن يضبط تعرّض لعقوبة الإعدام ويستثنى من ذلك

حملة السهام من الحرس الملكي فقد سمح لهم أفونسو دلبوكيرك بحمل سلاحهم. وبهذه الوسائل التي اتبعها أفونسو دلبوكيرك راح يبسط سلطانه شيئا فشيئا على البلاد، وكان الملك من جانبه لايجرؤ على عمل شيء إلاّ بعد أن يُرسل ليسأل أفونسو دلبوكيرك أيُقْدِم على فعل ذلك أم لا. وفي مساء هذا اليوم نفسه أرسل الملك ليُخبر أفونسو دلبوكيرك أن أحد القادة من أهل البلاد متمركز في حصن في البر الرئيسي كتب له بوصول سبعة من البرتغاليين وواحد من الزنوج في قارب صغير، فلما حاول برجاله القبض عليهم دافعوا عن أنفسهم بالبنادق نوات الفتائل التي يحملونها ولأنهم برتغاليون فقد منع رجاله من قتلهم، فاستفسرْ أفونسو دلبوكيرك عن هروب رجاله هؤلاء فعلم أن شخصا اسمه أنطونيو فرناندز ANTONIO FERNANDEZ يُعرف باسم دي ألفيتو DE ALVITO سبق أن عاش فترة طويلة في فارس وأصبح مسلما أقنع الباقين بصحبته ليأخذهم للشاه إسماعيل. وبعد أن علم أفونسو دلبوكيرك بذلك أرسل للملك أن يتكرّم ويُرسل بسرعة مجموعة من رجاله للبحث عنهم وإعادتهم إليه أحياء أو أمواتا، وإعادة القارب الذي استقلّوه أيضا، فأرسل الملك رسائل إلى كل قادته يبذلهم ببذل قُصارى الجهد للقبض على البرتغاليين الهاربين وتوعدّهم بقطع أعناقهم إن فشلوا في مهمّتهم، وقام أفونسو دلبوكيرك من ناحيته بتجهيز جيرونيمو دي سوزا Jeranymo de sousa بقوّة مسلّحة في قادس ليُبحر إلى البر الرئيسي كما أرسل نيكولاو فيريرا في بارو PARAO لأنه يعرف لغة أهل البلاد ليعاون في القبض على الهاربين.

وحالما وصلت الرسائل إلى قادة الملك أرسل تشكيلات كبيرة من الباحثين لمختلف الأبحار للبحث عن الهاربين وأخيرا عثروا عليهم على بعد أربعة عشر فرسخا داخل البر الرئيسي إذ كانوا بصحبة قافلة متجهة إلى فارس، فأمسكوا بهم جميعا ماعدا واحدا من جاليسيا GALLICANرفض تسليم نفسه فقتلوه، وبعد ذلك تم تسليمهم بأسلحتهم التي نُزعت منهم إلى جيرونيمو دي سوزا الذي عاد بهم إلى هرمز.

وحالما وصلوا أمر أفونسو دلبوكيرك بإعلام الأوفيدور OUVIDOR مسؤول التحقيقات لاتخاذ إجراءاته بشأنهم، فأدانهم وحُكم عليهم بالموت حرقا في القارب نفسه الذي هربوا فيه، وأمر بيرو دالبوم PERO DALPOEM الذي كان يشغل منصب مسؤول العدالة العام في الهند بوضع القارب في الميدان الرئيسي في هرمز وتم إحراق كل المتهمين أحياء على مرأى من الجميع، باستثناء جوآو أفونسو JOAO AFONSO وأنطونيو فرناندز ANTONOI FERNANDEZ البحّار إذ افتدى حياتهما أفونسو دلبوكيرك لأنهما قالا إنهما - في وقت سابق - قد أنقذا حياته بترسيهما [1] في كلكتا في أثناء الأحداث التي جرت مع المارشال [2] لذا فقد أمر بتجريدهما من رُتبتيهما. وبسبب السرعة التي تم بها تنفيذ العدالة أصبح أفونسو دلبوكيرك مرهوب الجانب من الآن فصاعدا، وزاد الخوف من بطشه.

(١) Padez كلمة مرادفة للكلمة Pavez وتعني ترسا أو درعاً كبيرا يغطي الجسد كله أو ساتر من قماش يستخدم في السفن الحربية.

(٢) انظر جـ٢ ، فصل ١٦

الفصل الثامن والثلاثون

أفونسو دلبوكيرك الكبير يرسل رسالة إلى ملك هرمز بشأن قوّات الريّس حامد، وأمور أخرى لإحكام الأمن في المملكة، وعودة إبراهيم بك قائد الشاه إسماعيل إلى بلاده

والآن تلقى أفونسو دلبوكيرك معلومات مفادُها انه يوجد في حصن مونجاو MONEJAO قائد، هو أحد إخوة الريس حامد، وثمة قادة آخرون من أتباعه في كل القرى والأساطيل، فأراد أن يجتث كل جذور هذا الرجل من المملكة كما سبق أن اجتثه وأمر بقتله، فأرسل إلى ملك هرمز - عن طريق سكرتيره - أن يأمر فورا بطرد كل فرد من هؤلاء الناس من المملكة وإذا لم يخرجوا برغبتهم فما عليه الاّ أن يُرسلهم له لطردهم بالقوّة وعليه أيضاً أن يأمر بطرد كل القباطنة والقادة الموالين للريس حامد في الاسطول الهرمزي الموجّه ضد الـــ(؟) NAUTAQUES والمتناثرين هنا وهناك في قرى المملكة ومدنها.

وأجاب الملك أنه سيُرسل الملالي MULUAS (رجال الدين - والمفرد ملّة) إليهم فإن لن يفلحوا في إقناعهم بالخروج من المملكة فإنه (أي ملك هرمز) سيفعل ما يطلبه منه، وسيحرص مستقبلا على عدم التعامل معهم، وعندما تلّقى أخو الريّس حامد رسالة الملك أجاب بأنه لن يترك الحصن إلاّ إذا أعطاه الملك عشرين ألف أشرفي وبعد مفاوضات طويلة وافق على قبول أربعة آلاف أشرفي ووافق الملك تجنبا للمشاكل فسلمه المبلغ وغادر أخو الريس حامد الحصن.

وعندما علم أفونسو دلبوكيرك أن الملك دفع هذا المبلغ لأخي الريّس حامد لقاء

تسليمه الحصن أرسل للرّيس نور الدين بالاستيلاء على سفينتين من سفن إخوة الريِّس حامد كانت قد وصلت من الهند محمّلة بالبضائع ليسترد بذلك ما دُفع من نقود، ونفّذ الريّس نور الدين هذا الطلب وبعد ذلك أرسل ملك هرمز لقادته في سائر أنحاد المملكة بضرورة سلب كل الجنود التابعين للريس حامد ومعاقبتهم وأمرهم بألاّ يضعوا أقدامهم في المملكة ومن يفعل ذلك يعّرض نفسه لعقوبة الإعدام، وأمر باستدعاء أسطول هرمز الموجّه ضد الـ (؟) -NAU TAQUES وطرد منه رجال الرّيس حامد وقباطنتة ممّن كانوا يخدمون فيه. وبهذه الاجراءات الفعّالة ضمن أفونسو دلبوكيرك أن تتخلّص البلاد من الاضطرابات والثورات التي كان من المعتاد وجودها.

ولأن أفونسو دلبوكيرك قد علم أيضا بأنه يوجد مكان للبغاء العام يمارس فيه القوّادون (١) دورهم فقد أرسل للريّس حامد بمعاقبة هؤلاء القوّادين فورا في كل أنحاء المملكة فهو لا يَجْسر على البقاء في مكان تمارس فيه الخطيئة بشكل علني، بما يتعارض مع تعاليم الله وإن تم ضبط أي شخص منهم – من الآن فصاعدا – مدانا فسيأمر بإحراقهم جميعا في وسط ميدان السوق، فأمر الريّس نور الدين بطردهم وحذرهم من العودة فلم يعودوا خوفا من العقاب.

وبعد أن تمّ ترتيب هذه الأمور كما أسلفنا انشغل أفونسو دلبوكيرك بأمور التجار ومنحهم حق المرور الآمن للقيام برحلاتهم التجارية إلى الهند وسمح بقدوم القوافل من الهند إلى هرمز سواء كانت لأصدقاء أم لأعداء فابتهج التجار وأقبلوا على هرمز ببضائعهم كما كان يحدث من قبل لأنهم كانوا يثقون في وعوده (وعود أفونسو دلبوكيرك) وأصدر أوامره بأنه إن تعرّض أي تاجر لأي ضرر على يد برتغالي جرى عقاب المذنب بشدّة. وبسبب هذه الإجراءات وغيرها من الاجراءات التي تمّ فرضها بالقوّة أتى تجار كثيرون من خارج البلاد، ليستقروا في هرمز التي بدأت الآن تتّسع اتساعا كبيرا. أما بالنسبة للملك

---

(١) Mancebia publica de homens

* النص الانجليزي Prostitntion of men ولا ندري هل المقصود مكان للواط أم للبغاء.

وأفراد حكومته فلم يتدخل أفونسو دلبوكيرك في شؤونهم تاركا كل شيء لهم، وكان يعامل الملك دائما بتقدير كبير واحترام شديد مما ساعد كثيرا على إقرار السلام في البلاد.

وعندما رأى ابراهيم بك قائد الشاه إسماعيل أن كل مخططاته قذ ذهبت هباء بعد موت الريّس حامد استئذن أفونسو دلبوكيرك ليعود إلى بلاده الواقعة على حدود الخليج PERSIAN SEA – فأذن له. ولم يكن أفونسو دلبوكيرك راغبا في وجود خلاف بينه وبين أيّ إنسان فقد أظهر لهذا القائد كثيرا من المودّة باسم ملك هرمز، ذلك لأن هذا القائد كان من بين القادة الرئيسيين للشاه إسماعيل وبلاده مجاورة لهرمز. وقد سعد القائد كثيرا بهذا التكريم وعندما وصل إلى بلاده كتب للشاه إسماعيل تقريرا عن عظمة أفونسو دلبوكيرك، خاصة فيما يتعلّق بتصرّفه مع الريّس حامد.

وحالما غادر ابراهيم بك أمر أفونسو دلبوكيرك بكتابة تظلمات إلى ملك هرمز والريّس نور الدين بشأن احتياجاته وتقديم الاحتجاجات التي سبق أن قدّمت لسلفيها الملك سيف الدين وخوجة عطّار بينما يتعلق بالحصن الذي كان العمل فيه قد بدأ ثم استوليا عليه منه مرّة أخرى عند زيارته لهرمز في المرّة الأولى، وقد كلفه هذا مبالغ طائلة وأدى إلى ضياع كثير من الملتكات بالإضافة إلى الخسائر الناجمة عن الثورات التي كان يقوم بها الرسميون التابعون لهما (ملك هرمز ورئيس وزرائه) لكل هذا فهو يلتمس منهما (من الملك الحالي والريس نور الدين) أن يتكرما بالنظر في هذه الأمور وإصدار الأوامر بدفع كل مستحقّاته نقدا لأنه في حاجة إلى المال لإكمال بناء الحصن وللإنفاق على الأسطول.

وبعد انصرام بعض الوقت في المراسلات بين الطرفين أرسل الملك أخيرا يقول إنه سيكون سعيدا بدفع كل المستحقات وأن تسوية تجرى الآن مؤدّاها أن نائب الملك د. فرنسسكو دلميدا D. FRANCISCO DALMIDA كان قد تسلّم خمسة آلاف أشرفي من أخيه (ملك هرمز الراحل) أما بالنسبة للمتلكات التي يقول أفونسو دلبوكيرك إنها نُزِعت منه فقد سلّم الريس نور الدين بالفعل لبيرو

دلبوكيرك PERO DALBOQUERQUE جزءا كبيرامنها عندما زار هرمز في العام الماضي وهناك مستندات ورقية تؤكّد ذلك، أما بالنسبة للموازنة الحسابية فليناقشها مع الريس نور الدين، وكل مستحقاته سيأخذها، وفي اليوم التالي أرسل أفونسو دلبوكيرك بسرعة بيرو دالبوم PERO DALPOEM والمترجم اسكندر دي أتيد، والوكيل التجاري مانويل دا كوستا لمنزل الريس نور الدين، وبعد فحص الحسابات تبين ان المستحق للبرتغاليين هو مئة وعشرون ألف أشرفي فأمر الملك بدفعهما ومنها جرى اكمال الحصن ودفع المصروفات الأخرى المقررة. ولقد سبق أن ذكرت أن المطالبة بهذا المبلغ بدأت أيام خوجة عطار وهاهي قد دُفعت أخيرا، وكان القباطنة والقادة وقتها متذمّرين من هذا الطلب غير المعقول، وقد أشرتُ إلى هذه الوقائع في الأجزاء السابقة.

الفصل التاسع والثلاثون

كيف طلب أفونسو دلبوكيرك من ملك هرمز أن يُقرِضه مدافعه بسبب أخبار مُفادها قدوم مماليك مصر (الروم) وكيف وافق الملك، فزاره أفونسو دلبوكيرك في منزله

لقد أصبحت الأمور في هرمز مستقرة هادئة كما وصفت في الفصل السابق وتقدم العمل في الحصن البرتغالي وارتفع بنيانه بقدر كبير وفي هذه الأثناء وصل أحد المسلمين من قلهات calayate وقال لأفونسو دلبوكيرك انه بعد مغادرته الميناء وصلت أخبار من عدن أن الروم (مماليك مصر) يستعدون فى السويس بأسطول كبير لشن هجوم على هرمَز، ورغم أنه قد بدا لأفونسو دلبوكيرك أن هذه الأخبارروّجها إخوة الريّس حامد لحث هذه المناطق على الثورة ضد البرتغاليين إلاّ أنه استغلها لتحقيق أغراضه التي كان قد أزمع الوصول إليها منذ أيام مضت وكانت أغراضه هذه هي الاستيلاء على مدافع ملك هرمز بحيلة لا تُسبب مشاكل ولا يبدو فيها من الافتراء. ولكى يظهر أفونسو دلبوكيرك أهمية لهذه الأخبار أمر ابن أخته دوم جارسيا دي نورونها dom garcia de noronha أن يذهب إلى ملك هرمز ومعه بعض القادة والقباطنة وحرس مسلّح – فتلك هي العادة المتبعة في هرمز – ليذكروا له الأخبار التي وردت عن قدوم مماالك مصر (الروم) وتعريفه بعزم البرتغاليين على مهاجمة أسطولهم في البحر، ومن ثمّ فإنه (أي أفونسو دلبوكيرك) يرجوه أن يتكرم بإصدار مرسوم بإعارة البرتغاليين كلّ مدافعه لنَصْبها في الحصن البرتغالي، لأن المدافع

البرتغالية لازمة للأسطول ولاتكفي للغرضَيْين: الأسطول والحصن.

وعندما وصل د. جارسيا بالرسالة وجد الملك بصحبة الريِّس نور الدين وغيره من المسلمين ذوي الحيثيّة - سلَّمه الرسالة، وكانت التعليمات التي حملها د. جارسيا أنه بمجرد وصوله إلى القصر عليه أن يُمركز رجاله في موقع مُهيمن (مسيطر أو متحكم) بمجرد دخوله لأنه إذا لم يتمّ تسليم المدافع جرى الاستيلاء عليها بالقوّة، لذا فبمجرد وصوله مَرْكز قائدا على رأس بعض الجنود لحراسة كل بوّابة لأنه وجد من غير اللياقة اقتحام القصر بجنود مسلّحين مع وجود الملك.

وقد أجاب الريّس نور الدين بأن ملك هرمز يعتبر القائد البرتغالي كوالد له وسيفعل كل ما يطلبه منه ولم تكن هناك حاجة لكل هذه القوة العسكرية التي أحضرها د. جارسيا معه فإن أقل فرد في أسرة أفونسو دلبوكيرك كان يمكنه نقل الرسالة، وأن ملك هرمز سيُرسل المدافعَ الى الحصن البرتغالي. والآن فلأن أفونسو دلبوكيرك كان قد أمر في تعليماته ابن أخته ألاّ يعود والمدافع تسبقه، (أي أن تصل المدافع قبل وصوله)، لذا فقد أجاب الريس نور الدين قائلا إنه مادام ملك هرمز راغبا في تسليم المدافع خدمة لأفونسو دلبوكيرك فليعجِّل بالأمر بالتسليم لأن أفونسو دلبوكيرك قد أجرى ترتيباته بالفعل لتجهيز الأسطول في هذه الليلة نفسها حتى لا يُؤخذ على غِرّة إذا أقبل أسطول مماليك مصر (الروّم).

واعتذر الريس نور الدين قائلا إنه موافق على طلب د. جارسيا لكنه يريده أن يعود بحاميته العسكرية حتى يستطيع بعد عودته بهم تدبير ما يجب عمله، وذكر أن حامل مفاتيح المخازن غير موجود، ولكن دوم جارسيا كان مصمما على ألاّ يخرج من القصر إلاّ والمدافع معه فقال له إنّه في ظرف خطير كالذي نحن فيه من الخطأ حدوث أي تأخير وأنه لاينوي الذهاب بدون المدافع، فأدرك الريس نور الدين أنه لن يجني من خداعه شيئا فرضخ لُحكم الضرورة وأمر بنزع أقفال أبواب المخازن وبدأ المدفعيّون في تحميلها على عربات، وكانت الساعة هي قرابة الثالثة بعد حلول الليل عندما - أخيرا - نصبت المدافع على الشاطىء. ياله من

منظر جميل، وفي اليوم التالي كتب الريس نور الدين لقادة مسقط وقلهات -cal ayate كل ما لديهم من مدافع بحيث تصل في شهر يونيو على متن قادس وسفينة شراعية ذات صاريين، وأمر أفونسو دلبوكيرك بتجميعها كلها ونصبها فوق أسوار الحصن، وبذلك استولى على كل مدافع هرمز. وهكذا انقلبت الأخبار التي جلبها هذا المسلم عن قدوم اسطول مماليك مصر على رأسه، فكلفت بلاده غاليا.

وبعد يومين من انتهاء هذا الأمر رأى أفونسو دلبوكيرك انه من المناسب أن يذهب ليرى الملك ليرفع من روحه المعنوية فلما وصل إلى القصر هرع الريس نور الدين لاستقباله في شرفة كبيرة ومنها تقدما للقاء الملك وعند الوصول إلى باب الغرفة تقدم الريس شرف reys xerafo كبير حرس الملك للحديث معه، وقال إنه مدين بمنصبه لأفونسو دلبوكيرك، وأنه خادم له وفي هذا الأثناء وصل الملك الى باب الغرفة، وما إن رآه أفونسو دلبوكيرك حتى أقبل عليه وقد خلع غطاء رأسه وأمسكه بيده وأراد أن يقبّل يد الملك لكنه أبى وعانقه وقبّل رأسه – وتقبيل الرأس يَدُل على توقير شديد، ودخلا غرفة ذات سقف مقنطر وبها منصّة فوقها كرسيان أحدهم مغطى بحرير صيني لجلوس الملك والآخر مغطى بقطيفة حمراء لجلوس أفونسو دلبوكيرك، وتوجد حشيتان من الخامة نفسها كل حشية إزاء كل كرسي ليمدّوا أقدامهما عليها، وحالما جلسا تحدثا سويا في أمور ودّية وأعلن الملك أن يوم زيارة أفونسو دلبوكيرك له هو أسعد يوم في حياته فأجاب أفونسو دلبوكيرك أنه مستعد لتأدية أية خدمة له، فهذا يجعله أكثر ما يكون سعادة وسرورا، ثم رجا الملك ان يستدعى ابنا الملك الراحل سيف الدين ليراهما فهما صبيّان في زهاء الثامنة أو التاسعة من عمرها، فلما حضرا رحّب بهما واهتم بهما اهتماما كبيرا، وذكّراه بأبنائه، وأوصى بهما الريّس نور الدين، ومن ثم استأذن أفونسو دلبوكيرك في الانصراف، فصحبه الريّس نور الدين حتى بوّابة الحصن، ثم تركه وعاد.

الفصل الأربعون

كيف طلب أفونسو دلبوكيرك سفير الشاه إسماعيل وأرسل بصحبته فرناو جوميز دي ليموز، والهدية التي تم إرسالها إلى الشاه المذكور

لقد أدرك سفير الشاه إسماعيل في هذه الأثناء أن أفونسو دلبوكيرك يجهّز اسطوله لمحاربة الروم (مماليك مصر)، فاستأذن للعودة إلى الشاه لأنه مكث في هرمز عدة أيام، فاستعد أفونسو دلبوكيرك لإرساله وأمر أن يستعد كل من فرناو جوميز دي ليموز fernao gomez de lemos اخو دوارت دي ليموز داتروفا duarte de lemos da trofa لأنه ينوي إرساله – مع مجموعة – كسفير للشاه إسماعيل، وأمر جيل سيموز gil simoes خدام الملك د. مانويل أن يرافقه كموثّق وزود أفراد السفارة بثمانية خيول مُسرجة بسروج مزدانة بالحرير على النَّسَق البرتغالي، وأمر بتجهيز هدية لإرسالها إلى الشاه إسماعيل مكونة من دروع بعضها مزدان بقطيفة حمراء والآخر بأقمشة معصّبة وواقٍ للرأس وآخر للذقن كلاهما محليّان بالذهب، وأجهزة كاملة للخيل، وأربعة أسورة من ذهب وياقوت وحلقات غالية جدا وجواهر وأحجار كريمة وذهب ومدفع قصير الماسورة derco ومدفع معدني آخر caoوست بنادق من نوات الفتائل، وسهام كثيرة وأقواس، وأرسل له نحاسا وقصديراً، وكميات قليلة من كل بهارات الهند. وأمر بأن يُقال للشاه إسماعيل أن يستخدم هذه الأشياء متى شاء، ولأن أفونسو دلبوكيرك دائما في البحر وليس معه سوى السلاح والمؤن لذا فهو لا يستطيع أن يرسل له أشياء أخرى كثيرة من تلك الموجودة في البرتغال، وانما ارسل له

عينات من منتجات الهند عسى أن يسعد بها.

وكان من بين التعليمات أن يُعلن للشاه إسماعيل انه إن كان راغبا في مواصلة علاقات مفيدة وودودة مع سيده ملك البرتغال فلابد أن يُرسل سفراءه إلى البرتغال فهو - أي الشاه إسماعيل - يستطيع بالاستعانة بالبرتغاليين تحطيم السلطان الكبير (سلطان مصر المملوكي) وبيت مكة the house of meca(المقصود الكعبة المشرّفة)، فإذا ما صدرت الأوامر من ملك البرتغال للأسطول، فإنه (أفونسو دلبوكيرك) سيسعده مساعدته لأنه الآن قد دعّم وضعه في هرمز، لكن إذا لم يكن الشاه إسماعيل راغبا في إرسال سفرائه لبُعد البرتغال (كما سبق أن قال ميجويل فيريرا) فإن لدى السفير البرتغالي تعليمات مفادها أنه إذا كان الشاه إسماعيل في حاجة إلى صداقة ملك البرتغال فلا مجال لانزعاجه لأن هذه السفارات لن تُكلفهُ مؤونة رحلة رجل واحد، فهؤلاء السفراء سيتم استضافتهم وإكرامهم والعناية بهم في السفن البرتغالية المتجهة إلى البرتغال. وكانت هناك تعليمات أن يصف السفير البرتغالي للشاه إسماعيل عظمة الملك والملكة البرتغاليين والحروب المستمرة التى يشنها الملك البرتغالي ضد مسلمي أفريقيا والهند وضد الترك (العثمانيين) وسلطان القاهرة.

وعندما أصبح فرناو جوميز مستعدا تماما لبداية الرحلة، اجتمع أفونسو دلبوكيرك بسفير الشاه إسماعيل وقال له إنه بالنسبة إلى الموضوعات الأربعة التى طلبها الشاه إسماعيل من البرتغاليين، فقد جرى النظر فيها.

أما بالنسبة إلى الموضوع الأول وهو مطالبته بالعوائد الماليه المفروضة على البضائع القادمة من فارس إلى هرمز، فهذه العوائد حق له (لأفونسو دلبو كيرك) لأن النفقات التى يُضطر ملك هرمز لانفاقها على الجيش والأسطول، للحفاظ على مملكته نفقات كبيرة جدا ومما يزيد من نفقاته مبلغ الإتاوة الذي يتسلمه سيده ملك البرتغال. وأفونسو دلبو كيرك لا يستطيع تسليم هذه العوائد للشاه إسماعيل لأن العوائد من الرسوم على التجارة القادمة من فارس وغيرها لا تكفي نفقات هرمز، وباقي العوائد الأخرى قليلة كما يعلم الشاه جيدا.

أما بالنسبة إلى الموضوع الثاني وهو ضمان ممر مائي لرجاله إلى ساحل شبه الجزيرة العربية فيسعده الموافقة على ذلك بل وسيقدم له كل السفن التي يحتاجها لأنه بذلك سيؤمّن ملك هرمز تأمينا كبيرا بحيث لا تحدث احداث شغب تسبب المتاعب في بلاده (بلاد ملك هرمز) ولا في جزر البحرين[1] Barem .

أما بالنسبة إلى الموضوع الثالث وهو على وجه التحديد مساعدة الشاه إسماعيل في حربه ضد ملك ماصارام* Macaram (وكان هذا الملك تابعا للشاه إسماعيل ولكنه رفع راية العصيان في مدينة جوردير Guardare) فإنه – أي أفونسو دلبو كيرك – سيساعده بكل جيش ملك البرتغال وأسطوله (فالملك قد أمر بذلك) لكن هذا الأمر يمكن تنفيذه بشرط واحد وهو أن البضائع التى ترد من فارس إلى هرمز لا تُحوّل إلى جهة أخرى (أى يجري التصرف فيها في هرمز)

أما بالنسبة إلى الموضوع الرابع وهو طلب ميناء في الهند يمارس فيه تجار فارس تجارتهم، وطلب الإذن بإقامة محطة تجارية ومخزن في هرمز فقد كان ذلك يسعده لولا أن الميناء المختار للهند يجب أن يكون هو جوا Goq والدخول إلى هرمز لأنه في أي ميناء في الهند فيه تجار فرس، فإنهم سيفقدون بضائعهم وسيعرضون لعقاب يُنزله بهم.

وبعد الإجابة عن هذه الأمور رغب أفونسو دلبو كيرك إلى السفير أن يُعلن للشاه إسماعيل أن يعتبر البلاد (الأراضي) الى قدّمها له هدية ذات قيمة وأن يقبل بسرور رغبة البرتغاليين في أن يكون (أي الشاه إسماعيل) ملكا عظيما في بلاده على أن يوالي الحفاظ عليها والدفاع عنها ضد الأعداء لأنه (أي أفونسو دلبو كيرك) قد استولى على بلاد كثيرة في هذه الأنحاء لسيّده ملك البرتغال ويريد (أي أفونسو دلبو كيرك) أن يضم أخرى كثيرة لسلطان البرتغاليين وكل

---

(١) انظر حواشي فصل ٢٥.

* لعلّها مكران

هذا من أجل خاطر أفعال الشاه إسماعيل ، وبالنسبة إلى الصداقة والمساعدة الطيبة التي يرغب أفونسو دلبو كيرك في عرضها عليه (على الشاه إسماعيل) فإن هذا الأمر يسعده فالشاه ملك عظيم، كما أنه يسعده (أي أفونسو دلبو كيرك) أنْ يأمر كل الجنود الذين هم على مذهب الشاه والموجودين في الهند بالتوجه إلى الشاه ليكونوا في خدمته، على وفق رغبته (رغبة الشاه) ، وإنه (افونسو دلبو كيرك) يأمل من الله أن يعود إلى هرمز قريبا وأن تتاح الفرصة لزيارته فى إحدى مدنه على ساحل الخليج Persian Sea، وأخيرا أرسل أفونسو دلبو كيرك مع هذا السفير برتغاليا ذا رتبة عالية من الأسرة الحاكمة البرتغالية كسفير له عند الشاه وأوصى بحُسن استقباله لمكانته.

وبعد انتهاء هذه اللقاءات أهدى أفونسو دلبو كيرك السفيرَ جواهر وملابس، وفلفا (كان السفير قد طلب الفلفل) فسعد بالهدية كثيرا. والآن انطلق ركب السفارة في ١٠ أغسطس سنة ١٥١٥، لكنني لن أتعرّض لما حدث لفرناو جوميز Fern'ao Gomez فى هذه السفارة، لأنه لم يعد الاّ بعد موت أفونسو دلبو كيرك.

الفصل الواحد والأربعون

ملوك من أنحاء مختلفة يُرسلون سفراءهم لزيارة أفونسو دلبو كيرك الكبير وطلب د. جارسيا دي نورونها العودة إلى البرتغال، وبقية ما جرى

بعد انطلاق السفراء في طريقهم إلى الشاه إسماعيل، أدرك أنه لم يبق على إتمام حصن هرمز سوى القليل من الجهد، فطلب من خاله الإذنَ بالعودة إلى البرتغال لكن أفونسو دلبو كيرك وجد نفسه يَئِنّ تحت وطأة المرض بالاضافة إلى حاجته الشديدة لخدمات د. جارسيا ومزاياه الشخصية فلم يكن راغبا في الاستجابة لهذا الطلب ومع هذا فقد ألح د. جارسيا وكان شديد الرغبة في العودة فحث بطانته بشدّة حتى أن أفونسو دلبو كيرك وافق أخيراً وهو على مَضَض، فأرسله ليعود في ٢٩ أغسطس سنة ١٥١٥ وأعطاه كل الصلاحيات لتحميل سفنه، وأرسل معه لملك البرتغال طِستّا وكأسا وأكوابا وحزاما وخنجرا من ذهب صلد، وكانت هذه الأشياء جزءا من هدية كان الشاه إسماعيل قد أرسلها له (لأفونسو دلبو كيرك) وأرسل له أيضا بعض الأغطية المزركشة لحصانه، وواقياً للرأس مزداناً بالذهب وسرجاً مزداناً بالفضه وقطعة من اللبّاد وملوّنة ومعّدة بشكل جيد، وكانت جميله جدا رغم رِخَص ثمنها. وأرسل معه خمسة عشر ملكا أعمى كانوا في هرمز مع زوجاتهم وأطفالهم وخدمهم وأمره بتسليمهم لقائد جوا ليفرض عليهم حراسة ويقدّم لهم كل مايلزم لإعاشتهم. لقد كان هدف أفونسو دلبو كيرك من ذلك هو أن يقطع دابر سلالة ملوك هرمز ويمنعهم من الانتشار في أنحاء كثيرة، فسيبون مشاكل للمملكة مستقبلا.

وأرسل أنطونيو دي أفونسيكا Antonio de AFonseca بعشرة آلاف أشرفي ليكون وكيلا تجاريا، وأرسل معه ايرز ماجانهاس Aires de Maganh'aes كموثِّق له ليجّهزا له في جوا قدراً كبيرا من المؤن وذخائر الحرب، ولإصلاح السفن التى تحتاج إلى إصلاح في الهند وإكمال إعداد القوادس التى كان العمل فيها قد بدأ عند مغادرته (أفونسو) جوا، وكتب إلى دوارت بربوزا Duarte Barbosa أن يُراعى إنهاء العمل في القادسين اللذين يعدان في كلكتا لأنه ينوى في الربيع القادم الانطلاق بأسطول كبير مهيّأ تماما للاستيلاء على عدن والتمركز فيها واقتحام مداخل البحر الأحمر وإقامة مستوطنة في بلاد الحبشة Land of the Presl'e.

لكن قدّر الله وما شاء فعل فعندما وصل أفونسو دلبوكيرك إلى جوا مات (كما سأذكر بعد ذلك) وحتى لو لم يكن أفونسو دلبوكيرك قد مات فإن لوبو سوارز lopo soarez كان في طريقه إلى الهند ليكون حاكماً لها لذا فإن هذه الرغبات التي أبداها لم تكن لتتحقّق. وأبحر د. جارسيا في السفينة بلَم belem ووصل إلى كوشن وبينما كان في سبيله للإبحار منها إلى البرتغال وصل لوبو سوارز، ونشبت بينهما بعض الخلافات.

وعندما كان د. جارسيا قد أبحر إلى الهند بدأ أفونسو دلبوكيرك يحس بتحسّن قليل في صحته، وفي هذه الأثناء وصل سفراء من الملوك المجاورين لملكة هرمز لزيارته وهم سفير ملك لاره lara الذي أحضر معه حصانا هدية وخطابا يعرض فيه أن يقدم لأفونسو دلبوكيرك كل ما يحتاجه من بلاده، وتبعد لاره ثلاثة فراسخ عن هرمز وهي مدينةكبيرة تقع في بلاد فارس وهي تحت سلطة الشاه إسماعيل وقد أجاب أفونسو دلبوكيرك على الخطاب وأمر فرناو مارتينز إيفا نجلهو fernao martinz evaugelho بزيارة هذا الملك الذي توجد في بلاده خيول كثيرة وفوّضه في أمر التباحث لشراء بعض منها.

وبعد ذلك أتى سفير آخر من الأمير بوزاكا mirbuzaca قائد الشاه إسماعيل الذي يعيش – أي هذا الأمير – في راكسل raxel على ساحل الخليج وقد

أحضر معه هو الآخر حصانا كهدية وخطابا يعرض خدماته طالبا منه أن يتكرم ويساعده بأسطوله للاستيلاء على كل جزر موانىء الخليج وفي مقابل ذلك سيكون تابعاً مخلصاً لملك البرتغال ويدفع له إتاوة ويقدم له الخيول والمؤن التي يحتاجها.

ولم يجد أفونسو دلبوكيرك ما يفعله إزاء هذا الطلب الذي تقدم به الأمير بوزاكا mirbuzaca لأنه كان ينوي الكتابة بشأنه إلى ملك البرتغال لكنه – أي أفونسو دلبوكيرك – سيعمل على سير الأمورفي اتجاه تحقيق هذا الطلب لكنه رجاه إرجاء الأمر حتى عودته إلى هرمز وشكره شكرا جزيلاً لعروضه. وكان السفراء من كل ملوك وأمراء الساحل الفارسي للخليج في انتظار مقابلته فأرسل لهم أفونسو دلبوكيرك شكره بعبارات وبمودة كثيرة وهدايا وأرسل ايضا لمسلمي فارس والتتار. ومن المناطق الداخلية كان يأتي كل يوم الى الحصن كثيرون لرؤية أفونسو دلبوكيرك ولكثرتهم لم يكن رجالنا بقادرين على إرجاعهم، ورغم أن مرضه الذي ألمّ به كان يمنعه من الخروج في كثير من الأحيان الاّ أنّ هؤلاء القادمين كانوا يتوسلون لحراسه وحجابه أن يسمحوا لهم – على الأقل – بإلقاء نظرة عليه لأنهم ما أتوا من بلادهم الاّ لرؤيته، وإن حدث في وقت من الأوقات وركب حصانه ازدحم الناس في الطرقات وتبعوه حتى انه ليشق طريقهُ بصعوبة بينهم، وقد طبقت شهرته وعظمته آفاق هذه ولأن الأخبار التي نقلها سفراء الشاه إسماعيل إليه قد انتشرت فقد راحوا يرسلون خدمهم إليه (إلى أفونسو دلبوكيرك) لرسم صورته.

الفصل الثاني والأربعون

قائد الشاه إسماعيل يأتي إلى هرمز لرؤية أفونسو دلبوكيرك والأخبار التي نقلها إليه وبقية ما جرى

بعد أن انطلق د. جارسيا دي نورونها بأيّام قلائل وصلت من فارس قافلة فيها عدد كبير من تجار التتار وروسيا وكل هذه الأنحاء من العالم، حاملة بضائعَ لذا فقد بدأت المدينة تنمو وتعظُم، وكان في صحبة هذه القافلة قائد من قِبَل الشاه إسماعيل، انطلق من البلاط لهدف رؤية أفونسو دلبوكيرك لشهرته الفائقة في فارس.

ولأنه لم يكن مضى إلاّ وقت قليل على خوض الشاه إسماعيل معركة ضارية مع الأتراك العثمانيين، وهي معركة اشترك فيها هذا القائد الفارسي الذي أتى لزيارة أفونسو دلبوكيرك، فقد سأله هذا الأخير عن هذه المعركة، فقال إن العثمانيين turks انقضوا بثلاثين ألف فارس وعدد هائل من المشاة لمواجهة ممر في السلسلة الجبلية ليمروا منه إلى تبريز[1] rauriz ووصل قادة الشاه إسماعيل الذين كانوا في الطليعة إلى الجبال واتخذوا فيه مواقع حاكمة وأعاقوا مرور العدو، لكن عندما وصل الشاه إسماعيل نفسه كان غاضبا لعدم السماح للعثمانيين بالمرور وأمر قوّاده بالتخلّي عن المر وعندما وجد العثمانيون أن المر لم يَعُد مهّددا عبروا الجبل وجعلوا مؤخرة الجيش العثماني إزاءه وحصنوا أنفسهم وتمركزوا وكان معهم عدد كبير من المدافع المحمولة على عربات جري ربطها معاً بسلاسل وأحاط العثمانيون كل معكسرهم بهذه المدافع بالإضافة إلى خمسة عشر ألفا من حاملي البنادق ذوات الفتائل، وتربصوا جميعا منتظرين

(١) انظر فصل ١٩

هجوم الشاه إسماعيل فلم يكن العثمانيون ليجرؤوا على التقدم ومهاجمته في موقعه وأحكم العثمانيون الرقابة والحراسة عليهم - انقضاض غير خبير بالعثمانيين - بعشرين ألف فارس، فقسّم العثمانيون turks جيشهم إلى تشكيليْن وخرجوا من الحصن الذي أقاموه في انتظار هجوم الشاه، فلما انقض عليهم شتَّت شملهم وأجبرهم على الفرار وتتبعهم بحماس حتى دخل معسكرهم نفسه لكنه لم يكن يعرف أيّ شيء عن المدافع ولا كيف نُصبت ولا مواقعها الحاكمة، فناضل بحماس ليكون نّدا لخصمه لكن الترك (العثمانيين) أدركوا ما حاق بالفرس من فوضى فصدرت الأوامر بإطلاق المدافع من جانب، والبنادق ذوات الفتائل من جانب آخر، فتسبب هذا في دمار هائل فأدرك الشاه إسماعيل أن الهزيمة حاقت به إذ قتل من جيشه خلق كثير فتراجع بسرعة إلى تبريز التي تقع على بعد قرابة عشرين فرسخا فتعقبّه العثمانيون بسرعة وتقدم العثمانيون دون أن يلقوا مقاومة ودخلوا مدينة تبريز واستولوا على كنوز الشاه إسماعيل وأمواله، وبينما العثمانيون متمركزين في تبريز وصلتهم الأخبار بأن المسيحيين يحاصرون اسلامبول (القسطنطينية) فتركوا مشروعهم هذا وعادوا سراعا ومن ثم أعاد الشاه إسماعيل تنظيم قواته وعاد إلى تبريز tauriz ففر بعض القادة العثمانيين الذين كان قائدهم قد تركهم فيها، وأمر الشاه إسماعيل بمجرد دخوله تبريز بمعاقبة كل ذوي الحيثية في المدينة لسماحهم بدخول العثمانيين دون كفاح معهم.

وعندما سمع أفونسو دلبوكيرك أعلن ان الشاه إسماعيل كان دوما صاعقة من السماء أرسلها الله ضد الاسلام the sect of mahomet ليحفظ للبرتغاليين الهند رغم انه - أي الشاه إسماعيل - غير مُدرك لذلك لأنه - أي الشاه إسماعيل - عندما كان مجرد صبي في الثامنة من عمره ولا يشغل أي منصب مؤثر أو منزلة في المملكة، قام بثورة في العام نفسه الذي اكتشف فيه الأدميرال[1] الهند وشجعه عمه وساعده فبدأ يستولي عليركمانيا -TUR

(١) انظر جـ١ - مقدمة الترجمة الانجليزية
Pref PPxv seq

COMANIA وفارس ومملكة خراسان وسمرقند CAMARCAND ومدينة التتار وغيلان (١) ACQUILAM وأريجينا السفلى وغيرها من ولايات الترك والتتار، وراح يحرق المساجد ويعفو كنائس المسيحيين. لقد فعل كل هذا وهو ابن الثامنة فما الذي يُعجزه عندما أصبح في الرابعة والعشرين لولا أن الله أراد أن يكون إزاءه عدوّين قويين كالعثمانيين ruks ومماليك سلطان القاهرة؟

ولأن أفونسو دلبوكيرك كان غازيا عظيما وناجحا جدا في منهجه لإنجاز الأعمال العظمى فقد كتب مرّات عديدة للملك البرتغالي د. مانويل أن يتفق مع كل القوى المسيحية على وجوب تكوين علاقة صداقة مع الشاه إسماعيل لأنه إن كان إلى جانبهم لم يجدوا صعوبة في تدمير العثمانيين وسلطان مصر المملوكي وأن يتم استئذان البابا لإرسال رؤساء صناع لصناعة المدافع له فهي فقط التي يحتاجها الشاه إسماعيل لتمكينه من تدمير أعدائه. والآن فإن قائد الشاه إسماعيل قضى في هرمز عدة أيام ولم يكن قد أتاها - ببساطة - إلاّ لرؤية أفونسو دلبوكيرك، لذا فقد استأذن في العودة إلى بلاده فقدّم له أفونسو دلبوكيرك هدية من قطع ذهبية قيمة جدا وأمر رجاله بإطلاعه على كل المدافع الموجودة في هرمز وقال له أن يُعلن للشاه إسماعيل أنه بهذه المدافع وغيرها كثير في البرتغال يمكن أن يخدمه باسم ملك البرتغال ويساعده ضد أعدائه على وفق ما يراه (الشاه) مناسبا.

(١) Gilam (انظر الفصل التالي) . غيلان أو جيلان ولاية في فارس على الساحل الجنوبي لبحر قزوين وحرف A في بداية الكلمة الواردة في النص ليس الا أداة تأنيث في اللغة البرتغالية

الفصل الثالث والأربعون

هرمز، موقعها وتجارتها

يوجد في الهند* ثلاثة أماكن تُعدّ أسواقا لكل تجارتها في هذه الأنحاء من العالم، وتُعدّ بمثابة مفاتيح رئيسية لها.

الأوّل هو ملقى[1] التي تقع عند خط عرض ٢ شمالا، عند مدخل سنغافورة[2] ومخرجها singapara التي ذكرتها في سياق سابق. والثاني عدن التي تقع عند ٢١ درجة شمال خط العرض (؟) في مدخل البحر الأحمر ومخرجه، وقد أوردتُ عن عدن في سياق سابق كلّ ما لديّ من معلومات.

والمكان الثالث هو هرمز عند خط ١٥ شمالا** (؟) عند مدخل الخليج ومخرجه straits y the persian sea، ومدينة هرمز - على وفق أفكاري[3] - هي أهمّها جميعا. وإذا أصبح ملك البرتغال سيّداً لعدن بإنشاء حصنٍ قويّ فيها كحصن هرمز وحصن ملقى، فأحكم سيطرته على هذه الأماكن الثلاثة التي حدّدتُها فإنّه بذلك يُصبح سيِّد العالم كله - تماما كالإسكندر الأكبر عندما توغّل في الجانج ganges- فهذه المفاتيح في يده تُمكنه من إغلاق الأبواب في وجوه كل القادمين.

وإنّنني أعتقد أيضا أنّه لو لم يقطع الموتُ حياة أفونسو دلبوكيرك لتحقّق كُلُّ هذا. إنّ لديّ الكثير مما يمكن كتابته بهذا الشأن إلاّ أنّ هذا قد يجرّني إلى ذكر أخطاء الآخرين، لذا فلا بُد أنْ أعودَ إلى السرد التّاريخي الذي كنتُ بصدده.

وهرمز مدينة قديمة جدا حقّقت شهرة كبيرة - بسبب موقعها البحري والتجاري - في كلّ أنحاء العالم. لكنني لا أعرف تاريخ تأسيسها فمن الصعب

---

* يستخدم المؤلف كلمة (الهند) هنا ليعني بها مناطق كثيرة في الشرق غير الهند المحددة جغرافيا الآن، فهو مثلا يعتبر هرمز من الهند، وملقى من الهند وعدن من الهند...

(١) انظر جـ٣ ، فصل ١٧

(٢) انظر جـ٣ ، فصل ١٧

(٣) انظر الفصول الأولى من هذا الجزء.

** خطوط العرض في هذه الصفحة غير مضبوطة

تصديق أنّها نشأت على يد عُصبة من اللصوص كانوا يجوبون البحر للسلب والنهبِ (كما ذكر كورينث corinth في بداية تاريخه) فهذا غيرُ صحيح لأنّها جزيرة لاتزيدُ عن ثلاثة فراسخ تنْقُصها المياه العذبة بشكلٍ كبير، ومكّونة من صخور مالحة، وحتى تعتمدُ على البّر الرئيسي في التزوّد بالمياه. وليس صحيحاً أيضا أنّ نعترض أنّها نشأت على أيدي صيادي الأسماك الذين لجأوا إليها (كما حدث بالنسبة للقى)[1] فالمياه العذبة تُعوزها كما ذكرتُ آنفا.

أمّا والأمرُ كذلك، فلنترك كل واحد كما يحلو له ليحدثنا عن نشأتها، وعلى هذا فالمسلمون وقد اعتقدوا أنّ هرمز مكان مهم جدا، قالوا: «إنّ العالم حلْقة وهرمز جوهرتها» وتفسير ذلك أنّ مختلف أنواع التجارة تأتيها من بلاد التتار وبلاد التركمان وغيلان[2] GILAM وبغداد[3] bagada والقاهرة وكل أنحاء الهند، ويمكن للمرء أن يحصل من هرمز على كل ما يرغبه من بضائع.

وليس في هذه الأنحاء من العالم أفضل من هرمز من حيث توفّر المؤن رغم أنّ أيّا منها لايتم إنتاجه فيها. ويمكن للمرء أنْ يجد في هرمز كلّ أنواع الفاكهة المجففّة والطازجة، كما في إسبانيا، حقيقةٌ ما أرويه عن هرمز لدرجة أنّه في أيام أفونسو دلبوكيرك اعتاد الناسُ إحضار الثلج للبيع في هرمز من مسافة ثلاثين فرسخاً داخل البّر الفارسي. ومن هرمز يتمّ شَحنْ خيول كثيرة إلى الهند، وهي خيول غالية الثمن جدا لأنها من أحسن السلالات. والخليج the strauts of the persian sea مليء بالقرى على جانبيه ومليء بالجزر، وكلاهما – الجزر والقرى – عامرة بالسكّان وخاصة على سواحل شبه الجزيرة العربية حيث توجد مدينة البصرة[4] bacora التي بها نهر ينبع من مسيلات مكّة meca debouches ويَقْسِمُ البلاد كلّها إلى قسمْين، وتوجد على البر الفارسي للخليج ولاية راكسل[5] raxel (أو رِكسل rexil) وتضمُ كثيرا من القرى والحصون على طول السّاحل

(١) انظر ج-٣ ، فصل ١٧

(٢) انظر حواشي الفصل ٤٢ .

(٢) Baghdad

(٤) مدينة البصرة Basrah ميناء العراق (ميزو بوتاميا) المدخل:!!!
٣٢ و ٣٠ شمالا، ١٥ ، ٤٧ شرقا

(٥) انظر الخريطة جـ١ P.80 (Rexil) جـ٤ حواشي فصل ٢٥ أيضاً.

ويمارس أهلُ هذه الأنحاء تجارة مزدهرة واعتادوا تصدير كلِّ أنواع البضائع الفارسية، وعلى رأس هذا الخليج كله توجد مدينة بغداد[1] bagada التابعة - عادة - لحكام أرمينيا armeniaلكن الشاه إسماعيل استولى عليها منهم، والآن اصبحت تابعة للعثمانيين turk وتندمج ثلاثة أنهار هنا[2] أحدها هو الفرات -eu phrates والآخر هو دجله tigris والثالث هو ديالي (؟) fizam ويُقال إنها تنبع من بحيرة كبيرة داخل البر الفارسي، والموضع الذي يصب فيه مجّمع الأنهار هذا في البحر يُسمّيه المسلمون شط العرب * xerdeauda ويندفعُ الماءُ بقوّة هائلة. ومن مدينة بغداد كان تأتي منذ القدم بضائعُ مختلفة إلى هرمز، ولكن ملك البرتغال منع هذه التجارة الآن. وفي الخليج توجد أيضا جزيرة يُقال لها البحرين كذلك[3] barem مشهورة بانتاج الخيول بكثرة كما مشهورة بمحصول الشعير وبتنوّع فواكهها، ويُحيط بها من كل جانب مصايد اللؤلؤ الذي يتم إرساله إلى ممالك البرتغال لأنّه أجود من اللؤلؤ الموجود في أيٍّ مكان آخر في هذه الأنحاء وهو أكثرها نقاءاً. وبالإضافة لهذه المواضع الرئيسيّة فإنَّ الساحل الشرقي للخليج عامر بقرى كثيرة صغيرة يمارس سكانُها تجارة محدودة، والحقيقة أنَّ كلَّ الخليج the sea يَعجّ بالسفن الصغيرة الخفيفة أحمالُها نظراً لكثرة المناطق الضحلة، وكل هذه المواضع تزوِّدُ هرمز بكميات كبيرة من الحرير الذي يجري تصديره إلى الهند. ومعظم أهل هذه الجزيرة فُرس واللغة السائدة هي الفارسيّة. وهذه الجزيرة (البحرين) تضم - أيضا - مناجم للكبريت، ومناخها في الصيف غير صحي لشدّة الحرارة فيها، ويمتدّ سلطان حاكم الجزيرة حتى ؟[4] goader وهي مدينة كبيرة تقع في بلاد(؟) noutaques*.

---

(١) Baghdad

(٢) في القرنة Kurnah شمال البصرة تلتقي هذه الأنهار الثلاثة الكبرى: نهر الفرات ونهر دجله أو الـ Imarah ونهر الكرخان Kerkhan أو Hwiza ، وإلى الجنوب من البصرة على الجانب الغربي يوجد نهر قارون، ويسمى المجرى بعد عبور البصرة باسم نهر البصرة أو شط العرب. انظر: Cten F.R. Chesney ص-s Narralive of the Eu-phrates Expedltion, 1835 - 1837 . London: 1868 (Map.)

(٣) انظر فصل ٢٥ ، حاشية ٢

* لكن الكلمة لا تقرأ هكذا. وقد تكون مقابلا برتغاليا لكلمة محلّية لم نستطع تبينها. يلاحظ أن بعض المعلومات الجغرافية في هذا الفصل غير صحيحة، وقد تلقاها المؤلف بالسماع ودون تحقق.

(٤) انظر الخريطة جـ١ (ص٨٠ من النص الانجليزي) : ١- منطقة جودل Gaudel وميناء جودل Gaudel إلى الشرق من هرمز، والخريطة الأسبق زمنا في جـ٢، ص١ V.III,P.I على ساحل Noutaques (؟)

* الإشارات هنا مضطربه جدا ولم نستطع تحديد ساحل Noutaques على الخرائط المتاحة لنا.

الفصل الرابع والأربعون

أفونسو دلبوكيرك يعقد اجتماعا بشان من يخلفه إذا مات نظراً لمرضه، وما جرى الاتفاق عليه بهذا الشان، وإبحاره إلى الهند

والآن ، فلأن الفونسو دلبوكيرك ظل يواصل العمل ليلاً ونهاراً أملاً إتمام الحصن البرتغالي في هرمز بسرعة ، ولأن الحرارة كانت شديدة، ولأنه كان كبير السن معتلا، لكل هذا فقد بدأت نوبات شدّة المرض تنتابه مرة أخرى بعنف شديد فظل لا يخرج من باب غرفته أحد عشر يوماً ولم ير أحد طوال هذه المدة سوى أصدقاءه المقربين. وبدا أمر احتجابه غريباً للناس فبدأت الإشاعات تسري في المدينة عن موته، لذا فقد كان مضطراً لإظهار نفسه للناس ليهدئ من روع المسلمين والبرتغاليين ، وراح يسمح لبعض القادة والقباطنة برؤيته رغم مرضه الشديد. وغدت حالته الصحية تزداد سوءاً يوماً بعد يوم وشعر بوهن شديد حتى أنه أمر – أخيرا –باجتماع كل القادة والقباطنة في بيته وأعلن لهم بحضور السكرتير بيرو دالبوم pero dalpoem أنّه رجل كبير السن دَهمه المرض ويمكن أن يموت في أية لحظه، لذا فهو يرغبُ إليهم أن يتكرّموا بالقسم أمامه، يمين الإخلاص والولاء والطاعة إلى الشخص الذي سيُوكل إليه سلطاته – قبل أن يموت، حتى يقضي الملك د. مانويل في هذا الأمر على وفق ما يشاء، وقال لهم لابد من ذلك حتى إذا ما شاءت إرادة ربنا our lord أن تنتهي مهمته في هذه الحياة، يكون قد ترك أمور المملكة منظمة منضبطة وأن يكون الحصن البرتغالي قد تم لصالح خدمة سيّده ملك البرتغال.

وأجاب القادةُ والقباطنةُ والدموع الغزيرة تنهمر من عيونهم أنهّم يأملون من ربنا our lord أن يهبه الصحّة، فكلهم جميعا يتمنون له السعادة، فليأمر بما يشاء لما فيه المحافظة على مُلك ملك البرتغال في هذه الأنحاء من العالم، وله منهم السمع والطاعة، وسيسعدهم الموافقة على من سيوكل إليه سلطاته.
وشكرهم أفونسو دلبوكيرك لمشاعرهم الطيبة إزاءه وتمنياتهم له بالشفاء، وعبّر هو بدوره عن مشاعره بكثير من الكلمات الرقيقة، وراح كل واحد منهم يُقسم أمامه يمين الولاء لمن سيسميّه باسم ملك البرتغال، ومن ثم أمر السكرتير بيرو دالبوم بتحرير مستند رسمي بذلك وقّعوا عليه جميعا.

وبعد هذا راحت حالة أفونسو دلبوكيرك تتدهور يوما بعد يوم بشكل خطير فكرّس نفسه للمسائل الدينية، فبعد أن اعترف أمام رجل الدين الموكّل بتلقي الاعتراف، وحضر قدّاس العشاء الربّاني وغير ذلك من طقوس العقيدة المسيحية استدعى في ١٢ أكتوبر ابن أخيه بيرو دلبوكيرك (وهو ابن جورج دلبوكيرك ابن عمّه) وقال له إنه شخص ذو شخصية يُسعد الرجال بقاءه في حصن هرمز وينظر إليه ملك هرمز دائما بتقدير وطلب منه بقاءه، والأكثر من هذا فإنه – أي بيرو دلبوكيرك – يستحق التكريم لفروسيته ونبالة أصله، لكل هذا فإنه – أي أفونسو دلبوكيرك – قد عيّنه باسم ملك البرتغال قائداً لحصن هرمز وأن يكون ذلك لقاء ٤٠٠,٠٠٠ ري reis ومئتي قنطار من الفلفل كأجر سنوي، وأن عليه (بيرو دلبوكيرك) من الآن فصاعدا أن يولي اهتمامه لإتمام بناء الحصن لأنه – أي أفونسو دلبوكيرك – لم يعد لديه رغبة للاهتمام بأي شيء سوى أن يضرع إلى الله ليسامحه على تقصيره في أداء عمله، أما هو بيرو دلبوكيرك فعليه أن يأمر بوضع المدافع في أماكنها المحدّدة فالحصن قد ارتفع بنيانه بدرجة تكفي للتمكين من الدفاع عنه والمحافظة عليه، وعليه أن يطلق على هذا الحصن اسم حصن سيدتنا سيدة البشارة بالمسيح nossa senhora da canceica، وأن يصدر أوامر بجمع كل المؤن الموجودة خارج المخازن في منزل المشرف al-moxaife (وهو المسؤول عن تسلّم العوائد) وقال له أيضا انه يجب ان يجعل

نيكولاو فريرا nicolao ferreira رئيسا لحرس ملك هرمز وأوصى بشدّة بحسن استقبال الملك، ثم أمر باحضار ابني الملك سيف الدين (الملك الراحل) ليمثلا أمامه فلما حضرا سلّمهما لبيرو دلبوكيرك وأوصاه بالعناية بهما ويجعلهما عنده ليستخدمهما كأداة ضغط على الملك الحالي (المعنى: يهدده إذا لزم الأمر بتنصيب أحدهما ملكا) ذلك لأنه – أي ملك هرمز الحالي – تركهما يعيشان في هرمز على غير رغبته، لأنه سبق له أن قتل أخاه الملك سيف الدين واغتصب المملكة لكنه – أي أفونسو دلبوكيرك – خادعه وصانعه إلى هذا الحد لأن هذين الصبيّين (ابنيْ الملك السابق سيف الدين) صغيران لا يصلحان للحكم.

وقبّل بيرو دلبوكيرك يديه بسبب الحصن الذي أوكله إليه وذكر أنه سيطيعه في كل ما أمره به لأنه اختاره من بين كثير من القادة والقباطنة وذوي الرتب وحاملي ألقاب الفروسية على أنهم يستحقون هذا المنصب أكثر منه، وشكره للمنافع التي ستعود عليه كذلك بتولّي هذا المنصب. وحالما انتشر خبر تولية بيرو دلبوكيرك منصب قائد الحصن أحسّ كثيرون بعدم الرضا (فقد كان كل واحد من القادة والقباطنة يظن أن الاختيار سيقع عليه) لكن اعتراضاتهم كانت على غير أساس لأن بيرو دلبوكيرك كان ذا قدرات نادرة وأظهر روحا عالية وكرّس وقته وجهده لعمله في الفترة التي تولى فيها أمر قيادة حصن هرمز؛ إذ كرّس نفسه من الآن فصاعدا لإكمال بناء الحصن وتزويده بكل ما يلزمه. وعين أفونسو دلبوكيرك مانويل دا كوستا manuel da costa ابن أفونسو كبير أطباء الملك دوم مانويل – وكيلا تجاريا وعين كلاً من مانويل دي سيكويرا manuel de sequeira خادم دوقة براجانزا braganzaa وديوجو دندريد diogo dandrade خادم الغرفة الملكية، موثقيْن.

وبعد هذا ما عاد أفونسو دلبوكيرك يزعج نفسه بأي أمرٍ من أمور العمل ولم يعد أحد يستشيره في أي أمر من الأمور، وأمر ديوجو فرناندز دي بيجا أن يجهز له السفينة فلور داروزا flor da rosa للابحار إلى الهند مع كل السفن المعيّنه للاشتراك في هذه الرحلة. وبعد أن رتّب أمر مغادرته على هذا النحو.

أرسل إلى ملك هرمز – عن طريق بيرو دالبوم وإسكندر دي أتيد – يخبره برغبته في مغادرة هرمز لأنه من الضروري تماما بالنسبة له أن يذهب إلى الهند لإقرار أمورها، لذا فهو يرجوه أن يعذره لعدم اللقاء قبل الودا ع لأن المرض قد زاد عليه زيادة شديدة فلم يتح له فرصة لقائه وتوديعه، لكنه (أي أفونسو دلبوكيرك) واثق في رحمة الله أن يمكنه من العودة إلى هرمز قريبا لزيارته، وأنه سيترك بيرو دلبوكيرك ابن اخيه كقائد للحصن وأكد له ضرورة أن يكون في خدمة ملك هرمز وتحت أمره. فأجاب ملك هرمز قائلا لبيرو دلبوكيرك ضرورة أن يُعلن لوالده (يقصد أفونسو دلبوكيرك) أنه حزين جدا لمغادرته ولايجعله متصبّرا سوى الأمل في رؤيته مرة أخرى سريعا.

وعلى هذا كان أفونسو دلبوكيرك شديد الرغبة للتوجه إلى الهند فاستأذن من بيرو دلبوكيرك والقادة والقباطنة الذين سيبقون معه، وأبحر يوم الخميس ٨ نوفمبر سنة ١٥١٥ م قرابة الساعة السادسة حتى لا يلاحظ أحد حالته، وألقى الأسطول مراسيه مرة أخرى على بعد فرسخ واحد من المدينة وظل في انتظار القادسيْين الكبيرين، وكارافيلا جوآو جوميز joao gomez والسفينة الشراعية ذات الصاريين سانتياجو sanctiago التي كان عليها أن تنضم إليه في أثناء إبحاره. وفي صباح السبت وصل حاكم علي haken ale بقاربين حربيين (طرّادين terradas) من قوارب أهل هرمز محملة بمؤن منعشة ارسلها له ملك هرمز فأمر بإحضارها إليه في غرفته. وبعد أن سلّم حاكم علي رسالة من الملك أجاب أفونسو دلبوكيرك شاكرا وقال إن حالته تحسنت بعد أن أصبح في عُرض البحر، وأنه الآن وقد غادر هرمز، فإنه يرجو الملك أن يولي اهتمامه لإكمال بناء الحصن الذي هو أفضل شيء له فعن طريقه يمكنه حفظ ملكه، ثم ودّع أفونسو دلبوكيرك حاكم علي وأعطاه ثلاثين أشرفيا كما دفع أربعين أخرى للمسلمين الذين قادوا الطرّادين وقدم لهم نبيذا فكانت سعادتهم بالنبيذ أكثر من سعادتهم بالنقود، وما أن رحل حاكم علي ومن معه، حتى أبحر الأسطول البرتغالي وفيه أفونسو دلبوكيرك إلى الهند مباشرة.

الفصل الخامس والأربعون

أفونسو دلبوكيرك الكبير يأسر قاربا حربيا مبحرا من ديو، ويعلم من أفراد طاقمه أن لوبو سوارز عُيّن حاكما على الهند، وكيف مات أفونسو دلبوكيرك عند وصوله لحاجز المياه في جوا

بعد أن استأذن حاكم علي منصرفاً طلب أفونسو دلبوكيرك من ديوجو فرناندز دي بيجا أنْ يُسْرِع في الإبحار، وعندما تركوا مضيق هرمز وتقدموا في إبحارهم حتى قلهات[1] calayale وقع نظرهم صباح ذات يوم على قارب للمسلمين (طرّاد) كان يبحر سريعا وقد نشر شراعه، ولأن أفونسو دلبوكيرك كان راغبا في معرفة بعض الأخبار عن الهند فقد طلب من ديوجو فرناندز – قبطان سفينته – أن يرسل السفينة الشراعية سنتياجو ذات الصاريْين لتلحق به، وسأل ديوجو فرناندز أفراد الطاقم من أيّ مكان أتوا فأفادوا أنهم قادمين من ديو diu فأمر أفونسو دلبوكيرك بإحضار قبطان هذا القارب وريسه ومُرشده أمامه، وأمر المترجم اسكندر دي أتيد وجعله يُقسم ألاّ يحجب عنه خبرا يقولونه ولا نبأ عن الهند يُدليان به. لقد اعتذر هؤلاء المسلمون لأنهم لم ينزلوا الشراع فورا بمجرد قدوم السفينة البرتغالية ذات الصاريّيْن مُتعلّلين بأنهم لم يكونوا يعرفون بوجوده هو نفسه على متن سفينته، لكن المرض الشديد والآلام المبرحة التي كان يعاني منها أفونسو البوكيرك كانت تجعل حتى الحديث، بالنسبة له أمراً شاقاً، فقد رغب إلى اسكندر دي أتيد أن يُسرع بسؤالهم عن

(١) انظر جـ١ – فصل ٥٧.

أحوال الهند وعن الميناء الذي هم متجهون إليه. فاعترف قبطان القارب (الطراد) أن سيّد علي Cide Ale وأحد سفراء الشاه إسماعيل كان في ديو، قد أرسلاه بخطابات إلى سيادته (إلى أفونسو دلبو كيرك) ويمكنه عن طريق هذه الخطابات معرفة أخبار الهند، فأمر أفونسو دلبوكيرك المترجم اسكندر دي آتيد بقراءة الخطابات فورا. أما بالنسبة لخطاب سيد علي فقد ورد به أن اثنتي عشرة سفينة[1] قدمت من البرتغال وعلى متن إحداها لوبو سوارز مُعيناً كحاكم عام للهند، وديوجو مندز كقائد لحصن كوشن، وقادة آخرون للحصون الأخرى على النحو الذى بينه الخطاب، وورد في هذا الخطاب أيضا أن (ملك) عزيز (ملك عزيز) لم يكتبُ له لأنه كان مُحبطا كثيرا لأن الملك قد أمره بمغادرة الهند.

أما خطاب سفير الشاه إسماعيل فقد وجد فيه نصيحة لأفونسو دلبو كيرك بالدخول في خدمة الشاه إسماعيل مادام ملك البرتغال لم يقدّر جهوده العظيمة في خدمته وأعماله المنطوية على معنى الفروسية، وقال سفير الشاه إنه متأكد أن الشاه إسماعيل سيقدّر خدماته وسيعينه كواحد من بين أعظم نبلاء (حكام) بلاده، وطلب سفير الشاه إسماعيل حقّ المرور الآمن لجلب بضائع إلى هرمز ونقلها إلى فارس.

---

(1)The British Museum MS 20,902 F.18, gives the following account of the fleet of fifeen ships that sailed from portugal to India in A.D.1515"

Naos, a7 de Abril.

"O Gouernador Loppo Soares Capitao Mor de Quinze Naos, partio a sete de Abril, Capitao Dom Guterre de Monroy, Castelhano, Simao da Silueyra, Aluaro telles, Diogo Menes de Vasconcellos, Jorge de Brito, Copeiro mor del Rey, Fernao Peres de Andrade, Dom Aleizxo de Menesis, Christouao de Tauora, Dom Joao da Siluia, Aluaro Barretto, Franco de tauora, Simao dalcaceva, Antonio lobbo falcao, Jorge Mascarenhas, Do ALeixo foi por Capitao mor do Mar Sobrinho do Gouernador e nas absencias tinha poderes de G[ouernad] or."

"Joao de Barros diz, Que foram somente treze naos, e nao conta mais, que os treze capitaes seguintes nesta forma = D. Gutterre de Monroy Castelhano na Piedade = Simam da Silveira en sto Antonio = Christouao de Tavora = Alvaro Tellez Barreto em S. Gido= Frco de Tavora em S.christouao= D. Joao da Silveira em sta Maria da Serra = Jorge de Brito Copeiro Mor del Rey = Alvaro Barreto = Sima'o de Alcacova = D. Aleixe de Menezes = Diogo Mendes de Vasconcellos Capam e Feytor de Cochim = Fernam Peres de Andrade."

From this latter paragraph it appears that the number of ships, according to Barros, was thirteen. Correa says twelve naos and three navios, and gives his own list of captains, etc,-Lendas, ii, 463.

وعندما علم أفونسو دلبو كيرك بتعيين حاكم للهند ليحل محلّه وأدرك أن أعداءه قد أصبحوا أثيرين لدى الملك البرتغالي رفع يديه وشكر ربّنا وصاح «في ظل أناس سيئين أفسدوا الملك ، وفي ظل ملك سئ أفسده الرجال، من الأفضل أن تأخذني يارب» وما أن قال ذلك حتى أمر بأخذ كل الخطابات التي مع طاقم هذا القارب والموجهة إلى أى أحدٍ في هرمز ، فقد كان في هذه الخطابات أنه إذا لم يكن الحصن قد تم تسليمه فعلا لأفونسو دلبوكيرك فلا يجب تسليمه إيّاه لأنه قد أصبح للهند الآن حاكم جديد سيفعل ما يريدونه (أى ما يريده حُكّام هرمز) ، وحتى لا تلحق هذه الخطابات ضررا بعملية استمرار الحصن، فقد أمر بإحراقها جميعا، وصرف المسلمين (طاقم القارب الآنف ذكره) وانفرد بسكرتيره وكان بالفعل قد أعد وصيّته التى عبّر فيها عن رغبته في أن يتم دفنه في كنيسته التي بناها في جوا والتي سبق له أن استولى على موضعها من المسلمين ، إلاّ أنه طلب من السكرتير إضافة ملحق لهذه الوصية يذكر فيه أن تُنقل عظامه - بعد تحلّل سائر البدن - إلى البرتغال، كما أوصى بأمور أخرى ليس من الضروري ذكرها هنا. وبعد أن أنهى ملحق وصيته، كتب خطابا إلى الملك د. مانويل كالتالي: «سيِّدي إنني أكتب لك لجلالتكم هذا الخطاب وأنا أعاني من التقلّص اللا إرادي وهو علامة على قرب موتي. يوجد في مملكة البرتغال ابن لي أريد أن تكرمه (تجعله نبيلا) من أجل خاطري فأنا أستحق ذلك لما أديته من خدمات لجلالتكم باعتباري خادماً لكم، لأنني أمرت ابني هذا أن يدعِّم مباركتي له بطلب هذا الأمر بين يديكم . أما بالنسبة لأمور الهند فلن أقول شيئا، فهي سوف تتحدّث عن نفسها وعنّي».

والآن أصبح أفونسو دلبو كيرك واهنا جدا لا يستطيع أن يقوم من مقامه وراح يطلب من ربنا أن يُوصله إلى جوا فإذا وصلها فليقض في أمره بما هو مفيد له، وعندما أصبحت السفينة على بعد ثلاثة فراسخ أو أربعة من حاجز المياه في جوا أمر باستدعاء القس فر. دومينجوز Fr. Domingos والطبيب أفونسو Mastar Afonso . ولأنه كان من الوَهن بحيث لا يستطيع تناول أي طعام فقد طلب أن يسقيه بعض من حضر قليلا من النبيذ الأحمر الذي وصل

هذا العام من البرتغال . وعندما سبقت السفينة الصغيرة ذات الشراعين في المقدمة إلى جوا، وشرعت سفينة أفونسو دلبو كيرك في إلقاء مراسيها عند حاجز الماء، في ليلة السبت ١٥ ديسمبر، أخبروا أفونسو دلبو كيرك أنه قد وصل وأن رحلته قد انتهت فرفع يديه إلى السماء وشكر ربنا أن حقق رغبته في الوصول إلى جوا، وظل طوال الليل مع رئيس الكهنة الذي كان قد وصل فعلا إلى السفينة وبيرو دليوم سكرتير حكومة الهند وكان قد عَهِد إليهما بتنفيذ وصيته، وعانق أفونسو دلبو كيرك الصليب وظل يناجيه ورغب إلى رئيس القسس (وهو الذي أدّى طقس الاعتراف أمامه) أن يتلو عليه ما كتبه القديس يوحنا عن آلام المسيح وكان أفونسو دلبو كيرك مولعا بهذا السِّفر لما فيه من ذكر للخلاص، وطلب منهما أنْ يلّبساه ملابس كتلك التي كان يرتديها القديس ياجو Sanctiago لأنه كان يعتبر هذا القديس قدوة له، وذلك حتى يموت وهو مرتدٍ هذا اللباس وقبل ساعة من طلوع صبح يوم الأحد سلّم روحه لله وبذلك انتهت كل متاعبه التي لم يقوّض عنها. ويمكننا أن نصدّق أن واحداً تنتهي حياته على هذا النحو لا يمكن أن تكون أخطاؤه كثيرة لدرجه أن يأمر الملك البرتغالي – الذي كان أفونسو دلبو كيرك يخدمه بإخلاص – بعوْدته إلى البرتغال دون أن يكافئه على خدماته، ولكن لأنه كان من بين مستشاري الملك البرتغالي أعداء لأفونسو دلبو كيرك يحسدونه لعظمته وانتصاراته الباهرة التي منّ ربنا Our Lord بها عليه في هذه البلاد فقد غلبوا الملك على أمره حتى أمر بعودته (أى عودة أفونسو دلبوكيرك من الهند) واختلقوا لذلك أسبابا لتحقيق هدفهم وعملوا على إرسال لوبو سوارز Lopi Soarez كحاكم للهند. لكن عندما أدرك الملك ما وقع فيه من خطأ وأنه في حاجة إلى وجود أفونسو دلبو كيرك في الهند، عدل عن رأيه وكتب خطابا سأذكره فيما بعد في كتابي هذا، وقد صدرت الأوامر بنسخه من النسخة الأصلية للخطأ الذي وجدته بين أوراقي.

الفصل السّادس والأربعون

حمل جثمان أفونسو دلبو كيرك لدفنه

في الكنيسة والحزن عليه حزنا شديدا،

وعن حياته وأحواله

والآن وقد هَلَك أفونسو دلبو كيرك ، فتم تكفينه بسرعة قبل أن يصل إلى السفن أي أحد من المدينة، وتم إلباسه الملابس الدالة على انتمائه إلى الجماعة الدينية للقديس ياجو Sanctiago وتم تلبيسه حذاءً نصفيا، ووُضع في نطاقه سيف – على وفق الطريقة التي يُدفن بها أعضاء الجماعات الدينية المقاتلة في سبيل العقيدة المسيحية، ووضعوا على رأسه غطاء رأس من قطيفة، وحول رقبته قماشاً من قطيفة من نوع غطاء الرأس نفسه، وبعد أن جرى إلباس الجثّة على هذا النحو أصدر بيرو دلبوم بفرش استراحة السفينة بالسجّاد وتم إخراج الجثة على نعش مغطى بطيلسان من قطيفة سوداء وقد طُرح رأسه على حشيّة من قطيفة سوداء أيضا، وأمر قبطان السفينة ديوجو فرناندز دي بنيحا بتجهيز قارب لنقل الجثمان إلى الشاطئ فلما أطلّ الصبح بدأ أهل جوا يتجمعون في قوارب وقد علا صياحهم ليرافقوا قاربه إلى الساحل لكنهم عندما سمعوا أنّه قد مات علا بكاؤهم ونحيبهم من كل جانب حتى لقد بدا أن نهر جوا نفسه يبكي بغزارة ، ولأن الناس كانوا مزدحمين ازدحاما شديدا، فقد تم وضعه في القارب بسرعة ومن ثَمّ جرى نقله إلى المدينة.

وعندما وصل القارب إلى الرصيف كان في انتظاره د. جوترس[1] D. Go-terres قائد المدينة وكل ذوي الرتب وحاملي ألقاب الفروسيّة والجماهير والقسس والرهبان، وجرى نقل الجثمان إلى البر فوق تابوته وعندها ازداد النواح واشتد العويل وبعد أن صلّى عليه الكهنة والرهبان وهو الأمر الذي لم يستطيعوا أداءه

(١) هو د. جوتير دي مونروي D.Groterre de Monroy على وفق رواية كوريا Correa

بغير بكاء. حمل ذوو الرتب ممن حضر النعش على أكتافهم ملفوفا بالطيلسان الأسود إلى كنيسته «كنيسة سيدتنا سيدة البشارة» حيث دُفِن، وفي الطريق إلى الكنيسة تجمع جمع كبير من أهل المدينة ليس من المسيحيين فقط وإنما من الهندوس والمسلمين أيضا وغصّت الشوارع والدموع تنهمر من الجموع أسفاً على موته. وبالنسبة للهندوس فإنهم عندما رأوا جسده مُسَجىً على التابوت بلحيته الطويلة التى تصل إلى خصره وبعينيه نصف المفتوحتيْن قالوا إنه لا يمكن أن يكون قد مات وإنما استدعاه الله لحاجته إليه ليشنّ به حربا ما* . وقد استمر موكبه الذى يصاحبه صراخ الحزن وعويل الأسى حتى الكنيسة التى أسسها في مواجهة بوّابة المدينة (جوا) حيث دخلها عندما كان قد استولى عليها من المسلمين، وفي الكنيسة تم إكمال الطقوس الكنسية وهي طقوس يمكنني الحديث عنها بسعادة بتفاصيل كثيرة. وكان أفونسو دلبو كيرك قد ترك في جوا عوائد كثيرة (أوقاف) ممثلة في إيجار منازل ومخازن للانفاق اليومي على هذه الكنيسة، وما يتبقى بعد ذلك كان يتم دفعه كصدقات للأطفال البرتغاليين الأيتام. وعندما أراد ابنه أفونسو دلبو كيرك (ابنه هو مؤلف هذا الكتاب ويحمل اسم أبيه نفسه) أن ينقل عظامه (عظام أبيه) إلى البرتغال حصل على إذن بمرسوم بابوي ببيع هذه الممتلكات (الأوقاف) وبناء مستشفى للحجاج المسيحيين (إلى بيت المقدس) في أرتياد Azeit'ao وكنيسة مجاورة لها، وأن يترك في جوا ممتلكات (أوقاف) تدر عائدا مقداره أربعون ألف ري reis للإنفاق على القدّاسات اليوميه في هذه الكنيسة المذكورة آنفا، وفقا لما ورد في المرسوم البابوي نفسه. وعندما انتهت المراسم الجنائزية أمر بيرو دلبوم بإقامة نصب تذكارى من ثلاث درجات مغطى بالقطيفة السوداء على المقبرة كما أمر بتعليق قماش أسود في الكنيسة وخارجها وأمر بوضع العلم الملكي الذي كان أفونسو دلبو كيرك يحمله أمامه دائما في المعارك - على قبره وكان هذا العلم نفسه قد جرى إرساله له من الملك د. مانويل من أبرانتس Abrantes (نظراً

* نستغفر الله الغني عن العالمين.

لتفشى الطاعون في لشبونة وقتها) إذ تم حمل هذا العلم من أبرانتس إلى بلم Belem حيث تسلمه – أى أفونسو دلبو كيرك – وهو على وشك الإبحار من البرتغال. وهذا العلم محفوظ الآن في كنيسة سيدتنا سيدة الرحمة حيث توجد عظامه. وكان هذا القائد العظيم متوسط الحجم طويل الوجه حاضر اللون، كبير الأنف شيئا ما. وكان رجلا محنّكا، ودارسا للاتينية، وكان يتحدث بفقرات بليغة، ويظهر تعليمه الراقي بشكل واضح في مناقشاته وكتاباته. وكان حاضر الإجابة معقولاً في أوامره ، حذراً في تعامله مع المسلمين ، وكان مهابا جدا ومحبوباً من الجميع* وهى صفات قلّما تجتمع في قائد.

وقد قال الملك د. فرناندو الثاني ملك قشتالة لبيرو كوريا عندما كان سفيرا للبرتغال في بلاطه إنه لما يدعوه إلى الدهشة كثيرا كيف يأمر الملك د. مانويل بعودة أفونسو دلبوكيرك من الهند مع أنه كان قائدا عظيما موفّقاً في حروبه. وكان أفونسو دلبوكيرك يُحرز النصر في معاركه ضد المسلمين بحرا وبرا، وقد جُرح حقا في بعض الأحيان لأنه كان يضع نفسه في مواضع غير آمنة. وكان بارعا في إنجاز ما يعقد العزم على إنجازه، واصبح اسمه وما حقّقه من نجاحات أمراً مشهورا بين كل ملوك أوربا وآسيا وأمرائها حتى أنّ السلطان التركي GRAND TURD عندما كان يتناقش مع د. ألفارو دي ساند D. AL-VARO DE SANDE قائد الإمبراطور شارل الخامس CHARLES II الذي أسره – حول أمور الهند وضع يده على صدره وقال إن أفونسو دلبوكيرك كان قائدا غير عادي. وكان أفونسو دلبوكيرك مستقيماً صادقا** محبا للعدالة حتى أنّ الهندوس والمسلمين كانوا إذا تَعّرضوا لأية إهانة من حكام الهند، اعتادوا التوجه إلى جوا لزيارة قبر أفونسو دلبوكيرك وقدموا له باقات الزهور المتازة وقدموا زيتا لمصابيح قبره، وراحوا يتوسّلون إليه طالبين منه تحقيق العدالة لهم***. وكان أفونسو دلبوكيرك محسناً على الفقراء وعمل على تزويج نساء

* الولد (المؤلف) يتحدث عن أبيه، وفي ضوء هذا يمكن فهم هذه العبارات . وإذا أضفنا أن الولد ابن حرام أغنانا هذا عن التعليق.

** شهادة الابن لأبيه

*** التوسل إلى الموتى سفة وأصبح المثقفون من كل الأديان يرفضون ذلك

كثيرات في جوا وليس أدلّ على كرمه من أنّه أمر بتقسيم كل الهدايا التي أهداها له ملوك الهند - وكانت هدايا كثيرة جدا وغالية جدا - بين القادة والقباطنة وذوي الرتب ممن ساعدوه في الحصول عليها. وكان شريفا في حياته ومهتما بلغته حريصا على فصاحتها حتى أن القسم الذي اعتاد أن يُقسم به في شدّة غضبه «إنني أمقت الحياة التي أحياها» أو «لقد كرهت حياتي» أو «اكره الحياة مادمتُ حيا». وقد مات أفونسو دلبوكيرك عن ثلاثة وسبعين عاما، وكان قد ظل يحكم الهند طوال عشر سنين.

الفصل السابع والأربعون

كيف ندم الملك د. مانويل على أمره بعودة أفونسو دلبوكيرك من الهند، فأردف خطابه بخطاب آخر بعدم عودته، وعما كتبه إلى لوبو سوارز حاكم الهند بهذا الشأن

أبحر لوبو سوارز إلى الهند مزوّدا بصلاحيات حاكمها خلال شهر مارس في سنة ١٥١٥م، وفي شهر أغسطس من العام نفسه وصلت أخبار إلى الملك البرتغالي د. مانيول عن طريق البندقية (لأنه كان دائما يتلّقى أخبارا من هذه المدينة عن تحركات سلطان مصر المملوكي، كما كان يتلقى أخبارا بهذا الشأن من سفيره في روما) أن سلطان القاهرة المملوكي استاء لدخول البرتغاليين إلى البحر الأحمر، فأعد أسطولاً كبيرا من القوادس والغلايين الضخام في السويس وزوّده بكثير من المدافع والمقاتلين ليتجه إلى الهند خاصة إلى مملكة هرمز للحيلولة بين أفونسو دلبوكيرك والاستيلاء عليها، واستاء الملك لهذه الأخبار وأسف لاستدعاء أفونسو دلبوكيرك فقرر عزمه عن أن يعمل بكل قوة لدعم قوّاته في الهند بأقصى سرعة وأمر فورا بتجهيز أسطول ليكون مستعدا للانطلاق في مارس سنة ١٥١٦م لحمل عدد كبير من المقاتلين إلى الهند وكتب إلى لوبو سوارز الخطاب التالي يخبره فيه بكل ما وصله من أخبار عن أسطول سلطان القاهرة المملوكي ويخبره بكيفية تصرّفه عند تسلمه منصبه في الهند:

«لوبو سوارز، الصديق، نحن الملك نرسل لك تحيّاتنا القلبية. لأنه منذ أيام غير بعيدة وصلتنا أخبار أن السلطان الكبير(المملوكي) يُعد الآن أسطولا في

السويس لتحقيق مصالحه في الهند، لذا فإننا الآن نعرّفك بكيفية التصرف إذا وصل أسطول السلطان (المملوكي) إلى الميــاه الهندية، رغم أننا نثق في ربنا OUR LORD ونتمنى ألاّ يحدث هذا لأنه يجب علينا أن نأخذ حذرنا من هذا الأمر المضر بمصالحنا وأن نخشى مخافة أن يصل الأمر إلى حد التدمير الكامل للنفوذ البرتغالي في هذه الأنحاء من العالم. ويوضع هذا الأمر في الاعتبار والتعامل معه بأقصى درجات السّرية لتتم أمورنا بنجاح فإنه يبدو أفضل لمصالحنا في حالة ما إذا دخلت أساطيل هذا السلطان المذكور إلى البحار الهندية وأن يكون أفونسو دلبوكيرك موجودا، لذا فلتأمره بألاّ يجري أية ترتيبات جديدة لعودته إلى البرتغال وأن يعتبر أمرنا الذي سبق وأرسلنا له بالعودة لا وجود له، وإنما عليه أن يبقى معك في خدمتنا، أما بالنسبة لك فلتبق في الهند كقائد عام وحاكم وستكون ملقى تابعة لك (وإبقاؤك في الهند مسألة ضرورية لأن كوشن وكلكتا موضعان ذوا أهمية واضحة، وهما مرتبطان بشكل لا ينفصل بالمحافظة على ممتلكاتنا في الهند) وستكون أنت قائدا لأربعمئة رجل من الذين خرجت بهم من البرتغال، اختر منهم من تشاء ليكونوا معك بالإضافة إلى الموجودين في الحصنين المذكورين وكل الأسطول العامل في ملقى وكوشن وسيكون مقر إقامتك في حصن كوشن أو حصن كلكتا على وفق اختيارك وعلى وفق ما تراه أكثر فائدة لتأمين مصالحنا. وسيكون تحميل السفن الذاهبة إلى الهند كل عام بالبهار تحت إشرافك دون السماح لأي أحد آخر بالتدخل في هذا الأمر الاّ الوكيل التجاري ومسؤولي المحطة التجارية.

«وإننا نريد أن تكون كل الحصون الأخرى والجنود والأساطيل والقوّات برا وبحرا تحت قيادة أفونسو دلبوكيرك، فذلك فيه مصلحتنا فليبق في مكانه تحسبا لأي احتمالات. وكي يهب لنجدة أي مكان يتعرض للأخطار من قبل سلطان مصر المملوكي الآنف ذكره، وليعمل – أي أفونسو دلبوكيرك – على تدميره (ونحن نأمل من ربنا أن يفعل ذلك) وقد كتبتُ له بالتفصيل بهذا الشأن.

«ورغم أننا نثق فيك ثقة كاملة وفي أنك ستخدمنا في هذا الأمر بشجاعة

عظيمة وبأعمال تتسم بطابع الفروسية كما هي شيمتك إلاّ أنه بالنسبة إلى لأمر الجديد وغير المعتاد ويحتاج لجهد عظيم لا يبدو لنا أنك قادر على مواجهته دون مساعدة إذا ما حدث أن دخلت أساطيل السلطان (المصري المملوكي) إلى الهند، فألفونسو دلبوكيرك هو الأقدر على التعامل في مثل هذه المواقف للعمل على تقدم أوضاعنا وتأمينها في هذه الانحاء من العالم لأن خبرته خلال سنوات عديدة، ومعرفته بالملوك والأمراء الذين هم أصدقاء حقيقيون وخدم لنا، ومعرفته بالملوك والأمراء المعادين لنا ومعرفته بطوايا نفوسهم وطريقة تصرف كل واحد منهم فقد ظل بينهم زمنا، وتعامل معهم وخَبَرَهُم، وأيضا للأمور التي يمكن أن يمارسها ويوليها عنايته وقدرته على تدمير أي تحالفات وتفكيكها وهو الأمر الذي لايستطيع هو أن يجد فيه مخرجاً يحقق مصالحنا لمنع اعدائنا من التحالف معاً ضدّنا. ولكل هذه الأسباب وأسباب غيرها يمكن ذكرها فمن الحكمة أن نستفيد من خبرته العامة ليس في المجال البحري فقط وإنما في الأمور العسكرية أيضا خاصة إذا نظرنا للانتصارات الكبرى التي منّ بها ربنا OUR LORD عليه في هذه الأنحاء وللفوز الذي أحرزه في كل شيء وضع يده فيه وأخذ على عاتقه تنفيذه، فنحن نثق في رحمة الله وفي أنه سيهبه النصر حتى في هذا المشروع (التصدي لأسطول مصر المملوكي المُرتقب) فرغم أناسا كثيرين يمكن أن يكونوا مُتاحين لتنفيذ أمور كثيرة الاّ أننا يجب أن نثق فيه ثقة كاملة تماما كما نثق فيك، ليس فقط لهذا الأمر بل في أمور أعظم وأكبر (رغم أن الأمر قد يتمخض في النهاية عن مجرد إشاعة لا أساس لها) باستخدامه والاستفادة من خدماته، فربنا OUR LORD قد ساعده في مثل هذه المشروعات، لذا فإن أفونسو دلبوكيرك هو الأقدر على تنفيذ هذه الأمور والتصدي لها بشكل أفضل.

«ولأن هذا الأمر مرتبط ارتباطا وثيقاً بمصالحنا وشرفنا ومملكتنا كما يمكنك إدراك ذلك بسهولة، فإننا نوصيك ونأمرك ألا تقاوم ذلك أو تعارضه بأية طريقة بل تساعدنا على تنفيذ ماذكرنا.

«ولأن العمليات العسكرية التي تنشأ عن دخول السلطان (المصري المملوكي) إلى الهند ستكلفنا وبلاشك مبالغ طائلة فإننا نأمر المسؤولين في كوشن وكلكتا وملقى أن يقدموا لأفونسو دلبوكيرك الأموال التي قد يطلبها والمؤن التي يريدها من مستودعاتنا، وأن تُلَبَّي طلباته دون أدنى تأخير. ونذكرك بذلك لتعلم أننا كتبنا لهم هذه الأوامر أيضاً حتى لا تمتنع عن تنفيذها بل أن تعمل بحماس قلبي وأن تولي هذا الأمر أقصى ما يمكنك من عناية وتلبي كل ما قد يطلبه أفونسو دلبوكيرك حتى يستطيع تنفيذ الأمور الموكلة إليه بشكل تام.

«ألميريم ALMEIRIM في ٢٠ مارس ١٥١٦م».

الفصل الثامن والأربعون

الأحـوال في الهند عند موت أفـونسـو دلبوكيرك

لقد كان أفونسو دلبوكيرك واعيا لرغبات ملك البرتغال د. مانويل لإحلال السلام الشامل في الهند، ذلك السلام الذي عبّر عنه كثيرا في خطاباته لأنه إذا استمرت الحروب أدى هذا إلى إنفاق أموال طائلة، لذا فقد ظل أفونسو دلبوكيرك طوال حياته يعمل على حفظ السلام مع كل الملوك والأمراء الهندوس في هذه الأنحاء مداوما على الاتصال بهم مرسلاً إليهم سفراءه عارضا عليهم أن يكون أسطول ملك البرتغال في خدمتهم لتحطيم المسلمين وتدميرهم وطردهم من البلاد وقد هُزِم المسلمون بالفعل أمام قوّات ملوك الهند من غير المسلمين، وخاصة ملك نارسينجا NARSINGA وقد أرسل له أفونسو دلبوكيرك مّرات عديدة سفراء برتغاليين خاطبين وده وعارضين صداقته طالبين منه أن يعمل على سحق العادل خان وملك الدكن DECAM وعقد أفونسو دلبوكيرك علاقات صداقة مع كل الملوك الهندوس من رأس كوموريم COMORIM حتى المناطق الداخلية في الهند وليس المناطق المطلة على السّاحل فقط، وذلك لجذبهم ليكونوا في حالة سلام مع ملك البرتغال وأرسل إليهم سفراء باسم ملك البرتغال وعرض عليهم أسطوله وقوّاته لخدمتهم.

ولقد واصل أفونسو دلبوكيرك هذه السياسة حتى سعى الجميع لكسب صداقته العظيمة، وقد أظهر بعضهم هذه الصداقة بطاعتهم له وأرسلوا يؤكدون له عن طريق مبعوثيهم هذه الطاعة، وآخرون عبروا عن صداقتهم بدفع إتاوة عن عوائدهم المالية، وآخرون أصغوا لكلماته الناعمة وعباراته المعبّرة عن السلام عند تفاوضه معهم، وآخرون جذبتهم الهدايا والجواهر التي كان يرسلها لهم باسم

ملك البرتغال، وآخرون عرضوا عليه مواقع في موانئهم لإقامة حصونه مدفوعين برغبتهم في مواصلة التجارة مع البرتغاليين والاحتفاظ بصداقتهم لأنهم كانوا يعتبرونهم في ذلك الوقت كجيران هنود. ولو أن الموت لم يلحق به لأصبح ملك البرتغال – بمساعدته – سيدا لكل الهند، فروح على هذا القدر من الشهامة كان يمكنها فعل الكثير، فلو لم يُواري الثرى لاستطاع أن ينحي جانباً أفكار الهندوس (الذين كان يعرف جيدا كيف يسيطر عليهم) ولا متلأ المسلمون منه رعبا (لأنه كان يحاربهم بقسوة وضراوة) حتى أن العادل خان رغم أنه حاكم كبير ولديه قوات كبيرة هائلة لم يصمد أمام أفونسو دلبوكيرك الذي طرده من جوا بالقوة، ومع هذا فقد دأب العادل خان بعد ذلك على خطب وده وطلب صداقته خوفاً من أن يغزو بلاده. والحقيقة لم يكن أمرا شديد الصعوبة أن يتم هذا الغزو إذا تعاون – أي أفونسو دلبوكيرك– مع ملك نارسينجا NAR-SINGA في المناطق الداخلية، وقد كان هذا الملك الأخير يرسل كثيرا أنه يمكنه فعل ذلك لو طلب منه، وقد أرسل هذا الملك لأفونسو دلبوكيرك كثيرا من المبعوثين والهدايا، بل حتى أن أمّه ذات النفوذ الكبير في البلاد تدخلت لإقرار هذه الصداقة، عارضة عليه – أي على أفونسو دلبوكيرك– كل قواتها لمهاجمة من يريد مهاجمته.

وعند وفاة أفونسو دلبوكيرك كان السلام مستقرا من هرمز إلى سيلان، وكانت كل ممالك كمبي (كمبايا) وشو (شيول) ودابول وجوا وأونور وباتيكالا حتى جبل ويلي MOUNT DE DELI وكانانور وكوشن (كوشيم) وكايكولاو CAICAULAO حتى رأس كوموريم COMORIM – وكل الملوك والأمراء وتجار البحر، بل والمناطق الداخلية، كل اولئك وقد مات أفونسو دلبوكيرك وتركها هادئة جيدة التنظيم حتى أنه لم يحدث قبل ذلك أن ترك قائدٌ أمما وقد تم غزوها كاملا وإخضاعها بقوة السلاح كما حدث في هذا الحال. وغمر السلام هذه البلاد وعم الأمن حتى أن البرتغاليين اعتادوا ممارسة تجاراتهم في كل مكان، دون أن يتعرّضوا إلى السرقة أو الأسر، واعتادوا الابحار في بحر الهند بسفنهم

الكبيرة والصغيرة وسنابكهم الكبيرة بأمان واعتادوا عبور البحر الهندي من جانب إلى آخر بسلام واعتاد أهل البلاد في هذه الأنحاء زيارة جوا (كَوا) ببضائعهم دون أن يضايقهم أحد، ومن رأس كوموريم COMORIM في اتجاه الشرق ترك أفونسو دلبوكيرك ملوك هذه الأنحاء في سلام كامل وعلى علاقة صداقة بملك البرتغال وأرسل إليهم السفراء حاملين الهدايا باسمه (باسم ملك البرتغال)، فأرسلوا بدورهم هدايا إليه، ومن بين هؤلاء الملوك، ملك بيجو PEGU وملك البنغال BENGALA وملك بدير PEDIR وملك سيام SIAM وملك باسي PACE فاستقرت الأوضاع في حصن ملقى. وحافظ أفونسو دلبوكيرك على صداقة ملك الصين وكان معه في حالة سلام وكذلك فعل مع ملك جاوة ومالوكو MALUCO ومع الجوريين GORES أما غيرهم من الملوك المجاورين فقد كانوا في حالة هدوء وخضوع وكان السبب الأساسي الذي جعل به الهند هادئة وأرواح ملوكها مذلّلة مروّضة هو أنهم أدركوا العلاقات الحميمة بين أفونسو دلبوكيرك والشاه إسماعيل، تلك العلاقة التي كان هدفها قهر بيت مكة (الكعبة المشرفة) OVERCOMING HOUSE OF MECA وتدمير السلطان الكبير (السلطان المملوكي في مصر) وكل المسلمين، وأرسل سفراءه إليهم محمّلين بالهدايا، وكانت علاقاته حميمة بملك الحبشة (بريست جوآو) أيضاً ورغب إليه أن يحدث في جباله نقبا لتحويل مجرى النيل حتي يتم تدمير القاهرة، ورأوه (أي هؤلاء الملوك والأمراء) يشيد الحصون المنيعة في الهند ورأوا مدافعه الوافرة العدد وسفنه الكبار والصغار، ورأوه وقد أحاط به كثير من أهل البيوتات البرتغالية شبابا وشابات وُلدوا في الهند، ورأوا منازل ومخازن من حجر وملاط وبساتين جرى زرعها، وأرضا خرابا غدت مزروعة، ورأوا زيادة كل أنواع البضائع والمؤن ورأوا التجارة تزدهر في البر والبحر، ورأوا كل شيء حولهم وقد غدا منظما، وسادت العدالة، وحكمت حكومة صالحة ترسخ حكمها، وأمورا أخرى حضارية كثيرة ارتبطت بالناس الذين استقروا في البلاد عازمين على البقاء فيها وتطويرها.

ووصلت شـهرة أفـونسـو دلبوكيـرك في كل هذه المجـالات إلى كل بلاد الـهند وفارس ومصر (CAIRO) وتركيا.

واعتـاد السلطان الكبـير (المملوكي المصري) أن يسـأل عمـا إذا كـانت هناك أسرات برتغالية كثيرة مستقرة في الهند، وكـان العادل خـان يسـأل عن عدد الشبـان والشـابات البرتغاليين في جوا فلم يكونوا يخشـون من أذىً يلحقه بهم البرتغاليون من البحر، وإنما كان كل خوفهم من استيطان البرتـغاليين في البلاد واستـقـرارهـم فـيـهـا فـقـط، وعندمـا رأى المسلمـون القـوة المحـدودة للاسطول البرتـغـالي وقلة عـدد المقـاتلين البـرتـغـاليين في الـهند نظرا إلـى مـا أحـرزوه من فـتوحـات ونجـاحـات باعتـبـارهـا مـعـجـزة ولايمكن أن تكون أقلّ من ذلك. وكـان أفونسو دلبوكيرك بعظمة روحه التي هي سمة من سمات شخصيته قد اعتـاد القـول أنه يثق فـي ربنا OUR LORD في أن يسـتـولي علـى عـدن ويؤسس بـهـا حصنا برتغاليا وبذلك يغلق مداخل البحر الأحمر فيفقد السلطان الكبير (سلطان مصر) أخيرا كل أمل في أن يكون سيدا مطاعا في الهند، وأنه – أي أفونسو دلبوكيرك – إذا ما حقق ذلك فساعتها فقط، يمكن أن يعود إلى البرتغال لينعم براحـة قصـيرة فـيتكـيء براحتـه لبرهـة على خشـبـة الفـأس[1]. لكن ربنا OUR LORD بحكمته المقدسة قطع ذلك واخذه عنده.

وفي الوقت الذي مات فيه أفونسو دلبوكيرك كان في ملقى حصن قوي منيع (وكان قـد استولى على ملقى مرتين من المسلمين) به مدافع كثيرة وكثير من المقاتلين للدفا ع عنه والاحتفاظ به. وترك حصنا آخر فـي هرمـز كاملا وبه عدد كبيـر من الجنود وعـدد وافـر من المدافع بعـد أن أخضـع المملكة كلـها (هرمـز) لطاعة ملك البرتغال، وكان قد استولى على هرمز هذه مرتين من المسلمين، كما حدث في ملقى.

وترك حصنا في كلكتا مزودا بالرجال والمدافع وكان ذا قوة دفاعية كبيرة. وترك حـصن كوشـن (كوشـيم) وقد انتـهى العمل فيه، وكـان عند وفـاته كمـا هو

---

(1) Arepousar hum pouco sobre o cabo da euxaeq

يبدو أن هذه الفقرة تشير إلى تعبير يستخدم كمثل.

موجود الآن وكان قد شرع في بنائه عند زيارته الأولى إلى الهند، وقد زوّدة بسبعة أفيال ضخام جدا للعمل في المَسْفن (مكان إصلاح السفن وترميمها وبنائها) على الشاطىء، وأعاد بناء حصن كانانور بالأحجار والملاط ذلك أنّه كان قبل ذلك مشيّدا من طين[1] وترك أساطيل مرتبطة بكل هذه الحصون لحمايته وضمان استمرار بقائها. وترك مدينة جوا (كوا) محصنةً بكثير من الحصون حول الجزيرة ضمانا لأمانها، وجوا هذه كان قد استولى عليها - بدورها - مرتيْن من المسلمين.

وترك فيها كثيرا من الأسر البرتغالية، وكثيرا من الهندوس الذين تحوّلوا إلى المسيحية وعدداً كبيرا من الفرسان. وترك عددا كبيرا من صناع السلاح والعاملين في مجال الجواهر والأحجار الكريمة وصناع السروج والحلي المعدنية، والحدادين والبنائين بالاحجار وصانعي البنادق والمدافع والمعلّمين (رؤساء الصنّاع) المهرة في صناعة البنادق ذوات الفتائل، ونجّاري السفن والجلفاطين (الخبراء في سد خروق السفن ومعالجة مابها من رشح)، وكان غالب هؤلاء جميعا من البرتغاليين والباقين من المسيحيين من أهل البلاد وكانوا تابعين مخلصين لملك البرتغال رغم وكأنهم برتغاليون أصلاء.

وترك في جوا مخازنَ بها قدر كبير من الأسلحة، وكثير من عُدد الخيل والسروج وكثير من البارود ومقذوفات المدافع وكل الذخائر المطلوبة للحرب. وترك في الميناء أسطولاً من خمسين سفينة من مختلف الأنواع من صغار وكبار وقوادس وفوستات FUSTUS وهو عدد كبير بالنسبة لتلك الأيام، بالاضافة إلى الباراوات PARAOS والسفن التجارية، فتلك لم تدخل في حساب عدد السفن المذكور آنفا. وأمر بسك النقود في جوا وملقى باسم ملك البرتغال فعم استخدامها في سائر أنحاء الهند. وكان أفونسو دلبوكيرك أول قائد تابع لملك البرتغال يتوغل في البحر الأحمر، هذا ما فعله أفونسو دلبوكيرك، فهل من مفاخر، فلندع من فعل أكثر منه يتقدّم عليه، وهذه العبارة الأخيرة هي التي أمر الكونت فرناو جونفاليز بنقشها على قبره الكائن عند مدخل باب الكنيسة الديرية التي دُفِن فيها.

(1) Taipa

الفصل التاسع والأربعون

نقل عظام أفونسو دلبوكيرك الكبير إلى البرتغال ومن ثم إلى كنيسة سيدة الرحمة والنعمة

لقد كتب أفونسو دلبوكيرك وصيّته وصدّق عليها وقد ورد فيها أنه يُريد أن يُدفن في كنيسة سيدتنا OUR LADY التي سبق له أنّ بناها في جوا بمناسبة عودته بعد غزوه مملكة هرمز، وقد ألحق أفونسو بعد ذلك بوصيته هذه الإضافة الآتية: «إنني أعلن أنه في حالة موتي في هذه الأنحاء من الهند – وأرجو من ربنا برحمته ألا يسمح بهذا – فإنني آمر – لتنعم روحي بالراحة – أن تُنقل عظامي – بعد أن يكون اللحم قد فني – إلى البرتغال ليتم دفنه في كنيسة سيدتنا سيدة الرحمة التابعة إلى التنظيم الديني للقديس أوغسطين ST. AU-GUSTINE حيث دُفِن أجدادي». إن هذا الأمر الذي كان أفونسو دلبوكيرك راغبا فيه رغبة شديدة (كما توضح الكلمات الملحقة بوصيته والواردة آنفا) أهمله ابنه فلم يتحقق طوال واحد وخمسين سنة، لكن لأن هذا الواجب كان مُلزماً به بيرو كوريا PERO CORREA لكونه منفِّذ الوصية، فقد عمل على وضع ما ورد في الوصية موضع التنفيذ وظل الابن يعتذر، وذلك لأن بيرو كوريا نفسه كان يطلب من الملك د. مانويل مرارا أن يأذن له بنقل عظام أفونسو دلبوكيرك لكن الملك لم يوافق على ذلك أبدا، وكان يعلن أنه طالما كانت عظام أفونسو دلبوكيرك في الهند اصبحت الهند آمنة تابعة للبرتغال. لكن بعد موت بيرو كوريا وقع أمر تنفيذ هذا الأمر على عاتق ابنه ووريثه الذي ألَّح بشدّة على الملك جون الثالث للإذن بذلك ومع ذلك فقد كان الملك يرفض بسبب ممثّي أهل جوا بل الهند كلها والذين كانوا يطالبون بعدم نقل هذه العظام. وعلى أية حال

فـعندمـا مـات هذا الملك تولت الحكم الملكة دونا كـاثارينا[1] DONA CATH-ARINA في ظل حـفيدها الملك د. سيبـاستـيانو[2] D. SEBASTIANO جدّد مساعيه لتنفيذ ملحق وصية أفونسو دلبوكيرك ومع هذا فقد مضت عدة سنوات دون أن يصل إلى غرضه لأنه كان من الضروري صدور مرسوم بابوي بالحرمان الكنسي لأهل جوا مما يعني أن يصبحوا غير مستحقين للاحتفاظ بعظامه. حقا لقد بدأ أن اللحظة المناسبة لنقل هذه العظام لم تَحِن بعد. وأخيرا حانت اللحظة بالحصول على إذن مليكتنا فقد يعد هناك من يقاومون تنفيذ الخطة، فعند وصول دي أنطاو دي نورونهـا[3] D. ANTAO DE NORONHA – الذي بذل كل مـا في وسعه للتعجيل بهذا الأمر – تم نقل العظام إلى لشبونة في ٦ إبريل سنة ١٥٦٦م وتم حـملهـا من السـفـينة إلى بيت الرحـمـة COSA DA MIS-ERICORDIA بتوجيـه من روي لورنزو دي تافـورا RUY LOURENCO DE TAVORA كبير المسؤولين (البروفيدور) وصحب نقلها عدد كبير من ذوي الرتب، وظلت العظام في هذا المكان عدّة أيّام لحين إعداد عربة الجنازة وكسوتها بالقطيفة الحمراء تحت رعاية عدد كبير من رجال الدين الذين راحوا يقيمون القدّاسات (جمع قدّاس) على روحه بينما الاستعدادات تجرى لنقل العظام إلى القسم الرئيس في كنيسة سيدة الرحمة OUR LADY OF GRACE التي أوقفها ابنه مع أجرة كافية لدفن هذه البقايا. وعندما تم تجهيز كل شيء اجتمع كل الأمراء وذوي الرتب في بيت الرحمة الآنف ذكره ليرافقوا العظام (البقايا) فانطلقوا في موكب يتقدمه علم الرحمة MISERICO RDIA وخلفه كل أعضاء الجماعة الدينية والإخوة (الرهبان) الفرنسسكان ورهبان أوستين AUSTIN FRIARS وكل رجال الدين في المدينة وقد حمل كل واحد منهم مشعلاً في يده وبعد وصول الموكب صار وضع المشيّعين كالتالي: رجال الدين التابعين للأبرشيّة في جانب، وفي الجانب الآخر د. أفونسو أنريكس D. AFONSO ANRIQUES

(١) ابنة فيليب الأول النمساوي : الوصي على العرش البرتغالي، ١٥٥٧م.

(٢) ابن جون ملك البرتغال، ولد بعد وفاة أبيه سنة ١٥٥٤.

(٣) انظر :

British museum Add. M.S.20,902, P.67, MS sloane 197, Fol. 886. portrait and life.

الذي يشغل منصب مسؤول العدالة في بلاط الملك[1] وكل اعضاء الكنيسة، وخلف هؤلاء التابوت وبه العظام يحمله «الإخوة» أو رهبان الجماعة الدينية، وكان التابوت مغطى بعباءة كبيرة من قماش مذهب، وأمام التابوت البروفيدور Pro-vedor حاملا صولجانا في يده وافونسو دلبوكيرك الابن مرتديا ملابس الحداد وحاسر الرأس، وفي الجانب الآخر اندريه دلبو كيرك ابن أخي الراحل وقد ارتدى ملابس حداد أيضاً كالتي يرتديها ابن الراحل، وخلف التابوت وقف دوق أفيرو Duke of Aveiro وابناؤه وإخوته وكل بقية الأمراء وذوي الرتب والأساقفة الذين كانوا موجودين في البلاط في ذلك الوقت، وكان ازدحام الناس شديدا والشوارع غاصّة، وفي أثناء مرور الموكب أمام أي كنيسة كانت الأجراس تُقْرَع ضعف القرعات المعتادة، وظل هذا هو الحال حتى وصل الموكب إلى كنيسة سيدة الرحمة. وهناك في القسم المرتفع في الكنيسة (المصلّى العلوي) كان قد تم إعداد منصّة تُرتقى بصفّين كل صف من درجتين محاطة بما لا حصر له من المشاعل فتم وضع التابوت الذي يضم العظام محاطا بشراريب من ذهب يحف به جماعة من خدمه يرتدي كل واحد منهم ملابس الحداد، ونصب فوق الكفن ثلاثة أعلام ذات ألوان ورموز تشير إلى الممالك الثلاث التي استولى عليها أفونسو دلبو كيرك من المسلمين في الهند. وفوق هذه الأعلام كان يرفرف العلم الملكي الذي كان أفونسو دلبوكيرك قد تلّقاه من الملك د. مانويل ، وهو الأمر الذي ذكرته في الفصول السابقة. وقد أصبح هذا العلم الآن قديما مهترئا فقد كان قد تسلمه في ٦ إبريل سنة ١٥٠٦م. وهكذا عادت عظام أفونسو دلبو كيرك بعد انطلاقة في رحلته بستين عاما لدير سيدة الرحمة التابع إلى الجماعة الدينية للقديس أوغسطين، نعم بعد ستين عاما من رحلته التي حقق فيها كثيرا من الانتصارات في الهند تحت شعار الصليب نفسه الذي يرفرف على عظامه الآن، وكانت عودة عظامه في عهد سيدنا الملك د. سيباستيانو d. seastiano وبعد أن تم كل شيء شرع «الأخ» سيباستيانو توسكانو [2] fr. sebastiano toscano

(١) Adiao وربما كانت مرادفة لكلمة Adail ، وقد سبق ورودها. راجع ملحق المصطلحات.
(٢) انظر :
Barbosa Machado, Bibliotheca Lusitana, Vol. 1,P.702
وعن هذا الراهب وعنوان خطبته التي طبعت في لشبونة سنة ١٥٦٦م.

في إلقـاء عظاته التي لن أتحـدث عنهـا في كـتـابي هـذا وليس ذلك مـخـافـة أن يتضخّم هذا الجزء من الكتاب وإنما لأنه قد طُبِعت فعلا.

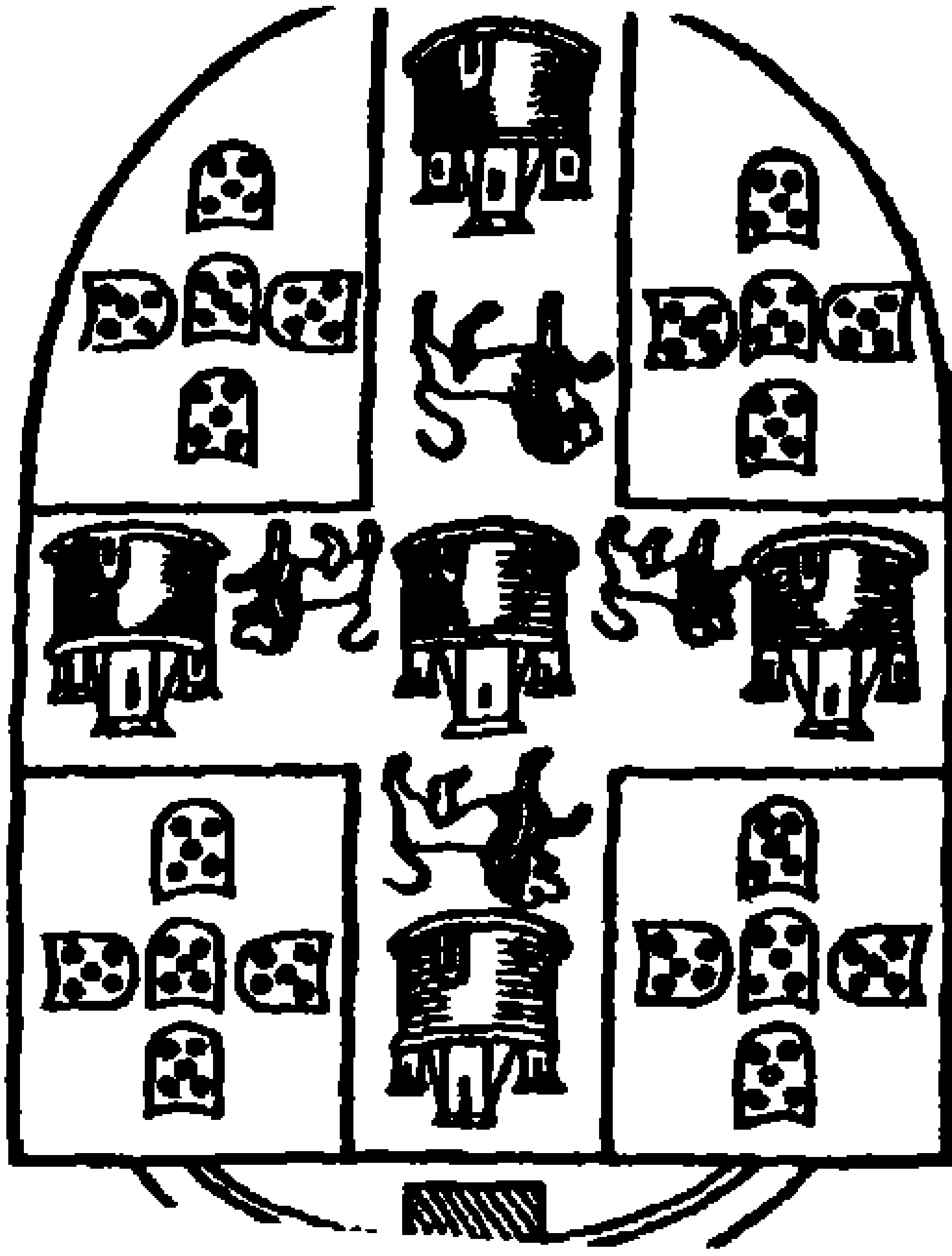
الفصل الخمسون

عن شجرة نسب هذا القائد الممتاز
أفونسو دلبوكيرك وعن أصله ووالديه،
وكيف قضى شبابه ومسيرة حياته
حتى قيامه برحلته الأولى إلى الهند

لأنني كتبتُ بإفاضة، فقد جمعت من الحوليات وكتب الأنساب التي تناولت البرتغال وقشتالة وتعرضت لآل ألبوكيرك، وعراقتهم والأصل الذي يعود إليه اسمهم وكونهم منحدرين انحدارا مباشرا من أصلاب ملوك: البرتغال وليون وقشتالة فإنني لن أتعرّض لمعلومات عن أولئك المنحدرين من هذه الأسرة بل سأكتفي بذكر ما هو ضروري لفهم أصل أفونسو دلبوكيرك وابنه.

إن شجرة نسبه كالتالي [1]: الملك د. دينيس [2] dmdinisملك البرتغال أنجب من دونا ألدونسا دي سوزا dina aldonsa de sousa – وهي فتاة من فتيات البلاط ذات صفات سامية [3] وأصلها من جاليسيا galicia – ابنا غير شرعي هو د. أفونسو سانشز d. afonso sanches تزوج من تاريجا مارتينز taiga martinz حفيدة الملك د. سانشو القشتالي [4] الملقب بالشجاع وجعل مَهْرها مدينة فيلا دي كوندي villa de conde في البرتغال وكثيرا من الأراضي في قشتالة وحصن دلبوكيرك الذي أعاد هو بناءه ووضع أساس مدينة إلى الأدنى منه وأحاطها بسور وبرج وحصن أمامي للدفاع وخندق واستقدم إليها أسرا

(١) لمزيد من التفاصيل انظر الملحق.
(٢) ١٢٧٠-١٣٢٥
(٣) إنفانسونا Infansoua لأن Infancoq هي الشكل المؤنث لـ Infancao – خادم ملكي.
(٤) سانشو الثالث ١١٥٧م-١١٥٨م، أو سانشو الرابع ١٢٨٤م-١٢٩٥م



برتغالية وقشتالية ثم أقام هو فيها ووضع على بوّابتها الرئيسية ترساً سنُورد رسمه فيما يلي، وتلك هي الأسلحة التي ورثها عن آل ألبوكيرك والتي كان يحب استخدامها (١):

وعلى الباب نَفْسِه وضع النقش التالي:

EM NOME DE DEÓS SÉJA ADO. AMEN. EU DOM AFONSO SANCHES SENHOR DESTE CASTELLO DALBOQUERQUE CONECEI ESTE LAVOR FERIA QUATRA AOS QUATRO DIAS DO MEZ DE AGOSTO DA ERA DE. 1314. O QUAL SEJA PERA SERVICO DE DEOS E DE SANCTA MARIA SUA MADRE SALVAMENTO DE MINHA HONRA ENDERECAMENTO DA MINHA FAZENDA PORQUE AS COUSAS QUE A DEOS SAO FEITAS TODAS ADIANTE HAO DE IR . E AS QUE SEM ELLE SAO TODAS HAO DE FENECER.

E POREM PRAZA A DIOS QUE HAJA BOA GLORIA O MESTHE PEDREIRO QUE FEZ ESTE CASTELO.

«باسم الله يكون كل شيء. آمين. أنا، دوم أفونسو سانشس SANCHES سيّد حصن دلبوكيرك هذا الذي بدأ العمل فيه يوم الأربعاء ٤ أغسطس سنة ١٣١٤ من التقويم الأسباني (١٢٧٦م)(٢) ليكون في خدمة الرّب GOD وأمّه

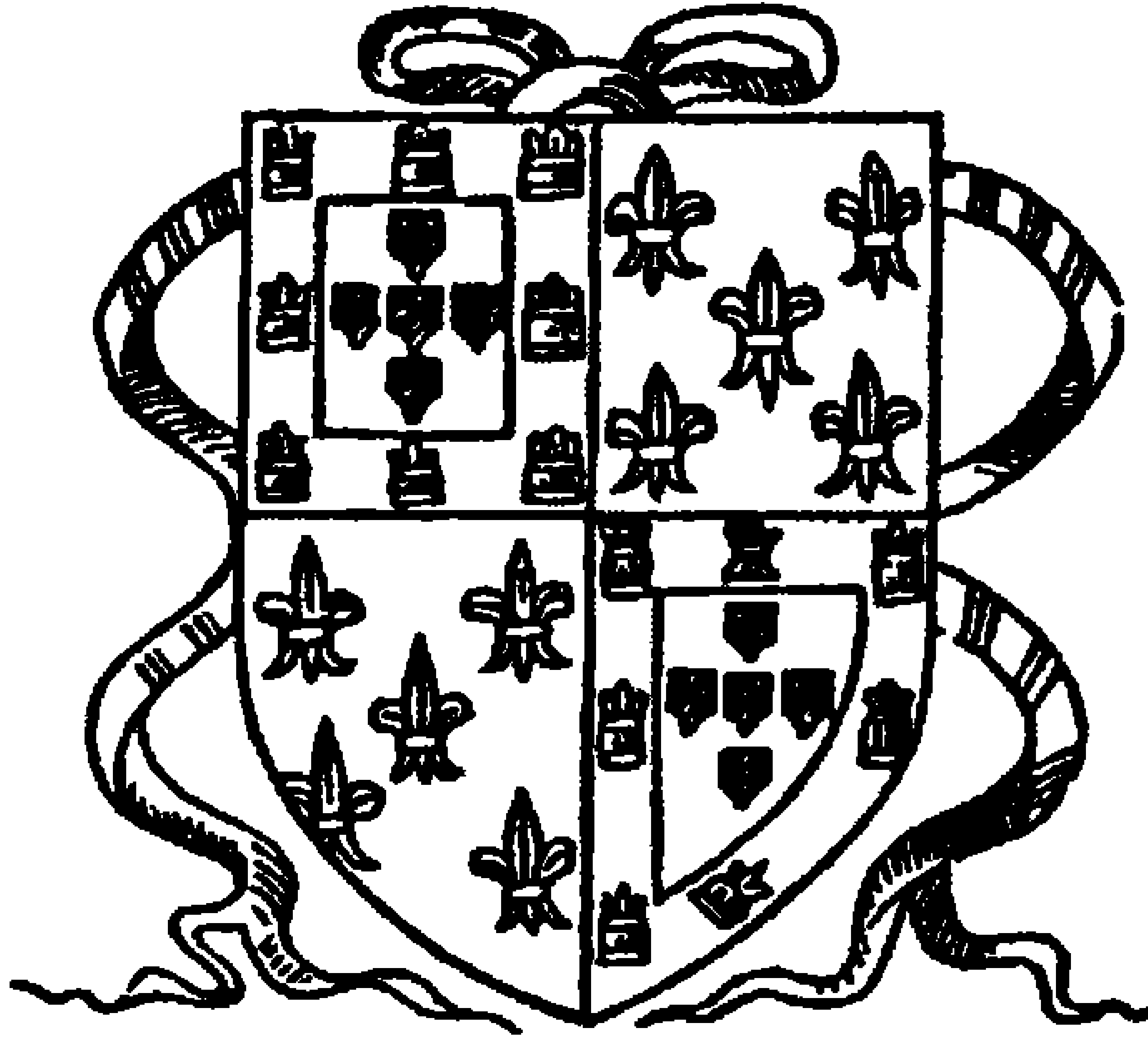
---

(١) يعني : تلك الأسلحة المرسومة على صفحة عنوان طبعة ١٧٧٤، والأسلحة المرسومة في ثنايا هذه الصفحة تعد مثالا جذابا لفن الشعارات (أو الإعلانات) كما كان يُمارس في البرتغال، وكانت مراكز هذا الفن في البيوت الملكية وليون وقشتالة ترُتب على نحو تبادلي على هيئة صليب مع الأسلحة الملكية في البرتغال. والأسلحة المرسومة في هذه الصفحة هي الأسلحة التى استخدمها ابن افونسو هذا هي ببساطة أسلحة البرتغال وفرنسا (خمسة زهور زنبقية وخمسة....
de - lis – صfive foeurs - de - lis in saltire , by error for seme

(٢) التقويم الأسباني يبدأ من فتح إسبانيا على يد الإمبراطور أغسطس Augustus سنة ٢٨ ق.م . وقد ساد هذا التقويم في البرتغال حتى سنة ١٤١٥م إن لم يكن بعد ذلك أيضا. والرابع من أغسطس يوافق يوم الثلاثاء والسنة توافق سنة ١٢٧٦م. وعلى أية حال فهذا التقويم كان يستخدم في بعض الأحيان في الحوليات وربما كان هو الأساس في هذا النص الذي بين أيدينا. ولا ندري أي يوم يوافق يوم الثلاثاء هذا في شهر أغسطس.

القديسة مريم*، ولتخليص روحي وزيادة شرفي وازدهار مملكتي، فكل هذه الأشياء التي جعلتها ابتغاء عظمه الله، ستزدهر، وكل ما يعز الله يفنى.

وقد يُرضي الله أن يحظى المعلّم ماسون MASTER MASON الذي بنى هذا الحصن بما يستحقه من عظمة».



وقد انجب د. أفونسو سانش هذا سيد دلبوكيرك ابناً من زوجته اسماه د. جواَو أفونسو دلبوكيرك ورث ملكه واصبح حاكما عظيما في قشتالة وكان أول من حمل اسم دلبوكيرك. وقد بنى حصن كوديسيرا CODICEIRA (TORRE DE MENAGEM) ووضع فوقه ترس سلاحه مختلطا بالأشكال الخمسة[1] المرتبطة بالبرتغال وأزهارالزنبق التي كانت تعتبر أسلحة أمّه التي تنحدر من الأسرة الملكية الفرنسية، وهذه الشعارات (أو الرسوم) هي التي يستخدمها آل البوكيرك الآن.

ومن جواَو أفونسو هذا انحدر القائد الكبير أفونسو دلبوكيرك الذي هو الابن الثاني لجونسالو دلبوكيرك سيد LORD القرية الخضراء (فيلا فيرد VILLA VERDE) من دونا ليونور دي مينيزس DONA LEONOR DE MENEZES. ابنة د. ألفارو جونسالفيز دي أتيد D. ALVARO GONCALVEX DE ATAIDE أول كونت لأتوجوا ATOUGWA والكونتيسة دونا جيومار اي

* مسيحيون كثيرون الآن لا يوافقون على أن مريم هي أم الرب، بل وتثير هذه العبارة ضحكهم، ومعروف أن المسلمين يقدرون مريم العذراء ، وقد نزل بشأنها قرآن كريم، وجعلها الله سبحانه وتعالى هي وابنها آية، ويحترم المسلمون المسيح ابن مريم روح الله وكلمته ، لكنهم - ابدا - لا يجعلونه إلهاً ولا أقنوما لإله.

(١) quinas من quina خمسة أو الشكل الخماسي نسبة إلى الشعارات الخمسة في الصليب - أنظر الرسم في الصفحة السابقة

كاسترو، زوجته. وعندما كان صبيا نشأ وترعرع في بيت د. أفونسو الخامس[1] فلما مات هذا الملك ذهب إلى أسبيلا[2] ARZILA وبعد سنوات قليلة عاد لخدمة الملك دوم جواو الثاني ابن الملك الآنف ذكره وشغل منصب[3] القيّم على الاصطبل الملكي، وعندما مات الملك جواو[4] عاد أفونسو دلبوكيرك إلى أسيلا ARZILA ومعه أخوه الذي سقط ميتا في حربه مع المسلمين، وبسبب فقد أفونسو دلبوكيرك لأخيه عاد للبرتغال ليدخل في خدمة الملك د. مانيول[5] واصبح حارساً ملكيا شخصيا. وبعد ذلك رافق الأسطول العامل في تارانتو -TA RANTO وكان له دوراً في الاستيلاء على جزيرة جواتيوزا[6] GRACIOSA، وكان في الحقيقة حاضرا في كل العمليات الحربية التي جرت في أيامه في البرتغال حتى وقت رحلته الأولى إلى لهند.

ولم يتزوج أفونسو دلبوكيرك أبداً لكن له ابنا غير شرعي[7] NATURAL SONتم تعيينه وارثا لكل ممتلكاته، ونظراً لخدمات هذا الابن غير الشرعي التي أدّاها لثلاثة ملوك برتغاليين رغب الملك دوم مانويل اعترافا منه بأفضال والده إلى تغيير اسمه (أي اسم الابن) إلى أفونسو دلبوكيرك (أي جعله يحمل اسم أبيه نفسه). وقد تزوج هذا الابن من دونا ماريا دي نورونها ابنة اللورد د. أنطونيو أول كونت للينهارس LINHARES الذي كان ودوداً معه، وابنة الكونتيسة دونا جوانا دا سيلفا DONA JOUNNA DA SILVA ابنة د. ديوجو دا سيلفا الكونت الأول لبورتاليجر PORTALEGRE. وبعد أن تزوّج أرسله في أسطول سافوي SAVOY كقبطان لسفينة من نوع الغليون GALLEONمع ابنته (أي ابنة الملك) دونا بياتريس DONA BEATRIZ. وبعد عودة الابن من هذه الرحلة كان يأمل أن يقوم الملك دوم مانويل - أخيرا -

(١) ١٤٣٨ - ١٤٨١م

(٢) Arzilq أو Acila في مراكش . اجتاحها واستولى عليها سنة ١٤٧١م الفونسو الخامس البرتغالي لكن المسلمين استعادوها وعاد البرتغاليون فاستولوا عليها مرة أخرى.

(٣) استاليرو مور Estaleyro Mor في جـ١، مقدمة الطبعة الإنجليزية

(٤) ١٤٩٥م

(٥) ١٤٩٥ - ١٥٢١م

(٦) جزيرة جراشيوزا Gratiosa في مواجهة ساحل مراكشي.

(٧) انظر جـ١، مقدمة الترجمة الانجليزية.

بمكافـأته للخدمـات التي أداها والده على وفق الوعود التي وعدها لحميه (والد زوجـته) كـونت لينهـارس LINHARES الاّ أنه وجـده قد مـات، وهـكذاتُرِكَ الابن دون أن يتلقّى مكافـأة مـقابل ما أدّاه أبوه مـن خدمـات تسـتحق المكافأة بسـخاء، ويرجع هذا إلى والده الذي لم يكن يهتم كثيرا بمصـالحه الشـخصية ولأن الزمن قد تغيّر ايضاً.

الملاحق

ملحق (1)

صفحة العنوان، ورسالة الإهداء، والصيغة الختامية للطبعة الأولى من هذا الكتاب، من النسخة الوحيدة في مكتبة سندرلاند / رقم البيع ٣٦٥٧

Commentarios de Afonso Dalboquerque capitao geral & gouernador da India, Collegidos por seu filho Afonso Dalboquerque das proprias cartas que elle escreuia ai muyto poderoso Rey do Manuel o primero deste nome, em cujo tempo gouernou a India Vam repartidos em quatro partes segudo s tempos de seus trabalhos.

Com Peiv [i] legio Real.

***

Ao Serenissimo Principe De Portugal DOM BASTIAM

NOSSO SENGOR

Duas rezoes principalmete antreoutras muytas me obtigarao (Serenissino Principe) a copillar esta historia dos grandes feytos Dafonso Dalboquerq' capita geral & gouernador da India: aqual pus nome Cometarios, polos colligir "dos proprios originâes"q' elle no meyo dos acotecimetos de seus trabalhos escreuia a el Rey do Manuel vosso visauoo, q'nosso Senhor te na sua gloria. A primeyra, pera q' V. A. eja neste pequeno volume, co quanto sofrimento & trabalho de sua pessoa este seu capita conquistou os reynos & senhorios da India (q' V.A. sucederá depois de largos annos de vida del Rey do Joam o terceyro nosso senhor vosso auó), & a obrigaca que tem aos netos & paretes daquelles q'nesta conquista acabara seus dias. A outra foy, ver eu como os q'escreueram a historea da India (co tanto trabalho & louuor de seus engengos) ou por tere hua occupacam geral e contar tudo o q'aconteceo aos Portuguesesnaquelles partes. des o principio de seu descobrimeto, ou por falta das inforacoes q'teueram, passara breuemente por muytas cousas q'Afonso Dalboquerq passou nesta conquista. Enam deue de ter menos credito & authoridade ante A. V. estes seus Comentarios polos eu colligie sendo seu filgo, do q' Cesar te polo mudo escreuendo de sy mesmo ha tantos annos. Eporq tratar aqui de seus louuores (em q'auia muyto q'dizer) seria fazer outra obra mayor que a sua, na direy mais q'aquelles q'vao semeados por este liuro, & o q'dizia hum Pero Gomez home antigo na India. o qual sendo ja muyto velho (vendo as desordes

della depois de sua morte) se ya em Goa cohum pao na mao, á sua sepultura, & dizia Ogrande capitao, tu me fizeste o moe coetedor & sofredor de trabalhos que ouue no mundo, aleuantate q'se perde o que tu ganhaste. V.A. aceite, de mym este pequeno seruico q'lhe faco nesta sua peimeyra jdade, pois jaa a nao tenho palhe poder fazer outros, mauóes. Ese o estillo da historea na for tam elegante como sua grandeza merecia, desculpo (sic) oatreuimento q'tiueem lha offerecer co o pouco q'aprendi da reitorica, & co escreuer ueste (for neste) estillo rudo a verdade do quepassou.

***

Foram jmpressos estes Com | mentarios Dafonso Dalboquerque capitam geral & fo|uernador da India na cidade je Lixboa, por Joam | de Barreyra jmpressor del Rey nosso senhor. | Acabaranse de jmpremir vespera de sam Sebastia, dezanoue dias demes de Ianeyro | da era de mil & quinhentos * cinco | enta & sete annos, em cjo dia | o Principr do Bastiam nosso | senhor a quem estaobea | vay offerecida, fez | tres annos.|

ملحق (ب)

شجرة نسب أفونسو دلبو كيرك

وملاحظات عن الأسرة

مخطوطة لانسدون ، ١٨٩ ، ورقة ٥٥ .

TITULO DOS ALBUQUERQUES SEGUNDO SEACHA NO LIVRO

ANTIGUI DAS LINHAGE'S E CHRONICA

S'ELREY DOM DINIS.

§El-Rey Dom Dinis de Portugal entre os filhos bastardos que true, houue dous, de hua Dona Chamada Mor Afonso.

§ Dom Afonso Sanchez, De que tratiremos, e Martim Afonso

Chichorro, segundo achamos em hu liuro das lembrancas da torre do tombo, por hua carta que dise ser tirada dos Registros do ano de 1439, E a cartanoano de 1450.

§ Dom Afonso Sanchez fou o principal filho bastardo de todos os d'ElRey Dom Dinis, Emais estimado dells, foy Conde, e senhor d'Albuquerque, e de Codiçeyra, e de Villa de Çonde e de outras terras, e mordomo mór d'ElRey seuPay, e a quem o dito Rey quis grande bem,e lhe foy tao affeiçoado, que lhe assacarao, que o queria fazer Rey; E sobre isso, e por amor delle, teue ElRey grandes differenças, e guerras, e arroydos, e mortes departe a parte, com o Infante seu filho herdos, qu despois Reyno, e foy Rey Don Afonso o 40.=foy cosado com Dona Tareja myz filha do-Conde Dom Joao Afonso telo de Meneses senhor d'Albuquerque, Polo qual casamento foy senhor s'Albuquerq' e lhe ficou por appellido desua linhagem=Da qual Dona Tareja houue Dom Joao Afonso telo deMeneses senhor d'Albuquerque, Polo qual casamento foy senhor d'Albuqerq' e lhe ficou por appellido de sua linhagem=Da qual Dona Tareja houue Dom Joao Afonso d.Albuquerque, que disserao o Bom, senhor d'Albuquerque, e de Medelim, e deoutras muyas terras.

§ Este Dom Afonso Sanchez, e a Condessa Dona Tareja Miz sua molher, fizerao, e dotarao o Mosteyro Sancta Clara de Villa de-Conde; E a pouoa de Dom Martim, e Meneses, o que matou El-Rey Dom Po. de Castella em Touro, E a condessa Dona Maria d'Albuquerque molher de Dom onçalo telo de Meneses Fonde de Neyua, e deFaria, e Senhor de Cantanhede.

§ Dom Fernando Afonso d'Albuquerque filho bastardo de Dom JoaoAfonso o bom Senhor d'Albuquerque, e de Medelim se veo para Portugal, onde foy Mestre de Sanctiago.

Lansdowne MS. 189, f. 581b.

TITULO DOS ALBUQUERQ'S DE GOMIDE, QUE AGORA HA EM

PORTUGAL.

***

§ Gco. Lco. de Gomide foy fo. de Nuno Miz de Gomide natural de Portalegre, e este he o de Portalegre ve dous Irmaos.

§ Foy hu home mto. honrrado em tempo d'ElRey Dom Joao o lo, E seu Escriuao Da Puridade, e mto priuado foy sr. de Villa Verde, e outrasheranças q'deizou em Morgado, e fou Alcayde Mor d'Obidos. foy casado co Jnes Leytoa fa.de Vasco Leytao ou de Gil fro o fariseu. De q'houue Joao Gl'z de Gomide, e Ma. Gl'z

molher de Lopo da Vunha Veedor do Infante Dom. Arrique fo. do dito Rey Dom Joao e Dona IsabelLeytoa molher de Ruy Mez Cerueyra. O qual Gonçalo Lco. Jaz sepultado no capo. do nossa Sra. da Graça de Lsa. Eeste, ou hu seu Irmao dizem que fez os Morgados dos Lcos. de Miranda, de Guimaraes, os quaes trazem por armas huz gomiz q'traziao os Gomides. Edize q'deixou este seu Morgdo. a hu sobro. O qual deuia ser Gco. Galdra. q' foy Escriuao da Cama. d'ElRey Dom Hoao o 1o. E seruai pollo dito Gco. Lco. Festeso souve o segredo Da Tomada de Gepta, e no dia q' a tomarao chegou este Gco. Lco. com 400. homes de sua Libre, e a mor part de sua Criaçao e prdio alli a ElRey o fizesse (como fee) Caualro. sendo nisso o primro.

§ Joao Gl'z de omide fo. deste Gco. Lco. Foy senhor do Morgado de Verde e foy casado com Leonor d'Albuoutros lugares, e muitas Rentas, e lugares,como se ve na Instituiçao, que fizerao, e ordenarao. O qual mosteyro edigicarao no Castello, e Paços de sua morada; Eassy estao sepultados na Capella que chamao dos Senhores, os quaes mudou da Galili, onde d'antes estauao sepultados para esta nobra Capella onde agora estao=Este Dom Afonso Sanchez se foy, e desnaturou para Castella com rreceo da má vontade do Infante seu Irmao Dom afonso; De que Portugal ficou perdendo Albuquerque, e Codeseyra, e para sempre ficarao a Castella.

§ Don Joao Afonso o Bom, Senhor de Albuqerque, a que as Chronicas de Castella chamao o bom de Portugal, filho deste Dom Afonso Sanchez Senhor d'Albuquerque herdou, e foy Senhor da casa de seu Pay. Da parte que rinha em Castella, foy senhor d'Albuquerque, de Melinde, de Seyra Zagala, e Alconchel, e outras muytas Villas, terras, e lugares, e oy Senhor da casa de seu Pay. Da parte que tinha em Castella, foy senhor d'Albuquerque, de Melinde, de Seyra Zafala, e Alconchel, e outras muytas Villas, terras, e lugares, e foy hu dos grandes Senhores de Castella em seu tempo. E foy Ayo, e Mordomo mor d'ElRey Dom Pedro o Cru. Este fou o que andou em tempo d'ElRey Dom Po. com os grandes de Castella, como se vena dita Chronica, fou casado com se ve na dita Chronica, foy casado com Dona Isabel de Meneses filha de Dom Telo de Meneses, que foy filha do Mnfante Dom Manoel Irmao d.ElRey Dom Afonso o Xo., E da Infanta Dona Constança d'Aragao filha d'ElRey, como se mostra no liuro das linhages no tito. 24, § ٢٠, e no tito. 21, fas. 57. De quehouue Dom Martim Gil d.Albuquerque Adiantado de Murçia, que ElRey Dom Po. o Cru mandou matar com poçonha, sendo moçe, e estando em rrefens, como se conta na Chronica do diro Rey de Castella no anno 40.no capo.23. folh. 22.

§ Ehouue bastardos Dom Fernando d'Albuquerque, e a condessa Dona Britis de Albuquerque, molher que foy de Dom Afonso Telo de MenesesConde de Barcellos Irmao da Raynha Dona Leonor, e filho de Martim Afonso Telo de querq fa. Gco Vazde Melloo moço Se. de Castanhra. e pouos. De q'houue Gco. d'Albuquerque azeyte, e Lopo d'Albuquerque dos Olivaes, e Dona Isabel molher de Fernao de Sousa AlcaydeMor de Keyria fo. de Diogo Lopez de Sousa o velho Mordomo Mor d'ElRey Dom-

CAUSA PORQ' OS GOMIDES SE CHAMAO DE ALBUQUERQUE.

§ Estes sechamao d'Albuquerque polla may q'era neta de Vco. Miz da Cunha o elho, e de Dona Tareja d'Albuquerque sua molher 2a. q'foy fa. do Mestre de St.tiago Do Fernando Ao. d'Albuquerque. O qual foy fo. de Dom Joao d'Albuquerque, como vereis no tito. dos Albuquerques.

§ Gco. d'Albuquerque fo. de Joao Gl'z de Gomide foy st. do-Morgado de Billa Berde e foy casado com Dona Leonor de Mns fa. de Dom Alur. Gl'z d'Atayde 1o. Conde de Atoufuia. De q'houue Fernao d'Albuqueros matarao em Arzilla, e Dona Costança de Castro, molher deDom Fernando de Noronha Guouernador q'Foy da Exa. Senhora e Dona Isabel d'Albuquerque molher depo. da Silva Relle, Alcayde Mor de Porto de Mos, e outras freyras.

§ Fernao d.Albuquerque fo.1o.deste Gco. d'Albuquerque herdou o Morgdo. de seu Pay e foy Vedor do Mestre de Sanctiago Do Jorge fo. bastardo d'ElRey Dom Joao o 20. foy casado com Dona Cna. da Silva fa. de Dio. da Silva thro. Mor d'ElRey Dom A0. o 30. e Ir,ao do dito Po. da Noronha. Mordomo Mor d'ElRey, Dom Joaa o 20. e Comendador Mor de St.tiago, e Dona Joana d'Albuquerqur molher de Jorge barreto de Crasto Comendador de-Crasto Verde e por este casamto. veo este Morgado de Villa Verde aos Noronhas.

§ O Grande Ao. d'Albuquerque fo. deste Gco. d'Abuquerque, e Irmao deste Fernao d'Albuquerque, foy Estribro. Mor d'ElRey Dom Joao o 20. Capitao Mor, e Guouernador da India, onde tomou aos Mouros Ormuz, Goa, e Malaca, onde Jaz sepultado. E dahi o mandou trazer seu fo. E fez outras mtas. Cousas de q' estao os da India cheos, E o Liuro q' de seus feytos compos seu fo. bastardoAo. d'Albquerque. E nao foy casado.

§ Ao. d'Albuquerque fo. natural deste grande Ao. d'Albuquerque foy casado com Dona Ma. de Noronha fa. de Dom Anto. de Nra. Conde de Kinhares. De q'houur Ant. d'Al-

buquerque, q' falleceo moço, E Dona Janad'Albuquerque molher q' foy de Dom Frco. de Castro o magro Capitao d'Evora e Comendador de ---1. E dellanao houue geraçao. Ecason 20. vez co Dona Cna.de Mns. fa. de Dom Mel. de Mns, q' biue em Almada Camareyro Mor q'foy de sr. Dom Drte. Condestable de Portugal, e Duque de Guimaraes.De q' nao houue geracao, e houue bastardo Joao Ao. d'Albuquerque.

§ Po. d'Albuquerque d'alcunha azeite fo. 2o. de Joao Glz' de Gomide, e Irmao de Gco. d'Albuquerque foy casado com Dona Guiomar de St. Payo fa. de Amadis Vaz de St. Payo Juiz da Alfandega de Lsa. De q' houue Lopo d'Albuquerque azeyte, e Jorge d'Albuquerque, e Granco. da Cunha, e Dona Keonor d'Albuquerque Prioressa do Saluador de Lisboa.

§ Lopo d'Albuquerque azeyte fo. 1o. destePo. d'Albuquerque foy casado com Dona Isabel fa. de Po. Botelho Juiz da Alfandega de Lisboa. De q'houue Vte. d'Albuquerque, Dona Joana, e Dona Cna. Freyras no Mostro. de Saluador.

§ Vie. d'Albuquerque fo. deste Lopo d'Albuquerque azeyte andou na India em tpo do Grande Ao. d'Albuquerque.

§ Jorge d'Albuquerque fo. 2o. de Po. d'Albuquerqueazeite, e Irmao de Lopo d'Albuquerquefoy casado com Dona Cna. fa. de Jan Alz' (Aluarez) da Porta de Mancos de Samtarem dalcunha Rabo d'ovelha hu home honrrado do Campo. De q'houue Po. d'Albuquerque.

§ Po. d'Albuquerque fo. deste Jorge d'Albuquerque, foy o 1o. Capitao d'Ormuz, q' o faz Ao. d'Albuquerque seu thio. Nao casou. E.houue bastardo Anto. d'Albuquerq'.

***

ملحق (ج)

وصف لوبو سوادز

الذي خلف أفونسو دلبوكيرك

من كتاب:

PREDRO BARRETTO DE RESENDE'S "LIVRO DO ESTADO DA INDIA ORIENTAL".

British Museum, Sloane MS. 197, f. 136

Lopo Soares de Albergaria fiho do Vhanseller Mor Rui Gomes daluarengua segundo Gouernador e Treseyro no gouerno do Estado da Jndia: Partio de Lisboa em sette de Abril de mil quinhentos e quinze e chefou a Goa em oyto de Setro. delle auendo tomado Mossambique=guouernou tres Annos;foy em huma Armada ao Mar. Roxo, destrohio Zeyla Çidade de Mouros porq'lhe queriao empedir a Agoa e Mantimentos: edigicou as fortallezas de Coula e Collumbo e fes ho Rey tributario;Em seu Tempo se descobrio a Enseada de Bengalla e a Costa de China athe a Çidade de Cantam q' he a prinsipal das provisias della por Fernao Peres de Andrade tambem se descobrio o Reyno Siao e outras partes do Sul: Lisboa para a Yndia hum Embajxador do presto Joao q' Afonso De Albuquerq' auia mandado=Acabado o seu gouerno se foy para o Reyno em quinhento e desanoue. As Armadas q' em seu Tempo passarade portufual ha Jandia se seguem:

ANNO DE 1515. ARMADA 17a.

TREZE NAOS.

Em sete de Abril do Anno de Mil quinhentos e quinze despedio ElRey Dom Manoel Pera a Jndia huma Armada de Treze naos de q' forapor Capitais: Sr. Lopo Soares De Albergaria gouernador=Sima da Silueyra filho de Nuno Miz da Silura. Sor de Gois=Dom Guterre de Monrroy filho de Dom Afonso de MonRoy Cauallejro q'foy da Ordem De Alcantara em Castella=Christoua de Tauorafilho de Lourenso Piz de Tauora Aluaro Telles Barretto filho de Joao Telles=Franco. de Tauora filho de Po. Lourenso de Tauora sr. do Moguadouro=Dom Joam da Silueyra filho de Dom Martinho da Silur. Jorge de Brito copryro Mor delRey Dom Manoel filho de Artur de Brito Alcayde Mor De Beya=Aluaro Baretto de Montemor ho nouo=Sima de Alcasoua filho de Po. de Alcassoua em huma Nao de Mercadores em q' Ferna Peres de Andrade Auia de Ir por Capitao Ao descobrimento da China co quem Auiao de Ir Jorge Mascarenhas filho de Joa gliz Montant=E Joanes Impolle Mercador Aos quais Lopo Soares auia de dar Nauios na India=Dom Aleyzo de Menezes por Capitam mor do Mar da Jndia Anto. Lobo Falca=e Diogo Mendes de Vas-

concellos=Embarcara nestas naos Mtos. fidalgos e Mil e quinhentos homes de gerra chegara a Goa em oyto de Setro. co hos dous Nauios q'ho Anno atras auia partido em demanda da Ylha de Sam Kourenso destas Naos ficara Algumas na Jndia seruindo e as mais tomasa Carga em Cochim dera a Vella para o Reyno em Janro. do anno de Mil quintos e desaseis e nellas por Capita Mor Dom Garsia de Noronha etn falta de seu Tio. Afonso de Albuqerq' a quem ElRey mandava Jr nellas perao Reyno, depois de Entreguar ho gouerno a Lopo Soares: o qual era fallessido.

ANNO DE 1516. ARMADA 18A.

SEIS NAOS.

EM VINTE E DOUS DE MARÇO DOANNO DE MIL QUINHENTOS e desaseis despedio ElRey Dom Manoel P. A Jndia huma Armada de seis Naos de q' era capitais Sr. Joam da Silueyra Capitam Mor q' foy ter a Quilloa co hos mastros quebrados=Anto. de Lima q' se perdeo em Sam Lso.=Fransisco de Souza Mansias em Nossa Sora. da Lus q' se perdeo mas saluou a gente Afonso Lopesda Costa Garsia da Costa seu yrma=e Diogo de Vnhos A dar auizo da armada do Soldam do Cayro q' estaua em Sues As que nam se perdera fora a India em fim de Outro. o Capitam Mor depois de consertar os Mastros foy no Anno seguinte a Yndia=os dous Jemaos com a[s] suas naos e outras das q' Andaua no seruiso do Estado dos Annos atras Partira para ho Reyno depois de tomarem Carga em Janro. de mil quinhentos e desasete: e com boa Viagem chegara a saluamento= Diogo de Vnhos Capitam e pilloto de hum nauio em q'foy dar Auizo da Armada do Soldam como fica dito: com partir des dias depois das naos teue tam bom trmpo e fortuna q' chegou hum mes primeyro q' ellas a Jndia e em breue trmpo tornou a Voltar ao Reyo.

ANNO DE 1517. ARMADA 19a.

OYTO NAOS.

Em noue de Abeil do anno de Mil quinhentos e desasete Jespedio ElRey Dom Manoel pera a Jndia huma Armada de Oyto naos em duas capitanias ou escoadeas=Da primra. q' era de seis Naos era Capitais Sr. Pinto. de Saldanha Capita Mor, em Nossa Soa. da Serra=Tristam de Menezes filho Bastardo de Dom Rodrigo de Menezes Afonso Enrriques de Sepulueda filho de Ferna de Sepulueda=Mel. de Larserda em Sanctiago q' hia pqrq Capitam de Calecut Ferna de Alcasoua q' foy o pro. Veedor da fazda.=e Po. Correa: ou Coresma pera feytor de Cochim.

E para Malluquo dauas Naos e Capitais dellas era Sr. Dom Nuno Manoel Capita Mor=e Rafael Castanho=Esta Armada chegou a Jndia em desasete de Setro. o Captam Mor Anto. de Sal-

danha ficou nella pera seruir de Capita Mor do Estreuto de Meca como ja outra Ves ho auia sido na era de mil quinhentos e quatro e as quatro naos q' auia de noltar depois de yrem tomar carga a Cochim partira pero ho Reyno em Janro. de mil quintos. e desoyto Aonde chegara a saluamto. Neste Anno fou a [rimra. Armada [ara a China e se leuantou ho [rimto. Mouro Mallauar cosario a Roubar por mar co Nauios.

ملحق (ح)

وصف شيول (أد شول)

British Museum, Sloane MS. 197, f. 236.

DESCRIPSAM DA FORTALLEZA E ÇIDADE DE CHAUL.

A fortalleza e Çidade de Chaul esta Çita na costa da Terra firme do Reyno do Decam em Altura de Óyto graos e dous terços da Banda do Norte na Entrado de hum Rio de Áfoa salgada: Hum quarto de Legoa da boca delle pera dentro posta ha porda da praya da banda esquerda quando se entra toda sercada de Muro com Noue Balluartes e quatro Reuezes nos mesmos Balluartes os quais estam na formaseguinte= Ho Balluarte SamPedro q' cahe sobre ho Rio tem hum Camello de Marca mayor pedreyro q' tira balla de desoyto Liuras-O Balluarts Sancta Crus q' se segue a este na tem nenhuma Artilharia e esta por entulhar=O Balluarte Sam Paulo q' vay cotinuando estao)sic) bem por entulhar e sem Nenhuma Artilharia=O Balluarte Sanctiago q' se segue a este tem duas pessas sr. (i.e., saber) hum Canhao Reforsado q' tira balla de sesenta e sinquo Liuras=e hum Camello q' tira desasei de pillouro de pedra=Tem hum Reues este Balluarte sonde esta huma pessa de ferro=No Balluarte q' esta De fronte de Sam Paulo esta hua pessa de Bronze por dentro ferrada de ferro Collebrina Joga desaseis Kibras de balla=Este Balluarte tem dous Reuezes hum tira [ara ho Balluarte Sanctiago co duas bombardeyras em huma dellasesta huma pessa de bronze=O Balluarte Sam Denis q' se vay segindo a este na tem nenhuma Artilharia: No Reues q'tem q' cae pera a praya esta hum Pedreyro de ferro de Catorze Liuras=O Balluarts Sam Franco. q' fica sobre o mar par pera A Costa

braua tem tres pessas de Metal. Sr. huma Aguia q' tira quarenta Liuras De Balla: hum Canhao Regorsado q' tira sinqta. Liuras: hum Leao q'tira outras sinqta. todas de Pillouro de ferro=O Balluarte Sam Domingos q' se vay seguindo a este na tem pessa Alguma=O Balluarte q' esta sobre a porta dos Cazados tem hum Canha de Metal que joga balla de Vinte e quatro Liuras de ferro=No Cais junto ha see estao duas pessas de Metal, huma-he Canhao de catorze Liuras depillouro, e a outra da mesma forma=Toda esta Artilharia q' sam trrzr pessas estao em seus Repayros: porem be claro se vee quam falta esteya esta Çidade de Artilharia estando mtos. Balluartes e Reuezes sem ella e auendo tambem mister os q' Atem alguma Mais:=-

A Altura destes Muros he muy Varia porq' pella banda de terra pella mta. gerra q'por ella costuma ter sao muyto mais Alto q' pella do Mar e Rio: e assy tem quatro Brassas e ma: athe sinquo: de des palmos Cada brassa e pella do mar e Rio tres brassas athe tres e ma: co seus parapeytos de sinquo athe seis e sete palmos: A grossura destes Muros he des palmos na Rais e vrm Acabar em seis: Nam tem entulho nenhum pella banda de dentro, nem Caua pella de fora porq' nesta Çidade sam hos Arrabaldes mto. largos e quando ha gerra se defendem todos=Os Balluartes sam de diferentes formas e nao estamayuda prefeytos nem no Entulho nem na Altura Cuyas obras estam Remettidas por ordem de sua Magd. Aos padres da Compangia=O Capitam Viue dentro dos Muros em huma serca de Ladrilho como a de Bassaym aonde esta o Tronquo=A gente q' mora dos Muros a dentro desta Çidade sam duzentos Cazados portuguezes em Cazas muy boas todas de pedra e Cal: e sinqta. preos Christaos da Terra q' hus e outros tem cada hum seu Escrauo que possa tomar Armas q' sao as prinsipais espingardas e toda a mais sorte dellas. E a cauza de serem os Escrauos tam poucos he por fogirem todos pera a Terra firme dos Mouros=E Viuem alem destes nos Arrabaldes Referidos, e em muytos palmares e ortasdos portuguezes q' estao pouqua distansia da Çidade e quazi debayzo da Artilharia de seus Muros quinhentos homes cazados pretos Christaos e Gentios, e os mais delles offissiays de offissios mecanicos, e atho os chaudaris q' sam os q' sobem has palmeyras a Colher os Cocos e fruyto delles nos seruira ja na gerra cotra os mesmos Mouros naturais, e senhores da Terra=

Ha nesta Çidade dous almazeis hum de sua Magde. outro da Çidade os quais estam prouidos Bastantemente de poluora e Monisois e petrechos pera qualquer ocasia de gerra athe se prover de Goa: como sam todas as fortallezas e Çidades do estado nas gerras e vouzas estra Ordinarias=Ha nesta Çidade de Chaul dos Muros a dentro seis Igreiyas. S[abe]r. A see:=Mizericordia=Sam Pau-

lo q' he Conueto dos Padresda Companhia=Hum Mostro. de Sam Domingos= Outro de Sam Franco.=outro de Sancto Agostinho os quais sustenta Sua Magde. pagando a Cadahum e ao Capitam e mais offisiais o q' se Vera nas cotas adiante=A barra desta Çidade de Chaul he a mais Bem guardada q' ha neste Estado pella Courasa do Morro q'Atras dissemos fica sobre ella Com q' nam pode entrar nem sayr nenhuma couza sena por bayxo das pessas da misma Courassa. Tem a barra hum Banco de Área q' a atrauessa pello Mo. do qual fica o Canal q' demora ao sueste de bayxamar na tem fundo mais q' oyto, e noue palmos: e em agoas Viuas tem tres brassas=E em entrando da barra pera dentro fica ho Rio mas largo e co fundo bastante pera Estarem nelle mtas. Embarcasois sem auer couza q' lhe fassa dano=A Costa desta fortalleza Corre Ao mesmo Rumo q' a de Dama de Baorte a Sul mais alguma couza [ara o Sueste=As Correntes sam tambem as mesmas tirado q' como fica mais afastado Da Enseada de Cambaya nao sam as Mares co tanta furia como as q' temos Referido=E as Monsois de Ventos sam tambem as mesmas=

As Viageis q' se fazem deste porto de Chaul sam mtas. e pera mtas. partes porq' como Estes Moradores nam tem fazendas de q' possam viuer, Como os de Dama e Bassaym daose mais ha mercansia: E viuem puramte. do trato e Nauios de Remo: e posto q' podem Ir e Vir em Todo ho Tempo nao Andao sena em Cafillas em Companhia da Armada q' lhe da guarda a Respeyto dos mtos. paros de q' Aquella Costa anda sempre chea pello Verao: E assy nam fazem mais q' Duas Viageis em Verao: Ho q' leua sam ao mayor parte Cocos, Areca, Canilha, Pimenta, e todas as mais Drogas do Sul:Crauo, Nos Masta; e tambem as do China como Pao, Lousa, Tutunaga, o q' trazem sa Roupas, Anfiam, e Anil=Fasse tambem Viagem de Chaul pera Mascate e daly pera Bassora; Leuando ho prinsipal Arros, e Roupas de Cambaya Cocos e Copra q' sa hos mesmos cocos passados ao Sol: de q' se Vza mto. neste Oriente, e o mais q' atras fica Referido=A jornada he nos tempos q' temos apontado nas descripsois de Dama E Bassaym As embarcasois sam pataxos e galleotas: o q' se tras de la taobem fica ja atras Referido=Nauegasse tambem de Chaul pera Mossambique pera onde vay hos mais dos Annos hum pataxo co Lisensa do dono da Viagem em Janeyro athe os peimros. de Feuro.=Leua Roupas de Cambaya das q' serue pera os Cafres q' sao Canequis pretosa a q' chamao Serqueyra e muyta contaria q' lhe vem de Ballagatte q' sao huas Continhas de Vidro q' costuma trazer os Cafres em q' ha mto. grande ganho por cuyo Respto. he Esta Viagem so do Capitam; ho q' de la se tras he Marfim, Ouro, e Cafres=Vam tambem embarcasois de Chaul pera Manilla e Chyna leuao pera a China algumas Roupas de Cambaya e de

Norte como Canequis e Teadas e alguas couzas de Mascatte como amendoas passas de Vuass, Ensenso; pucho q' he hum pao q' vem de Cambaya e serue pera La=e o mesmo pera Manilla Acresentando Muytas farinhas de trigo, Anchoras e ferro: de q' ja se dise q' em Chaul auia Muyto q' lhe vinha da terra adentro do Ballagate de q' tambem se fazem falcois de ferro Batido: partem [era Estas Viageis desde fim de Março athe todo Mayo=He este ferro de Chaul alguntanto grosso e assy ho mais pera q' serue he pera Estas obras grossas de Anchoras e falcois: nao deyxando ta bem de seruir pera pregadura. Chaul de sima q' dizemos paga Vinte mil Laris de pareas he hua pouoassa de Mouros q' esta hum quarto de Legoa da nossa Çidade panda de Leste q' he a do Sertao em q' viue mtos. offisiais Tessilois de sedas q' se fazem na dita pouoassa de toda sorte e Marseneyros de obras de Escritoris e Marchetaria de q' taobem ha mta. abundasia e outros offissiais e taobem ha mtos. Mouros de gerra e sera a dita pouoasa de tres mil Vezinhos mas sem Muro nem fortalleza alguma.

ملحق (د)

عن قريات

المتحف البريطاني، مخطوطة سلون ١٩٧

ورقة ١١٥

DESCRIPSAM DA FORTALLEZA DE CURIATE QUE HE A PRIMEYRA DO ESTREYTO DE ORMUS ANTES DE MASCATE.

A fortalleza de Curiate esta doze legoas Antes de Mascatte pa. o Cabo de Rosalgate sitta na Costa braua a Borda da Praya Onde

na ha Rio nem enseada nenhuma mais q' hum Ilheo pegado e continuo com a terra q'he somte. Ilheo em lansar ao Mar hum Outeyro ho qual em Agoas Vivas fica em nado Neste lugar se abriga Algumas Embarvasois de pescadores do Sul e Sudueste porque pera grandes na ha fundo ao longo delle: Esta neste Ilheo hum Balluarte Couza [iquena do tamanho de huma Caza de des passos andantes de [rassa. Em quadro que se fes [era jugar daquy Artilharia [era ho Campo e Mar: oje na tem nenhuma= A fortalleza de Curiate em q'fallamos esta aborda da praya he Em coadro nam Prefeyto sena hum pouco mais comprida q'larga. Tera de Comprimto. nos sous Lansos de Muro q' vam da [raya pera Terra sinquoenta [assos Andantes, e de Largura Trinta. O Muro he de Adobes Como todos os mais da Arabia q' fizera Mouros como a estes de quatro brasos e mea de Altura e tres palmos de grosura, na tem parapeytos mais q' seteyras. Tem quatro Balluartes nos qtro. quantos quadrados co des passos andantes de Vam co seus sobrados e hum delles serue de Viuenda do Capitam poitam portuges q' nelle asiste: E os outros dos Lascaris q' nestafortalleza e em outra mais Interior e no Balluarte do Ilheo esta q' sao por todos oytenta=ha mais dentro nesta fortalleza hum Almazem para mantimentos; Outro para Munisois: hum posso de Agoa sem mais Outra Couza=A fortalleza q' dizemos esta mais Interior desta fica hum tiro De falca pella terra dentro entre hus palmares para hos defender he em triangullo, Cada Lanso de Muro de des passos andantes de comprimento tres brasas e mea de Alto: e dous palmos e meio de grosso de Adobes sem paraprytos, e co seteyras. Estam duas ponoasois de Arabios e Balucos pella terra dentro quatroçentos passos distantes huma da Outra de Trezentos Moradores cada hua pescadores e soldados q' tambem Acodem a defender As terras, Estao sercados co seus muros, e Balluartes pera sedefenderem: fora estas fortallezas DelRey de Ormus onde elle Asistia depois de se perder Ormus quis Entrefallas e por essa Cauza as mandou senhorear Ruy Freyre q' Ja na pode ser sem gerra. He esta Terra de Coriate fresquissima com muytos palmares q' fazem quazi todo ho gasto de fortallezas, e se proue Mascate de muyta Verdura e Mantimentos=Na ha aqy nenhuma Artilharia mais q' Espingardas dos Lascaris q' bastam pera os da terra e tambem em Auendo Gerra se manda logo Vir de Mascatte: o gasto q' esta fortalleza fas a sua Magde he o seguinte:

ملحق (ذ)

وصف السند

British Museum, Slaoane MS. 197, f. 167b.

NAUEGASOIS E VIAGEIS DO SINDE E SUA DESCEIPSAM.

De Mascatr se fas Viagem pera O Sinde desde Outobro athe quinze de Março com Centos Bestes, e Noroestes e Suis: q' sam çent e Trinta Legoas Esta OSinde na Costa da Persia=A Barra do Rio Indo q' por aquy desemboca Ao Mar de Marca ao Nordeste Sudueste por entre hum banco co a boca da Barra de fundo de duas brasas e mea de Baxamar e de preamar sinquo e de Largo hum Oytauo de Legoa e daquy se vay estendendo este banco pera ho Leste athe A Restinga de Doba tam nomeada o parsel sera de tres athe sete Brasas de fundo, tanto q' entra Março he hum Ynferno neste Banco co hos trauesois mas aynda Assy se sae da Barra, e entra athe Junho=Tom outra boca ezte Rio Yndo q' vem a huas Ilhas q' chama As Monaras tres legoas da outra para o Noroeste a qual esta oye entupida mas na Pera Embarcasois piquenas-Nem pera surgirem em enseadas as Embarcasois grandes mas nam pera yrem dentro=A causea de se entupir a dita barra foy por os portuguezes entrarem por ella a dar hum grande asoute em huma Çidade mas com Embarcasois piquenas podem yr dentro a fazer Resgate.

Tem ho Rio jndo outsso por onde entra no mar outo legoas do Sinde Pero Ho Leste a q' vhamao Daraya. Esta barra esta na cabessa da Restinga de Deba Tem hum grande Parsel a boca do Rio de mais de tres quartos de Legoa na Entrada de huma brassa e quarto de fundo peronde he muy digicultozo entrarem embarcasois saluo forem fustas essas muyto piquenas porq' he de Area muy Perigozo=Ha Nauegassa deste Rio pera a Entrada de Cacha e Nagana em Bauios piquenos q' chama Cotias muy frequente e de proueyto por este se vay tambem ao Reyno do Sinde= O grande e prinsipal de q' tratamos fas seis ou sete voltas q' fazem quatro legoas athe chegar co Ban Ar Bandel aonde esta a Alfandega em q' hos nossos Nauios vam Anchorar e Lansar, e tomar Carga: Vam a este poeto muytas embarcasois de toda a costa da India desde a ponta do proprio Sinde athe o Cabo de Comorim; deste Bandel onde ha hua pouoassa muyto grande e estrndida e huma fortalleza piquena fraca e cayda, Ao Reyno do Sinde ha doze Legoas de Caminho por terra em q'tem tres Passagris de proprio Rio Indo q' em Coracol vim correndo por Estas terras onde ha muytas Aldeas de considerassao: pello Rio asima se nauega em embarcasois piquenas q' leuam estas fazendas ao dito Re-

yno pera La se guastarem. O Reyno he huma Çidade mto. grande com mais de çento e sinquoenta mil vezinhos de Cazas meudas de pedra e cal com grandes terrados; mas o ordinario he serem todas de Varichas cubertas de Barro podre amassado co palha q' ho fas muy duro: Viue muy juntos q'se ouuerao de Abitar como os portuguezes naem sinqui tanto do campo da dita Çidade lhe bastaria: He gente muyfraca dellicioza, e superstisioza e Mentiroza: Mouros e gentios Viuem todos misturados=Foy o Reyno antigamte. de hum Rey gentio, de cuio ospissio e emparo se veo valler o Rey Mogor antigamente e depois pello tempo adiante lhe fez traysa, e trmou ho Reyno cuio oye he: e por elle he gouernado com seu Nababo Mogor co muytos capitais Mogores e he o Reyuno do Sinde em sy tam rico q'vem a elle capitam q' vense de quartel quinze mil pataquas e daly para bayxo athe oyto, e quatro: e destes Muytos: He hum Vano o Sinde por onde se enche o Reyno do Mogor de muyto Alyofre e perolas de Barem; e de grande Cantidade de ouro e de prata: Muytas drogas do Sul: muyta Tamara, Congo; Copre e Algodam q; lhe leuam os portuguezes e as mais nasois q' la ua: porq tyra somente Roupas; Anil, Asucar: e Anfiao:

A terra he muy fertil de mantimtos. Trigo: Arros: gerzellim; Milho; Seuada, e todas as carnes tirado porco: mtos. Carnros. e muy bons: Mas na da ho Reyno do Sinde Bastante Algodam pera hos mtos. offissiais q'tem: porq' so na Çidade Referida ha trinta mil Teares, e dahy pera sima e assy se val do Algodam de Cache e Nagana E he tam grande o trato desta terra q'a quantos Nauios e Embarcasois forem a ella a todas dara Carga co auer nauio de Portuguezes q' leua em pratta, ouro, e Alyofre quatrocentos mil pataquas de Cabedal, e destes ha mtos: E athe da moeda se paga direytos co grandes tiranias na Alfandega a tres e meio por çento q' A uallia em dobro e aynda mais da Vallia das fazendas. Com q' vem a pagar a sette e mais por çento=Mas como os Mogores q' aquy asistem sam muy leuados do Interesse co qualquer couza se lhe tapa a boca nos grades descaminhos q' hos portuguezes lhe fazem do q' leua=

Vam aquy nas Monsois muytas Embarcasois de portuguezes e se huntarao em seisctos. trinta e tres ninte e tres vinte e huma embarcasois entre galleotas pataxos fustasco algus duzentos portuguezes porq como pera estas partes, e pera ho estreyto na ha Ladroes Mallauares nam dos naturais, andam co muy poucos soldados: Tem ha dita Çidade grande do Sinde huma Igreiya dos padres Carmelitas descalços muy bem ornada e consertada: q' posto q' se na fassa Christa nenhum natural porq' nenhu se fas Christa na terra, sena quando os leuamos fora della porq' enta de muy fassyl, co tudo he muy grande auxillio pa. os portuguezes e mais vhristaos: porq' niuera ja e viuem portuguezes cazados na dita

Çidade, e de ordinario Jnuerna em quanto se na fas nauegassa algus portuguezes em sima e embayxo na qual ygreiya ha de ordinario dous padres Carmellitas q' se sustenta das Esmollas dos portuguezes co q' viuem muy bem=e na Era de seis Çentos Trinta e quatro emfadados os Mouros detanger do sino desta igreiya a derrubara e tomara tudo ho q' nella auia de ornamentos e mais fabrica: Mas depois tornara a dar tudo e a fazer a igreiya=:

Como ho dito de dito Rio he muy caudalozo e vay tanto pella terra a dentro Nauegam por ella asima mtas. embarcasois de quatroçtos. Candis com todas estas Fazendas pera os Reynos do Mogor pondo muyto tempo a yda [ellas grandes Correntes, e muy pouca a Vinda. He gente esta q'em hum Cazamento de hum gentio gasta quatro e sinquo Mil Rupias: e cada Rupia tem Ma. [i.e., meia] Pataqua; e has vezes quarenta e sinqta. mil conforme os cabedais andando em perpetous Banquetes, e deyxam perder grandissimos contratos por hua festa a q' chama Tamaxa, comendo muyto e muy porcamente e tanto he assy q' mtos. perdem as Mosois da Embarcassa e nauegassa por se Darem a suas festas: Vem as ditas embarcasois do Rio carregados de mto anil Asuqueres e Jagra e gasta a terra todos os annos mais de des mil Candis de Mantrygan=

No bandol de Bayxo temos onde esta a Algandega huma Ygrriya em q' viuem dous Rellegiozos Agostinhos Aquem paga sua Magde. mas ho seu sustento prinsipal he das Esmollas dos portuguezes posto q' lhas nam Dam com tanta Largueza, como aos Carmellitas: Viuem Ao Redor da Igreiya hos Portuguezes em cazas de Aluger:ondi tambem viuem as Molheres publicas, e hum tiro de galca pera a Terra dentro esta a pouoassa de Mouros e gentios Todos misturados: Sam aquy tratados os Portuguezes muyto mal com grandes perrarias de q' elles mesmos sam a Cauza porq' fazem çem. mil Asintes, e SemRezois aos Naturais, dandolhe muytas pancadas athe chegarem a mattallos de q' tudo se lima Com dinheyro e athe aos mesmos a quem fazem ho mal, os fazem callar co qualquer couza q;lhe dam Porq' he gente muy bayxa e amiga de Interesse=Amarra hos portuguezes os fardos de Roupa, e mais fazendas em suas cazas a q' vem ver e escriuer os Menistros Mogores: da qual amarrassalhe passa Lista, e chapao os fardos co suas Chapas a q' depois vem hos mesmos amarradores a noyte a tornar a encher os fardos de outras sortes de Roupas melhores; e quando pella menham vem tornar a vem tornar a ver as chapas as acham muy boas com q' furta muytos direytos na Algandega pellas grandes aualliasois q' nella lhe fazem q' ordinariamto. he mais da a metade.

Tem no Sinde Sua Magde. feytor q' serue de Aquiatar todas as

Alterasois, e couzas q' se mouem entre nos, e os Naturais, porq' lhe tem muyto Respeyto: Nam tem ordenado da fazenda de Sua Magde. sena humas Liberdades de quarenta por çento q' lhe dam gos Mouros menos do q' leua aos mais poeruguezes e isto so nas suas fazendas: Mas elle Mas elle adquire muytas co q' vem a fazer hum ordenadoconueniente=Tem Liberdade de poder fazer Vinho q' como he contra A ley dos Mouros tem muyto proueyto, por lho Vierm coprar de Noyte=O vinho he de Jagea, e de huma casca de huma Aruore q' chama Joto: maso mais de q'Viue o feytor he de sua Mercansia eNauio porem co a lyberdade defeytor espanca Mouros, e da em todos e vay gritar em caza do gouernador estando em yanta de gouerno: E Ronca q' ha de mandar vir Armada: E assy he obedessido=E entrando hum Pataxo Olandes em Janro. de seisçentos trinta e dous no Sinde com per[ozitto de Aly fazer Comersio e feytoria pera nos tirar daly entrando com muytas Drogas e grandes pessas de dattas: Ao q' ho nosso feytor encontrou fazendo grandes gritas e couzas e ameasando os Mouros q' logo se sahia daly co todos os portuguezes: E com todos se fou ao Nababo e disse q'era ympossiuel q' portuguezes e Olandezesasestissem Aly q' visse quais lhe estaua milhor chamando muytos oprobrios aos Olandezes q' elles sogrera e se pos o feytor co Lo Nababo em tal estado que pedio o Nababo Ao feytor q' lhe desse firma pera q' hos portuguezes na fizessem wal ao dito pataxo dos Olandezes: E contudo Aunzou ao Capitam geral Ruy frevre a Mascatr: O qual nao mandou a Armada sobre elle: porque naquelle Rio estao debayzo da seguransa do Rey Mogor, E seria quebrar ho Porto e dar mao trato aos Mercadores porem os olandezes se foram logo muy enfadados da Ma ospedagem q'lhe fizeram e de ver quam mais estimados aly erao hos portuguezes do q' elles podiam Vie a ser E ma Verdade o sor deste porto do Sinde q'he Asefaca grande priuado do Mogor os estimara aly muyto: Mas ho Nababo de Surratte lhe disse co muyta liberdade q'se consentia nelle olandezes, ou Ingrezes Avia de perder logo ho grande comersio de Surratte porq' se lhe auiam La de passar: Ao q' teue o Mogor muyto Respeyto porq' entendeo ser assy Verdade e a esse Respto. os nam azolherao no Sinde.

ملحق (ط)

وصف حصن أونور

British Museum, Sloane MS. 197, f 285.

DESCRIPSAM DA FORTALLEZA DE ONOR.

A fortalleza de Onor Esta na treea firme do Concani do Ballagatte desoyto legoas de Goa para o sul Em Altura de Catorze graos e vinte enoue Minutos foy conquistada e feyta pello Vizorrey Dom Luis d'Atayde que depois foy Conde da Atouguia, No Anno de quinhentos sesenta eoyto=Esta plantada esta fortalleza hum quarto de Legoa da Barra de hum Riode Agoa salgada q' Bem sayr ao Mar, em Syma de huma Rocha toda sercada do Muro de tres Brassas de Altura e quatro palmos de Largura co seus parapeytos: Tem em Roda quatro çtas. Brassas: dentro dos quais Muros fica a pouoassa dos Cazados e Moradores q' sam Trinta Branquos=Tem rsta Pouoassa e Muros Onze Balluartes em Roda feytos em forma Redonda e sao estes Balluartes por sima cubertos de Telha em hos quais esta Repartidas quatro pessas de Artilharia Tres de Bronze e hua de ferro-Huma de doze e outra de des e outra de seis liuras de Pillouro de ferro: e hum Camello pedreyro de desoyto Libras de pillouro de pedra=Tem mais oyto falcois=dous Bersos, e hum Canhao tudo de Metal: que para a copia dos ditos Balluartes e grandeza delles paresse Couza Muy desconforme porem como esta preuensa nao foy feyta pera os Enemigos de Europa de q' oye mais nos tememos, ouueram quw bastaua para os da Terra: hum dos ditos Balluartes he Caualleyro a todos os outros=He esta fortalleza de Onor muy fresca sadia e de Bons Ares, e tem muyto boas Agoas de Maneyra q' se tem pella melhor nestas Couzas q' ha neste Estado porq' dos Muytas a dentro tem os Cazados Napulle piqueno destrito muytas ortas em suas Cazas q' lhe dam Muy boas Vuas e fruyta de Espinho ezsellente=Nao ha Alfandega em Onor porq' nam tem nenhu Comersio, e so viuem aquelles Cazados dos quarteis de Sua Magde. e de Algumas Terras De Arros q' semeao fora dos Muros: e Palmares q' tem: porq' A terra como fica dito he muy fertil: e so lhe Vem de fora algumas gundras das Ilhas de Maldiua com Caurim cayro, e Cocos: Tirase desta fortalleza e suas terras algum Arros: mto. menos q' de nenhuma outra otura fortalleza do Canara, alguma madeyra de Mastros e Vergas de q' Abunda o Mato da Terra dentro mas co Lisensa do Rey della sobre q' nam deyxa de auer algus incouenientes, Alguma Aleca e Cato e Algumas Beatilhas q' se fazem pella Terra dentro=o q' mais se tira desta fortalleza e Terras Vezinhas he mta. pimenta a melhor q' ha na India q' se compra por Contrato a o Rey da Terra o qual he de Nassao gentio chamado o Rey do Equery, ou Canara como se yntitulla Esta provinsia de q' he sor e por Nome proprio de q' he sor e por Nome proprio Vira Bador nayque o qual todos os Reynos de q' he sor na dita prouinsia erdou ha seis annos de seu

Avoo Vintapa nayque q' ha trinta e dous Annos as coquistou Desde o Rio de Merizeu athe o Canharotto q' sam trinta e seis Legoas de Costa tomando os aos Reys cuyos erao e os tizouros fazendelhe mtas. Tiranias com q' tinha ayuntado grandissimas Riquezas=E ha seis annos q' por morte de sen Auo se lhe leuantara Todos os Ditos Reis com quem tiue mtas. Batalhas e Encotros ora de perda ora de gango athe q' hu seu Tio foy leuantado por Rey chamado Virapa nayapa o qual estando ja em posse do ReynoMorreo em breue dizem q' por negoseasa deste Virabadar nayque o qual tornando a tomar posse do Reyno foy conquistando seus Enemigos athe q' ha dous Annos os acabou de Venser e fazer se sor de tudo o q' lhe deyxou seu Auo=Tem o estado asentado pas co Este Rey de amigo de Amigos, e enemigo de Enemigos e que todos os seus portos nos sera muy franquos para Tirarmos delles Todo o Mentimento q' ouuer por q' hos do Canara sam sonde vem Todo o Arros q' susteuta Esta Cidade de Goa e seus Contornos: porem Como Este Rey esta muy soberbo pellas grandes Vitorias q' tem alvansado nam guarda isto como esta obrigado particullarmente pella fortalleza q' ho Conde de Linhares Vizorrey fes a seu pezar Na Ilha do Cambollim=

O poder q' Este Rey tem oye he de quarenta pera sinqta Mil homes Canaras q' se tem por huma das Milhores gentes de Armas q' ha neste Estado, e aramente Tiuemos gerra co Elles q' leuassemos o Milhor=Mas na sam traydores para de Bayxo de fee e pallaura de pas fazerem a sua: como alguns Naturais deste Oriente=A ley q' professa he gentillica como ho seu Rey de q' ha Muyta diuersidade, e sam Raros os q' se conuertem a Nossa sancta fee Caathollica e assy Nenhuma Igreiya Temos em suas Terras nem ho Rey se entende as consentira=Na se sabe q' este Rey tenha athegora comersio nem Commonicassa co nassa Alguma Estrangeyra fora dos portuguezrs, q' Como Vassallo do Idalcam e q' lhe paga pareas: paresse q' ho Imita nisto: posto q' nam sabemos ser athegora cometido co a dita Comonicasa=A Barra desta fortalleza de Onor he de hum Rio de Agoa salgada q' vay mto. pella Terra dentro atrauesa a pello meo hum Banco de Areacomo a todas as deste Estado pello mo. Do qual tem Hum Canal de sinquo Brassas de Largo, e doze athe quinze palmos de fundo por onde nam podem entrar por elle embarcasois q' ho demandem mayor seuao em Ocaziao de Agoas viuas: e dentro no Rio ha gundo de Vinte e sinquo athe trinta palmos. Na ha nesta Costa mais Correntes, Ventos, e Monsois q' hos q' temos dito no prinsipio della, de Terrenhos e Virasois: Corre o mesmo Rumo de Norte a Sul metendo alguma couza pera ho susueste= Tem esta fortalleza de Onor Offissiais e presidio q' se vera a bayxo e o q' se lhe paga de prezeute e o q' se lhe pagaua autigamte. q' he ho seguintc=

ملحق (هـ)

وصف هرمز

المتحف البريطاني، مخطوطة سلون، ١٩٧/ ١٥٧

Da fortalleza de Ormus nam tratey de fazer descripsao por nao ser oye do Estado E somente lhe pus aquy a Plantal da forma q' era pera memoria, [era q' se algu Dia D's premitir q' torne a ser do Estado se saber o q' Auia dido, porq' em nosso poder Nam teue Nunqua A Caua aberta de todo como agora tem comessada su: mas como se Nam Cuydou q' lhe susedesse Nunqua tal nam tratara Nunqua de lhe abrir: porq' se lha tiuera abertaComo o disse Afonso de Albuquerq' pudera dormir seguros Masa Confiansa dos portguezes he mtas. vezes Cauza, e seus descuydos, dos maos susesos q' ham tido: O persa lhe maudou Abrir a Caua e fazer pontr Leuadissa Com Balluartes na porta e pontes da Caua co que esta seguros e sera Nessesario hum serco muy dillatado e sem elle se pode perder a esperansa de se tornar a tomar.

DistaOrmus de Mascate sesenta legoas em Altura de Vinte e sete graos: Tinha ElRey de Ormus nesta Ilha huma Çidade muy populloza Onde Elle Reynia com hos seus fidalgos: Abitada de Christaos e Mouros q' por todos seriam Oyto Mil Almas=Era muy frequentada de Merca dores, Persios:-Turcos=Arabios:-Mogores=Armenios gentios=Tinha sua Magde. nella huma Algandega q' lhe Rendia cada anno duzentos mil pardoas e lhe pudera Render muyto mais se ouuera ter conta co sua fazenda=Era huma dos boas fortallezas q' Auia no Estado, e muy bem Artilhada co dous engenhos de poluora e huma Ribeyra de fustas e galleottas pera as Armadas daaquelle Estreyto=Auia naquella fortalleza afora a see e a Mizericordia hum Conuento de sancto Agosto. com vinte Rellegiozos=Ha Ilha Piquena na tem mais em

sy de comprido q' huma Legoa: e de Largo hum quarto de legoa na tem mais em sy que sal, enxofre: e sisternas de Agoa da Chuua: e hum Cano de Agoa q' ElRey de Ormus Achou em Tambaque na pota da Olha q' he muy sallobre: co tudo isto era muy prouida e Abundante de tudo ho nessesario mais q' outra deste Oriente: De fronte de Ormus na terra firme da persia na fralda do mar q' era toda DelRey de Ormus estaua a fortalleza do Randel do Comoram q' mais he huma Caza forte q' fortalleza Onde hiam Parar todas as Cafillas da Lara, e outras Partes.

ملحق (و)

وصف البصرة

British Museum, Sloane MS. 197, f. 161

DESCRIPSAM DE BASSORA E VIAGEIS Q' DE MASCATE SE FAZEM A ELLA.

Fasse tambem Viagem de Mascatepera Basora em todo ho anno em a qual vao tomar huma Ilha q; chamao a da Carga q' esta çento e sinquoenta Legoas de Mascate. E nesta Nauegassa se vam sempre Vendo as terra da Persia Prayas, ou Serras, pera se liurarem da forsa dos ventos Noroestes: Nem viuem Na dita Ylha da Carga mais q' pillotos que seruem de Leuar as embarcasois a Bassora Onde se vay co ho prumo na mao ate entrar os Medois q' he hum parsel de Lama de tres brasas de fundo: Brassos de Rios com que ve Ao Mar o Eufratees co Alguma distansia hus dos Outros em q' hos mesmos pillottos se embarassem nam sabendo has vezes por q' Rio vam e susede Irem mtos. veszes seis e sete dias por hum Rio dentro e como na Vem huma Balliza q' chamao as Bafras que os sertefica yrem pello Rio de Basora tornao a desndar com o Vorrente da Agoa a o Buscar he ha pillotos tam destros q' pello Cheyro da Lama conhessem ho Rio de Bassora pual se ay doze Legoas athe a Çidade de Bassora a qual esta situada a borda do Rio co hum fortalleza muy fermoza e aberto hum Riacho a mao q' A serca q' chamao Sete Larobo dentro do qual se cay estendendo a Çidade ma. Populloza e grande em Numero de Cazas vom algus quinze mil Vezinhos q' viuem mto. juntos e pello Campo muytas tendas De Arabios das Cabildas da dezerta= He Este Reyno de Bassora o gram Turco porem O Xa q' hoye o gouerna lhe esta aleuantado c Elle Vam a Elle pataxos de athe mil candis

porq' ho Rio he muyto fundo e todas as mais Embarcasois piquenas athe Terradas: Leuasse pera Bassora ho mesmo que para a Persia e o q' la Val mais he todo o genero de Drogas, e a Roupq e presioza porq' se trata todos muy custozos e o q' se tira he Muyta Tamara, Muyto Alyofar: e muyta Ruyua e toda a fazenda da Persia q' trazem aly os persas a vender aos portuguezes: Vem a Bassora grandes Cafillas de Alepo com mta. fazenda de Europa de q' se tras grande soma pera a Yndia=A Cafilla q' vay de Mascatr pera Bassora na leua mais ordinariamte. q' hum soo naui de Armada q' A gouerne porq' guarda nao tem nesesidade por nam passarem La os Enemigos de Ruropa; e na terra nao hos Auer mais q' Niquillas que nam sam de momento pera poderem fazer mal has Embarcasois dos portuguezes q' forem com Vigia=He tam grande a Escalla de Bassora q' si todas quantas Embarcasois forem darao Carga e acharao Venda porem Ora co pra com muyt ganho: como susede em couzas de Mercansia:-Sam hos Arabios De Bassora diferentes de todos os Outros da Arabia porq' sam muy Cor[ullentos, bracos, e fracos, e puzillanimes:-Tem ho Baza quatroçentos homes de sua guarda De Rspingardas, Achas, e Machadas; Tem dous Mil Agaas q' sam os seus parentes e senhores da terra: Em seis Çentos Vinte e Noue Vindo o Cam de Xiras sobre elle ayuntou quinze mil homes de Armas, porem os mais gente fraquissima E assy nam Acabou de tomar Bassora por Morrer o Xa: e a cauza porq' o nam tomara tam de Pressa he porq' Vindo ho Ezersito do Xa por terra ha de Bir [ella dezerta: e depois ao Longo do Rio por lhe nam faltar Agoa, e quando tornarse ho Turquo trouxer seu Campo ha de Alcansallo no Caminho: e por Mar vindo em Terradas quatro Nauios nossos o podem destroyr=Sam hos Arabios de Bassora muy dados ao Nefando com terem as Molheres mto. fermozas posto q' Algum tanto as desfea pera co nosco as Arrecadas e ganchos De prata e outo que trazem nas Narizes, e tambem algus persas sam tocados deste Visio. He a terra de Bassora fresquissima de todas as fruytas de Portugual: e com grande Copia de Vinhos, de Mais e milhores Vuas q' as do Reyno: Trasse de la mta. Marmellada pera a India: pellos Marmellos daly serem milhores q' hos da Persia: Estimao tanto a Algallia por ser o cheyro de q' mais vzao: as Molheres q' dam por hum gato de Algallia hum ginette;

Estam pello Rio asima de Bassora tres Ilhas huma dellas muyto granse de seis legoas de Comprimento e mais de Legoa e Meia de-Largura em Parageis Abitada de Biduis Arabios muyto fresca e chea de muyta diuersidade de aruores donde vem a mayor parte da fruyta a Bassora chamase Quidre: as outras duas sam piquenas huma dellas de hua legoa quazi, Alagadissima, e como he de Agoa dosse Viuem nella Moradores nos Altos: A outra esta a

Vista De Sete Larabo Ilha mais piquena porem fertellissima de tudo ho q' nella se semea de seuada e Arros, e chea de Pumares= A forma da pas q' tem ho Baxa de Bassora Com ho Estado he de toda a boa Amizade, e a guarda muy bem, tirado q' as vezes obrigados das semRezois q' nos lhe fizemos e forsados dellas nos fazem muytas Vezasois: Ayudamos a este Baxa de Bassora co nossa Armada ctra. ho persa: Mas he gente tam puzillanime e Cotada q' nenhuma satisfassa da de considerasa ao muyto q' por elles fazem os soldados e Capitais de sua Magde=A Alfandega de. Bassora he a mais fauorauel pera os portuguezes q' otura nenhuma nem nas suas mesmas terras, em tanto q' leua os Mercadores as fazendas pera sua Caza e La le va abrir os fardos; e depois quando se querem vir vao a alfandega e pagam, E alem do grande fauor naq baxado porq' se vender a fazenda Des conta aos Mercadores e lhe da huma pessa cogorme a contia do q'pagou ha Algandega=Temos em Bassora duas Igreiyas huma de Carmellitas, Outra de Agostinhos Exercitando os sacramentos co hos portuguezes e mercadores e passageyros de toda a nasa Christaos e co hos catiuos destes em q' fazem mto. seruico a D's pella acolheyta q' tem aquy depois de fogidos pera os Mouros como vam mtas. vezes donde forsados co alguma nesessidade torna pera nos achando nestes Padres tudo ho nesessario athe q' hos torna A Entregar a seus Donos: Esta aquy mtos. Armenios Christaos q' se sogryta a estea Padres Cuyas Molheres comungam Cada Domingo muytas della=Esta Vezinho a Este Reyno de Basora O Reyno de Bombareca Ja oye sogeito Ao Persa o qual posto q' ho Rey he Mouro os mais doz seus Vassallos sam Christaos de Sam Joao que seguem a Ley de Christo ho Bautismo o fazem pello Rio dizendo dizendol quando Lansa a Agoa sobre a Cabessa Eu te bautizo Assy Como Sam Joao Bautzou a Christo e nao tem Missa nem nas nossas terras a Ouuem: Viuem muytos em Bassora embayresl Apartado dizem q' querem Vir para ho Estado da India obedesser a Igreiya Romana sam muy soberbos com serem todos offissiais de Ouriues Carpentros. ferreyros e espadros. Sam As Molheres todas Castissimas mas particullarmente As Cazadas. O moso de cazarem he leuaremnos ao Rio despidos da sintura pera sima e pera bayzo quando muto A Molher co hum [ano branquo muy delgado e singello, e huntando os cachassos lhe dam com hum Cayadinho humas pancadinhas na cabessa co pallauras de seremonias e depois estam Ambos deuedidos hum do outro hum mes ao Cabo do qual trmpo os torna a leuar ao Rio Onde lhe dizem Outras pallauras sem se ajuntarem e depois se lhe consede o Ayuntamto. Carnal: Serao todos trinta mil: ho Rey de Bombareca folga mto. q; se lhe bao de seu Reyno porq' por serem tantos se teme delles e os despede tomandolhe As Armas= Esta gente escreueo e mandou seus embayxadores Ao Conde do Linhares Vi-

zorrey da India pera q'desse Ordem pera se poderem Vir pera este Estado a qual elle mandou logo a Mascatte e com ella Veo logo huma pouqua desta gente e parte delles ficara em hua das fortallezas do Estreyto q' ho Conde lhe Mandou dar pera elles a pouoarem e Viuerem nella: E a outra passou a India e o Conde os mandou a Çeylan e a outras partes do estado pera Verem as terras determinando de hos passar qua todos pera ter gente pera as gerras e Armadas porq' he boa gente de Armas: e sera de prestimo na India=De Bassora ha hum Brasso de Rio q' chama ho Rio de Catifa q' sem sayr ao Mar vay dar A esta Çidade q' esta situada ao Longo de hum Riacho q' no gundo he lamara e neste Lama te de pdra mea Legoa como Ilha: Ao Longo do Mar La fora de Ordinario Carregam e descarregam as Embarcasois grandes pera Vazias poderem ontrar pelo Riacho, e nelle ficarem em seco em sima da dita Lama a Ilha de fora tem hum forte Couza piquena q.se chama Tanora=Catifa esta na Arabia Feliz de fronte dos bayxos e Verde, q' esta ao Sul antes de Basora Mais de oyteta Legoas=He esta Escalla de Catifa medians de fazendas porq' dous Nauios q' Cam de portuguezes a enchem aonde he so mercador o Baxa e seus dous filhos per onde fica ho trato mutto Roim e na ha mercador q' compre duas voryas de [anos saluo estes, ou outros q' vem de fora q' sempre andam atemorizados e escondidos porq' em sabendo tem Alguma Couza Logo lha apanham o Baxa e seus filhos=

As fazendas q' se leuam sam Eou[as prettas do Sinde e de Camvaya poucas fazendas e poucas sortes dellas: As que se tira sam muytos e muy fermozos ginetes os Milhores de Todo Oriente q' nam passa o Milhor de duztas. Pataquas e daly para bayxo muytos athe sinqta. e sesenta pataquas: muyto e imnumerauel Alyofar grosso e meudo quazi todo o de Barem q' Aly passa em Rezam dos pescadores q' ho vam percar serem destas prayas: Esta he a sustansia Da fazenda q' Aly se vay buscarem q' se vay buscar em q' se trazem empregados mtos. Mil Crzados q' por se nao poderem leuar todos em fazenda pella terra a na guastar hos leuam em dinheyro de Pratta de Laris e Abessis de q' atras fallamos: Trasse taobe Tamara de q' ha na terra Abundansia mas nao tam boa como a de Bassora: fas-se tamber Congo q' he a Tamara tanto q' vomessa a picar de Vermelho a tirao e cozem no fogo em grandes Caldeyras de Agoa e depois a Lansa na praya a enxugar nos Areais athe q' fiqua muy dura: e dura mto. tempo desta sorte e se tras a India e se pode Leuar ao Cabo do Mundo he este Congo fe Catigga mais meudo, e mais duro, Vermelho e mais dosse q' ho de Mais duro=Ha grandes Cabildas de Arabios pella terra dentro q' he a dezerta onde viuem separados vom seus capitais=Ha huma fortalleza pella terra dentro a q' chama Lassa de donde saem os

prefeitos ginetes de q' se atras falla: O modo dos Casamtos. dos Naturais da terra a dentro he deste modo=qualquer homem q' tem filha e he Requerido per Algum mansebo solteyro q' lha de em Cazamto. por molher o pay sae co ella ao Campo Onde a [oem em hua tenda e sar o q' a Requere tambem ao Campo, e se poem em som de Batalha; e de ordinario tem Competidores q' lhe conteadizem ho tal Cazamto. Ou [ella quetere taobe ou por lhe acharem a elle defeytos E assy se desafiam e se poem em pees sobre Camellos Ligeyros e com seus Cayados nas maos traua battalha da qual sae bensedor o que mais forte, ou destro foy ou teue milhor gortuna esse leua a Noyua saluo ouuer outro q' lhe contradiga porq' ha de venser athe na ter contradissa E assy fica Onrrado e Rico porq' lhe ficao hos despoyos de todos q' venseo:-O Baxa de Catifa obedesse ao Turco porq' ho he de Nassam, Mas nao se fia delle, nem lhe vay pessoalmte. obedesser senao manda filho ou quem lhe paresse dar a obediensia.

ملحق (ى)

وصف جزر المالديف

British Museum, Sloane MS. 197, f. 377.

A Planta que se segue he das Ilhas de Maldiua Vay aquy como Outras Muytas q' nao sam do Estado. Escriuem Muytos Autores q' e huma Corda de Onze mil Ilhas Intitullase Rey dellas hum Dom Phellipe q' asiste em Goa Mas nellas Reyna Outro Gentio q' dizem se leuantou ha Muyto co ho Reyno em trmpo do Auo Ou Pay deste Dom Phellipe e goza o senhorio dellas sendo q' Ayda Vem ao dito Dom Fellipe alguma Couza posto q' Pouqua do Rendimto. de Algumas E a sua Instansia e pedimento foy de Portugal Ordem Ao Conde de Linhares sendo Vizorrey Da India pera q' Mandassehuma Armada has ditas Ilhas=E o dito Vizorrey Mandou Em Abril de 631: ho Capitam Mor da Armada do Canara

Domingos Ferreyra Belliago co hua Armada de quinze Navios o qual foy em demauda da prinsipal das Ilhas aonde o Rey Abita q' Esta leuantado co Ellas: Mas Elle foy auizado da yda da Armada e quando ella chegou estaua Muy bem forteficado: e hua so entrada q' ha pera a dita ylha estaua tapada co nauios cheos de pedras de forma q' era empossiuel entrar por ella e mto. mais ympossiuel entrar por outra nenhuma parte por ser Toda sercada de Rochedo e arresifes como da planta se pode Ver E o modo Em q' Estaua forteficada: e depois de a dita Armada esar Algus dias sobre ella jugando as bpmbardadas Vindo q' era ympossiuel podella entrar e q' era Tempo perdido Todo ho q' Aly gastasse se Volto para Goa Trazendo esta planta q' Eu lhe auia pedido me Trouzesse q' Pus aquy da mesma forma:

فهرس الجزء الثالث والرابع

الجزء الثالث

* الفصل الرابع

أفونسو دلبو كيرك يأذن لجنوده بنهب المدينة (كوا) وعن الصليب الذي وجد في بعض الأسوار القديمة التي كانو ا يأخذون منها احجار للحصن وعن المعجزة التي انجزها ربنا **our lord** لنا يوم المعركة . 69

* الفصل الخامس

كيف ارسل النيكوبار إلى أفونسو دلبوكيرك يطلبون منه حق المرور الآمن لياتو ا للعيش في جوا (كوا) ،وكيف هزمت قواتنا قوات مالك يحيى (مليكاي) قائد العادل خان . 75

* الفصل السادس

وصول ميرلاو إلى جوا ،وطلب النيكوبار من أفونسو دلبو كيرك أن يجعله حاكما عليهم وكيف أمر ديوجو فرناندزدي بيجا أن يدمر حصن سقطرى . 81

* الفصل السابع

عن السفراء الذين أرسلهم الزاموريم بعد سقوط جوا إلى أفونسو دلبو كيرك الكبير طالبين السلام وكيف أرسل أفونسو دلبوكيرك ،سيماو رانجل للتفاوض بهذا الشأن 85

الجزء الرابع

كشاف شامل

بالأعلام العربية والإسلامية

أشخاصاً ومدناً ودولاً... الخ

وبعض الأعلام الأجنبية المهمة

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ع

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

ي



هذا الكتاب

تستبق الأحداث أيامها ، ويموج بحر العرب بسفينه وينفر المحار من أيدي الغرباء رافضاً الرحيل لكيلا يهاجر اللؤلؤ دفء رمال العروبة واشراقة جيد الأحبة، وتشرق شمس (خورفكّان) الصامدة بأهلها رغم حرائق الغزاة وارتكاب الأعمال الوحشية التي أقدم عليها الطامعون في قطع أطراف المسلمين من كبار السنّ الذين لا يصلحون للعمل في أسطول وحشيتهم، وتصمد أسوار (عدن) حين تبدّد صراخ مدافع (أفونسو دلبوكيرك) فتتشظى عند بوابات الشهامة والإباء.

لعلَّ مياه الخليج - ذات حين - تومئ لأشرعة أسطول النائب الثاني لـ(البرتغال) أن تشق العباب جرياً على عادة الكُرماء فتدمي جراح القهر؛ ولكنها لا تلبث أن تلأم تلك القروح بصبر البطولة، وهي تنافح عن أقدس المقدسات التي شاء للقراصنة أن يجسروا عليها ولكن هيهات ما يحلمون به.

أجل... ربما استجابت لهم أطماعهم أن يغرفوا حفنةً من (بهار) بلد العجائب (الهند) إلا أنهم لم يجرأوا أن يمسّوا ولو ذرةً من صعيد بلد النبوة الطاهر، فتبدّدت آمال الطمع وتحطمت صواري الغزاة، ومات (أفونسو)، ولم ترض أرض الرسالات أن تواري رمّته فـ(جنزتها) إلى البرتغال في مركب مهجور، وظلَّ البحر عربياً بمائه وشواطئه.



منشورات المجمع الثقافي

Cultural Foundation Publications

ابوظبي - الإمارات العربية المتحدة - ص. ب ٢٣٨٠ - هاتف : ٢١٥٣٠٠

ABU DHABI - U . A . E . - P . O. BOX : 2380 - TEL. 215300 Cultural Foundation

Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae

http://WWW.Cultural.org.ae



